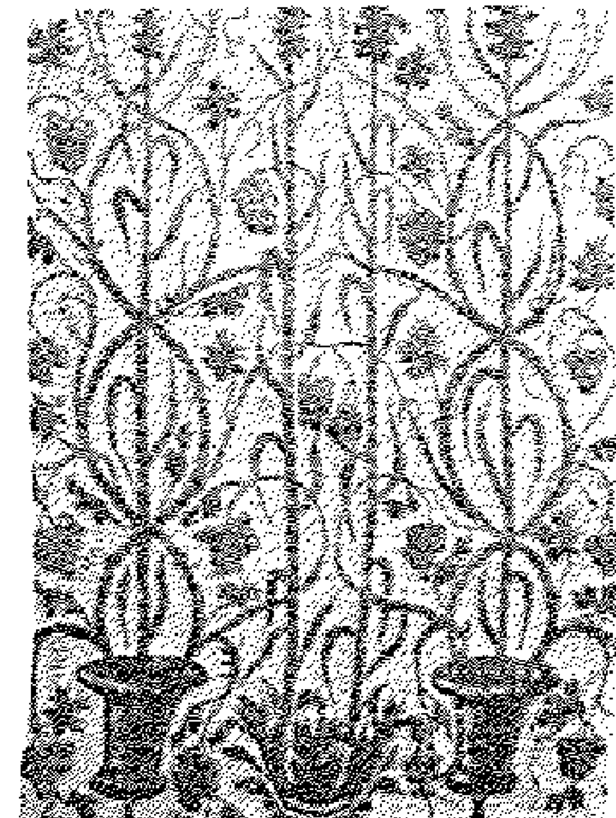

تاريخ العرب
والعالم

□ كانت دمشق زاهرة منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وفي عهد الآراميين، وهذا النحت من آثار ذلك العهد.

من كتاب: دمشق الشام. د. عفيف بهنسي



الغلاف الاول

□ تمثل هذه اللوحة زخرفاً من الزهور. فنلاحظ سيقاناً عمودية من الذرة البيضاء تخرج من بعض الاواني وبعض قيعان نبتة «الاكنثة» (Acanthe)، وهي محاطة بزخارف في شكل اغصان كروم محملة بثمارهلمتحف باردو.

من كتاب: الفسيفساء في تونس / دار سيراس للنشر — تونس.

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا ترد إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ١١١/١١٢ • كانون الثاني ـ شباط ١٩٨٨

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ   المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

الانتاج : مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٧٥٠ ل.ل.	سوريا	٣٥ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: ١٠ دولار
- في الوطن العربي للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ١٠٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان • بناية أبو هليل
شقة ١١ • شارع السادات ـ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 10. No. 111 / 112 • Jan-Feb 1988

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



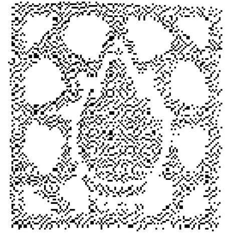


صبحي المحمصاني ودراساته في الفقه الإسلامي وتاريخ التشريع

د. رضوان السيد

I

يقول صبحي المحمصاني في تقديمه لكتاب[1] «فلسفة التشريع في الإسلام»، وهو كتابه الأول في مجال دراساته في الفقه الإسلامي: «إن غايتي الأولى من هذا الكتاب أن ابيّض ما استطعت من الدفائن الصفراء، وأن أظهر منها ما تمكنت. ثم أن أضع ما استخرجه أمام ما يقابله من الآراء الحديثة موضحاً أوجه الوفاق وأوجه الخلاف فيما بينها... وأرجو أن أتوصل بذلك إلى إيضاح وجهة النظر الإسلامية في التشريع للأجانب وللمثقفين بثقافتهم إيضاحاً حقيقياً. وأرجو أن أتوصل إلى إزالة ما تركه بعض الناس في الأذهان من آثار التشويش والتدجيل. وقد كان من هؤلاء طائفة من المستشرقين ومن نحا نحوهم من المتطفلين وأشباههم... وأرجو أن أتوصل أيضاً إلى تقريب الأسلوب القانوني الغربي إلى المطلعين على الشرع الإسلامي خصوصاً مجلة الأحكام العدلية...».



حدد المرحوم المحمصاني لنفسه إذاً أهدافاً أربعة هي غرض أعماله في مجال الفقه الإسلامي، وتاريخ التشريع: جلاء آراء واجتهادات وأصول الفقهاء والأصوليين المسلمين القدامى بلغة حديثة، وترتيب حديث، والمقارنة بين توجهات الفقهاء وأصولهم من جهة، والمدارس الفقهية الغربية وبخاصة الفرنسية والإنكليزية من جهة ثانية، وتقريب وجهات نظر الفقهاء المسلمين إلى المتثقفين بالثقافة الحديثة من العرب والأجانب، وأخيراً مجادلة المستشرقين والمتأثرين بهم فيما جنوه على الفقه الإسلامي من سوء عرض، وسوء فهم وإفهام. والواقع أنه لم يتتبع في مؤلفاته اللاحقة بل ولا في «فلسفة التشريع» هدفه الجدلي المعلن إذ لم يتعدّ الأمر حديثاً عارضاً عن إمكانية العلاقة بين الفقه الإسلامي والقانون الروماني، وهو موضوع محبب لدى قدامى المستشرقين. ثم الحديث في حواش قليلة عن سلبيات آراء بعض المستشرقين والمتأثرين بهم من زملائه اللبنانيين[3]. وفيما عدا ذلك فإنّ المحمصاني تابع هذه النزعة المدرسية الأولى التي ظهرت في «فلسفة التشريع» في كتابه الضخم الثاني في مجال دراسات التشريع الإسلامي، وهو المعنون باسم[4]: «النظرية العامة للموجبات والعقود في الشريعة الإسلامية، بحث مقارن في المذاهب المختلفة والقوانين الحديثة». ثم غلبت عليه النزعة المقارنة مع عدم التخلي عن المدرسية الدقيقة والملتزمة بالنص في كتبه في المرحلة الثانية: مقدمة في إحياء علوم الشريعة (١٩٦٢)، والقانون والعلاقات الدولية في الإسلام (١٩٧٢)، وأركان حقوق الإنسان، بحث مقارن في الشريعة الإسلامية والقوانين الحديثة (١٩٧٩). وتأتي المرحلة الثالثة من مراحل عمله في مجال دراسات التشريع فتتميز بنزعتين غلّابتين: نزعة نظرية فكرية مفلسفة بدت في كتابه المهم: الدعائم الخلقية للقوانين الشرعية (١٩٧٣)، ونزعة تأريخية تأسيسية ظهرت في كتبه الأخرى في سنوات عمله الأخيرة دون أن تغيّب النزعة الفلسفية تماماً، وهي: الأوزاعي (١٩٧٨)، والمجاهدون في الحق (١٩٧٩)، والمجتهدون في القضاء (١٩٨٠)، وتراث الخلفاء الراشدين في الفقه والقضاء (١٩٨٤). وهكذا فإنه فيما عدا الهدف الجدلي الذي لم يتابعه الدكتور المحمصاني رغم إعلانه ذلك في مقدمة الكتاب الأول، بقي الرجل أميناً للهدفين الأساسيين الآخرين: استكشاف تاريخ التشريع الإسلامي، وأصول التفكير الفقهي عند المسلمين. وتقديمه للمعاصرين من المسلمين والأجانب محدَّثاً عن طريق المقارنة بالقوانين الأوروبية، وبتنظيم حديث يتأثر «مجلة الأحكام العدلية»[5] لكنه يتجاوزها عندما يرى ذلك ضرورياً.

II

أما تقسيم أعماله في مجال دراسات الفقه الإسلامي إلى ثلاث مراحل فيقوم على ملاحظة تطور تقنيات البحث لديه، وتطور موضوعات الدراسة. فالملاحظ في كتابيه الأولين فلسفة التشريع، والموجبات والعقود رجوعه لكتب معينة

من مصادر كل مذهب من المذاهب السنية الأربعة، مع بعض الدراسات الغربية الحديثة، وبحوث الأساتذة المصريين في الموضوعات التي يدرسها. ويتزايد عدد المصادر الفقهية القديمة في دراسات المرحلتين الثانية والثالثة حتى يبلغ في المجتهدون في القضاء، وتراث الخلفاء الراشدين المئات، ولا يعود الأمر مقصوراً على المصادر الفقهية بل تستخدم كتب السنة النبوية، وكتب التاريخ. أما المراجع والدراسات الحديثة فتستخدم بكثرة نسبياً في المرحلة الثانية من أجل المقارنة التي غلبت على مؤلفاته فيها. ثم لا تستخدم على الإطلاق تقريباً في المرحلة الثالثة رغم أن هناك مسوغات منهجية لذلك. فالمعروف أنه في هذه المرحلة درس نشوء الفقه الإسلامي في الحقبة السابقة على الشافعي (٢٠٤ هـ) أي انه تناول آراء الصحابة والتابعين وتابعهم في المسائل الفقهية بين وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ومنتصف القرن الثاني الهجري. ومرحلة النشوء هذه بالغة الغموض والتعقيد ليس في مجال الفقه وتاريخه فقط، بل في سائر مجالات العلوم الإسلامية الأخرى. وفي مجال الفقه بالذات هناك دراسات قليلة عن هذه المرحلة أهمها دراسات جوزف شاخت، ومحمد أبو زهرة، ومحمد يوسف موسى، ومحمد البلقاجي، ومحمد علي السايس. وليس هناك تفسير لتجاهل الأستاذ المحمصاني لهذه البحوث إلّا تمكنه المنقطع النظير في معرفة المصادر، ورجوعه إليها مباشرة بحيث رأى أنه في غنى عن العودة إلى بحوث المحدثين التي لم تستند إلى هذه الكثرة الكاثرة من المصادر كما استند هو. ومع ذلك فالملاحظ أن عدة كتب فقهية مهمة رافقت الأستاذ المحمصاني في سائر مراحل بحثه السالفة الذكر وهي: الاعتصام والموافقات للشاطبي المالكي، وإعلام الموقعين والطرق الحكمية لابن القيم الجوزية الحنبلي، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني الحنفي. فالتطور في استعمال المصادر والمراجع في أعمال المحمصاني كان تطوراً في التركيز على المصادر دون الدراسات الحديثة، وفي الإكثار من استخدام كل المصادر المتاحة مع وجود عدة مصادر كانت عمدته، وكان يرجع إليها دائماً. أما بطريقة الدراسة فإنّ المحمصاني بدأ في نطاقها مدرسياً متشدداً لا يكاد يفارق النَّص شأن علماء القانون ذوي الصلة المباشرة بالقضاء. وقد نوّه بذلك في مقدّمة كتابيه الأولين. لقد قال إنه يعتمد المراجع الصحيحة الموثوق بها... وإنه يعرض ما توصلت إليه مصادر دون أن يذهب مذهباً معيناً أو حتى دون أن يفاضل بين رأي وآخر[٦]. ولم يكن الأستاذ المحمصاني وقتها على صلة بالقضاء فقط فيما يبدو، بل كان أيضاً استاذاً جامعياً يهمه أن يعرض على تلامذته معلومات موثوقة ومنخولة بطريقة مفهومة، فلعل هذا يعلّل بعض الشيء اعراضه عن الاستنتاجات البعيدة المهوى، والاجتهادات التي قد لا تؤيدها النصوص بطريقة مباشرة. على أنه بدأ بداية طيبة عندما كتب أول ما كتب في أصول الفقه تحت اسم «فلسفة التشريع»، وفي هذا الكتاب بالذات فصل في الاجتهاد وشروطه، وفصل آخر في القواعد الكلية مفيد جداً في الاستنباط. على ان المدرسية في التأليف، والتركيب، ليست أمراً سلبياً ما دام المَعْنيُّ بها عرض الأمر استناداً لنصوصه الأصلية، وبالطريقة التي فهمها عليه علماؤه الموثوقون. وقد بدت إيجابيات هذه الطريقة في التأليف في المرحلة الثانية من مراحل عمل المحمصاني في مجال الفقه المقارن. في هذه المرحلة وضعت كتابيه في العلاقات الدولية، وحقوق الإنسان، وكتابه الثالث في إحياء علوم الشريعة. ويذكرنا عنوان الكتاب الثالث بكتاب الإمام الغزالي (ـ ٥٠٥هـ) إحياء علوم الدين، وهو ما قصده المؤلف إشارة إلى ضروريات الاجتهاد والتجديد والقيام في مجال التشريع الإسلامي بما قام به الغزالي في مجال فلسفة الحياة الإسلامية والعقيدة الإسلامية. وتعدى الأمر العنوان الموصي أو المحرض إلى مضامين الكتاب نفسه فكانت محاضراته الأربعة الأولى التي ألقاها بتونس في الاجتهاد الفقهي واختلاف الفقهاء وتطور الأحكام الشرعية أو تغير الأحكام بتغير الزمان[٧]. والحق ان المقارنات التي عقدها المحمصاني في كتابيه الآخرين اقتضته حركية ما كان يمكن معها ألا تجاوز حرفية النص إلى مقتضاه أو إشاراته أو دلالاته الأخرى المعروفة عند الأصوليين، والتي سبق له أن شرحها في

أركان حقوق الإنسان

بحث

في الشريعة الإسلا...

المحامي الدكتور...

دار العلم...

المبادئ الشرعية والقانونية

في الحجر والنفقات والمواريث والوصية

تأليف

المحامي صبحي محمصاني

دكتور في الحقوق (ليون) بـ ج (لندن)
استاذ في كلية الحقوق وفي الجامعة الاميركية في بيروت
رئيس شرف في محكمة الاستئناف اللبنانية
عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

الطبعة الثالثة
مزيدة ومنقحة

دار العلم للملايين

كتابه الأول في فلسفة التشريع، وفي كتابه الثاني في «النظرية العامة للموجبات والعقود». بيد أن عاملاً آخر غير المدرسية وغير الجدلية ظهر في مؤلفاته في المرحلة الوسطى من مراحل تأليفه فحال دون المضي في الاستنتاج المجدد والمكتشف إلى نهاياته، انه عامل التدين والورع لدى المؤلف. فالرجل مقتنع تماماً بأن وثيقة أو إعلان حقوق الإنسان الذي أعلن في الأمم المتحدة، والمبادىء والأعراف التي استقرت عليها العلاقات بين الأمم في أحوال السلم والحرب كما بدت في ميثاق الأمم المتحدة أيضاً، كل ذلك ذروة من ذرى ما بلغته إنسانية الإنسان وأخلاقياته الحضارية الحقيقة بالاتباع. ان ما يؤخذ على الغربيين (وقد ذكر منهم المحمصاني الرئيس الأميركي السابق كارتر)[٨] هو الخلف بين القول أو الإعلانات المبدئية والعمل أو التصرف. أما المبادىء أو المواثيق نفسها فهي منجزات إنسانية رائعة. لذا فإن المقارنة بين المبادىء والتوجهات الإسلامية في مجالي حقوق الإنسان، والعلاقات الدولية، ينبغي أن تظهر المماثلة التي سبق إليها الإسلام بأكثر من ألف عام، بل والتفوق في بعض النواحي على المواثيق والإعلانات الحالية. ولذلك جرى أحياناً إهمال علاقة المبدأ أو الآية أو القاعدة الشرعية بالتصرفات أو التطبيقات في التاريخ الإسلامي، كما جرى أحياناً أخرى تأويل معنى الحرب والقتال والجهاد فقيل إنها استثناء وإنها دفاعية بظنّ الدفاع عن الإسلام أو عن حضاريته وسلميته[٩]، وهذا على الرغم من أن سلم القيم في وقت فعالية مبادىء الحرب والسلم الإسلامية غيره الآن، بل غير ذلك السلّم الذي استندت إليه إعلانات ومواثيق الأمم المتحدة. لكنّ هذا النهج الورع والدفاعي لم يبتدعه الدكتور المحمصاني بل هو معروف منذ أيام جمال الدين ومحمد عبده. واختلاف العصر وطرائق التطبيق، وسلم القيم، كل ذلك لا ينفي على أية حال مشروعية المقارنة.

وتتميز المرحلة الثالثة من مراحل عمل الدكتور المحمصاني في مجال الفقه الإسلامي بغلبة النظرية والتأريخية عليها ففي بدايات هذه المرحلة يظهر كتابه «الدعائم الخلقية للقوانين الشرعية» الذي يظهر الإسلام كنهج حياة أو فلسفة حياة ليس مقصد التشريع فيها التجريم والعقوبة، بل الشمول الاجتماعي الأخلاقي الذي لا تحتل العقوبات فيه غير حيّز ضئيل، تجعل تطبيقها في أكثر الحالات متعذراً. أما الكتب الأخيرة فتعرض منجزات المشترعين الأوائل، وطرائقهم في حل المشكلات الطارئة، وذلك في عصور الصحابة والتابعين وتابعيهم وهي حقبة تمتد بين ٦٥٠م. و ٨٠٠م. على وجه التقريب. في هذه المرحلة يحس القارىء بتمكن الدكتور المحمصاني من موضوعه، وغياب المدرسية الحرفية والحوائل الشخصية الحائلة دون قود الأمور إلى نهاياتها. فقد قال في أحد المواطن ان معرفة الحقيقة هي مقتضى الإسلام[١٠]. وكما سبق أن قلت فإن هذه الحقب الأولى شديدة الغموض والتعقيد ويظهر في ذروتها الشافعي مكتملاً بشكل مفاجىء. والحق ان كتب الدكتور المحمصاني، وكتاب الدكتور محمد البلناجي عن المصطلح الفقهي في القرن الثاني الهجري جعلت تتبع نشوء الفقه الإسلامي خلال حقبته الأولى، وللمرة الأولى، ممكناً. فما كانت بحوث شاخت المستندة إلى الشافعي في الأساس، كافية في هذا المجال، وهذا فضلاً على المشكلات المنهجية التي أحاطت بها بسبب قصوره في فهم دور السنة، وعلاقتها بالتقاليد الفقهية المحلية[١١].

III

أما من الناحية المنهجية فإن الدكتور المحمصاني اهتم في «الدعائم الخلقية» بعرض النظم الأخلاقية الشاملة استناداً إلى كُتّاب الأخلاقيات المسلمين وبخاصة ابن حزم ومسكويه والماوردي. لكنه لم يهتم بقراءة هذه المنظومات في سياقات نشوئها، وعناصرها وأمشاجها. فهناك عناصر أرسطية وأفلاطونية كثيرة خالطت هذه النظم وحالت دون فعاليتها في الواقع في كثير من الأحيان. أما هم المحمصاني فكان في هذا المجال تركيب النظم الأخلاقية المناظر أو المؤسس للقوانين الشرعية دونما تحليل منسق للعلاقات العضوية — إن كانت — بين المنظومتين الأخلاقية والفقهية ولو انه فعل ذلك خارج

القواعد الشرعية الكلية لتبين له ان المسألة تحكمها جدليات لها علاقات بدواخل كل من المنظومتين. وبدت آراء الصحابة والتابعين وتابعيهم اجتهادات قانونية «بحتة» ليس لها سياق اجتماعي أو أخلاقي أو تاريخي بحيث لا نعرف خصوصيتها التاريخية أحياناً إلا من معرفة اسم المنسوبة إليه من الصحابة أو التابعين أو تابعيهم[١٢]. وأرى ان لذلك سببين. **أولهما** طبيعة المصادر المتاحة للآراء الفقهية لهؤلاء وهي لا تفصّل ولا تعلّل ولا تذكر السياقات بل تكتفي بإيراد الفتوى أو القضاء مجردين. ثم نهج الأستاذ المحمصاني القائم على عرض السابقات القانونية فقهاً وقضاء وفتوى إيضاحاً للتطور القانوني اللاحق عن طريق المماثلة والمقاربة والمقارنة. أما كتابه عن الأوزاعي فقد كان له بالإضافة لذلك أهداف ثلاثة أخرى: هدف وطني تمثل في دفاع الأوزاعي عن أهل الذمة بجبل لبنان، وبلاد الشام بشكل عام. وهدف إنساني تمثل في رعاية الأوزاعي لحقوق الإنسان في ظروف الحرب من خلال فتاويه وما بقي من سيره. وهدف دفاعي جدلي فقد قال مستشرقون قدامى بغير ما دليل أن فقه الأوزاعي متأثر بالقانون الروماني، وقد أثبت الأستاذ المحمصاني دونما كثير جدل أنه لا علاقة بين المنظومتين.

IV

قال الدكتور المحمصاني في مقدمة كتابه[١٣]: «النظرية العامة للموجبات والعقود في الشريعة الإسلامية» إنّ الغاية من وضع الكتاب «استخلاص النظرية العامة للالتزام في الشريعة الإسلامية، ومقارنتها بالنظرية العامة المعروفة في القوانين المدنية العصرية». وهو يرى تبايناً بين النظرية الإسلامية في الالتزام ونظيرتها الغربية لقيام الأخيرة على «القانون الروماني»، لكن لأن الموضوع واحد فإن المقارنة ممكنة، وهذا فضلاً عن ان الاختلاف لا يصل إلى حد التناقض التام. ولأننا نريد هنا أن نعرض لبعض نواحي الأصالة والتأصيل في فكر الأستاذ المحمصاني الفقهي فإننا قد رأينا من استعراض مؤلفاته الفقهية كلها أن أصالته لا تكمن في المقارنة بين الفقهين فقد فعل ذلك مصريون وسوريون وعراقيون من قبل ومن بعد وفي نظرية العقد بالذات، كما في مسائل حقوق الإنسان والقانون الدولي. إن أصالته تكمن في المرحلة المدرسية من فكره في النزعة البنائية التي تميل إلى الفهم الشامل عن طريق المنظومات القانونية أو النظم القانونية المكتملة. والحق ان هذه النزعة رافقته طوال مراحل تأليفه كلها إذ كان يحاول دائماً رد الخاص إلى العام، والتفصيل إلى المبدأ، والتطبيق الجزئي إلى القاعدة الكلية. ففي مجال تعريف المال والمالية يلتزم المحمصاني بما ورد في «مجلة الأحكام العدلية» لكنه يعيد تنظيم المواد، ويؤلف بينها وبين بعض ما ورد في «مدونة جستنيان» فتبدو في صورة منظومة شاملة[١٤] يصح الاحتكام إليها حتى من جانب القضاة اليوم. وما قيل هنا عن موضوع المال والمالية يمكن قوله عن أشكال العقود، ومواضيعها وأسبابها، وأهلية المتعاقدين ومسائل الموجبات. ويبدو موضوع أصول الفقه أو كما سماه الأستاذ المحمصاني: فلسفة التشريع، مناسباً أكثر للتنظيم والتقعيد والتعميم. وقد تجاوز عمله في هذا المجال التنظيم والترتيب إلى إطلاق مصطلحات جديدة، وتعميمات جديدة مستفيداً من ثقافته القانونية الواسعة، وقدرته على المقارنة بين النظم القانونية المختلفة. ففي الباب الثالث من «فلسفة التشريع» تحدث المحمصاني عن «مصادر التشريع الإسلامية» بدلاً من «الأدلة الشرعية» دون أن يتخلى عن المصطلح القديم. ثم عدد الأدلة الشرعية الكلاسيكية مطلقاً عليها تسمية «مصادر التشريع الإسلامي» ليتحدث بعد ذلك عن «مصادر التشريع الخارجية» فيقعد لها رغم الاختلاف فيها وهي: تغير الأحكام، والحيل الشرعية، والتشريع الوضعي المباشر، والعرض والعادة، والشريعة الإسلامية والقانون الروماني. وأخيراً يأتي الباب الخامس[١٥] وهو حديث في «القواعد الكلية» موضوع الدكتور المحمصاني المحبب وهو يتناول فيه ثلاثة قواعد كلية فقط على سبيل التجربة: حكم الضرورة والحاجة (ويتضمن القواعد الفقهية الفرعية التالية: المشقة تجلب التيسير، والضرورات تبيح المحظورات وتقييداتها)، والقصد في الأفعال

(وتتضمن: الأمور بمقاصدها وتقييداتها ووجودها من مثل النية والظاهر، والحقيقة والمجاز، والتصريح والدلالة والمطلق والمقيد، وارتباط الكلام)، ومبادىء البينات (وتتضمن حديثاً طويلاً في مدلولات البينة وأقسامها). ولأن الكتاب بمجمله في المبادىء العامة للتشريع، وأدلته، وقواعده الكلية، فبالوسع أن نرى رجوعاً إليه في كل كتب الدكتور المحمصاني اللاحقة. وقد صار مقرراً جامعياً في لبنان وعدة بلدان عربية وإسلامية ولذلك طبع عدة طبعات كأكثر كتب الدكتور المحمصاني.

والمسألة الثانية التي تبدو أصيلة ومسيطرة في فكر الدكتور المحمصاني الفقهي الاقتناع بعقلانية الإنسان، وتطور هذه العقلانية في نطاق البشرية بشكل عام، بحيث تبدو القوانين والشرائع والأعراف والاجتهادات القانونية متقاربة أو متواصلة أو يمكن التوفيق بينها، إذ ترمي جميعاً إلى حفظ سلام الإنسان وسلامته في السياقين الفردي والاجتماعي. لذا فإن نزعة المقارنة التي بدت بوضوح في مؤلفاته في مرحلتها الثانية ترمي في العمق لا إلى إثبات مشاركة الفقه الإسلامي في القضايا الأساسية بحلول عملية فقط، بل إلى إبراز تواصل التجربة الإنسانية في النطاق القانوني أيضاً. ويبدو ذلك في عرض المحمصاني لمسائل حريات الشعوب، والحرية الشخصية الفردية، وحرية الفكر والعقيدة، وحرية الرأي والتعبير، وحرية الاجتماع ومشتقاته، وقضايا الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والمساواة أمام القانون[١٦]. ففي كل هذه الأمور وتفصيلاتها يورد المحمصاني نصوصاً من مواثيق الأمم المتحدة، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ثم يورد آيات وأحاديث وقواعد فقهية، ويذكر بدهيات الفقهاء الخمس التي ذكرها أول مرة في فلسفة التشريع تحت عنوان: الأهداف العامة للتشريع، وهي حق النفس (= الحياة) وحق الدين، وحق العقل، وحق العرض، وحق المال، ويفعل المحمصاني الشيء نفسه في مجال القانون الدولي إذ يورد في كل مسألة من مسائل السلم والحرب والدبلوماسية القوانين والأعراف الدولية، ثم يثني بذكر أقوال الفقهاء المسلمين، وممارسات خلفائهم وأمرائهم، فتبدو التجربة الإنسانية متصلة متسعة في كراهية الحرب، وإيثار السلم، والاتجاه الغلاب لرعاية إنسانية الإنسان في ظروف القتال والعدوان. وطبيعي أن يحس المحمصاني بالاعتزاز لتقدم الفقه الإسلامي واستبقائه في مجال رعاية حقوق الإنسان في السلم والحرب، لكن ذلك لا يخفي حقيقة أن التجربة الغربية وصلت من خلال وثيقة حقوق الإنسان إلى ما وصل إليه الإسلام في نظر المحمصاني، ويلقي هذا ضوءاً على وحدة التجربة الإنسانية حتى في جانب أعرافها القانونية، وهو ما يؤكده الدكتور المحمصاني في مؤلفاته المقارنة كلها[١٧]. ومعلوم أن المسلمين يعتبرون القرآن والسنة وهما وحي من الوحي المصدرين الأساسيين في التشريع، بينما القانون الروماني والقانون المدني الغربي لا يدعيان لنفسيهما العصمة أو الصدور عن الوحي، على ذلك يجيب الدكتور المحمصاني أنه يدرس الاجتهادات الفقهية الإسلامية، انه يدرس الفقه وليس الشريعة، يدرس الاستنباطات الفقهية ويقارن بينها وبين القوانين الغربية، ولا يقارن بين الوحي ومنتجات الرومان والغرب القانونية. ولأن الاجتهادات التشريعية الفقهية الإسلامية جهد إنساني مثل الجهد الغربي في المجالات نفسها، فإن المقارنة سائغة ولا غبار عليها.

وهناك مسألة ثالثة أصلية في فكر الأستاذ المحمصاني وعمله الفقهي انها الاقتناع بصلاحية التشريع الإسلامي لكل زمان ومكان. وهو لا ينطلق في ذلك من أن الشريعة موحاة في الأصل، بل من التراث الفقهي الغني، وإمكان التجديد والاجتهاد استناداً للقواعد العامة الكلية، ومشروعية الاجتهاد والتغيير من الداخل. وقد قام في مؤلفاته الأولى بأعمال تنظيمية تعتبر تجديداً في حد ذاتها من هذه الناحية. ثم تجاوز ذلك إلى الاجتهاد والتجديد وإبراز صلاحية التشريع الإسلامي المفهوم في ضوء قواعده الكلية وقوانين العصر، للتطبيق في الزمن الحاضر في مؤلفات المرحلتين الثانية والثالثة. يقول الأستاذ المحمصاني في[١٨]: «مقدمة في إحياء علوم الشريعة» انه سيستعمل مفرد «التدوين» بمعنى «صياغة الأحكام الشرعية في عبارات

النظرية العامة

للموجبات والعقود

إلزامية تتبناها الدولة لأجل تنفيذها والعمل بموجبها». وهو يعني بذلك ما عناه آخرون بمفرد التقنين أي تنظيم أحكام الفقه الإسلامي في صورة أبواب ومواد تفصيلية تصلح لتطبيق القضاء على نحو ما جرى في «مجلة الأحكام العدلية». وهناك محاولات حديثة كثيرة في المجال نفسه، بل وفي مجال وضع دساتير استناداً إلى أحكام الفقه الإسلامي. وقد عرض الأستاذ المحمصاني لقضايا تقنين الفقه الإسلامي أو تدوينه كما سماه في «إحياء الشريعة» هذا، وفي بعض فصول كتابه: «الأوضاع التشريعية في الدول العربية»[١٩] وقد اعتبر المحمصاني أعماله الفقهية صيغة جديدة من صيغ تدوين الفقه أو تقنينه ليكون استعماله وتطبيقه ممكناً أو سهلاً فليس كل قاض أو مشترع أو صاحب قرار مهما بلغت ثقافته، وحسن نيته، بقادر على العودة للمصادر الفقهية من أجل استنطاقها وتنظيمها وتدوينها. فحتى «مجلة الأحكام العدلية» التي وضعها ونسقها فقهاء كبار لم تتم بتقنين نظرية الالتزام، وهو ما فعله الدكتور المحمصاني في كتابه الضخم في الموضوع. وقد نافس المصريين الذين أكثروا من وضع الكتب في أحكام الأحوال الشخصية فوضع كتاباً مقنناً بعنوان: «المبادىء الشرعية والقانونية في الحجر والنفقات والمواريث والوصية»[٢٠]. وإذا كان الطابع المدرسي بارزاً في مؤلفاته المبكرة، فإن البارز أيضاً عقلية القاضي الذي يهمه التطبيق أو وجود النص الجاهز الذي يمكن الرجوع إليه فحتى الكتب المقارنة مثل أركان حقوق الإنسان والعلاقات الدولية، تتضمن تدويناً أو تقنيناً للمسائل والقضايا بشكل تصلح معه للاستعمال أو التطبيق أو الاستشهاد الفوري. إن البارز في هذا كله ليس تحديث المادة أو عصرنتها بل وضعها في صيغة قانونية أو مادة قانونية إلى جانب إحدى مواد القانون المدني أو الروماني إبرازاً لوحدة التجربة الإنسانية من جهة، وصلاحية الفقه الإسلامي للتطبيق في الحاضر من جهة ثانية، وفي سائر نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدولية. بل ان كتبه الأخيرة في فقه الصحابة والتابعين وتابعيهم وأقضيتهم معروضة في صورة تمكن من تحويلها إلى مواد قانونية، وربما كان هذا سبباً من أسباب غياب السياق التاريخي في قراءتها وفهمها إذ أراد المؤلف أن يعرضها صالحة للتطبيق دونما فزلكة في عللها وسياقاتها.

* * *

يقول الدكتور المحمصاني في خاتمة كتابه عن الأوزاعي[٢١]:

«... هذا الإمام اللبناني العربي بمولده وموطنه، ومثواه الأخير واللبناني الأصيل بروحه وبتوكيده على الوحدة الوطنية، كان أيضاً رجلاً إنسانياً غلبت إنسانيته سائر صفاته على الإطلاق فظهر ذلك في تعاليمه السامية. كما ظهر في وقفاته الخالدة في سبيل الدفاع عن الحق ونصرة المظلومين، من دون تمييز بين العناصر والأديان...». فليس الأستاذ المحمصاني بدعاً بين المسلمين بلبنان الذين اشتووا بنيران الحرب الأهلية فازدادوا تمسكاً بوطنهم، وراحوا يلتمسون له تاريخاً للاستقرار والاستمرار، وحسن العلاقة بين الطوائف والأديان، والأوزاعي بموقفه المعروف مع أهل الذمة بلبنان ممن لم يثوروا على الدولة، أي لم ينقضوا عهد الذمة

مناسب للذكر مثلاً للإيمان المطلق بالعدالة، وللتضامن بين فئات المواطنين وان اختلفت أديانهم وأعراقهم. فالمسلمون وشيخهم الأوزاعي في أساس لبنان تماماً مثل المسيحيين الذين يدعون أحيانا الانفراد بتأسيس الكيان. لذلك يورد المحمصاني أقوالاً لمسيحيين لبنانيين تعتبر الأوزاعي بطلاً من أبطال لبنان ووحدته الوطنية(٢٢). وقد لا تبدو هذه السطور خاتمة مناسبة لعمل الأستاذ المحمصاني الكبير في مجال الفقه الإسلامي، لكن الحرب الأهلية التي ألجأت الفقيد الكبير، والباحث الهادىء للبحث عن السلام والوحدة في رحاب الأوزاعي البعيدة في الماضي السحيق، ما تزال مستعرة الأوار بعد عام على وفاته رحمه الله، وبعد عشرة أعوام على صدور كتابه عن الأوزاعي فإن لم تكن خاتمة مناسبة كلمات المحمصاني عن الأوزاعي والوحدة الوطنية، فإنها على الأقل تذكير باليأس والأسى والضياع الذي أصابنا جميعاً رغم مساعي الأوزاعي ومساعي آخرين كثيرين ما كانوا يصدقون وهم يكدون ويعملون ويناضلون ان ما صنعته أيديهم ستحوله الفتنة إلى هباء منثور، وذلك من قاعدة «لا ضرر ولا ضرار» في «فلسفة التشريع» لفقيدنا مروراً بنظرية الالتزام وحقوق الإنسان، والعلاقات الدولية، وانتهاءً بوحدة الأوزاعي الوطنية، ومبادئه الإنسانية.

رحم الله الفقيد الكبير وعوضنا عنه من تلامذته وقرائه من يتابع دراساته وبحوثه فقد فقدنا نحن المسلمين خلال عام ونيف اعلامنا الثلاثة بلبنان في مجال الدراسات الإسلامية: عمر فروخ، وصبحي المحمصاني، وصبحي الصالح.

الهوامش

(١) صبحي المحمصاني: فلسفة التشريع الإسلامي (الطبعة الخامسة ١٩٨٠ ــ دار العلم للملايين بيروت)، ص ٩ من مقدمة الطبعة الأولى الصادرة عام ١٩٤٦.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٢ ــ ٢٨٨.
(٣) صبحي المحمصاني: الدعائم الخلقية للقوانين الشرعية (دار العلم للملايين ــ الطبعة الثالثة ١٩٧٩) ص ١٠٨ ــ ١٠٩، ٣٩١ (اميل تيان).
(٤) صبحي المحمصاني: النظرية العامة للموجبات والعقود في الشريعة الإسلامية (دار العلم للملايين ــ الطبعة الثانية ١٩٧٢).
(٥) تحدث الدكتور المحمصاني عن مجلة الأحكام العدلية بالتفصيل في كتابه: مقدمة في إحياء علوم الشريعة (بيروت ١٩٦٢)، ص. ص ١١٧ ــ ١٤٥.
(٦) فلسفة التشريع، ص ٩.
(٧) مقدمة في إحياء علوم الشريعة، ص ٩ ــ ٩٤.
(٨) صبحي المحمصاني: أركان حقوق الإنسان (دار العلم للملايين ١٩٧٩)، ص ٧٤ ــ ٧٥.
(٩) صبحي المحمصاني: القانون والعلاقات الدولية في الإسلام (دار العلم للملايين ١٩٨٢)، ص ٧٥ أو ما بعدها.
(١٠) الدعائم الخلقية، ص ٢٤٢ وما بعدها.
(١١) قارن بنقد لشاخت وبحوثه في عجيل جاسم النشمي: المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي (الكويت ١٩٨٤).
(١٢) المعني كتبه: المجاهدون في الحق، والمجتهدون في القضاء، والأوزاعي وتراث الخلفاء الراشدين.
(١٣) النظرية العامة، ص ٥.
(١٤) النظرية العامة، ص ٨ ــ ١١.
(١٥) فلسفة التشريع، ص ٥١ وما بعدها، ٢١٧ وما بعدها، ٢٨٩ وما بعدها.
(١٦) في كتابه: أركان حقوق الإنسان.
(١٧) في كتابه القانون والعلاقات الدولية في الإسلام.
(١٨) مقدمة، ص ٩٥ وما بعدها.
(١٩) صبحي المحمصاني: الأوضاع التشريعية في الدول العربية (بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٢).
(٢٠) بيروت، الطبعة الثانية ١٩٥٩. وقد صدرت طبعته الأولى عام ١٩٥٤.
(٢١) صبحي المحمصاني: الأوزاعي وتعاليمه الإنسانية والقانونية (دار العلم للملايين ١٩٧٨).
(٢٢) الأوزاعي، ص ٤٣١ ــ ٤٣٢.

موطنها لبنان

أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجوية اللبنانية

جذورها راسخة في الشرق الأوسط

وأغصانها ممتدة في أرجاء الدنيا



نيويورك

لندن   باريس

كوبنهاغن   فرانكفورت

بروكسل   جنيف

مدريد   زوريخ

تونس   نيس

مونروفيا   ميلانو

ابيدجان   روما

لاغوس   اثينا

كانو   اسطنبول

بيروت

القاهرة   مسقط

لرنكا   رأس الخيمة

انقرة   أبوظبي

عمان   دبي

بغداد   الدوحة

جدة   البحرين

الخرطوم   الظهران

عدن   الكويت



□ كابيتول دوغا ـــ Dougga
احدى أجمل الآثار الرومانية
في شمالي افريقيا ١٦٦م.

العالم العربي وشمال أفريقيا في العصر اليوناني

من الإسكندر إلى أغسطوس

د. نقولا زيادة

تعرف الفترة الممتدة من فتوح الإسكندر إلى أيام الامبراطور الروماني اغسطوس باسم العصر الهلينستي. وقد كانت لهذه الفترة سمات حضارية وفكرية خاصة ظهرت بشكل واضح في المشرق. لكن شمال افريقية تأثر باليونان وعن طريق مصر بشكل أخص.

ثم ظهرت رومة وافتتحت المنطقة الممتدة من اسبانية إلى نهر الفرات. وكان لرومة أثر كبير في تطور الحضارة الافريقية في شمال القارة.

على أن افريقية كان لها أيضاً أثر في تطوير الحياة الاقتصادية.

المقال التالي يوضح هذا التفاعل الذي تم في هذه القرون الثلاثة (وبعض القرن) بين قيام الإسكندر وحكم اغسطوس.

كان فيليب الثاني ملك مقدونيا (٣٨٢ ــ ٣٣٦ق.م) قد اعد جيشاً لغزو الإمبراطورية الفارسية انتقاماً للحروب التي شنتها هذه على بلاد اليونان قبل ذلك بقرن ويزيد. لكنه اغتيل (سنة ٣٣٦ق. م) قبل أن يحقق هدفه. فخلفه على العرش ابنه الإسكندر وكان في العشرين من عمره. وفي سنة ٣٣٤ق. م. اجاز الإسكندر الدردنيل إلى آسية الصغرى، وكان تحت قيادته جيش قوامه ثلاثون الف راجل وخمسة آلاف فارس وفيه نحو مئة من الرجال القادرين ليتولوا المناصب الإدارية وتنظيم المؤن. كما أن الإسكندر راعى الغاية في الدقة والإتقان من حيث معدات الجيش وآلات الحصار. وسار الإسكندر يستولي على مدن آسية الصغرى الواحدة تلو الأخرى. وفي سنة ٣٣٣ ق. م. انتصر على جيش فارسي كبير في ايسوس.

واتجه الإسكندر نحو الساحل الشامي، وكان يهمه أن يستولي على الإسطول الفينيقي الذي كان تابعاً للفرس. وقد سلمت له المدن الساحلية الواحدة تلو الأخرى، ولم يقاومه سوى صور وغزة اللتين تغلب عليهما بصعوبة وبعد حصار طويل. وأرسل الإسكندر أحد قواده، بارمنيون للإستلاء على دمشق، ثم تابع هو سيره إلى مصر، فدخلها دون إراقة دماء (٣٣٢ ق. م.). واختط فيها مدينة الإسكندرية.

وبعد زيارة لموحى أمون، في واحة سيوه، عاد إلى بلاد الشام فنظم أمورها، ثم سار لقتال دارا ملك الفرس (حكم ٣٣٦ ــ ٣٣١ ق. م.). وبين ٣٣١ و٣٢٦ ق. م. تمكن الإسكندر من القضاء على الإمبراطورية الفارسية واحتلال المناطق الواقعة إلى الشرق منها في حوض السند وإلى الشمال الشرقي في أواسط آسية. وعاد إلى بابل فوصلها في سنة ٣٢٤ ق. م. وكان قد أرسل أمير البحر نيارخوس ليكتشف الساحل الآسيوي من مصب نهر السند إلى مصب دجلة والفرات. ثم أرسل ثلاث بعثات بحرية لاكتشاف السواحل الغربية للخليج العربي وخليج عُمان، تمهيداً لفتح الجزيرة العربية، فيما يعتقد، لكنه توفي سنة ٣٢٣ ق. م. فتوقف كل شيء.

خلفاء الإسكندر

كان الإسكندر يريد أن يُكَوِّنَ عالماً يسوده السلم والصفاء والخير، تمتزج فيه الأجناس جميعها. وكان إنشاء المدن في امبراطوريته ونقل اليونان إليها أحد الأسس الرئيسة لسياسته وآماله. وقد بنى الإسكندر خمساً وعشرين مدينة في امبراطوريته الواسعة.

كانت الأمبراطورية التي احتلها الإسكندر واسعة جداً، ولم يكن بين قواده من يستطيع أن يخلفه. لذلك قامت بينهم حروب ومنازعات استمرت نحو من أربعين سنة (٣٢٣ ــ ٢٨١ ق. م.) انتهت بقسمة الأمبراطورية بين القواد الذين ظهروا من جديد، وكان بعضهم من أولاد قادة الإسكندر. فكان ثمة مملكة في آسية هي مملكة السلوقيين، وكانت مملكة البطالمة في مصر، وكانت ثمة مملكة في مقدونيا. ويهمنا في هذا المقام

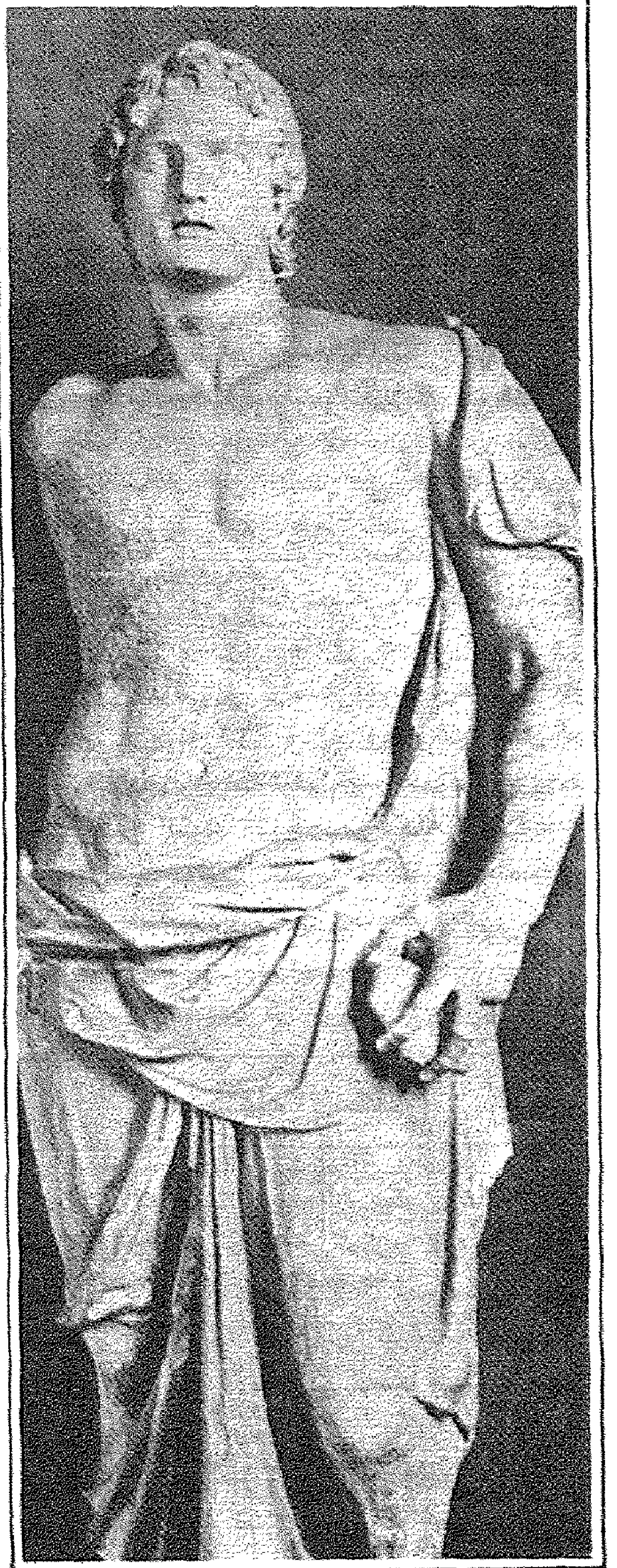
أما دولة البطالمة فقد تركزت في مصر. إلا أن البطالمة كانوا دوماً يسعون لاحتلال النصف الجنوبي من بلاد الشام أي فلسطين والأردن ولبنان. وذلك لسببين الأول أن هذه المنطقة هي خط الدفاع الأول عن مصر وثانياً لأنها غنية بالمواد الخام اللازمة لمصر كالأخشاب والزيت وبعض المعادن. يضاف إلى ذلك أن الإستيلاء عليها يسمح لمصر أن تسيطر على بعض طرق التجارة البرية بين البحر المتوسط والخليج العربي. ومن ثم فقد دارت خمس حروب بين البطالمة والسلوقيين في القرن الثالث (من ٢٧٦ ــ ٢٠٠ ق. م.) وانتهت بأن خضعت المنطقة للبطالمة بعض الوقت.

مملكة السلوقيين

كان نظام الحكم الذي حاول السلوقيون أن يطبقوه في مملكتهم يقوم على أساسين: الأول أن الملك ورث فكرة الملكية الشرقية القديمة أي أنه كان صاحب السلطة المطلقة. والثاني هو أن المدن اليونانية التي أنشئت في المملكة اتبعت نظام الدولة ــ المدينة اليوناني. فكانت لها مؤسساتها الدستورية، كما كان لها استقلالها الذاتي. فهي لم تقبل الملك السلوقي على أنه صاحب السلطة المطلقة. ومع أن الأرض في حدود الأمبراطورية كانت ملكاً للدولة أي الملك، فإن أراضي المدن والأراضي التي كانت وقفاً على الهياكل لم تكن تتبعه. وبعض هذه الهياكل كانت دويلات مستقلة لها ما يقرب من ستة آلاف عبد وأمة، مثل هيكل منبج وهيكل حمص.

المدن في المملكة السلوقية

كان السلوقيون يريدون نقل الحضارة اليونانية إلى مملكتهم. ومن هنا كانت عنايتهم ببناء المدن أو تجديدها. وقد بلغت المدن التي تم لها ذلك في أيامهم ثلاثاً وستين مدينة في بلاد الشام وحدها. وكان سكان هذه المدن من قدامى المحاربين وأولادهم وأحفادهم (من أيام الإسكندر



المملكتان الأوليان ــ السلوقيون والبطالمة.
كانت المملكة السلوقية، بادىء الأمر، تشمل إيران وبابل وشمال سورية وشمال العراق فضلاً عن تركستان وافغانستان. لكن الأجزاء الشرقية خرجت منها واستقلت، ثم تبعتها أجزاء أخرى حتى ظلت دولة سورية عاصمتها انطاكية.

إلى جميع الذين جاءوا فيما بعد) ومن يونانيين ومكدونيين نُقلوا، أو شجّعوا على الإنتقال إلى هذه المدن. وقد كانت هذه المدن جزراً في بحر من الحضارة والعادات والتقاليد واللغات الشرقية. إذ أن الريف احتفظ بطابعه الأصلي. وتكلم سكان المدن اليونانية إلا أن سكان الريف ظلوا يستعملون الآرامية أو الفينيقية على العموم.

ومن المدن الرئيسة في العصر السلوقي في بلاد الشام انطاكية، العاصمة، وسلوقية عند مصب العاصي، وسلوقية — على دجلة، واللاذقية وأفامية المعسكر الرئيس للدولة السلوقية في شمال سورية. وكانت تربى فيها الخيول وتحفظ الفيلة. وهناك حلب ومنبج ودورا (الصالحية على الفرات) وحمص وبعلبك وفيلادلفيا (عمان، وكانت من عمل البطالمة) وابولونيا (قرب نابلس) ومريسة (في جنوب فلسطين) وطرابلس وبيلوس (جبيل) وبيروت وصيدا وصور وعكا ودورا ويافا وعسقلان وغزة ورفح.

امتيازات المدن

كانت هذه المدن، أو أكثرها على الأقل، تسعى لزيادة حكمها الذاتي وحريتها واستقلالها. والتحرر في إدارة المدن كان أصيلاً. لكن توسيع مدى الحرية كان الدافع إليه حاجة السلوقيين إلى المال واستعداد هذه المدن الثرية للدفع ثمناً لحريتها. فترتب على ذلك أن هذه المدن بدأت من أيام انطيوخوس الرابع (حكم ١٧٥ — ١٦٣ ق. م.) في الحصول على الأمور التالية: أولاً الحرية في اختيار السياسة التي تناسبها، فاصبحت سياسة هذه المدن خاصة شخصية، وقد تتعارض مع سياسة الدولة العامة. ثانياً حصلت بعض المدن على حق سك نقود خاصة بها. وهذا كان يعني استقلال المدينة في حياتها الاقتصادية وموازنتها العامة. وثالثاً، وهو أشد الأمتيازات أثراً في أضعاف السلطة المركزية، «الحصانة المدينية». فالمدينة كانت تُمْنَحُ «حصانة» تحميها من تدخل الدولة في أمورها البتة. ومن أمثلة المدن التي حصلت على ذلك ارواد سنة ١٣٧ وصور سنة ١٢٥ وطرابلس سنة ١١١ وعسقلان سنة ١٠٤ ق. م.

والذي نتج عن هذه الامتيازات المتنوعة، والتي كانت تزداد سنة بعد سنة، هو أن الدولة السلوقية أصبحت مجموعة من الخلايا المدينية غير المتماسكة. وكان من اليسير على هذه المدن أن تقتتل فيما بينها.

دولة البطالمة

كانت فلسفة البطالمة السياسية تقوم على أساس أن الملك هو رأس السلطة وصاحب النفوذ. فكأنهم بذلك ورثوا، ولو بطريقة غير مباشرة، موقف الفراعنة القدماء من الحكم. ولم يعنوا بإنشاء المدن في مملكتهم. فلم يكن عندهم سوى الإسكندرية ومدينتين أخريين في مصر وفيلالفيا (عمان). واليونان الذين هبطوا مصر، على نحو ما جاء اليونان إلى بلاد الشام، كانوا يسكنون في البلاد دون أن ينشئوا تجمعات خاصة ويقيموا مؤسسات مدينة على نحو ما كان عليه الحال في بلاد اليونان نفسها.

الحياة الاقتصادية في المشرق العربي

يعتبر العصر الهلّنستي، أي القرون الأربعة التي تلت قيام الإسكندر بفتوحاته، من الناحية التجارية، فترة انتقال من الحياة الاقتصادية المحلية المحدودة إلى نوع من الاقتصاد العالمي. فقد أصبح العالم واسعاً وصار التعامل بين اجزائه ممكناً. وتعدد المراكز التجارية، البحرية منها والبرية. والطرق التي فتحت بسبب حروب الإسكندر ظلت موضع عناية. ويمكن القول بأن الطرق الرئيسة التي كانت تصل مصر وبلاد الشام بالشرق الأقصى هي: (١) الطريق الشمالي إلى البحر الأسود عبر آسية الصغرى. (٢) طريق من افسس إلى سميساط (على الفرات) ثم إلى بابل أو سلوقية (على دجلة) ثم شرقاً أما إلى حوض السند الأدنى أو حوض السند الأعلى. (٣) طريق من بابل أو سلوقية براً إلى جرها (العجير؟) على الخليج العربي. (٤) الطريق الذي كان يصل البتراء باليمن. (٥) كان ثمة طريق هام يصل جنوب العراق بالبتراء عبر الصحراء.

وقد عرف العصر الهلينستي الاحتكار الحكومي في أنواع من الصناعات. فالبطالمة احتكروا صناعة الأقمشة والبردي.

ومن الأمور الحرية بالذكر شيوع الاقتصاد النقدي. وهذا أصبح ممكناً بسبب تنظيم سك النقود وتبادلها.

وكان ثمة اهتمام بالزراعة وتنويع للمزروعات بسبب الاتصال بين المناطق المختلفة على تباعدها. وقد عني البطالمة بإنشاء الترع والسدود. وقد قام البطالمة بإحياء أراضي الفيوم بالعودة إلى استغلال البحيرة على نحو ما فعل الفراعنة القدماء. وقد كان ثمة نحو مئة قرية تعتمد على الزراعة.

وقد عرف العالم الهلنستي الحبوب والخضراوات والكرمة والزيتون. وهذه عرفت كلها في المشرق العربي. وكانت مصر تنتج كميات كبيرة من الصوف من الأغنام الكثيرة. وكانت العناية بالخيول في سورية وآسية الصغرى كبيرة بسبب اهتمامهم بالفرسان في القتال.

ومع أن الصناعة كانت أقل فروع الاقتصاد تقدماً، فقد زاد الاهتمام بالحلي الفضية، وشاع استعمال الحرير في الثياب. وحافظت صور وصيدا وغيرهما من مدن الساحل الشامي على مراكزها الصناعية.

الفنون والآداب والعلوم في المشرق العربي

المدن الكبرى كانت فيها أبنية عامة كثيرة الأمر الذي اقتضى العناية بالنحت للزخرف. وكانت أنطاكية والإسكندرية في مقدمة المدن التي اهتمت بذلك. وكانت المدن الجديدة تتقاطع شوارعها هندسياً.

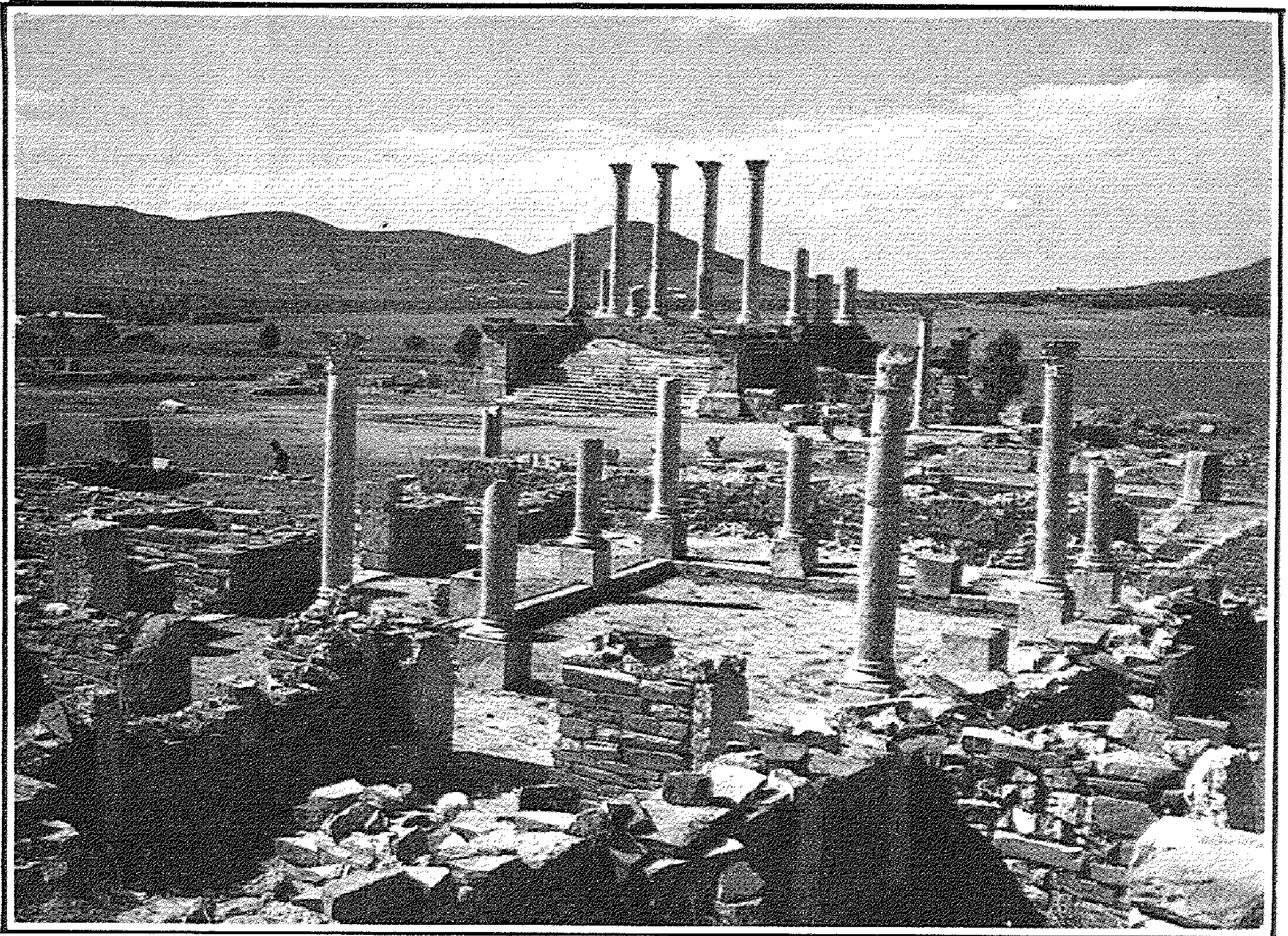
شجع ملوك العصر الهلينستي المشتغلين بالإنتاج الفكري. فقد كلف بطليموس الأول ديمتريوس (سنة ٢٩٤ ق. م.) بإنشاء المتحف في الإسكندرية الذي أصبح موئلاً لخيرة المشتغلين بالعلم. وفي المتحف عمل امثال أراتوشينس القولايني (٢٧٣ ــ ١٩٢ ق. م.) الجغرافي الرياضي الذي قاس محيط الأرض، فكان الخطأ عنده نحو ثلاثمئة كيلو متر فقط. وكان من علماء الجغرافية الرياضية بوزيدانوس السوري (١٣٥ ــ ٥١ ق. م.) وكتزيبوس الإسكندري (أواخر القرن الثالث ق. م.) الميكانيكي. وسلوقس البابلي (حول ١٥٠ ق. م.) الرياضي.

في القرن الأول ق. م. زالت المملكتان المشرقيتان اللتان كانتا أنشط الدول التي توزعت امبراطورية الإسكندر وكان زوالهما تدريجاً، وقد تم على يد الرومان. لذلك فإننا لا بد من متابعة ظهور رومة وتطور قوتها قبل تتبع دورها في إنهاء دور هاتين الدولتين.

رومة وتوسعها الأول

ظهور رومة على المسرح السياسي: يبدأ تاريخ رومة، إذا أخذنا بالتقليد والقصة، حول سنة ٧٥٤ق.م. ولكن البحث الجدي والتنقيب الأثري أثبتا أن ظهور رومة الأول يعود إلى القرن السادس ق.م. وتعود الأهمية الخاصة لهذه المدينة أصلاً إلى كونها كانت تقوم قرب مخاضة على نهر التيبر، فكان يسهل على الناس اجتياز النهر لتبادل السلع والمتاجر بين القبائل الساكنة شمالي النهر مع تلك التي تقيم جنوبيه. وفي وقت مبكر من القرن السادس ق.م. بني جسر على النهر، فأصبح اجتيازه أسهل وأيسر. وفي واقع الأمر فإن هذا الظهور الأول لرومة يرجع إلى الأترسكيين، الذين جاءوها من شمال غربي شبه جزيرة إيطالية، وجعلوا منها مدينة هامة وكان نظام الحكم هناك ملكياً. ويبدو أن الملوك استبدوا فثار بهم سكان روما (سنة ٥٠٩ق.م.) وأخرجوهم، وأخرجوا معهم الأترسكيين الأجانب. وهكذا فإن ثورة الرومان في تلك السنة كانت ثورة وطنية. ومع ذلك فهناك من الباحثين من يرى بأن النظام الملكي لم ينته أمره في ٥٠٩ ق.م. بل إنه استمر في كر وفر نيفاً وثلاثين سنة قبل أن قضي عليه.

أخذت رومه نفسها، بعد ذلك، بتمكين قبضتها على الأرض والسكان في جوارها. فكان أن احتلت لايتوم، كما أن الرومان طوروا نظامهم السياسي



□ كابيتول مدينة طبرق.

على أساس أن عهدوا إلى قنصلين، كانا ينتخبان سنوياً، لإدارة البلاد مشتركين. كما قامت في المدينة مجامع مختلفة ومجلس شيوخ. وبعبارة أخرى اتخذت رومه شكل المدينة ـــ الدولة، وهو النظام الذي عرفه العالم قبلاً في بلاد السومريين وفي بلاد الشام وفي بلاد اليونان.

وفي الفترة التي مرت بين سنتي ٣٩١ و ٢٦٤ق.م. تمكنت رومه من فتح شبه الجزيرة الإيطالية إلى نهر روبيكون. وكان معنى هذا أن توفر للدولة الجديدة قوى بشرية كبيرة كانت عوناً لها في حروبها الكثيرة والطويلة خلال القرون الثلاثة التي تلت ذلك.

رومة وقرطاجة

كانت قرطاجة، كما رأينا في فصل سابق، قد أقامت لنفسها دولة قوية في ما يقابل تونس الحالية، على وجه التقريب، كما أنها سيطرت على الحياة الاقتصادية في شمال افريقية. وقد كانت العلاقات بين رومة وقرطاجة عادية في أول الامر. وثمة معاهدتان تجاريتان عقدتا بين البلدين في سنة ٥٠٨ وفي سنة ٣٤٨ق.م. سمحت قرطاجة بموجبهما، لرومة في أن تتعاطى التجارة حتى في قرطاجة نفسها. أما الجزء الأوروبي المصاقب لإيطالية والذي كانت حالة الحرب فيه مع قرطاجة تقوم كثيراً، فهو جزيرة صقلية. ومن المهم أن نذكر أنه لما استعانت سيراقوسة اليونانية (في جزيرة صقلية) بملك أبيروس اليوناني برّوس، وجاء هذا بجيشه (٢٧٨ ـــ ٢٧٦ق.م.) إلى الجزيرة، قام حلف روماني قرطاجي ضد برّوس.

إلا أن الوضع تغير ابتداء من العقد السابع من القرن الثالث ق.م.، أي بعد عودة برّوس إلى بلده. وصارت أبواق الحرب وطبوله هي التي تسمع بين البلدين. ويرجع الأمر إلى جزيرة صقلية. فموقع هذه الجزيرة بين إيطالية والشمال الافريقي أولاً وبالنسبة إلى النصف الغربي من حوض البحر المتوسط، يجعلها هامة جداً من

نواحي المواصلات والقواعد البحرية تجارياً واستراتيجياً. إلا أن جزيرة صقلية أصغر وأضعف من أن تسيطر على ذلك الجزء من حوض المتوسط. إن مثل هذه السيطرة لا تقدر عليها إلا دولة تتمتع بثروة كبيرة وقوى بشرية ضخمة وتستولي في الوقت ذاته على صقلية لتفيد من موقعها. وقد أصبح من الطبيعي، بعد أن قامت الدولة الرومانية في إيطالية، أن تحاول هذه أو قرطاجة الاستيلاء على صقلية، ليتم لها السيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط. وسبيل الاستيلاء الحرب.

الحروب القرطاجية (البونية)

لنذكر أنفسنا، قبل متابعة قصة الحملات العسكرية، البرية منها والبحرية، ببضعة أمور هي: أولاً أن رومة كان لديها قوى بشرية كبيرة يمكنها أن تحصل عليها من إيطالية. ثانياً أن جيش قرطاجة كان، في غالبه، من المرتزقة. ثالثاً أن قرطاجة كانت أوسع ثراء من رومه. ورابعاً وأخيراً أن قرطاجة كان عندها أسطول لا يستهان به، ولم تكن رومة قد بنت أسطولاً يعتد به بعد. وقد قامت ثلاث حروب بين الدولتين يمكن تلخيصها بما يلي:

الحرب الأولى (٢٦٤ ــ ٢٤١ق.م.) ــ بدأت الحرب بسبب أن جماعة من أهل مسّينا اشتبكوا في خصومة مع سيراقوسة، فاستنجدوا بقرطاجة. ولكن قرطاجة لم تسحب قواتها بعد ذلك، فاستجارت الجماعة الأصلية نفسها برومة ضد القوات القرطاجية فجاءت رومة لنجدتها. وانحازت سيراقوسة إلى قرطاجة. وبدأت الحرب سنة ٢٦٤ق.م.

نجحت رومه في تخليص مسّينا، وعزل ملك سيراقوسة عن أحلافه القرطاجيين. واحتل هؤلاء اغريغنتوم فأخرجهم الرومان منها. وعندها بدا للرومان أن احتلال صقلية أصبح ضرورياً لهم، فقاتلوا في سبيل ذلك نحو عشرين سنة. وكان فيما اهتم به الرومان الآن بناء اسطول، فتم لهم ذلك وواقعوا الأسطول القرطاجي وتغلبوا عليه (في ميلي سنة ٢٦٠ق.م.) وهاجم الرومان افريقية وحاصروا قرطاجة نفسها، لكن القرطاجيين عادوا فتغلبوا عليهم فانسحبوا من افريقية (٢٥٦ ــ ٢٥٥ق.م.).

ودارت بين الرومان والقرطاجيين معارك في صقلية بالذات وكان النصر يتناوبه الفريقان حتى انتصر الاسطول الروماني (في جزر ايغاتس سنة ٢٤١ق.م.). وعندها سلمت قرطاجة. وعقد بين الدولتين صلح تخلت بموجبه قرطاجة عن صقلية نهائياً، وتعهدت بدفع غرامة مقدارها ٣٢٠٠ وزنة مقسطة على عشرين سنة (٢٤١ق.م. ــ وفي سنة ٢٢٧ جعلت صقلية ولاية رومانية). وترتب على هذه الحرب أن استولت رومة على جزيرتي سردينية وكورسيكا. أما قرطاجة فقد وسعت ممتلكاتها في إسبانية، وكان ذلك أربح لها من صقلية.

يقول ارنولد توينبي عن هذه الحرب: «في هذه الحرب الرومانية القرطاجية، ٢٦٤ ــ ٢٤١ق.م.، جند من الجند واعد من الأساطيل وحدث فيها من الإصابات والخسائر البشرية على مقياس لم يكن له سابقة في تاريخ الحروب في حوض البحر المتوسط».

وفي سنة ٢٢٦ق.م. عقدت رومه مع قرطاجة معاهدة نهر إبرو، التي جعلت النهر حداً لتقدم قرطاجة.

الحرب الثانية (٢١٨ ــ ٢٠٢ق.م.) ــ كان هنيبعل (هينبال) القائد القرطاجي يقوم بتوسيع أملاك دولته في إسبانية، فهاجم ساغنتوم، وهي خلف نهر إبرو، فاحتجت رومة وطلبت ترك المدينة، فلم يهتم هنيبعل بقول رومة. وأرسلت جيشاً وأسطولاً إلى افريقية، وقوة صغيرة إلى اسبانية لمقاومة هنيبعل. وعندها قاد هذا القائد جيشاً ضخماً، من خمسين الفاً، وسار به براً إلى شمال إيطالية، وقد انتصر على الرومان وجيوشهم في معركة تريبيا (٢١٨ق.م.) ومعركة تراسيمبني (٢١٧ق.م.) ومعركة كاني (٢١٦ق.م.) لكنه لم يتجه إلى رومه لأنه كان يعرف حصانتها وكانت تعوزه آلات الحصار ووسائله. واحتل تارنتوم (٢١٢) ورأى شيبيو أن الحرب يجب أن تنقل إلى افريقية، وتم ذلك سنة ٢٠٤. عندها استدعت قرطاجة هنيبعل إلى مدينته ليدافع عنها. والتقى هينبعل وشيبيو في معركة زاما (في وادي المجيردة، سنة ٢٠٢ق.م.). وقد انضم مسينسّا ملك نوميديا إلى شيبيو.

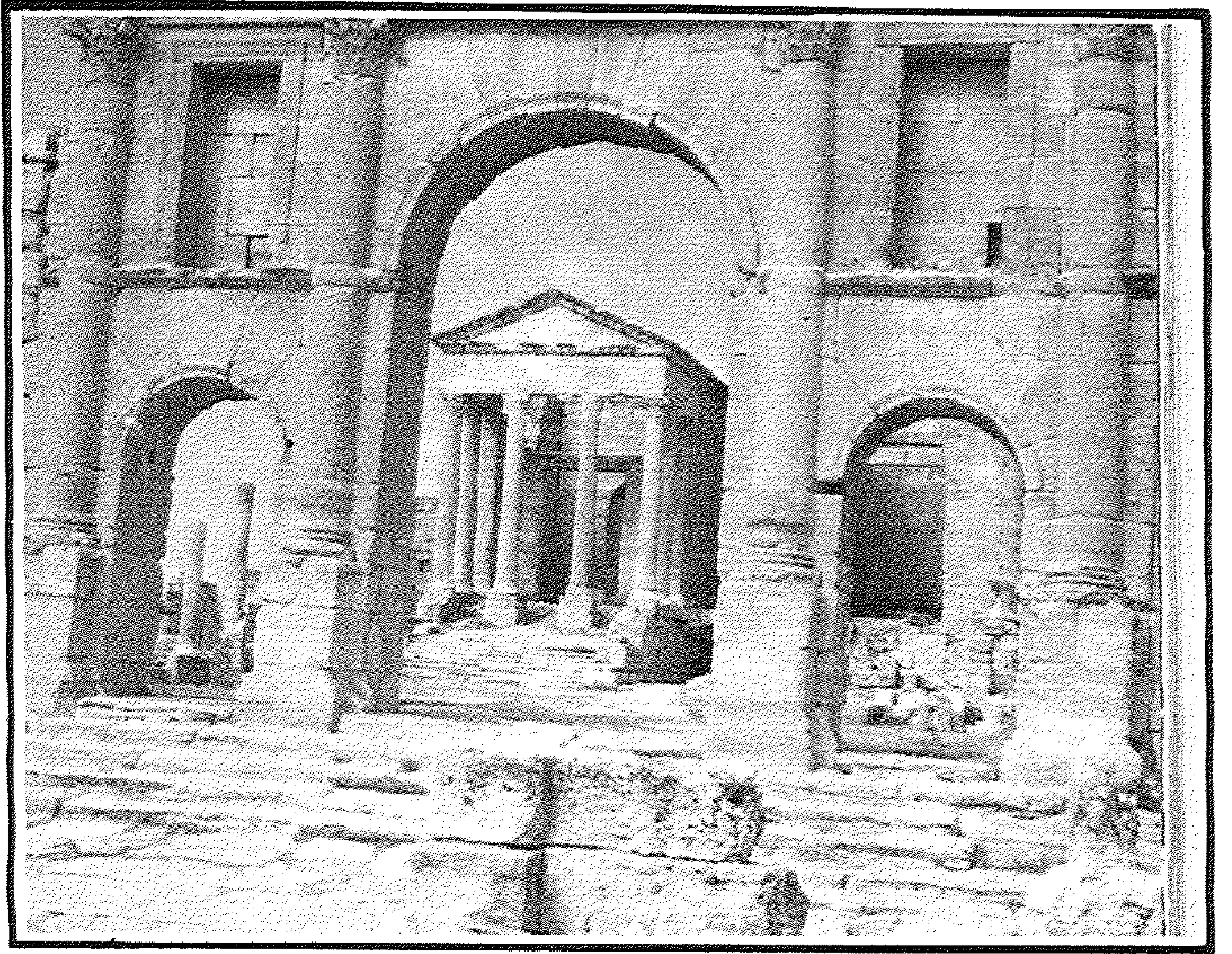


□ هنيبعل القائد القرطاجي.

وكانت النتيجة انتصار الرومان. وأملت رومه شروط الصلح وهي: (١) تدفع قرطاجة عشرة آلاف وزنة غرامة. (٢) يسمح لها بالاحتفاظ بعشر سفن فقط. (٣) تتخلى عن إسبانية نهائياً. (٤) تمتنع قرطاجة عن محاربة حلفاء رومه إلا بإذن منها. وقد أفاد مسينسًا بأن تولى نوميديا مع توسع في مملكته على حساب قرطاجة.

الحرب الثالثة (١٤٩ ــ ١٤٦ق.م.) ــ عاد إلى قرطاجة نشاطها الاقتصادي فنفسته عليها رومة. ولكن قرطاجة لم تتعد شروط الصلح. ومع ذلك فإن مسينسًا أخذ يوسع أملاكه على حسابها، ولما لم تردعه رومه لجأت قرطاجة إلى السلاح للدفاع عن نفسها. وعندها أعلنت رومه الحرب على قرطاجة، لأن مسينسًا كان حليفاً لرومة.

جاء الجيش الروماني سنة ١٤٩ق.م. وضرب الحصار على قرطاجة. وعين شيبيو أميليانوس قائداً عاماً فشدد الحصار على المدينة. وقد دافع القرطاجيون عن مدينتهم دفاع الأبطال لكنهم غلبوا أخيراً. فاحتل الرومان قرطاجة ودمروها (١٤٦ق.م.).



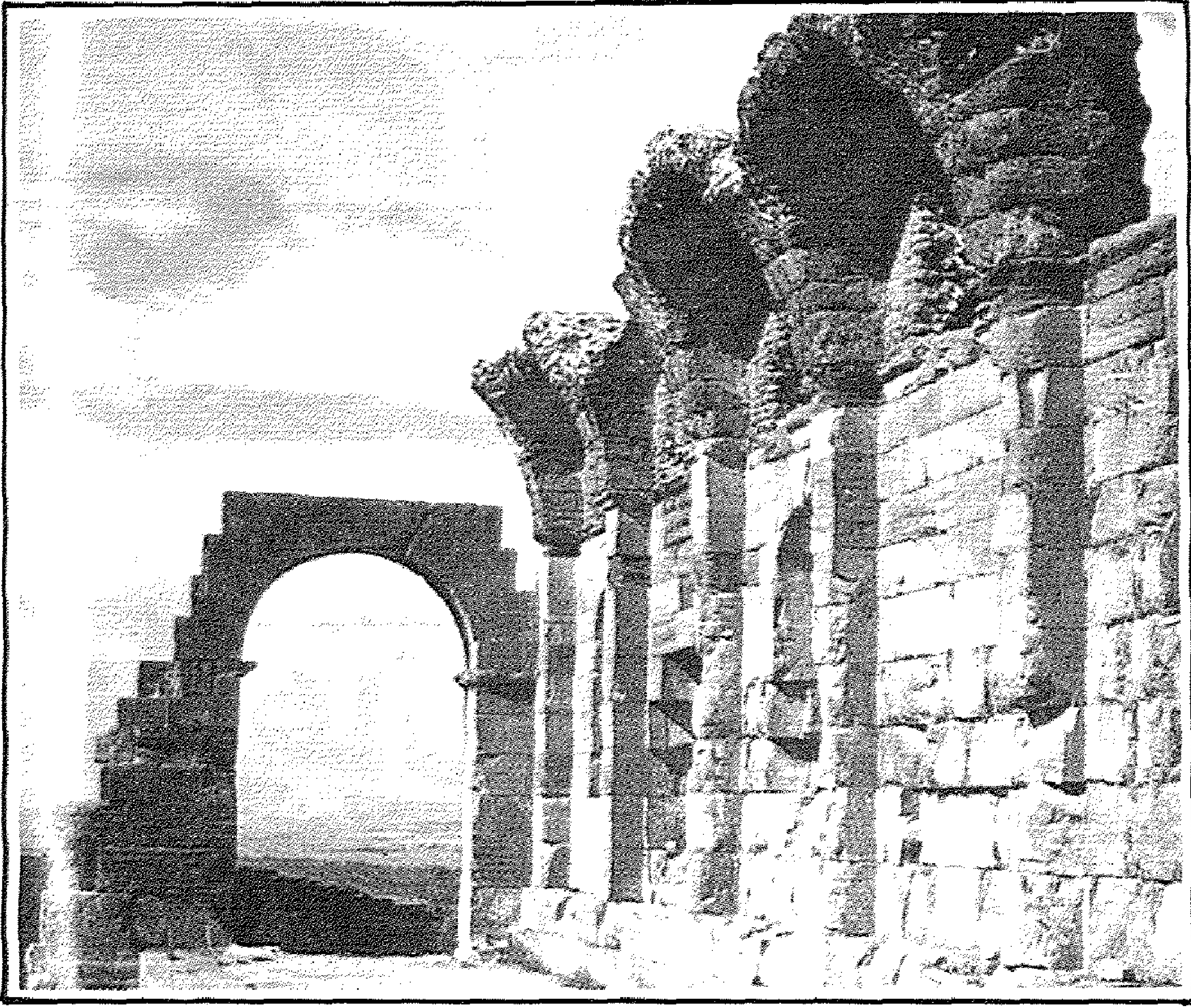
□ ساحة مدينة سبيتلة، سومتولا قديما، التي احتلت مكانة قرطاج واصبحت عاصمة افريقيا ايام الامبراطور غريغوار الروماني عام ٦٤٦م.

رومة وشمال افريقية

يبدو أن رومه لم تكن تخطط لامتلاك بلاد في شمال افريقية، وأن تدميرها لقرطاجة كان نابعاً من خوفها من أن تعود قرطاجة إلى نشاطها وتزاحم رومة في حوض البحر المتوسط الغربي. والواقع أن الرومان، بعد أن تدخلوا في شؤون المشرق أيضاً، وأضعفوا دولة السلوقيين بحيث يمكن القول بأنهم شلوها وإن لم يقضوا عليها (سنة ١٦٨ق.م. في حروبهم ضد انطيوخوس الرابع)، فإنهم لم يحاولوا أن يملأوا الفراغ السياسي والعسكري الذي أوجدوه. وكان لا بد من انتظار قرن بالنسبة للمشرق (حتى سنة ٦٧ق.م.) لما ذهب إليه بومبي، وكان لا بد من انتظار قرن بعد تدمير قرطاجة (إلى سنة ٤٩ ق.م. لما ذهب يوليوس قيصر إلى شمال افريقية لبسط السلطة الرومانية عليه.

فبعد تدمير قرطاجة جعلت هذه ولاية رومانية وكانت أُتيكا هي العاصمة، كما بسطت رومة حمايتها على نوميديا، بحيث أصبح بإمكان التجار الإيطاليين تبادل السلع مع البربر. وقد مرّ على نوميديا تقسيمها أكثر من مرة بين الورثة، لكنها عادت فتوحدت تحت حكم يوغرتا (١٥٠ ــ ١٠٤ق.م.) الذي أراد أن يوحد المغرب جميعه تحت حكمه. وقد احتل كِرْتا وأساء إلى الإيطاليين الذين كانوا هناك، لأنهم دافعوا عنها. وأرسلت رومة حملتين تأديبيتين ضده، لكنهما لم تستطيعا وضع حد لتصرفه، إلى أن قاد ماريوس حملة (سنة ١٠٧ق.م.) فانتصرت عليه وألقي القبض عليه. وعندها ضمت نوميديا إلى رومة على أنها ولاية رومانية.

وفي أثناء الحرب الأهلية التي قامت بين بومبي ويوليوس قيصر لجأ أتباع بومبي إلى الشمال الافريقي، وأعانهم يوبا الأول ملك نوميديا. فأرسل يوليوس قيصر حملة إلى تلك المنطقة (سنة ٤٩ق.م.) لكنها لم تنجح. فذهب بنفسه وانتصر على خصومه من الرومان والنوميديين (في معركة تابْسوس سنة ٤٦ ق.م.). وعندها وسع ولاية افريقية وسماها افريقية الجديدة (افريكا نوفا).



□ معبد الحوريات في زغوان جنوب تونس العاصمة.

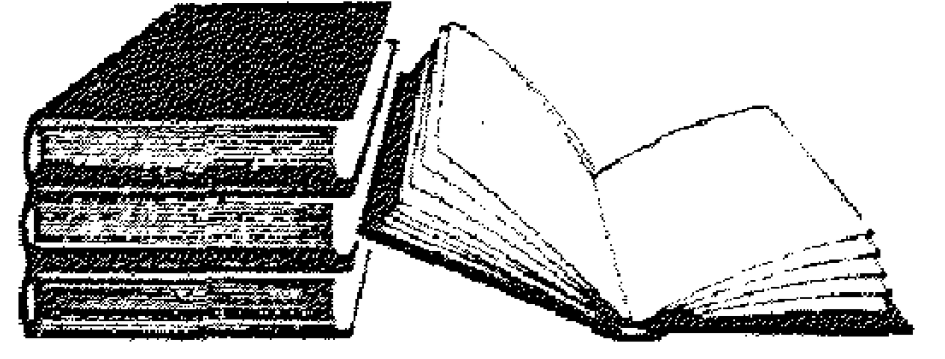
كانت موريتانيا تتمتع من قبل بنوع من الاستقلال الذاتي، لكن بعد ضم نوميديا إلى الولاية، أصبحت موريتانيا أقرب إلى المحمية. وفي سنة ٢٥ق.م. ملّك اغسطس قيصر يوبا الثاني عليها.

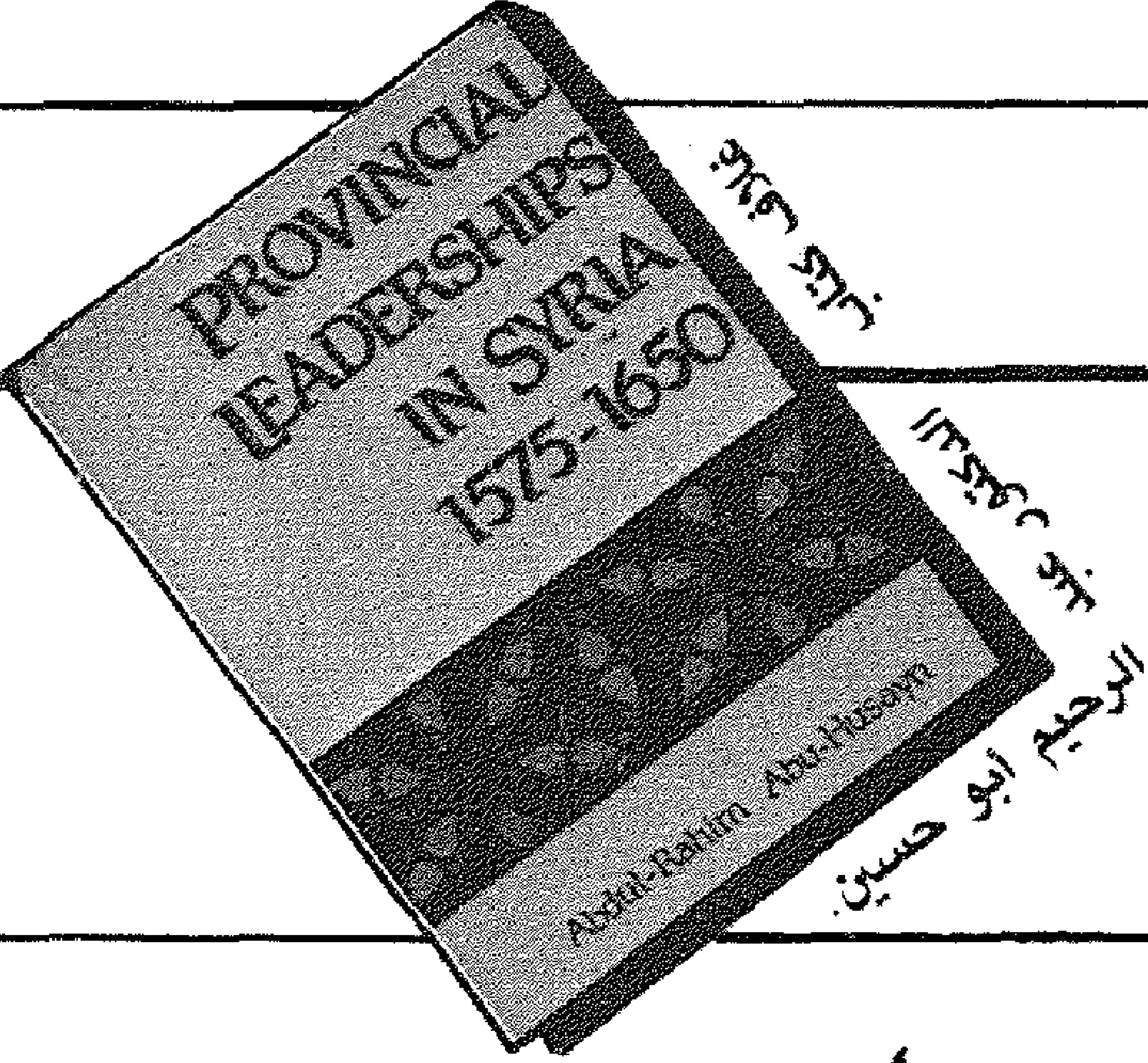
رومة والمشرق

أشرنا من قبل إلى الفراغ السياسي والعسكري الذي أوجدته رومه في المشرق لا بتدخلها في شؤون الدولة السلوقية فحسب، بل في أمور البطالمة وغيرهم من الدول الصغرى في آسية الصغرى والدويلات اليونانية في البر الأصلي والجزر. ولم تحاول رومة ملء الفراغ الذي أحدثته. وترتب على ذلك أن أخذت المنطقة بأسرها تتخبط بشكل يدعو إلى القلق. ولم تنج من هذا التخبط إلا الجماعات التي كان لها من عزمها وقوتها مقدرة على النمو والتقدم نسبياً. وأخيراً أخذت رومة نفسها بالاهتمام بالمشرق والمغرب. ويعود ذلك في رأينا إلى انتشار القرصنة في البحر المتوسط على شكل لم يعهد له مثيل من قبل. وفشلت المحاولات الصغيرة في القضاء على القرصنة إلى أن ولى المجمع القبلي الروماني بومبي أمر محاربة القرصان. وقد نجح بومبي في ذلك فطهر البحر المتوسط بكامله من القرصان في ثلاثة أشهر (سنة ٦٧ق.م.).

عندها ولى المجمع نفسه بومبي أمر تنظيم شؤون المشرق. وبعد أن رتب أمور آسية الصغرى انتقل إلى بلاد الشام. فوصل دمشق وأخذ يعد العدة للاستيلاء على البتراء، لكنه لما وصل إلى أريحا غير اتجاهه وذهب إلى القدس فاحتلها. وهكذا فقد فتح بومبي بلاد الشام (سنة ٦٣ق.م.) وجعلها ولاية رومانية. وكان مما فعله أن سمح لملك الأنباط بالاحتفاظ بدمشق.

وذهب بومبي إلى مصر، هرباً من خصمه يوليوس قيصر، فلحقه هذا. ولما وصل مصر وجد أن بومبي قد اغتيل. وبعد معركة اكتيوم (سنة ٣١ق.م.) التي انتصر فيها اكتافيوس (اغسطس) ضمت مصر إلى الامبراطورية.





الزعامات المحلية في سورية (١٥٧٥ - ١٦٥٠)

تأليف: د. عبد الرحيم أبو حسين

مراجعة: د. حسين سلمان سليمان



□ طرابلس في القرن الماضي (رسم غرانسير).

نادرة للغاية الدراسات الأكاديمية التي تناولت تاريخ الولايات الشامية العثمانية خلال القرون الثلاثة الأولى من الفتح العثماني لتلك الولايات، وأندر منها الباحثون الذين درسوا تاريخ هذه الولايات على ضوء الوثائق المحلية أو العثمانية والأوراق القنصلية الأوروبية. فأبعد دراسة علمية لتاريخ الولايات الشامية العثمانية على ضوء بعض هذه المصادر المهمة التي أشرنا إليها، هي الدراسات التي قام بها، (مع حفظ الألقاب)، جيبور عبد النور ودمينيك وشفالية وعبد الكريم رافق وعدنان بخيت وكاتب هذه المراجعة. ويبدو أن زميلنا عبد الرحيم أبو حسين، أبى إلا أن يكون من هذه القلة، فأعد أطروحته لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ الشرق الأوسط من الجامعة الأميركية بعنوان:
«Provincial Leaderships in Syria 1575-1650» (*)

الواقع اننا منذ ما يزيد على السنتين ونحن نتلهف بشدة لنشر هذه الدراسة، إلى أن تفضلت الجامعة الأميركية في بيروت بإصدارها، في سلسلة منشوراتها عن تاريخ الشرق الأوسط. وتألفت هذه الدراسة من مقدمة مزودة بدراسة لأهم المصادر التي عاد إليها المؤلف في إعداد بحثه ومكان تواجدها، ومدى استفادته منها في إطار بحثه، ونخص بالذكر دراسته عن أهمية وثائق دفتر الأمور المهمة العثماني، في كتابة تاريخ الولايات الشامية العثمانية.

وتضمنت هذه الدراسة أيضاً أربعة فصول، عالج في الثلاثة الأولى منها تاريخ الزعامات الشامية الريفية (آل سيفا وآل معن وآل الحرفوش) في حين خصص الفصل الرابع منها لزعامات عائلات فريخ وقانصوه وطربيه، وكل هذه الأسر حكمت اجزاء من الريف الشامي العثماني، ولعبت دوراً بارزاً في تاريخه خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

بروز آل سيفا كقوة سياسية

يرى د. أبو حسين أن بروز آل سيفا كقوة سياسية في طرابلس يعود إلى النصف الأول من القرن السادس عشر، وبانهم من أصل تركماني قدموا في عام ١٥٢٨ بقيادة يوسف سيفا من مرعش الواقعة على الحدود السورية الأناضولية، واستقربهم هذا القائد في عكار واتخذ مقراً له في قلعة الحصن التي تسيطر على تلال عكا الوعرة في أقصى شمال لبنان. ونجح يوسف سيفا في إقامة تحالف مع منصور عساف أقوى زعماء بلاد الشام الذي كان مثله من أصل تركماني، واستفاد الأخير من هذا التحالف في تصفية كل أخصامه في المنطقة. وإزاء عجز السلطات العثمانية عن التخلص من منصور عساف، أنشأت عام ١٥٧٩ ولاية طرابلس وجعلت يوسف سيفا والياً عليها برتبة بيلر بك أي أمير الأمراء، كمحاولة منها لتشديد قبضتها على المقاطعات اللبنانية الشمالية (جبة بشري وجبيل والبترون). ومنذ ذلك الحين أخذت سلطة آل عساف تتدهور في المنطقة، في حين أخذت سلطة يوسف سيفا تحل مكانها.

ويرى د. أبو حسين ان اختيار يوسف سيفا ليكون على رأس ولاية طرابلس، إنما كان نتيجة قرار مترو، سواء من حيث انه كان وجهاً سياسياً محلياً، قد يستطيع أن يصمد أمام الوجوه المحلية الأخرى، وكان قد مضى عليه زمن طويل في منطقة طرابلس، اكتسب خلاله مكانة عالية، فارتبط بعلاقة وثيقة مع السياسيين المحليين، بحيث كان متوقعاً منه أن يدير بكفاءة عالية الولاية المعهودة إليه. علماً بأنه لم يكن زعيماً محلياً بالولادة كما كان الحال بالنسبة لآل عساف ومعن، إذ لم يكن قد مضى على تاريخ قدومه إلى المنطقة خمسون سنة، بحيث لم يستطع أن يقيم سلطة تقليدية متوارثة في منطقة طرابلس، كما كان الحال بالنسبة لآل عساف في كسروان وآل معن في الشوف، وبذلك كان عاجزاً عن تأمين ولاء

(*) من منشورات: American University of Beirut, 1985.

عفوي لشخصه ولعائلته بين قبائل وفلاحي المقاطعات الشمالية اللبنانية، ولا يمكن في أي وقت أن يشكل تهديداً محلياً حقيقياً، مما يحصل الباب العالي حراً في تعيينه أو صرفه حين يشاء دون أية خشية من أية مضاعفات محلية جادة. ولم يكن الوضع مشابهاً لذلك في مقاطعات جبل الدروز، حيث كان خصمه ومعاصره فخر الدين المعني الذي كان العثمانيون مضطرون بصورة دائمة إلى القيام بحملات حربية ضده لإبقائه في مكانه الصحيح، والتي غالباً ما تكون فاشلة. في حين كان يوسف سيفا مجرد موظف معين من قبل السلطات العثمانية، ليس له سلطة تقليدية راسخة ولا أتباع خصوصيون ذوو انتماءات عنصرية أو طائفية، مما يدفعه إلى الحرص على استمرار طاعته للإدارة العثمانية المركزية، يبرز ذلك في تكرار عزله وانقطاعه عن مهمته كبيلر بك. كما كان العثمانيون مدركين ان بإمكانهم الوصول إلى يوسف سيفا ومعاقبته في حال تمرده، فمقر إقامته في حصن عكار كان سهلاً الوصول إليه من الداخل الشامي، كما ان الوصول إلى طرابلس عاصمة الولاية لم يكن سهلاً من الداخل فقط ولكن أيضاً من البحر.

حملة ١٥٨٥ العثمانية

ويصحح د. أبو حسين على ضوء المصادر المعاصرة والوثائق العثمانية، ما ورد لدى كتاب الحوليات اللبنانية والمؤرخين المحدثين الذين تصدوا لتأريخ هذه الفترة، بأن الحملة العثمانية التي اجتاحت المقاطعات اللبنانية عام ١٥٨٥ والتي ذهب ضحيتها قرقماز المعني، بأنها إنما كانت بسبب نهب قطاع الطرق في جون عكار لقافلة تحمل ضرائب مصر إلى استانبول. في حين تجمع المصادر المعاصرة بأن القافلة لم يجر نهبها وبأنها وصلت كاملة إلى استامبول، كما ان تلك المصادر تركت لنا تفصيلاً كاملاً لمحتويات القافلة المذكورة. ويستنتج د. أبو حسين على ضوء الوثائق العثمانية، بأن الحملة المذكورة إنما كانت متعمدة، ولم يكن الدافع إليها أي حادث، وإنما كانت جزءاً من حملة مخطط لها ضد زعامات المناطق الشامية الريفية، ذلك أن توفر البنادق الحربية بعيدة المدى بين أيدي هؤلاء الزعماء دفعتهم إلى التمرد على السلطات العثمانية، مما جعل تلك السلطات تتدخل عسكرياً في تلك المناطق التي كانت قد خرجت عن سيطرتها أو تلك التي لم يسبق مطلقاً أن أقامت عليها سيطرتها المباشرة. ونجحت حملة ١٥٨٥ بتحقيق كامل أهدافها، بحيث تمكنت من أسر جميع الزعامات المحلية، باستثناء قرقماز المعني الذي مات في مخبئه.

ولم تشر المصادر المتوفرة متى رضيت السلطات العثمانية على يوسف سيفا، والسنة التي أعادته إلى منصبه السابق كوال برتبة بيلر بك على طرابلس، ولكن تشير أحداث ١٥٩٠ إلى صدام بين يوسف سيفا بصفته والياً على طرابلس، ومحمد عساف ملتزم غزير، قضى خلاله الأخير وانقطعت سلالته، وانتقلت إقطاعاتهم في غزير وانطلياس وبيروت إلى آل سيفا.

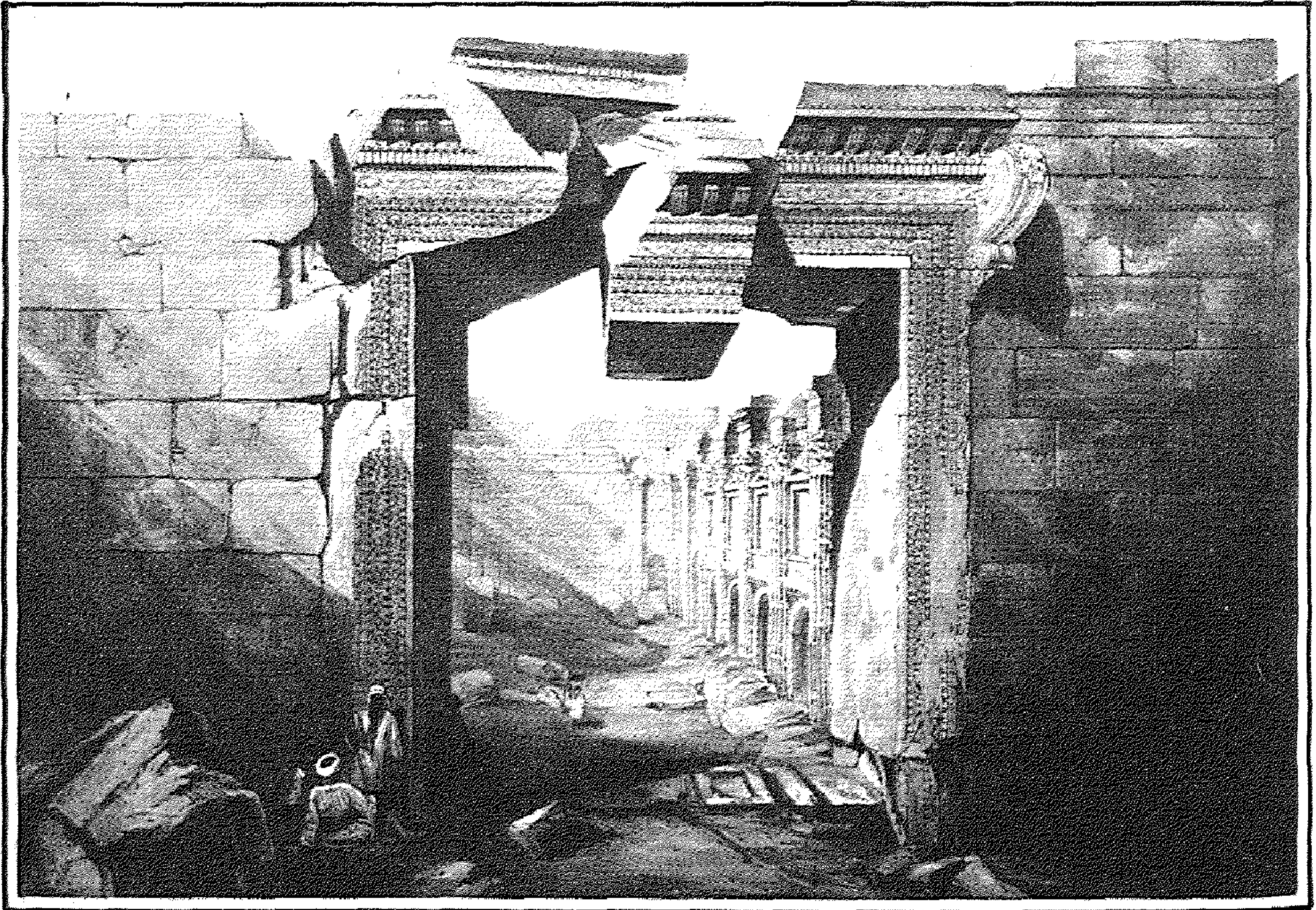
وكان يوسف سيفا مدركاً أن السلطة السياسية التي حازها في بلاد الشام، إنما تعود أولاً إلى استمرار تعيينه في منصب بيلر بك طرابلس، كما ان استمراره في السلطة إنما كان يتوقف على استمرار ولائه للعثمانيين ومقدار هذا الولاء، مما كان يضعه في موقف حرج إزاء الزعامات الشامية التي كانت تنظر إليه على أنه موظف عثماني. هذه الزعامات المحلية مثل المعنيين وآل حرفوش ممن استمدوا سلطتهم نظراً لأنهم أسر محلية متعاقبة بغض النظر عن أي منصب رسمي قد يكونوا تولوه، فلذا فقد كان يكفيهم أن يتملقوا الباب العالي العثماني. لكن وضع يوسف سيفا كان مخالفاً لذلك، فقد كان مضطراً ان يظهر باستمرار جدارته وأهليته كبيلر بك، بقتال أعداء السلطان العثماني في بلاد الشام، الذين كانوا زعامات محلية ثابتة. ويبدو أن هذا هو السبب الذي جعله يطلب من الباب العالي، أن يعينه أميراً على عساكر بلاد الشام «سردار» لقتال علي باشا جانبولاد عام ١٦٠٦. حقيقة ان الهزيمة المنكرة التي لحقت به في تلك المناسبة، لم تعزز موقعه سواء لدى الباب العالي أو بين رعاياه في ولاية طرابلس إذ أكدّت على الأرض وجهة نظر الباب العالي بأنه رجل لا يمكن أن يشكل أي خطر على الحاكم العثماني في بلاد الشام، ومما لا شك فيه أن هذا

هو السبب الذي جعله يستمر في منصبه بصفة بيلر بك ولاية طرابلس حتى وفاته. إذ ان الباب العالي كان مقتنعاً بأنه مهما بلغ ضعف يوسف سيفا، فإنه يبقى الرجل الموالي للدولة. وهذا هو السبب الذي عزز مكانته في ولاية طرابلس، وخاصة في مدينة طرابلس نفسها حيث كان السكان من السنة، شديدي الولاء للسلطان العثماني بصفته زعيم دولة الإسلام، ولذا فقد كان يوسف سيفا يكسب سياسياً من الوقوف باستمرار إلى جانب القضية العثمانية.

مجاملة يوسف سيفا للزعامات الشامية المحلية

وفي حين ظل يوسف سيفا خادماً أميناً للسلطان العثماني، فقد توجب عليه إقامة كل أنواع المجاملات مع الزعامات الشامية المحلية لكي تكون علاقته جيدة معهم. فعلى أثر هزيمته أمام علي جنبلاط آثر أن يسالم الأخير وأن يصاهره، على أمل أن تؤدي هذه الخطوة إلى التسليم به محلياً كزعيم محلي بين بقية الزعامات المحلية، وأن يرسخ أسرته على أنها سلالة حاكمة من أصل محلي في الريف الشامي، حيث انها في الواقع ليست كذلك، لعل ذلك قد يساعده في المستقبل أن يستقل نسبياً عن الباب العالي. ولهذا الغرض الأخير سعى يوسف سيفا أن يقيم بعض تحالفات مع عناصر محلية، على أمل أن تمكنه هذه التحالفات من تقوية مكانته في المنطقة، كما من شأنها أن تضعف الزعامات المحلية المجاورة التي كانت على عداوة معه، ووجد يوسف سيفا هؤلاء الحلفاء من بين أخصام أعدائه وعلى الأخص الزعامات الدرزية المعادية لفخر الدين.

وبنتيجة هذه التحالفات المحلية التي أقامها يوسف سيفا منذ السنوات الأولى من القرن السادس عشر، تحول تماماً إلى شامي بحيث أن سلوكه السياسي كان يماثل تماماً باقي الزعماء المحليين، باستثناء وحيد هو أن يوسف سيفا لم يكن يتمتع بتأييد محلي على غرار باقي الزعماء الشاميين.



□ بعلبك ١٨٣٤ ــ ليدي لويزا تنيزون.

وأثارت تحالفات يوسف سيفا ومحاولاته لجعل نفسه زعيماً سياسياً محلياً في بلاد الشام، مخاوف العثمانيين، فعزل من منصبه في عام ١٦٠٧، لكن ذلك لم يؤد إلى إضعافه نهائياً، فسعى إلى تحسين علاقته بالمعنيين، وذلك بالقتال إلى جانبهم في حوران عام ١٦١٣. لكن هذه العلاقة الحسنة لم تستمر طويلاً، فقد جرد والي دمشق أحمد باشا الحافظ حملة لقتال المعنيين في عام ١٦١٣، وهي الحملة التي أجبرت فخر الدين على الفرار إلى توسكانا. فانحاز يوسف سيفا إلى جانب العثمانيين وأبدى نجله حسين كفاءة عالية وحماساً شديداً في قتال المعنيين. فكان لتلك المساعدة صدى طيب لدى السلطات العثمانية، فكوفىء حسين يوسف سيفا على ذلك بتعيينه والياً على طرابلس في عام ١٦١٤، ولم يرد هذا التعيين لدى الخالدي ولا الدويهي ولا الغزي، ورغم أن يوسف سيفا لم يكن يحمل أية صفة رسمية، ولكنه كان في الواقع يمارس سلطة فعلية في ولاية طرابلس، في حين كان ابنه حسين يحمل اللقب.

لكن حدوث تغيرات في استامبول ودمشق كانت نذير نحس على آل سيفا، فعزل حسين سيفا من منصبه في أوائل عام ١٦١٦ وعين بدلاً عنه حسين باشا الجلالي: وكمحاولة من حسين سيفا لاستعادة حظوته لدى الأخير انضم إلى الحملة التي كان يعدها على فارس. لكن هذه البادرة لم تنقذ حسين سيفا، فقد تلقى الباب العالي شكاوى كثيرة ضده، دفعته إلى أن يأمر بقتله وإرسال رأسه إلى الآستانة، ونفذ الأمر في ٢٢ آذار ١٦١٧ رغم العروض المالية السخية التي وعد بها والده يوسف.

انتقام فخر الدين من آل سيفا

وفي كانون الأول ١٦١٧ عاد فخر الدين من منفاه الطوعي إلى جبل الدروز، ورغم ان آل سيفا لم يكونوا وحدهم من بين الزعامات الشامية التي انضمت إلى حملة والي دمشق الحافظ باشا، التي كانت قد أجبرت فخر الدين على الفرار إلى إيطاليا، فقد كانت مخاوفهم أكثر من غيرهم بسبب هذه العودة، بسبب الأضرار البالغة التى الحقوها في الشوف موطن آل معن، عن طريق نهب وإحراق القرى هناك. ولذا لم يكن غريباً أن يبادر فخر الدين إلى الانتقام من أخصامه.

ولا يشير د. أبو حسين في أية سنة وكيف استبدل والي طرابلس حسين باشا الجلالي بـ يوسف سيفا، وإنما جاء في ص ٤٣ السطر الثاني من المقطع الأول عن عزل يوسف سيفا من ولاية طرابلس في ١٠٢٨هـ/١٦١٨ ــ ١٦١٩ وتعيين عمر باشا كيتانجي بدلاً عنه. وكان الأخير عاجزاً عن مد سلطته على كل أجزاء ولاية طرابلس حتى ان هذه السلطة لم تكن تمتد إلى أبعد من حدود مدينة طرابلس، فاستفاد من هذا الوضع فخر الدين وعرض على الباشا مساعدته في التعامل مع يوسف سيفا، فرحب بالعرض وطلب منه قتال الأخير، وبالفعل نجحت القوات المعنية في إجبار يوسف سيفا على الفرار من حصن عكار إلى حصن الأكراد حيث تحصن مع حلفائه الدروز: في حين فرض فخر الدين حصاراً على الحصن، لكنه اضطر إلى رفع الحصار، نتيجة تدخل واليي حلب ودمشق، اللذين وجدا في النزاع المعني السيفي فرصة لتحقيق مكاسب مالية، كان لها دورها (المكاسب المالية) أيضاً في استصدار فرمان في ربيع الثاني ١٠٢٨/آذار ــ نيسان ١٦١٩، بإعادة تعيين يوسف سيفا والياً على طرابلس.

ورغم عودة يوسف سيفا والياً على طرابلس، فإنه كان يواجه مشاكل مالية خطيرة في ذلك الوقت، بحيث اضطر إلى الاعتراف بتلزيم ناحيتي جبيل والبترون إلى الأمير فخر الدين لمدة أربع سنوات، مقابل تسديد الأخير المبالغ التي تعهد بدفعها يوسف سيفا لسلطات الآستانة لجعل فخر الدين يفك الحصار عن حصن الأكراد. واستفاد الأخير من الأزمة المالية عن طريق عرض مبالغ مرتفعة على الاستانة، مقابل عزل يوسف سيفا من منصبه، بحيث كان الأخير يضطر إلى عرض مبالغ أكبر من أجل تثبيته، ولكن حين حان موعد التسديد عجز عن الدفع، فصدرت أوامر إلى فخر الدين في شعبان ١٠٣٠/حزيران ــ تموز ١٦٢١ بجباية الأموال المتأخرة عن ولاية طرابلس.

وإذا تمكن يوسف باشا سيفا وللمرة الثالثة من استرضاء سلطات الآستانة لكن ذلك لم يخلصه من فخر الدين، ذلك أن الأخير كان قد قرر الانتقام من خصمه وضرب ما له من مكانة ونفوذ في الشام، عن طريق إغراء بعض أمراء آل سيفا ومحالفي يوسف سيفا من الزعامات الشامية بالتخلي عنه والوقوف إلى جانب الأمير المعني، وكذلك عن طريق السيطرة بوسائل مختلفة على جانب كبير من المقاطعات والأملاك الخاضعة لالتزام الباشا. وهذا العامل الأخير مهم للغاية لأن النجاح في تنفيذه من شأنه زعزعة وضع يوسف سيفا المالي، مما يجعله عاجزاً عن تسديد العائدات التي تعهد بدفعها إلى الاستانة في حين من شأن هذا العامل زيادة البحبوحة المالية التي كان ينعم بها فخر الدين، ومضاعفة عدد الأتباع الخاضعين له والمستعدين للقتال إلى جانبه عند اللزوم، وهما أمران مهمان للغاية بالنسبة لفخر الدين في صراعه السياسي مع يوسف سيفا لانتزاع ولاية طرابلس منه. ففي كل مرة كان يصدر فرمان بعزل يوسف سيفا عن ولاية طرابلس، كان يمتنع عن التنفيذ ويتخذ إجراءات عسكرية لمنع الوالي المعين من دخول عاصمة الولاية وتسلم مهام منصبه، إلى حين تمكن معاونه الموجود في الاستانة من استرضاء السلطات العثمانية مقابل بذل وعود بدفع مالية باهظة، فتصدر أوامر بإعادة تثبيت يوسف سيفا في منصبه، لكن الأخير نادراً ما كان يسدد الأموال التي تعهد بدفعها. وخلال هذه الأزمات كان كلا الطرفين، أي يوسف سيفا والسلطات العثمانية، بأمس الحاجة إلى مساعدة فخر الدين، لكن الأخير لم يكن يتحرك وفقاً لما تمليه عليه مصالحه. فمنذ عودة فخر الدين من منفاه في كانون الأول (ديسمبر) ١٦١٧ وحتى ٢٢ تموز ١٦٢٥ وهو تاريخ وفاة يوسف سيفا، عزل الأخير من منصبه وأعيد إليه خمس مرات.

تفكك الأسرة السيفية

وبغياب يوسف سيفا الذي خلال حياته كانت وحدة الأسرة السيفية يشوبها الغموض، وخاصة خلال الفترة التي سبقت نهايته، كان من الطبيعي أن تتفكك الأسرة كليا بعد غيابه. فإذا كان أبناء المؤسس قد اتفقوا عند وفاة والدهم على تقسيم أملاكه فيما بينهم، دون أن يكون للباب العالي أي شأن في ذلك، فقد نجح الأخير بمعاونة فخر الدين المعني من توجيه ضربة لهؤلاء الأبناء كادت أن تقضي عليهم، وأعاد سلطته إلى مقاطعات الولاية. ففي خلال الفترة الممتدة من ١٦٢٥ ــ ١٦٢٧ تسلم إدارة الولاية ثلاثة ولاة عثمانيين، إلى أن نجح فخر الدين المعني بالحصول عليها واستمر بإدارتها إلى حين سقوطه في ١٦٣٣.

وأتاح سقوط فخر الدين لآل سيفا، فرصة العودة مجدداً إلى مسرح الحياة السياسية في بلاد الشام، لكن هذه العودة كانت قصيرة غيرناضجة، نتيجة الانقسام الداخلي الذي نشب بين أفراد البيت السيفي، مما جعلهم عاجزين عن ممارسة مهامهم. فخلال سنتين من حكمهم ١٦٣٥ ــ ١٦٣٦، عانت مدن وقرى مقاطعات ولاية طرابلس من الانتقال الداخلي بين هؤلاء الأمراء، مما دفع سلطات الاستانة إلى التخلي عن سياسة الاستعانة بأمراء البيت السيفي ليكونوا حكام ولاية طرابلس، واكتفت بتقسيم مقاطعات الولاية فيما بينهم يخضعون لسلطة بيلر بيك يقيم في العاصمة طرابلس، لكن هذه السياسة لم توقف العداوة والاقتتال الداخلي بين أفراد البيت السيفي، الذي ألحق الخراب والتدمير بمدن وقرى الولاية، ورغم الشكاوى العديدة التي وردت إلى الاستانة بحق الأمراء المذكورين، لم تكن السلطات العثمانية راغبة في القضاء عليهم. وإنما فقط «شد آذانهم» وتحذيرهم بالكف عن أعمالهم الوحشية وإلا فسوف تضطر إلى تصفيتهم، لكنهم لم ينصاعوا إلى هذا التحذير، مما دفع السلطات العثمانية تكليف الوالي الجديد برجل أحمد باشا بتصفية وجود آل سيفا في ولاية طرابلس.

صورة آل سيفا

ومما ينبغي الإشارة إليه أن صورة آل سيفا في المصادر التاريخية قد شابها التباين، ففي حين يشير المؤرخون الشاميون إلى أن آل سيفا عرفوا بكرمهم ورعايتهم للشعراء والمتصوفين، وانــه

لم يخرج عن هذه القاعدة سوى حسين سيفا الذي عرف بقساوته المتناهية الشدة. نجد المؤرخ العثماني نعيمة يصف يوسف سيفا بالقاتل الذي أرعب الأهالي ليبتز منهم أموالهم، كما أشار الرحالة الإنجليزي (Sandys)، الذي زار بلاد الشام عام ١٦١٠، بأن يوسف سيفا كان مكروهاً من الأهالي بسبب مظالمه الشديدة.

ويؤخذ على آل سيفا انهم لم يوجهوا اهتمامهم الشديد من أجل تطوير اقتصاد ولايتهم أو مدينتهم طرابلس، كما فعل فخر الدين في الوقت نفسه في بيروت وصيدا وعكا وبلاد جبل الدروز وسنجق صيدا. كما جاء فعلاً في المصادر التاريخية ان فخر الدين حين اسندت إليه مهام ولاية طرابلس بعد ١٦٢٧، قام بزرع ما يقارب ١٢ إلى ١٤,٠٠٠ نصبة توت لزيادة إنتاج الحرير، في حين لا يوجد أية إشارة إلى قيام يوسف سيفا بعمل مماثل في طرابلس، كما لا توجد أية إشارة إلى اهتمام أبداه أي من أمراء آل سيفا من أجل إنتاج الصابون في طرابلس، رغم ان الصابون كان من أهم محاصيل الولاية. بالإضافة إلى كل ذلك كان بإمكان طرابلس تحت إدارة آل سيفا أن تتنافس بسهولة كميناء، مع بيروت وصيدا وعكا التي كانت خاضعة للحكم المعني، وعلى الأخص إمكانية الوصول إليها بسهولة من الداخل الشامي. ولكنها في الواقع لم تلعب هذا الدور، ويعود جانب من ذلك أن آل سيفا لم يحاولوا القيام بأي عمل لتطوير تجارتها، وإنما بالعكس فمن المعروف أنه كان من نتائج ممارستهم، إعاقة التجار الأجانب من القيام بتبادل التجارة مع طرابلس.

اما من حيث القاعدة العسكرية التي اعتمد عليها آل سيفا في فرض سلطتهم في مقاطعات عكار وولاية طرابلس، فنظراً لعدم تزويد العثمانيين لآل سيفا بقوات نظامية لتكون تحت تصرفهم لكونهم معينين بصفة ولاة، فقد لجأوا إلى استثمار قوات مأجورة من السكبان، كانت متواجدة في كل أنحاء بلاد الشام، ومستعدة لتقديم خدماتها لأي زعيم أو حاكم إقليمي قادر على الدفع لهم. كما كان واضحاً أيضاً ان آل سيفا كانوا يجدون المساعدة العسكرية من بين انكشارية دمشق، وكذلك من بين قبائل البدو الخاضعين لحكمهم، كقبيلة بني الفضل في عكار وحمص، وأمراء رأس نحاش الأكراد الذين كانوا حلفاء لآل سيفا في طرابلس.

ويبدو انه لم يكن لآل سيفا قاعدة سلطة محلية في منطقة طرابلس، على اعتبار انهم في الأصل من التركمان الغرباء عن تلك المنطقة. ومهما يكن الدعم العسكري المحلي الذي نعموا به في المنطقة التي حكموها، فلم يكن ذلك أكثر من اغتنام فرصة.

وبمجرد تصفية آل سيفا من المنطقة، فقد أغفل ذكرهم تماماً، لكن لا يمكن أن نقول ذلك عن بقية الزعامات المحلية الشامية ذات الجذور الراسخة.

الزعامة المعنية

يتصدر الفصل الذي خصصه د.أبو حسين للحديث عن الزعامة المعنية، دراسة عن طبيعة الزعامة الدرزية في جبل الدروز، فيشير بأن تاريخ استقرار آل معن في الشوف إنما يعود إلى فترة زمنية أطول بكثير من الفتح العثماني لبلاد الشام، وبان الزعامة المعنية لم يكن معترفاً بها لدى كل دروز جبل الدروز، كما لم يكن كل الشوف تحت حكمهم، ويرجح أن يكون المعنيون قد حكموا الجزء الذي أطلقت عليه الوثائق العثمانية، لسنوات ١٥٢٣ و ١٥٣٠ و ١٥٣٤، اسم «شوف ابن معن». كما وصفت وثيقة عثمانية قرقماز معن على انه مقدم الدروز، ولذا فإن لقب أمير الذي أطلقته المصادر المحلية لا يعني منصباً رسمياً في الخدمة العثمانية، وإنما مجرد تقليد محلي. وبخلاف ابنه فخر الدين لم يترق قرقماز في الخدمة العثمانية إلى رتبة بيك أو أمير، إنما كان مجرد ملتزم أو جابي ضرائب في بلاد الشوف، في حين تمتعت أسر محلية أخرى بلقب «مقدم» مثل آل أبي اللمع في كفرسلوان وآل الصواف في الشبانية، والمقدم زعيم محلي معين على وحدة أميرية محدودة ومكلف بجباية الضرائب المحلية، ولقب أمير الذي أطلق على بعض المقدمين، كما هو الحال في قضية الوجيه قرقماز المعني، إنما



□ الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير.

يعكس بروز عائلات المقدمين لمدة طويلة بين أبناء محلتهم أو ضمن جماعتهم، وليس نتيجة تعيين رسمي لهذه الرتبة أو اللقب.

كمّا تواجد إلى جانب لقب مقدم لقب شيخ، وهو يشير إلى وجيه أو صاحب منصب ديني أو زعيم قبيلة، ونماذج المشايخ التي كانت موجودة بين الدروز والموارنة والشيعة، تشير إلى أن نموذج الشيخ الزعيم غالباً ما كان من النوع شبه القبلي. وبأنه كان لمشايخ الدروز أتباع محازبون مما جعلهم يلعبون أدواراً مهمة وفاعلة في السياسة المحلية.

ويعيد د. أبو حسين جذور الصراع اليزبكي ـ الجنبلاطي إلى بداية القرن السابع عشر، وهي حزبية برزت فيما بعد في القرن الثامن عشر ولا زالت قائمة إلى أيامنا هذه وبأن المعنيين لم ينعموا بنموذج الزعامة الوحيدة التي يلتف حولها الجميع في المجتمع الدرزي، فقد كان هناك أيضاً مقدمون ومشايخ يمارسون نوعاً من السلطة على أتباعهم وأبناء محلتهم. كما ينفي د. أبو حسين ما ورد لدى مؤرخي عصرنا الحديث هولست ورافق وبخيت عن وجود انقسام قيسي ـ يمني بين الدروز أيام فخر الدين، وبأن أياً من المؤرخين المعاصرين لم يشر إلى أن يوسف سيفا يمني، كما لم يصف أحداً فخر الدين بأنه قيسي.

توتر العلاقات المعنية ـ العثمانية

ويشير د. أبو حسين بأن العلاقات المعنية ـ العثمانية قبل فخر الدين قد شابها التوتر، وينفي ما ورد لدى المؤرخين المتأخرين عن وجود فخر الدين المعني الأول أثناء الفتح العثماني لبلاد الشام، ففي خلال هذه الفترة كان يحكم الشوف ثلاثة حكام معنيين هم، قرقماز بن يونس وعلم الدين سليمان وزين الدين، وقد كان لهؤلاء دور في ثورة ابن الحنش عام ١٥١٨. وفي عامي ١٥٢٣ و ١٥٢٤ أغار والي دمشق على الشوف الحيطي لقمع تمرد حصل هناك فأحرق عدداً كبيراً من القرى ونقل إلى دمشق ثلاثة أحمال رؤوس، وعين سباهية من قبله لحفظ الأمن وجباية الضرائب، تمكنوا من القيام بالمهام الموكولة إليهم حتى مطلع النصف الثاني من القرن السادس عشر. لكن حيازة الدروز الأسلحة النارية بعيدة المدى، التي زودتهم بها بعض القوى الأوروبية المهتمة بخلق الاضطرابات للعثمانيين في بلاد الشام، ساعدتهم عام ١٥٦٥ على التمكن من طرد بعض السباهية وقتل البعض الآخر، وحين حاول العثمانيون قمع التمرد المذكور منيت عساكرهم بهزيمة في عين دارا. ومنذ ذلك الحين وحتى عام ١٥٨٥ فشلت كل المحاولات التي بذلتها السلطات العثمانية لتجريد الأهالي من السلاح وإجبارهم على دفع الضرائب العائدة للدولة، إلى أن كان عام ١٥٨٥ حين قاد إبراهيم باشا والي مصر حملة قوية اجتاحت جبل الدروز، فاضطر قرقماز المعني إلى الفرار إلى كهف حيث توفي هناك. وهذا هو السبب الحقيقي الذي أدى إلى نهاية قرقماز وليس وفقاً لما ورد لدى المؤرخين المتأخرين، عن نهب اللصوص في جون عكار لقافلة «خزنة مصر»، نقلاً عن الدويهي الذي أورد تفاصيل هذه الحادثة مشوشة، ويفسر د. أبو حسين أسباب هذا التشويش.

ترقية فخر الدين من رتبة مقدم إلى أمير

وبعد خمس سنوات من وفاة قرقماز خلفه فخر الدين بصفة مقدم على الشوف، فتحالف مع عدد من الزعامات الشامية وبذل كل الجهود الممكنة من أجل بناء قواه العسكرية، كما اهتم بكسب ولاء السلطات العثمانية في ولاية دمشق. ولذا فعند وصول والي دمشق الجديد مراد باشا إلى ميناء صيدا في ١٠٠١/١٥٩٢ ــ ١٥٩٣، رحب به فخر الدين بحرارة وقدم له هدايا قيمة، فأحال مراد باشا سنجق صيدا إلى فخر الدين، وبذلك رقي فخر الدين من مجرد مقدم على الدروز إلى سنجق بك أو أمير لوا.

ولاحظ العثمانيون قدرات فخر الدين العسكرية، فاعترفوا به زعيماً درزياً أعلى، وفي ١٦٠٢ عين بصفة سنجق بك صفد، وبذلك صار دروز السنجق يخضعون لسلطته، كما تواجد الشيعة إلى جانب الدروز وكانوا موضع خشية السلطات العثمانية منذ نشوب الحرب العثمانية ــ الفارسية عام ١٥٧٨، ومن الممكن أن يكون تعيين فخر الدين بهدف تجنيب السلطات العثمانية من مشكلة التعامل المباشر مع الشيعة، فبدلاً من تعيين حاكم عثماني لهذه الغاية، يمكن لفخر الدين الاعتماد على أتباعه الدروز لضبط الشيعة في تلك المنطقة، واستطاع خلال حكمه لصفد أن يعيد إليها الازدهار الذي فقدته.

واستفاد فخر الدين من انغماس العثمانيين في غمار حرب على الجبهتين الشرقية والغربية، فعمل على تقوية نفسه بحيث يكون حاكماً شبه مطلق الصلاحية في البلاد الخاضعة لسلطته، كما

اقتنص هذه الفرصة أيضاً لبناء جيش قوي عناصره من السكبان، وتحصين القلاع المتواجدة في البلاد الخاضعة لسلطته. هذه الحرب، وشراء فخر الدين لموظفي الدولة،من الصدر الأعظم إلى أقل آغا،بالهدايا الوفيرة التي كان يكسبها من اتباع السلطان، هما السبب في تركه من العثمانيين يفعل ما يشاء.

أما عن الأسباب التي جعلت فخر الدين ينضم بقواته إلى المتمرد علي باشا جانبولاد في ١٦٠٧، فليس نتيجة عدم اعتباره للسلطات العثمانية، ولكن بسبب تعيين خصمه يوسف سيفا قائداً أعلى للقوات العثمانية في بلاد الشام المتوجهة لقتال علي جانبولاد، ولم ينضم إلى الأخير إلا بعد الانتصار الذي أحرزه: حيث رأى ان الانضمام الآن يمكنه من ضم بيروت وكسروان إلى ممتلكاته. وحين تمكنت السلطات العثمانية من سحق تمرد علي جانبولاد، رفض الوزير العثماني المنتصر مراد باشا الاقتصاص من فخر الدين بناء لطلب أعيان دمشق، بسبب العلاقة الودية التي كانت تربطهما منذ أن كان الباشا المذكور والياً على دمشق.

وبالنسبة للصدام الأول لفخر الدين مع العثمانيين فيعود ذلك لأسباب إقليمية وشخصية أورد ذكرها الخالدي، إلى جانب تطورات دولية ينبغي الإشارة إليها، فقد وقّع فخر الدين معاهدة رسمية مع توسكانا، وفي الوقت نفسه كان العثمانيون في حالة سلم مع القوى الأوروبية، وكذلك في حالة سلم مع الفرس ووقّعوا معهم معاهدة في ١٦١٢، كما كانوا قد تمكنوا من تدمير العديد من حالات التمرد في الأناضول، وبصورة عامة المتمردون الذين يطلق عليهم الجلاقي. هذه الظروف أعطت العثمانيين حرية أوسع للنظر إلى أمور بلاد الشام، وأن يقسوا في التعامل مع الزعامات المحلية، من العاملين في خدمة الدولة، ممن بدأوا يظهرون العصيان، أمثال فخر الدين.

لجوء فخر الدين إلى ايطاليا

وحين أدرك فخر الدين أن معظم القيادات الشامية المحلية قد تخلت عنه رغم التحالف القائم بينه وبينهم، وحتى أولئك الذين قد أمدهم بالمساعدة العسكرية قبل الحملة العثمانية، القادمة لقتاله، بوقت وجيز، قرر تجنب الصدام مع العثمانيين بمغادرة البلاد. وهذا دليل على هشاشة التحالفات التي أقامها الأمير المعني، واستمرارية مرونة السلطة العثمانية بالرغم من استمرار الانهيار في سلطة الدولة، ومحاولة من السلطة العثمانية لتأكيد سلطتها على بلاد الشام، حين تعرضت هذه السلطة للتهديد الفعلي، كما اثبت للسكبان فخر الدين أن العمل الذي بإمكانهم تأديته بنجاح هو مضايقة الزعامات المحلية، أما في مواجهة العثمانيين فأثبتوا أنه لا يمكن الاعتماد عليهم.

وبرحيل فخر الدين إلى ايطاليا، سلخت السلطات العثمانية سنجقي صيدا ــ بيروت وصفد وناحية كسروان من ولاية دمشق واستحدثت منهم ولاية صيدا، وعينت حسن باشا البستاني والياً في جمادي الأول ١٠٢٣/حزيران ــ تموز ١٦١٤، الذي أصدر أمراً إلى حسن المعني بتعيينه ملتزماً على الشوف، وبهذا التعيين يكون حسن المذكور قد جرد من سلطته الشرعية، وتحول من معين من قبل السلطة الرسمية إلى معين من قبل حكومة الولاية، وبذلك خفضت مرتبة آل معن إلى حجمهم الأصلي كملتزمي جباية في الشوف. لكن الولاية الجديدة لم تستمر طويلاً فقد صرف البستاني باشا من منصبه في أوائل عام ١٦١٥، وعادت السناجق المكونة لها إلى نطاق ولاية دمشق.

وهناك حقيقة هامة ينبغي الإشارة إليها، إن غياب فخر الدين في توسكانة، الذي استمر خمس سنوات، دفع إلى السطح التركيب السياسي للمنطقة التي كانت سابقاً خاضعة لحكمه، ونعني بها المنطقة المحصورة بين سنجقي صيدا ــ بيروت وصفد، ففي سنجق صيدا ــ بيروت برز بالقوة على المسرح السياسي زعماء سياسيون دروز من غير المعنيين، معظمهم من المعارضين لهم، نجحوا في معارضة آل معن بصفتهم أصحاب السيادة العليا في المجتمع الدرزي. وفي سنجق صفد عادت إلى البروز زعامات شيعية كان فخر الدين قد نجح ظاهراً في تخفيض شأنها وقمعها، لتحاول إعادة تنظيم مجتمعها السياسي، ولضم قواها إلى يونس الحرفوش

الزعيم الشيعي صاحب السيادة في بعلبك والبقاع.

وفي عام ١٠٢٤/١٦١٥ كان المعنيون قد أصبحوا في غاية الضعف، فأعيد تعيينهم على سنجقي صيدا ـ بيروت وصفد، وإعادة التعيين هذه كانت قد أصبحت ممكنة بعد التغيرات السياسية التي حدثت في دمشق واستامبول معاً. فقد عزل خصم آل معن أحمد باشا الحافظ من ولاية دمشق في ربيع أول ١٠٢٤/نيسان ١٦١٥، أما في استامبول، فقد استبدل الصدر الأعظم الذي أمر بالحملة التي أجبرت فخر الدين الفرار إلى ايطاليا، بآخر يدعى محمد باشا القبودان. وفي هذه الأثناء عادت العداوة العثمانية الفارسية لتظهر من جديد في أوائل ١٦١٥، وقام محمد باشا نفسه بقيادة الجيش العثماني إلى جبهة الحرب. وبذلك صارت السلطات العثمانية بأمس الحاجة إلى مشاركة كل القوات الموجودة في بلاد الشام، ممن شاركت في الحملة على الإمارة المعنية، على الجبهة الفارسية، وبدلاً من الهجوم الذي يضعف المعنيين ويكبلهم، باشر العثمانيون المفاوضات معهم. وتم تلزيم سنجقية صيدا للأمير علي وسنجقية صفد للأمير يونس مقابل تهديم قلعتي الشقيف وبانياس، ومع ذلك واجه المعنيون تمرداً درزياً خطراً في جبل الدروز، كان يلقى الدعم والتأييد من يوسف سيفا، ورغم ذلك تمكن المعنيون من قمع هذا التمرد واستعادوا بيروت وكسروان، كما واجهوا معارضة من بعض الزعامات الدرزية التي كانت حليفة لهم، لكن عودة فخر الدين من المنفى عام ١٦١٨ أخمدت تحركهم، الذي كاد يتخذ شكل التمرد العلني، كما ان هذه العودة كان لها دور فعال في الحد من التحرك الشيعي المضاد لآل معن، وإكراه المنشقين الدروز والشيعة على المساهمة في حملاته العسكرية.

عودة فخر الدين من المنفى

ومهما يكن من أمر، فإن إنجازات فخر الدين بعد عودته من إيطاليا، تمتد إلى أبعد من تثبيت سلطته وسلطة الأسرة المعنية بشكل عام في منطقة تقليدية تحت إدارته. فبعد ١٦١٨ كان هناك توسع إقليمي مثير لسلطته في كل الاتجاهات، فاستخدم حججاً متعددة للتعدي، خطوة أثر خطوة، على أراضي آل سيفا، وأحياناً كان يلجأ إلى ذلك عن طريق مساعدة باشاوات معينين ليحلوا مكان يوسف سيفا في طرابلس، وفي أحيان أخرى كان يلجأ إلى ذلك تحت حجة الضغط لتسديد ديون، إضافة إلى أنه في أحيان أخرى كان يتدخل في الخلافات التي تنشب في الأسرة السيفية ليمد سلطته على حساب آل سيفا، وبهذه الوسائل تمكن من التزام جبيل والبترون وسيطر على منطقة صافيتا وعكار، واحتل لفترة وجيزة طرابلس وعين حاكماً من قبله على بشري.

وبالرغم من ان كل الزعامات الشامية قد انفضت عن المعنيين أثناء حملة أحمد باشا الحافظ، لكن يونس الحرفوش تميز عنها جميعاً بسعيه إلى إضعاف آل معن عسكرياً، بالرغم من ان كل الإنجازات السياسية التي أقامها إنما كانت نتيجة تحالفه مع آل معن. وبعودة فخر الدين من المنفى ساءت علاقته مع الأسرة الحرفوشية نتيجة لسياسته التوسعية، فقد اعتبر أمير الدروز هؤلاء أتباعاً له، لكن لم يبدو على الآخرين الاعتراف بهذه السيادة. نشب بين الأسرتين نزاع، كانت خلاله الأسرة الحرفوشية تجد تأييداً من سلطات دمشق، ورغم ذلك فقد نجح فخر الدين في غزو آل الحرفوش في عقر دارهم في البقاع فنهب قراهم وصادر إنتاجهم الزراعي ومواشيهم. فكان رد فعل سلطات دمشق إحالة التزام سنجق صفد إلى يونس الحرفوش، ورفض كل العروض المالية المغرية التي تقدم بها فخر الدين. لكن بحدوث تطورات سياسية في استامبول، صدر فرمان بإعادة آل معن إلى سناجقهم القديمة صفد وعجلون ونابلس، لكن سلطات دمشق اعتبرت الفرمان السلطاني مزوراً.

ورغم ان والي دمشق مصطفى باشا لم يكن راغباً في أن يكون طرفاً في النزاع القائم بين الانكشارية المحلية والزعماء المحليين، كالنزاع بين كرد حمزة والحاج كيوان ونزاع يونس الحرفوش وفخر الدين، فقد سيطرت عليه انكشارية كورد حمزة وجعلوه العوبة في أيديهم. وحين تنامى إلى فخر الدين أن قوات والي دمشق

ومعهم يوسف الحرفوش وعمر سيفا قد أقاموا معسكراً عند ميسلون في طريقهم إلى البقاع، تحرك بقواته من قب الياس، التي كان قد نهبها مع الكرك وسرعين انتقاماً من آل حرفوش، إلى قرية عنجر حيث تجمعت القوات المعادية، وفي بداية الأسبوع الثاني من شهر تشرين الثاني استطاع أن ينزل بهم هزيمة قاسية. وتمكن رجاله من القبض على مصطفى باشا نفسه. ورغم ذلك فقد عامله فخر الدين باحترام وسعى للاستفادة من أسره ليؤكد له بأن حربه إنما كانت ضد آل الحرفوش، وللحصول منه ما أمكن من التنازلات. ونجح أمير الدروز بالحصول عن عفو عن كل قادة الانكشارية الذين فروا من دمشق والتحقوا بقواته كما جرت ترقيتهم إلى رتب أعلى، وألقى أهالي دمشق القبض على انكشارية كورد حمزة حيث جرى شنقهم في القلعة، وأعيدت سناجق صفد وعجلون ونابلس إلى فخر الدين وأضيف إليها سنجقا غزة واللجون وناحية البقاع.

سياسة فخر الدين التوسعية

وبذلك بلغ فخر الدين قمة نفوذه، وشعر أنه أصبح الآن حراً في متابعة سياسة التوسع دون توقع أي خطر من صدام آخر مع السلطات العثمانية في دمشق، ولعب دوراً بارزاً في الصراع الذي نشب على منصب ولاية دمشق، بين حليفه مصطفى باشا ومحمد باشا المرسل من قبل الاستانة لتولي هذا المنصب، وتطلع كلا الواليين لمساعدة فخر الدين، فمنح في البداية تأييده لمصطفى باشا، لكنه ما لبث أن بدل موقفه ومكن محمد باشا من مباشرة مهام منصبه، حين تأكد لديه أن تعيين الأخير لن يلغى، وكذلك تلقيه رسائل من الباب العالي بتقديم المساعدة لمحمد باشا بكل ما يحتاجه. لكن وفاة الأخير في نيسان ١٦٢٤ أي بعد فترة وجيزة من مباشرته مهام منصبه، جعل الباب العالي يبدل رأيه السابق ويعيد مصطفى باشا إلى منصبه السابق، لذا لم يكن مفاجأة أن يتخذ الباشا العائد موقفاً عدائياً من أمير الدروز.

وفيما كان فخر الدين يتابع توسعه على حساب باقي الزعامات المحلية، كانت السلطات العثمانية منهمكة في مشاكل داخلية إلى جانب حربها مع الفرس. فالسلطان مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠)، كان عاجزاً عن وضع حد لسلطة فخر الدين الفعلية، والمعترف بها رسمياً، على أجزاء كبيرة من بلاد الشام. ونقل كل الذين أرّخوا هذه الفترة ما جاء لدى حيدر الشهابي في كتابه الغرر الحسان، عند منح فخر الدين، لقب جده المزعوم فخر الدين الأول، سلطان البر، لكن المصادر والوثائق المتوفرة لا تؤكد ذلك. فحالياً قد يكون من دون جدوى أن نحاول بحث نشاط فخر الدين ما بعد ١٦٢٤، فالمصادر المعاصرة والوثائق العثمانية المتوفرة لا تتضمن شيئاً حول هذا الموضوع، ففي ١٦٢٥ توفي أهم مؤرخين البوريني والخالدي، في حين ان من بقي خلافهما مثل القزي لا يذكر شيئاً عن أمر الدروز بعد ١٦٢٤. ومن بين المؤرخين المحليين، فقط الدويهي يكتب في أواخر القرن السابع عشر عن السنوات الأخيرة لفخر الدين، وهو ما أشرنا إليه في موضوع آل سيفا.

نهاية فخر الدين

ومن المؤكد ان الانتصارات العسكرية العثمانية على الفرس، في المرحلة التالية التي أعقبت وفاة الشاه عباس الكبير في اسطفان في ١٦٢٦، كانت عاملاً مساعداً للباب العالي أن يتحول ضد فخر الدين، بحيث تمكن من القضاء عليه في ١٦٣٣. وفي حين لا يتواجد مؤرخون معاصرون لنهاية فخر الدين، فقد ورد لدى المؤرخ العثماني نعيمة بأن أمير الدروز أصبح على درجة من القوة بحيث أن الحكومة العثمانية كانت تخشى أن يحتل دمشق، كما زودنا بتفاصيل اعتقاله في الكهف الذي فرَّ إليه، وحيث جرى نقله إلى الاستانة مع نجليه حسين ومسعود، وفي نيسان ١٦٣٥ قطع رأسه وعرضت جثته في الميدان في حين شنق ابنه مسعود ورميت جثته في البحر، أما حسين فقد تم الصفح عنه نظراً لعدم بلوغه سن الرشد، حيث تولى فيما بعد وظيفة رسمية عالية في القصر السلطاني.

وفي نهاية القرن السابع عشر أو مطلع القرن الثامن عشر، كان لا يزال هناك وجهتا نظر متناقضتان في بلاد الشام عن خصال فخر الدين، وجهة نظر إيجابية تبدو من خلال المؤرخ دويهي، عن تسامحه مع المسيحيين والبعثات التبشيرية الفرنسية. أما وجهة النظر الثانية، فهي مناقضة لذلك تماماً، وهي تعكس وجهة النظر الرسمية، وهي إلى حد ما وجهة نظر المؤسسة الإسلامية في بلاد الشام، محفوظة في سجل محكمة دمشق الشرعية، فقد اعتبروا أمير الدروز رجلاً مشهوراً لأنه تمرد على مقام السلطنة.

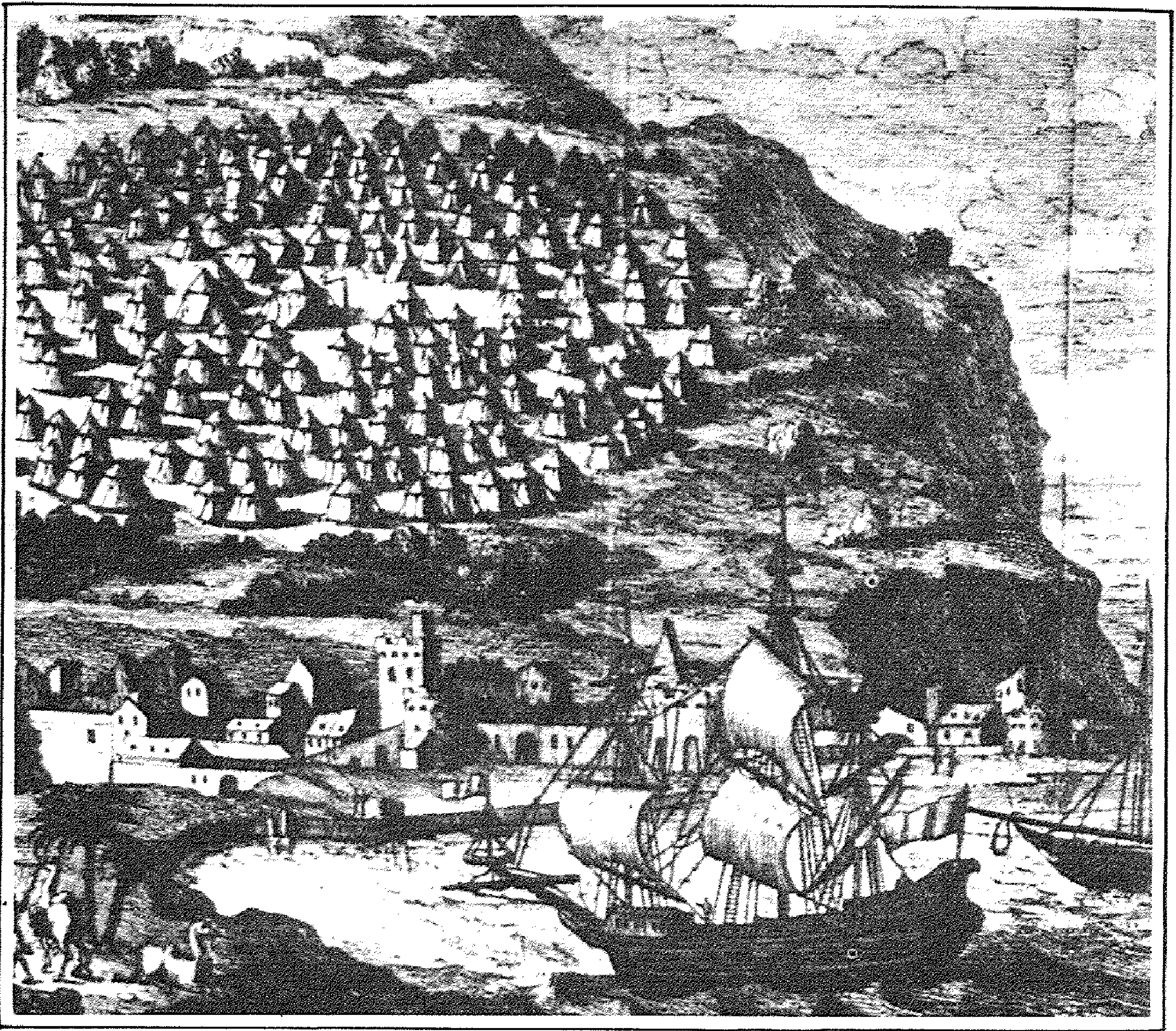
صراع آل الحرفوش وآل العقرا على حكم ناحية بعلبك

ويخصص الدكتور أبو حسين الفصل الثالث من دراسته عن آل الحرفوش الشيعة القرويين زعماء منطقة بعلبك والبقاع، ويشير بأن أصل آل الحرفوش ليس واضحاً، فكلمة حرفوش لفظ شعبي، مرة ترمز إلى ممارسة الصوفية، ومرة أخرى تعني الصوفي الفقير، ويميل إلى الاعتقاد أن يكون آل الحرفوش قد بدأوا تواجدهم في منطقة بعلبك بصفة زعماء شيعة المنطقة الذين هم على المذهب الصوفي. أما عن تاريخ استقرارهم في منطقة بعلبك، فذلك يعود إلى الفترة المملوكية، وبعد الفتح العثماني لبلاد الشام احتفظ آل الحرفوش بسيادتهم الشرعية على منطقة بعلبك، التي كانت بمثابة ناحية من سنجق دمشق في ولاية دمشق، وشاركوا مباشرة في النزاعات المحلية والمؤامرات السياسية التي كانت تشهدها بلاد الشام. وأثناء الحملة العثمانية على جبل الدروز في ١٥٨٥، كان علي موسى الحرفوش ضمن الزعماء الشاميين الذين اعتقلهم العثمانيون ونقلوهم إلى الاستانة، وتولى المسؤولية في بعلبك شخص يدعى أحمد العقرا ابن قنبر.

وبغياب علي الحرفوش كان من الطبيعي أن ينشب صراع على حكم المنطقة بين الأسرتين، انتهى باحتفاظ أحمد العقرا بحكم ناحية بعلبك حتى عام ١٥٨٨/٩٧١ ــ ١٥٨٩، وهي السنة التي عاد بها علي الحرفوش فقبض على أحمد العقرا وقتله. لكن علي الحرفوش لم ينعم طويلاً بحكم ناحية بعلبك، فقد استبدل بـ علي بك ابن أحمد العقرا، ففر إلى عين دارا على أمل أن يساعده الدروز في استعادة حكم الناحية، لكنهم لم يفعلوا، فانتقل إلى دمشق حيث قبض عليه واليها، ثم أمر بقتله مع بعض آل عساف، ولم تتفق الآراء حول سبب قتله، يعتقد البعض بأن الدولة العثمانية صار لديها هواجس جادة عن سلوكه السياسي، حيث بدأت تساورها الشكوك نحو آل الحرفوش، وذلك انها كانت على علم تام بانتمائهم للروافض الشيعة ذوي الصلة المباشرة مع الصفويين الفرس، أعداء السلطنة العثمانية.

ولكي يتجنب مصير والده تظاهر موسى علي الحرفوش بالسنية لكسب ولاء السلطنة العثمانية، فاستطاع بذلك أن يحوز حكم الناحية من علي بك العقرا، دون أن تشير المصادر متى وفي أي سنة نجح في ذلك، ولكنها تذكر عن حصوله على ناحية سنجق حمص بالإضافة إلى ناحية بعلبك في ١٥٩٢/١٠٠١. وفي حين كانت علاقة والده سيئة مع فخر الدين، فقد تحول موسى بمثابة تابع لأمير الدروز طوال الجانب الأكبر من حياته السياسية، وتعاون معه سياسياً وعسكرياً حين كان يطبق سياسة إخضاع معظم الزعماء المحليين في جبل لبنان، وفي البقاع وبعلبك، وكان من الطبيعي أن ينتج عن هذا التحالف، نشوء عداوة بين آل الحرفوش وآل سيفا، وتبادل الغارات على المناطق التابعة لحكم كل منهما.

وكمعظم الزعامات المحلية في بلاد الشام، كان آل الحرفوش يحرصون بصورة دائمة على أن يكونوا على صلة وثيقة بالشخصيات النافذة في دمشق، ومعظمهم من جسم الانكشارية هناك. وينبغي الإشارة بأن هؤلاء الانكشارية كان بإمكانهم خدمة الأمراء المحليين بأكثر من طريقة. إذ كان بإمكانهم أن يقدموا لهم مساعدة عسكرية في مواجهة أخصامهم، كما كان بإمكانهم التدخل لصالحهم حين يواجهون مشاكل مع السلطات العثمانية في دمشق، أو يضغطون ليؤمنوا تعيين الأمراء حكاماً على السناجق



□ رسم لأحد معسكرات الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير.

أو النواحي ونجح موسى الحرفوش في هذا المجال، بحيث تمكن من كسب ولاء انكشارية دمشق وتحويلهم من موقع المعاداة إلى موقع المساندة.

وحتى وفاة موسى الحرفوش فقد سعى للاعتراف به رسمياً كأمير على بعلبك ورأساً لأسرته، ولكن واجهته مشاكل مع أنسبائه معظمها مع ابن عمه يونس الذي كان ينازعه باستمرار على سلطته. وأثناء تمرد علي جانبولاد وهزيمته ليوسف سيفا والقوات العثمانية انضم يونس إلى المتمردين، فحاول موسى التوسط بين الأخيرين وانكشارية دمشق، وإزاء فشل مساعي موسى انسحب من بعلبك إلى دمشق. وحين وافق علي جانبولاد وفخر الدين على رفع الحصار عن دمشق، فرضا على والي دمشق الاعتراف بيونس الحرفوش حاكماً رسمياً على ناحية بعلبك، ولم ينجح موسى في استعادة سلطته حيث ما لبث أن توفي بعد ذلك في ١٧ صفر ١٠١٦/١٣ حزيران ١٦٠٧. وأصبح يونس الحرفوش سيد بعلبك المطلق، وحاول في البداية أن يظهر لفخر الدين بأنه حليفه الرئيسي، ولكنه ما أن شعر بأن وضعه في بعلبك أصبح مأموناً، حتى باشر يتصرف باستقلالية عن أمير الدروز، فبعد أن ساءت علاقة الأخير بالعثمانيين، أعلن يونس عداءه له ووقف إلى جانب العثمانيين. وما ذلك إلا كمحاولة من يونس لإزالة شكوك العثمانيين بأنه كان متعاطفاً مع الفرس، فعندما زحف أحمد باشا الحافظ في عام ١٦١٣ لقتال أمير الدروز، فقد أسرع يونس لإظهار ولائه للباشا وشارك

بفعالية في العمليات العثمانية والمصادمات الجانبية التي جرت في تلك السنة والسنة التي تلتها، على أمل أن يحل مكان فخر الدين بصفة أعلى أمير محلي في جوار لبنان. ولكن السلطات العثمانية لم تكن راغبة في أن يصبح أي أمير محلي في المنطقة فخر الدين آخر، ولذلك بذل العثمانيون ما بوسعهم لتحريض وإثارة الخلافات فيما بين الزعامات المحلية، وبالنسبة ليونس الحرفوش، فيبدو أنه كان لديهم مخاوف أخرى، نظراً للتعاطف الديني بين شيعة الشام والصفويين الفرس.

وتأرجحت علاقة يونس الحرفوش بالعثمانيين بين المد والجزر، ففي حالة رضى هؤلاء عليه كانوا يعملون على مد سلطته على البقاع بالإضافة إلى ناحية بعلبك، وفي حالات الغضب كانوا ينتزعونها منه ويحيلون حكمها إلى آخر، وتجنباً للحالة الأخيرة كان يونس يحاول أن يبرهن ولاءه للعثمانيين عن طريق التعاون معهم ضد المصالح المعنية في بلاد الشام، وكمكافأة له على الدور الذي لعبه في تهديم قلعتي بانياس والشقيف المعنيتين، أحيل إليه في عام ١٦١٦ سنجق حمص. وطوال فترة غياب فخر الدين في توسكانة ظل يونس الحرفوش يتطلع للحلول مكان أمير الدروز وبما أن معظم أهالي سنجق صفد كانوا من الشيعة، وبصفته زعيماً شيعياً فقد كان بإمكان يونس الحرفوش الاعتماد على مساندة أهالي هذا السنجق، ولذا بذل كل ما في إمكانه لإحالة حكم صفد إليه أو إلى أحد أنصاره. ولكن المعنيين كانوا له بالمرصاد فأحبطوا هذه التطلعات التوسعية، ورغم ذلك استمرت الاتصالات بين آل الحرفوش وشيعة منطقة صفد، في حين بقيت علاقة المعنيين بآل الحرفوش متوترة.

وبعودة فخر الدين من توسكانة في عام ١٦١٨، وجد آل الحرفوش بأنهم عاجزون عن مضاهاته في السلطة، ففضلوا اتباع أسلوب تطبيع العلاقات معه باتباع سياسة الاستمالة وبادلهم أمير الدروز الود بالود، في حين هدم منازل أعيان الشيعة في عدد كبير من القرى الخاضعة للحكم المعني، دون أن يجرؤ يونس الحرفوش على تقديم أية مساعدة لهم، لأن جهوده كانت منصبة على استرضاء آل معن، والتوسع على حساب آل سيفا في الهرمل، وتجديد تعيينه حاكماً على سنجق حمص.

وفي الوقت نفسه الذي كان فيه يونس الحرفوش يسعى لإقامة علاقات مودة مع الأمير فخر الدين، حاول تقوية نفسه في مواجهة الأخير، عن طريق إقامة تحالف مع حزب الانكشارية القوي في دمشق الذي يتزعمه كورد حمزة. واغتنم يونس الحرفوش عزل أمير الدروز عن سناجق صفد وعجلون ونابلس، فحرض كورد حمزة على توجيه ضربة للأخير، كما منع ملاكي الشوف من الوصول إلى أراضيهم في البقاع، رغم أن فخر الدين هو الذي أقام يونس الحرفوش في البقاع أثناء تمرد علي جانبولاد لكن أمير الدروز تمكن من إجبار يونس الحرفوش على إخلاء البقاع والفرار مع جماعته إلى الزبداني.

وتسبب انتقام فخر الدين من آل الحرفوش في البقاع، إلى نشوب نزاع بين حزبي الانكشارية المتنافسين في دمشق، أحدهما كان يتزعمه كورد حمزة والآخر يتزعمه الحاج كيوان، واضطر الأخير إلى مغادرة دمشق مع فريقه والانضمام إلى فخر الدين، وصار كورد حمزة صاحب السلطة المطلقة في دمشق ونجح الأخير بإقناع والي الشام بإحالة سنجق صفد إلى حسين يونس الحرفوش كبديل عن علي معن، ورفض العرض المالي المغري الذي تقدم به أمير الدروز لاستعادة السنجق المذكور. مما أدى إلى توتر العلاقة بين فخر الدين ويونس الحرفوش وكورد حمزة ووالي دمشق مصطفى باشا، ورفض الأخير تنفيذ أوامر الاستانة القاضية بإعادة تقرير أحكام سناجق صفد ونابلس وعجلون إلى فخر الدين، وفي محرم ١٠٣٣/تشرين الثاني ١٦٢٣ حصل صدام بين الفريقين في عنجر انتهى بهزيمة أخصام آل معن، وتمكن أمير الدروز من أسر والي دمشق مصطفى باشا. أما يونس الحرفوش فقد فرّ إلى حلب، فقبض عليه حليف فخر الدين مدلج الحياري والقاه في سجن السلمية، وتلى ذلك احتلال أمير الدروز لبعلبك وقلعتها.

وفي عام ١٦٢٥ اقصي آل حرفوش عن حكم ناحية بعلبك واحيلت أحكام الناحية رسمياً إلى فخر الدين، ففر يونس إلى حلب حيث جرى

اعتقاله للمرة الثانية، واطيح برأسه في السنة التي تلتها. وكان ذلك بمثابة مبشر بنهاية حكم هذه الأسرة لمنطقة بعلبك، رغم انها ظلت باقية وحاولت استعادة مكانتها السياسية.

فقد نجح علي يونس الحرفوش في الوصول إلى رتبة بلوكباشي في انكشارية دمشق، كما ظل آل الحرفوش، بمثابة أعيان سرعين، وحاولوا في عام ١٦٣٦ استعادة حكم منطقة بعلبك بالقوة، لكن متسلم دمشق تمكن من إفشال مخططهم واعتقل مئتين منهم. ومنذ ذلك الحين لم تعد تشير إليهم المصادر المعاصرة بشيء، إلى أن عادوا وبرزوا في مطلع القرن الثامن عشر كزعماء أسرة شيعية محلية في منطقة بعلبك.

آل فريخ البدو زعماء البقاع

يعتبر منصور فريخ هو المؤسس لأسرة فريخ القصيرة العمر، وهو من الزعامات البقاعية، وتصفه المصادر المحلية بأنه من البدو المحليين. ومعلوماتنا قليلة جداً عن منصور فريخ قبل أن يصبح حاكماً في النصف الأول من القرن السادس عشر. حيث دخل في صراع مع قرقماز معن أمير الدروز، بسبب المصالح المعنية القديمة في البقاع، وتعصبه للسنة وعداوته للشيعة الروافض والدروز. ومنصور هو الذي أغرى إبراهيم باشا لغزو جبل الدروز عام ١٥٨٥، فقد وجد بها فرصة لإضعاف خصمه قرقماز معن. ورغم مشاركة منصور الفعلية في الحملة إلى جانب إبراهيم باشا، فقد كان من جملة الزعامات الشامية التي تم اعتقالها في ٩٩٤/١٥٨٥ ـ ١٥٨٦، من قبل بيلر بك دمشق، فتولى ابنه قرقماز مسؤولية حكم البقاع، وساند الأخير أحمد القرا حين حاول يونس الحرفوش بمساعدة الدروز استعادة حكم بعلبك، فاستطاعا هزيمة الدروز في الاقتتال الذي نشب في رجب ٩٩٤/أيار ـ حزيران ١٥٨٦.

وبدلاً من معاقبة منصور فريخ فقد أعيد من استامبول، وكوفىء بتقرير أحكام ناحية البقاع وسناجق نابلس وصفد وعجلون، كما كلف بإمارة الحج الشامي مقابل دفع مبالغ مالية باهظة، ويبدو أن شهرته كمتعصب شديد للسنة ومناوأته لكل الحركات المنشقة عن الإسلام وخاصة الشيعة والدروز هي التي أهلته لتولي أحكام سنجق صفد الذي غالبية سكانه من الشيعة والدروز.

وبتكليف منصور فريخ بالمنصبين المذكورين أعلاه واجهته مصاعب تمثلت في نشوب نزاع بينه وبين آل قانصوه الذين سبق وشغلوا هذين المنصبين، أدت إلى نشوب قتال هزم فيه منصور فريخ أما المأزق الثاني فكان عجزه عن تأمين المبالغ الباهظة التي تعهد بدفعها للاستانة مقابل تكليفه لمهام المنصبين المذكورين، لأنه كان قد انفق عائدات السناجق المقرر إحكامها إليه في إقامة مقر فخم في قب الياس ، وآخر في ضواحي دمشق

ورغم صدور أوامر من الاستانة بالقبض على منصور وابنه قرقماز فقد بقيا أحراراً حتى ١٠٠١/١٥٩٣ حين عين مراد باشا بيلر بك على دمشق، فاستفاد فخر الدين من مرور الباشا في صيدا لإثارة الشكوك العثمانية على ابن فريخ، وما ذلك إلا انتقاماً من الأخير وتخلصاً منه. فقد كان لمنصور فريخ دور بارز في حملة ١٥٨٥ العثمانية التي أودت بحياة قرقماز المعني، كما كان أمير الدروز يتطلع إلى انتزاع سنجق صفد، من منصور فريخ، التي يشكل الدروز جانباً من سكانها، فإذا حكمها الأمير المعني يصبح سيداً على المجتمع الدرزي، كما ان ابن فريخ كان قد أصبح ثرياً جداً، واشتهر بظلمه وتمرده نتيجة اجتياحه عدداً كبيراً من القرى، وفوق ذلك تخلف عن تسديد الالتزامات المالية المطلوبة للسلطات العثمانية، ونجح مراد باشا في القبض على منصور فريخ، ونفذ فيه حكم الإعدام في ١٣ ربيع أول ١٠٠٢/٧ كانون الأول ١٥٩٣ بناء لأمر الاستانة. في حين تمكن قرقماز منصور فريخ من الهرب، متنقلاً لمدة سنة من مكان لآخر، إلى أن قبض عليه موسى الحرفوش وقتله في سنة ١٠٠٣/١٥٩٤ ـ ١٥٩٥ بناء لطلب فخر الدين.

وبزوال منصور انتهى دور آل فريخ السياسي، واستطاع أحد أبناء منصور أن يؤمن لنفسه منصب بلوكباشي في دمشق، وفشلت كل جهود الأسرة لاستعادة أملاكها من فخر الدين،

ولم يبق من الأمجاد التي كانت لآل فريخ في الماضي سوى لقب أمير.

وفي قضية منصور فريخ لدينا مثل عن زعيم بدوي سعت الجهود العثمانية لتوظيفه لكنه خيب الآمال في النهاية، ففي بداية حياته أثبت صعوبة في التحول إلى حاكم إقليمي من حيث مواجهة المستوى المطلوب منه من قبل العثمانيين. فالثقة العثمانية به حولته إلى ظالم ومضطهد أصبح نشاطه مربكاً للدولة، كما انعكس وضع مديريته الفقيرة على تأخره المستمر في تسديد العائدات المطلوبة منه. ويبدو أن إدراك منصور فريخ انه سني واظهاره العداوة الشديدة للدروز والشيعة، هما السبب الذي دفعه إلى إبداء مرونة سياسية وإدارية، ظناً منه أن العثمانيين سوف يصفحون عنه. وأثبت سقوطه أن هناك حدوداً لما يمكن للعثمانيين أن يتسامحوا به بخصوص الإدارة الشامية غير المنتظمة.

آل قانصوه حماة قافلة الحج

أسس هذه الأسرة في عجلون الأمير ناصر الدين محمد بن أبي سيفا المدلل المعروف بابن سعيد الغزاوي، ويبدو أن محمد هذا كان قد عين حاكماً على عجلون خلال القرون الثلاثة الأخيرة من الحكم المملوكي لبلاد الشام. ولقد تعاون ابن سعيد مع المماليك بهدف تأمين قافلة الحج الشامي، نظراً لكثرة أتباعه من البدو، ويبدو أن ابن سعيد فقد سيطرته على البدو مباشرة بعد الفتح العثماني لبلاد الشام، عام ١٥١٧ الغيت قافلة الحج بسبب الاضطراب السائد فيما بين البدو، وفي عام ١٥٢٠ أعدم ابن وحفيد محمد بن سعيد معاً بسبب مساندتهما تمرد القبائل، أو بسبب فشلهما في إخماده. وأدى هذا الوضع إلى زوال ثقة العثمانيين بابن سعيد، ومع ذلك فقد استمرت عائلته، وبرزت كعصبية سياسية متزعمة منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر، حين نجح المتحدرون من محمد بن سعيد في العمل في خدمة قافلة الحج.

وخلف ابن سعيد على زعامة الأسرة، قانصوه بن مسيعدة بن مسلم بن الغزاوي فبرز ابتداء من ١٥٥١ كزعيم للأسرة وأعطاها اسمه الذي عرفت به خلال العصر العثماني، وبتبوأه هذا المنصب كلف بتأمين قافلة الحج الشامي من هجوم البدو، نظراً لأن السنجق الذي كان قد عين عليه يقطع طريق المرتفعات الشرقية الوعرة من البحر الميت. وخلال الفترة الممتدة من ١٥٦٤ ــ ١٥٦٨ كان قانصوه يشغل منصب سنجق بك عجلون، في حين كان يحتفظ في الظاهر بسنجق كرك ــ شوبك، لكنه اضطر إلى ترك مناصبه هذه نتيجة غضب السلطات العثمانية عليه، ونجح في الفرار قبل أن يتمكنوا من القبض عليه. ونظراً للمصاعب التي واجهت حجاج عام ١٥٧١، عادت السلطات العثمانية واقتنعت بأهلية قانصوه لقيادة قافلة الحج بسلام في المناطق البدوية، فاستجابت لطلباته وأعادت تعيينه كأمير للحج عام ١٥٧٢ وأحكام سنجقي كرك ــ شوبك وعجلون.

ورغم نجاح قانصوه في أداء مهمته الأساسية كأمير للحج، وثقة العثمانيين التامة به، لكن علاقته بهم سرعان ما انقطعت في عام ١٥٨٥، نتيجة شعورهم بأنه قد تجاوز الدور المرسوم له. ففي تلك السنة قرر العثمانيون تقليص نمو سلطات الزعامات الشامية وان يبرهنوا لهم بأن كل سلطة يجب أن يكون مصدرها استامبول. فالحملة التي قادها والي مصر إبراهيم باشا كانت موجهة ضد كل الزعامات الشامية المحلية دون استثناء. فطلب من قانصوه أن يحتذي بغيره ويستسلم لإبراهيم باشا، وحين لم يحضر أمام الباشا اعتقل واقتيد إلى استامبول مع بقية الزعماء المعتقلين، لكنه حين مثل أمام السلطان عفى عنه. ومما ينبغي الإشارة إليه أن كلًا من الزعماء عوقب أو سجن فعلًا في استامبول.

وعاد قانصوه من استامبول ولكن السلطان العثماني انتزع منه حكم سنجقي عجلون وكرك شوبك، وحين تمنع عن تسليم السنجق الأول وجه والي دمشق سنان باشا حملة أجبرته الفرار إلى حلب، حيث بقي في المدينة يبذل كل ما في وسعه لاستعادة سنجق عجلون، إلى أن توفي في ١ محرّم ١٠٠٠/١٩ تشرين الأول ١٥٩١. ومما ينبغي الإشارة إليه بأن آل قانصوه بلغوا قمة سلطتهم ونفوذهم في أيام قانصوه، الذي حظي بلقب «أمير الأمراء» وهو لقب يطلق على البيلر بك والوزير والصدر الأعظم، وهذا اللقب

لم يحظ به أحد غيره من قادة قوافل الحج ممن تولوا هذه المهمة من الزعماء المحليين.

وبوفاة قانصوه نجح نجله أحمد عام ١٥٩١ في الحصول على سنجق عجلون كما كلف بقيادة الحج الشامي، كما نجح نجل آخر لقانصوه في أن يعين على سنجق كرك ـ شوبك. ولقي تعيين أحمد معارضة من قبل منصور فريخ، مما أدى إلى نشوب قتال بين الفريقين، ألحق أضراراً بقافلة الحج الشامي، فانتزع سنجق عجلون ومنصب إمارة الحج من أحمد قانصوه. فانقلب على السلطات العثمانية وشكل مع عرب المفارجة قوة حاولت مهاجمة قافلة الحج الشامي، لكنه ما لبث أن توفي، ويرجح أن تكون وفاته خلال الفترة ١٥٩٣ ـ ١٥٩٥، واشيع بأنه مات مسموماً بخديعة العثمانيين.

وبوفاة أحمد قانصوه تصدر ابنه حمدان زعامة الأسرة، ونجح في بعض الأوقات بأن يعين سنجق بك على عجلون وكرك ـ شوبك، ونميل إلى الاعتقاد بأن ذلك تم بعد ١٦٠١ ومن المؤكد أنه كان يشغل هذا المنصب بعد ١٦٠١. ولم يشارك حمدان في الحملة التي نظمها مراد باشا لقمع تمرد علي جانبولاد، كما لم يقف إلى جانب أي فريق أثناء فتنة الأخير، ولا حتى أثناء حملة يوسف سيفا الذي توجه بصفة سردار لقمع تمرد علي جانبولاد. وفي عام ١٠١٨/ ١٦١٠ أنيط منصب أمير الحج إلى سنجق بك نابلس فروخ باشا بن عبد الله، فكان من الطبيعي للباشا المذكور أن يجعل على مشيخة حوران الشيخ رشيد بن سلمان بن نعيم بدلاً من الشيخ عامر بن جبر الذي كان حليفاً لحمدان، وأن يحاول الباشا أيضاً إدارة سناجق عجلون والكرك ـ شوبك التي تقع على طريق الحج، لكن حمدان لم يبد أية مقاومة فأخلى البلاد وترك لوالي دمشق أحمد باشا الحافظ حرية اختيار من يشاء لالتزام عجلون والكرك ـ شوبك. واستجاب فخر الدين المعني لنداء الاستغاثة الذي وجهه إليه الحليفان رشيد وحمدان فأرسل ابنه علي على رأس قوة حربية وبدا بأنها المرة الأولى التي يهتم بها فخر الدين في شؤون عجلون ذلك أن المصادر لا تشير إلى أي تواجد أو نفوذ معنى في تلك المنطقة قبل عام ١٦١٣. وكان بإمكان علي معن هزيمة فروخ باشا وانكشارية دمشق، خاصة وان حمدان والشيخ عامر كانا قد أعيدا إلى مناصبهما السابقة. وأثناء حملة أحمد باشا الحافظ على الشوف في عام ١٦١٣، أرسل علي معن ليكون في مأمن لدى حمدان والشيخ عامر، طلب حمدان من قبيلة العياض أن تمنحه حق اللجوء، في حين سعى الشيخ عامر إلى إعادة علي إلى بلاده سالماً. في حين ظل حمدان بعيداً عن بلاده لمدة ثلاث سنوات، مما أدى إلى تقسيم صفوف أسرته وإضعاف قوتها السياسية، وفي عام ١٦١٦ أعيد تقرير أحكام سنجق عجلون إلى حمدان قانصوه، بمساعدة يونس الحرفوش وحسين اليازجي، ذلك أن هذين الرجلين كانا قد وعدا الصدر الأعظم بتهديم القلاع المعنية في سنجق صفد. فتوجه إلى عجلون وقد تملكه الغضب من تعاون شقيقيه سيف وبشير مع سلفه مصطفى بك، فنجح بقتل شقيقه سيف في حين فرَّ بشير إلى الشيخ رشيد في حوران، الذي كان العدو التقليدي لحمدان قانصوه، فسارا معاً ونجحا بهزيمته حيث ما لبث أن قضى متأثراً من الجروح التي أصيب بها.

التدخل المعني

وبوفاة حمدان شب انقسام داخلي بين أفراد آل قانصوه حول من يجب أن يتصدر الزعامة في الأسرة، ورغم المصاعب التي واجهت أحمد بن حمدان قانصوه فقد استطاع أن يخلف والده لغاية ١٦١٩، حين عزل من منصبه في تلك السنة وحل مكانه على سنجق عجلون شخص يدعى قلاوون، كما عزل حليفه عامر من مشيخة حوران وحل مكانه الشيخ رشيد. فاستنفاثاً بفخر الدين المعني الذي كان قد عاد قبل سنة من منفاه الطوعي في ايطاليا، ونجح الأخير في الحصول من الباب العالي على قرار بإعادتهما، وكان ذلك في شوال ١٠٢٨/أيلول ـ تشرين الأول ١٦١٩. ولكن لم تمض ثمانية عشر شهراً حتى عزل أحمد وعمرو وحل مكانهما بشير قانصوه على عجلون والشيخ رشيد على مشيخة حوران، وتم التغيير بإيعاز من أمير الحج فروخ باشا، بسبب حاجته

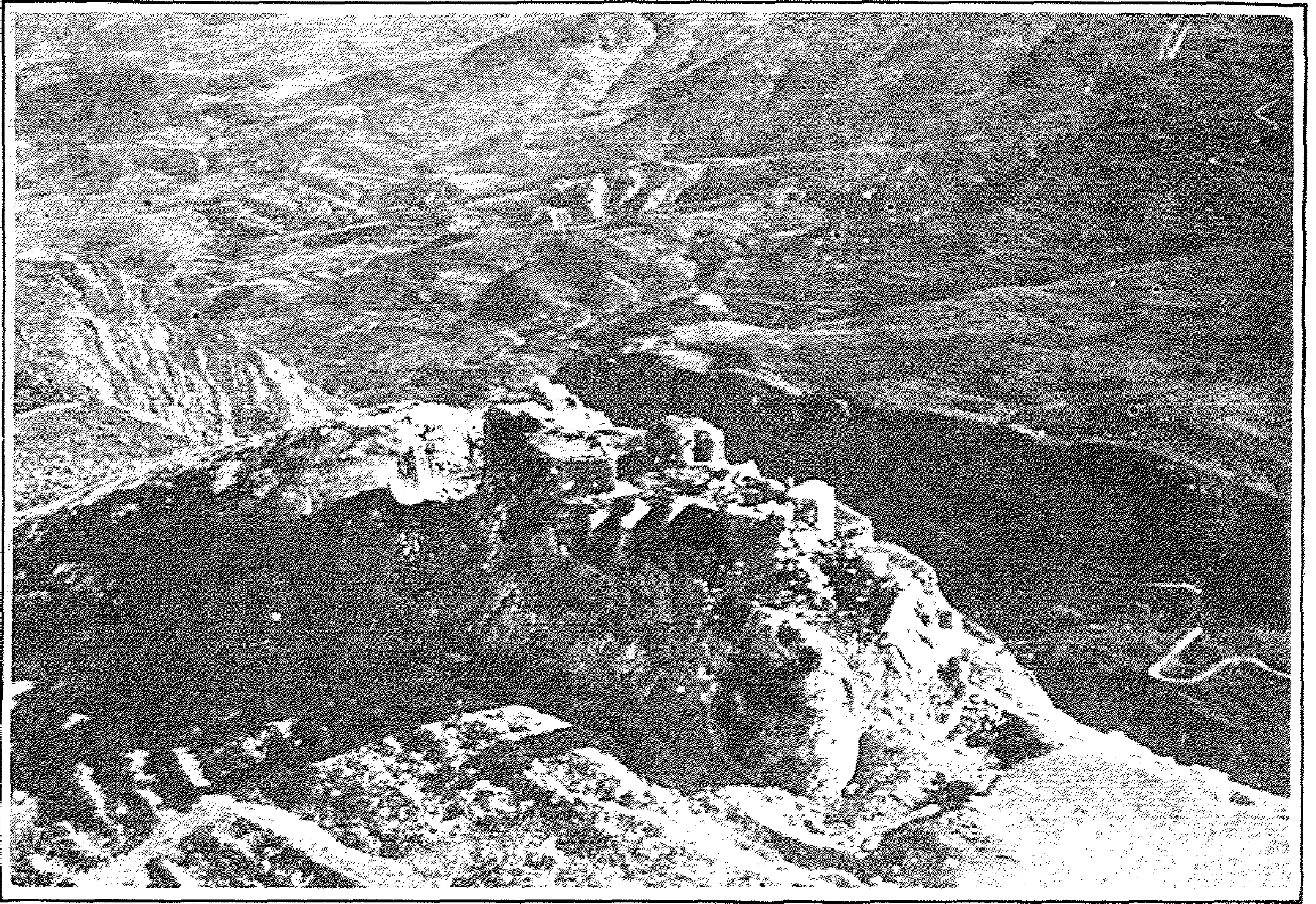
إليهما في بناء قلعة على طريق الحج. ولم يحاول الأمير فخر الدين الاستجابة لرجاء حمدان قانصوه بمساعدته على ضبط سنجقه، لأن الأمير المعني كان يرغب في إحالة تلك البلاد إلى ابنه الأمير حسين، وبتأخر وصول الجواب بتقرير عجلون على الأخير، استعاد حمدان في تشرين الثاني ١٦٢٢ حكم عجلون من عمه بشير بمساعدة الأمير فخر الدين. وبذلك أصبح الأخير القوة الوحيدة في عجلون، وتمكن في ذي الحجة ١٠٣١/تشرين الأول ــ تشرين الثاني ١٦٢٢ من تحقيق أمنيته بتقرير أحكام سنجق عجلون لابنه حسين، وإزاء رفض حمدان قانصوه الاستمرار في حكم السنجق المذكور لصالح الأمير حسين، عين فخر الدين أحد العاملين في خدمته في هذا المنصب. ولم يستسلم بشير قانصوه فخاض نزاعاً مسلحاً مع الحامية العسكرية التي اقامها فخر الدين في عجلون، ونجح أكثر من مرة في انتزاع السنجق من السيادة المعنية، وبعد تدخل أعيان عجلون وحوران تم الاتفاق بين الأمير بشير قانصوه والأمير فخر الدين المعني أن يحكم الأول سنجق عجلون بمثابة قائمقام الأمير حسين المعني، وكان ذلك في الأشهر الأخيرة من عام ١٦٢٤.

ومنذ ذلك الحين فإن آل قانصوه، كغيرهم من الأسر الشامية الحاكمة التي أخضعها فخر الدين، تضاءلت مكانتهم السياسية، كما ان سقوط فخر الدين في عام ١٦٣٣، كان يعني سقوط هؤلاء الأتباع أيضاً. فقد صار لدى بيلر بك دمشق بعد ١٦٣٣ حرية أكبر في التعامل مع الأسر الشامية الحاكمة مثل آل قانصوه، الذين لم يعهد إليهم منذ ذلك الحين تقرير أحكام سنجق عجلون أو قيادة قافلة الحج الشامي، فهذه المناصب صارت تحال خلال الجانب الأكبر من القرن السابع عشر إلى قادة الانكشارية. ومما ينبغي الإشارة إليه، بأن آل قانصوه قدموا في تاريخ الريف الشامي خلال القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، المثل الأبرز كزعماء عائلة محلية، يرجح بأنها من أصل قروي لا بدوي، كانوا قادرين على التأثير على سلطة البدو واستخدامها لتعزيز مواقعهم السياسية كزعماء أسرة سنية حاكمة كان آل قانصوه قادرين على ضبط البدو في شرق الأردن على طول طريق الحج الاستراتيجي بين دمشق والحجاز، مما مكنهم على كسب رصيد سياسي لدى العثمانيين طالما انهم كانوا قادرين كعائلة على الحفاظ على حد أدنى من التماسك. وبذلك كان من الممكن بالنسبة إليهم، أن يحتفظوا بسيطرتهم التقليدية على سنجق عجلون، وأن يحوزوا أيضاً بمنصب أمير الحج لفترات طويلة. والواقع أن انهيار الأسرة لم يكن سببه فقدان ثقة العثمانيين بهم، ولكن انقسامات داخلية وصراعاً على السلطة بين زعماء الأسرة. وكانت الضربة القاضية لمكانتها السياسية في جنوب بلاد الشام، على يد فخر الدين المعني بعد وصوله إلى قمة السلطة، كأعلى زعيم في الريف الشامي بعد ١٦٢٤.

آل طربيه
زعماء بدو شمال فلسطين

يعود تاريخ آل طربيه كزعماء سياسيين لبني حارثة البدو، في شمال فلسطين، إلى ما قبل الفتح العثماني لبلاد الشام، ففي عام ٨٨٥/١٤٨٠ عينت السلطات المملوكية، ابن طربيه كمسؤول عن منطقة مروج ابن عامر كوريث لوالده المتوفي، ويبدو أن ابن طربيه نفسه، اتصل بالسلطان العثماني سليم الأول بعد هزيمة الأخير للمماليك في سوريا ومصر. ومن المؤكد ان الزعيم البدوي ابن طربيه الذي وصفه ابن طولون بـ أمير الدربين، لا بد أن يكون قراجة بن طربيه هو أحد أربعة مشايخ من منطقة جبل نابلس. وقد أعدم قراجة من قبل جان بردي الغزالي، بسبب تعرض البدو لقافلة الحج الشامي عام ١٥١٩، فحمَّل الغزالي زعماء البدو في جبل نابلس مسؤولية التعرض.

وبنهاية قراجة تصدّر زعامة الأسرة ابنه طربيه، وفي أثناء تمرد الغزالي عام ١٥٢٠ وقف إلى جانب العثمانيين. ومنذ ذلك الحين حاز آل طربيه ثقة العثمانيين، وتتجلى هذه الثقة في اتساع نطاق الالتزام الذي عهد به إليهم. وقد اشترك آل طربيه بأكثر من تمرد قبلي على السلطات العثمانية، التي كانت تبادر إلى قمع التمرد، وتنتزع من آل طربيه التزام سنجق



□ قلعة الشقيف.

اللجون، ولكن زعماءهم سرعان ما كانوا يبادرون إلى محاولة كسب عطف العثمانيين بإبداء الولاء والطاعة، بحيث تعود السلطات العثمانية عن قرارها وتعيد إلى آل طربيه التزام سنجق عجلون، كما اتيح لبعضهم بإدارة سنجق غزة، فقد كلف طربيه بن علي الحاريثي عام ١٥٩٤ بهذه المهمة.

وبوفاة طربيه عام ١٦٠١ تصدر الزعامة في الأسرة ابنه أحمد الذي تمتع بعطف العثمانيين، وثبت في منصبه بصفة سنجق بك العجلون حتى وفاته عام ١٦٤٧. ومما ينبغي الإشارة إليه بالنسبة لهذا الزعيم، موقفه أثناء تمرد علي جانبولاد عام ١٦٠٦. فرغم أنه كان يتوجب على أحمد طربيه الانضمام إلى يوسف سيفا، الذي عين سرداراً لقوات ولايتي دمشق وطرابلس، بما في ذلك سنجق اللجون، لقتال علي جانبولاد، لكن أحمد طربيه لم ينضم إلى أي جانب. كما انه حين وصل السردار يوسف سيفا، المهزوم، إلى حيفا، فاراً من دمشق استقبله أحمد طربيه ورحب به في حيفا، متجاهلاً أوامر علي جانبولاد القاضية بقتل يوسف سيفا، ولم يخف حين هدده جانبولاد بإنزال العقاب الشديد إذا لم يطع. وحين قاد الصدر الأعظم مراد باشا لقمع تمرد علي جانبولاد، استدعي عدد كبير من الزعامات الشامية للانضمام إلى جيش الصدر الأعظم ومن بينهم أحمد طربيه، لكنه كغيره من الزعامات الشامية لم يستجب للدعوة، وإنما وجه هدية مع أحد رجاله. ولم يختلف موقف أحمد طربيه عن موقف آل سيفا وحرفوش وشهاب، أثناء الحملة التي قادها أحمد باشا الحافظ على الشوف في عام ١٦١٣. وقد دفعه إلى ذلك ولاؤه للعثمانيين، والضعف الذي أصاب جاره فخر الدين، وإدراكه أن الحرب هذه المرة كانت ملاصقة لحدوده، ولذا فقد شارك في حملتين ضد العثمانيين في ١٦١٣ و ١٦١٤. وحين صدر العفو عن فخر الدين وعاد ثانية من أوروبا، كان موقف أحمد طربيه مشابهاً لموقف بقية الزعامات الشامية، التي أسرعت مصحوبة بالهدايا لتهنئة الأمير بالعودة. لكن علاقة أحمد طربيه بالأمير فخر الدين ما لبثت أن ساءت، بسبب سياسة التوسع التي كان ينفذها

أمير الدروز. فقد امتدت سلطته الأخيرة لتشمل سنجقي عجلون ونابلس، فرفض الشيخ عاصي صهر أحمد طربيه وشيخ بلاد نابلس الانصياع لسلطة عامل فخر الدين في نابلس، كما رحب أحمد طربيه بعدد كبير من مشايخ الشيعة، الذين غادروا سنجق صفد، لدى عودة الأمير فخر الدين من منفاه الطوعي، واتخذوا ملجأ لهم لدى آل طربيه، وأقاموا في برج حيفا وجبل الكرمل. واتخذ فخر الدين من ذلك حجة، فوجه رجاله لاحتلال هذه المناطق عام ١٦٢٣، لكن أحمد طربيه تمكن من هزيمتهم عند نهر العوجا. وبعد انتصار فخر الدين على مصطفى باشا والي دمشق في عنجر عام ١٦٢٣، فشلت جهود أحمد طربيه لمصالحة أمير الدروز، نتيجة اشتراط الأخير على أحمد طربيه أن يحتفظ بإدارة سنجق اللجون لحساب منصور فخر الدين، فجرى اقتتال في شعبان ١٠٣٣/أيار ـ حزيران ١٦٢٤ هزمت فيه القوات المعنية، وأعقب ذلك التوصل إلى اتفاق بين أمير الدروز وأحمد طربيه. واستمر الأخير محافظاً على استقلاله حتى نهاية حياته، فقد كان يعتمد على قاعدة قبلية صلبة، فقد كان بإمكانه أن يجند ما بين ٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ مقاتل، لا يتقاضون أية أجور وإنما يقاتلون دفاعاً عن قبيلتهم.

وبوفاة أحمد طربيه في ١٦٤٧ سار خلفاؤه في تأدية الواجبات التي كانت ملقاة على أسلافهم، فبصفتهم حكام سنجق اللجون، توجب عليهم الحفاظ على تأمين الطرق للتجار والبريد السلطاني والتصدي لعمليات التمرد التي قد تحصل في الجوار.

ولقد أثبت آل طربيه في تاريخ الريف الشامي خلال القرنين السادس عشر وأوائل السابع عشر، أنهم نموذج أسرة بدوية تمكن زعماؤها من تثبيت حكمهم على منطقة معينة منحت لهم. وبخلاف آل فريخ، الذين دمروا فرصتهم في الاستمرار في تحقيق إنجازات سياسية، كزعماء بدو في البقاع، باستغلال عطف العثمانيين عليهم من أجل إثراء أنفسهم على حساب المنطقة الإدارية المكلفين بإدارتها، فقد نجح آل طربيه بالاحتفاظ بعطف العثمانيين لزمن طويل، عن طريق الاهتمام بشؤون المنطقة وتأدية الواجبات الملقاة على عاتقهم. وبخلاف بقية زعماء الريف الشامي، استمروا في تقديم الولاء للعثمانيين حتى أثناء الفترات التي تمكن خلالها فخر الدين من تحجيم السلطة العثمانية في بلاد الشام إلى مجرد ظل. ذلك أنه مما لا شك فيه أن تعصبهم للسنة، دفعهم إلى الاستمرار في تقديم الولاء للعثمانيين، إلى حد انهم دافعوا عن ذلك بالقوة العسكرية. وكنتيجة فقد كانوا إحدى الأسر الشامية المحلية التي عاصرت مآزق أوائل القرن السابع عشر، التي أدت إلى سقوط فخر الدين والكثير من بقية الأسر الشامية، واستمروا السادة على سنجق اللجون حتى نهاية القرن نفسه.

تلك هي ملامح عامة لأهم ما جاء في دراسة د. عبد الرحيم أبو حسين عن الزعامات المحلية في بلاد الشام ١٥٧٥ ـ ١٦٥٠، ومما لا شك فيه أن الباحث قد استطاع بهذه الدراسة، أن يسد فراغاً هاماً في المكتبة العربية التاريخية، كما انها تعتبر مساهمة جادة في تصحيح الكثير من الأخطاء التاريخية، التي لا تزال تدرّس إلى أبنائنا في كل المراحل التعليمية. ونأمل ممن يجيد الإنجليزية من أساتذة التاريخ، التمعن في قراءة هذه الدراسة، وتصحيح الأخطاء التاريخية الموجودة في المقررات على ضوئها.



● «إنني لا أحب أن أتحدث كثيراً مع أناس يوافقونني دائماً على ما أقول فقد يكون من الممتع التحدث مع الصدى فترة قصيرة، ولكن الانسان سرعان ما يشعر بالملل».

(توماس كارليل)

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

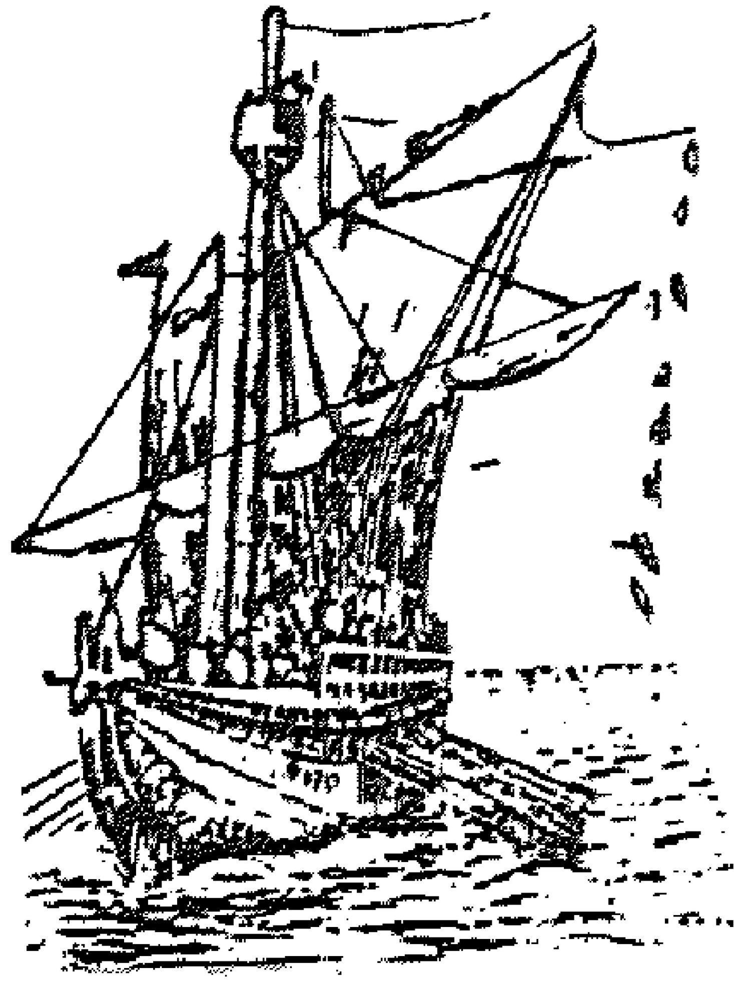


الاشتراكات

- في لبنان .... ١٠ دولار
- للأفراد في الوطن العربي .... ٣٥ دولاراً
- للأفراد في دول العالم الأخرى ...... ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في الوطن العربي .... ٧٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية خارج الوطن العربي......... ١٠٠ دولار

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

بناية ابو هليل - شارع السادات - بيروت - لبنان - ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣

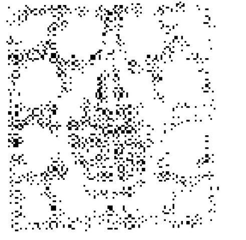


الجيش العربي الإسلامي

في عصر موقعة حطين ووسائل الإسناد الأخرى

د. شوقي شعث

ورث صلاح الدين الأيوبي الخلافة الفاطمية بمصر والدولة النورية في بلاد الشام والجزيرة التي كانت أصلاً تابعة للخلافة العباسية في بغداد وكان صلاح الدين أحد القادة البارزين فيها، فمن الطبيعي إذن أن تستمد الدولة الناشئة، أعني الصلاحية، نظمها العسكرية من المصدرين المشار إليهما آنفاً. إلا أن النظام العباسي ــ النوري كان أكثر شيوعاً في جيش صلاح الدين بحكم أنه، أي صلاح الدين، كان أحد أركانه، وعليه فمن المؤكد أن تنسجم التقاليد العسكرية في جيشه مع التقاليد التي شب عليها وآمن بها. وعليه فإن من أراد البحث في النظام العسكري الصلاحي أي الجيش العربي في عصر موقعة حطين لا غنى له عن مراجعة النظم العسكرية في الجيش الفاطمي والدول: الزنكية والسلجوقية والعباسية.



لم يكن الجيش النوري الذي كان يقوده أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين والذي قدم به إلى مصر والذي آلت قيادته إلى صلاح الدين لم يكن يزيد عدده عن ثمانية آلاف رجل، وعندما أصبح صلاح الدين بعد موت عمه وزيراً للخليفة العاضد الفاطمي، عاد قسم من تلك القوة إلى بلاد الشام نظراً لأنه لم تعد الحاجة إليهم قائمة بعد أن أصبح بإمكانه استعمال جنود الدولة الفاطمية، ولم تبق بشكل فعلي إلا الفرقة الأسدية التي حملت اسم أسد الدين شيركوه، والتي لم يكن يتجاوز عدد أفرادها الخمسمائة رجل ولكن صلاح الدين عمد فيما بعد إلى تكوين فرقة جديدة سماها «الصلاحية» تقدر المصادر عددها بنحو ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل وقد ضمت هذه الفرقة فرساناً منوعة وفرسان القبائل ويبدو أنها أصبحت نواة للجيش النظامي الصلاحي فيما بعد.

أقام صلاح الدين مؤسسة عسكرية حقيقية وسهر على تنميتها باستمرار وقد كلفه ذلك الأمر نفقات مالية باهظة، ومن أجل تأمين تلك النفقات وجه كل شيء نحو الجهاد في سبيل تحرير الأرض فتحول من أجل ذلك اقتصاد الدولة الصلاحية إلى «اقتصاد حربي» وقد ظهر ذلك جلياً في الفن والثقافة والعمارة.

العناصر المكونة للجيش الصلاحي

كان الجيش العربي الإسلامي قبل عهد صلاح الدين يتألف من عدة عناصر من المسلمين من أهمها: العرب، الأكراد، الأتراك، والتركمان وغيرها من العناصر التي تسكن في إطار الدولة العباسية، وغالباً ما كانت هذه العناصر، التي تسكن في إطار الدولة العباسية تكون الفرق العسكرية في الجيش الإسلامي، وحيث أنه لم يكن آنذاك نظام الخدمة العسكرية المتعارف عليه لدى الدول الحديثة، فإنه كان يتوجب على الولاية أن تقدم الفرق العسكرية المؤلفة للجيش، وفي بادىء الأمر كان أمير الولاية هو قائد الجند الذين يجمعهم من ولايته، إلا أن ذلك لم يكن عملياً وقد أثبتت التجربة وَهَن ذلك الجيش، فكان في واقع الأمر عبارة عن تحالف من عدة أمراء لا سلطان للسلطان عليهم، وكانوا كثيراً ما يقتتلون لاقتسام الغنائم، إلا أن هذه الحال تغيرت بعد عام ١١٢٨، بوصول الأتابك عماد الدين زنكي إلى مسرح الأحداث والذي حاول أن يسيطر على مقدرات الجيش ويجعل قيادته مركزية، إلا أن هذه السلطة المركزية أخذت بالتراجع بعد موت نور الدين بن عماد الدين، وفي عهد صلاح الدين عاد الأمر إلى الانتعاش ولكن بأسلوب آخر فنما الجيش وكثر عدده، فكان هناك جيش مصري وآخر سوري ومن أهم فرقه فرقة حلب. ففي خلال عامي ١١٨٢و ١١٨٣ أصبح جيش صلاح الدين الأيوبي جيشاً قادراً متفوقاً نسبياً، وهذا ما جعله يحقق الانتصار تلو الانتصار وأهم تلك الانتصارات، انتصار حطين العظيم، ووقف بعد ذلك كالطود الشامخ في وجه الصليبيين.

كانت العناصر المكونة للجيش على نوعين: منها العناصر الدائمة وهي العناصر التي تأخذ راتباً من الدولة وتقع على عاتقها المهمات القتالية

بشكل أساسي، أما النوع الثاني فكان من المتطوعين وهؤلاء كانوا يلتحقون بالجيش وقت الحرب وكانت عائلاتهم تمنح مخصصات إما عيناً أو نقداً، وكان يطلق على هذا النوع من المتطوعة اسم «الأحداث» لحداثة دخولهم في الجيش وكان لهم رئيس يطلق عليه اسم «مقدم الأحداث» أو «رئيس الأحداث»، وكان لهؤلاء أي الأحداث نفوذ كبير في المدن العربية الكبرى كدمشق وحلب وحمص، وقد أطلق عليهم فيما بعد اسم «المتطوعة» في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، في العهد الصلاحي، وعلى كل حال هم فرق غير نظامية باستطاعة أفرادها العودة إلى أوطانهم متى شاؤوا، ومعظمهم من الفقهاء والصوفية وأصحاب العمائم وأبنائهم، ويقدر ابن الجوزي عدد الذين حضروا فتح بيت المقدس من المتطوعة مع صلاح الدين في الثاني من تشرين الأول ١١٨٧ بزهاء عشرة آلاف من جميع الأجناس، كما لفتت كثرة عددهم ستانلي لين بول يوم حطين في كتابه الذي كتبه عن صلاح الدين.

تشكيلات الجيش في عهد صلاح الدين

تشكل الجيش العربي في عهد صلاح الدين من طوائف حملت كل طائفة منها اسم السلطان أو القائد الذي أسسها أو قادها مثل: الطائفة النورية نسبة إلى نور الدين، أو الطائفة الأسدية نسبة إلى أسد الدين شيركوه، أو الطائفة الصلاحية نسبة إلى صلاح الدين الأيوبي، وكان يسمى قادة تلك الطوائف «مقدمو المماليك السلطانية»، وكانت هذه الطوائف تتألف غالباً من عنصرين هامين هما: **الأمراء والأجناد**.

١ ـــ يتألف الأمراء من أربع درجات:

أمراء الطبقة الأولى: وهم ، أمراء المئات، مقدمو الألوف وعدة كل واحد منهم مئة فارس وعددهم عشرون مقدماً، ورتبة «أمير مائة» رتبة حربية خاصة بأرباب السيوف.

أمراء الطبقة الثانية: وهم أمراء الأربعين ويسمون أحياناً أمراء الطبلخانة لأحقيتهم في دق الطبول على أبوابهم، عدة كل منهم أربعون فارساً وينقص عددهم ويزيد تبعاً للظروف أو الحاجة.

أمراء الطبقة الثالثة: وهم أمراء العشرات وعدة كل منهم عشرة فرسان وعددهم غير محدد ويؤخذون من صغار الولاة.

أمراء الطبقة الرابعة: وهم أمراء الخمسات وأكثرهم من أولاد الأمراء المتوفين ويعتبرون من أكابر الجند وعددهم غير محدود.

٢ ـــ الأجناد ويتألفون من:

المماليك السلطانية: وهم أعظم الأجناد شأناً ومنزلة عند السلطان وأوفرهم إقطاعاً يعين عددهم تبعاً للحاجة، أغلب هؤلاء من الترك والكرد والشركس.

أجناد الحلقة: وهم أخلاط كان لكل أربعين عنصراً منهم مقدم منهم لا يحكم عليهم إلَّا إذا خرجوا للقتال.

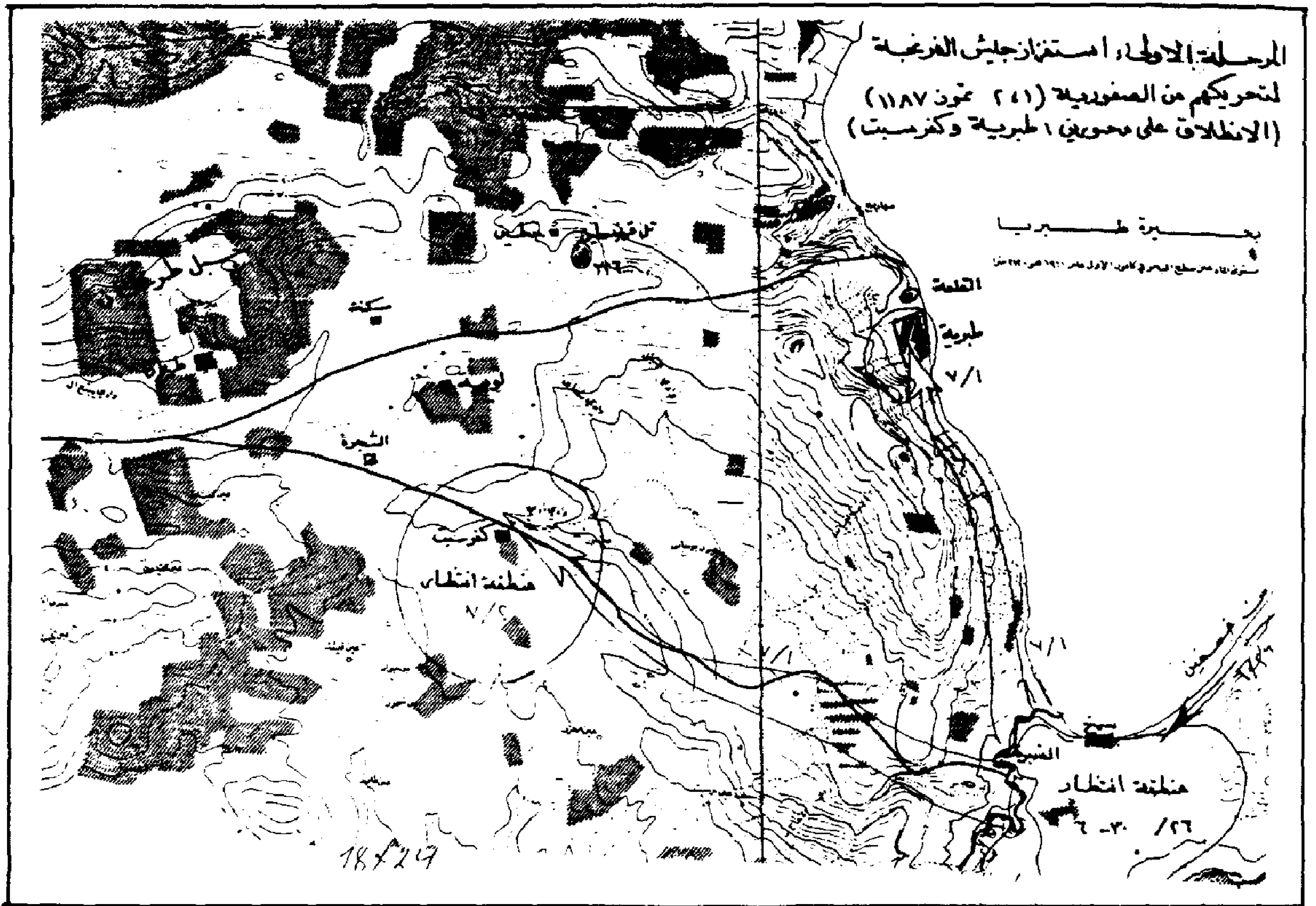
وإلى جانب العسكر والجند والمتطوعة هناك فرقة النشابين الذين يرمون النشاب، والنفاطين الذين يرمون النفط لإحراق حصون الأعداء، والمنجنيقيين رماة المنجنيق، والعيارين وهم رماة الحجارة وكانوا يملؤون مخالي الخيل بها، وهناك أتباع العسكر أو الأوباش والرعاع ويسمون سوقة أو حواش.

أسلحة الجيش

كانت أسلحة جيش صلاح الدين لا تختلف كثيراً عن أسلحة الجيوش الإسلامية المعاصرة أو جيوش الصليبيين المعاصرة فكانت تتألف من الرماح والسيوف والتروس والسهام والفؤوس، وكان الجند يلبسون الخوذ والدروع إضافة إلى ذلك كان الجند الذين يستعملون النفط يلبسون لباساً خاصاً والمنجنيقات والمقاليع وغيرها من أسلحة العصر، ومن الأسلحة الهامة أيضاً كانت الدبابات التي تقوم بثقب الأسوار والأبراج.

وعلى وجه العموم يمكن القول أن عهد صلاح الدين شهد تطوراً كبيراً في جميع الميادين خاصة ميدان العلوم العسكرية ومنها فنون القتال فقد جرى تحسين وتطوير الأسلحة خاصة الأسلحة النارية وتم رفع مستوى التدريب والمقدرة القتالية.

وكان الفرسان في الجيش الصلاحي يتسلحون بالدروع والسيوف والرماح في حين كان الرجالة (المشاة) يتسلحون بالدروع والحراب والأقواس



□ خارطة عسكرية لإحدى مراحل معركة حطين.

والسهام.

وكان لباس الجيش الصلاحي يختلف باختلاف الفرق والأسلحة فجنود المماليك السلطانية وجنود الحلقة كانوا يلبسون على رؤوسهم الطواقي الصفراء دون عمامة كما كانوا يلبسون على أبدانهم أقبية بيضاء، ضيقة الأكمام من القطن البعلبكي، وفي بعض الأحيان تكون حمراء أو زرقاء ويشدون على أوساطهم أحزمة من القطن ونظراً لأن الفرقة المعروفة بفرقة الأجانب كانت تأخذ رواتب عالية كان لباسها أجمل وأفخم لباس.

قيادة الجيش الصلاحي

كانت القيادة في الجيش العربي في عهد صلاح الدين له دون منازع فهو القائد الاستراتيجي الناجح وهو القائد الفذ الذي حقق الانتصار تلو الانتصار على الإفرنج فكانت شخصية صلاح الدين ونجاحاته الحربية التي أعطت له الوزن العسكري في أعين القادة الآخرين خاصة أمراء الإقطاعات والجند.

كان يعاون صلاح الدين مجلس يسمى «المجلس الحربي» ويضم في عضويته الملك العادل أبو بكر أخي صلاح الدين وأولاد صلاح الدين وأولاد عمه والرفاق القدامى والأتباع الجدد والقاضي الفاضل والعماد الكاتب وبهاء الدين بن شداد، وكان لهؤلاء الأعضاء حق إبداء الرأي بكل صراحة ولم يحصل أن تجاوز أحد الأعضاء حدوده في حضرة السلطان صلاح الدين.

كان المجلس ينعقد بدعوة من صلاح الدين كلما دعت الضرورة، كأن تحدث أحداث جسام كتلك التي أوجبت اجتماعيه لمناقشة وضع مدينة صور التي كان يحتلها الإفرنج بعد أن استعصت على صلاح الدين وقد قال صلاح الدين فيها «هذا بلد حصين، ثلاثة أرباعه في البحر، ومن أحكام العزم تكميل الآلات وتركيب الأبراج والدبابات واستحضار كل ما يراد للحصار.

وعند حصار الإفرنج لعكا دعى صلاح الدين

المجلس الحربي للاجتماع واستهل الاجتماع (رمضان ٥٨٥ /١٢ تشرين أول ١١٨٩) «بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد نزل في بلدنا وقد وطىء أرض الإسلام وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا، ليست وراءنا نجدة ننتظرها، سوى الملك العادل، وهو واصل، والرأي عندي مناجرة لعدو قبل أن يفتح البحر فليخبرنا كل منكم بما عنده» وقد انقسم أعضاء المجلس الحربي بهذا الخصوص فمنهم من كان يرى رأي السلطان بالاستمرار بالقتال ومنهم من رأى غير ذلك وبعد المناقشة المستفيضة وتقليب الأمر على وجوه عدة أخذ برأي المعارضين، فتأثر السلطان تأثراً بالغاً بذلك وأصابته حمى على حد قول ابن شداد وأثبتت الأيام فيما بعد صحة رأي السلطان، فضاعت عكا في النهاية بعد حصار بعامين كاملين.

في حادثة أخرى نجد المعارضة تتكرر للسلطان صلاح الدين في المجلس الحربي مفادها أن بعض أعضاء المجلس قال بتخريب مدينة عسقلان حيث صعب الدفاع عنها وكان يتطلب حامية كبيرة وجهداً فائقاً ورغم أن السلطان صلاح الدين في اجتماع المجلس الحربي، في ١٠ سبتمبر عام ١١٩١، عارض ذلك وقبحه وطلب من بعض الأمراء التحصن فيها والدفاع عنها، إلّا أنه امتنع خوفاً من تمثيل الإفرنج بأهل المدينة وحاميتها عند سقوطها كما فعلوا في عكا، وقال المعارضون للسلطان «إذا أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار وإلّا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا». فرضخ السلطان للمعارضين بتخريب المدينة وخربت حتى لا يستفيد العدو الإفرنجي منها، ولكنه حزن حزناً شديداً وعبر عن ذلك بقوله للقاضي ابن شداد «والله لأن أفقد أولادي بأسرهم أحب إلي من أهدم حجراً واحداً منها».

ومع أن حوادث المعارضة تكررت في المجلس الحربي للسلطان، إلّا أنه كان يسمع لأعضائه ويناقشهم فرادى ومجتمعين، وكان في أغلب الأحيان يحزم الأمر لصالح القرار الملائم.

المعسكر الإسلامي في عهد صلاح الدين

كانت هناك شروط أساسية لإقامة المعسكرات في عهد صلاح الدين، وكانت تلك الشروط أساسية حتى في المعسكرات التي سبقت تلك التي لحقت عهد صلاح الدين ومن أهم تلك الشروط:

١ ــ سهولة الوصول إلى الماء وذلك لحاجة المعسكر للماء لسقاية الجند والبهائم وإلى الاستعمالات اليومية الأخرى.

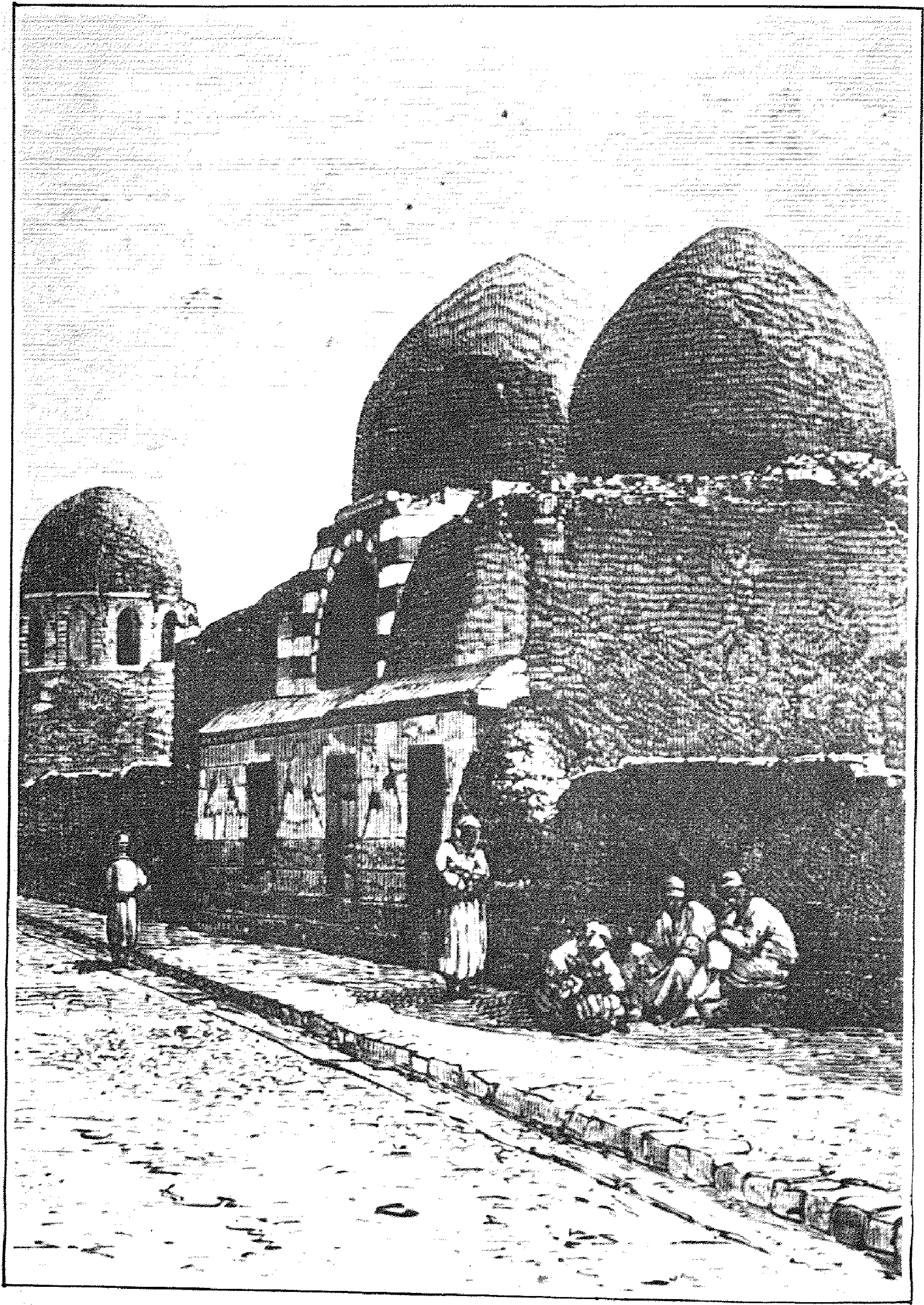
٢ ــ سهولة الحصول على الأزواد والكلأ وذلك لضمان الحصول على طعام للجند وعلف للبهائم التي يعتمد عليها في الجيش في القتال ضد العدو والتجهيزات الأخرى.

٣ ــ سهولة الدفاع عنه إذا ما هوجم كأن يكون في موقع استراتيجي حصين.

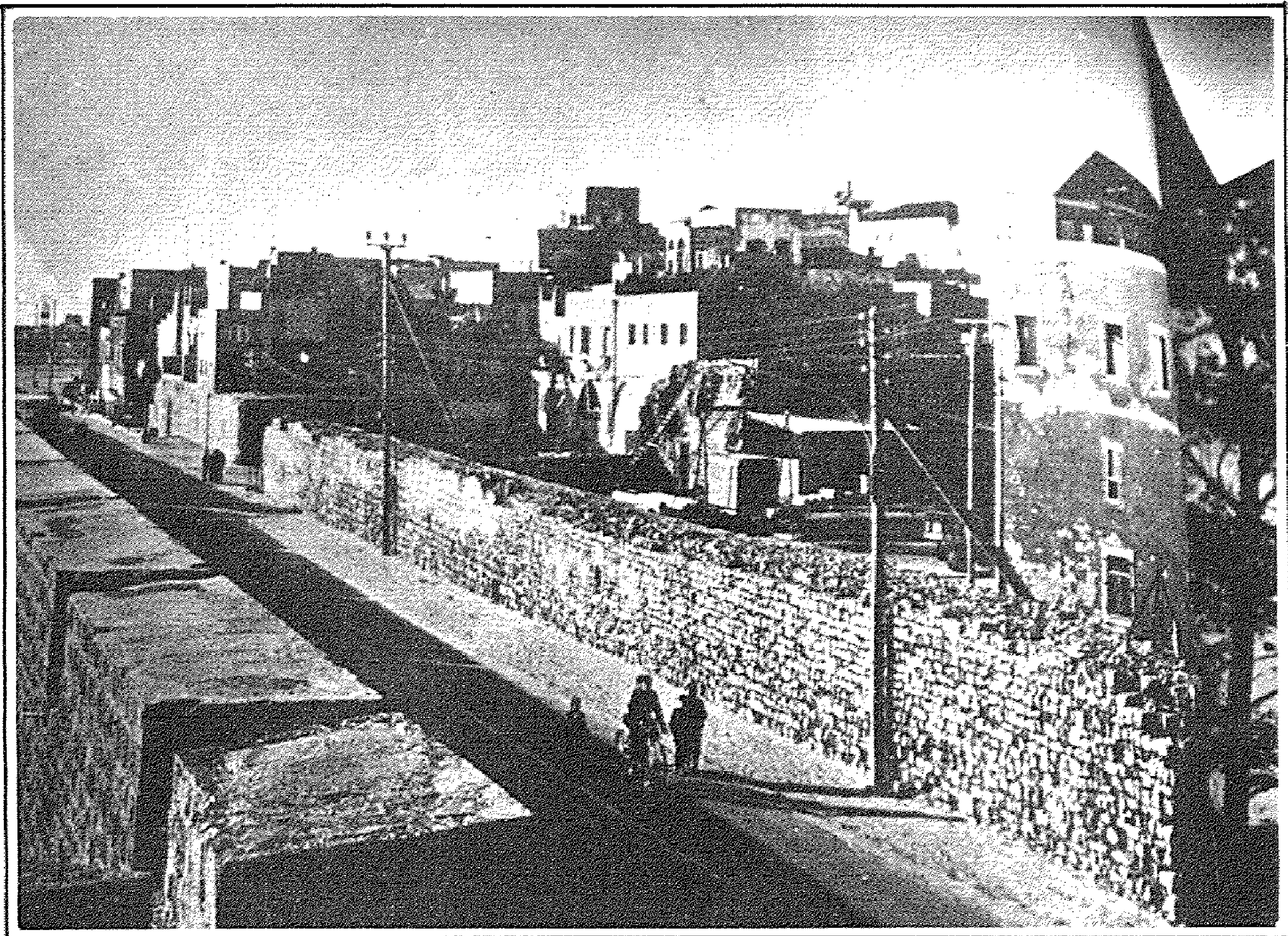
بعد أن تنتقى البقعة التي تتوفر فيها الشروط آنفة الذكر، تقام أول ما يقام خيمة السلطان في وسط المعسكر وتعتبر في مثابة المركز في المعسكر، ثم يتحلق حوله امراء الجيش وأهلهم والخصيان ومطابخهم وشرابهم ورباط خيل أهل النوبة. ومن أجل الترفيه عن الجند كان يضم المعسكر كل وسائل الراحة والحاجات اليومية والأنشطة التجارية والصناعية. يصف الرحالة عبد اللطيف البغدادي معسكر صلاح الدين وصفاً ممتعاً بعد أن زاره عام ٥٨٧هـ /١١٩١م فيقول «كان السوق الذي في عسكر السلطان على عكا عظيماً، ذا مساحة فسيحة فيه مئة وأربعون دكان، وعددت عند طباخ واحد ثمانية وعشرين قدراً كل قدر تسع رأس غنم، وكنت أحفظ عدد الدكاكين لأنها كانت محفوظة عند شحنة السوق وأظنها سبعة آلاف دكان وهي ليست مثل دكاكين المدينة، بل دكان واحد مثل مائة دكان لأن الحوائج في الأعدال الجوالقات.. وأما سوق البز العتيق والجديد فشيء يبهر العقل، وكان في المعسكر أكثر من الف حمام وكان أكثر ما يتولاه المقاربة.

نظام العسكر الإسلامي في عهد صلاح الدين

لم يكن يختلف نظام العسكر في عهد صلاح الدين عن سابقه على وجه العموم، فقد



□ حي المدارس وقباب الكتاتيب التي تعلم فيها الدمشقيون القراءة والفقه والحساب.



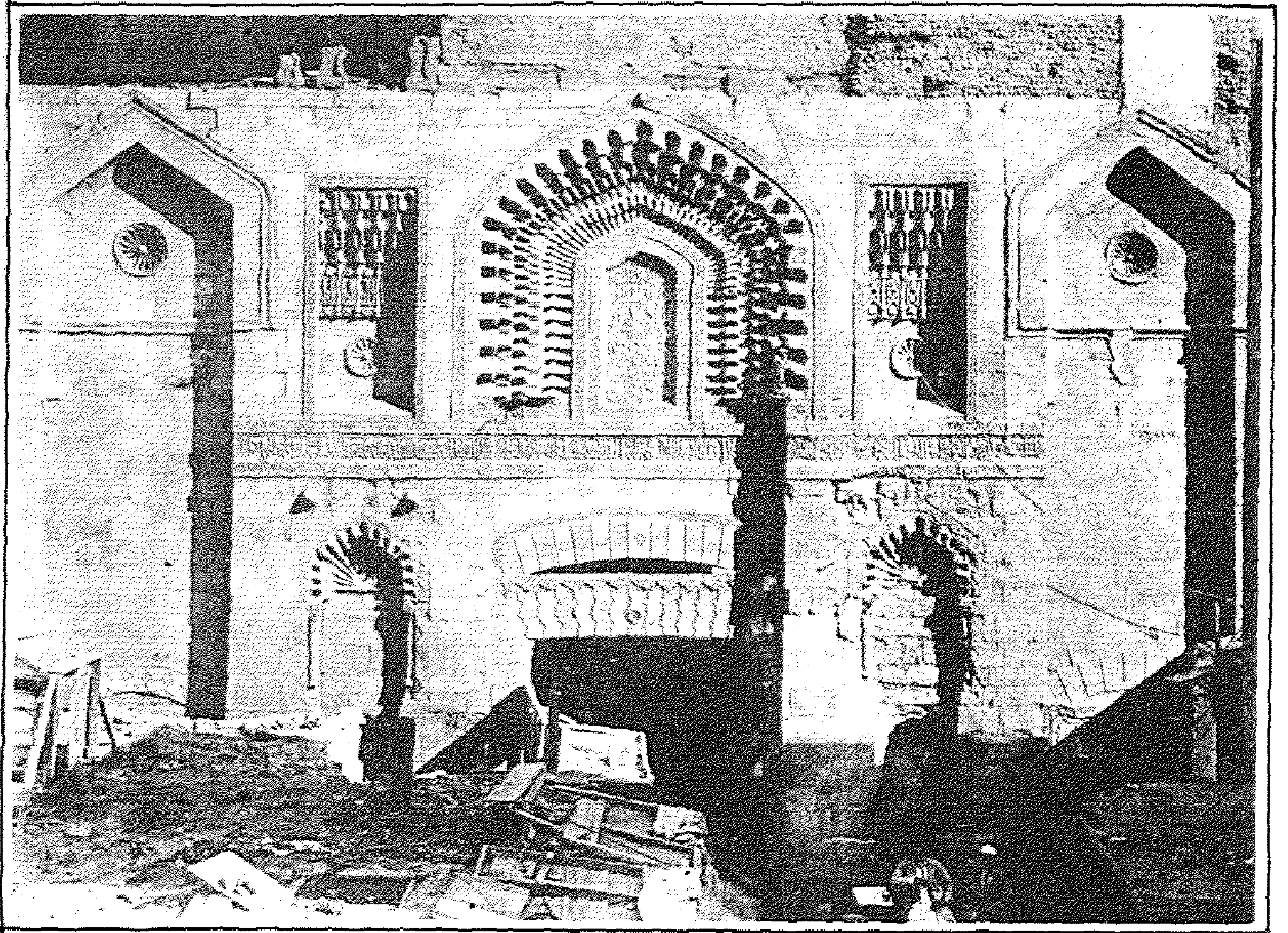
□ مدينة عكا.

سبق أن أشرنا إلى أن صلاح الدين قد ورث التقاليد العسكرية في العهد النوري والفاطمي وسار على نهجها فنجد هناك السلطان وقد توسط العسكر وعسكر المقدمة وعسكر الميمنة وعسكر الميسرة وعسكر الساقة أو عسكر الخلف ويكون السلطان بمثابة القلب لهذه الأجنحة الأربعة وينقسم كل جناح إلى ذراعين فيما عدا عسكر المؤخرة فهو يضم المطابخ والخزينة وأدوات القتال والدواليب والفائض من الخيول والمال والأسرى والجرحى.

كان لكل عسكر قائد يسمى «المقدم» فهناك مقدم الميمنة ومقدم الميسرة ومقدم الساقة وهكذا، أما القلب فكان بقيادة صلاح الدين نفسه يحيط به الأطباء والفلكيون والعلماء ورماة المزاريق والأخصاء وأمامه يقف حاملو الأعلام والموسيقيون.

وفي مجال الحرب اتبع صلاح الدين أسلوب الحرب الكلاسيكية المعاصرة، ولكن ذلك لم يمنعه من اتباع الأساليب الحربية التي تضمن له النصر إذا رأى أن في ذلك فائدة للمسلمين ومن تلك الأساليب. «الحرب الخاطفة» فقد كان يباغت عسكر الإفرنج قبل أن يستجمع قواه بعد معركة ساخنة لا يتوقع العدو أن يقوم بها. ومن أمثلة ذلك بعد انتصاره بوقعة حطين عام ١١٨٧م قام بمهاجمة عكا وصفورية وقيسارية وغزة ونابلس حتى إذا استعصت عليه مدينة صور تركها وعاد إلى مهاجمة بيت المقدس واستولى عليها ولم يعتبر صلاح الدين الحرب الخاطفة قاعدة لا يمكن الخروج عنها فكان إذا رأى أن ذلك غير مجد تحول إلى أسلوب تكتيكي آخر.

ومن الأساليب الأخرى التي اتبعها في الحرب، سلاح الخديعة وسلاح الكمائن وهذا ما حدث في منطقة تبنين، فقد أوهم الإفرنج أنه هُزم ولكن في الحقيقة قادهم إلى كمين حيث قضى عليهم، ومن الكمائن المشهورة الكمين الذي نصبه للملك ريتشارد قلب الأسد عندما خرج للصيد والاحتطاب وقد كبدت هذه الكمائن العدو كثيراً من الخسائر.

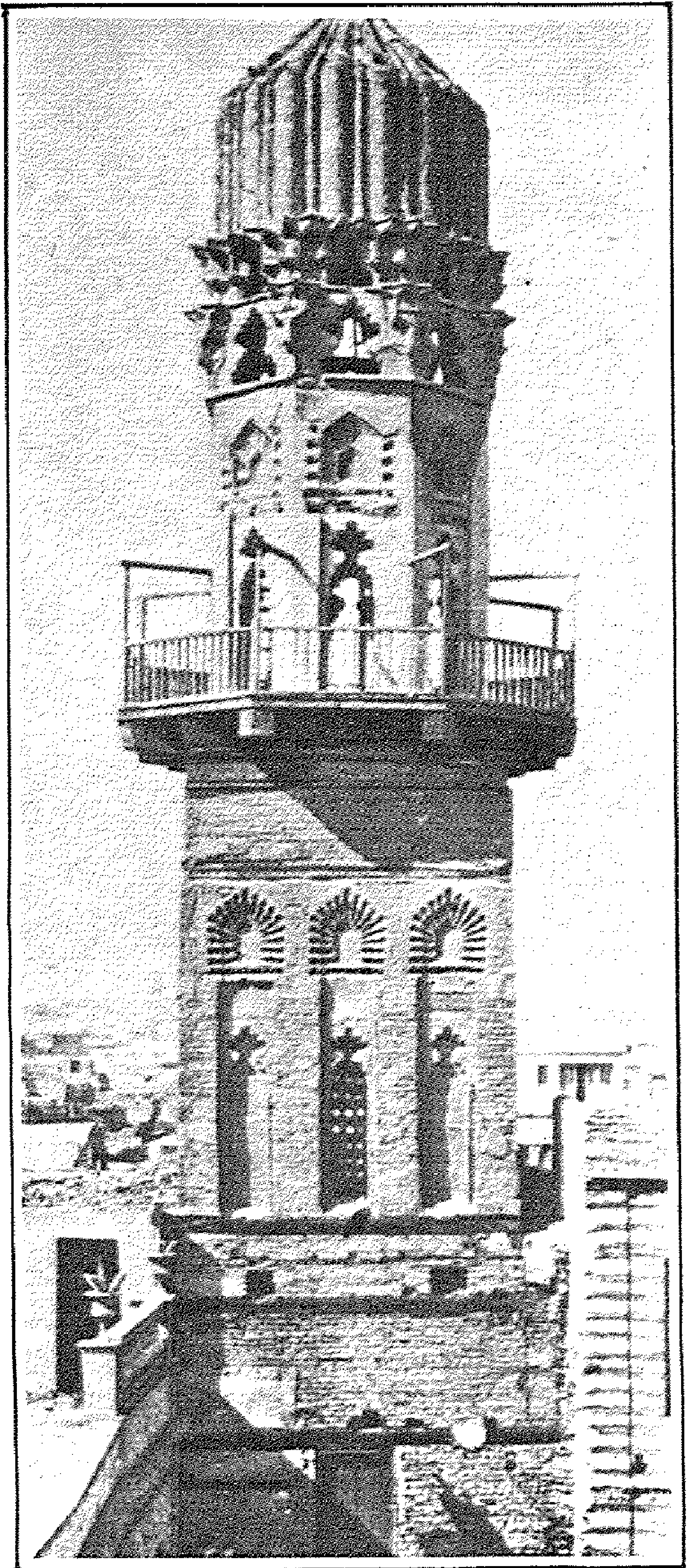


□ مدرسة ومدفن الصالح نجم الدين ـ من أهم مباني العصر الأيوبي في مصر.

ويذكر بعض المؤرخين أن نظام الكمائن نظام سلجوقي قد نقله منهم صلاح الدين والذي ساعد على تطبيقه بنجاح تضاريس بلاد الشام التي جمعت بين الأودية والجبال والهضاب.

ومن الأساليب التي كانت تسبق المعارك والحرب عند صلاح الدين «أسلوب الاستكشاف» فقد جرت العادة أن يقوم «اليزك» أي الطلائع بالاستطلاع وجلب الأخبار عن معسكرات العدو وكان لهؤلاء، أي اليزك تمرين خاص على الأعمال التي يكلفون بها، وقد نجح هؤلاء نجاحاً باهراً في أداء مهمتهم الأخبارية الاستطلاعية، بناء على تقارير اليزك استعد صلاح الدين عسكرياً للدفاع عن بيت المقدس، هذا وكانت تعهد إلى اليزك في بعض الأحيان، مهمة مناوشة العدو أو استدراجه إلى كمين أو إلى معسكر إسلامي.

وهناك نظام التجسس الحربي الذي استخدم فيه صلاح الدين بعض المستأمنين الإفرنج والأسرى الإفرنج، حيث أمدوه بتفاصيل دقيقة عن حالة جيوش الأعداء المعنوية والمادية ويدخل في هذا الباب العيون التي كان يبثها من الفلاحين المسلمين بين المعسكر الإفرنجي في صورة متجولين للفاكهة واللحوم والخبز وكان رئيس هذا الجهاز القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الذي كان بدوره يبلغ السلطان يومياً بمشاهداتهم، ومن الأساليب الأخرى التي استعملها المسلمون في العصر الأيوبي استخدام الإشارات الضوئية والنار في عملية نقل الأخبار وإبلاغها أو التعارف فيما بينهم، الحمام الزاجل وقد استخدمه نور الدين قبل صلاح الدين فاستخدام الحمام الهوادي سنة ١١٧١ ورتب في كل ثغر رجالاً ومعهم الحمام بحيث إذا نزل الإفرنج أحد الثغور وصل الخبر إلى السلطان في يومه، فقد حدث عام ١١٧٤ وهو في بلدة فاقوس بمصر أن ورد إليه خبر مع الحمام الزاجل بأن الإفرنج قد وصلوا الإسكندرية ودمياط فاستعد لهم وكسرهم، وإلى جانب الحمام الزاجل استخدم صلاح الدين البريد المائي حيث



□ مدرسة الصالح نجم الدين ــ المئذنة
٦٤١ ــ ٦٤٨هـ/١٢٤٣ ــ ١٢٥٠م.

استخدم أمهر السباحين الذين يحملون الكتب والنفقات والمؤن على ظهورهم.

وكان من عمل الطواشي في جيش صلاح الدين نقل الأخبار والأوامر إلى جميع وحدات الجيش وملاحظة كل فرد في مكانه وإلا تعرض للموت، يعاونه في أداء مهمته الجاويش فضلاً عن المناداة بالبوق إيذاناً ببدء المعركة أو التجمع حول خيمة السلطان.

ومن العناصر التي قدمت خدمات كبيرة لجيش صلاح الدين، البدو الأعراب، فقد أبلوا بلاء حسناً في المعارك وحرب العصابات والاستطلاع والغارات الليلية والكمائن والدلالة والارشاد إلى الطرق والمسالك، إلاَّ أن الأمر لم يخل من وجود عناصر منهم تعاونت مع الإفرنج فأغراهم المال فيقول ابن جبير أنه لولا البدو ما استطاع ملك الإنجليز ريتشارد قلب الأسد أن يتعرف على خبر قافلة التموين المصرية الذاهبة إلى بيت المقدس وينزل بها الضرر إذ أسفرت عن أسر خمسماية أسير من العرب المسلمين وأخذ ثلاثة آلاف جمل على حد قول أبي شامة.

التوجيه والإرشاد في الجيش الصلاحي

على الرغم من أن الجيش في عهد صلاح الدين كان يتألف من أجناس شتى من العرب والمغاربة والأكراد والترك والسودانيين، وعلى الرغم من أن التفهم لم يكن قائماً بينهم إلاَّ في حدود ضيقة، حتى أن التفاهم بينهم وبين السلطان صلاح الدين كان يتم بواسطة تراجمه في بعض الأحيان، إلاَّ أن هناك هدفاً واحداً كانوا يرغبون في تحقيقه هو الجهاد في سبيل الله وتحرير الأرض من يد الإفرنج الكفار، لذلك فالحرب والاستشهاد أمر واجب ومرغوب فيه لدى العرب المسلمين في ذلك الوقت، ونجد الأمر نفسه أيضاً عند الإفرنج، فقد كانت تعبئة العسكر وبث الحماس في نفوسهم عن طريق الوعظ وترديد الآيات القرآنية التي تحض على الحرب وعدم الفرار أمر مرغوب فيه فنجد أحياناً صلاح الدين وبين يديه جماعة من القراء والصلحاء يتلون كتاب الله ويحذرون من الفرار ويذكرونهم بما أعد الله للشهداء في الجنة مستشهدين بالآيات الواردة بسورة الأنفال والأحزاب ومعظمها ضد الفرار الذي هو إحدى الكبائر الخمس.

إضافة إلى ما سبق كان هناك التهليل والتكبير لتقوية الروح المعنوية والقيام بالصلاة في أوقاتها.

الترفيه والترويح في الجيش الصلاحي

حـرص السلطان صلاح الدين عـلى توفـير وسائل الترفيه المسموح بها في عصره إلى الجيش في معسكراته مدخلاً بذلك السرور إلى نفوس القادة والجند فكان مثلاً يستقبل قادة الجيش عند باب سرادقه بالاحترام والتبجيل باسطاً لهم أفخر الأبسطة والثياب مقدماً لهم أطيب اللطائف وأطيب التحف وأشهى الأطعمة وألذها ثم بعد ذلك يعرض لهم ألواناً من الرقص والغنـاء والضرب على المزامير والطبول والدفوف.

ديوان الأسرى

كـان هناك ديـوان في الدولة الصـلاحيـة، وهو ديوان نجده قبل صـلاح الدين في الدولة الإسـلامية، هـو ديوان الأسـرى، فكان هـذا الديـوان يمسك سجـلات تدون فيهـا أسمـاء الأسـرى من المسلمين والإفـرنج وطريقـة فك اسارهم، فقد كان صلاح الدين يحرص على فكاك الأسرى المسلمين وخاصة المغاربة منهم لأنهم غـرباء عـلى أهلهم، وفي إحدى المـرات مرض صلاح الدين ونذر إن شفي من مرضه لينفقن اثني عشر ألف دينار لفداء الأسرى المغاربة، وقد شاركه في هذه الصفقة الطيبة تاجران دمشقيان من مياسير التجـار همـا نصر الدين بن قوام وأبو الدر ياقوت، ولا يكاد مغربـي يخلص من الأسر إلّا على يديهما، ويقول ابن جبير في رحلته إن ظاهرة فكاك أسرى المسلمين من المغاربة قد عمت ولاتكاد تجد وصية تخلو من تخصيص مبلغ من المال لفداء الأسرى المغاربة لبعدهم عن بلادهم.

وكان ديوان الأسرى يبادل الأسرى الإفرنج الذين عنده أو أسرهم بأسرى المسلمين، ففي عام ١١٨٧م وهو عام التوفيقات الصلاحية قد خلص أكثر من عشرين ألف أسير، هذا إلى جانب ما كان يقوم به من جهـد في شراء الأسـرى المسلمين من تجار الإفرنج مقابل عمولة مناسبة لهم حيث كان الإفرنج يبيعون أسرى المسلمين الذين لم يفك أسرهم.

الخدمات الطبية في الجيش الصلاحي

تطورت الخدمات الطبية في عصر نور الدين زنكي وبالتالي في عصر صلاح الدين فنجد هناك البيمـارستـانـات في دمشق وحلب والقـاهـرة والإسكنـدرية، وقـد أُنْشئت لمعالجـة الجرحى والمرضى وجهزت بالمعدات اللازمة وزودت بالأطباء الاختصاصيين ومن هذه البيمارستانات ما أمر بإنشائه صلاح الدين عام ١١٨١ وأوقف عليها الأوقاف وجعل العلاج فيها مجاناً، ويصف لنا ابن جبير أحدهـا بعد أن زاره بمصر في أواخر عام ١١٨٢ فقد رأى مائة من خزائن العقاقير وأنواع الأشربة وأسرة المرضى كما أمر بإنشاء بيمارستان ثالث في الإسكندرية خصصه لمعالجة الغرباء وكانت كل هذه البيمارستانات تحول إلى مستشفيـات عسكريـة زمن الحرب لاستقبـال الجـرحى والمـرضى من الجنـود، نـاهيـك عن المستشفيات الميدانية العسكرية التي كانت ترافق الجيوش أثناء المعارك.

دور المرأة العربية في عصر حطين

لم تكن التقاليد الاجتماعية والدينية تسمح للمرأة بالظهور على مسرح العمليات الحربية، إلّا أن ذلك لم يمنعها من أن تقوم بدورها في الجهاد والتحرير قدر استطاعتها خاصة في الخدمـات الطبية في المستشفيات الميدانية، ويورد بعض المؤرخين المعاصرين أن عصمت الدين خانون بنت معين الدين أنر أرملة السلطان نور الدين وزوجـة السلطان صـلاح الدين من بعـده في مؤخرة العسكر لمداواة الجرحى وتضميد الجراح وكذلك ست الشام بنت أيوب أخت صلاح الدين ويقال أنها صنعت الأدوية والمعاجين والعقاقير وفـرقتها عـلى الجرحى والمـرضى من المدنيـين والعسكريين.

كما أن هناك من النسوة من كن يثرن حماسة الجنـد في القتـال مثـل أم عـلي تقيـة بنت أبـي الفـرح غيث بن عبد السـلام بن محمـد الأرمنازي التي نظمت قصيدة حربية ووصفت الحرب وما يتعلق بها أحسن وصف وأهدتها إلى الملك المظفر بن أخي صلاح الدين، على العموم يمكن القـول أن المـرأة العـربيـة، في العصر الأيوبـي، شاركت الرجل في كل الميادين التي

كانت تسمح بها تقاليد العصر.

خلاصة القول هذا هو الجيش الذي حارب به صلاح الدين والذي به انتصر على الأعداء والذي لم يكن متفوقاً تفوقاً ظاهراً على جيش الإفرنج وبه قرر مصير الهجمة الاستيطانية التي تعرض لها وطننا العربـي إبان العصور الوسطى، وبهذا الجيش حقق الوحدة بين مصر وسوريا التي كانت أساساً هاماً في كسب الانتصـارات، هذا إذا أضفنا إلى ذلك الاستراتيجية الفذة التي اتبعها صلاح الدين في حربه مع الإفرنج وتكتيكه المرن الحازق.

واليوم ونحن نواجه هجمة جديدة تشبه هجمة الإفرنج في عصر الحروب الصليبية وهي الهجمة الصهيونية فكلا الهجمتين رفعت شعار الدين وتحرير الأرض المقدسة ورغبت في الاستيطان فيهـا، من أجل استغـلال عواطف الجمـاهـير المؤمنة، وكما أنجز العرب مشروعهم القائم على طرد الإفـرنج من بـلادهم سينجـزون اليـوم ومستقبلاً ولا شك، مشروعهم في تحرير الأرض والإنسان، ولعل وحدة الهدف والمصير ووضوح السبيل إلى تحقيقهما، واستراتيجية كاستراتيجية صلاح الدين وعزماً كعزمه وقومة واحدة تقوم بها الأمة العربية، تكفل كلها تخليص البلاد من خطر الصهيونية الجاثم فوق الأرض العربية وتحقق الحلم في إعادة الأرض إلى أهلها وإقامةدولهم المستقلة في تراث وطنهم الحر.

المصادر والمراجع

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١.
(٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ج ١٩٨٧/٦.
(٣) ابن جبير، الرحلة، دار صادر ودار بيروت، ١٩٥٩.
(٤) ابن شامة، الروضتين في أخبار الدولتين.
(٥) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية.
(٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان.
(٧) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب نشر الدكتور جمال الدين الشيال، ١٩٤٢.
(٨) ابن منقذ أسامة، الاعتبار.
(٩) أبو الفداء إسماعيل، المختصر.
(١٠) جب، صلاح الدين الأيوبـي.
(١١) حتي فيليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج ٢، دار الثقافة، ١٩٥٩.
(١٢) الدباغ مصطفى، في بيت المقدس، بلادنا فلسطين، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٥.
(١٣) رانسيمان س. تاريخ الحروب الصليبية ثلاثة أجزاء، دار الثقافة، ١٩٨٦.
(١٤) زابوروف ميخائل، الصليبيون في الشرق، دار التقدم موسكو ١٩٨٦.
(١٥) زكار سهيل، مسيرة التحرير من دمشق القدس.
(١٦) مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية.
(١٧) سعداوي نظير حسان، جيش مصر من أيام صلاح الدين.
(١٨) الحرب والسلام زمن العدوان الصليبـي، القاهرة ١٩٦٧.
(١٩) العريني السيد الباز: الشرق الأدبـي في العصور الوسطى (١) الأيوبيون، دار النهضة العربية.
(٢٠) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك.

□ ألقيت هذه الدراسة في «ندوة حطين» التي انعقدت في دمشق في تموز/يوليو ١٩٨٧، بمناسبة الذكرى المئوية الثامنة لمعركة حطين.

السوق الاقتصادية الأوروبية المشتركة

● في حزيران (يونيو) ١٩٥٥، اجتمع في ماسينا وزراء خارجية الدول الست الأعضاء في السوق الأوروبية للفحم والفولاذ واتفقوا على القيام بمسعى مشترك لتطوير الطاقة النووية وإنشاء سوق مشتركة. وبعد دراسة هذا الموضوع، صدر تقرير عنه في نيسان (ابريل) ١٩٥٦. وبعد التفاوض، وقعت الدول الست بإمضاءاتها على «مواثيق روما» التي انشأت السوق الاقتصادية الأوروبية المشتركة، والسوق الأوروبية المشتركة للطاقة النووية، في ٢٥ آذار (مارس) ١٩٥٧. وفي النصف الأخير من ١٩٥٧، ابرمت المجالس النيابية في الدول الست مواثيق روما، فخرجت السوق الأوروبية المشتركة إلى حيز الوجود في أول كانون الثاني (يناير) ١٩٥٨ وكانت مؤلفة من كل من فرنسا، ايطاليا، بلجيكا، المانيا الاتحادية، هولندا واللوكسمبورغ. وفي أول كانون الثاني (يناير) ١٩٧٣ زاد عدد الدول الأعضاء بانضمام بريطانيا وجمهورية ايرلندا والدانمارك. وهناك ٢١ دولة مرتبطة بالسوق المشتركة باتفاقات خاصة، كاليونان، والمغرب، وتونس وتركيا.

وتتكون السوق المشتركة من أربع مؤسسات رئيسية هي: المجلس الوزاري، واللجنة الأوروبية، والبرلمان الأوروبي ومحكمة العدل.

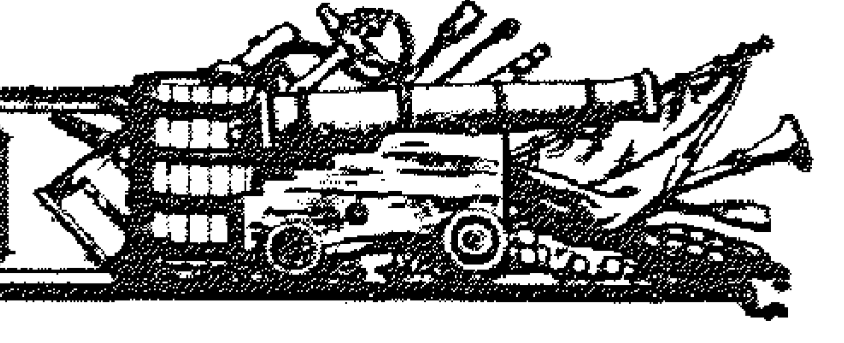
ويتألف المجلس الوزاري من وزير تنتدبه كل من الدول الأعضاء. وهو يقرر سياسة السوق المشتركة على أساس المقترحات التي تتقدم بها اللجنة الأوروبية، ويتخذ قراراته بالأغلبية، أو بالأغلبية المطلقة، أو بالاجماع، حسب القضايا المقترع عليها.

وفي اللجنة الأوروبية التي هي الهيئة الموجهة والتنفيذية للسوق، ١٣ عضواً. وهم مسؤولون أمام السوق بمجموعها، وعليهم أن يتصرفوا باستقلال عن حكوماتهم، والمهمة الأساسية لهذه اللجنة هي المساهمة في وضع سياسة السوق وتنفيذ البرامج التي ينص عليها ميثاق روما أو التي يقررها المجلس الوزاري على التوالي.

ويتألف البرلمان الأوروبي من ١٩٨ عضواً تنتدبهم المجالس النيابية في الدول الأعضاء. (في مطلع ١٩٧٣، فرغ ١٦ مقعداً، لأن حزب العمال البريطاني رفض أن ينتدب حصته من الأعضاء). وللبرلمان الحق في أن يستجوب اللجنة الأوروبية ويناقش تقاريرها ويجبرها على الاستقالة بأغلبية ثلثي عدد أصواته. وهو يجتمع سبع مرات أو ثماني في السنة (عادة في ستراسبورغ، مع أن مقره في اللوكسمبورغ).

أما محكمة العدل التي تتألف من ١٣ قاضياً و ٣ مدعين عامين، فمهمتها مراقبة العمل بأحكام قوانين السوق المشتركة وإصدار حكمها في تفسير ميثاق روما وتطبيقه.

وهناك عدة لجان استشارية للسوق وهي: اللجنة الاقتصادية والاجتماعية، ولجنتان: إحداهما للسياسة الاقتصادية القصيرة المدى، والثانية للسياسة الاقتصادية البعيدة المدى. وهناك أيضاً لجنة الموازنة، ولجنة حاكمي المصارف المركزية، ولجنة المواصلات والنقل، واللجنة الادارية للضمان الاجتماعي الخاص بالعمال النازحين. وللسوق المشتركة أيضاً صندوق اجتماعي، وصندوق انمائي، ومصرف استثمار مالي، وصندوق للتوجيه والضمان الزراعي.





□ بسمارك.



□ نابليون الثالث.

نابليون الثالث ينتصر بلعبة الباليت وبسمارك يثأر باحتلال فرنسا

إعداد: بيار- روبير لوكليرك
ترجمة: إنعام الجندي



كان نابليون الثالث شديد الاعجاب ببسمارك، يوم لم يكن بسمارك إلا الكونت دوبسمارك. وكان الكونت معجباً كذلك بشخصية الامبراطور نابليون الثالث.

وكان الامبراطور يتوقع للكونت البروسي مستقبلاً سياسياً هاماً، لما أنس فيه من ذكاء، وطموح، ومعرفة، وثقافة.

وكان يأمل أن يتعاونا حين يبلغ بسمارك المستقبل الذي توقعه له. فلم يكن ضد مطامح بروسيا التوحيدية. بل كان يرى في توحيد الامارات الألمانية بزعامة بروسيا، علامة خير لأوروبا. فما أن تصبح دولة قوية يمكن التفاهم الفرنسي البروسي، فترتاح أوروبا من الحروب وتلتفت إلى التنمية والانتاج. وتقتسم فرنسا وبروسيا بلجيكا، وتحل مشاكل البلدين بالحسنى.

يذكر العديد من الكتاب، تلك الأمسية التي كان فيها بسمارك ضيف نابليون الثالث، في قصر كومبيني.

كانت أشعة الأصيل الشقراء، تلوح حدائق القصر، في ذلك اليوم الخريفي الحالم. ورغم ذلك أشعلت الثريات جميعاً في قاعة لعب الورق، لتبهر ستين ضيفاً من ضيوف الامبراطور الذي أقام أول حفل استقبال، بعد عودته من جولة في مقاطعات وسط فرنسا، ثبت له خلالها أن شعب فرنسا متعلق به أشد التعلق، ولما تمض عشر سنوات على إعلان الامبراطورية.

تجلى المدعوون في أبهج منظر. كانوا جميعاً يرتدون «الفراك» الأزرق والبنطال الأسود. أما الكلسات فكانت سوداء كذلك.

وارتدت النساء تلك الفساتين الواسعة المزينة بالعقد والوشي والجواهر. وزغردت ضحكاتهن في فضاء القاعة، فارتعشت باقات الزهر الاصطناعي على صدورهن، لم يكن يحببن تلك الورود. ولكن الامبراطورة أوجيني أحبت هذا الزي، فقلدتها فيه جميع نساء فرنسا.

تشكلت حلقات، راحت تتحدث في مواضيع شتى. أو تروي النكات، فتتعالى الضحكات، وكان سيد الموقف، الدوق فييل دوكاسل.

رجال الأدب

كنت ترى هناك ألفرد دوفيني، وبروسبير مريمي والناقد سانت ــ بوف، وهم يناقشون «الأشعار البربرية» للكونت دوكيل، أو «سالامبو» لفلوبير، فهما أحدث الانتاج الأدبي. ثم يعرجون على «البؤساء» لفكتور هوغو، الذي رفض تلبية دعوة الامبراطور.

أما مورني، وبرسينيي فقد اعتزلا بعيدا، وراحا يناقشان السبيل إلى كبح جماح الجمهوريين في الانتخابات المقبلة، وحث الامبراطوريين المتطرفين على المزيد من الجهد «لقمع» الجمهوريين.

رجال السياسة والمال

غير بعيد من هؤلاء، رجال السياسة والمال: البارون هوسمان المستوزر، الذي كان يزعج الامبراطور بإلحاحه على اختياره وزيراً. البارونة روتشيلد اليهودية المعروفة بحضور كل المناسبات والحفلات والدعوات، خاصة الرسمية، والأمير مترنيخ، وكانت تدور بينهم أحاديث بصوت خفيض، حتى لا يسمعه الآخرون.

أما الكونت دوبسمارك فكان يتجول في خفة، وعلى نحو لا يكاد يلحظه أحد، وكل همه أن يلفت إليه السيدة مترنيخ، صديقة الامبراطورة، التي يطمح إلى أن توليه عطفاً خاصاً.

كان ضخماً، أنيقاً، خجولاً بعض الشيء، يتميز بنظرة ثاقبة، وابتسامة لطيفة. وكان في السابعة والأربعين من عمره، وهو في أوج مجده، فمنذ انتخب عضواً في مجلس الدييت البروسي، والأنظار تتجه إليه، وصعوده سلم الانتصارات مستمر. وقد اختير قبل تلك الأمسية بقليل، لأهم منصب يطمح إليه كل بروسي.

لم تكن بولين دومترنيخ تشعر بأي تعاطف نحو الكونت دوبسمارك. ربما لأنها تضمر حقداً خاصاً لبروسيا! مع ذلك استقبلته في تلطف شديد، ولهجة مرحة فهي تعلم أنه مسافر الغداة إلى برلين، حيث ينتظره الملك غليوم ليعهد إليه برئاسة مجلس الوزراء، ولا يجوز التظاهر بعدم الاكتراث تجاه هذا الموقع.



□ الامبراطورة اوجيني.

قالت: هل تعلم يا سعادة الكونت ما يسمي الحمر والاشتراكيون كومبيني؟.

ــ لا يا أميرة.

ويا للمدخل الأنثوي الرائع الذي بدأت به الحوار! كان بسمارك يعرف الجواب حتماً، ولكنه كان حريصاً على عدم التصريح بما يعلم!.

ــ يسمونها سدوم وعمورية!... ألا يخيفك ذلك.

ــ أيتها الأميرة، لست بريئاً إلى الحد الذي تتصورين... أكره الرحيل... وإني أتمتع كثيراً في فرنسا!.

ــ هل ستعود ثانية؟.

ــ آمل ذلك! ولكن من يدري متى أعود؟.

بدء السهرة

أقبل الليل، وبدأت الأنظار تتجه بين الحين والحين إلى البوابة الكبيرة. وقد سقطت المحادثات جميعاً. فقد ملّ معظم المدعوين ما كان بينهم من مواضيع حوار.

اخيراً فتحت البوابة، وساد صمت شديد!

واصطفت الصبايا اثنتين اثنتين على طول الممر داخل القاعة، وبرزت الامبراطورة تصحبها وصيفتاها. وكانت ترتدي ثوباً حريرياً واسعاً عند أطرافه السفلى، منقوشاً بزهور صغيرة. وقد حلا عنقها بصفي لؤلؤ.

انحنى الرجال تحية للامبراطورة، ولوت النساء ركبهن في انحناءة لطيفة، ابتسمت لزوارها، ولاطفت كلاً بكلمات قليلة عجول، وتوقفت وقفات سريعة عند بعضهم، ثم استقرت اخيراً بين صديقاتها الخلص: آن مورا، دوقة مالكوف، والسيدة مترنيخ، التي حدثتها بما كان من حوارها مع بسمارك.

ثم تشكلت المجموعات السابقة من جديد. ولكن لم يطل الوقت، حتى فتح مصراعا البوابة من جديد وأطل الامبراطور، واتخذت المراسيم ذاتها التي اتخذت عند دخول الامبراطورة. وكان الامبراطور يلاطف المدعوين بكلمة هنا، وجملة هناك، حتى بلغ الامبراطورة، فحياها ووقف معها وصويحباتها، واستأنف الحضور سمرهم.

قدم مدير التشريفات وأعلن: «أصحاب الجلالة مدعوون إلى الطعام».

عشاء كئيب

مد نابليون ذراعه للامبراطورة أوجيني. وتبعه المدعوون زوجين زوجين، حسب ترتيبهم إلى مائدة الطعام، عن يمينه أو شماله.

أنارت القاعة خمس ثريات ضخمة. ولمعت الأواني الفضية في النور. وجلس الامبراطوران متقابلين. وجلس كل في المقعد المخصص له، وكان بسمارك إلى يمين نابليون.

رافقت الصنف الأول همسات عجلى. لم يجرؤ احد على رفع صوته، أو إطلاق طرفة تزيل الجمود، وكان نابليون يأكل ويشرب قليلاً. بينما تتحدث الامبراطورة بصوت خفيض مع جيرانها، ملاطفة. رغم أنها، منذ وفاة أختها، تعتزل عن الآخرين ولا تعنى، إلا بالقضايا السياسية.

كان الضيوف جميعاً لا يأكلون إلا قليلاً، عدا بروسبير ميريمي الذي كان يلتهم الطعام التهاماً. لقد كانت له دالية خاصة على العائلة. فقد طالما أجلس الطفلة النحيلة أوجيني دومونتيجو ــ التي غدت الامبراطورة ــ على ركبتيه مدللاً. ولم يكن يجاريه بافتراس الطعام إلا سانت ــ بوف.

وكان الضيوف السياسيون يتجهون بأنظارهم إلى الامبراطورة أوجيني التي «تذوقت» ملاذ السلطة منذ حرب ايطاليا، التي كانت فيها على تماس دائم بالأحداث. وكان لها بينهم كاتمو أسرارها، ومن تحميهم، وخلصاؤها، وكان لها آراؤها الخاصة، في نهاية المطاف.

كانت في السادسة والثلاثين من عمرها. ولكنها كانت تتمتع بذكاء حاد، وشخصية قوية. وقد عملت جاهدة لاقناع الامبراطور بالتحالف مع النمسا، البلد الوحيد الذي حافظ على النظام الملكي القديم. وكانت تفكر، حتماً، بمستقبل ابنها السياسي.

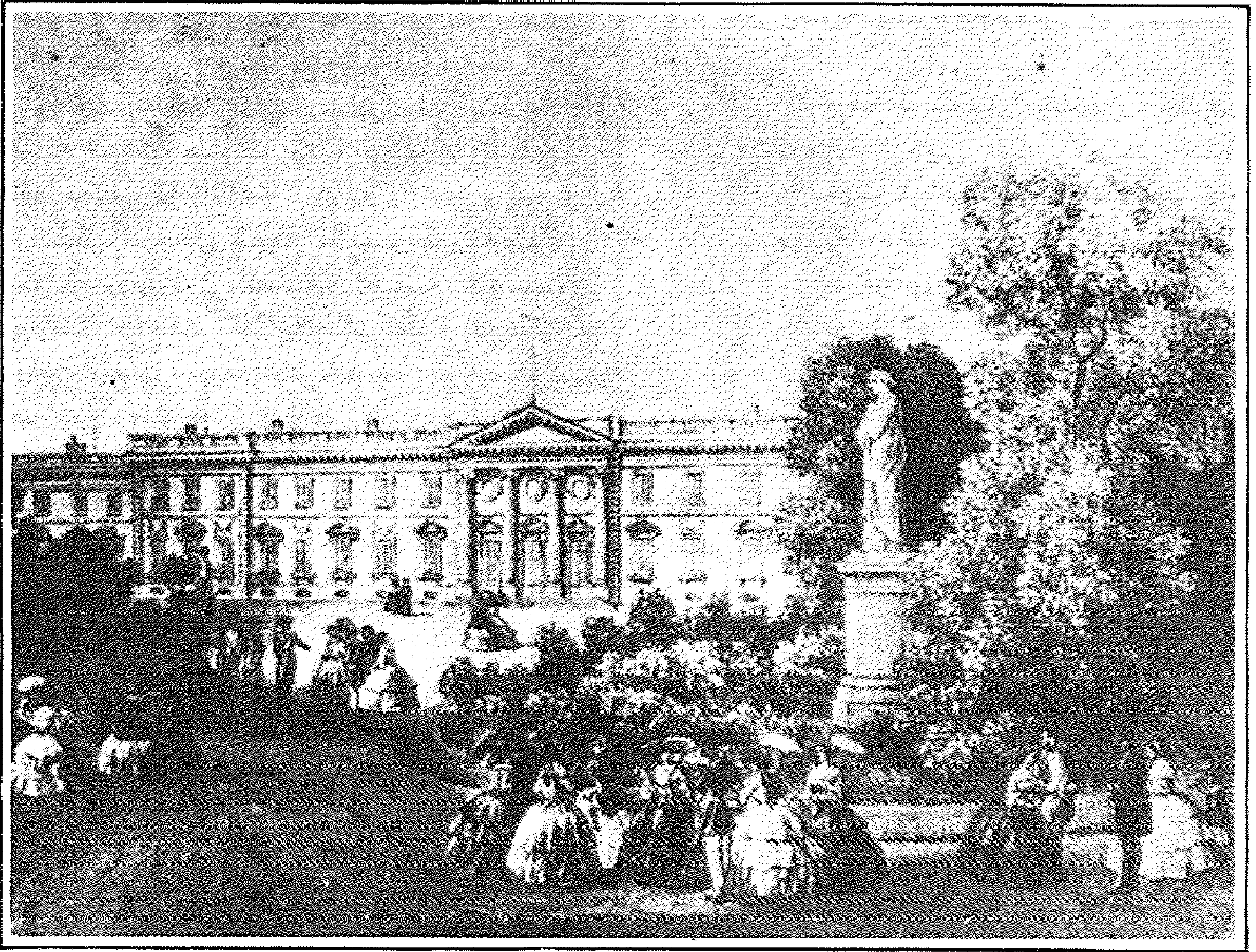
الامبراطور الكاتب

نقر الامبراطور على طرف صحنه إيذاناً بانتهاء الطعام. فنهضت الامبراطورة، وتشكل الأزواج، وسار الموكب إلى قاعة لعب الورق، وقدمت القهوة والمهضمات.

وكانت لفتة لطيفة من الامبراطور، إذ خف إلى الكتاب يبادلهم الأحاديث والطرف، وهمس في أذن سانت بوف، أنه يقوم بكتابة رواية «حياة قيصر» لذلك يطمح إلى نصائحه، ويرجو أن يزوره في قصر التويلري متى شاء، لهذه الغاية. فقبل سانت الدعوة بسرور بالغ. وأسر إلى فيني أنه أمر بإعادة تمثيل مسرحية شاترتون في الكوميدي فرانسيز، فانحنى الشاعر انحناءة بروتوكولية، شاكراً. ولم ينس أن يوزع ابتساماته وبعض الجمل مع مريمي، وساردو. وكان الجميع يلاحظون غياب الشاعر العنيد، المهيمن، فيكتور هوغو، الذي آثر البقاء على الضفة الأخرى من الرين، على حضور حفل الامبراطور. كان يتمتع آنذاك بكتابة روايته الجديدة «٩٣».

ولكن الامبراطور كان أشد احتفاء بضيفه بسمارك الذي اختير رئيساً للمجلس البروسي، والذي لم يبق له في فرنسا إلا ساعات. فقد مضى إليه، محيياً هذا أو تلك، حتى استقر معه.

كان بسمارك يسترعي الامبراطور بذكائه، وطلعته وشموخه. ولعله كان راغباً في استمالته إليه. كان يشعر بنوع من الصداقة تشده إلى



□ حفلة في قصر كومبيني.

بسمارك، ويتمنى أن يقوم بينهما حلف نافع لأوروبا كلها، فتمحي الخلافات، وتزول الحروب، وإن على حساب بعض البلدان الأوروبية، وخاصة بلجيكا.

والواقع أن فرنسا وبروسيا قد ازداد تقاربهما منذ أكثر من عام. وقد عرف عن بسمارك حبه فرنسا، ويبدو أن الملك غليوم قد وقع اختياره عليه لأرفع المناصب، فلماذا لا يحاول نابليون توطيد العلاقة معه؟.

وكان بسمارك من جهته معجباً بنابليون وشخصيته اللطيفة، وذكائه وسعة اطلاعه. قال الامبراطور: ستتركنا أيها العزيز بسمارك؟ إني آسف لذلك، رغم غبطتي باختيارك للمنصب الذي أنت أهل له!.

اجاب بسمارك: أنا الآسف يا سيدي أن أحرم من شرف القرب الدائم من جلالتكم!.

ـــ كنت أتمنى لو تتحقق هذه الرغبة المشتركة.

انقطع الحوار حين قدم الأمير جوزيف ابن نابليون. فقد جرت العادة، بعد عشاء كل يوم، أن يقبل الأمير ليحيي والديه، مصطحباً كلبه الذي لا يتركه لحظة. وقد دعاه الامبراطور لمشاركته لعبة «الباليت»، مما جعل الامبراطورة تتذمر، فهي لا تحب لولدها أن يتأخر عن موعد نومه، بينما رغب الامبراطور في اطلاع بسمارك على حذق ابنه في اللعبة رغم صغر سنه.

دعا بسمارك إلى مشاركته اللعبة، وسارا مع الأمير الصغير نحو الطاولة، وتبعهم الضيوف.

الخسارة والربح

اللعبة سهلة، ولكنها تقتضي مراساً وحذقاً. وتتكون من طاولة تغطيها رقعة خضراء، عند ثلثها الأخير دائرة صغيرة بيضاء. والطاولة مؤطرة بسياج من القضبان القليلة الارتفاع.

يمسك كل متبار بصفيحة مدورة. ويلقي بها محاولاً جهده أن تكون أقرب من صفائح الآخرين إلى النقطة البيضاء. وقد تخرج خصمك من اللعبة إذا أصبت صفيحته فقذفتها بعيداً، إلا إذا أعاد الكرة وغطى بصفيحته النقطة البيضاء.

دعا الامبراطور بسمارك إلى قذف صفيحته. فحبس جمهور الضيوف أنفاسهم، فهم لا يريدون أن ينتصر على الامبراطور بأية حال.

قذف بسمارك، فوقفت صفيحته قريباً جداً من النقطة. ثم قذف الطفل فجاءت قريبة من صفيحة بسمارك. وقذف الملك فكانت صفيحته أقرب. فعلا التصفيق والهتاف.

كان على بسمارك أن يعيد الكرة. فحبس الضيوف أنفاسهم ثانية. ولما قذف صفيحته ضربت صفيحة الامبراطور، وأبعدتها عن النقطة، فصفق الجمهور مسايرة، ولكن وجوههم كانت ممتعضة.

جاء دور الامبراطور ثانية. ساد الصمت، وتعلقت الأنظار بيد الامبراطور. ابتسم ابتسامة الواثق من نفسه. وبعد تأن، قذف صفيحته فغطت النقطة البيضاء، فعلا التصفيق والهتاف، وهنأ بسمارك الامبراطور بحرارة.

الامبراطورة إلى النوم والامبراطور إلى محظيته

دقت الساعة الثانية عشرة.

اعتذرت الامبراطورة بحجة الرهق، وانسلت إلى مقصورتها، داعية الحفل إلى مزيد من التمتع بالسهرة.

وتابع الباقون سهرتهم، ولكنهم كانوا ينفضون تدريجياً، حتى كان الامبراطور وبسمارك آخر الباقين.

تمنى الامبراطور لبسمارك عوداً سعيداً لبلاده، وحظاً موفقاً في منصبه الجديد، وأبدى رغبته في عودة بسمارك إلى فرنسا زائراً كريماً.

شكره بسمارك وودعه.

وما كاد يغيب عن النظر، حتى سار الامبراطور إلى عربته التي كانت تنتظره لتقله إلى شارع صغير من شوارع المدينة، وإلى بناء متواضع، ثم إلى الطابق الأول، حيث تترقب قدومه جولي لوبوف التي يعرفها البلاط باسم مارغريت بيلانجي.

وهناك قضى أواخر ليله معها، أمام نار حطبية تتأجج في المدفأة، وبعض كؤوس، وأطعمة قليلة. لقد بدا الامبراطور وكأنه رجع عشرين سنة إلى الوراء.

بعد عشر سنوات من ذاك تقريباً، في الرابع من أيلول، كان بسمارك يحتل قصر فرساي، ويثأر من لعبة الباليت في كومبيني. أما نابليون الثالث فقد نفي إلى كريس لوهورست ليقضي آخر أيامه في المنفى. •



● من وصية الخليفة عمر بن عبدالعزيز لابنه عبدالملك:

«لا تعجل يا بني، فإنه لا قليل من الاثم، فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعوه جملة ويكون من ذلك فتنة».

● «تعلم أن تعتمد على نفسك بتنفيذ الأشياء طبقاً لطريقتك في التفكير. إجعل أحكامك تستحق الاهتمام بثقتك فيها. استثمر فترات منتظمة بالتفكير والتأمل. أحسن وقت لاتخاذ الأحكام هي فترات العزلة عندما يمكنك التفكير في الأشياء بنفسك بدون إزعاج من أحد».

(جرينفل كالير)

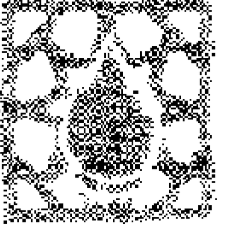
● «أنا أعتقد أن كل حق يستدعي مسؤولية، وكل مناسبة تستدعي موجباً، وكل امتلاك يستدعي واجباً».

(روكفلر الابن)

تاريخ السيارة

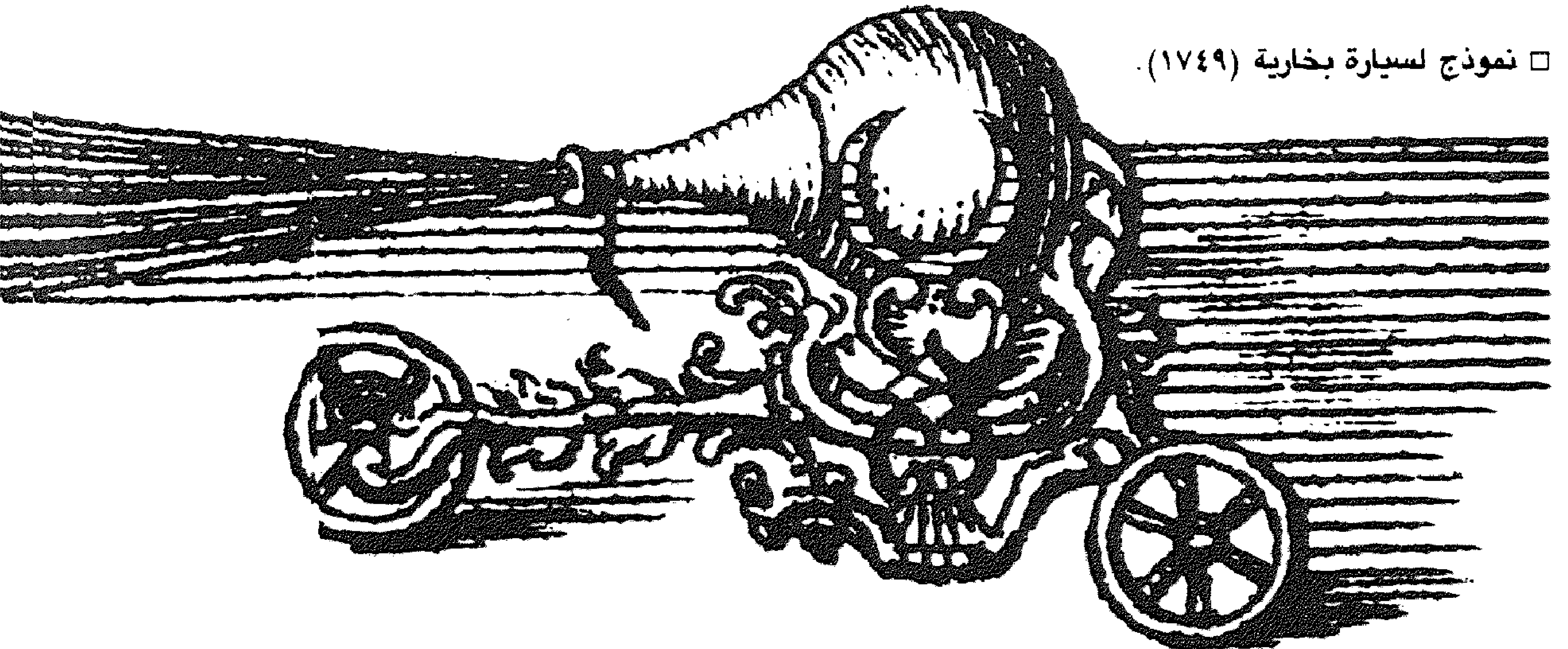
وتأثيرها على الأدب والفن عموما

ايريخ بيتر



في الثالث من شهر تموز/يوليو عام ١٨٨٦ قاد الميكانيكي الالماني كارل بنز (Carl Benz) — وهو ابن لسائق قاطرة — لأول مرة سيارة بمحرك بنزين، عبر شوارع مدينة مانهايم. وهكذا ولدت السيارة. وكانت بداية لمرحلة جديدة في تاريخ البشرية. وقد تم ذلك عقب مضي خمسين سنة على أوّل رحلة بالقطار بين نورنبرج وفورت. ليس هناك اختراع تقني آخر طبع القرن العشرين بطابعه الخاص كعربة البنزين هذه. فهي غيّرت مجرى حياة الإنسان والطبيعة، وأيضاً المدن والمناظر الطبيعية، والمكان والزمان، وهذه العربة التي هي «نعمة ونقمة» تهدد بأن تصبح في نهاية القرن العشرين كابوسا، وذلك بعد أن تحقق في نهاية الأمر حلم الإنسان في أن يصبح «ذاتي الحركة» (وهي كلمة لاتينية الأصل أوتوموبيل Auto-Mobile أي متحرك ذاتياً).

التغلب على المكان والزمان حلم راود الإنسان منذ القدم، ومن الأكيد أن الصياد في الأزمنة الغابرة كان يفكر وهو يصارع صراعاً مريراً من أجل البقاء في إيجاد وسيلة نقل تساعده على عبور المسالك الوعرة وعلى قطع المسافات الطويلة. وخلال ذلك الزمن البعيد، كان الرجال يجرّون على غصون عريضة فريستهم باتجاه كهوفهم. ولم توجد العجلة إلا عندما توصل الفكر الإنساني إلى وضع ألواح على الأرض حتى



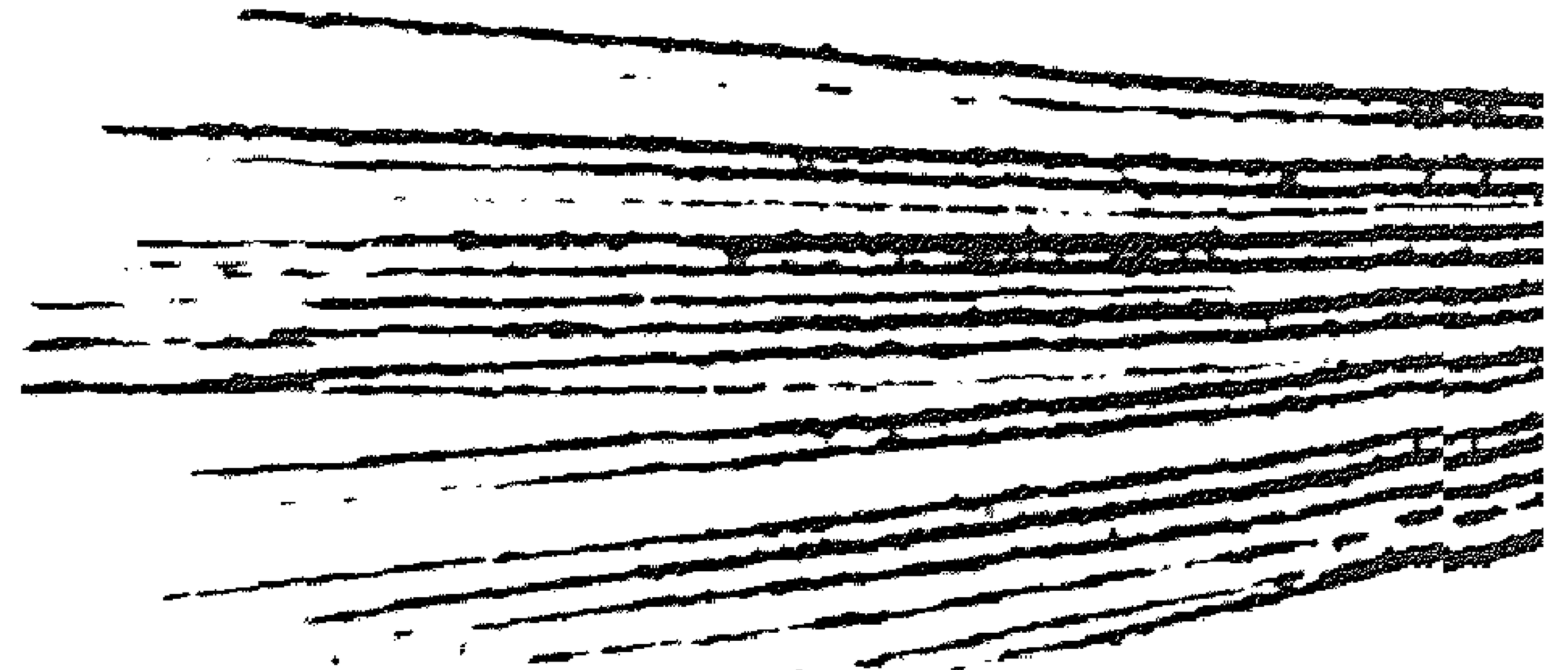
□ نموذج لسيارة بخارية (١٧٤٩).

يتمكن بواسطة ذلك من حمل الأعباء الثقيلة. وكان ذلك الاختراع من أهم الاختراعات التي ميّزت تاريخ الإنسانية.

سارت العربات الأولى في بلاد ما بين النهرين. تم ذلك خلال ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد تقريباً. والراجح أنه كان حوالي سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد وذلك حينما صنع المصريون عربات ذات عجلتين سهلة الاستعمال. وهكذا فتحت العجلة عهداً جديداً في حياة البشرية. وبفضلها تمكن الإنسان من قطع المسافات الطويلة. صحيح أنه قطعها ببطء، غير أن ذلك كان يعتبر انتصاراً كبيراً على الأبعاد اللامتناهية. ولولا هذه العربات لما أمكن للشعوب الأوروبية أن تنتقل بالكثافة المعروفة لدينا.

فكر الإنسان بعد ذلك بقليل في خلق طريقة أخرى لتحريك العربة، ذلك أن استعمال الخيول والثيران والأحمرة أصبح أمراً صعباً ومعقداً. وبهدف بلوغ ذلك، جربت عضلات الإنسان، وقوة الريح. غير أنه لم يتم التوصل إلى النجاح المرغوب.

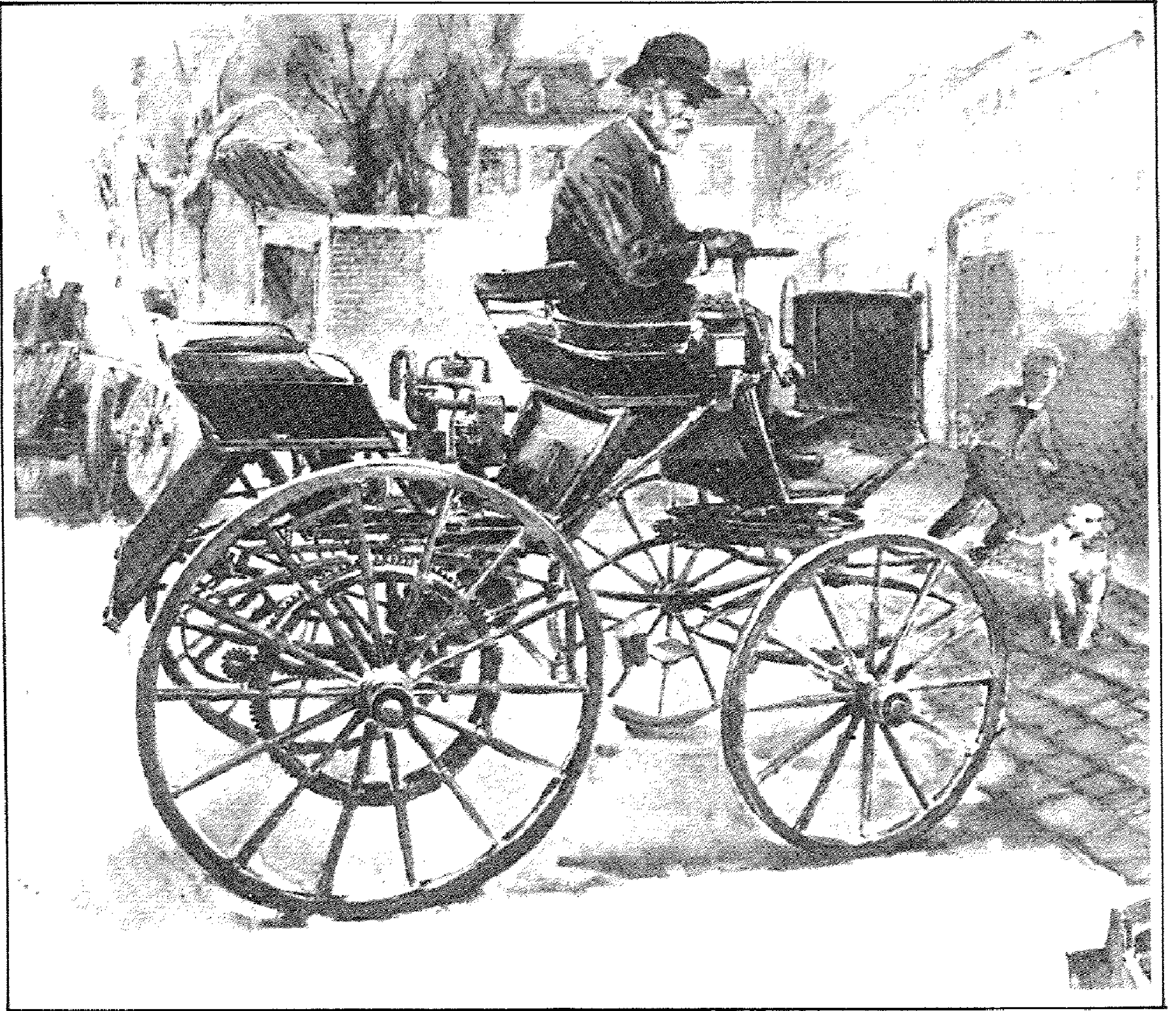
لقد فجّر الفيزيائي والرياضي كريستيان هويجنس (Christain Huygens) بارودا بواسطته يتحرك المكبس. ورغم أن المادة لم تقاوم دفعات الانفجار، فقد ظهرت خلال ذلك الفكرة الأساسية لخلق محرك جديد. وبعد ذلك وضع إسحاق نيوتن (Ishaac Newton) مولد بخار على عجلات، وحرّك العربة إلى الأمام بواسطة قوة دفعات



البخار. وبظهور اختراع جيمس واط (James Watt) للآلة البخارية بدأ عهد جديد.

إن القطار ربط القوة البخارية بالتحرك السهل للعجلات الحديدية على السكك الحديدية. وكان ذلك يعد شيئاً مجدداً وحاسماً. كانت السكك تمثل حاجزاً للتنقل الحر إذ أن الطريق كان محدداً منذ البداية. بالإضافة إلى ذلك تطلب صنع وتطوير القطار أموالاً طائلة. وهكذا بدأ تجريب العربات البخارية ــ التي كانت تتحرك بحرية في الطرقات. في سنة ١٧٦٩ ولدت العربات البخارية دون سكك. صنع المهندس نيكولاس جوزيف كونيو (Nicolas Joseph Cugnot) نموذجاً لعربة بخارية مخصصة لأربعة أشخاص تقدر سرعتها القصوى بتسعة كيلومترات. غير ان البخار المستهلك لم يكن يكفي إلا لإثني عشر دقيقة. كان كرنيو عقيداً في الفرقة المدفعية. وقد فكر في جر المدافع بواسطة عربته الضخمة، ومنذ ذلك الحين لعبت اعتبارات ومنافع عسكرية دوراً هاماً في اختراع السيارة. وعندئذ تحرّكت عجلة التطور بسرعة مذهلة. لا تعتبر السيارة ــ ونفس الشيء ينطبق على القطار والطائرة ــ نتاج عبقري واحد، بل هي نتيجة مجهودات متعددة لفنانين، ومبدعين، وعلماء، ولهواة الاختراعات أيضاً.

الالمانيان كارل بنز (Carl Benz) وجوتليب دايملر (Gottlieb Daimler)، أصيلا الجنوب الالماني، هما مخترعا السيارة المتحركة بفضل قوة ذاتية. والغريب أن هذين المخترعين، بالرغم من أنهما كانا يعيشان في نفس المنطقة، لم يتعرفا على بعضهما أبداً، ولم يلتقيا بالمرة. لقد طور كل من بنز، ودايملر، في نفس الوقت تقريباً الشكل الأساسي للسيارة في صورتها الحالية. ان دايملر الذي سبق له أن صنع في سنة ١٨٨٥ أول دراجة نارية، وهي عبارة عن عربة تحرك بالبترول كان قد تجاوزه بنز بالرغم من ذلك في تطوير «عربة البنزين» ويعتبر بنز الأب الأصلي للسيارة، وذلك بعد أن اخترع عربة بثلاث عجلات حصلت في كانون الثاني/يناير ١٨٨٦ على جائزة الاختراع، وصنع دايملر من جانبه عربة بأربع عجلات ذات محرك أطلق عليها اسم ابنته «مرسيدس» (Mercedes) ويعتبر مردود المحرك، وثبات السيارة على الطريق عند سياقتها

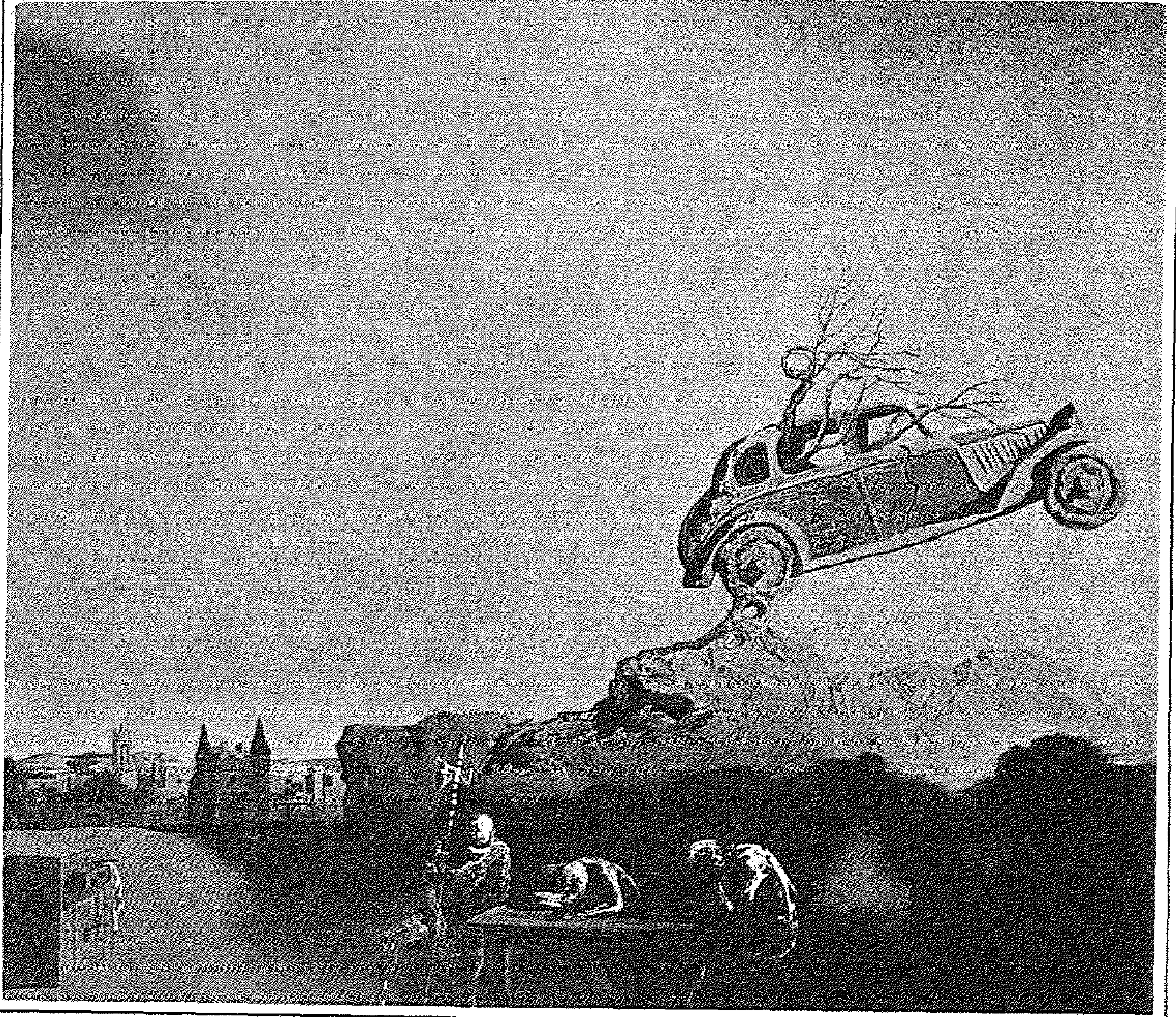


□ غـوتليب دايـملار في السيـارة التي اختـرعهـا (١٨٨٦) ــ صورة لهانس ليسكه (١٨٩٠).

وشكل المرسيدس نموذجيين لبقية تطور السيارة.

لقد كانت قيادة السيارة قبل مستهل القرن العشرين عبارة عن مغامرة. وشأنها شأن القطار، بعثت السيـارة بسبب الدوي الذي تحـدثـه، والرائحة النتنة التي تطلقها، الخوف والفزع في نفوس الناس. وكانت حالة الطرق سيئة مما أدّى إلى وقـوع العـديـد من الحـوادث والكـوارث المأساوية، وكان السفر بالسيارة صعباً ومعقداً.

ورغم كل هذا احتلت السيارة بسرعة مكانة كبيرة لدى الناس. وابتداء من العشرينات ظهرت العـديد من الشـركات المتخصصـة في صنـع السيارة. ويمكن أن نذكر من بينها بالإضافة إلى شركتي دايملر وبنز اللتين اندمجتا سنة ١٩٢٦، مصـانـع آدلر (Adler Werke) بفـرانكفـورت، مصانع هورش (Horch) للسيارات في تزفيكا، ومعمل آدم أوبل (Adam Opel) في روسلهايم. وهكذا صارت السيارة رمزاً للتقدم، هذا الرمز الذي أشاع خلال القرن الثامن عشر، الفكرة التي تقول بأن على الإنسان إذا ما أراد أن يتمتع بحياته دونما حدود، فلا بـد أن يوفـر الوسائل التي تساعده عـلى ذلك، ولقد كـانت السيارة أكثر ملاءة من القطار، وبسرعة أصبحت وسيلة من وسائل المسابقات وأنواع الرياضات التي تتـطلب تمارين مجهـدة. وأول مسابقـة للسيارات جرت سنة ١٨٩٤ وقد فاز بها الفرنسي لوفاسور (Lovassor) الذي قطع المسافة الفاصلة بين باريس وبوردو بمعدل سـرعة تبلغ ٢٤,٩ كيلومتر في الساعة. وقد أحاطت آلاف الجموع بالشوارع لمتابعة السباق، وخلال احد السباقات التي جرت سنة ١٩٠٣، قدر عدد المتفرجين في



□ سالفادور دالي ــ ظهور مدينة دلف (١٩٣٦).

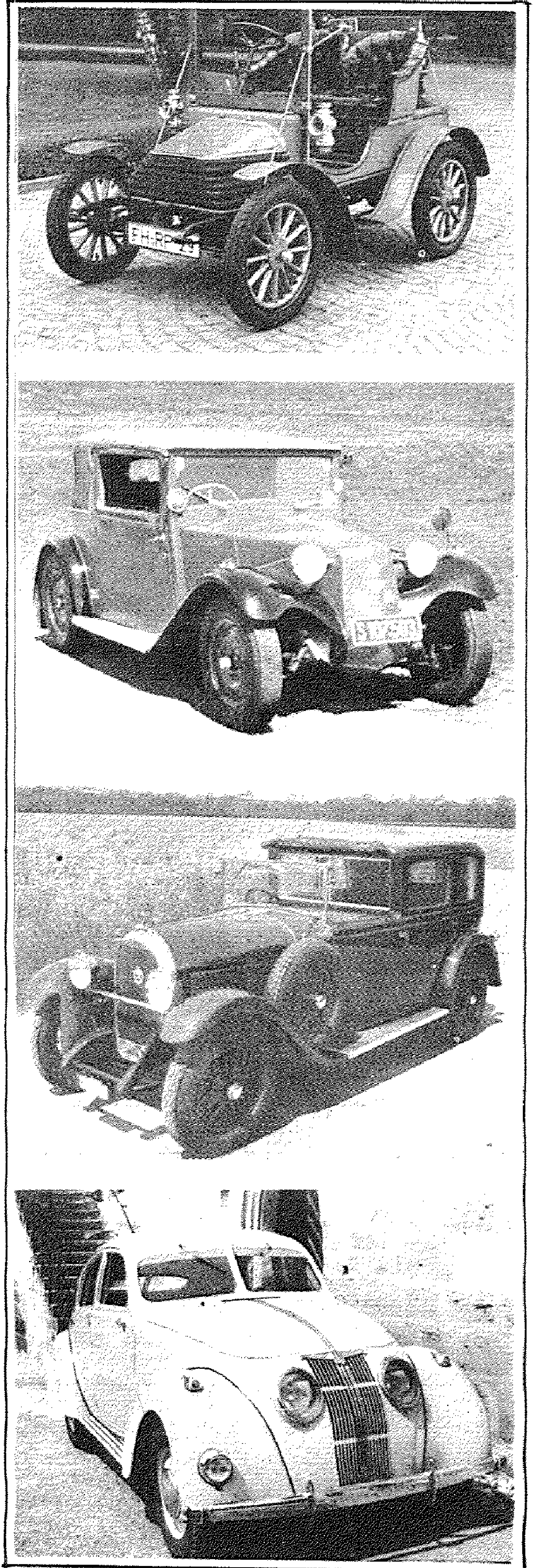
شوارع باريس وحدها بمائة ألف شخص، وفي مقال ظهر سنة ١٩٠٤ حول «الحالة العقلية لسائق السيارة» يشتكي طبيب الأمراض النفسية بول نكة (Paul Nacke) وهو من مدينة هوبيرتوسبرج من عدم الاعتناء الكامل بالحالة النفسية للسائق الذي يقود سيارته بسرعة جنونية. ويقول نكة في مقاله هذا: «لي صديق يسافر كثيراً بالسيارة. وهو لا يقودها بطريقة هادئة ورصينة، بل بسرعة مخفية باعتبار أن ذلك يعتبر بالنسبة إليه نوعاً من أنواع الرياضة. وقد وصف لي بدقة حالته النفسية عند السياقة الأولى وأكد لي أنه يعيش وضعاً شبيهاً بتخدير الحواس، ونوعاً من النشوة اللذيذة يدفعانه إلى الرغبة في المزيد من السرعة، ويجعلانه غير مبال بمن حوله!».

يصف لنا إيليا إهرينبرج (LLja Ehrenberg) في قصته «حياة السيارات» الساحة الباريسية في بداية القرن على النحو التالي: «تتحرك السيارة بطريقة عصبية،، تثب كالكنغر، تقف حيناً، وتقفز فجأة من مكانها حيناً آخر. وهي تملأ الشارع بدخان كريه، ويعلو دويها كما دوي زوبعة ربيعة. وهي عربة مكشوفة، ودون خيول، تنقاد لانفجارات غامضة، وتسير بسرعة فائقة في طريق مشؤوم عبر شوارع باريس». وحتى ذلك الحين كانت السيارة تعدّ امتيازاً للطبقات المترفة، وللأعيان، والبورجوازيين. ولهذا السبب كان الاهتمام بالمتطلبات الجمالية عند تصميم السيارة كبيراً. وكانت أغلب السيارات أنيقة وجميلة، ومجهزة تجهيزاً رائعاً. وهذا ما يفسر ارتباط السيارة بالأنوثة منذ البداية، وقد سارعت وسائل

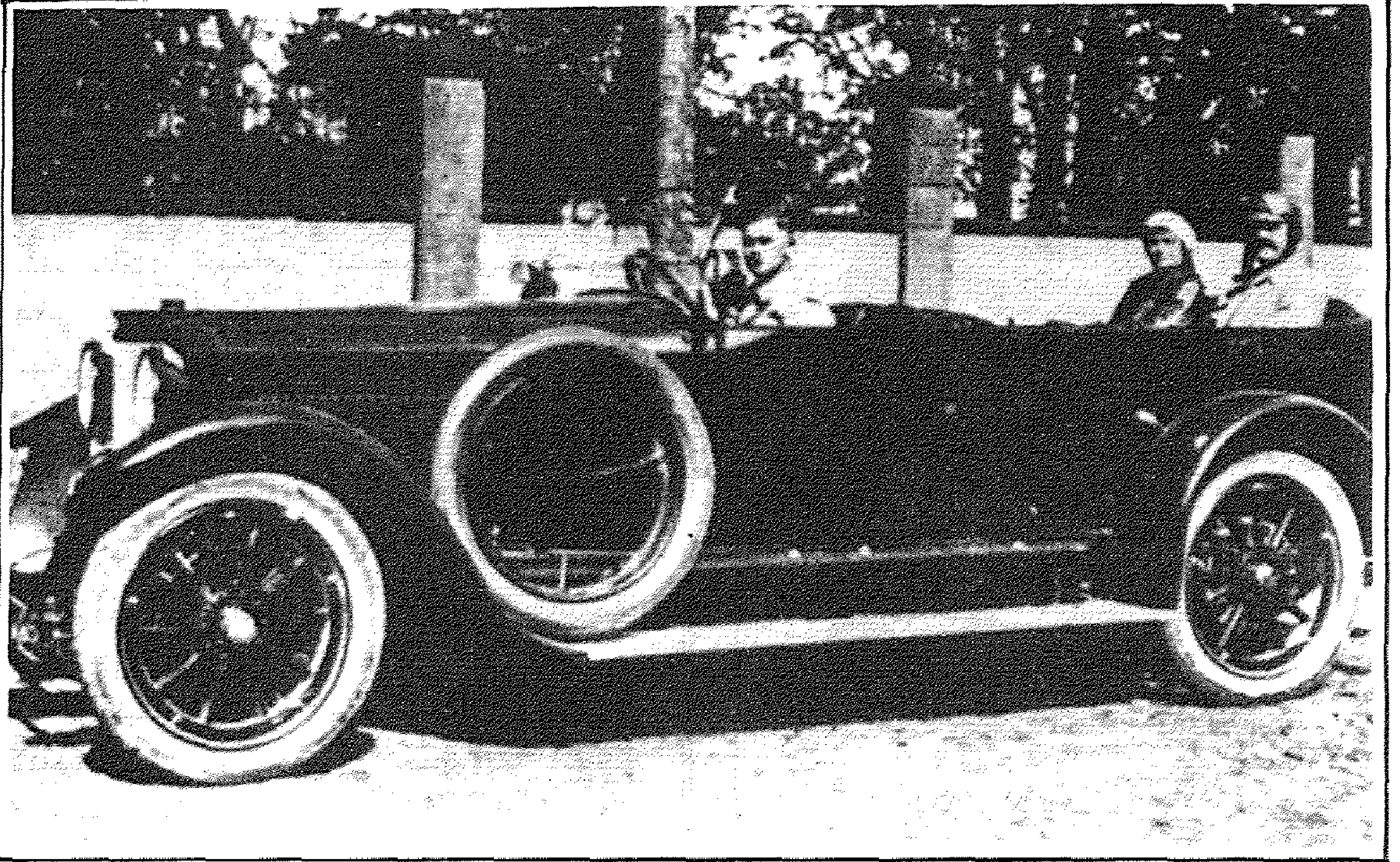
الدعاية إلى أبرز ذلك: في ملصقات الأشهار، وفي الإعلانات الضخمة، كانت المرأة تقف دائماً إلى جانب السيارة حتى يتم جلب أكبر عدد ممكن من المستهلكين. وحتى يومنا هذا يستخدم الأشهار في ــ في ميدان السيارات ــ هذه العلاقة الخفية بين السيارة والمرأة.

لم تصبح السيارة قريبة من الشعب إلّا خلال الحرب العالمية الأولى. ألم تكن الحرب في أغلب الأحيان مفيدة بالنسبة للاختراعات؟ وأول من بدأ بترويج السيارة في أوساط الشعب هم الأمريكيون. وقد استعملوا في ذلك طريقة أسهل وأسرع من تلك التي كانت رائجة في أوروبا. وبسرعة أدرك التقنيون ورجال الأعمال الإمكانيات الجديدة التي يوفرها ترويج السيارة بشكل واسع. وبظهور نظام العمل المسلسل، ابتكر هنري فورد (H. Ford) الظروف الملائمة لإنتاج السيارة بأعداد وفيرة وكما كان الشأن بالنسبة للقطار، استعملت وسيلة النقل الجديدة لأغراض عسكرية. والفرنسيون كانوا الأوائل في هذا المضمار. ففي مستهل شهر أيلول/سبتمبر ١٩١٤، وقبل أن يصل الجيش الألماني إلى باريس بقليل، أمر الحاكم العسكري لمدينة باريس الجنرال غاليني (Gallieni) بمصادرة جميع سيارات النقل وذلك لتعزيز الجبهة قرب مارن (Marne). وفي وقت قصير جداً، تم نقل خمس كتائب من المشاة مكونة من ٤٠٠٠ جندي إلى الجبهة حيث مني الجيش الالماني بخسارة فادحة في معركة المارن الشهيرة، وحتى يومنا هذا، لا يزال يتحدث الفرنسيون عن «معجزة نهر المارن».

بفضل طرق الإنتاج الجديدة، تحققت أمنية الشعب في التعرف على العالم بواسطة السيارة، وقد باع فورد أكثر من ١٥ مليون سيارة. وفي فرنسا طبق اندري سيتروان (Andre Citroen) فكرة فورد التي تعتمد نظام العمل المسلسل. وشيئاً فشيئاً انتشرت طريقة العمل الجديدة هذه في جميع أنحاء أوروبا. وفي نهاية العشرينات لعبت السيارة أثناء الأزمة الاقتصادية العالمية دوراً هاماً: شجع روزفلت (Roosevelt) في الولايات المتحدة تعبيد الطرقات السريعة لتشغيل العاطلين عن العمل. ونسج موسوليني



□ مجموعة من السيارات التي بدأت الظهور بعد الحرب العالمية الثانية.



□ توماس مان بصحبة ابنه كلاوس وابنته.

(Mussolini) على منواله في إيطاليا. وطبق هتلر (Hitler) في المانيا هذه الفكرة أيضاً، وفي نفس الوقت وعد الشعب الالماني بسيارة رجل الشارع، وهي سيارة الفولكسواجن (Volkswagen) التي سارت فيما بعد، أي خلال الحرب العالمية الثانية، عبر شوارع روسيا وافريقيا، وفرنسا. ولم يكن هتلر يعي نفسه مهندساً معمارياً كبيراً، وقائداً حربياً لكل العصور فحسب، بل كقائد سيارة راند. ومن المشاهد التي لا ينساها الجيل القديم تلك التي تمثل هتلر واقفاً في سيارته المكشوفة من نوع المرسيدس، رافعاً يده «بالتحية الالمانية»، مارّاً أمام الجماهير المحتفلة به. ان التشابك بين رأس المال وسلطة الدولة النازية في ذلك الوقت أصبح أمراً واضحاً للعيان.

في سنة ١٩٤٦، أي بعد الهزيمة التامة لالمانيا، تراجع عدد السيارات من ٨٠٠ ألف سيارة إلى ١٩٠ ألف تقريباً. لكن من تحت انقاض الحرب ودمارها انبثقت المعجزة الاقتصادية الشهيرة. وفي سنة ١٩٥٣ بلغ عدد السيارات في جمهورية المانيا الاتحادية مليوناً. وأصبحت سيارة فولكسواجن الصغيرة (Käfer) السيارة الأكثر رواجا داخل البلاد وخارجها. وقد أقدمت طبقات الشعب على شراء هذه السيارة التي سيطرت في الخمسينات على الصورة العامة لحركة المرور. وهكذا بدأ العصر الذهبي للسيارة.

في السنوات الأولى التي تلت الحرب لم يتنبأ أي خبير بأن تصبح صناعة السيارة عاملاً هاماً من عوامل الانعاش الاقتصادي. لكن في بلد هدمته الحرب، ودمرت مدنه القنابل، انفجر الشعور بإرادة البقاء، وانزاحت الأوهام بوقع الهزيمة.

بدأ ترويج السيارة في أوساط عامة الشعب في بداية الأمر بصفة متواضعة، وذلك بضع سيارات صغيرة الحجم كالسيارات بثلاث عجلات من صنع معمل مستر شميت (Messerschmitt) أو كسيارات الجوجوموبيل (Goggomobil) أو كسيارات الايزيتا (Isetta) وهي من إنتاج مصانع (BMW)، التي صارت السيارة الصغيرة الأكثر شعبية خلال الخمسينات. ويفسر أولريخ كوبيش (Ulrikhubisch) هذه الظاهرة في كتابه «من الدراجة المتحضرة إلى مرحلة ما شبه السيارة»

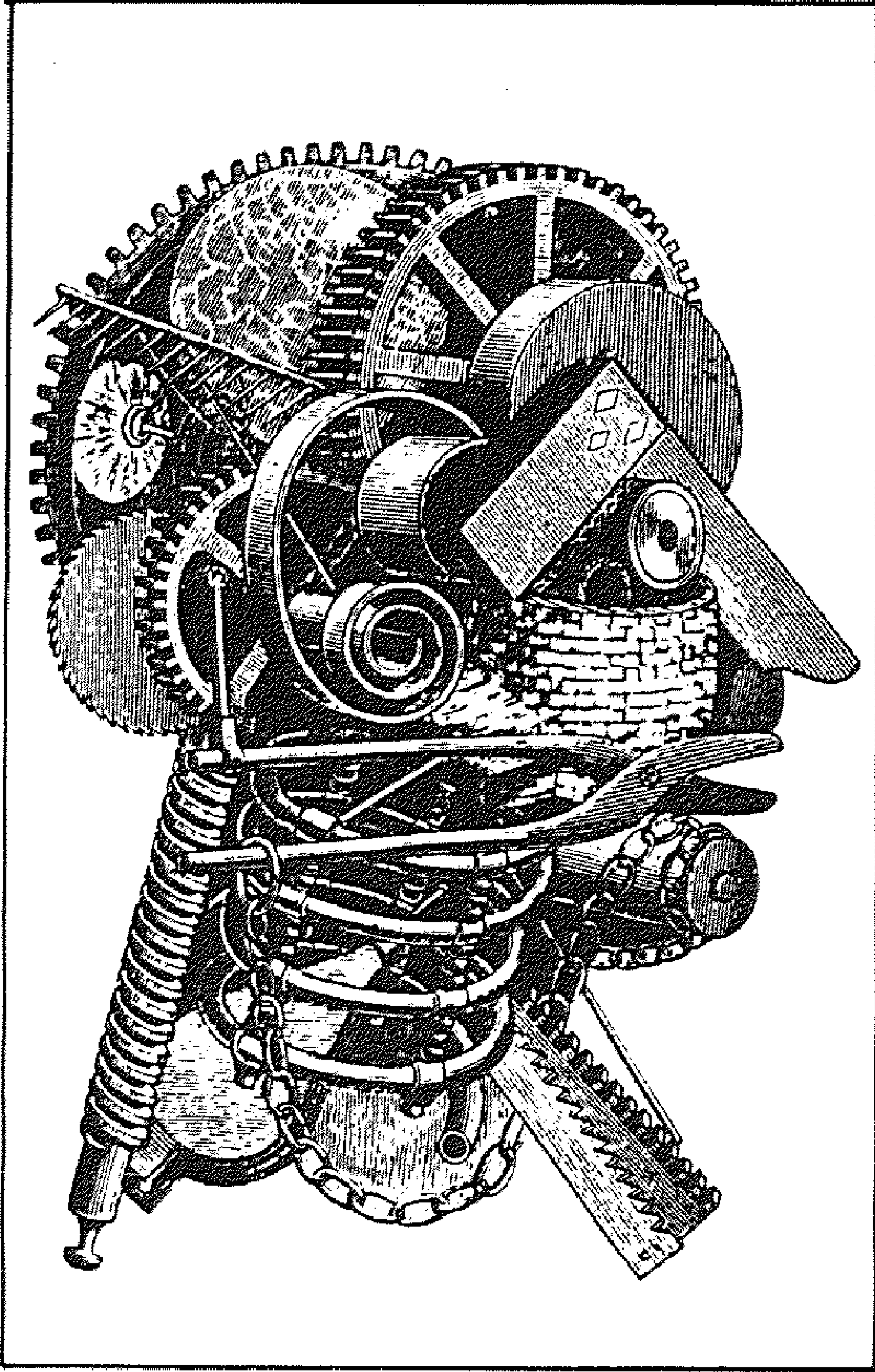
يلي: «ان البلد دمّرته القنابل، وزوال ذلك الوهم الذي أدّى إلى حالة اللاوعي الجماعية، من أذهان الالمان المتحررين من الفاشية الهتلرية، وإرادة الحياة التي انفجرت بعد ست سنوات من الحرب، كل هذا ساهم في تحقيق الحلم المتمثل في حشد طاقات الجماهير الشعبية». ومثلما أزيح الماضي المظلم، أزيحت السيارة الفخمة المستعملة للتباهي والترف، ولم تعد السيارة شيئاً يعبد ويقدّس، بل تحولت إلى وسيلة لها قوة سحرية مطلقة وتهدف إلى توفير حياة أكثر جمالاً ورقياً وكمالاً.

نجد اليوم في العالم ما يقارب ٢٤٠ مليون سيارة ركاب وخمسة ملايين حافلة. ان التطور السريع لوسائل النقل المزودة بالمحركات جعل من صناعة السيارات فرعاً هاماً من فروع الحياة الاقتصادية في أوروبا. ففي جمهورية المانيا الاتحادية توفر صناعة السيارات مواطن شغل لسُبع العمال، بالإضافة إلى ذلك هناك مليونان ونصف تقريباً يعبدون الطرقات ويرقمونها، وينظمون حركة المرور، ويزودون سائقي السيارات بالوقود من محطات الاستراحة. وتنتج المعامل الالمانية للسيارات سنوياً مواداً تقدر بـ ٦٥ بليون مارك. وهذا يدل دلالة قاطعة على أن هذا قطاع هام جداً في الحياة الاقتصادية. وقد ساهم إجمالاً في زيادة نمو الاقتصاد الالماني.

خلال سنة ١٩٨٤ قدّرت الضرائب العائدة إلى قطاع صناعة السيارات في المانيا الاتحادية ما يقارب الربع من جملة ٤١٥ مارك. إلى جانب ذلك تعدّ صناعة السيارات من أكبر فروع التصدير أو انها حققت على مستوى المعاملات التجارية فائضاً يقدّر بسبعين بليون مارك تقريباً، وهو مبلغ قد يكون كافياً لتغطية مصاريف النفط بالنسبة لجمهورية المانيا الاتحادية.

لقد غيّرت السيارة العالم. وبفضلها توصل الإنسان إلى أن يكون أكثر حرية، وأن يوفر لنفسه أشياء كثيرة كان محروماً منها قبل ذلك.

وفي كل سنة يندفع الالمان بسياراتهم في الأوتوسترادات المكتظة باتجاه الجنوب حاملين كل ما يحتاجونه لقضاء أيام العطلة على شاطىء البحر، أو في جزيرة أو فوق قمم الجبال. لقد



□ اندري بويي: المخترع (١٨٩٠).

قصرت المسافة، وأصبحت الرحلات العسيرة خارج البلاد والتي يمكن أن تدوم يومين أو ثلاثة أمراً عادياً جداً.

من الواضح إذن، أن ينعكس مثل هذا التغيير الجذري للمحيط الذي أحدثته السيارة، على الأدب والفن عموماً. ولقد اهتم فن الكاريكاتور خاصة بهذه العربة الجديدة. وهو تارة يمجدها ويثني على فضائلها، وتارة أخرى يسخر منها ويلعنها. رسم فنانو مطلع القرن العشرين السيارة، وقدموها في أشكال مختلفة ومتعددة، واعتبروها رمزاً للعصر الحديث، عصر السرعة والتكنولوجيا. وهناك العديد من الأدباء والكتاب تحدثوا أيضاً عن السيارة. ويمكن أن نذكر من بينهم هرمان بروخ (Hermann Broch) وذلك في كتابه «آش والفوضي»: «كانت هذه الرحلة بالسيارة أول رحلة قام بها السيد «آش». وكانت رحلة رائعة جداً»، وهاينريش بل (H. Böll) الذي كتب في إحدى قصصه يقول: «احترس.. لا تخدش بحذائك طلاء السيارة»، وأيضاً مارتن

فالسر (M. Walser)، وبيتر شنايدر (P. Schnelder) وهرمان هسه وغيرهم كثيرون.

كما استهوت السيارة فن التصوير الفوتوغرافي. وكلما أقيم معرض في هذا الشأن، تسابق الناس لمشاهدته.

غير أننا لا بد أن نلاحظ أن السيارة برغم إيجابياتها الكثيرة التي ذكرناها آنفاً هي أداة من أدوات الموت الرهيبة. ان ضحاياها في العالم منذ ظهورها إلى اليوم يعدّون بالملايين. في المانيا وحدها هناك منذ ١٩٥٣ وإلى حدّ الآن أكثر من نصف مليون شخص لقوا حتفهم، وأكثر من ١٤,٥ مليون أصيبوا بجراح متفاوتة الخطورة. وهذا ما جعل البعض يتحدث عن «الحرب على الطرقات». بالإضافة إلى ذلك هناك حوالي ٨٠٠ من رجال القضاء يهتمون بالقضايا المتعلقة بالسيارات وحركة المرور.

ويمكن أن نقول ان السيارة شوهت الطبيعة، وأثرت تأثيراً سلبياً على المحيط وعلى الغابات وعلى الهواء خاصة داخل المدن الكبيرة والمكتظة. وبهدف بناء الطرقات أو توسيعها تم تهديم الكثير من البنايات، وتشويه العديد من الأحياء الأصيلة والتقليدية.

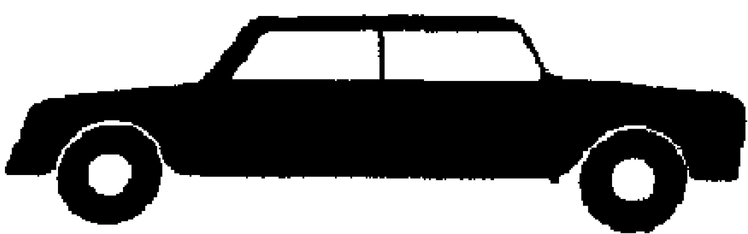
والآن يحدث شيء مغاير تماماً لما وقع خلال القرن التاسع عشر والسبعين سنة الأولى من القرن العشرين. ان الناس أصبحوا يهربون من المدن، ويستنكفون من السكن فيها بسبب التعفن الناتج عن المعامل والسيارات. كما ان المشرفين على شؤون المدن أصبحوا يهتمون أكثر من قبل بالحدائق داخل المدن، وبالمحافظة على الآثار وعلى الأحياء والبنايات التقليدية، بل ان البعض منهم أصدر تعليمات تقضي بمنع السيارات من الدخول إلى بعض الأحياء والساحات.

وإجمالاً يمكن القول ان الناس، بالرغم من أخطار السيارة الكثيرة والقاتلة في أغلب الأحيان، لا يزالون مبهورين بها، بل ويعتبرونها أساسية في الحياة المعاصرة. شاهدة على ذلك المعارض الضخمة التي تقيمها من حين لآخر بعض الشركات الكبرى المنتجة أو المروجة للسيارات، والتي يأتيها الملايين من الزائرين. ذلك ان السيارة هي دون منازع رمز الحضارة اليوم.

يقول المفكر الفرنسي روبلان بارت (R. Barthes): «أعتقد أن السيارة هي اليوم، المعادل الصحيح للكاتدرائيات القوطية الكبيرة. أعني بذلك أنها ابتكار هام، صممها بشغف فنانون مجهولون، وهي مستهلكة في صورتها إن لم تكن في استعمالها من طرف شعب بأسره يتملك من خلالها أداة سحرية تماماً». ويرى فولفجانج ساخس (Wolfgang Sachs) الذي كان قد اشتغل في مجموعة مشاريع تهم الطاقة والاقتصاد، ان المشروع التقني لصنع السيارات يقوم على تخطيط حضاري. وقد تنعكس رغبات المجتمع على تخطيطات المهندسين، سواء كانت هذه الرغبات موجهة إلى حب الله أو إلى السرعة.

ليس بغريب إذن أن يخص الشعب الالماني السيارة بتقديس جنوني يتجلى غالباً في رغبة ملحة ومفرطة في تنظيفها. ومن عادات الموطن الالماني في عطلة نهاية الأسبوع أن يهتم بسيارته اهتمامه بشيء ثمين وعزيز على نفسه. ذلك أن السيارة تخلق بالفعل لدى صاحبها أحاسيس لا يعيشها خلال حياته اليومية وهي تظهر خاصة في حب السرعة المرتبط بالشعور بالسلطة وبالقوة، وفي حب المنافسة والرغبة في التفوق على السائقين الآخرين، وفي تلك النشوة التي تجعل صاحب السيارة يحس أنه يتحكم في شيء ما، ويستعمله كما يشتهي ويريد. وهناك العديد من أصحاب السيارات يمضون وقتاً طويلاً في الحديث عن مزايا سياراتهم. منذ خمسين سنة كتب سيجفريد كراكاور (Siegfried Kracauer) يقول: «نحن كالأطفال نفرح بهذه السرعة الجديدة. ونحن نشبه في ذلك المغامر الاسباني الذي غزا امريكا غير أنه لم يجد الوقت الكافي للاستمتاع بمغزى اكتسابه لها».

اين نسير؟ من المؤكد ان السيارة ستصبح في المستقبل أكثر قيمة وأكثر ملائمة لمتطلبات البيئة.





كتابه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود وهو دستور الدولة البلدية بالمدينة

شذا عدرة

يقول البعض عنها «أنها الذاكرة الحيَّة للوطن وللتاريخ والبعض الآخر يقدِّر أن لها أهمية فريدة في الكشف عن حقيقة الماضي، الذي لا يمكن معرفته إلَّا من خلالها»[1] هذه هي الوثيقة التي تشكل تسجيلاً حياً لجميع المراحل التاريخية لأية دولة بكامل أشكالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفنية والعلمية.

ولمَّا كان المسلمون قد أُمروا أن يكتبوا جميع ما فيه من حقوق العباد، «ذلك أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا» ومن ثم فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد كتب جميع المحالفات والمعاهدات مع القبائل والملوك سوى ما كتب إليهم في المراسلات، فإن جميع تلك «الكتابات» ما هي إلَّا وثائق رسمية نفهم من خلالها ما كان سائداً في تلك الآونة من أحوال سياسية وغير سياسية؛ خاصة وان الرسول الكريم كان قد جمع القوى المنتشرة في جزيرة العرب على مركز واحد تشكّلت على أثره دولة ذات نظام وسيادة، وقد قامت بينها وبين الممالك المجاورة علاقات سياسية استدعت إلى كتابة «كتب» تترجم تلك العلاقات.

ومجلة «تاريخ العرب والعالم» إدراكاً منها لأهمية تلك «الكتابات ــ الوثائق» تحاول أن تلقي الأضواء على بعض مراحل العهد النبوي من خلال نشرها، وتباعاً، بعض تلك العهود التي وردت في كتاب:

«مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة»، للدكتور محمد حميد الله[2] الذي ننشر له رموز الاختصارات التي استعملها في أوائل الوثائق لتمكين القارىء من العودة إلى المراجع الأصلية.

الوثيقة الأولى: كتابه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود وهو دستور الدولة البلدية.

---

(١) د. قبيسي، محمد: حضارة العرب في حفظ وثائقهم، منشورات دار الآفاق الجديدة (بيروت ــ ١٩٧٩) ص ٩٠.

(٢) د. حميد الله، محمد: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار الإرشاد ــ الطبعة الثانية (بيروت ــ ١٩٦٩).



مراجع النص الكامل: بة ص٣٤١-٣٤٤-بآ ورقة١٠١ — بع ع١٧٤ ٥ — ابن زنجويه، كتاب الأموال(خطية بوردور، تركيا)، عن الزهري، ورقة ٧٠ب - ٧١ ب — عمر الموصلي، وسيلة المتعبدين، ج٨، ورقة ٣٢ ب — بسن، عن ابن إسحاق وابن أبي خيثمة ١٩٨/١ —بك ٢٢٤/٣ - ٢٢٦— عمخ ع ٧٩ .

راجع للتراجم :

(أردو): محمد حميد الله، دنيا كا سب سي پهلا تحريري دستور (مجلة طيلسانيين حيدر آباد دكن، جولائي١٩٣٩؛ أيضاً عهد نبوي كا نظام‌حكمراني، طبعة ثانية ١٩٤٨ حيدر آباد دكن، باب٣، ص ٧٦-١١١ خاصة ص ١٠٢-١١١) .

(تركية القديمة): حسين جاهد(يالجين)، إسلام تاريخي(ترجمة « أنالي ديل إسلام بالطليانية لكايتاني) استانبول١٩٢٤، ج٣، ص ١٤٦ وما بعدها .

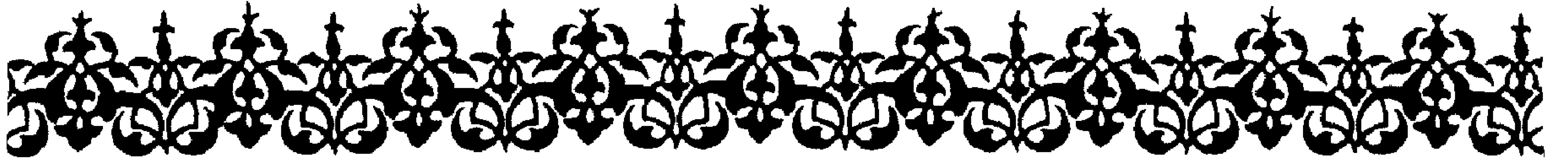
(Français): M. Hamidullah, *Corpus des documents sur la diplomate musulmane*, N° 1 ; ***Le Prophète de l'Islam***, I, 123 et suiv., en particulier 133-137.
(English) : M. Hamidullah, *The First Written-Constitution of the World*, in ; Islamic Review, Working, August to November 1941, p. 296-303, 334-340, 377-384, 442-449 — Reuben Levy, *Sociology of Islam*, I. 279-282; the same. ***The Social Structure of Islam***, 1957, p. 273-275 — Majid Khaddûri, ***The Low of War and Peace in Islam***. p. 84-87; the same, ***War and Peace in the Law of Islam***, 1955, p. 206-209.

(Deutsch): Wellhusen, *Gemeindeordnung von Medina*, in: Skizzen und Vorarbeiten, IV. 76-83 — Buhl, *Das Leben Muhammeds*. p. 210-212.

(Hoilândisch) : Wensinck, *Mohammed en de Joden te Medina*, 1908, p. 78ff.

(Italiana): L. Caetani, *Annali dell'Islam*, I. anno 1, § 43ff.
(Turkçe): Sâlih Tug. (Hamidullah, ***Islâmin hukuk ilmine*** *yardimlari*, çec. sâlih Tug). 1962, p. 13-30.

قابل للاقتباسات: عبد الرزاق بن همام(المتوفى ٢١١هـ) كتاب المصنف(خطية) كتاب العقول— أبو عبيد القاسم بن سلّام (ف٢٢٣) غريب الحديث(خطية) كلمة مفرح وقصاص— ابن سعد (ف٢٣٠) الطبقات، ٢/١، ص ١٧٢ سطر ١٣/١٠ ؛ ٢/١، ص١٩، ٢٣ — ابن حنبل(ف ٢٤١) المسند ٧٩/١، ١١٩ ، ١٢٢، ٢٧١ ، ١٧٨/٢ ، ١٨٠ ، ١٩٤، ٢٠٤، ٢١١، ٢١٥ ؛ ٢٢١/٣ ، ٢٤٢، ٢٤٩ ، ٣٢١، ٣٤٢؛ ١٤١/٤ — ابن زنجويه (ف ٢٥١) كتاب



الأموال (خطية بوردور، تركيا)، ورقة ٤٤ ب، ٤٥ ب، ٦٥ ألف، ب — الدارمي (ف ٢٥٥) السنن، ١٥/٥ — البخاري (ف ٢٥٦) الصحيح، ٣/٩، ٤ رقم١ ؛ ١٠/٥٨ ؛ ١٧/٥٨ رقم ٣ ؛ ٦/٩٦ رقم٢ وفي كلها اقتباسات هذا الكتاب؛ ١٧/٩٦ رقم١٨ وفيها ذكر تدوينه في بيت أنس — مسلم (ف ٢٦١)، الصحيح، ١٧/٢٠ رقم ١٣٧٠ ، ١٥٠٧ ؛ ٤٤/٥٠ رقم٢٠٤، ٢٠٥ — ابن ماجه(ف ٢٧٣) السنن ٢١/٢١ — أبو داود (ف ٢٧٥) السنن، ١١/٩٩، ١٩/٢٢-٢٣، ١١/٣٨ — البلاذري (ف ٢٧٧) أنساب الأشراف ١/٢٨٦ ، ٣٠٨— الترمذي (ف ٢٧٩) السنن، ١٤/١٦ — النسائي(ف ٣٠٣) السنن ٤٥/٤١ — الطبري (ف ؛ ٣١) تأريخ، سلسلة أولى ص١٣٦٧ سطر ١٣-١٤، ص ١٣٥٩ سطر ١٠-١٢ — مطّهر بن طاهر (تأليف ٣٥٥)البدء والتاريخ ٤/١٧٩-الخطيب البغدادي(ف ٦٤٣)تقييد العلم ص ٧٢ — ابن منظور (ف ٧١١)، لسان العرب، مادة برر، دسع، عقب ، عقل، فرح، وتغ — المقريزي (ف ٨٤٥) إمتاع الأسماع ١/٤٩، ١٠٤ ، ١٠٧ وقال: كانت معلقة بسيفه صلى الله عليه وسلم . ثم في القسم الغير المطبوع منه خطية كوبرولو، ص ١٠٣٥-١٠٣٦-الزرقاني (ف ١١٢٠) شرح المواهب اللدنية للقسطلاني، المتوفى ٩٢٣، ٤/١٦٨-١٦٩ .

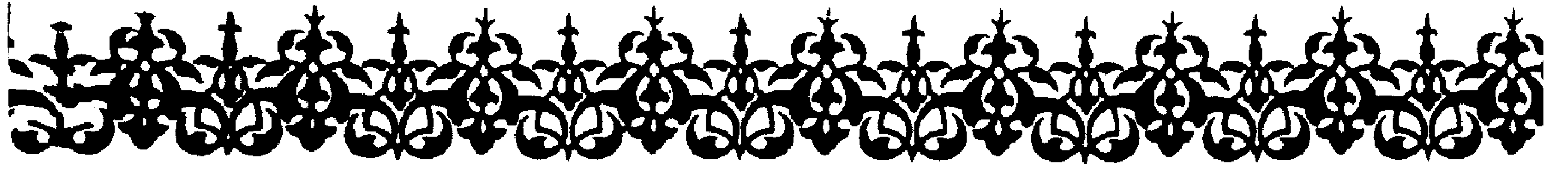
انظر للبحوث سوى ما ورد في ذكر تراجم هذه الوثيقة :

(بالعربية): محمد حميد الله، أقدم دستور مسجل في العالم(في مباحث مؤتمر دائرة المعارف بحيدرآباد الدكن ١٩٣٨م) ص٩٧-١٢٤— يوسف العش، سقوط الدولة العربية (ترجمة من ألمانية لويلهاوزن) .

(أردو) مقالة طويلة في مجلة برهان، دهلي ، من أكتوبر ١٩٣٩ إلى سبتمبر ١٩٤٠

(English): M. Hamidullah, *Administration of Justice in Early Islam*, in Islamic Culture, Hyderabad-Deccan 1937, XI, 164-5 — Joseph Hell, *The Arab Civilization*, trans. by Khuda Bakhush Khan. 2nd ed., II 25 f. — Sarjeant *The Constitution of Medina*, in : Islamic Quarterly, Lonond, VIII/1-2, p. 3-16 — in an article in the monthly Voice of Islam, Karachi, 1052, I, 105.

(Deutsch): Alois Sprenger. *Das Leben und die Lehre des Muhammed*, 2nd ed. 1869, III, 20-30 — Hubert Grimme, *Muhammed*, I, 75-81 — A Müller, *Der Islam in Morgen — und Abendland*, I. 98 — Joseph Hell siehe auf English — Ludolf Krehl. *Leben Muhammeds*, p. 142-8 — Bebel, *Muhammedanische arabische Kulturperiode*, Kap. 1, 2 — Ranke, *Weltgeschichte*, V. 75ff — Wellhausen. *Das arabische Reich und sein Sturz*, p. 4-10. (Français) : M. Hamidullah, *Documents sur la diplomatie musulmane*, Paris 1935, I. 20-26.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) هذا كتاب من محمد النبي [رسول الله] بين المؤمنين المسلمين من قريش و [أهل] يثرب ومَن تبِعهم فلحِق بهم وجاهد معهم .

(٢) أنهم أمّة واحدة مِن دون الناس .

(٣) المهاجرون من قريش على رَبعتهم يتعاقلون بينهم وهم يَفدُون عانيَهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٤) وبنو عَوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلَهم الأولى ، وكل طائفة تَفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٥) وبنو الحارث [بن الخزرَج] على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٦) وبنو ساعِدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٧) وبنو جُشَم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

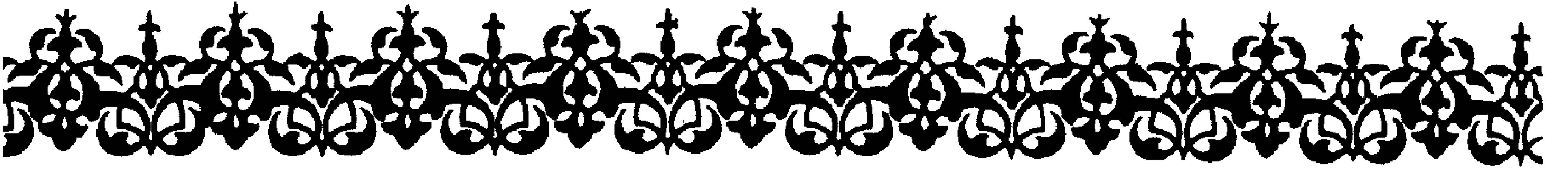
(٨) وبنو النّجّار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٩) وبنو عَمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(١٠) وبنو النّبِيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(١١) وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(١٢) وأنّ المؤمنين لا يتركون مُفرَحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .



(١٢ ب) وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

(١٣) وأن المؤمنين المتقين [أيديهم] على [كل] مَن بغى منهم ، أو ابتغى دَسيعةَ ظلمٍ ، أو إثماً ، أو عدواناً ، أو فساداً بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولدَ أحدهم .

(١٤) ولا يَقْتُل مؤمنٌ مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن .

(١٥) وأنّ ذمّة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وأنّ المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

(١٦) وأنه مَن تبعنا من يهود فإنّ له النصرَ والأسوةَ غير مظلومين ولا مُتناصر عليهم .

(١٧) وأنّ سِلم المؤمنين واحدةٌ ، لا يُسالِم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله . إلا على سواءٍ وعدل بينهم .

(١٨) وأنّ كل غازية غَزَت معنا يعقب بعضها بعضاً .

(١٩) وأن المؤمنين يُبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله .

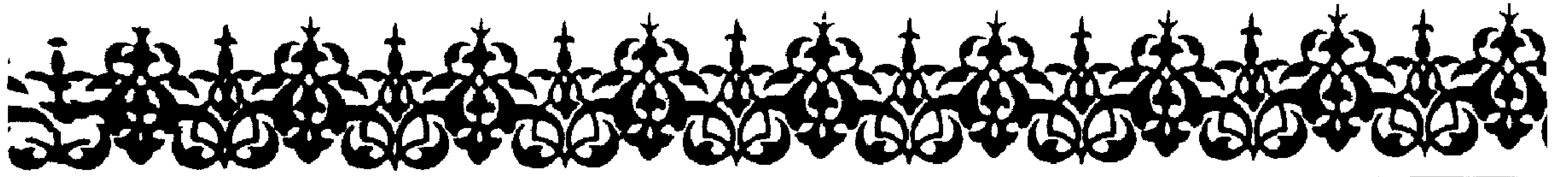
(٢٠) وأن المؤمنين المتقين على أحسن هُدًى وأقومه .

(٢٠ ب) وأنه لا يجير مشركٌ مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن .

(٢١) وأنه مَن اعتَبط مؤمناً قتلا عن بيّنة فإنه قَوَدٌ به ، إلا أن يَرضى ولي المقتول [بالعقل] ، وأنّ المؤمنين عليه كافّةً ولا يحلُّ لهم إلا قيام عليه .

(٢٢) وأنه لا يحل لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن يَنصر مُحدِثاً أو يُؤوِيه ، وأن من نصره ، أو آواه ، فإنّ عليه لعنةَ الله وغضبَه يوم القيامة ، ولا يُؤخذ منه صرف ولا عدل .

(٢٣) وأنكم مهما اختلفتم فيه مِن شيء ، فإنّ مردّه إلى الله وإلى محمد .



(٢٤) وأنّ اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا مُحاربين .

(٢٥) وأنّ يهود بني عوف أمّـــة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ٥١
وللمسلمين دينهم ، مَواليهم وأنفسهم إلا مَن ظَلَم وأثم . فإنه لا
يُوتِـــغ إلا نفسه وأهلَ بيته .

(٢٦) وأنّ ليهود بني النّجّار مثل ما ليهود بني عوف . ٥٤

(٢٧) وأنّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف .

(٢٨) وأنّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف .

(٢٩) وأنّ ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف. ٥٧

(٣٠) وأنّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف .

(٣١) وأنّ ليهود بني ثَعلَبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلا مَن
ظلم وأثم ، فإنّه لا يُوتِـــغ إلا نفسَه وأهلَ بيته . ٦٠

(٣٢) وأنّ جَفْنَةَ بطنٌ مِن ثعلبة كأنفسهم .

(٣٣) وأنّ لبني الشُّطَيبَة مثل ما ليهود بني عوف . وأنّ البرَّ
دون الإثم . ٦٣

(٣٤) وأنّ موالي ثعلبة كأنفسهم .

(٣٥) وأنّ بطانة يهود كأنفسهم .

(٣٦) وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد . ٦٦

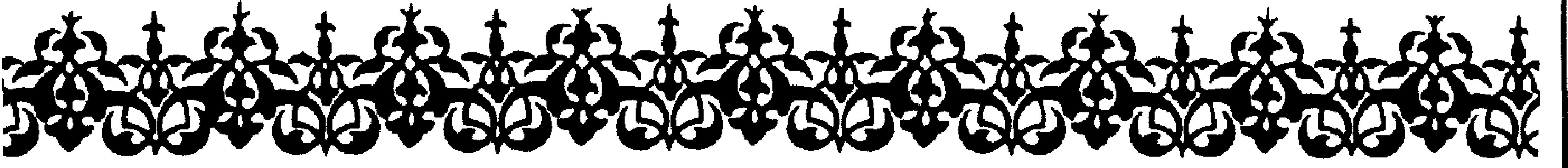
(٣٦ ب) وأنه لا يَنْحَجِز على ثأرِ جُرحٍ ، وأنه مَن فَتَك
فبنفسه فتك وأهل بيته إلا مَن ظَلَم وأنّ الله على أبَرِّ هذا .

(٣٧) وأنّ على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأنّ ٦٩
بينهم النصر على مَن حاربَ أهل هذه الصحيفة ، وأنّ بينهم النصح
والنصيحة والبرّ دون الإثم .

(٣٧ ب) وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وأنّ النصر للمظلوم . ٧٢

(٣٨) وأنّ اليهود يُنفِقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

(٣٩) وأنّ يثربَ حرامٌ جوفُها لأهل هذه الصحيفة .



(٤٠) وأنّ الجار كالنفس غير مُضارٍّ ولا آثم .

(٤١) وأنه لا تُجار حرمةٌ إلا بإذن أهلها .

(٤٢) وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة مِن حَدث ، أو اشتجار يُخاف فسادُه ، فإنّ مَرَدَّه إلى الله وإلى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأنّ الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبَرِّه .

(٤٣) وأنه لا تُجار قريشٌ ولا مَن نَصَرها .

(٤٤) وأنّ بينهم النصر على مَن دهم يثرب .

(٤٥) وإذا دُعوا إلى صلح يُصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دَعوا إلى مثل ذلك ، فإنه لهم على المؤمنين إلا مَن حاربَ في الدين .

(٤٥ ب) على كل أناس حِصَّتهم مِن جانبهم الذي قِبَلهم .

(٤٦) وأنّ يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البرِّ المحض مِن أهل هذه الصحيفة . وأنّ البرَّ دون الإثم لا يَكسِب كاسب إلا على نفسه . وأنّ الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبَرِّه .

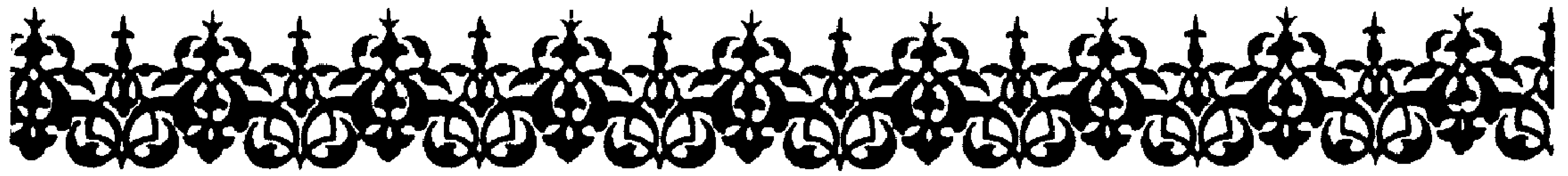
(٤٧) وأنه لا يحول هذا الكتابُ دون ظالمٍ أو آثم ، وأنه مَن خرجَ آمِنٌ ومن قعد آمِنٌ بالمدينة ، إلا مَن ظلم وأثم ، وأنّ الله جارٌ لمن بَرَّ واتّقى ، ومحمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .





الهوامش

سطر (١) زنجويه : ... (ولعل معه حق لتأخر نزول « بسم الله الرحمن الرحيم ») .
(٢) بع ، زنجويه: +[رسول الله] .
(٣) بع ، زنجويه : +[أهل] – + فحل معهم وجاهد ...
(٤) بع : واحدة دون الناس .
(٥) بع ، زنجويه : رباعتهم (وفي رواية : ربعاتهم) بينهم معاقلهم الأولى وهم – زنجويه في رواية : وهم يفكون .
(٦) بع : المؤمنين والمسلمين .
(٧ – ٢١) بع : على باعتهم – طائفة منهم تفدى
(٩ – ٢١) زنجويه : طائفة منهم تفدى
(٩) بع : +[ ] – زنجويه : بنو الخزرج .
(٢٣) به في نسخة : مفرجا – زنجويه في رواية:مفدوحا – (بع ، زنجويه : مفرحا منهم أن يعينوه) .
(٢٥) بع : ... [قابل مسلم رقم ١٥٠٧ ، و بحن ج ٣ ص ٣٤٢ : عن جابر كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم على كل بطن عقولهم ثم كتب أنه لا يحل أن يتولى مولى رجل مسلم بغير إذنه (أو : إذن وليه)] .
(٢٦) بع : +[] – [] – بع : من بغى وابتغى منهم – زنجويه : يد على من بغى
(٢٧) إثماً : كذا في بآ ، وفي به وبع وزنجويه : إثم أو عدوان أو فساد .
(٢٨) بع ، زنجويه : عليه جميعه .
(٢٩) بع ، زنجويه : لا يقتل – زنجويه : ولا ينصر كافر .
(٣١-٣٢) بع ، زنجويه : ...والمؤمنون بعضهم .
(٣٣) بع ، زنجويه : من اليهود فإن له المعروف والأسوة .
(٣٥) بع ، زنجويه : واحد ولا يسالم .
(٣٧) بع ، زنجويه : غزت ... يعقب بعضهم .
(٣٨-٣٩) بع ، زنجويه : ...
(٤٠) بع : أحسن هذا وأقومه .
(٤١-٤٢) بع ، زنجويه : لقريش ولا يعينها على مؤمن .
(٤٣) بع ، زنجويه : قتلا فإنه قود إلا –
(٤٤-٤٥) بع ، زنجويه : +[] – كائنة ...



(٤٧) أو يؤويه : كذا في بع ، وفي به وزنجويه : ولا يؤويه – بع ، زنجويه : فمن نصره .

(٤٨) بع : إلى يوم القيامة لا يؤخذ – زنجويه : لا يقبل منه .

(٤٩) بع ، زنجويه : ما اختلفتم – فإن حكمه إلى الله (تبارك وتعالى) وإلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

(٥١) بع : عوف ومواليهم وأنفسهم أمة من المؤمنين – زنجويه : عوف أمة من

(٥٢) زنجويه : والمؤمنين –

(٥٢-٥٣) بع : والمؤمنين دينهم إلا من ظلم وأثم .

(٥٦-٥٧) بع، زنجويه : ٥٦ – ٥٧ (مع تقديم وتأخير) .

(٥٨) بع : ليهود الأوس – زنجويه : ليهود الأوس مثل ذلك ...

(٥٩-٦٠) بع، زنجويه : ... إلا من ظلم ... (ولكن راجع حاشية المادة ٤٦ أدناه).

(٦١-٦٥) بع ، زنجويه : ...

(٦٦) بع ، زنجويه : أحد منهم .

(٦٧-٦٨) بع ، زنجويه : ...

(٦٩-٧٠) بع : ... وأن بينهم النصر – زنجويه : ... على اليهود .

(٧٠-٧١-٧٢) بع : بينهم النصيحة والنصر للمظلوم–زنجويه : والنصيحة والنصر للمظلوم

(٧٣) بع ، زنجويه : ... (راجع أيضاً المادة ٢٤، ٣٧) .

(٧٤) بع، زنجويه : وأن المدينة جونها حرم لأهل .

(٧٥-٧٦) بع، زنجويه : ...

(٧٧-٧٨) بع : من حدث ... يخاف .

(٧٨-٧٩) بع ، زنجويه : فإن أمره إلى الله وإلى محمد النبي ...

(٨٠) زنجويه ، بع : ...

(٨٢-٨٣-٨٤) بع : وإنهم إذا دعوا إلى صلح حليف لهم فإنهم يصالحونه وإن دعونا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب الدين – زنجويه : وإنهم إذا دعوا اليهود إلى صلح حليف لهم بالأسوة فإنهم يصالحونه وإن دعونا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب الدين .

(٨٥) بع، زنجويه : وعلى كل أناس حصتهم من النفقة ...

(٨٦-٨٨) بع، زنجويه : الأوس ومواليهم وأنفسهم مع البر المحسن من أهل هذه الصحيفة وإن بني الشطية بطن من جفنة وإن البر دون الإثم فلا يكسب . (إلا أنه عند زنجويه : بني الشطبة مثل جفنة – ولا يكسب) – به : مع البر المحسن .

(٩٠) بع ، زنجويه : ... لا يحول الكتاب دون ظالم ولا آثم .

(٩١-٩٢) بع ، زنجويه : آمن إلا من ظلم وأثم . وإن أولاهم بهذه الصحيفة البر المحسن .

حل رموز الاختصارات

المستعملة في أوائل الوثائق

ألف ... طرف الوجه من ورقة المخطوطة
ب ... طرف الظهر من ورقة المخطوطة
بآ ... سيرة ابن اسحاق (ترجمتها الفارسية)
بث ... أسد الغابة لابن الأثير
بح ... الإصابة لابن حجر
بحز ... ابن حزم
بحن ... مسند أحمد بن حنبل
بد ... سنن أبي داود
بس ... طبقات ابن سعد
بسن ... سيرة ابن سيد الناس
بط ... إعلام السائلين لابن طولون
بع ... أبو عبيد
بعب ... الاستيعاب لابن عبد البر
بعح ... ابن عبد الحكم
بعر ... ابن عبد ربه
بق ... زاد المعاد لابن القيم
بك ... ابن كثير
بلا ... فتوح البلدان للبلاذري
به ... سيرة ابن هشام
بيو ... الخراج لأبي يوسف
ديب ... الديبلي
طب ... تاريخ الطبري
عمخ ... عبد المنعم خان

قس ... القسطلاني
قلقش ... القلقشندي
ج ... الجزء أو المجلد
س ... سطر
ص ... الصفحة
ع ... عدد أو رقم والمراد به عند ذكر طبقات ابن سعد مثلا ترقيم ويلهاوزن في طبعه نخباً من هذا الكتاب وأشرنا سوى هذا إلى عدد الجزء والصفحة من الطبعة اللايدنية . أو رقم الفصل في كتاب (الأموال) ، أو رقم الحديث في كنز العمال وغير ذلك
ف ... الفقرة والفصل
+ [] ... علامة الإضافة والمضاف
... ... علامة الحذف في بيان اختلاف الرواية
— ... علامة الاستمرار أو التكرار في الروايتين
قابل ... يشير إلى الروايات غير الكاملة من الوثائق أو الاقتباسات
انظر ... يشير إلى البحوث الحديثة



● من أوائل خطب الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بعد توليه الخلافة:

«إن الله ابتلاكم بي، وابتلاني بكم، وأبقاني فيكم بعد صاحبيّ، فلا والله لا يحضرني شيء من أمركم فيليه أحد دوني، ولا يتغيب عني فآلو — أي أقصّر — فيه عن أهل الصدق والأمانة، ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم، ولئن أساءوا لأنكلن بهم».

«لا تنظروا إلى صيام أحد ولا إلى صلاته، ولكن انظروا من إذا حدّث صدق، وإذا ائتمن أدى، وإذا أشفى — أي همّ بالمعصية — ورع».

(الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه)

بطليموس الثالث

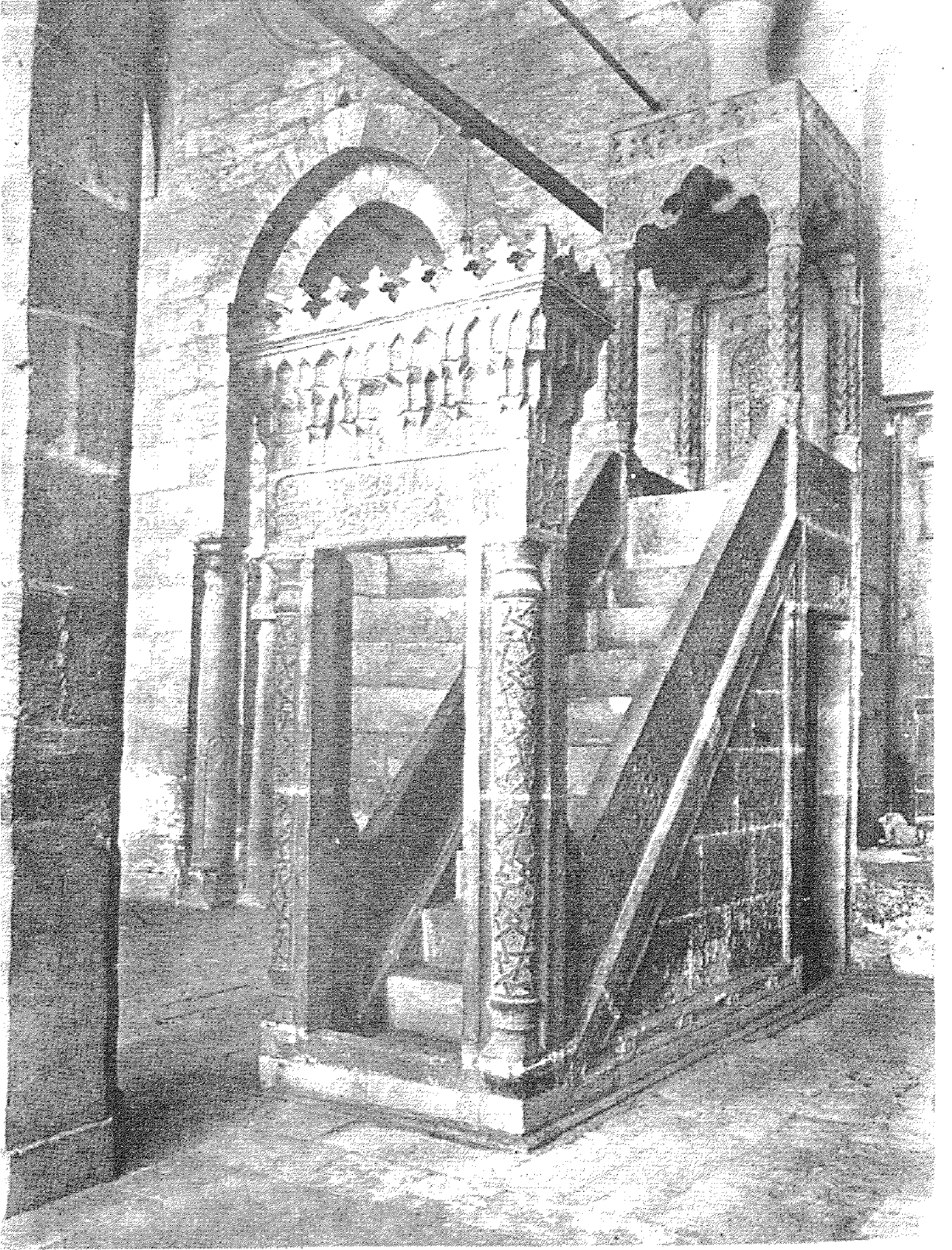
لو أردنا تشبيه بطليموس الثالث «أورغيتيس» بواحد من الملوك القادة الذين فتحوا الدنيا شرقاً وغرباً، لبرز لنا على الفور اسم الإسكندر الكبير المقدوني، فإن بين الاسمين شبهاً عظيماً، كما سنرى، ولعل الاختلاف الوحيد يكمن في السن التي أتى كل منهما أعماله العظيمة فيها..

فعندما تولى بطليموس الثالث عشر مصر، كان في منتصف العقد الثالث من عمره، ولم يكن ذاك العرش الذي يتبوؤه جديراً بأن يحسد عليه إذ كان والده وسلفه «بطليموس الثاني» قد وسع رقعة المملكة المصرية بصورة أصبح من المتعذر معها ضبط أمورها والقبض على ناصيتها، وهكذا وجد المتآمرون من أعداء مصر المجال واسعاً رحباً ليدبروا مؤامراتهم كما يشاؤون وهم بنجوة من متناول يد الفراعنة، ولم يكن أحد من عارفي الملك الجديد يقدر أنه سينجح في مهمته الثقيلة التي لا تبدو فيها بارقة من الإغراء، أو دلالة على الأمل، ولكن ما أن تبوأ العرش وقبض بيده على الصولجان، حتى أصبح رجلاً غير الرجال، وأدهش العالم بأعماله التي أعادت إلى الأذهان العبقرية الأسطورية التي كانت للإسكندر الكبير المقدوني...

وجهز بطليموس الثالث جيشه، وانطلق به نحو فلسطين فثبت فيها أقدام مصر مجدداً ثم احتل سورية واتجه إلى انطاكية — التي كانت قد بلغت من الاضطراب مبلغاً عظيماً — فأدبها، وسار بجيوشه إلى العراق وحط رحاله في «نينوى» مستعداً لمعركة عظيمة انتهت قبل أن تبدأ إذ خرج إليه أمراء العراق يؤكدون طاعتهم ويعلنون ولاءهم، فدخل بلادهم ومنها سار إلى «فارس» التي كانت دولة عظمى آنذاك، وبعد معارك ضارية استتب له الأمر، وقهر كسرى الفرس «أهريمان» ومن ثم اتجه إلى بلوجستان — التي كانت تعرف آنذاك بباكتريا — ولم تلبث رايته أن خفقت في أجوائها مظفرة، حتى وصل إلى بلاد السند فاحتلها وتوقف عند مشارف جبال الهندو كوش ليستجمع قواه تماماً كما فعل الإسكندر، ولكن أهل تلك البلاد، وقد تسامعوا بنبأ الفاتح المظفر، أعلنوه بالولاء وبعثوا إليه عدداً من نبلائهم كرهينة تؤكد ذلك الولاء...

وانه لفي ذلك إذا بالأخبار تترامى إليه عن ثورة شبت في برقة بتحريض من المقدونيين، فخشي استفحال أمرها، وامتدادها إلى بلاده نفسها، فقفل راجعاً إلى مصر ومنها إلى برقة فأخمد ثورتها، ثم عاد إلى بلاده من جديد، بعد أن اتسعت الامبراطورية المصرية في زمنه حتى امتدت إلى برقة وطرابلس والحبشة، وقبرص والشام وبعض بلاد الأناضول، واليونان، إلى جانب قسم كبير من مماليك ودول آسيا.

وقد تمسك الشعب المصري بهذه الانتصارات، وبلغ من الحماسة لمليكه القائد أن لقبه بالمحسن — أورغيتيس — وأقام له التماثيل والمسلات، وسجل أعماله على الحجر الذي يعرف اليوم في عالم الآثار بحجر «كانوب» وعن طريق هذا الحجر وصلت إلينا أخبار هذا العبقري، الذي أعاد سيرة الإسكندر، والذي سبق أساطين الحرب الحديثة في نوع القتال المسمى بالحرب الصاعقة...

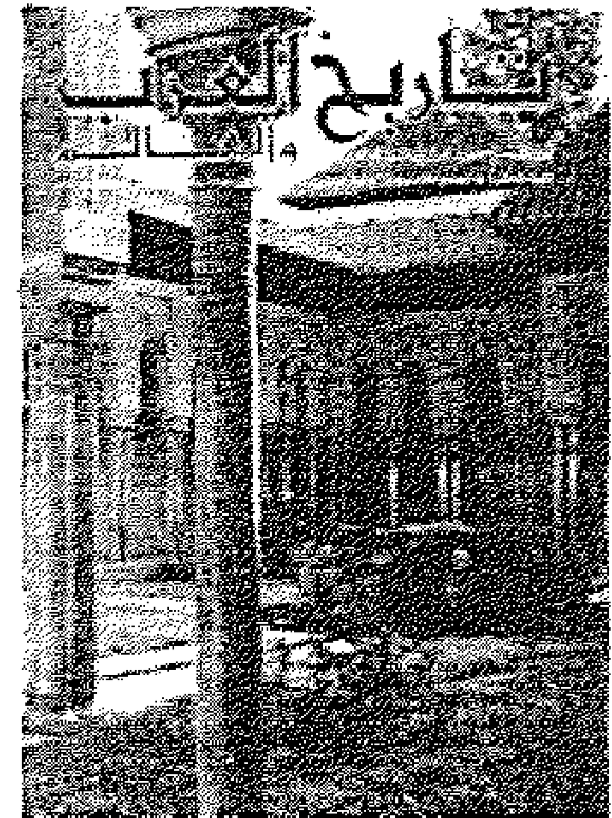


□ خانقاه فرج بن برقوق ـــ منبر حجري لقايتباي ٨٨٨هـ/١٤٨٣م.

من كتاب: التراث المعماري الإسلامي في مصر ـــ د. صالح لمعي مصطفى.


تاريخ العرب والعالم
مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي
السنة العاشرة • العددان ١١٣ — ١١٤ • آذار (مارس) — نيسان (أبريل) ١٩٨٨ • الموافق رجب — شعبان ١٤٠٨هـ

□ منارة جامع «قاشان» في إيران، بنقوشها التي تشبه نقوش السجاد، تعود للقرن الحادي عشر.



الغلاف الأول:

□ من روائع الهندسة الإسلامية قصر الحمراء في الأندلس (إسبانيا). نوافير الماء تعكس انتصار العرب في معاركهم.

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ١١٣ ـ ١١٤ ● آذار ـ نيسان ١٩٨٨

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : **فاروق البربير**

المستشار : **د. أنيس صايغ** المدير المسؤول **محمد مشموشي**

قسم التوثيق والأبحاث **شذا عدرة**

قسم التوزيع والاشتراكات : **علي عبدالساتر**

الانتاج: **مطبعة المتوسط ش.م.م.**

التوزيع **الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.**

ثمن النسخة

لبنان	٧٥٠ ل.ل.	سوريا	٣٥ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الإمارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

● في لبنان: للأفراد ١٥ دولار
● للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥ دولار
● في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
● للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
● خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
● للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
● اشتراك تشجيعي ١٠٠٠ دولار
● تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

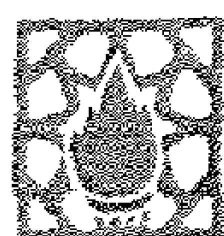
EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 10. No. 111 / 112 ● Jan-Feb 1988

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



القيم والأعراف الأخلاقيّة في الحضارة العربيّة الاسلاميّة

د. زاهية قدورة



□ تعتبر خريطة العالم للإدريسي من أهم الإنجازات العلمية في حقل الجغرافيا عند العرب.

إذا أردنا أن نرصدَ مزايا ومفاهيمَ الحضارةِ العربيةِ الإسلامية، لاستحال الأمرُ في هذه العُجالة لأننا نتناولُ جميعَ ميادينِ الحياة الإنسانية التي تتساوى أهميةً، ولذلك نركّزُ على بعضها مما يبرزُ، مسارَ هذه الحضارة.

إن الإسلامَ دينٌ توحيديٌ عالميٌ، انطلاقاً من وَحدانيةِ اللّهِ وإيماناً برسالة النبي محمد إلى الناس كافة. وقد أثبت الإسلامُ قدرَتَهُ على أن يجمعَ تحت لوائه مختلفَ الشعوبِ والأجناس، على الرغم من اختلافِ المواطنِ واللُّغاتِ، إذ لا مكانَ للعنصريةِ ولا للعرقيةِ في رحابه، ولا مجال للإقليميةِ في إطارِه، وهو ثورةٌ مستمرةٌ، متجددة، متفاعلةٌ مع الإنسانِ في زمانهِ ومكانهِ، تهتمُّ بصنعِ الإنسان الأمثل، وبناءِ المجتمعِ الأفضلْ، وإصلاحِ السلوك الإنساني.



الإسلامُ دينُ هدايةٍ وإيمانٍ باالله الواحد، وبرسوله وباليوم الآخر. وهو شريعةٌ ونظامٌ أفضلُ في الدنيا، والآخرة: «لِكُلٍّ جعلنا منكُمْ شرْعَةً ومنهاجاً»[١].

وقد تكونت في الإسلام مجموعةٌ من القيم والأعراف الأخلاقية تأصلت في الحضارة العربيةِ الإسلامية، مصدرُها القرآن الكريم، والسنَّةُ النبويةُ الشريفة. على أن الإسلام أكّدَ عالميتَهُ في فاتحةِ القرآن الكريم: «بسم الله الرحمن الرحيم الحمدُ لله رب العالمين» وقوله تعالى: «قُلْ يا أيها الناسُ إني رسولُ اللّهِ إليكُمْ جميعاً»[٢]، وقوله في سورة الحج: «قُلْ يا أيها الناسُ إنما أَنَا لكُمْ نذيرٌ مُبينٌ»[٣]، وفي سورة سبأ: «وما أرسلنَاكَ إلَّا كافةً للناسِ بشيراً ونذيراً ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلَمُوْنَ»[٤]، وفي سورة النساء: «إنَّا أنزلنَا إليكَ الكتابَ بالحق لِتَحْكُمَ بينَ الناسِ بما أراكَ اللَّهُ»[٥]، ومن قوله تعالى الآيةِ المعبّرةُ كلَّ التعبير: «يا أيها الناسُ إنّ خلقناكُمْ من ذكرٍ وأنثى وجعلناكُمْ شعوباً وقبائلَ لتعارَفُوا إن أكرمَكُمْ عند اللّهِ أتقاكُمْ، إن الله عليمٌ خبير»[٦].

ومن الأحاديثِ النبويةِ بهذا الصدد قولُه صلى الله عليه وسلم: «بعثتُ إلى الأحمرِ والأسود»[٧] وكذلك «الخَلْقُ كُلُّهم عيالُ الله وأحبُّ الخَلقِ إلى الله أنفعُهُمْ لعياله»[٨]. ويفسرُ أهلُ التوبةِ ذلك أنَّ الله بعثَ نبيَّه إلى الناسِ كافةً، وإلى العربِ والعجمْ. ومن قوله صلى الله عليه وسلم أيضاً: «الناسُ سَواسِيَةٌ كأسنانِ المشْط».

وكان أوّل من اتبعَ الرسولَ، حراً وعبداً، هما أبو بكر وبلال، ومن ذلك قول الرسولِ في رجلٍ فارسيٍ حُرِّرْ، سلمانُ منَّا أهل البيتِ، كما قدَّم الرسولُ صُهَيْباً الرومي، من أصلٍ بيزنطي، وبلال الأسودَ، من أصلٍ حبشي، على غيرهما، متخذاً مقياساً لذلك الإيمانَ باللّهِ، وتَقوى اللّه. وقد جعل اللّهُ الرسولَ شهيداً ففي خطبته الأخيرة في حجة الوداع، وهو يودع قومَه، «يا أيها الناسُ إن اللَّهَ أذهبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الجاهليةِ وفخرَها بالآباءِ، كلكُمْ لآدمْ وآدَمُ من تُراب، ليس لعربي على أعجمي فضلٌ إلا بالتقوى»[٩].

وهكذا أَوْجَدَتْ الحضارةُ العربيةُ الإسلاميةُ صيغةَ عيشٍ عالميةً بينَ شعوبها، ولم تُفرِّقْ بين الأجناسِ والأعراقِ، ولا الألوانُ ولا بين الرجلِ والمرأة، بل دَعَتْهُمْ جميعاً للتعاونِ والتعارفِ بما فيه خيرٌ للإنسانية.

بدأ الإسلامُ بتكريمِ إنسانيةِ الإنسان، فرفَعَها إلى أسمى الدرجاتْ، ولم يفرِّقْ فيها بين الرجل والمرأة، ولا بين الكبير والصغير، وجعل الإنسانَ أهمَّ كائناتِ الكون، وفي قوله تعالى: «ولقد كَرَّمنا بني آدَمَ وحملناهُم في البَرِّ والبَحر، ورزقناهُمْ من الطيباتِ، وفضلناهُمْ على كثيرٍ ممن خَلَقْنَا تفضيلاً»[١٠]، ومن قوله تعالى: «هو الذي خَلَقَ لكُمْ ما في الأرضِ جميعاً، ثم استوى إلى السماء، فسوَّاهُنَّ سَبْعَ سمواتٍ وهو بكلِ شيءٍ عليم»[١١]، فإنَّ ذلك يشير إلى منزلةِ الإنسان بين مخلوقاتِ اللّهِ. لقد خلقَ اللّهُ كلَّ شيءٍ من أجلِ الإنسان، فلا يجوز أن يُستعبَدَ في سبيلِ المادة، كما لا يجوزُ أن يعد أيُّ شيءٍ من الموجوداتِ المادية أهمَّ من الإنسان. إنَّ أهمَّ ما تتطلعُ إليه الحضارةُ البشريةُ هو الوصولُ إلى المستوى الذي يجعلُ الإنسانَ سيّداً حقيقياً للأرضِ وما عليها، وربما تجاوزَتْ في طموحِها الأرضَ وتطلعتْ إلى كواكبِ السماء، ولقد بيّن القرآن الكريم أنّ كلَّ الموجوداتِ الماديةِ إنما خُلِقَتْ لخدمةِ الإنسانِ. وهذا هو التصورُ المثالي للقيمةِ الإنسانيةِ بالقياسِ إلى غيرها من قيم.

جاء الإسلام وفكرةُ استعبادِ الإنسان للإنسان قائمةٌ، وكان استغلال الإنسان واسترقاقه متفشيين في المجتمعاتِ العالمية حينذاك وفي الجزيرة العربية نفسها، وكان له في أوروبا نظامٌ قاسٍ معترفٌ به كأنه وضعٌ طبيعيٌ مسلَّمٌ به. وقد بدأ باليونانِ والرومانِ، ثم انتقلَ إلى الغربِ في القرون الوسطى متفشياً في المجتمعاتِ اليهوديةِ والمسيحيةِ إلى أن أصبحَ في العصرِ الحديثِ ذا أشكالٍ وأفانيدَ متعددةٍ واتسعت رقعتُهُ في الشرقِ والغربِ، وانتقلت من استعباد

الأفراد، إلى استعبادِ الشعوب والأمم بمُجْمَلِها، استعباداً عسكرياً وسياسياً واقتصادياً ونفطياً ولا يَقِلُّ عن ذلك ضراوةً وخطراً، الغزو الثقافي والعقائدي (التبشيريّ) الذي نراه ناشطاً حتى اليوم، في كثيرٍ من بلدان آسيا وأفريقيا.

وإنْ لم يمنـعْ الإسلامُ الرقَّ عامةً، إنما حاول إلغاءه تدريجياً[١٢]، وضيقَ نظامَه وحرَّمه بين المسلمين، وشرَّع أبواباً جديدةً لتحريرِ الرقابِ ككفـارةٍ عن دين، أو يمينٍ، أو وفـاءٍ لنـذرٍ، أو إطعامِ عشرةِ مساكين أوْ كِسْوَتِهِمْ، أو تحريرَ رَقبةٍ وغيرِ ذلك من أعمالٍ حَسَنَة.

وقـد أوصى الرسولُ بـالارقـاءِ خيـراً في مناسباتٍ عديدة، من قوله، «لا يقولنَّ أحـدُكُمْ عبدي وأمتي كلُّكم عبيدُ الله وكلُّ نسائكم إماءُ اللَّهَ ولكن ليقل غُلامي وفتايْ وفتاتي»[١٣]. ومن قول الرســول أيضاً «فـأكرمـوهم كـرامـةَ أولادِكم وأَطْعِمُوهُمْ مما تأكلون»[١٤].

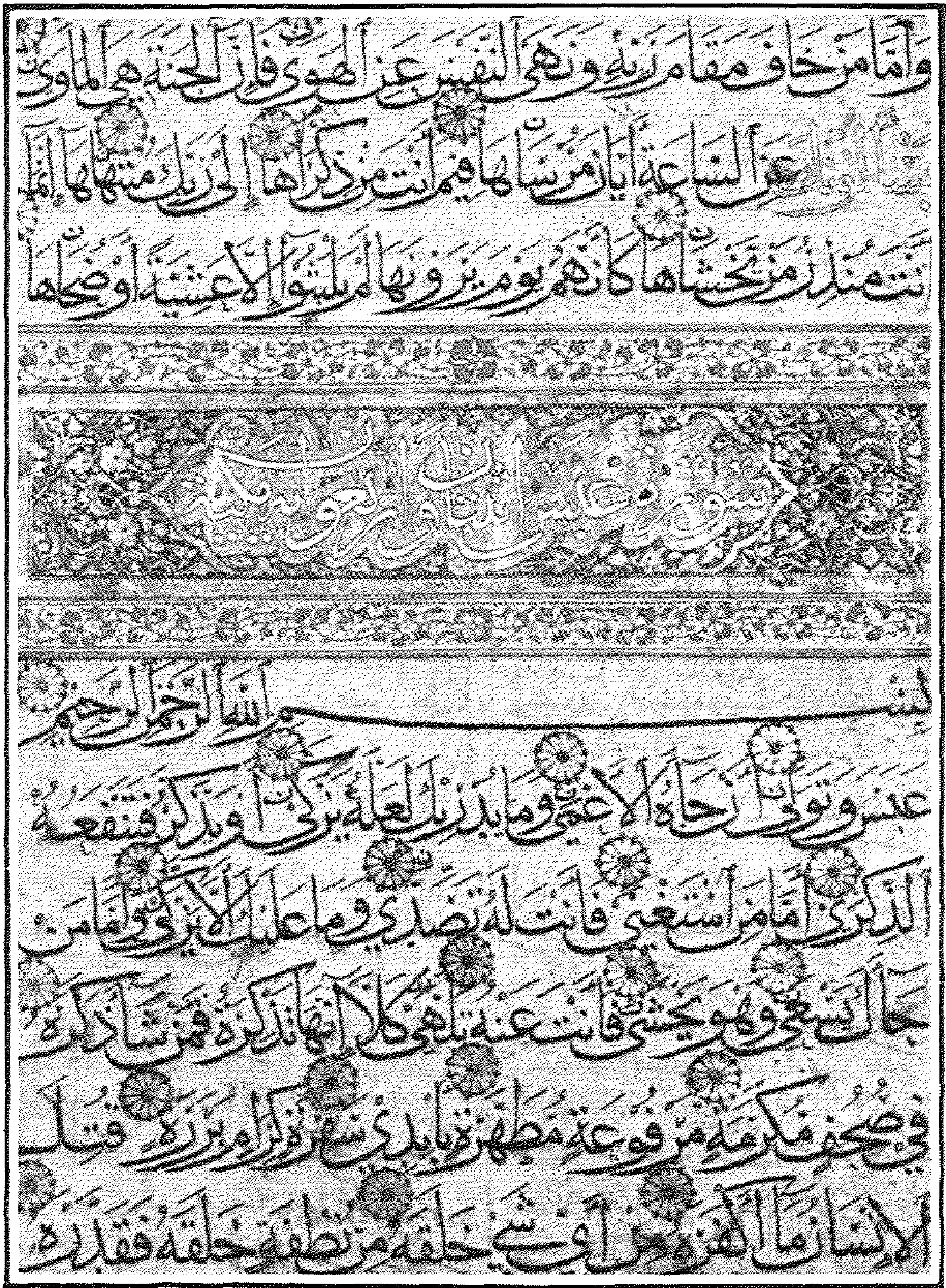
ومن قولِ الإمامِ علي في حسن معـاملة الارقاء: «إني أَسْتَحِيْ أن أَسْتَعْبِدَ إنساناً يقولُ رَبِّـيَّ الله»[١٥]، أمـا مقولةُ عُمَرِ بنِ الخـطابِ الشهيرة: «متى استعبدْتُمْ النـاسَّ وقد وَلَدَتْهُمْ أمهاتُهُمْ أحراراً» فهي دونَ شـك تصلـحُ أن تكونَ شعارَ حقوق الإنسان! لا بل إنها سباقةٌ لهذه الشِرعةِ بقرونٍ وقرونٍ.

لقد خَلق اللَّهُ الإنسانَ وكرّمَهُ وجعلَهُ سيِّداً على الأرض، وإنما فرضَ عليه، التحلي بميزاتٍ خلْقيةٍ، وقيمٍ إنسانيـة تجعلُهُ جديـراً بهـذه السيادة! وهذه الصفاتُ تشمُلُ كلّ الشمائـلِ الإنسانيةِ، وقد تكررت في القرآن الكريم وكتبِ السُّنَّـةِ، قولاً وممـارسةً، نشيـر إلى بعضهـا باختصار. فالإسلامُ حثَّ على مكارمِ الأخلاقِ، حيثُ يقول الله تعالى لنبيه، محمد، «وإنَّكَ لعلى خُلُقٍ عظيمْ»[١٦]، وكذلك حديث الرسول: «بعثت لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ»[١٧].

ومن هـذه الصفات الأخـلاقيـة، الصـدقُ، وهو ضرورةٌ من ضروراتِ المجتمـع المتمدن وأرقَعُها: قال تعالى: «يا أيُّها الذين آمَنُوا اتَّقوا اللَّهَ وكونُوا مَـعَ الصادقين»[١٨]، وكذلك «يا أيها الذين آمنوا، اتقُوا اللَّهَ وقولوا قولاً سديداً»[١٩]. ومن قول الرسول «عليكم بالصدق فان الصدقَ يَهدي إلى البرِّ وإن البـرّ يَهدي إلى الجنَّـةِ، وما يزالُ الرجلُ يصدِّقُ ويتحرَّى الصدقَ حتى يُكْتَبَ عند الله صِدِّيقاً، وإياكمْ والكَذِبْ فإن الكَذِبَ يَهدي إلى الفجورِ، وإن الفجورَ يهدي إلى النارِ، وما زالَ الرجُل يكذِبُ ويتحرى الكَذِبَ حتى يَكتبَ عند الله كذَّاباً»[٢٠] ويَشْمُلُ الصدق كلَّ مجالاتِ الصدقْ، الوعد مثلاً، قال تعـالى: «واذكُرْ في الكتاب إسماعيلَ، إنَّهُ كان صادِق الوعدِ وكان رسولاً نبياً»[٢١] والأمانةُ صفةٌ موائِمةٌ للصدقِ ونوعٌ من أنواعها، «والذين هُمْ لأماناتِهمْوعهدِهِمْ راعُونَ»[٢٢]. ووسِعَتْ الأمانةُ في الإسلام إلى ان شَمَلَتْ الأمـانةَ في القـولِ والأمـانـةَ في الممارسةِ «إنَّ اللَّهَ يأْمُرُكُمْ أَن تـؤَدُّوا الأمَانَاتِ إلى أهْلِهَا»[٢٣].

والاستقامة صفةٌ متممة للصّدق، مذكورةٌ في فاتحةِ القرآنِ الكريم «اهدنا الصراط المستقيم» وجاء بالنسبةِ للاستقامةِ في كتابِهِ الكريم، «إنَّ الذينَ قالوا ربُّنا اللَّهُ، ثُمَّ استقامُوا فَلاَ خوفَ عليهمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ»[٢٤]، وكذلك «إنَّ الذين قـالُوا ربُّنا اللَّهُ ثم استقـامُـوْا تَتَنَـزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكَةُ، ألَّا تخافُوْا ولا تَحْزَنُوا وأبشِرُوا بالجنَّةِ التي كُنتُمْ توعَدُون...»[٢٥]، ومن قول الرسول لرجـلٍ سـألَهُ وصيَّـةً: «قـلْ آمنتُ بـاللَّهِ ثم استقمْ»[٢٦].

أما الكذب، فقد اعتبره الإسلام ضلالةً «ووعد المتصفين به بأَنَّهُمْ لا يُفْلِحُونَ»[٢٧] وكذلك حذَّرَ الإسلام من الاستماعِ إلى النمام[٢٨]، والأخذ بكلامه، واعتبر الإسلامُ شهادةَ الزورِ[٢٩] صفةً خطيرةً تُجرُّ على الإنسانِ ومجتمعِه شروراً كثيرةً وقد جعل إِثْمَها بمثابةِ الإشراكِ بالله، ووصف عِبـادَه المقرَّبيْنَ بـأنهم: «والذين لا يَشْهَـدُونَ الزورَ»[٣٠]. أما الخيانةُ فقد عدَّها الإسلامُ إثماً كبيراً «إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ من كان خوَّاناً أثيماً»[٣١] وعـدَّ الحسدَ، آفـةً اجتماعيـةً خطيـرة تُشْقي المتصفَ بها، وتنكدُ عَيْشَهُ وتجعلُ منه إنساناً خطيراً يتمنى الأذَى والشرَّ لغيره، وقد أمرَ اللَّهُ



□ **الاهتمام بجمال الأسلوب في اللغة العربية يتجلى، على صورة مرئية، في فن الخط العربي.**

بالاستعاذةِ منه، «ومن شرِّ حاسدٍ إذَا حَسَدْ»(٣٢) وكذلك «ولا تَتَمنَّوْا ما فَضَّلَ اللَّهُ به بَعْضَكُمْ على بعض» للرجالِ نصيب مما اكتسَبُوا وللنساءِ نصيبٌ مما اكتسبن واسألُوا اللَّهَ من فضلهِ إنَّ اللَّهَ كان بكلِ شيءٍ عليما»(٣٣) وعدَّ الإسلامُ النفاقَ صفةً خطيرة، على الجميع ووضع خُطةً حكيمةً في التعاطي مع المنافقين تجمع بين التسامح والحذر. والغضبُ في الإسلامِ من الصفات المضرّة، وقد نصحَ بعدمِ الاستسلامِ إليه، وبتملك النفسِ والعفوِ عند الغضب، الذي هو صفة من صفاتِ المؤمنين، لأن الغضبَ قد يدفعُ الإنسانَ إلى اتّخاذِ مواقفَ غيرِ سليمة، بعيدةٍ عن العدل، «... الذين يُنْفِقُونَ في السراءِ والضراءِ، والكاظمينَ الغيظَ، والعافِينَ عن النَّاسِ، واللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ»(٣٤)، «... وإذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ»(٣٥).

ومن القيم والأعراف الأخلاقية الإسلامية أيضاً، الصبر، وقد ذُكِرَ أكثر من سبعين مرةً في القرآن الكريم، وهو من الصفاتِ التي تـؤدّي إلى الرئاسةِ والإمامةِ في الدين، ومن الصفات المتوجبَةِ أيضاً: العفوُ وإيثارُ الغيرِ، وتفضيلُه على النفسِ فـي الخيـر والحـق، والتعـاونُ والإصـلاحُ بينِ الناسِ، والرحمـةُ والمغفـرةُ، والمحبةُ والأخوةُ والسلامُ، كما دعا للوفاءِ بالعهدِ، والأمانةِ وعدمِ التجسسِ، ونهى عن الحسدِ، كما ذكرنا وأوصى بالجار، وحذَّرَ من الغيْبَةِ والافتراءِ على الغيرِ وإحلال الظلمِ، والنميمةِ، والفتنةِ.

ومن الرذائل التي نهى عنها الإسلام أيضاً عدمُ الاستسلامِ لأهواء النفسِ، لأن الأهواء الجامحة في نفسِ الإنسانِ تحجب بصيرتَـه وتضلِلُهُ بعيداً عن الحقِ والحقيقةِ، ومن آياتِ ذلك: «... وإنَّ كثيراً لَيُضِلُّونَ بأهـوائهم بغيرِ علمٍ»[٣٦].

وهل أعظمُ من القول التالي في التحري عن الحقيقة، وإنصاف الغير في قوله تعالى: «يا أيُّها الذين آمَنُوا إن جاءَكُمْ فاسِقٌ بنبأ، فَتَبَيَّنوا أنْ تُصيبُوا قوماً بِجَهْلِهِ فَتُصْبِحُوا على مـا فَعَلْتُمْ نادمينَ...»[٣٧].

ولم يتسـاهـلْ الإسـلامُ مـع المتكبـرينَ، فالكبريـاءُ آفةٌ اجتمـاعيةٌ مسيئـةٌ تَقْضي على المودّةِ والتعاون، وتؤدِّي إلى الفُرقةِ بين الناسِ، وقد أنهى الله تعالى عن التكبر فقال: ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للناسِ ولا تَمشِي في الأرضِ مَرَحاً إن اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مختالٍ فخورٍ»[٣٨]، ومن قوله تعالى: «ألَيْسَ في جَهَنَّمَ مثوىً للمتكبرِيْنَ»[٣٩]، وكذلك «ولا تَمْشِي في الأرضِ مَرَحاً إنَّكَ لنْ تَخْرِقَ الأرضَ ولن تَبْلُـغَ الجِبَالَ طولًا»[٤٠]، لا بل حث الإسلامُ المسلمينَ على التحلّي بالتواضـعِ ونبذِ التعالي على المؤمنين: «واخْفِضْ جَنَاحَكَ للمُـؤمنين»[٤١].

إن هذه الصفاتْ والتعاليمَ العامةَ، وغيرَها المتعلقـةَ بشخصيةِ الإنســانِ وسلوكِه، تَعْكِسُ أثرها في المجتمـعِ العربـي والإسلامي، وتحددُ السلوك الاجتماعي والخُلُقِي بين الإنسانِ وأخيه الإنسان إنها مثـلاً، التعاون، ومـيزةُ التعاونِ تعتبـرُ من أبـرزِ المـيـزاتِ في المـجتمـعِ الحديث، فإنهـا عامـلٌ من عوامـلِ النهوضِ بالمجتمـع الإنساني تهدِفُ إلى إسعاد الفرد والمجتمـع، من ذلك قوله تعالى: «وتَعاوَنُوا على البـرّ والتَـقْـوَىْ ولا تَعَـاوَنُـوْا عـلـى الإثْـمِ والعُدوَان»[٤٢]، وقول الرسول: «أحَبُّكُمْ إلى الله أنفعُكُمْ لعِياله...».

والإصلاحُ بينِ الناس سمةٌ أخلاقيةٌ وتربويةٌ في المجتمـعْ، تُـؤْتي الخير له ولأبنائِه. ومن هذا المنـطلق دعـا الإسـلامُ إلى الإصــلاح بين المؤمنين الذين توحِّدُهُمْ الرابطةُ الدينيةُ، «إنما المُـؤْمِنُونَ إخوةٌ فأَصْلِحُوا بينَ أخويكُم»[٤٣]، لا بل شَمَلَتْ هذه الرغبةُ الناسَ كافةً، أي أن الإسلامَ شجَّـع الإصلاحْ بين كل الناس من دونِ تفـريق أو تخصيص، «لا خَيْـرَ في كثيـرٍ مِنْ نَّجْـواهُمْ إلَّا من أمَـرَ بِصَـدَقَـةٍ أو معـرُوفٍ أو إصلاحٍ بين الناسِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فسوفَ نُـؤْتِيهِ أجراً عظيماً»[٤٤]. وأمر اللَّهُ سبحانه وتعالى، بمحاولة الإصلاح بين الزوجين إذا تنازعا، «وإن خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فابعثُوْا حكماً من أهله، وحكماً من أَهْلِها إن يُرِيدَا إصلاحاً يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُما»[٤٥] وذلك حرصاً على سلامة الأسرةِ، كما أوجب عدمَ الإساءة إلى الغير، وشدَّدَ على المعاملةِ الحسنةِ للناس، كلِّ الناس، المقرونةِ بالإخلاصِ وخفضِ الصوتِ بمخاطبتهما[٤٦]. كل ذلك مـع جعلِ نصيب من مالِ الإنسانِ إلى المحرومِ والمقهورِ ضامناً بذلك مبدأ التكـافلِ والتكـاملِ في المجتمـعْ الإسلامي، وبذلك شرّع نظاماً مالياً واجتماعياً رائداً وفريداً، يُرْفِقُ بالفرد ويَنْهَضُ بالمجتمـع. ولو أُخْرِجَتْ الزكاةُ في جميـعِ أنواعِها حسب أنظمتِها الشرعيةِ لساعدتْ على حـلِّ مشكلةٍ اجتماعية واقتصـادية للفقـر والفقراء وفـاقتِ الضمان الاجتماعي، كما أنّ الصدقاتِ قد تَحُلُّ مشاكل أخرى من حيث إمكانية مساهمتها في مشاريـع اجتماعية وعلمية ووطنية فضلاً عن أنها تزرع في نفوس المسلمين وقلوبهم شعور

الأخاء والمساواة والتعاون، وهكذا كان الإسلام سبّاقاً على الغرب بإرساء المؤسسات الإنسانية، والاقتصادية والاجتماعية بقرون وقرون.

ومن حرص الإسلام على إرساء مجتمع أفضل. القرآن الكريم أوصى الناس كل الناس بالتعاطي بعضهم مع بعض برقة وأمانة ونهى عن القسوة والغلظة، فخاطب الله نبيه قائلاً: «ولو كُنْتَ فظاً غَلِيْظَ القلبِ لانفضّوا من حولِكَ»[٤٧].

ومن الآداب الاجتماعية التي أوصى الإسلام باتباعها الاستئذان عند دخول بيوت الغير، والتحية والسلام، كما أمر بخفض الصوت عند مخاطبة الغير[٤٨]، وهذه ميزة من ميزات الإنسان الراقي.

أما بالنسبة لتعاطي الإسلام مع أصحاب الدياناتِ الأخرى في المجتمع الإسلامي، وأقصدُ بهم أهلَ الكتابِ بالذات، فقد أكّدَ الإسلامُ على وجوبِ الإيمان بكل الرسلِ من دون تفريق[٤٩]، وإنّ محمداً خَاتَمَ النبيينَ، أُرْسِلَ إلى الناس كافةً[٥٠]، ومن الواضح دفاعُ القرآنِ عن قدسية المسيح وطهر والدته مريم العذراءِ في آياتٍ وسورٍ كثيرة، كما أوصى اللّهُ المسلمين بالبر بأهلِ الكتابِ ومعاملتهم بالحسنى وبالعدل ما لم يقاتِلُوْهُمْ أو يخرجُوْهُمْ من ديارهم أو يُسيئوا إليهم[٥١]، وانطلاقاً من هذا المبدأ تعاطى المسلمونَ مَعَهُم في الداخل والخارج.

على أن بعض المستشرقينَ، وبعضَ المتحيِّزيْن اتهم الإسلامَ بأنه انتشرَ بالقوة والسيفِ، وأساءَ معاملةَ أهلِ الكتاب. وكفى الردّ على هذه الافتراءات بالقولِ والممارسة، وبالقول، إنّ الإسلام دين رحمةٍ وسلامٍ وإن السورَ القرآنية كلَّها تبدأ بالرحمة: «بسم الله الرحمن الرحيم» وهي رحمةٌ بلا حدود، وفي ذلك قولُهُ تعالى، «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ»[٥٢]، وهي رحمةٌ لكل الناس، «وما أرسلناكَ إلَّا رحمةً للعالمين»[٥٣]، وكذلك قوله تعالى: «ادفع بالتي هي أحْسَنُ، فإذا الذي بَيْنَكَ وبينَهُ عداوةٌ كأنَّهُ وليٌّ حَمِيْمٌ»[٥٤]، وكذلك، «عَسَىْ اللّهُ أن يَجْعَلَ بَينكَمْ وبينَ الذينَ عادَيْتُم مِنْهُم مَوَدَّةً واللّهُ قديرٌ، واللّهُ غفورٌ رحيمٌ»[٥٥].

أما بالنسبة إلى السلام، فالسلم والسلام الأصل في الإسلام ومن قوله تعالى: «يا أيُّها الذينَ آمنُوا أدخُلوا في السلمِ كافةً»[٥٦] «وإن جَنَحُوا للسّلمِ فاجْنَحْ لها وتوكَّلْ على اللّهِ»[٥٧]، ومن حديثٍ للرسولِ رواه البخاري: «... أُفشوا السلامَ بينكُمْ» وفي حديث آخر عن الرسول أيضاً، انه عندما سئل أي الإسلام أفضل، قال: «المسلم من سَلِمَ الناسُ من لسانِه ويدِهِ».

وتأكيداً على أن السلامَ من جوهر الحضارةِ العربيةِ الإسلامية، ومن صلبها يكون البدءُ «بالسلام» مع الله والإنسان. أما السلامُ مع الله فهو الطاعةُ لإرادتِه وأنَّهُ يَنْبُوعُ الخيرِ والامتنان والسعادة والطاعة بالاطمئنان والرضا من خلال العقل واليقين بغايةِ السكنَى في «دار السلام»[٥٨]، التي يدعو إليها القرآن. وبالنسبة للإنسان، رأينا أن السِلْمَ والسلامَ هما الأصلُ في المعاملة فتحيةُ الإسلامِ هي «السلام»[٥٩].. «السلام عليكم» والسلامُ هي الكلمةُ التي أمر الله تعالى المسلمينَ بإنهاءِ صلاتِهم بها، «السلام عليكم» وكذلك تحيةُ أهلِ الفردَوْسِ السلامُ، ولن يسمَعِ المسلمونَ في الجنةَ كلمةً ما إلَّا «سلاماً سلاماً»[٦٠] وهي تحيةُ ليلةِ القدرِ «حتى مطلعِ الفجر»[٦١]، وكذلك «السلامُ» هو من أسماءِ اللّهِ الحسنى[٦٢].

ومن الواضح أنَّ من تَتَبَّعَ الدعوةَ الإسلاميةَ، يرى أنها انتشرتْ بالوسائلِ السلميةِ وبالحوارِ والإقناعِ، وبالممارسةِ والقدوةِ الحسنةِ، منذ البدء، على يد النبي محمد في مكة والمدينة، وهو أعزل من السلاح، لا بل كان سلاحه ما أمر اللّهُ به «ادْعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة، وجادِلْهُمْ بالتي هي أحسنُ...»[٦٣].

ونهى القرآنُ عن إجبارِ أحد على تغيير دينِهِ، ومن قوله تعالى: «لا إكراهَ في الدين»[٦٤]... «ولكم دينُكم وليَ ديني»[٦٥]، «فإنما عليكَ البلاغُ وعلينا الحسابُ...»[٦٦]، «فذكِّرْ إنما أنتَ مذكِّرٌ

لستَ عليْهم بمصيطرٍ»(٦٧)، أما الحربُ فمكروهةٌ في الإسلام، والسلمُ هو الأصل، وفي ذلك قولُه تعالى: «كتب عليكُمْ القتالُ وهو كُره لكم»(٦٨)، ولم تكن الحربُ إلَّا لردِّ الهجماتِ والدفاعِ عن النفسِ، وتصحيحِ المواقفْ، ولم يُستل السيفُ في الإسلام إلَّا بعدَ استنفادِ وسائِلِ المسالمةِ. ولم يُبَحِ الحربُ إلَّا للذينَ حاربوا الإسلامَ والمسلمينَ «فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم...»(٦٩)، وكذلك: «وقاتلوا في سبيل الله الذينَ يقاتلونَكُمْ ولا تعتَدُوا إنَّ اللَّهَ لا يحبُّ المعتدينْ»(٧٠).

ولم تقتصر القيم الحضارية الإسلامية على كل ما يتعلقُ بالإنسان فقط، وإنما شَمِلَتْ الحيوان وأوصت بالرفقِ بالحيوان وعدمِ إيذائِهِ، أو تحميلِهِ فوقَ طاقتِهِ، ودعت لرعايةِ النبتِ والنخيلِ والأشجارِ المثمرةِ وعدمِ العبثِ بها أو قَلْعِها أو حرقِها ولا سيما في الحروبِ، إذ كان هذا الأسلوبُ متبعاً في الحروبِ لأسبابٍ متعددة. ولعمري إنَّ الحضارةَ العربيةَ الإسلاميةَ سبقت بقرونٍ وقرونَ الغربَ الذي يتباهى بإيجاد جمعياتٍ تُعنَى بالرفقِ بالحيوان.

نستطيع القولَ أن الإسلامَ أوجدَ ضوابطَ وحدوداً في الحربِ اتسمت بنهجٍ معينٍ، وأرستْ نمط سلوكٍ وآدابٍ حضارية شهدَ لها بعضُ كبارِ المؤرخينَ في العالم، منها حسن معاملةِ الشعوبِ المغلوبةِ وعدم إيذاءِ النساءِ والأطفالِ والصبيانِ، والشيوخِ، والرهبانِ والمرضى والعُجَّزْ، كما أن المحاربينَ المسلمين حَرِصُوا على المحافظةِ على معالِمِ الحضارةِ ومؤسساتِها أينما وجدت، فوضعوا حدوداً لتصرفاتِ جُنْدِهِمْ بالنسبةِ للمدنِ والناسِ، والزرعِ والحيوانْ، وأقاموا لجنودِهم معسكراتٍ خارجَ المدنِ المفتوحةِ خشيةً من التجاوزاتِ، وحافظوا كلَّ الحفظ على المؤسساتِ التعليميةِ فلم يَعْبَثُوا في مؤسسةٍ ولم يَقْفِلُوا إحداها، ولم يَحْرِقُوا كتاباً ولا مكتبةً كما اتهمهم بعضُ المغرضين منها، مكتبةُ الاسكندرية الشهيرة مثلاً التي أُحْرِقَتْ وأصابَها التلفُ قبلَ الفتحِ العربي بزمنٍ طويل، منهم (Alfred Butler) في كتابه (The Arab. 401) وكتاب تاريخ العرب المطول ص ٢٢٢، حتى جرجي جبور (George Jabour: Introduction to the History of Science) وغيرهم كثير.

هكذا انتشر الإسلامُ في الأرض حاملاً معه خصوصيته في الفضائل في التوحيد والرحمة والعدالة، بعيداً عن التعصب، قابل للحوار والمجادلة بالتي هي أحسن، كل ذلك شرط من شروطه، إنه دين الإنسانية أنزل إلى العالم كله «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين» ولم يفرّق بين الأجناس والشعوب، ولا بين الألوان، ولا بين المرأة والرجل، بل دعاهم جميعاً إلى التعارف والتعاون والخير فيما بينهم من ذلك قوله تعالى: «يا أيُّها الناسُ إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم»(٧١)، ومن هذا المنطلق قول الرسول: «بعثت إلى الناس كافة»(٧٢)، وكانت خطبته في يوم الوداع، أو حجة الوداع بمثابة وصية أوصى بها الإنسان بأخيه الإنسان مذكراً أن عنصر التمايز بين الناس هو العمل الصالح: «يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ولا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي إلّا بالتقوى»(٧٣).

وهكذا تجاوز الإسلام وارتفع عن العنصرية والعرقية والاثنية.

وانطلاقاً من هذه المبادىء سجل الإسلام انفتاحاً رائعاً على الأديان السماوية، وجعل حرية العقيدة الدينية من صلب دستوره، ويقول في ذلك تعالى، «لا إكراهَ في الدِّين قد تبينَّ الرشدُ من الغيِّ»(٧٤)، وقوله تعالى أيضاً: «ولو شاءَ ربُّكَ لآمَنَ من في الأرضِ كلُّهُمْ جميعاً، أفأنت مُكْرِه الناسَ حتى يكونوا مُؤْمِنِين»(٧٥).

وكذلك من قوله تعالى: «ولو شاءَ ربُّكَ لجَعَلَ النَّاسَ أمَّةً واحدةً ولا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ»(٧٦).

وفي القرآن الكريم آياتٌ توصي باحترامِ ديانة أهلِ الكتاب، وتعزز موقفَهُم، وتشيرُ إلى أنَّ الإسلامَ الدينَ العالمي قد أشاع الطُمأنينةَ في نفوسِ أهل الكتاب بقوله تعالى: «إنَّ الذينَ آمنُوا والذين هادُوا والنَّصارى، والصابئينَ من آمَنَ باللّهِ واليومِ الآخِرِ وعمِلَ صالحاً فلهم أجْرُهُمْ عندَ ربِّهِمْ ولا خَوْف عليهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ»(٧٧). وركّز القرآن الكريم على العلاقة مع النصارى بقوله: «وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مودَّةً للَّذِيْنَ آمَنُوا الذينَ قالوا إنَّا نَصَارَى ذلِكَ بِأَنَّ منهُمْ قِسِيْسِيْنَ ورهباناً وأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ»(٧٨) كما أوصى بالحوار معهم ومجادلتهم بأمور الدين، مجادلة بالتي هي أحسن في غير آية، على أن تقومَ المجادلةُ على أساسِ العقل والمنطق والإقناع. من قوله تعالى: «ولا تُجَادِلُوْا أَهلَ الكتابِ إلَّا بالتي هي أحسَنُ وإلهُنا وإلهُكُمْ واحدٌ ونحنُ له مسلمونَ»(٧٩). و «اُدْعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ وجادِلْهُمْ بالتي هي أحسنُ، إنَّ ربَّكَ هُو أعلمُ بمن ضَلَّ عن سبيلِهِ وهو أعلمُ بالمهتدِيْنَ»(٨٠).

وقد التزم المسلمون بالموقف السمح الذي نصَّ عليه دَسْتُورُهم، في وقت كانِ التعصب الديني والحروب الصليبية على أشُدِّها في الغرب وكانت دِيانَتُهمْ ومذاهِبُهُم تُفرض بحد السيفِ مما دفع الكثيرَ من مواطنيهمْ ومن المسيحيين خاصة إلى الالتجاءِ إلى بلاد الإسلام هَرَباً من الاضطهاد الديني المذهبي عند انشقاقِ الكنيسة المسيحية زمنَ الحكمِ البيزنطي، فعاشوا في الدولة الإسلامية معززينَ مكرَّمينَ، في وقتٍ كان الإسلامُ في ذُروةِ قوته وازدهارِهْ.

ويتضحُ التزامُ المسلمين بالموقفِ السمِحْ هذا عندما فتحوا البلادَ وسمحوا لأهلِ الكتابِ بالبقاءِ على دينهِمْ مع ممارسةِ شعائرهم وطقوسِهم الدينيةِ، والمحافظةِ على أموالِهم ومقدساتِهم وحُرُماتِهم متمتعينَ بحريةِ العبادةِ والتجارةِ والصناعةِ والتنقلِ في المناطقِ الإسلامية كلِّها ما عدا مَنْطَقَةِ الحجازْ وجوارِها.

وقد تساوى أهلُ الكتابِ في المعاملة العادلةِ مع سواهم من المسلمين، كما تساوَوْا بالمسلمينْ فيما يأخذونَ من بيتِ مالِ المسلمين وكانوا يُعْطَوْن من الصدقاتِ ويُجْزى عليهم القُوْتُ بانتظام، كما أباحَ التشريعُ الإسلاميْ أن يقاضِيَ الذميّ أرفعَ إنسانٍ في المسلمين ويأخذ حقَّهُ منهُ فيما لا يعرِّضُ الدين الإسلامي للخطر. وكانوا يتمتعون بجميع الحقوق التي يتمتعُ بها المسلمُ في تولي المناصبْ عدا تلك الملتزمة بالإسلام كتولي القضاء مثلاً لأن القضاء قائمٌ على الشرع الإسلامي.

وفي المناسبة، أودُّ أن أشرحَ لفظةَ «أهلِ الذمَّة» وما تتضمنُهُ من معانٍ سمحاء. وقد جاءت هذه اللفظة تكريماً لأهلِ الكتَّاب ــ أي النصارى واليهود ــ لأن النبيَّ وضَعَهُمْ في ذمتِهِ، وعهدِهِ، وأمانتِهِ في المحافظةِ على حياتِهم، وأموالِهم وحقوقِهم المدنيةِ وحريتهِمْ الدينيةِ في ما يحدِّدُهُ الشرعُ الإسلاميْ، أيّ أنهم في ذمةِ اللّهِ وعهدِه ورعايتِهِ وذمةِ رسولِه ودين الإسلام، ويُعْتَبرُ هذا تعزيزاً وتكريماً لهم، وإذا كانت قد حصلت بعض التجاوزاتِ من قِبَلِ بعضِ الأفرادِ، فكانت اتقاءً للإساءةِ للإسلامِ والمسلمين، وتتعلقُ بسلامةِ الدولةِ الإسلاميةِ، نتيجة لأعمالٍ مشبوهةٍ قام بها بعضُ النصارى كاتصالِهمْ بالدولة البيزنطيةِ المجاورةِ، والعاديةِ، التي كانت مستنفرة أبداً، أو كان ذلك، شذوذاً من بعضِ الأفرادِ والمسؤولين والحكامِ المسلمين، وعدم التزامِهم الديني، وهي على كل حال كانت لا تَخْرُجُ عن كونها أعمالاً فرديةً وهذا على نقيضِ ما انطوى عليه الحكمُ البيزنطي من تعسفٍ واضطهادٍوإكراه الناس على الدخول في دينهم. من ذلك ما قام به الصليبيون في فلسطين بعدَ نجاحِ الحملةِ الصليبيةِ الأولى حيثُ شنُّوا حملةَ إبادةٍ على المسلمين في القدس، وأَفْنُوهُمْ عن بكرةِ أبيهم خلال ثمانيةِ أيامٍ، وكانِ عددُهم ستين الفاً، ولم يَسْتَثْنُوا منهم امرأةً ولا ولداً ولا شيخاً. وهذا ما يَشْهَدُ عليه ويسطرُهُ كتابٌ ومؤرخون معاصرونَ غربيون.

أما بالنسبة إلى معاملةِ المسيحيينَ للمسلمينَ في الأنـدلس، فحدِّثْ ولا حَـرَجْ، فقـد شن المسيحيونَ بعد انتصاراتِهم على المسلمين في الأنـدلس حملاتٍ همجيـةً من قتلٍ وتعـذيبٍ وإلقائهِمْ في البحرِ وغيرِ ذلك من وسائل التعذيبِ والقهرِ، فافنوهُم كلياً لدرجةِ أنَّهُ لم يبقَ مسلمٌ واحدٌ في البلادِ، وهذا يُثْبِتُهُ الواقـعُ الآن في إسبـانيا التي حكمهـا المسلمـونَ مـا يقـاربُ ثمانمائة سنة، فأبادوهم إبادةً جَمَاعِيَّةً هذا إذا ما قارنّا ذلك مـع واقـعِ البلادِ التي افتَتَحَها المسلمون، ومنها بلاد الشام واستمراريةِ وجودِ غيـرِ المسلمين فيها من أهـلِ الكتـاب، وهم ما زالوا يتمتعونَ بالتكريم والإعزاز.

هذا قليلٌ من كثير مما ينطقُ بتعزيزِ الإسلامِ والمسلمين لأهلِ الذمَّةِ، وللحقوقِ التي مارسوها بحريةٍ وتسامـحٍ.

وإزاء هذه الحقوق، كان على أهلِ الذمـةِ واجباتُ المواطنيةِ والرعايةِ التي كانوا يتمتعون بها. وقد فُرِضَتْ الجزيةُ عليهم نظراً لإعفائهم من الواجب العسكري، وإعفاءاتٍ أخرى.

وقد حصل أنه في بعض الأحوال اشتركَ البعضُ منهم في الدفاع عن الدولة، فسقطتْ عنهم الجزية، إنَّ فرضَ الجزيةِ على أهل الذمةِ في مقـابـل فـرضِ الزكـاةِ على المسلمين. ولم يحدِّدْ الشرعُ قيمةَ الجزيةِ، وقد ورد فيها أقوالٌ منها أنها تركت لاجتهاد الإمام، وقولٌ آخر أنهـا محددةٌ بمقـدارِ ٤٧ درهماً على الغني، و ٢٤ درهماً على المتوسط الحال، و ١٢ درهماً على ضعيف الحال. وكانت تتفاوت بتفاوتِ حالةِ الذميّ المالية، يدفعُها منهم القادرُ على حملِ السلاح، وتُستثنى المرأةُ، والصبـيُ، والشيـخُ والراهب. وتعتبر الجزيةُ رمزيةً ونسبيةً، ولم تكن اعتباطيةً بل فرضت على القادرينَ أو على أهلِ اليسر، دون العاجزين. وهي على كلٍ أقلُ قيمةً من «الزكاة» المفروضة على المسلمين.

وقد حضّ الرسولُ على الرفقِ والإنصافِ في تحصيل الجزية، وجاء عن الرسـول أنه قـال «احفـظوني في ذمتي» وقـد أصبحتْ هـذه المقـولة سنةً فيما بعد اتخذها الخلفاءُ والحكام الصالحون شعاراً لهم.

وعلى كل فإن الجزيةَ تعتبَـرُ في الواقـعِ تعزيزاً لأهلِ الكتاب، ورمزاً لتكريسِ وجودهم وحقوقهم وشخصيتهم في دولةِ الإسلام، ومؤشراً لإسـهـامهـم في أمـورِ الدولة، وإشـعـارهم بمواطنيتِهم، وإعفائِهم من الواجباتِ العسكرية وغيرها.

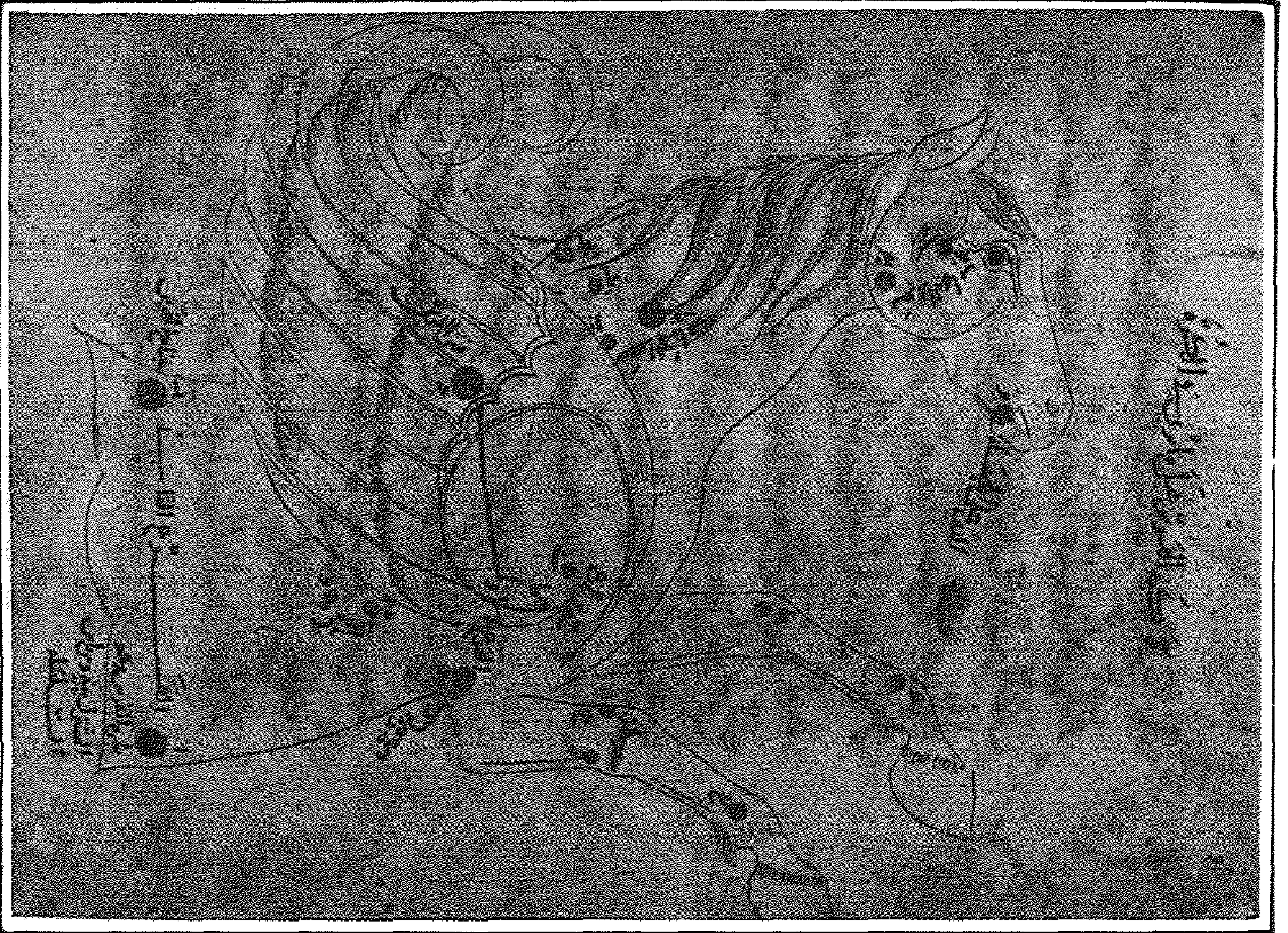
وهكذا عاشَ أهلُ الكتابِ في رحابِ الإسلامِ، وبجانب المسلمين بجوٍ من التسامـحِ والعيشِ لم تَعْرِفه أوروبا في القرون الوسطى لا بل أوجدَ الإسلامُ منذ ذلك الحين صيغة عيشٍ مشترك تعجزُ دولٌ كثيرةٌ الآن عن إيجادِ نظيرٍ لها.

أما بالنسبة إلى العلم، فقد حثَّ الإسلام على العلم والتعلم، ووجه عنايته إليه، لا بل قرنَـهُ بالدينِ لأنَّ العلمَ يقرِّبُ إلى اللَّهِ، وكل المؤمنينَ سَوَاسِيَة أمام اللَّهِ. ونظرةُ الإسلامِ إلى العلمِ والتعلمِ هي نظرةٌ جزئيةٌ من أصلِ (نظرةٍ كليةٍ) وهي نظرةُ الإسلام إلى اللَّهِ والكونِ والإنسان.

وللدلالة على أهميـةِ العلمِ جعلَهُ الإسـلامُ مقروناً بالدين، وجزءاً من النظرةِ الكليةِ للإسلام، فقد ذكر في السورة الأولى من القرآن الكريم، «اقرأ باسم ربِّك الذي خَلَقَ، خَلَقَ الإنسانَ من عَلَقٍ، اقرأ وربُّكَ الأكْرَم الذي عَلَّمَ بالقَلَمِ، علَّمَ الإنسانَ ما لم يعلَّمْ»(٨١).

وكانت هذه الآيات أول إشارة إلى تبليـغِ الدعوة إلى الناس كافةً إلى أن يَقْرأ الإنسانُ باسم ربه، ثم تبرزُ حقيقةٌ أخرى وهي التعليمُ، المرتبطُ بالدعوة والتبليـغ، تعليم الربِّ للإنسان (بالقلم) «ن والقَلَمِ وما يَسـطُرونَ»(٨٢) فالقلم هـو الأداةِ الأسـاسيـةِ المعبـرةِ عن التعليمِ، والتعليم من مصدره الأساسي هو اللَّهْ عزَّ وجلّ.

فـالرسول المعلمُ والله المصـدر والينبوعُ، والعلمُ من لدن فيضِه حث الإسلامُ على طلب العلمِ بآيات كثيرة، ولكلِّ آيةٍ خصوصيتُها «نَ والقَلَمِ ومـا يَسـطُرون» تُـؤكـدُ أهميـةَ القلمِ وضـرورةَ حفـظِ الـروايةِ عن طريقِ الكتـابـة والتسجيل. ثم حثَّ القرآنُ الإنسانَ المسلم من



□ صورة كوكبة الفرس الأعظم كما وردت في نسخة من كتاب «صور الكواكب الثابتة» للصوفي.

عامةِ الناس على التعليمِ والتفكيرِ لنفسه، إذ يقول تعالى: «واللَّهُ أخرجَكُمْ من بطونِ أمَّهاتِكم لا تعلمون شيئاً، وجَعَلَ لكُمُ السَّمْعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلَّكُمْ تَشْكُرونَ»(٨٣) وكذلك: «ولا تَقْفُ ما ليسَ لك به علمٌ إنَّ السَمْعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كلُّ أولئكَ كان عَنْهُ مسؤولًا»(٨٤) كما جعل الحق والعلم توأمين: «ويَرَى الذينَ أوتُوا العِلْمَ الذي أُنْزِلَ إليكَ من ربِّكَ هو الحقَّ ويَهْدِيْ إلى صراطِ العزيز الحميد»(٨٥). ولعمري أن الإسلام يكون بذلك أول من أرسى المنهج العلمي التوثيقي، المبني على النظر والاستقراء والتسجيل، والمشاهدةِ والحس، والبرهانِ والتفكيرِ المبني على الواقع، بغيةَ الوصولِ إلى الحقيقة. وهذا ما وصلت إليه الدراساتُ الحديثةُ في القرن العشرين. إذ إن السمعَ والبصرَ والعقلَ من أجهزةِ العلمِ والتعلمْ، كما أن الإسلام طوّر المنهج العلمي بالرجوع إلى الأصول ــ أي إلى القرآن الكريم، والسنّة.

جعل الإسلامُ «العلمَ» مقياسَ المفاضلة بين إنسان وآخر، وهو أساسُ الكرامة، كرامةُ الإنسان، وفي ذلك قولهُ تعالى: «هلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ والذينَ لا يَعْلَمُونَ، إنّما يتذكَّرُ أُولُو الألْبابِ»(٨٦)، كما جعل القرآن للعلماءِ درجاتٍ عند ربهم، «... يَرْفَعِ اللَّهُ الذين آمَنُوا مِنْكُمْ والذين أوتُوا العلمَ درجاتٍ»(٨٧).

لقد فتح الإسلام أمام المسلمين الآفاق كلَّها، آفاقَ السمواتِ والأرضِ، للنظرِ والتأملِ في أبعادها، «قل انْظُرُوا ماذا في السمواتِ والأرضِ»(٨٨) يقصد التبصرَّ في أمور الدينِ والدنيا، وإن العلم يتجاوزُ الحدودَ والسدودَ ــ أي ما نسميه الآن عالميةَ العلم ــ وذلك بقوله تعالى: «ومِنْ آياتِهِ خَلْقُ السماواتِ والأرضِ واختلاف السنتِكُمْ والوانِكُم، إنَّ في ذلك لآياتٍ للعالمِيْنَ»(٨٩). وحثَّ الإسلامُ على

الاستزادة من العلم «وقُلْ رَبِّي زِدْنِي علماً»[٩٠]. وينطوي هذا على فكرةِ استمرارية التعلم لأن العلمَ لا نهاية له وفيه حدُّ الفصل، وإن كان لا حدَّ له: «... وفوقَ كُلِّ ذِي علمٍ عليمٌ»[٩١] مشيراً بذلك إلى وجوب تواضعِ العلماءِ وتقبُّلِهِمْ النقدَ ونهيهِمْ عن الغرورِ والعمل على الاستمرار في طلب العلم والإتيانِ بجديدٍ مع التنفير من التقليد الأعمى والسلبي.

والرسولُ كثيرُ الحماسِ للعلم، وتبرزُ في سنتِه أهميةُ العلم وإلزاميتُه حيث يقول عليه السلام، العلمُ فريضةٌ على كل مسلمٍ، وقد أضافت بعض المصادر «مسلمة» فأصبحَ العلمُ فريضة على كل مسلم ومسلمة، لأن «كلَّ مسلم» تعني كلَّ من أسلم أو دخل في الإسلامْ، ويشمَلُ ذلك المرأةَ والرجل، وبذلك يتحقَقُ المعنى المطلوب.

وقد حث الرسول على طلبِ العلم ومتابعتِه وتطويره في قوله صلى الله عليه وسلم «اطلبوا العلمَ من المهد إلى اللّحد»، لا بل شجع على الاغترابِ في سبيلِه، والتضحية للوصول إليه، ولو كانَ ذلك الاغترابُ إلى أقصى البلاد المعروفة حينذاك «اطلبُوا العلمَ ولو بالصين» وطبيعي أن المقصود هنا العلومُ الدنيويةِ لأن علومَ الدينِ «لا تطلبُ» من الصينْ.

وقد دعا الله تعالى في كتابه العزيز إلى تعزيز العلماءِ وتفضيلهم على الذين لا يعلمون كما ذكرنا: «إنما يخشى اللَّهَ من عبادِهِ العلماءُ»[٩٢]، ومن حديثٍ للرسول أورده البخاري، «والعلماءُ هم ورثةُ الأنبياءِ»[٩٣].

جعلَ الإسلامُ العقلَ الظاهرةَ القادرةَ على تفهمِ الدعوة إلى الإيمان باللَّهِ والنظر إلى ما في العالمِ من ظواهر، ويَعتبر القرآنُ العقلَ هو الأصل في العلمِ والأساس، لكن العقْلَ المستوفي لشروط الفهم. وقد طالب الإسلام الناس بتنمية العقل وإنَّ ذلك لا يكون إلاّ بالعلم.

نستنتجُ مما ورد في القرآن والسنّة، أن الإسلام موائِمٌ للعلم، وأنَّ خصوصيةَ العلمِ الأساسيةِ عند المسلمين تنطلقُ من قواعد ثابتةٍ، جاء بها الإسلام منذ أربعة عشرَ قرناً، وهي:

١ ـ إنَ العلمَ ظاهرةٌ وحدوية انطلاقاً من وحدانيةِ اللَّهِ، ونظرةِ الإسلام «إلى الله والكون والإنسان» في وحدتِها وتوحيدِها.

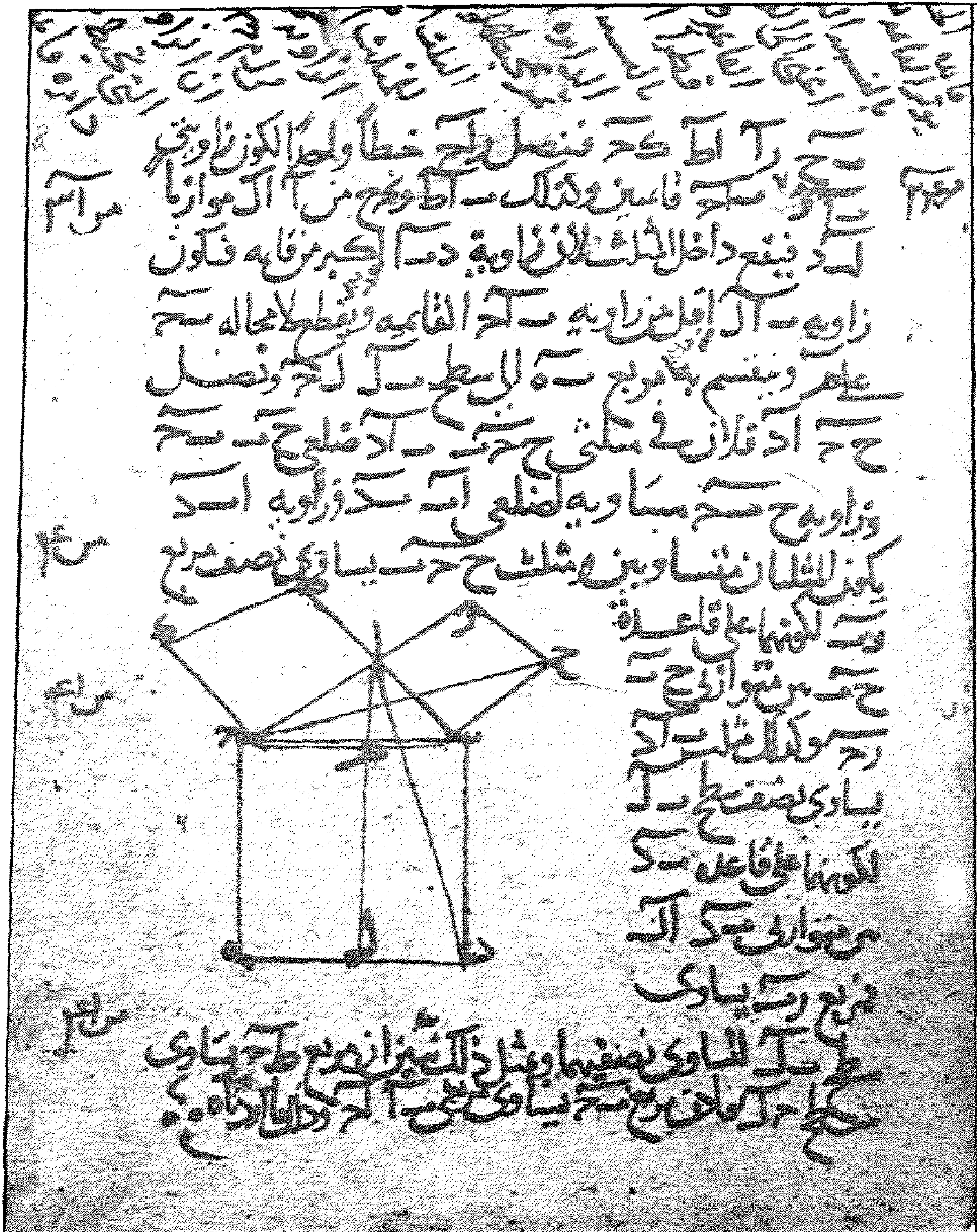
٢ ـ شموليةُ العلمِ وكليتُه، أي أن العلم يشمَلُ جميعَ العلوم، علومِ الدين والدنيا المنظورةِ وغيرِ المنظورةِ، القريبةِ والبعيدة.

٣ ـ إن الإسلامَ رؤيةٌ ومنهجاً في تحقيق العلم والتعليم انطلاقاً من الرسالة الإسلامية ومسألة الدعوة لها، وتعليمها وممارستِها بغية الوصول إلى الحقيقة.

٤ ـ إلزاميةُ العلمِ والتعلمِ وتعميمُها إذ أن العلم فريضة على جميع المسلمين وهو فريضةٌ عامةٌ لا حقوق للخاصة.

٥ ـ وضع الإسلامُ ورجاله المفكرونَ فيما بعد العلاقةَ بين العالمِ والمتعلمْ ضمن نهجٍ تربويٍ يسيرُ عليه كلٌّ منهما. لقد حُدِّدَتْ العلاقةَ بين العالمِ والمتعلم، في كونِها علاقة متكافِئة، ولكل منها آدابٌ وسلوكٌ وتقاليد وأعراف، ولكل منها شروطٌ ووظائفُ. وفي حالِ الخَلَل بأيّ منها تُفْسَدُ العلاقةُ وتُبْطَل الفائدة.

وامتثالاً للدستور الإسلامي، انتشرت المعرفةُ ونمت في المدنِ الإسلاميةِ كافةً، وفي البلاد الأوروبيةِ التي حكمها العرب سنين لا بل قروناً طويلة، كالأندلس وصقليا، وعبر الحروب الصليبية ثم انتقلت منها إلى البلدانِ الأوروبيةِ مروراً بمختلفِ دورِ العلم، مبتدئةً بالمسجد ـ كالجامع ـ والزاويةِ، والمؤسساتِ والمعاهد والنظاميات، التي كانت مؤسساتٍ للتعليم العالي كالطبِ والصيدلة والكيمياء وعلم الفلك والحساب، والرياضيات والزراعة والبستنة، وعلم التاريخ والجغرافيا، والفلسفة، وغير ذلك من علوم، كما أوجدت البيمارستانات والمستشفيات ودور العجزة، والمراصد، وقد تألقت أسماء عربية وإسلامية كثيرة في أوروبا في الطب والصيدلة وغيرهما من علوم، لا تزالُ الجامعات العالمية تُشيرُ إليها وإلى دورِها في تقدمِ العلوم



□ البرهان على نظرية فيثا غورس من «تحرير» الطوسي الكتاب إقليدس في «الاصول».

وتطورِ المسيرةِ العلمية في الوقت الحاضر، من خلال المؤرخين الموضوعيين الكبار الأجانب والعرب والمسلمين طبعاً(٩٤).

ولَمْ يقتصِرْ الإسلامُ على إرساءِ العقيدةِ الروحيةِ وتنميةِ القدرةِ العقليةِ فقط، وإنما تناول شخصيةَ الإنسانِ وعلاقةَ الإنسانِ بأخيه الإنسانِ، وعلاقتَهُ بمجتمعِه، وتنميةَ هذا المجتمعِ وتطويرِه عن طريق العلم والتعليم والعمل مما يعود بالنفع على الفرد والمجتمع والدولة.

وكما أن العباداتِ هي فرائض ملزمَةٌ، وعلى المسلمِ أداؤها كاملة، حث الإسلامُ على العلمِ والتعلم، ودعا إلى العملِ، ومن قوله تعالى: «وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون»(٩٥) وحدد نوعيةَ العمل بالعمل الصالح الذي لا ينفصلُ عن العبادة، بل

هو ممارسةً للإيمانِ والعقيدةِ في قيمها الأخلاقيةِ: لا تناقضَ بينهما، بل تطابقٌ وتوافقٌ، إذ أن الإسلامَ وحدةٌ متكاملةٌ لا تنفصلُ قيمُهُ الدينيةِ عن السلوك الإنساني، «ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً...»(٩٦) وفي ذلك قوله تعالى أيضاً «وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا»(٩٧)، «فالذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحاتِ هنا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ورِزْقٌ كَرِيمٌ»(٩٨). «فالذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحاتِ في جناتِ النَّعِيمْ»(٩٩)، «إنَّ الذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات إنَّا لا نضيعُ أجر من احسن عملاً»(١٠٠)، «وَمَا يَسْتَوِي الأعْمَى والْبَصِيرُ، والذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحاتِ وَلاَ المُسِيء قليلاً ما تتذكرون»(١٠١).

ولم يشدد الإسلام على الواجب في أداء فرائضِ العباداتِ وحسب، إنما حث كذلك على العملِ السويِّ الهادف وأوضح السبل والوسائلَ المتعلقةَ في الحصول على الشؤون المعيشية والحياتية، فقد حارب الكسل والبطالة التي يمارسُها البعضُ بسبب مفهومهم الخاطىء «للتوكل» وفسروه أنه مجرد اعتمادٍ على الله في الرزق، وهذا جهلٌ مطبَق لمفهومِ العملِ في الإسلام، فالتوكلُ يجب أن تسبقَهُ العزيمةُ والإرادةُ والرغبةُ في العمل. قوله تعالى: «فإذا عَزَمْتَ، فَتَوَكَّلْ على اللَّهِ إن اللَّهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلينَ»(١٠٢) فالتوكل إذن مشروط إذ أن الإسلام لم يقرّ المساواة في الرزق، وفي الحصول عليه دون بذل أي جهد، إنما دعا إلى السعي والعمل المخلص في سبيل كسب الرزق الحلال، في التجارة والزراعة، والصناعة، ووعد بالثَّواب على تحصيله لا بل دعا إلى الاغتراب والسعي في اكتسابِ المعاش، والانتشارِ في أرضِ الله الواسعة، من قوله عزّ وجل: «هُوَ الذِيْ جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ ذَلُولاً فامْشُوا في مناكِبها وكلوا من رزقِهِ، وإليه النُشُورُ»(١٠٣). وكذلك «فإذا قُضِيَتْ الصلاةُ فانْتَشِرُوا في الأرضِ وابْتَغوا من فضلِ اللَّهِ واذكروا اللَّهَ كثيراً لعلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»(١٠٤). وقد جعل سبحانه وتعالى الجزاء والمفاضلة على قدر الجهد الذاتي المبذول، «ولِكُلٍّ درجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا...»(١٠٥) «إنَّ الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحاتِ، إنَّا لا نضيِّعُ أجر من أحسن عملاً»(١٠٦) «... وَلاَ تَسْتَوِي الحسنةُ ولا السيِّئةُ...»(١٠٧).

ويلاحظ مما ورد أن العمل في التماس الرزق يجب أن يكون عملاً سوياً مستقيماً وحلالاً، بعيداً عن الكذب والغش والاستغلال.

ومما لا ريب فيه، أنه لو طبق المسلمون ما جاء به قرآنهم الكريم في السعي والعمل لواكبوا، لا بل نافسوا الحركة العالمية في التنمية والإنتاج والتطور.

وهكذا حقق الإسلام التكامل في حياة الإنسان المسلم، إنه كل لا يتجزأ: «... فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وتَكْفُرُونَ ببعض»(١٠٨) إذ إن الإسلام دين ودنيا وهو للدنيا والآخرة معاً.

اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، فالإسلام إذن يعتبر العمل. والعمل الصالح ضرورة حتمية ويشكل عنصراً أساسياً في تطوير العمران وتنمية الحضارة الإنسانية.

عرضنا في ما سبق بصورة مجملة لنظام الحياة في الإسلام من حيث الفرد والمجتمع، أمّا من حيث الدولة، أو بصورة أدقّ، من حيث الحاكم والمحكوم فقد شرّع الإسلام علاقة الدولة بالفرد من حيث الحقوق والواجبات بدقة وشمولية وأحاطها بكل الضمانات الكفيلة بتنظيم العلاقة في ما بينهما، لتعود بالخير على الفرد والمجتمع.

كان الإسلام رائداً في إرساء «الديمقراطية» حيث أن سياسة الحكم في الدولة الإسلامية تقوم على «الشورى» وحرية الرأي، والعدل، والمساواة، والرعاية، لا التسلط والتحكم والتمايز. لقد حدد الإسلام العلاقة بين الحاكم والمحكوم بنصوص واضحة، وأوجد نمطاً فريداً من الديمقراطية والحرية المطلقة في زمن كان

الحكم في الدول المجاورة حكماً استبدادياً مطلقاً. وأعطى الإسلام نمط الحكم فيه نفحة دينية في قوله تعالى: «والَّذِيْنَ استجابُوا لرَبِّهِمْ وأقامُوا الصلاةَ، وأمرُهُمْ شُورَى بينَهُمْ ومما رزقنَاهُمْ يُنْفِقُوْنَ»[١٠٩]. نرى هنا أن الشورى مقرونة بالصلاة، فهي نتيجة لإقامة الصلاة، فمبدأ الشورى إذن دعامة من دعائم الإسلام، والشورى السياسية التي تعني اختيار الرجل الكفؤ، الصالح، لتدبير شؤون الأمة، يختاره أبناء الأمة المكلفون الذين بلغوا سن الرشد السياسي، وهذا في حقيقته مشاركة سياسية بين «الجماعة» أي بين الحاكم والمحكوم في تسيير أمور الدولة، ويتوافق مع ذلك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته...»، ويؤكد سبحانه وتعالى فكرة الديمقراطية بقوله «وشَاوِرْهُمْ في الأمر...»[١١٠] وهي شورى ذات أبعاد سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية وتشريعية، وقضائية، إذ إن الشورى صفة جماعية، أي إنها صفة من صفات الجماعة ملزمة لأولي الأمر، تتضمن معنى المشاركة الديمقراطية في تبادل الرأي والحوار، لا النظام الفردي، الاستبدادي، مستمدة أحكامها من جوهر الإسلام، «فاحكم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم»[١١١]، وسمات هذه الأحكام: الحق، القسط، العدل، بعيداً عن المآرب والأهواء الشخصية: «فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتبع الهوى»[١١٢] «وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط...»[١١٣]، «وإذ حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل»[١١٤]، «اعدلوا هو أقرب للتقوى»[١١٥]، وأن يكون هذا العدل عدلاً مطلقاً، بعيداً عن الهوى: وإن تعدلوا كل عدل[١١٦] بدءاً بالنفس، وبالقربى «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين بالقسط شهداء لله، على أنفسكم، والوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى»[١١٧]، وفي آية أخرى: «فاعدلوا ولو كان ذا قربى»[١١٨]، وبآيات صريحة واضحة شدّد الإسلام على أن يكون التعاطي العادل بين جميع الناس والأشياء، منها مثلاً الكيل والميزان والعقود... «فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم»[١١٩]، والأشياء هنا تعني كلّ شيء، «يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعهود»[١٣٠]. وهكذا اعتبر الإسلام الحكم عهداً وأمانة وعلى المسؤول أن يردَّ الأمانة إلى أصحابها: «إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها وإذ حكمتم أن تحكموا بالعدل»[١٢١].

لقد حرص الإسلام أن يعامل المسؤول ـ الحاكم ـ الناس جميع الناس على قدم المساواة أمام القانون، وفي جميع الحقول، في الحقوق المدنية، كحق التملك، وحق التعاقد، وفي الحقوق العامة كحق التعليم والثقافة، وحق العمل وفي شؤون المسؤولية والجزاء، من دون تفرقة بين وضيع وأمير، ولا بين فقير وغني، ولا بين قريب وبعيد، ولا بين مسلم وغير مسلم ولا بين رجل وامرأة. فللعدالة الإسلامية ميزان واحد يطبّق على الناس جميع الناس.

فنظام الحكم في الإسلام إذن يقوم على دعائم الشورى، وهو حكم الجماعة، يرتبط ويلتزم بميزات محددة: العدل، المساواة والحق، والكفاية، وهو أمانة لدى المسؤول، وعليه أن يتعاطى معها وبها بالوفاء ملتزماً بالمبادىء المنوطة بها، وردها إلى أصحابها ـ الجماعة أي الشعب ـ فمن يرعَ الأمانة ويفِ بعهدها يُعَدُّ من المفلحين.

وترسيخاً للديمقراطية نفَّرَ الإسلام من تسلط الحاكم، وهيمنته بقوله تعالى: «ولست عليهم بمصيطر»[١٢٢]، كما تحدّى الحاكم الخارج عن النظم والقيم والأعراف الإسلامية الإنسانية كافراً وظالماً وفاسقاً[١٢٣]، وبمعنى آخر، يجوز الخروج عن طاعته ووعده بعذاب أليم[١٢٤] بينما دعا الأمة إلى التعاون والعمل مع الحاكم العادل بغية تكامل الجهود وتضافرها لتصبح الأمة «خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»[١٢٥].

AVICENNAE
CANTICA,
AB ARMEGANDO BLASII
DE MONTEPESVLANO
EX ARABICO IN LATINVM TRANSLATA,
ET AB ANDREA BELLVNENSI
CASTIGATA:
cum Auerrois Cordubensis
Commentarijs.
Inquit Aboolit Beuroist



Ostquam prius gratias egero Deo, largienti vitam perpetuam animarũ, & sanitatem corporũ, & medicanti morbos magnos per gratiam, quã contulit omni carni, ex virtutibus sanitatẽ conseruantibus et protegentibus à languore, dante intelligi artem Medicinę, et ingenium sanitatis diuinis, animosis, et intelligentibus: dedi operam ad cõmentandum librũ richimatum, qui intitulatur liber Benchine partium Medicinæ: ipse. n. vniuersaliter

□ نص مقتطف من ترجمة لاتينية لقصيدة ابن سينا «الأرجوزة في الطب».

هذه هي الحضارة العربية الإسلامية، وهي حضارة رائدة، أحدثت تحولاً في المجتمعات التي انتشرت فيها، وفرضت نفسها على أوروبا في القرون الوسطى، فتألقت في الأندلس، وعشقها ملوك صقليا حتى بعد رحيل المسلمين عنها، ونصبوا أنفسهم حماة ودعاة لها، وتمسكوا بعلمائها وتتلمذوا على أيديهم، فتركت أثرها في أوروبا كلها، وكان المسلمون بذلك معلمين تعلم الغرب على أيديهم، فوضعوا بعلمهم أساس الحضارة الغربية الحديثة التي ظهرت في حركة الأحياء[١٢٦] (Rennaissance).

ويتضح لنا من ذلك كله أن الوجود العربي الإسلامي لم يكن وجوداً عسكرياً وسياسياً وحسب إنما كان وجوداً حضارياً فعالاً وإنسانياً رحباً، أينما وجد وأينما حلّ، في السلمَ والحرب.

هذا غيض من فيض، مما يظهر لنا الإسلام وقيمه ودوره في الحضارة الإسلامية الإنسانية. ولا بدّ لنا بعد ذلك كلّه من أن نتساءل: أي إسلام ننتمي إليه نحن! والإسلام واحد في العقيدة والممارسة، وهو لكل زمان ومكان! وهذه القيم والأخلاق الحضارية الإسلامية، التي تحدّثنا عنها هي خصوصية إسلامية، وهي أيضاً تشكل منطلقاً للفضائل الإنسانية، وهي القدر المشترك للقارة العالمية، فيما لا يتنافى مع جوهر الدين الإسلامي، من حيث أنها نمط تفكير وسلوك، إذ أنَّ الإسلام خاطب الإنسانية كلَّها وقد أنزل لهديها.

والمتبصـر في الأمور والأحـوال، يـدهش لعظمة، وشمولية هذه الحضارة متسائلاً، أين نحن من هذه الحضارة اليوم. فواقعنا اليوم بعيد كل البعد من تعاليم ديننا وقيمنا. ومصيرنا مهدد أكثر من كل يوم. إذ يعيش المسلمون في ظلال ظروف لم يسبق أن واجهوا مثلها، فمن تخلف اجتماعي، إلى تدهور اقتصادي إلى شـرذمة سياسية، إلى ضياع فكري وخلقي، بل حـروب وخلافات مستعرة بين عديد من الأخوة، مقابل هجمات غريبة، شرقية وغربية شرسة، إذ أن الاستعمار الحديث الحالي في العالم اليوم ليس بالضرورة عسكرياً، إنما هو في الأسواق والبنوك والمدارس، والجامعات، والأفكار والعقائد، إنها هجمات هادئة طويلة النفس، كلها مدمرة، مخربة، إنها غزو سلمي خبيث، يستنزف كل طاقاتنا.

على أنني لا أنكر أن الأمل أخذ يتسـع أفقه في الطرف المقابل من خلال صحوة إسلامية عمّت أرجاء العالم الإسـلامي، وبعض الدول الأجنبيـة، وإن القضيـة ليسـت مسـتحـيلة أو مستعصيـة، إنما نحن بحـاجة إلى نـظرة فاحصة، موضوعية إلى واقعنا من خلال جذورنا تمهيـداً لوضـع خطة استـراتيجية تعيـد لنـا أصالتنا وقدرتنا، وموقعنا بين الأمم، فتصبـح لنا رؤية واحدة وموقف واحد تجاه مختلف القضايا امتثالاً بقوله تعالى: «إنَّ هذِهِ أمَّتُكُمْ أمةً واحدةً وأنا ربُّكُمْ فاعْبدونِ»[١٢٧]، فتتغير أنفسنا، وتتبدل أعمالنا، امتثالاً لقوله تعالى: «إنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مـا بقـومٍ حتى يُغَيِّـر مـا بـأنْفُسِهِمْ»[١٢٨]، فنستطيـع عندئذ مواجهة التحدي بالتصدّي من خـلال قيمنا وأخـلاقنا الحضـاريـة العـربيـة الإسلامية. «كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصلُها ثابتٌ وفَرْعُها في السَّمَاءِ»[١٢٩].

هذه هي عقيدتنا وحضارتنا، وهذه هي قيمنا وتراثنا، فهي جميعاً لنا ولأجيالنا من بعدنا.

* * *

الهوامش

(١) سورة المائدة: آية ٤٨.
(٢) سورة الأعراف: آية ١٥٨.
(٣) سورة الحـج: آية ٤٩.
(٤) سورة سبأ: آية ٢٨.
(٥) سورة النساء: آية ١٠٥.
(٦) سورة الحجرات: آية ١٠.
(٧) الجاحظ: كتاب فخر السودان على البيضان، ص ٧١.
(٨) الوطواط: غرر الخصائص، ص ٢٣٤.
(٩) ابن هشام، ج ٤ ص ، الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢ ص ١٦، ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٢ ص ٢٥٤.
(١٠) سورة الإسراء: آية ٧٠.
(١١) سورة البقرة: آية ٢٩.
(١٢) سورة المائدة: آية ٨٩؛ سورة النساء: آية ٣٦؛ سورة النور: آية ٣٣.
(١٣) صحيـح مسلم: ج ٧، ص ٤٦.
(١٤) المسند: ج ١ ص ١٢.
(١٥) آدم منذر: الحضارة الإسلامية، ج ١ ص ٢٣٧ ـــ ٢٤٠.
(١٦) سورة القلم: آية ٤.
(١٧) رياض الصالحين، النووي، ج ٣ ص ٥٧.
(١٨) سورة التوبة: آية ١١٩.
(١٩) سورة الأحزاب: آية ٧٠.
(٢٠) حديث رواه مسلم، ٧٠.
(٢١) سورة مريم: آية ٥٤.
(٢٢) سورة المؤمنون: آية ٨.
(٢٣) سورة النساء: آية ٥٨.
(٢٤) سورة الأحقاف: آية ١٣.
(٢٥) سورة فصّلت: آية ٣٠.
(٢٦) حديث رواه البخاري.
(٢٧) سورة النحل: الآيتان ١١٦، ١١٧.
(٢٨) سورة القلم: الآيتان ١١ ـــ ١٢.
(٢٩) سورة الحـج: آية ٣٠.
(٣٠) سورة الفرقان: آية ٧٢.
(٣١) سورة النساء: آية ١٠٧.
(٣٢) سورة الفلق: آية ٥٠ ـــ ٥٢.
(٣٣) سورة النساء: آية ٣٢.
(٣٤) سورة آل عمران: آية ١٣٤.
(٣٥) سورة الشورى: آية ٣٧.
(٣٦) سورة الأنعام: آية ١١٩.
(٣٧) سورة الحجرات: آية ٦.
(٣٨) سورة لقمان: آية ١٨.
(٣٩) سورة الزمر: آية ٦٠.
(٤٠) سورة الاسراء: آية ٣٧.

(٤١) سورة الحجر: آية ٨٨.
(٤٢) سورة المائدة: آية ٢.
(٤٣) سورة الحجرات: آية ١٠.
(٤٤) سورة النساء: آية ١١٤.
(٤٥) سورة النساء: آية ٣٥.
(٤٦) سورة الإسراء: آيتان ٢٣، ٢٤.
(٤٧) سورة آل عمران: آية ١٥٩.
(٤٨) سورة لقمان: آية ١٩.
(٤٩) سورة النساء: آية ١٥٠، ١٥١.
(٥٠) سورة البقرة: آية ١١٤؛ وسورة سبأ: آية ٢٨؛ وسورة الأعراف: آية ١٥٨.
(٥١) سورة العنكبوت: آية ٤٦؛ سورة النمل: آية ٢٥؛ سورة الممتحنة: آية ٨، وآية ٩.
(٥٢) سورة الأعراف: آية ١٥٦.
(٥٣) سورة الأنبياء: آية ١٠٧.
(٥٤) سورة فصّلت: آية ٣٤.
(٥٥) سورة الممتحنة: آية ٧.
(٥٦) سورة البقرة: آية ٢٠٨.
(٥٧) سورة الأنفال: آية ٦١.
(٥٨) سورة يونس: آية ٢٥؛ سورة الحجر: آيتان ٤٥، ٤٦
(٥٩) سورة النساء: آية ٩٤؛ سورة الأنعام: آية ٥٤؛ سورة الأعراف: آية ٤٦؛ سورة يونس: آية ١٠؛ سورة إبراهيم: آية ٢٣؛ سورة النحل: آية ٣٢؛ سورة الزمر: آية ٧٣؛ سورة إبراهيم: آية ٢٣؛ سورة مريم: آية ٦٣.
(٦٠) سورة الواقعة: آيتان ٢٥ و ٢٦.
(٦١) سورة القدر: آية ٥.
(٦٢) سورة الممتحنة: آية ٢٣.
(٦٣) سورة النحل: آية ١٢٥.
(٦٤) سورة البقرة: آية ٢٥٦.
(٦٥) سورة الكافرون: آية ٦.
(٦٦) سورة الرعد: آية ٤٠.
(٦٧) سورة الغاشية: آيتان ١٠، ٢١.
(٦٨) سورة البقرة: آية ٢١٦.
(٦٩) سورة التوبة: آية ٧.
(٧٠) سورة البقرة: آية ١٨٩.
(٧١) سورة الحجرات: آية ١٢.
(٧٢) صحيح البخاري.
(٧٣) صحيح البخاري.
(٧٤) سورة البقرة: آية ٢٥٦.
(٧٥) سورة يونس: آية ٩٩.
(٧٦) سورة هود: آية ١١٨.
(٧٧) سورة البقرة: آية ٦٢.
(٧٨) سورة المائدة: آية ٨٢.
(٧٩) سورة العنكبوت: آية ٤٦.
(٨٠) سورة النحل: آية ١٢٥.
(٨١) سورة العلق: آية ١ ــ ٥.
(٨٢) سورة القلم: آية ١.
(٨٣) سورة النحل: آية ٧٨.
(٨٤) سورة الإسراء: آية ٣٦.
(٨٥) سورة سبأ: آية ٦.
(٨٦) سورة الزمر: آية ٩.
(٨٧) سورة المجادلة: آية ١١.
(٨٨) سورة يونس: آية ١٠١.
(٨٩) سورة الروم: آية ٢٢.
(٩٠) سورة طه: آية ١١٤.
(٩١) سورة يوسف: آية ٧٦.
(٩٢) سورة فاطر: آية ٢٨.
(٩٣) رواه البخاري.
(٩٤) راجع كذلك: الطب العربي ص ٢٠١ ــ ٢٠٩.
(٩٥) سورة التوبة: آية ١٠٥.
(٩٦) سورة فصّلت: آية ٣٣.
(٩٧) سورة الكهف: آية ٨٨.
(٩٨) سورة الحج: آية ٥٠.
(٩٩) سورة الحج: آية ٥٦.
(١٠٠) سورة الكهف: آية ٣٠.
(١٠١) سورة غافر: آية ٥٧.
(١٠٢) سورة التوبة:
(١٠٣) سورة الملك: آية ١٥.
(١٠٤) سورة الجمعة: آية ١٠.
(١٠٥) سورة الأحقاف: آية ١٩.
(١٠٦) سورة الكهف: آية ٣٠.
(١٠٧) سورة فصلت: آية ٣٤.
(١٠٨) سورة البقرة: آية ٨٥.
(١٠٩) سورة الشورى: آية ٣٨.
(١١٠) سورة آل عمران: آية ١٥٩.
(١١١) سورة المائدة: آية ٤٨ (وراجع ٤٩).
(١١٢) سورة صَ: آية ٢٦.
(١١٣) سورة المائدة: آية ٤٢.
(١١٤) سورة النساء: آية ٥٨.
(١١٥) سورة المائدة: آية ٨.
(١١٦) سورة الأنعام: آية ٧٠.
(١١٧) سورة النساء: آية ١٣٥.
(١١٨) سورة الأنعام: آية ١٥٢.
(١١٩) سورة الأعراف: آية ٨٥.
(١٢٠) سورة المائدة: آية ١٠.
(١٢١) سورة النساء: آية ٥٨.
(١٢٢) سورة الغلبة: آية ٢٢.
(١٢٣) سورة المائدة: الآيات ٤٤، ٤٥، ٤٧.
(١٢٤) سورة النساء: آية ٥٩.
(١٢٥) سورة آل عمران: آية ١٠٩.
(١٢٦) مارتينو ماريو مورينو: المسلمون في صقليا، ص٢٠
(١٢٧) سورة الأنبياء: آية ٩٢.
(١٢٨) سورة الرعد: آية ١١.
(١٢٩) سورة إبراهيم: آية ٢٤.

موطنها لبنان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة
جذورها راسخة في الشرق الأوسط
وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا

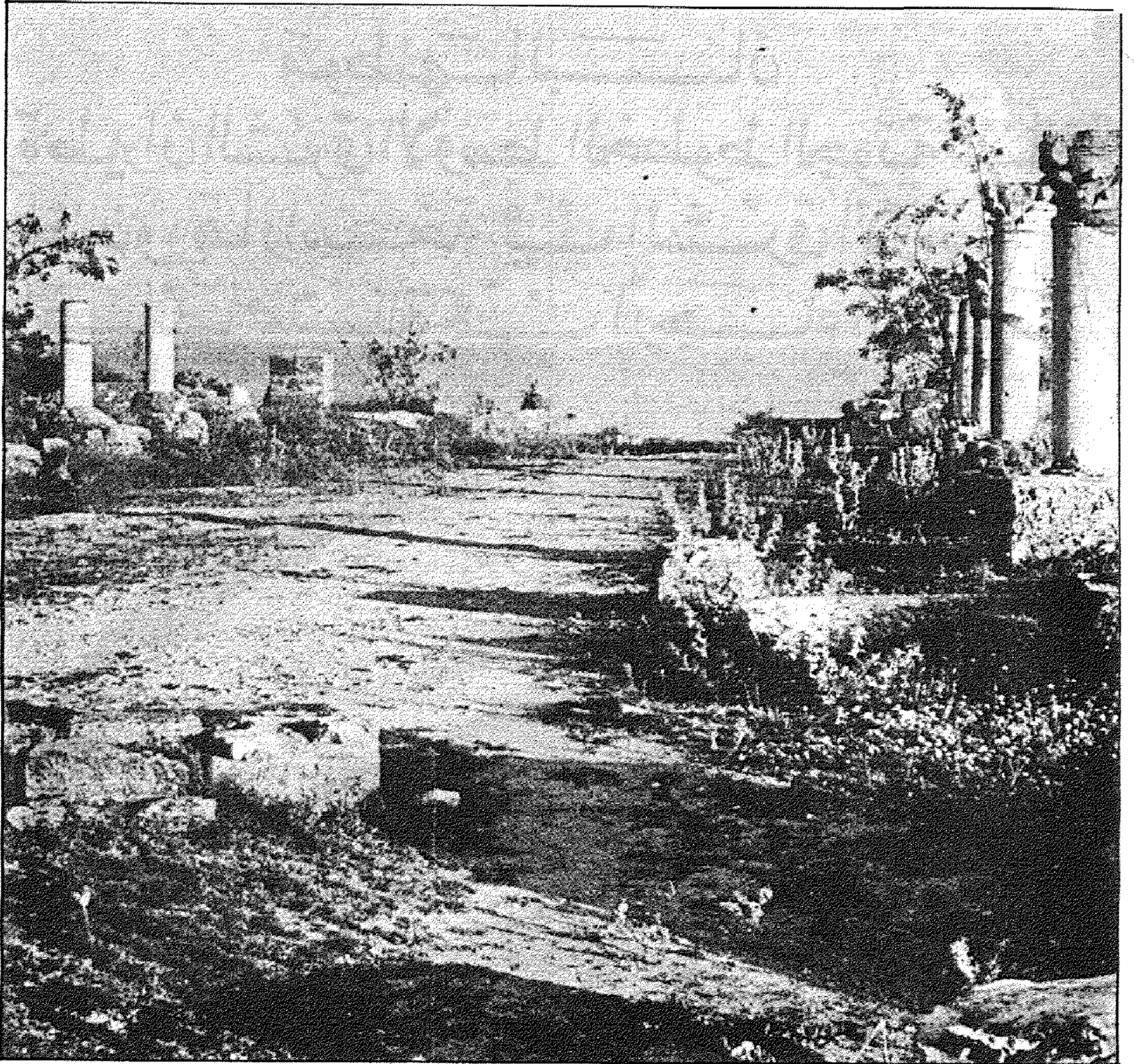


نيويورك

لندن
باريس
كوبنهاغن
فرانكفورت
بروكسل
جنيف
مدريد
زوريخ
تونس
نيس
مونروفيا
ميلانو
ابيدجان
روما
لاغوس
اثينا
كانو
اسطنبول

بيروت

القاهرة
لرنكا
انقرة
عمان
بغداد
جدة
الخرطوم
عدن
مسقط
رأس الخيمة
أبوظبي
دبي
الدوحة
البحرين
الظهران
الكويت



العالم العربي وشمال افريقية في العصر الرّوماني والبيزنطي

(من أغسطس إلى الفتح العربي)

د. نقولا زيادة

كان ثمة تغير كبير في الإدارة وتطور أكبر في الاقتصاد وفي الحياة الاجتماعية في الامبراطورية الرومانية بعد التنظيم الذي قام به الامبراطور اغسطس. فضلاً عن ذلك فقد أخذت المسيحية بالانتشار في هذه الفترة. وبلغ ذلك حداً مهماً أيام قسطنطين الذي اعتبر المسيحية واحداً من أديان الامبراطورية الرسمية.
ماذا أصاب المشرق العربي والشمال الافريقي نتيجة لذلك؟
وما هو الدور الذي قام به هذا الجزء من العالم في تطوير الامبراطورية؟
مثل هذين السؤالين أسئلة كثيرة، يحاول كاتب المقال الإجابة عنها.

من اغسطس إلى قسطنطين (٢٧ق.م. إلى ٣٣٧م.)



قبل أن ندخل في صلب الموضوع نود ان نضع أمام القارىء بضع ملحوظات تفسيرية أساسية.

أولاً: لما تولى اغسطس قيصر شؤون العالم الروماني (٢٧ق.م.) بدأ ما يسمى عصر الامبراطورية. وقد اهتم الامبراطور بتنظيم الإدارة وتركيز الحدود، بحيث تصبح للامبراطورية حدود واضحة. ولذلك فإن اغسطس لم يقم بحملات عسكرية للتوسع إلا محاولته احتلال اليمن (٢٤ق.م.) وذلك للسيطرة على الطرق التجارية العربية.

ثانياً: قسم اغسطس الولايات الرومانية إلى قسمين ـ الواحد وضع تحت إشرافه مباشرة، والثاني كان تابعاً لمجلس الشيوخ. والولايات التي كانت تحت إشرافه هي التي كان فيها اضطراب، أو كانت لها ثروة خاصة، أو التي أُحْدِثَتْ بعد ٢٣ق.م. وبالنسبة إلى العالم العربي فإن سورية ومصر وضعتا تحت إشرافه مباشرة. أما في شمال أفريقية، فجميع الولايات الرومانية، باستثناء ولاية افريقية القنصلية (قرطاجة القديمة مع توسعاتها) كانت تابعة للامبراطور مباشرة.

ثالثاً: مصر بالذات لم تكن تحت إشراف اغسطس مباشرة فحسب، بل إنها اعتبرت ملكاً خاصاً له. وقد منع جميع الرومان الذين كانوا أعضاء في مجلس الشيوخ، أو أعضاء سابقين فيه، من دخول مصر إلا بإذن خاص منه.

رابعاً: شجع اغسطس الحكومة المحلية (أي الحكومة المدينية) في بعض من المدن الكبرى وكان منها، على التخصيص، انطاكية وقرطاجة (الجديدة) وطنجة.

خامساً: كانت حاجة رومة إلى القمح كبيرة. لذلك فرض على مصر وولايات شمال افريقية، في القرن الأول من العصر الامبراطوري، أن تعنى بزراعة القمح. ومنعت ولايات شمال افريقية من الاهتمام بالكرم والزيتون.

ونحن إذا أخذنا المشرق العربي في الفترة التي نتحدث عنها وجدنا أنه في القرن الثاني من عصر الامبراطورية تمت الفتوح التالية وهي بلاد الأنباط (١٠٦م) والجزيرة الفراتية (١١٤ ـ ١١٦م) وأرمينية (١١٤ ـ ١١٧م). وهذه نذكرها بحكم جوارها للجزيرة، ولأن بعض أجزائها كانت، في الواقع، عربية.

بلاد الشام: كان بومبي قد ترك للمدن العشر في فلسطين والأردن وهي ـ بيسان (سكيثوبوليس) وفحل (بلا) وجدرو (جدارا) وقلعة الحصن (هبوس) وأيدون (ديون) وقنوات (قناثا) وجرش (جرازا) وعمان (فلادلفيا) وأربد (أبلّا) وبُصْرى. وكانت درعا ودمشق وبيت راس (كابيتولياس) تظهر أعضاء في الحلف بين حين وآخر. بومبي ترك لهذه المدن كيانها السياسي. لكن اغسطس فضل أن تمتصها الامبراطورية بشكل أو بآخر.

كذلك سمح بومبي لبعض الإمارات العربية أن تحتفظ بكيانها وهي: إمارات ابلين والايطوريين (في خلقيس أو عنجر في أواسط البقاع) وإمارة القدس. لكن اغسطس قيصر حاول التخفيف من هذه الاستقلالات الذاتية. فعلى سبيل المثال اقتطع من دولة الايطوريين جزءان في سنتي ٢٤ و ٢٠ق.م. وانشئت فيهما مستعمرات رومانية مثل بعلبك وغيرها.

وكانت رومة حريصة، منذ عهد اغسطس، على نشر المدنية الهلنستية، التي أصبح لها ثوب روماني الآن، في أنحاء الامبراطورية. ولذلك عمد هيرودس، ملك القدس، إلى ذلك، فقامت ثورة ضد خلفائه، فقُلِّصَت السلطة في عهد كليغُلا (٣٧ — ٤١م). على أن هذا لم ينه القضية، ففي الفترة الممتدة من ٤١ إلى ٧٩م تعددت الثورات، فاضطر تيطس إلى احتلال القدس ومعاقبة الثائرين من اليهود (سنة ٧٠م).

كان تراجان (٩٨ — ١١٧م) يهتم بتقوية الحدود في الشرق والاستيلاء على البلاد التي تسيطر على طرق التجارة. ومن هنا كان احتلاله للبتراء (١٠٦م) والجزيرة الفراتية (١١٤ — ١١٦م). ولعلّ أهم حدث في أيام هدريان (١١٧ — ١٣٨م) كان ثورة اليهود. الأمر الذي حمل الامبراطور الروماني على تدمير القدس القديمة وغير اسمها بحيث أصبح إيليا كابيتولينا، ومنع اليهود من سكناها، وجعلها مدينة رومانية تماماً.

والواقع أن بلاد الشام، في الفترة التي مرت بين اغسطس وأوريليوس (٢٧ق.م. — ١٨٠م) نعمت بكثير من بركات السلم الروماني، الذي تم بسبب من سياسة اغسطس أصلاً. فقد استمتعت، بوجه عام، بأمن وحكومة منظمة: وانتشرت الزراعة بحيث أن حوران والأردن أصبحت تصدر كميات من القمح الذي تنتجه. وكانت الخمور الجيدة تصدر إلى فارس والهند والغرب، كما أن زيتون دمشق وما جاورها وصل إلى رومة. وكانت الفواكه المجففة الدمشقية تصدر إلى الخارج. وأصبحت بلاد الشام تنتج العطور والزيوت العطرية. وكانت في مقدمة التي كانت تنتج العطور صيدا. كما أن صور وصيدا وبيروت وجبيل واللاذقية كانت تنسج الأقمشة وتقوم بصبغها باللون الارجواني. وكان للموانىء الشامية مهارة خاصة في صنع الزجاج.

وحري بالذكر أنه في هذا العصر الأول للامبراطورية (٢٧ق.م. — ١٨٠م) أنشئت مدن كثيرة في بلاد الشام، ولو أن بعضها كان موجوداً قبلاً ولكنه أعيد بناؤه، وكانت كلها تظهر فيها نواح فنية هامة مثل دورا (الصالحية) وانطاكية. والزخارف التي زينت بها المدن الشامية، من نقوش ونحوت وتماثيل، تدل على فن أصلي أصيل قام بتنفيذه صناع البلاد أنفسهم. ولا شك أن هذا الفن كان نتيجة تلقيح الأصالة السامية الأصلية بالفن اليوناني القادم من الخارج. إلا أنه كان منسجماً مع التفكير الشامي انسجاماً تاماً.

مصر

مر بنا أن مصر كانت لها مكانة خاصة بالنسبة إلى اغسطس. وقد سار خلفاؤه على سياسته عموماً. فحاكم مصر كان يعينه الامبراطور. وقد حافظ الرومان على معالم الإدارة السابقة من عصر البطالمة، وهي الإدارة المركزية دون السماح للمدن بأن يكون لها نظام خاص. والجدير بالذكر أن الامبراطور، بالنسبة إلى مصر، كان ملكاً (الارث البطليموسي) وفرعوناً (الارث المصري القديم) والها (وهو مزيج من العناصر المختلفة). ولم تكن لولاية رومانية أخرى مثل هذه المنزلة.

وكان حاكم مصر هو رئيس الإدارة وقائد الجيش والمشرف على شؤون القضاء وجابي الضرائب والمنظم لاقتصاد البلاد. وقد ظل هذا هو الإطار العام، مع تعديل طفيف إلى أواخر القرن الثالث للميلاد.

والمهم أن مصر في أيام اغسطس وخلفائه الأقربين، عاد إليها نشاطها التجاري السابق، الذي كان قد تعثر في البحر الأحمر بسبب اضطراب أمور دولة البطالمة. وكانت الرياح الموسمية قد عرف أمرها، فأصبح من اليسير على السفن الكبيرة أن تنتقل من مصر إلى جنوب جزيرة العرب ثم تقطع المحيط الهندي رأساً إلى الهند. وبعد أن تقضي هناك فترة معينة، تعود مع

الرياح الموسمية التالية. وكانت موانىء البحر الأحمر المصرية تتلقى شحنات المتاجر من التوابل والعطور من الهند وسيلان ولعلّ البعض كان يأتي من الصين عن طريق سيلان والهند، كما كانت تأتي الأخشاب والفيلة والعاج من شرق افريقية؛ وكانت مناطق الجزيرة العربية الجنوبية تزود التجار بحاجتهم من اللبان والبخور.

شمال افريقية

كانت المنطقة الواقعة تحت نفوذ رومة في الفترة الأولى من عصر الامبراطورية تكاد لا تتجاوز المناطق الساحلية إلا في تونس. أما في تونس فقد وصلت حدود المنطقة التي كان الرومان يسيطرون عليها إلى قابس، ثم كانت تتجه غرباً نحو شط الجريد ثم إلى قفصة فتبسَّا. أما فيما عدا تونس فقد كانت جبال أوراس وجبال الهدنا حدّ السيطرة الرومانية، ومن هناك كان الخط يتجه غرباً إلى نهر مولوية. أما إلى الغرب من ذلك فقد كان للرومان موانىء تقع بين طنجة وسلا، لكن نفوذهم لم يمتد إلى الداخل. وقد كانت هذه المنطقة مقسمة إلى أربع ولايات، دون أن يكون فيها مركز إداري رئيس. وقد كانت ولاية افريقية القنصلية أهم الولايات الأربع، التي كانت تشمل تونس وجزءاً من الجزائر ومقاطعة طرابلس. وفي هذه الولاية عني الرومان باستعمارها، أي بتوطين السكان الرومان والإيطاليين فيها. وهذه الولاية، كما مر بنا، كانت تابعة لمجلس الشيوخ إدارياً، وعاصمتها قرطاجة. أما الولايات الثلاث الأخرى، وهي — موريتانيا الطنجية موريتانيا القيصرية ونوميديا — فقد كانت تابعة لاغسطس مباشرة.

أزمة الامبراطورية

منذ أواسط القرن الثالث الميلادي أخذت أزمة حادة بخناق الامبراطورية. ففي الفترة الممتدة من ٢٣٥ إلى ٢٨٤م تولى العرش عشرون امبراطوراً. وكان أكثرهم يحمل إلى العرش على



□ **الامبراطور الروماني اغسطس.**

حراب الجيش. وألمت بالامبراطورية أزمة اقتصادية خانقة، بحيث أن النقد خفضت قيمته مرات. وخرجت جماعات كثيرة على الامبراطورية واجتازت بعضها الحدود. واعلنت تدمر استقلالها وظلت كذلك إلى أيام أورليان (٢٧٠ — ٢٧٥م). وقد جرب بعض الأباطرة إصلاح الحال، لكن لم يعط المهلة الكافية لإتمام عمله. وأخيرا تولى العرش ديوكلتيان (٢٤٨ — ٣٠٥) وقسطنطين ٣٠٦ — ٣٣٧) وكان بينهما أو معهما أباطرة لا يؤبه لهم.

والعمل الذي قام به هذان الامبراطوران هو الذي أعطى الامبراطورية الرومانية حياة جديدة، لكنهما، في الواقع، وضعا الأسس لتقسيم الامبراطورية إلى شرقية (البيزنطية) وغربية، الأمر الذي تم نهائياً سنة ٣٩٥م.

ويمكن إجمال العمل الذي قام به هذان الامبراطوران يمكن تلخيصه فيما يلي:

أولاً: الفصل بين السلطة العسكرية والسلطة الإدارية. وفي هذا جعلت الولايات، على العموم، أصغر مساحة، بحيث كانت إدارتها أسهل. فمصر، على سبيل المثال، أصبحت ثلاث ولايات. وكان الحاكم المدني لا يشرف على الشؤون العسكرية. أما القائد العام فقد أصبح، في بعض الحالات، يشرف على أكثر من ولاية واحدة.

ثانياً: قوى قسطنطين المجلس الامبراطوري، كما أنشأ ديواني الخاتم والإنشاء.

ثالثاً: سك ديوكلتيان نقداً ذهبياً وفضياً جديداً وصحيحاً. وحدد أسعار الحاجيات في جميع أنحاء الامبراطورية، وذلك لمحاربة التضخم. وقد اضطر قسطنطين إلى إذابة الآنية الذهبية الموجودة في الهياكل الوثنية.

رابعاً: قضى ديوكلتيان بأن تدفع الضرائب عيناً، وذلك بسبب قلة النقود. وفرضت الضرائب على أساس مساحة الأرضين ومقدرتها الإنتاجية.

بلاد الشام: ومع أن بلاد الشام بمجملها تأثرت بما أصاب الامبراطورية، فقد ظلت لبعض المدن السورية نظام سياسي داخلي حافظت عليه وحافظ عليها. ومن المهم أن نذكر أن ديوكلتيان اهتم بتحصين الحدود الرومانية. فأقيمت معسكرات وأبراج للرقابة وحصون في المشرق وفي شمال افريقية. وهذه كانت تعرف مجملة باسم ليمس (LIMES). ففي المشرق امتدت الليمس من نواحي العقبة إلى الجزيرة الفراتية، وكانت تجاور سيف الصحراء، مع تمركز حول النقاط التي هي منافذ تجارية مثل مدخل وادي السرحان في الأردن، والمنطقة الممتدة من دمشق إلى الرصافة. وقسمت بلاد الشام إلى ست ولايات، كانت كلها تابعة للإدارة المركزية، أي أن جميع الإمارات والممالك الصغرى التي كانت قائمة انتهى أمرها، باستثناء الغساسنة الذين كانوا قد بدأوا يظهرون في الأردن، لكنهم لم يكونوا قد أصبحوا قوة يخشى بأسها.

مصر وشمال افريقية

قسمت مصر، كما ذكرنا إلى ثلاث ولايات، وذلك منعاً لقيام ثورة كبيرة. والنوم (NOME) الذي كان أساساً لإدارة البطالمة البيروقراطية، والتي حافظ عليها الرومان، تبدلت لتصبح إدارة محلية للمدن. وكان القصد من ذلك نقل بعض الواجبات من كتف الامبراطورية إلى كتف الشعب.

أما في شمال افريقية فقد أوجد ديوكلتيان ثلاث ولايات جديدة (مبدأ تصغير الولاية لتخفيف ثقلها في حالة الثورة).

ومنذ القرن الثاني للميلاد أصبح الكرم والزيتون من الأمور التي تشجع في شمال افريقية، بعد أن كان ذلك ممنوعاً. ويبدو أن صبراتا وأويا (طرابلس) ولبتس كانت لها علاقات تجارية مع الداخل الافريقي في هذه الفترة.

وقد ظهرت في تلك الفترة مدن لا يستهان بعددها، فقد كان عدد سكان قرطاجة (مدينة قديمة) ١٠٠,٠٠٠، وكان ثمة عشر مدن تجاوز عدد سكانها العشرين ألفاً.

في الفترة المذكورة أخذت المسيحية تنتشر في المنطقتين، كما ظهرت بين الكنائس خلافات كبيرة.

من قسطنطين إلى الفتح العربي

في أيام الامبراطور ديوقلتيان (٢٨٤ ــ ٣٠٥م) قسمت الامبراطورية الرومانية إدارياً إلى قسمين، كان يتولى إدارة كل منهما أغسطسٌ يعينه قيصرٌ كان المفروض فيه أن يخلف الأغسطس عند وفاته أو اعتزاله. لكن الأغسطسين كانا يديران الامبراطورية معاً. ومع أن هذا النظام عُدِلَ عنه فيما بعد، إلا أن بذور تقسيم الامبراطورية ظلت عالقة في الأذهان إلى أن تم تقسيمها سنة ٣٩٥م. عندها أصبحت هناك امبراطورية رومانية شرقية، هي التي عرفت باسم الامبراطورية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية (بيزنطية)، وامبراطورية رومانية غربية، وهذه ظلت رومة عاصمة لها. ويمكن القول إجمالاً بأن الدولة البيزنطية كانت يونانية النزعة، فيما كانت الغربية لاتينية اللغة والثقافة.

وكانت الدولة الساسانية (قامت سنة ٢٢٦م)،

المجاورة للدولة البيزنطية، وعاصمتها تسيفون (المدائن). وكانت الحروب بين الجارتين سجالاً، خاصة في القرنين الخامس والسادس ومطلع السابع. وبسبب أن بلاد الشام، التي كانت تابعة للدولة البيزنطية، تقع على خط النار، فقد أصابها أذى كبير من جراء هذه الحروب. ويمكن القول إجمالاً بأن الباعث الاقتصادي كان السبب الرئيسي في هذه الحروب. وميدان التنافس الاقتصادي لم يقتصر على بلاد الشام ومصر، بل امتد إلى اليمن (راجع البحث عن الجزيرة العربية قبل الإسلام) في سبيل السيطرة على الطريق التجاري في المحيط الهندي.

وجدير بالذكر أن المسيحية ظهرت في الأيام الأولى للامبراطورية الرومانية، وأخذت بالانتشار تدريجاً خلال القرنين الأول والثاني للميلاد. ففي القرن الأول وجدت المسيحية طريقها، خارج القدس، إلى أواسط الأردن (منطقة بلا ــ فحل) ودمشق وإنطاكية وقبرص وحتى رومة. وكانت إنطاكية وصور من المراكز المسيحية الكبرى. وفي القرن الثاني أصبحت الكنيسة المسيحية قوية الجذور في آسية الصغرى والمناطق اليونانية ومصر وحتى في شمال افريقية. وقد كان انتشار المسيحية في المدن على الغالب، إذ سارت مع طرق التجارة. أما في شمال افريقية فقد كان انتشارها في الريف في غالب الأحيان. ومنذ أواخر القرن الثاني بشكل خاص أخذ المسيحيون يتعرضون إلى اضطهاد رسمي على أيدي الأباطرة وفي أماكن كثيرة من الامبراطورية. لكن القرن الثالث الميلادي هو الذي شهد الاضطهاد الحقيقي العنيف. وفي سنة ٣١٢ اعتنق قسطنطين المسيحية، واعتبرها أحد الأديان الرسمية للامبراطورية. ومع ذلك فقد كان ثمة اضطهاد حتى بعد ذلك.

أما الدولة البيزنطية، منذ القرن الرابع، فقد كانت رسمياً دولة مسيحية. وفي القرن الخامس اتخذت الدولة شكلاً ثيوقراطياً بحيث أصبح الامبراطور البيزنطي رأس الكنيسة، كما كان رئيس الدولة. وكان معنى هذا أن الكنائس أو المذاهب المختلفة التي لم تقبل بالمذهب الرسمي تعتبر نظرتها هرطقة، وتلقى اضطهاداً على أيدي الدولة. وهذا كان موقف الدولة من



□ آثار رومانية مصنوعة من الفخار في شمال افريقيا.

النساطرة واليعاقبة (في المشرق) والدوناتيين (في شمال افريقية) والاريوسيين فيما بعد.

بالنسبة للدولة البيزنطية كانت بلاد الشام ومصر جزءاً أصلياً من الدولة، إذ كانت هذه تابعة أصلاً للامبراطورية الرومانية الشرقية. أما شمال افريقية فقد ضمتها الامبراطورية البيزنطية سنة ٥٣٣، أي بعد أن كان الفندال قد استقروا فيها مئة عام، وبعد أن سقطت الامبراطورية الرومانية الغربية في سنة ٤٧٦م.

الحروب الساسانية البيزنطية

منذ حول سنة ٥٠٠ اشتدت الخصومات بين الساسانيين والبيزنطيين وكانت بلاد الشام تتحمل العبء الكبير من جراء الحروب الكثيرة والطويلة. وقد وصل الساسانيون إلى مصر حوالي سنة ٥٠٠، كما هاجم الساسانيون بلاد الشام سنة ٥٢٩. وإذ كان الغساسنة العرب المسيحيون الذين كانوا قد نزلوا الأردن والجولان منذ القرن الرابع والخامس حلفاء للبيزنطيين، وكان اللخميون أو المناذرة (عرب الحيرة) حلفاء

الساسانيين، فقد كانت الحروب تقع بين الفريقين أيضاً. وفي السنة المذكورة (٥٢٩) هاجم المنذر الحيري سورية واحتل إنطاكية ونهب مدناً كثيرة.

ومن أعنف الحملات التي عرفتها بلاد الشام حملة كسرى أنو شروان (سنة ٥٤٠) التي كان من آثارها تدمير حلب واحتلال إنطاكية والقضاء على أكثر سكانها. ومثل ذلك أصاب افامية وخلقيس (عنجر) واديسا (الرها). وبهذه المناسبة فقد أصاب الساحل اللبناني زلزال بعد ذلك بمدة قصيرة بحيث تهدمت أكثر المدن الساحلية بين طرابلس وصيدا.

وفي أيام كسرى ابرويز (خسرو برويز) وهرقل البيزنطي كانت الحروب الكبرى التي أضرت ببلاد الشام ومصر كثيراً. ففي سنة ٦١٥ هاجم كسرى البيزنطيين في بلاد الشام واستولى على مدنها، مثل دمشق والقدس (التي دخلها بمساعدة اليهود)، حيث قتل خلقاً كبيراً ودمر المدينة بأن أشعل النار فيها بعد نهب استمر ثلاثة أسابيع (أيار/مايو ٦١٥). وفي السنة التالية احتل الساسانيون مصر، فخربوا المدن والكنائس والأديرة في طريقهم، واحتلوا الاسكندرية (سنة ٦١٨). إلا أن هرقل البيزنطي (٦١٠ ــ ٦٤١) استطاع استرداد مصر وبلاد الشام من الساسانيين سنة ٦٢٩. وعين قيرس (المعروف باسم المقوقس عند العرب) حاكماً على مصر (٦٣١ ــ ٦٤١) فأنزل بالأقباط (اليعاقبة) اضطهاداً وظلماً عظيمين. على أن هرقل لم يكد يفرح بانتصاره على الساسانيين حتى بلغته أخبار معركة اليرموك (٦٣٦) التي خسر على أثرها بلاد الشام ثم مصر. أما الساسانيون فكانت الواقعة الرئيسة بالنسبة إليهم القادسية. وبعدها استمرت المعارك مع العرب حتى قضى هؤلاء على الدولة الساسانية نهائياً (٦٤١).

أشرنا في مقدمة هذا الفصل إلى اليعاقبة. ونود هنا أن نذكر أن هذه الفرقة المسيحية كانت تقول بالطبيعة الواحدة بالنسبة للسيد المسيح. وهو قول مخالف للنظرة البيزنطية الرسمية. وقد انتشرت هذه الكنيسة في بلاد الشام ومصر، كما أنها عُرفت في الجزيرة (الفراتية) وآسية الصغرى. وحري بالذكر أن الخلاف بين المسيحيين في بلاد الشام ومصر من جهة والدولة (أو الكنيسة) البيزنطية من جهة كان مظهره دينياً، لكنه كان في حقيقته موقفاً وطنياً ضد الدولة البيزنطية. ومن هنا كان تشدد اليعاقبة في موقفهم، وتشدد البيزنطيين في عقوباتهم. فثورة مصر في زمن الامبراطور فوكاس، التي قامت سنة ٦٠٩ ــ ٦١٠ كانت نضالاً سياسياً من جهة، وكانت نضالياً ثقافياً كما يبدو في إحياء اللغة القبطية ومقاطعة اللغة اليونانية.

الفندال في شمال افريقية

منذ أواخر القرن الرابع أخذت قبائل جرمانية تهاجم تخوم الامبراطورية الرومانية، واشتد هجومها في القرن الخامس. وكان الفندال قد اقتطعوا لأنفسهم جزءاً من إسبانية أقاموا فيه دولة. إلا أن ضغط القوطيين الغربيين عليهم، اضطرهم إلى الخروج من إسبانية إلى شمال افريقية، أملاً في أن يجدوا هناك الأمن والثراء. وقد كان انتقالهم بقيادة ملكهم غَيْسَرِك وذلك سنة ٤٢٩م. وقد كان عدد جماعته نحو ٨٠٫٠٠٠، واتجه رأساً إلى ولايتي افريقية القنصلية وبيزاسينية، وهما تشملان البلاد التي تنتج القمح، وحاصر مدينة هِبّو، ثم انتصر ثانية على الرومان وبذلك أصبح سيد افريقية الرومانية. وبعد عشر سنوات من استقرار الفندال في افريقية احتلوا قرطاجة. وقد عقد غيسرك معاهدة مع الرومان (٤٤٢) تنازل هؤلاء فيها له عن الولايتين المذكورتين آنفاً وعن نوميديا الشرقية. ثم وسع الملك الفندالي أملاكه بحيث شملت الساحل الطرابلسي. وقد كان للفندال حملات عسكرية، برية وبحرية، إلى إسبانية وروما، وقد نهب المدينة لمدة أسبوعين (٤٥٥).

كان الفندال اريوسيين، وقد حاولوا نشر تعاليمهم بين سكان مملكتهم، وكان الحكم ملكياً مطلقاً، ومن ثم فقد كانت الخصومة السياسية والدينية قائمة في البلاد. يضاف إلى ذلك قيام اتحادات بين البربر كانت تهاجم مملكة الفندال. ومع ذلك فقد كان ثمة نشاط اقتصادي بسبب الاستقرار النسبي الذي عرفته المنطقة في أيامهم. فقد نشطت التجارة، واستمر الناس في ممارسة صناعاتهم وكانت الغلات الزراعية تكفي السكان حاجتهم.

وقد قضى البيزنطيون على الفندال لما أرسل الامبراطور جستنيان (٥٢٧ ــ ٥٦٥) قائده بليساريوس إلى شمال افريقية، فاحتل البلاد (٥٣٣). وقد ضمت سردينيا وقورسقا إلى شمال افريقية تحت إمرة حاكم واحد، ولكنها قسمت إلى سبع ولايات. ويبدو أن الفندال لم يعد لهم وجود بعد سنة ٥٣٦، إذ أنهم امتزجوا بالسكان الأفارقة. وكان البربر يناوئون البيزنطيين. على أن أثر البيزنطيين في شمال افريقية بدأ بشكل خاص في إعادة الكنيسة الرسمية والقضاء على البدع.

العمران في بلاد الشام

مع ما كانت تتعرض له بلاد الشام من حروب، فقد ظل للبلاد وسكانها نشاطهم. فالتجارة والصناعة والفن والبناء نمت وازدهرت في القرون الثلاثة بين قسطنطين وهرقل. ومن المهم أن نتذكر أن الفن كانت له شخصية خاصة مستقلة. لقد كان مزيجاً من التجربة السامية واليونانية والرومانية، لكن عمل الفنان الوطني كان واضحاً في تنويع ضروب البناء والزخرف وتشكيل فنونه والفسيفساء. ففيما كانت الكنائس مثلاً باسيليكية الطراز يونانية الأعمدة فإن القبة التي كانت ترتكز عليها شرقية الأصل. والزخرف يشمل أوراق الشجر والزهور وعناقيد الكرم والأثمار والحيوانات البرية، سواء في ذلك الزخرف العادي أو الفسيفساء التي يمكن مشاهدة نماذج جميلة منها في الأردن. ولنذكر على سبيل المثال الكنائس، وهي أجمل ما بني في بلاد الشام في العصر البيزنطي. فهناك معبد مار سمعان العامودي (على مقربة من حلب) وقلب لوزة وكنيسة دورا أوروبوس (الصالحية) وكنيسة القبر المقدس في القدس وكنيسة المهد في بيت لحم وكنيسة القديس ثيودور في جرش. وكان التجار من دمشق وبيروت وإنطاكية وغيرها من المدن ينتقلون إلى رومة وبلاد الغال غرباً، وإلى الموانىء الواقعة على البحر الأحمر والمحيط الهندي شرقاً.

وكانت مدرسة بيروت الفقهية مركزاً كبيراً لدراسة القانون الروماني. وقد استعان جستنيان بثلاثة من أساتذة مدرسة بيروت لوضع مدونته



□ تاج من الحجر من العصر البيزنطي عليه زخارف وعناقيد العنب وبقايا الوان مختلفة

وهم أودكسيوس وأناطوليوس ودوروثاوس.

وكانت مصر تتمركز حياتها الفكرية والعمرانية في الاسكندرية. كما كانت فيها الصناعات الرئيسية وهي البردي والزجاج والمنسوجات وبناء السفن. وكانت بعض السفن التي تصنع هناك كبيرة بحيث تحمل عشرين ألف مُدٍّ من القمح، والسفينة الحربية قد تحمل نحو ألف رجل.

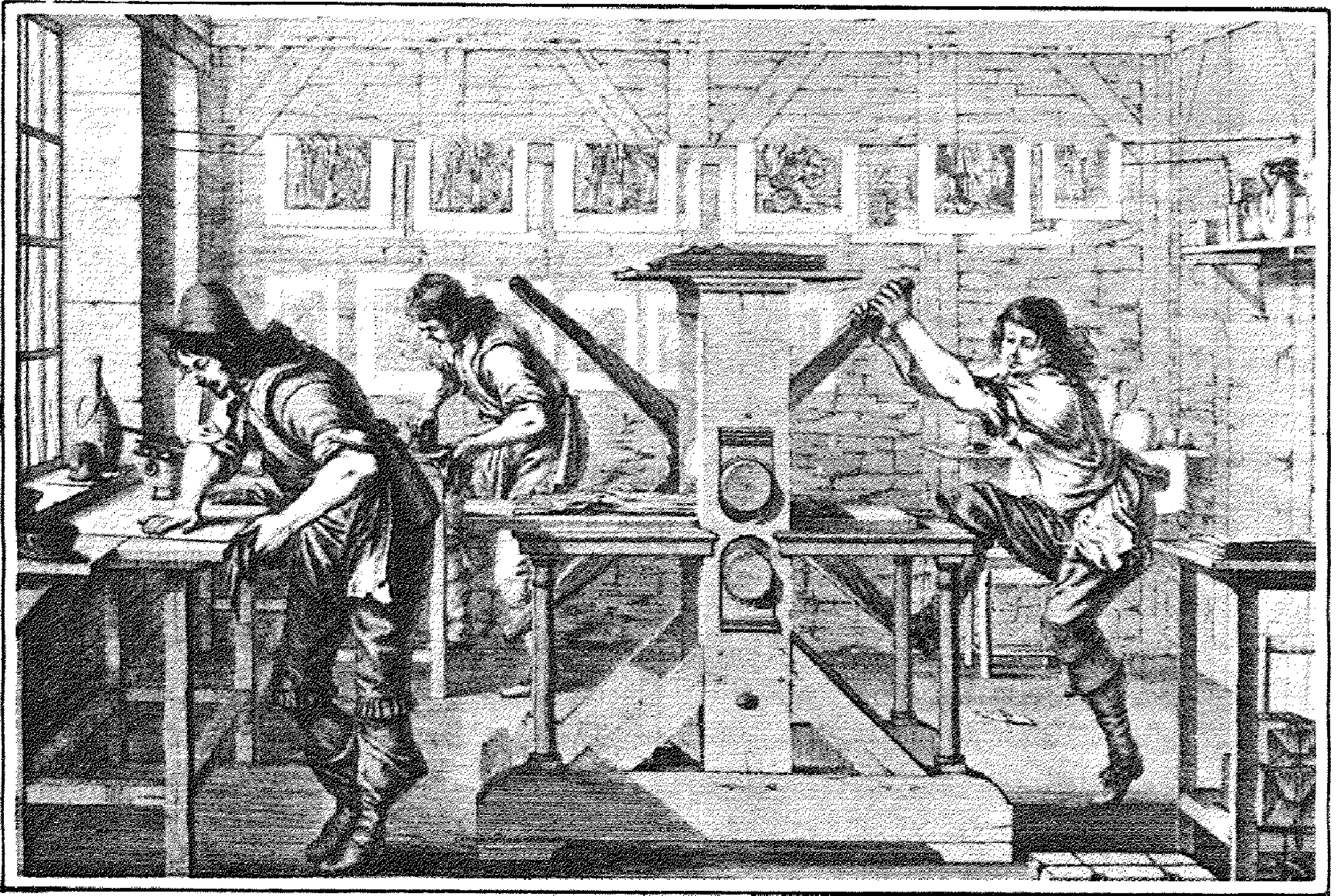
وعرفت الاسكندرية فنوناً خاصة بها مثل التصوير والنحت بالعاج وصنع الحلي. كما كانت كنائسها جميلة. لكن كنيسة ماري جرجس والقديس ميناس في مصر (القديمة) هما أجمل ما بني في تلك الأزمنة.

ومع أن المتحف (الذي أقيم في عهد البطالمة) كان قد تهدم، وكانت مكتبة الاسكندرية قد أحرقت مراراً، فقد ظلت الاسكندرية مركزاً هاماً للحياة الفكرية التي تركزت في السيرابيوم.

والواقع أن الاسكندرية وغزة وبيروت وإنطاكية وأديسا كانت مراكز علمية وفكرية كبيرة. وبسبب من اهتمامها كلها بالجدل والمحاجة، فقد لجأت إلى الفلسفة اليونانية لتستعين بمنطقها وأساليبها. ولما كانت الكنائس المختلفة التي ذكرنا تستعمل لغات محلية (غير اليونانية) القبطية والسريانية وما إليهما، فقد نقلت العلوم والفلسفة اليونانية إلى تلك اللغات. ومنها انتقلت فيما بعد إلى العرب.

كيفيّة إنتاج الكتاب قبل القرن التاسع عشر

د. يوسف فرج عاد



حتى مطلع القرن الثامن عشر لم يكن الكتاب المطبوع في لبنان قد بدأ ينتشر لأن مطبعة دير مار قزحيا التي أنشئت في شمال لبنان لم تلبث أن توقفت بعدما طبعت كتاب المزامير حين «أحضر بعض الرهبان المارونيين معهم إحدى المطابع من روما عام ١٦١٠ إلى دير مار قزحيا، وفي العام نفسه طبعوا المزامير بالسريانية»(1) وخلا ذلك الكتاب، لم تكن الكتب لتوجد إلا بالشكل المعروف الشائع أي المخطوط، ويقال ان الكتاب المطبوع باللغة العربية أول ما ظهر في أوروبا في بلدة «فانو» بإيطاليا في الثاني عشر من أيلول سنة ١٥١٤ لما طبع «كتاب صلاة السواعي»(2).

وبما أن الطباعة بالحرف العربي لم تعرف إلا في أوائل القرن السادس عشر، كان لا بد للكتاب المخطوط من أن يسدّ فراغاً عند المشتغلين بالأدب، فكان والحالة هذه لزاماً على بعضهم أن يهتموا بنسخ الكتب، بخاصة إذا أرادوا أن يتابعوا التحصيل العلمي، فكانوا ينسخون الكتب أو الفصول منها، إلا أن ذلك لم يكن منتشراً إلاّ في بعض البيوت ولدى بعض العائلات وهذا ما نستنتجه من كتاب «تاريخ بيروت» لصالح بن يحيى(3).

الكتاب المخطوط



لا تخبرنا كتب التاريخ عن انتشار الكتب المطبوعة لأن مطبعة مار قزحيا توقفت سنة ١٦١٠ لسبب مجهول[٤]، ولم تعد الطباعة لتظهر إلاّ في سنة ١٧٣٣، لمّا بدأت مطبعة ما يوحنا الصابغ عملها[٥]. فكان لا بد في خلال هذه الفترات التي عدمت الطباعة أن ينتشر النسخ وأن يهتم به بعض العائلات والأديار.

طريقة إخراج الكتاب المخطوط

اهتم الناس بالخط في العصور كلها، لأنه كان الوسيلة الوحيدة للتعامل الاقتصادي والاجتماعي ولنشر العلم والمعارف. وفي لبنان الحديث اهتمت أسرة بحتر بالخط اعتقاداً منها أنه مدخل للعلوم ومعارف ذلك الزمان وكل زمان. ويذكر صالح بن يحيى في كتابه «تاريخ بيروت» تفصيلات تدعو إلى الاستغراب لمن يقرأها، ألا هي اهتمامهم الزائد بالخط، وطريقة تجويده.

فهذا شرف الدين يعقوب بن عبد الحق كتب لمخدومه ناصر الدين «مرآة الزمان» و «الذيل عليها»، وكتب له أيضاً عدة كتب، فبلغ ما كتبه له نيفاً وثلاثين مجلداً كبيراً ضخم الحجم[٦]. وكان الأمير ناصر الدين المذكور «مقصداً للوارد والصادر، ذا مكارم ورياسة وسياسة، شاد البيت وساده، رغب في حسن الكتابة والبلاغة، وجمع الكتب، كان كولده حسب ما وجد بخطه بموافقة خطوط السلف»[٧]. وكذلك الشيخ بهاء الدين محمود خطيب بعلبك، كان يكتب في الخط المنسوب درجاً يحتوي على الأقلام السبعة، كتبه على ورق حرير، وجعله هدية. ومحمد بن علي محمد القزي كان له كتابة منسوبة[٨] وشرف الدين سليمان بن سعد الدين خضر دأبه الكتابة، كتب على الشيخ بهاء الدين محمود، واشتهر بكتابة المنسوب الفائق، وكانت كتابة شرف الدين جميلة وأحسنها الرقاع، ثم الثلث[٩]. وسيف الدين غلّاب بن علم الدين سليمان، كان يحسن الخط النسخي إلى الغاية، أما الثلث والرقاع فقارب بهما المنسوب، وكان يتبع طريقة ابن البواب، ولم يكتب أحد، من آل بيته أحسن منه سوى أخيه عز الدين جواد، ولم يعرف على من تعلّم من المشايخ، لأنه لم يكن يتردد إلى خطيب بعلبك كتردد أخيه عز الدين جواد. ومفرج بن تقي الدين نجا كان قديراً بالخط، والدليل على ذلك، أنه وجدت بين أوراق قديمة عقد بيع باسم نجم الدين محمد بن حجى بن كرامة وهو بخط مفرج هذا، ويدل على ذكاء كاتبه. وجرت العادة أن يعتبر من يكتب رجلاً فاضلاً بليغاً[١٠].

المهارة بالخط وطرق التفنن في كتابته

لم يسعد أحد كالأمير عز الدين جواد علم الدين في جمعه للصنائع وكتابته المنسوبة، فقد رأينا من ذلك أشياء حسنة متقنة تدل على فضله، فقد كتب على الشيخ بهاء الدين محمود خطيب بعلبك، واتبع طريقته، وطارده في قلم الطومار، حتى أنه لا يكاد يعرف خطه من خط شيخه، وله اختراعات لم يسبقه إليها غيره منها أنه كتب آية الكرسي على حبّة أرز، والكتابة واضحة، ولم ينعجم منها شيء، وأخبر غير واحد ممن اتصل بجواد: أن جندياً تحدث في دمشق في مجلس حفل بالأكابر عن جواد، أنه كان يكتب آية الكرسي على حبة أرز فلم يصدقوه، فركب من دمشق في أوان مطر وثلج إلى رمطون في طلب حبة أرز كتب عليها آية الكرسي، ولما لم يجد عز الدين جواد في رمطون توجّه إلى عنده في أدميث ولما لم يجد عنده هناك آلة للكتابة عاد إلى رمطون فأحضرها وأحضر أرزاً من الحولة صالحاً للكتابة، فكتب الأمير عز الدين جواد، آية الكرسي على عدة حبوب، ومن اختراعاته، كتابته مصحفاً صغيراً لطيف القد لم يسبقه إليه أحد[١١].

تدريس الخط

يشير صالح بن يحيى إلى أن الشيخ بهاء الدين محمود افتتح مدرسة في الخط بأنواعه، وباختصاصاته، وتفرعاته، فهو يرى أن خطاطين كثيرين تخرجوا من مدرسة الشيخ، ذكر أغلبهم مؤلف «تاريخ بيروت» فأفاض،

وغطّى حقبة تاريخية تمتد بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر للميلاد، لكن الكتابة افتقدت دقة التعبير، والتبس المعنى في بعض الأحيان، إلا أن سلامة كتابه من التلف غاية في الأهمية في تلك الحقبة لما كان يسودها من فساد في الحكم. وبالرغم مما ورد فقد كان الشيخ بهاء الدين محمود خطيب بعلبك يدرس الخط، فيقصده الطلاب ليدرسوه عليه وليتقنوا أنواعه، فمهروا به، وفاخروا على أقرانهم، وما كتابة آية الكرسي على حبة أرز سوى دليل على الاهتمام الشديد، والتفنن والتفوق وحب الخط، وما مناقشات العلماء حول أصول كتابة الخط، والتفنن به، وذكره في المجالس سوى هذا الاهتمام الزائد، ولولا ذلك ما ذهب جندي من بلد إلى آخر وفي أيام ثلج وبرد، لجلب حبة أرز لكتابة آية الكرسي عليها.

النساخة مدخل للأدب

ذكر المرادي في كتابه «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر الهجري» العديد من الأدباء الذين اهتموا بالخط لأنه كان كالعلم نظراً لأهميته في نقل المعارف، فهو الوسيلة الوحيدة لنشر الفكر والأدب في تلك الأيام. فعبد الله الطرابلسي «كان أديباً، شاعراً، له سرعة تحرير في الكتابة مع خط باهر، بحيث كان عديم المثيل في سرعته وبداهته»[١٢]. وراح بعض النساخ والمتأدبين يعيشون من النساخة فكانوا يتقاضون المال على نسخ الكتب، وكلما جمل الخط ارتفع المردود الحاصل، فعبد اللطيف الزوائدي قاضي طرابلس «كان فقيراً، فصار ينسخ بالأجرة، ويأخذ على الكرّاس الربعي قرشاً واحداً لجودة خطه واتساق سطوره فانتعش حاله»[١٣].

إن ما كتب عن الخط حتى القرن الثامن عشر الميلادي يؤكد أنه كان جزءاً من المعارف، لذلك أقبل المتأدبون على تعلّمه وتجويده والتأنق بتصوير حروفه عند النقل، فتفرعت عنه الأنواع المختلفة، المتعددة، المعروفة عبر العصور، في المناطق المختلفة.

استنساخ الكتب

ولا يخفى أن الكتابة هي دعامة الحضارات القديمة والحديثة على اختلاف عصورها وشعوبها وبلدانها، فهي التي حفظت علوم القرون السابقة، ومهّدت للمتأخرين سبل التبسط في ما اتّصل بهم من معارف الأولين؛ وما كاد الإنسان يتعلم فن الكتابة حتى أولع بتدوين أعماله وآثاره، فتولّدت فكرة صيانتها، وأثبت البحث في أخربة نينوى وبابل وتل العمارنة أن الميل إلى جمع الوثائق والصكوك وأساطير الأقدمين ليس حديثاً ويرتقي إلى أبعد أزمنة التاريخ[١٤].

١ ـ **في الأديار**: بلغت بهمة بعض المرسلين[١٥] علوم الغربيين وآدابهم إلى أقطارنا الشرقية، وكانوا يحثّون طلاب المدارس ومعلميها أن يؤلفوا في العربية، وأن «يعينوا في كل دير نساخاً مجيدين حاذقين في صناعة الخط والكتابة، ويعمموا نسخ الكتب البيعية من كل موضوع وينسخوهم إياها، ويودعوها مكتبة الدير تعميماً للفائدة». لقد حافظ النساخ على المؤلفات، وإن كان قسم منها ما يزال مطموراً في زوايا الأديرة، أو في خزائن بعض الكتب الخاصة[١٦]، ومما يؤسف له أن كثيراً من المخطوطات القديمة كانت في أديرة لبنان، نقلها الغربيون إلى بلادهم فأغنوا بها مكتباتهم، ولعلهم بفعلهم هذا نفعوا أكثر مما أضرّوا، لأنهم أنقذوا من التلف تلك الكنوز، ونجّوها من الحروب والحريق وقلة الاكتراث[١٧]، وممن تلافى هذه الأخطار الأحبار الرومانيون الذين أرسلوا غير مرة وكلاءهم ليبتاعوا من مصر، والشام (ولبنان) المخطوطات القديمة النصرانية والإسلامية، فجمعوا منها في مكتبة الفاتيكان عدداً وافراً جعلوه في خدمة العلماء الآتين إلى رومية، وكذا يقال عن خزائن الكتب الشرقية التي تفتخر بها عواصم أوروبا كباريس ولندن ومدريد وبرلين وليدن، ويفضلها الأجانب على الجواهر والكنوز[١٨]. لقد جمعوا من المخطوطات الشرقية الثمينة ما يعد بالآلاف، ونقلوها إلى مكاتب أوروبا فحفظوها من الضياع، ثم قاموا بترجمة أكثرها، ووضعوا لها فهارس علمية دلّت على غزارة علمهم ومعارفهم ودقّة

نظرهم، وما زالت إلى الآن مرجع المشتغلين بالعلوم والتواريخ الشرقية[١٩].

وكان بطريرك الموارنة يوصي الكهنة العائدين إلى بلادهم من المدرسة المارونية بروما أن يرجعوا إليه فوراً، وكان يكلّفهم العمل في التعليم، وكانوا يهتمون بالتأليف باللغة العربية. وجمع الرهبان كثيراً من الكتب العربية من مطبوعة ومخطوطة[٢٠] ومثالنا على ما نقول هو أبو عون صوباط الذي منح القس سمعان والقس افرام قطعة أرض مشيراً عليهما أن يبنيا فيها محلاً يتعلم به أولاد عرمون، وما جاور دير الحلقة من القرى، القراءة والكتابة[٢١].

وتنبئنا رسالة زاخر للأب فروماج اليسوعي بأن زاخراً جعل حوله حلقة نسّاخ يشتغلون في حلب وفي دير الشرفة، واستفاد من هذه الصنعة مادياً وأدبياً، فإليها ترجع معرفته لنصوص الآباء القديسين[٢٢].

ويقول عبد الله زاخر «والتفسير الذيكتبته أولاً نقلاً عن الحرف الفرنساوي إلى العربي... لأن الأب المذكور لم يكن يعرف حرفاً واحداً بالعربية، تكلّفت على هذا النقل، أكثر من خمسين غرشاً أجرة الذين كانوا يكتبون لي، ثم في تعريبه وترتيبه»[٢٣].

كتب زاخر بخطه، وهذا واضح من النص التالي «وكتبت لك منه نسخة بخطي» وكتبت لكم في (مختصر التفنيد)، وأرسلته لديكم في الشام مجاناً»[٢٤].

يبدو أنه في كل دير أو كنيسة، وفي مدرسة «تحت السنديانة» كانت تقام حلقات لتدريس القراءة والكتابة والخط، وهكذا بهذه الطريقة حفظت مؤلفات السلف من الضياع، ونبغ عدد كبير من الذين خدموا العلم والأدب خدمات جلّى، بما جمعوه من مخطوطات شرقية، وبما نسخوه وألّفوه من كتب.

النسخ وسيلة لتحصيل المعارف

ولا نستغربن اهتمام المتأدبين بالخط والنسخ، فالشيخ محمد حسن سليمان، كتب بخطه «مجمع البيان» و «كتاب إكمال الدين» و «تمام النعمة»[٢٥]. وجرجس نوفل: «دخل في خدمة الحكومة صغيراً، فكتب لثلاثة من حكام طرابلس، ونسخ كتباً بخطه بينها كتاب وجد في دير القديس ديمتريوس بجوار بلدة كوسبا[٢٦] أما إبراهيم العورا فقد تعاطى التجارة وكان لا يقع بيده كتاب إلا نسخه بخطه حتى أربى عدد المخطوطات التي كتبها على المائتين[٢٧]. والشيخ محمد الحسن سليمان «كتب بخطه كتاب أمل الأمل»[٢٨]. وأحمد علي المنيني يوجد كتاب في المتحف العراقي بخطه»[٢٩]. لقد اهتم الأدباء بالنسخ لأنه وسيلة من وسائل المعرفة، وحفظ النص، وليس بالأمر المبدع أن يشيع ولمّا تبرز الطباعة بعد، فلقد نسخ علماء العصر وأدباؤه كتباً كثيرة بخطوطهم، بل لقد استحال النسخ مورد رزق[٣٠].

وفي القرن الثامن عشر أنشئت في لبنان الرهبانيات الجديدة في الطائفتين الكاثوليكيتين: المارونية والروم الملكية، فكان إنشاؤهما مساعداً على نهضة لبنان الأدبية إذ جعلت تلك الرهبانيات في قوانينها، العناية بالأحداث وتهذيب الناشئة مع وجود معظم أديرتها في أنحاء لبنان[٣١]، فالاهتمام بالناشئة من الطرق الكفيلة بنشر الثقافة، والارتقاء بالمجتمعات.

٢ — **في جبل عامل**: حمل الشغف بالأدب فريقاً من أبناء الشيعة في جبل عامل على إنشاء خزائن حفلت بمخطوطات عربية كثيرة العدد متشعّبة المواضيع، غير أن أكثرها ذهب ضحية الجهل والنهب والحريق بعدما اجتاحها الجزار، وعاث فيها عام ١٧٩٤م/ ١٢٠٩هـ. وأفضت الغباوة به إلى أن ينهب المخطوطات، ويحتفظ بقسم منها في خزانة الجامع المعروف باسمه في عكا. وروى بعضهم أنه وزع قسماً آخر من تلك المخطوطات على أفران عكا، فظلّت النيران تلتهمها مدة ثلاثة أيام بلا انقطاع[٣٢] ومنهم من قال إنه «كان لأفران عكا من كتب جبل عامل ما أشعلها بالوقود أسبوعاً كاملاً[٣٣]، وبعد تلك النكبة لم يبق من ذخائر المخطوطات في جبل عامل إلا ما سلم من مكتبة آل خاتون التي جمعت خمسة آلاف مجلد[٣٤].

وبعد أن أحرق الجزار المخطوطات والمؤلفات في عكا، شكاه علماء البلاد إلى الآستانة، لكن



□ «بسم الله الرحمن الرحيم» في شكل طائر الصقر.

حكومة الباب العالي أرسلت إليه الشكوى فانتقم من موقعيها[٣٥].

لقد بلغ ظلم الجزار مبلغاً عظيماً في الضغط على العلماء حيث تعقّبهم قتلاً وسجناً وتعذيباً ومصادرة، وتشتت من بقي منهم في أقطار الأرض، واستصفى آثارهم العلمية، وما ظنك ببلاد حرص أهلها على طلب العلم حرصاً شديداً، ولم ينقطع عنها مدده، وجاب علماؤها البلاد النائية في طلبه، واقتناء كتبه حتى جمعت لديهم تلك الذخائر في قرون وأجيال كانت بعد ذلك طعماً للنار في مصادرات الجزار[٣٦].

إن ما جلبه أحمد باشا الجزار على جبل عامل بخيله ورجاله، ومصادرته علماءه، وتشريدهم، وما سلب من كتبهم، وما جعله طعماً للنار، وما ذهب منها في التراب يوضح كيف انتزع منهم العلم[٣٧].

لقد اضطر بعض المؤلفين إلى إخفاء كتبهم وأوراقهم في زوايا البيوت وفي الصناديق، وربما وقعت تلك الأوراق أثناء المداهمات والحروب والفتن في يد من لا يعرف لها قيمة، فيمزّقها، أو يحرقها كما جرى في عهد الجزار، فضاعت الحقائق، وكثر الالتباس، وطمس الكثير من الحوادث، وغمضت أخبارها، وندرت المؤلفات التاريخية القيمة في جبل عامل في عهد الترك الذين جنوا على البلاد[٣٨].

كان المؤلفون اللبنانيون الآخرون أوفر حظاً من العامليين، إذ سلمت معظم مؤلفاتهم من التلف والضياع، وإن كانت حالة الضغط



متشابهة من بعض الوجوه، وقد ساعدتهم الأديرة والمعابد الحصينة الكثيرة الزوايا والمخابيء، فحفظوا فيها كتبهم التي لم تصل إليها الأيدي[٣٩]، وهكذا وبهذه الطريقة حفظت مؤلفات السلف من الضياع، ونبغ عدد كبير ممن خدموا العلم والأدب خدمات جلّى بما جمعوه من مخطوطات شرقية وبما نسخوه وألفوه من كتب.

محارف النساخة

على أنه لم تقم محارف ثابتة للنساخة، فكانت توزع حسب وجود الأدباء والطلاب أو في بعض العائلات كعائلة بحتر، وفي مدينة طرابلس وصيدا والنبطية، هذه القصبات الرئيسية التي اكتظ فيها الناس، وفي الأديار في لبنان، وفي بعض المدارس الملحقة بها، وفي بعض البيوت. وبما أن النساخة لم تكن لتفي بالغرض المطلوب، اتجهت الأنظار نحو طبع الكتب، ومما شجع على ذلك تدفّق الكتب الدينية المطبوعة التي جلبها المرسلون معهم، وصعوبات النساخة وبطئها، والحاجة لنشر الكتب بشكل سريع.

وعند بدء انتشار الكتاب المطبوع الوارد من إيطاليا وبدء العمل بالطباعة في لبنان كان لا بد للخط من أن يأخذ طريقه نحو الإهمال والضعف، وبدأ ناقوس الخطر يدق آذناً بإعلان حقبة من الزمن كان المعول الأول والرئيسي فيها على الخط، ومعلناً بدء فترة جديدة من التقدم والتطور وسرعة انتشار الكتاب، وذلك بواسطة الطبع مما سيسهِّل انتشاره بين الخاصة والعامة.

وأصبحت هذه الصناعة الثمينة سبباً من أسباب التكامل العلمي فتجلو ظلمة الجهل إذ سهلت الإطلاع على الأشياء كافة. فصناعة الطباعة من أهم الصناعات. ويمكننا أن ندعو القرن الخامس عشر بأبي القرون كلها، لأنه أوجد ما يحفظ الآثار من الاندثار، ويعرض لكل ناظر صور العصور الماضية، ويكفينا دليلاً على مكانة هذه الصناعة أندثار كثير من مدنيات العصور ومجهودات أبناء القرون السالفة، وضياعها، وعدم استفادة الخلف منها بشيء بسبب غياب الطباعة في تلك العصور، وصعوبة نشر الآراء فيها، في حين نرى أن اكتشاف هذه الصناعة أفاد حتى صار الناس كأنهم غيرهم بالأمس[٤٠].

مصدر الكتاب المطبوع

اللغة العبرانية هي أول لغة شرقية بالطباعة، ففي سنة ١٤٥٥ للميلاد طبعت التوراة العبرانية في «فراري» واشتهرت سنة ١٤٨٠ مطبعة سونسينو (Soncino) في ميلانو. وللغة العربية المقام الثاني في تاريخ الطباعة، فإن أول كتاب عربي نشر مطبوعاً في فانو (Fano)، وسنة ١٥١٦ ظهر سفر الزبور وقد طبع في جنوى، ثم نشرت في باريس مبادىء اثنتي عشرة لغة شرقية سنة ١٥٣٨، ثم نشر بالسريانية كتاب الجنّاز، غير أن الكتب العربية نالت في أوروبا نصيباً مهماً في

الطبـع، وحازت مطابـع أوروبا السهم المعلى[٤١].

وكــان أول من سعى لانشـاء مـطبعـة في الآستانة يهودي قدم الشرق لينشر بين أهل ملّته الكتب المطبوعة، ويغنيهم عن المخطوطات التي لم يحصل عليها إلا بالمشقّة لندرتها، ويـرتقي تـاريـخ هـذه المـطبعـة إلى أواخـر القـرن الخامس عشر، وكانت حروفها عبرانية، وطبـع أصحابها بعض الكتب العربية بالحرف العبراني.

أما الطباعة بالحروف العربية فقد ظهرت في دار السعادة في العشر الثاني من القرن الثامن عشر، وأكثر المؤلفات التي نشرت مطبوعة في الآستانة في القرن المذكور كانت باللغة التركية وقليل منها بالفارسية والعربية[٤٢].

أما في لبنان فلم تكن النساخة ــ مطبعة ذلك الزمان ــ لتفي بالغرض المطلوب لأن محترفي النساخة قليلون وأكثرهم من الأدباء، وقد يقـع الناسـخ عادة بأخطاء في نقطة أو في سهو، مما يشـوه المعنى والغـرض المـقصـوديـن، وكن المرسلون يتنافسون في توزيـع الكتب، مجاناً، على الأنصار، لكن ذلك لم يكن ليعمّم الكتاب على الناس كافة، ومن هنا كان لا بدّ من انـطلاق الطباعة.

مطبعة دير مار قزحيا ــ لبنان الشمالي

تعتبر مطبعة دير مار قزحيا أقدم المطابـع في لبنـان على الإطلاق، كـانت أحرفهـا سريـانية ومطبوعاتها دينية[٤٣]، دخلت دير مار قزحيا في أوائل القرن السـابـع عشر، إلا أن أخبارهـا مجهولة، أما وجود المطبعة في هذا الدير منذ ذلك العهد فمما لا شك فيه، وكانت حروفها سريانية، طبعت فيها اللغة العربية بالحرف الكرشوني[٤٤]، على أننا لا نعرف لهذه المطبعة إلا كتاباً واحداً طبـع فيهـا سنة ١٦١٠، وهـو كتاب المـزامير الشائـع، ورد في الأصل مع أغلاطه المطبعية: «هذا المزمور هو لداود خصوصياً، دون عـدد المزامير عندنا أنه حارب وحده مع جلياد وقطله (كذا) حينئذ[٤٥]، ولعـل الطبّاع بسكـالي إيلي (Elie) المذكور في صدر الكتاب هو الذي جلبه من رومية[٤٦]، ولا يعدو القول بأنه هو الذي صبّ الحروف السريانية[٤٧]، عـلى هذا، فـإن لدير مـار قزحيـا[٤٨] فضل السبق إلى اقتنـاء أول مطبعة في بلاد الشام[٤٩].

توقّفها

وقد تكون بعض الأسباب ساهمت في توقّف المطبعة منها:

١ ــ إرسال الكتب الدينية من قبل بابـا روما، وتوزيـع النشرات بلا مقابل على الأديرة والكنائس، وقصد البابا في ذلك نشر المعتقدات والمفاهيم المسموح نشرها في الشرق.

٢ ــ غلبـة الأمية في هـذه البـلاد، وقلّة القارئين فيها[٥٠]، ذلك أن الطباعة إن لم يهتم بنتاجها القـرّاء والكتّاب تتـوقّف تلقائيـاً، لأن عمودها الفقري هو القرّاء بالدرجة الأولى.

المؤرخون الذين كتبوا عنها لم يذكروا شيئاً عن قصّـة اختفائهـا[٥١] ولا مـا حـلّ بهـا، وتضعضـع حروفها إذ لم يطبـع بها غير كتاب المزامير، فـذلك أمر غـريب لم يفد عنـه أحد شيئاً[٥٢]، وأكبر الظن أن أصحابها أهملوهـا بعدما رأوا الكتب المطبوعة ترد عليهم من الخارج بلا عناء، وتوزّع عليهم بلا مقابل، فضـلاً عن جودة طبعها وحسن اسـخراجها[٥٣].

كتاب المزامير (١٦١٠)

يقول الأب شيخو أن «كتاب المزامير طبـع على قطـع كبير، عدد صفحاته ٢٦٠»[٥٤]، أما الأب نصر الله فيـرى أن «صفحاتـه صغيرة، طول الواحدة منها ٢٨ سم وعرضها ٥٠، ١٥سم، ويضم ٢٦٠ صفحة تحتوي الواحدة على ٢٤ سـطراً»[٥٥]، وقسمت الصفحـة إلى عمـودين خصّص الأيمن للسريانية والأيسر للكرشونية. الحروف الكرشونية دقيقة وصغيرة، والسريانية كبيرة، واضحة، محكمة السبك[٥٦]، صفحـات الكتاب وعناوينه باللون الأحمر، تبدأ الصفحة الأولى بـالبسملة: «المجد لله»، يليهـا العنـوان بالسريانية «كتاب مزامير داود الملك النبـي، ثم بالكرشونية: «كتاب مزامير أو تسابيـح»[٥٧].

وتحت العنوان شعار المطران سركيس الرزي رئيس أساقفة دمشق على الموارنة، وهو يمثـل أرزة كبيرة يستظل تحتها طير كالعنقاء، وعند جناحيه حرفان لاتينيان (.S.N) (Salus Nostra)

أي خلاصنا ، ويجري عند جذع الأرزة جدول ماء تلميحاً إلى فردوس عدن، وعلى جانبيها سنبلتان دلالة على الخصب، وقد كتب حول هذه الصورة الرمزية اسم المطران سركيس باللاتينية، وفوق هذا الشعار صليب مربع وقبّعة الأساقفة اللاتينيين[٥٨] وعلى جانبيه كتب «أرزة بلبنان لطول الدهر تعلينا، وبنهر أنعام من المشرق تملينا...[٥٩].

وفي أسفل الصفحة هذه الألفاظ: بالحبس المكرّم الكائن في وادي قزحيا، في جبل لبنان المبارك، على يد المعلم بسكالي إيلي، وعلى يد الحقير يوسف بن عميمة الكرمسدّاني، باسم شماس في سنة ١٦١٠[٦٠].

إن المقدمة التي مهرها المطران سركيس لا تحتوي معلومات تاريخية، بل تذكر معلومات عن فائدة المزامير لخلاص الأنفس موجهة للكاثوليكيين.

ويضم الكتاب ١٥١ مزموراً[٦١]، يليها عشرة تسابيح ضمتها الكنيسة الشرقية للمزامير، وينتهي بصلاة مار إفرام بدؤها «ظهر نور للصديقين وفرح لمستقيمي القلوب»، أما المزموران الأخيران فكتبا بالسريانية[٦٢].

فالكتاب يشمل ماية وخمسين مزموراً، وفي آخرها المزمور المائة والحادي والخمسون، والمزامير والتسابيح مطبوعة بالسريانية في حقل، وبالكرشونية في حقل موازٍ، ما عدا التسبيحتين الأخيرتين فهما بالسريانية وحدها. وذكر أمام كل مزمور عدده بالحبر الأحمر، أما الآيات فلم تعدّ آية آية، بل خمساً خمساً، أي وضع على الهامش رقم ١ أمام الآية الأولى في كل مزمور، والرقم ٥ أمام الخامسة، و ١٠ أمام العاشرة، وهلم جرا. والمزامير غير مقسّمة تسابيح كما في الكتب الطقسية، والطويلة منها مقسومة قسمين أو ثلاثة، وتدل على كل قسم لفظة بالحبر الأحمر، وجاءت ترجمتها في الحقل الكرشوني غالباً بـ «قطع فصل» ومرتين «فصل» ومرة «قسم»[٦٣].

وينهي المطران سركيس المؤلف بقوله: أغنينا بطبع هذا الكتاب، وقد بدأناه بعونه تعالى[٦٤]، وفي نهاية آخر صفحة ما يلي: «أنا الحقير بين المطارين جرجس بن عميرة الهدناني نظرت وقريت (قرأت) هؤلاء (هذه) المزامير، وما وجدت فيهم (فيها) شيئاً يضادد (يضاد) الأرثذوكسية[٦٥]، وينتهي الكتاب بملاحظة طويلة تضم معلومات عن مكان الطبع، تتكرر عند انتهاء الملاحظة، ونستطيع بواسطة هذه المعلومات أن نعرف أسماء منجزي هذا العمل[٦٦] الذي ليس فيه من الأخطاء المطبعية إلا اليسير، أما النص الذي اعتمده الطابعون فيشتمل، على ما يسمونه قراءات مختلفة[٦٧] وقد نسب معظمها إلى مؤلفيها، فـ (٧٥ منها لداود)، و (١٢لآصاف)، و (٩ لبني قورج) و (٢ لايديتوم)، و (واحد لحجاي وزكريا) و (٤٧ مغفلة)[٦٨].

لماذا طبع الكتاب بالحرف السرياني؟

قد يكون لطبع الكتاب بالسريانية أسباب منها: أن الصلوات في الكنيسة المارونية كانت بهذه، اللغة وبالكرشونية لأن المعهد الماروني درّس موادّه بها، أو لأن الرهبان، عبر العصور، ألفوا الكتب ونسخوها بها، ولأنها كانت لغة الأديار والكنائس، أو أنها كانت تعتبر من العلوم المقدّسة أو لجهل الكتابة بالعربية.

ما يستنتج هو أن النساخة لم تكن قادرة على تغطية متطلّبات الحياة ونشرها بالسرعة المطلوبة، فالناسخ معرّض لوقوع الأخطاء أثناء العمل، فكان لا بدّ والحالة هذه من ظهور الطباعة التي وفّرت الوقت والمال، وساعدت على تعميم الكتاب بين الناس كافة، وأن تعميمه وانتشاره ساعدا على تجويده وبيعه بأثمان بخسة. فالطباعة سهّلت انتقال الأفكار بين الشعوب، وساعدت على تبادل الفكر والمحافظة على الصحيح منه. وطبيعي أن تتطور الطباعة، فالمنافسة في تحسين الكتاب ساعدت على ظهور الأفضل منه، وليس التنافس في اختراع أفضل الحروف إلا لمساعدة القرّاء على اختيار الكتاب الملائم.

الطباعة في سورية

مطبعة حلب وحروفها

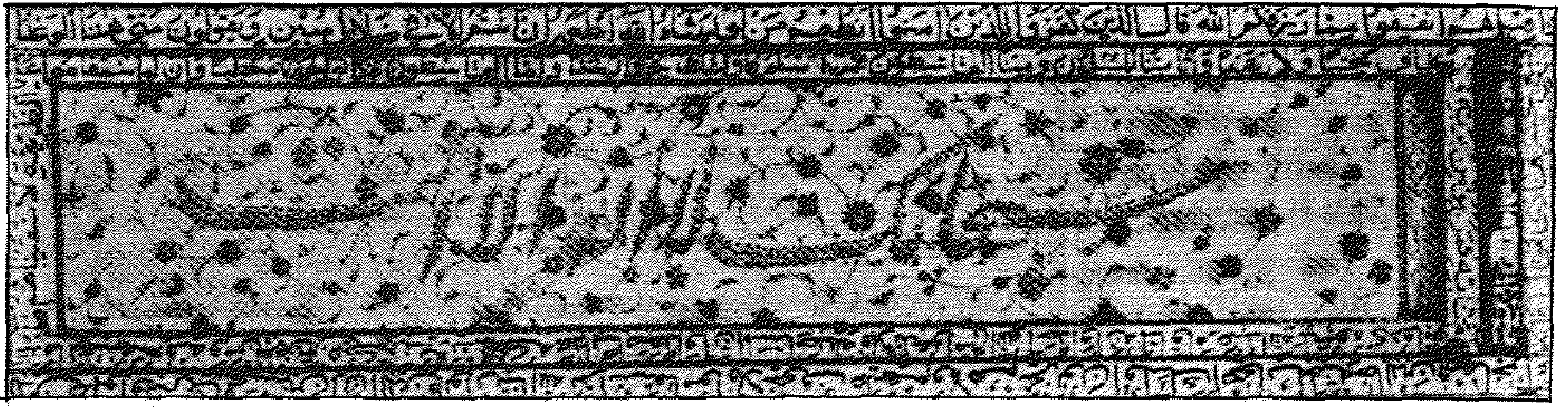
إن النهضة الأدبية التي عمّت بلاد الشام كان بدؤها في مدينة حلب منذ أوائل القرن الثامن عشر[٦٩]، وقد أحرزت لها الشهباء[٧٠] في ذلك العصر مجداً آخر وهو أنها سبقت كل البلاد

الشرقية بفن الطباعة العربية، وكانت بعض مطبوعات لغتنا نشرت قبلها بالآستانة لكنّها كانت بحرف عبراني[٧١]. فحلب إذاً سيدة الطباعة في سورية، ظهرت فيها أول مطبعة على يد البطريرك أثناسيوس دبّاس عام ١٧٠٦. غير أن المؤرخين لم يستطيعوا أن يعيّنوا بدقّة من أين جاء بها[٧٢]، فقد زعم شنورر (Schnurer) في كتابه (المطبوعات العربية) أن حروف مطبعة حلب هي حروف مدينة بكرش (بوخارست) عاصمة الفلاخ (رومانيا)[٧٣]، وفي مصدر آخر أنها حروف مطبعة سنغوفو (سيناجوفو)[٧٤]، جاء بها أثناسيوس دبّاس من بوخارست[٧٥]، وقد خطّأ المستشرق دي ساسي رأي شنورر لما وجد من الاختلاف بين حروف بوخارست وحلب، ويقول كارلفسكي ولفنك إنّ سائر أدوات المطبعة كانت من بوخارست[٧٦].

رحل أثناسيوس دبّاس سنة ١٦٩٨ إلى رومانيا واتّصل بأميرها قسطنطين[٧٧]، ورغب إليه في طبع الكتب الطقسية باليونانية والعربية، فأجاب الأمير ملتمسة. وعيّن له كاهناً كرجياً ليحفر له حروفاً عربيّة ففعل، وطبع في بوخارست باللغتين المذكورتين كتاب الليتورجات الثلاث سنة ١٧٠١، ثمّ كتاب القنداق، لتوزّع مجّاناً على كهنة الروم الأرثذوكس، ثم عاد أثناسيوس إلى حلب، واهتمّ بطبع كتب أخرى طقسية في هذه المدينة، ولا نعلم كيف توصّل إلى سكب الحروف. ولعلّه استصحب معه الكاهن أنتيموس الكرجي المذكور آنفاً، فحفر له حروفاً جديدة، أو كان هو اتقن هذا الفن فعلّمه قوماً من الحلبيين، وقد نشر أثناسيوس طباعة في حلب عدداً من الكتب الدينية في السنوات ١٧٠٦ و ١٧٠٩ و ١٧٢٥[٧٨]. وأول كتاب طبعه كان المزامير[٧٩]، وقيل الإنجيل الطاهر وكتاب المزامير[٨٠]، وما تعدّى نتاجها طبع عشرة كتب[٨١]، وأن الكتاب الذي طبع سنة ١٧١١ هو للبطريرك أثناسيوس وهو في التوبة والاعتراف في ١٧٢ صفحة[٨٢]، وما من أحد يداخله ريب في كون البطريرك أثناسيوس دبّاس منشىء مطبعة حلب، فكل الكتب المطبوعة منها تشهد بذلك ولا تدع مجالاً للشك[٨٣]. اما مشكلة الحروف المستعملة ففيها أقوال شتّى أهمها ما ذكره يواكيم المطران حيث يقول: «إنّ زاخراً قد اصطنع مطبعة في مدينة حلب بمساعدة أخيه نعمة، وعملا أبهاتها وأمهاتها، وأحرفها وجميع آلاتها، وطبعا بها جملة كتب»[٨٤] بدون أن يشاهد المطبعة وبدون أن يدربّه أحد على هذا العمل[٨٥]، وإذ اضطهد لاستقامته الإيمان الكاثوليكي التزم الخروج من حلب وأتى إلى جبل كسروان، وهناك ابتدأ بإنشاء مطبعة متقنة[٨٦] وهو قول يناقض ما كاد يجمع عليه المؤرخون من أن صاحب المطبعة هو البطريرك دبّاس وإن كان لزاخر فضل في كتابة الحروف وحفرها. أما كيف أمكن لرجل مناضل عن الكثلكة أن يتعاون مع أثناسيوس دبّاس فندركه إذا ما عرفنا أن البطريرك كان متردداً في اتجاهه الإيماني، طوراً يميل إلى الكثلكة، وتارة يتّجه نحو الأرثذوكسية، ولم تبلغ الخصومة أشدّها بين الرجلين إلا بعد أن ترجم أثناسيوس كتاب صخرة الشك[٨٧]، ونشره سنة ١٧٢١، وحضر المجمع القسطنطيني سنة ١٧٢٢ فقاطعه زاخر نهائياً، وترك حلب وجاء إلى لبنان[٨٨]. وإن قارنا بين حروف كتاب المزامير المطبوع في مطبعة حلب وحروف كتاب خدمة القدّاس المطبوع سنة ١٧٠١ في مقاطعة الأفلاق وجدنا البون شاسعاً بين حروف الكتابين، وأنّه كان لكل من المطبعتين حفّار خاص، ويبدو أن حاكم الأفلاق أرسل إلى البطريرك الطابعة دون الحروف فقام بصفّها زاخر، والدليل على ذلك أن البطريرك أثناسيوس يقول في مقدّمة المزامير المطبوعة في حلب: «حيث أن الله وفقنا إلى عمل طبع الحروف العربية»، وهكذا يتاح لنا أن نعدّ زاخراً أول من وضع حروفاً عربية[٨٩]، وكان على علاقة طيّبة بالبطريرك أثناسيوس، فنسخ له عدداً كبيراً من المخطوطات، وألّف له عدة مؤلفات قبل أن يناصب الأرثذوكس العداء أي قبل سنة ١٧٢٠، ولنا في ما نعرفه من مهارة زاخر وحذقه في الصناعات والفنون الجميلة ما يؤكد هذا القول[٩٠]، واستعملت المطبعة نوعين من الحروف، الأول ضئيل، والثاني يشبه الخط النسخي الذي كان يستعمله اكثر النسّاخ[٩١].

مصيرها

ظلّت مطبعة حلب تواصل عملها إلى أن نزح زاخر إلى لبنان، ولربّما كانت توقّفت عن العمل قبل ذلك الزمان.



يقول المطران جرمانوس فرحات عن البطريرك أثناسيوس: «نقل أثناسيوس كتاباً، يسمّى: «صخرة الشك» مملوءاً قدحاً وشكاً ضد الإيمان المقدّس، وطبع الكتاب في بلد الإنكليز من ماله، وقد طبعه في (لندرة) لأنّ وجود زاخر على رأس المطبعة لم يكن يسمح له بنشر كتاب ضد المعتقد الكاثوليكي، لذلك فضّل نشره في الخارج. وحتى الآن لم نعرف ماذا حلّ بمطبعة حلب[٩٢]، ولا نعلم أبقي من هذه المطبعة أثر حتّى اليوم أم لا[٩٣].

ويرى بعض المؤرخين أن المطبعة نقلت إلى دير البلمند، ثم أخذها الرهبان الكاثوليك إلى دير الشوير، ويكفينا ردّاً على هذا الادعاء، أن هؤلاء الرهبان تركوا دير البلمند سنة ١٦٩٧، وأن مطبعة حلب ظلّت تعمل حتّى سنة ١٧١١[٩٤]، وورد في مكان آخر أن هذه المطبعة اشتغلت حتى سنة ١٧٣٥[٩٥]. وما زالت الأسباب التي دعت إلى تعطيلها مجهولة، لكنّ أصحابها وجدوا أنها تكلّفهم أكثر مما يستطيعون وأن في إمكانهم الحصول على المطبوعات الدينية في مقاطعة الأفلاق (رومانيا) دون بذل أي مجهود. ويبدو أن مطبعة حلب لم تجد التربة الصالحة لنموها وازدهارها[٩٦].

وهناك من يقول بأن مطبعة حلب ظلّت تسير ببطء حتى زمن الانشقاق الذي حصل في حلب بين الأرثذوكس والملكيين فضعضع أحوال الطائفة وأخّر تقدّمها الروحي والزمني، فتعطّلت أعمال المطبعة مدّة، وبعدها نقلت إلى دير البلمند، وبقيت متعطلة مدة فيه، ثم نقلها الحلبيون الذين هجروا الدير إلى الذوق حيث كان قد سبقهم عبد الله زاخر[٩٧].

أما مصير هذه المطبعة فيعطينا الجواب عنه وعن مصير مطبعة مار جرجس الأرثذوكسية الخوري يعقوب صاجاتي الحلبي، فيقول: «البطريرك أثناسيوس والأرثذوكس في بيروت عجزوا عن تشغيل مطبعتيهما بسبب المصروف اللازم أجرة للمشتغلين بها والذي يفوق مدخولها»[٩٨].

والخلاصة أن انطلاق مطبعة حلب في سنة ١٧٠٢[٩٩] حسبما يقول المحامي جورج خيّاط أمر مستحيل لأن الآراء تجمع على أنها بدأت نشاطها في سنة ١٧٠٦، ولأن أثناسيوس عاد من رومانيا إلى سوريا سنة ١٧٠٤، وليس بين أيدينا مستند يفيد بأنها طبعت بالحرف اليوناني سوى مرجع واحد هو المحامي خيّاط. ويبدو أنّ كلّ من كتب عنها استقى معلوماته من المراجع نفسها، فأتت الجمل معادة والمعلومات متطابقة. أما الاختلاف فيها فهو الاجتهادات لابتداع معلومات ثانوية لم تنر جانباً جديداً لأن الفكرة الأساسية عن المطبعة، استنفدت حتى الآن حسب المراجع والمصادر الموجودة عنها. اللهمّ إلّا إذا وجد شيء يفيدنا معلومات جديدة، هذا ويمكن أن نطلع على كلّ هذه المعلومات التي تدور حول المطبعة والطباعة في حلب عند أي من الذين كتبوا عن الطباعة. والمرجّح ألّا تكون المطبعة قد استمرّت في عملها بعد سنة ١٧٢٢ لأنها توقّفت على أثر الانشقاق بين الملكيين والأرثذوكس، وبسبب مغادرة زاخر إلى لبنان، والقول باستمرارها حتى سنة ١٧٣٥ لا أساس له من الصّحة.

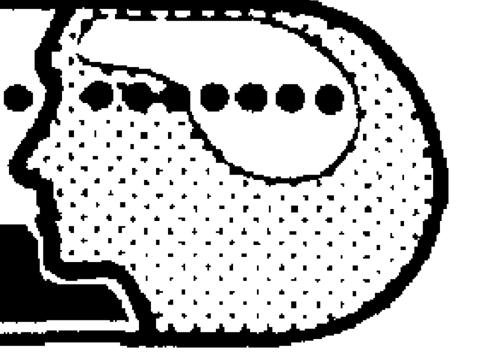
إذاً سيكون للمطابع دور في الانتقال بالكتابة من النقل البطيء باليد إلى الكتابة السريعة بواسطة المطابع وهذا ما سيوفّر نشر الكتاب بين سائر أفراد الشعب غنيّهم وفقيرهم، والقول بندرة الكتاب وبحصره بفئة محدودة من الناس وبارتفاع سعره سيزول حتماً نظراً لأهمية وجود المطبعة وما توفّره من كتب بحروف متعدّدة الأحجام والأشكال والألوان، كلّ ذلك سيدفع بالناس إلى اقتناء الكتاب وبالمطابع إلى تحسين الطباعة وإلى التنافس نحو إنشاء مطابع جديدة لإنتاج الكتاب الأفضل.

المصادر والمراجـع

(١) التونجي (محمد)، الطباعة ورسالتها القومية في عالمنا العربـي، المطبعة العربية، حلب، باب النصر، لا تاريـخ، ص ١٩.
(٢) المجلة التربوية، السنة الثالثة، العدد ٣، كانون أوّل، ١٩٦٣، ص ٣٤.
(٣) يحيـى (صالـح بن)، كتاب تاريـخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب، ١٩٦٩.
(٤) التونجي (محمد)، الطباعة ورسالتها القومية في عالمنا العربـي، ص ١٩.
(٥) الزركلي (خير الدين)، الأعلام ٤، بيروت، ١٩٦٩، ص ٢١٩.
(٦) يحيـى (صالـح بن)، كتاب تاريـخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب، ص ٩٢.
(٧) المصدر نفسه، ص ١٣٢.
(٨) المصدر نفسه، ص ٨٣.
(٩) المصدر نفسه، ص ١٤٧.
(١٠) يحيـى (صالـح بن)، كتاب تاريـخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب، ص ١٧٢.
(١١) المصدر نفسه، ص ١٧٢، ١٧٣.
(١٢) المرادي (محمد خليل)، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ٣، ١٣٠١هـ، ص ٩٣.
— إبراهيم سليمان الجنيني، كتب كتباً كثيرة بخطّه، اطلاعه واسـع على الألقاب والأنساب، (محمد المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ١، ١٣٠١هـ، ص ٧).
— برع أحمد الكيواني بالكتابة، وتفرّد بحسن الخط (محمد المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ١، ص ٩٧).
— حسين الجزائري الشهير بحسن الخطوط واتقانها ونشرها (محمد المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ٢، ١٣٠١هـ، ص ٥٥، ٥٦).
— برع سليمان السمّان الدمشقي بالعلوم، بخاصّة الفنون الأدبية، وخطّ كتباً كثيرة (محمد المرادي، سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر ٢، ١٦١).
(١٣) المرادي (محمد خليل)، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ٣، ١٣٥.
— عبد المعطي بن معتوق، اشتغل بالنسـخ وبتجويد الخط (محمد المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ٣، ١٣٨).
— محمد رجائي القسطنطيني، مهر في الخطوط لا سيّما الديواني (محمد المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ٤، ١٣٠١هـ، ص ٣٢).
— مصطفى العلواني الحموي تردد إليه الطلبة للقراءة عليه والأخذ عنه، كتب ونسـخ بخطه الحسن عدة كتب (م ٤، ص ١٥٤).
— قدم يعقوب الهندي إلى القسطنطينية، وأخذ بها الخط المنسوب وأنواعه من يحيـى الكاتب الرومي (م ٤، ص ٢٣٦).
(١٤) طرازي (فيليب دي)، خزائن الكتب العربية في الخافقين ١، مطبعة جورج صيقلي، بيروت، ١٩٤٧، ص ٨٤.
— مجمـع فؤاد الأول، تيسير الكتابة العربية، المطبعة الأميرية، بالقاهرة، ١٩٤٦، ص ١٠.
— مسعود (جبران)، لبنان والنهضة العربية الحديثة، بيت الحكمة، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٦٧، ص ٣٣.
— الخوري (منير)، صيدا عبر حقب التاريـخ من ٢٨٠٠ق.م. إلى ١٩٦٩، منشورات المكتب التجاري، بيروت، ١٩٦٦، ص ٢٥٢.
(١٥) الأب بطرس فروماج، الأب حبيب شيزو، اغناطيوس كليسون، جان اميو، انطوان غينار.
(١٦) حقي (إسماعيل)، لبنان، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٣٣٤هـ، ص ٤٦٧.
(١٧) المصدر نفسه، ص ٤٦٨.
(١٨) المصدر نفسه، ص ٤٦٨.
(١٩) قرالي (بولس)، لمعة تاريخية في المدرسة المارونية الحديثة برومية، بيت شباب، ١٩٣٩، ص ١١.
(٢٠) السيوفي (حبيب)، سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر ١ و٢، المطبعة المخلصية، دير المخلص، صيدا، لبنان، ١٩٤٩.
(٢١) حتوني (منصور)، نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية، بلا تاريـخ طبـع، ص ١١٥.
(٢٢) المسرة، السنة ٣٤، الجزء ٧، تموز ١٩٤٨، ص ٤٢٢.
(٢٣) مخطوط زاخر، موجود بدير ماريوحنا الصابـغ، ص ٧٢، ٧٣.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٩١.
(٢٥) العرفان، مجلد ٣٣، ١٩٤٦ ــ ١٩٤٧، ص ٦٩١.
(٢٦) نوفل (عبد الله)، كتاب تراجم علماء طرابلس الفيحاء وادبائها، مطبعة الحضارة، طرابلس، ١٩٢٩، ص ٥٢، ٥٣.
(٢٧) الجندي (ادهم)، اعلام الأدب والفن ٢، مطبعة الاتحاد، ١٩٥٨، ص ٣١٨.
(٢٨) اعيان ٤٣، ص ٣٤٥.
(٢٩) الزركلي، الأعلام ١، ص ١٧٥.
(٣٠) عانوتي (اسامة)، الحركة الأدبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، لبنان، ١٩٧١، ص ٤٣.
(٣١) حقي (إسماعيل)، لبنان، ص ٤٦٦.
(٣٢) طرازي (فيليب دي)، خزائن الكتب العربية في الخافقين ١، ص ٢٦٩.
(٣٣) العرفان ٢، ١٩١٠، ص ٣٨٧.
(٣٤) طرازي (فيليب دي) خزائن الكتب العربية في الخافقين ١، ص ٢٦٩.
ــ من الكتب المخطوطة النادرة (العرفان م ٢، ص ٣٨٦).
(٣٥) آل صفا (محمد جابر)، تاريخ جبل عامل، دار متن اللغة، بيروت، بلا تاريخ، ص ١٣٧.
(٣٦) العرفان ٢، ص ٣٨٧.
(٣٧) العرفان مجلد ٤، ص ١٩، ٢٠.
(٣٨) آل صفا (محمد جابر)، تاريخ جبل عامل، ص ١٠٠.
(٣٩) المرجع نفسه، ص ١٠١.
(٤٠) العرفان م ٦، ١٩٢١، ص ٢٦٥، ٢٦٦.
(٤١) المشرق ٣، ص ٨٠، ٨١.
(٤٢) المصدر نفسه، ص ١٧٥، ١٧٧.
(٤٣) زيدان (جرجي)، تاريخ آداب اللغة العربية، م ٢، جـ ٤، منشورات دار مكتبة الحياة، ط ٢، بيروت، ١٩٧٨، ص ٤٠٥.
(٤٤) المشرق ٣، ص ٢٥٣، ٢٥٤.
(٤٥) المزمور (١٥١)، صورته بالسريانية والعربية (المشرق ٣، ص ٢٥٤).
(٤٦) المسرة، السنة ٣٤، ج ٧، ص ٤٠٠.
(٤٧) المشرق ٣، ص ٢٥٣، ٢٥٤.
(٤٨) من أقدم اديرة لبنان، موقعه جنوبي طرابلس وشمالي أهدن، كان يتألف من قبو صغير ودهليز، وقاعة للاجتماعات، وكنيسة صغيرة.
(٤٩) عانوتي (اسامة)، الحركة الأدبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر، ص ٤٥.
(٥٠) التونجي (محمد)، الطباعة ورسالتها القومية في عالمنا العربي، ص ١٩.
(٥١) صابات (خليل)، تاريخ الطباعة في الشرق العربي، دار المعارف بمصر، ١٩٥٨، ص ٣٤، ٣٦.
(٥٢) المشرق ٣، ص ٢٥٦.
(٥٣) صابات (خليل)، تاريخ الطباعة في الشرق العربي، ص ٣٢، ٣٦.
(٥٤) المشرق ٣، ص ٢٥٤.
(٥٥) المشرق ٣، ص ٢٥٠، ٢٥١؛ Nasrallah (Jean). l'imprimerie au Liban. impimerie de Saint-paul. Harissa. Liban. 1949. page 3.
(٥٦) المشرق ٣، ص ٢٥٤، ٢٥٥.
ــ المشرق ٣٢، ص ٢٥٢؛ Nasrallah (jean). l'imp. au Liban, 3.
(٥٧) المشرق ٣، ص ٢٥٤، ٢٥٥.
ــ المشرق ٣٢، ص ٢٥٠، ٢٥١.
(٥٨) المشرق ٣، ص ٢٥٥؛ Nasrallah (jean), l'imp. au Liban, 4.
(٥٩) المشرق ٣، ص ٢٥٥.
(٦٠) المصدر نفسه، ص ٢٥٥؛ Na srallah (jean). l'mp. au Liban, 3, 4.
(٦١) المشرق ٣، ٢٥٤.
(٦٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٤، ٢٥٥.
(٦٣) المشرق ٣٢، ص ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢.
(٦٤) Nasrallah (jean). l'imp. au Liban. 3. 4.

(٦٥) المشرق ٣، ص ٢٥٥.
(٦٦) Nasrallah (jean), l'imp. au Liban, 4.
(٦٧) المشرق ٣٢، ص ٣٥٣.
(٦٨) المصدر نفسه، ص ٢٥١، ٣٥٢.
(٦٩) المشرق ٣، ص ٣٥٥.
(٧٠) حلب.
(٧١) المشرق ٣، ص ٢٥٤، ٣٥٥.
(٧٢) التونجي (محمد)، الطباعة ورسالتها القومية في عالمنا العربـي، ص ٢٧.
(٧٣) المسرة ٢٤، ج ٧، ص ٤٤٨.
(٧٤) نشرت هذه المطبعة، طائفة من الكتب الدينية.
(٧٥) المشرق ٣، ص ٣٥٥.
(٧٦) المسرة ٣٤، ج ٧، ص ٤٤٨.
— بكرش (بوخارست) عاصمة الفلاخ (رومانيا).
(٧٧) هو حاكم ولاية الأفلاق، في رومانيا، كان حفياً برجال الكنيسة الشرقية، فزوّدهم بكتب الصلاة التي احتاجوا إليها، واقام مطبعة سيناجونو.
(٧٨) المشرق ٣، ص ٣٥٥، ٣٥٦.
— المسرة ٣٤، ج ٧، ص ٤٠٠.
(٧٩) التونجي (محمد)، الطباعة العربية ورسالتها القومية في عالمنا العربـي، ص ٢٧.
(٨٠) المشرق ٩، ص ٦٩١.
(٨١) التونجي: الطباعة... ص ٢٧.
(٨٢) المشرق ٩، ص ٦٩١.
(٨٣) المسرة ٣٤، ج ٧، ص ٦٩١.
(٨٤) حاج (أثناسيوس)، الرهبانية الباسيلية الشويرية في تاريـخ الكنيسة والبلاد، مطابـع الكريم الحديثة، جونيه، لبنان، ١٩٧٢، ص ٥٤٠.
— المسرة ٣٤، ج ٧، ص ٤٠٠، ٤٠١.
— المسرة ٣٤، ج ٧، ص ٣٨٦، ٣٨٧.
— الليتورجيات = كتاب صلاة.
(٨٥) Nasrallah (jean), l'imp. au Liban, 18.
(٨٦) المراجـع المذكورة رقم ٨٤.
(٨٧) المسرة ٣٤، ج ٧، ص ٤٠٠، ٤٠١.
(٨٨) المصدر نفسه، ص ٤٠٠، ٤٠١.
(٨٩) المجلة التربوية، السنة الثالثة، العدد ٣، ص ٣٧؛ Nasrallah (jean), l'imp. au Liban, 18.
— صابات (خليل)، تاريـخ الطباعة في الشرق العربـي، ص ٤٤، ٤٥.
— المسرة ٣٤، ج ٧، ٤٥٠.
(٩٠) صابات (خليل)، تاريـخ الطباعة في الشرق العربـي، ص ٩٤، ٩٥.
— المسرة ٣٤، ج ٧، ص ٤٥٠.
— المجلة التربوية، السنة ٣، ج ٧، ص ٤٥١.
(٩١) المسرة، سنة ٣٤، ج ٧، ص ٤٥١.
(٩٢) المسرة، سنة ٣٤، ج ٧، ص ٤٥٠، ٤٥١.
(٩٣) مشرق ٩، ص ٦٩١.
(٩٤) صابات (خليل)، تاريـخ الطباعة في الشرق العربـي، ص ٩٥.
(٩٥) مشرق ٩، ص ٦٩١.
(٩٦) صابات (خليل)، تاريـخ الطباعة في الشرق العربـي، ص ٩٥.
(٩٧) مجلة النور ١، ١٩٠١، ص ٣.
— رفيق زاخر في دير ماريوحنا الصابـغ.
(٩٨) حاج (أثناسيوس)، الرهبانية الباسيلية الشويرية في تاريـخ الكنيسة والبلاد، ص ٥٤٠.
(٩٩) يقول انها طبعت كتاباً طقسياً، في حلب، باليونانية والعربية في هذه السنة: (جرجي زيدان، تاريـخ آداب اللغة العربية، م ٢، ج ٢، ص ٤٠٥).



خليل السكاكيني (١٨٧٨ ـ ١٩٥٣)

أديب ومرب فلسطيني ولد في مدينة القدس وتلقى تعليمه في مدارسها. وقد التحق بعد تخرجه من مدرسة صهيون الإنكليزية بكلية الشباب (الكلية الإنكليزية فيما بعد)، وأنهى سنة ١٨٩٣ دراسته فيها، ثم مارس التعليم في القدس وانتسب إلى جمعية زهرة الآداب التي تأسست سنة ١٨٩٨ برئاسة داود الصيداوي.

غادر السكاكيني فلسطين إلى نيويورك سنة ١٩٠٧ ليتابع الدراسة، ولكن سوء الظروف المعيشية حالت دون ذلك فعاد إلى فلسطين بعد سنة واحدة. وعمل بعد عودته في تنقيح مسودات مجلة الأصمعي لحنّا العيسى، وصحيفة القدس لجورج حبيب حنانيا، كما عمل في تدريس اللغة العربية للأجانب.

انتسب إلى جمعية الاتحاد والترقي بالقدس، وأسس جمعية الإخاء الأرثوذكسي، ودعا إلى مقاطعة رجال البطريركية الأرثوذكسية اليونانيين لطمسهم حقوق الطائفة الأرثوذكسية في فلسطين، مما حمل البطريرك اليوناني دميانوس على حرمانه من الكنيسة.

وقد أسس المدرسة الدستورية في القدس سنة ١٩٠٩ بالاشتراك مع علي جار الله وجميل الخالدي وأفتيم مشبك. وكان غرضها تنمية الوعي الوطني بين الطلاب وتهيئة معلمين وطنيين للمستقبل.

وفي سنة ١٩١٤ عين عضواً في إدارة المعارف بلواء القدس فبذل جهوده كلها في سبيل إصلاح مناهج التدريس وجهاز المدرّسين. وقد قامت السلطات العثمانية بإبعاده عن القدس وإيداعه السجن في دمشق، ثم أطلقت سراحه في كانون الثاني ١٩١٨ بكفالة مالية. وانضم مع بعض رفاقه إلى الثورة العربية الكبرى عند إعلانها، وقصد الأمير فيصل، ثم رحل إلى مصر حيث أقام فيها إلى أوائل سنة ١٩١٩ إذ عاد إلى القدس.

تولى بعد عودته إدارة دار المعلمين في القدس. ولكنه قدّم استقالته بعد تعيين هربرت صموئيل مندوباً سامياً لبريطانيا في فلسطين. ثم غادر القدس إلى القاهرة سنة ١٩٢٠.

وفي سنة ١٩٢٢ عاد إلى القدس ومارس مهنة الصحافة. نشر المقالات في المقتطف والهلال والسياسة الأسبوعية المصرية، وتولى منصب أمين سر اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني.

وقد عين مفتشاً عاماً للغة العربية في إدارة معارف فلسطين سنة ١٩٢٦، ثم عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق.

أسس في القدس سنة ١٩٢٨ كلية النهضة بالاشتراك مع إبراهيم شحادة الخوري ولبيب غلمية وشكري حرامي. وانتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة في مطلع سنة ١٩٤٨.

توفي في القاهرة سنة ١٩٥٣، وأطلق اسمه على إحدى مدارس القدس وعلى أحد شوارعها تخليداً لذكراه.

كان السكاكيني في طليعة الرواد الذين دافعوا عن اللغة العربية في وجه الهجمات التي كانت تشن عليها، ودعا إلى تقديسها والذود عنها. وهو يقول في هذا الصدد: «اللغة قبل كل شيء هي العنصر الذي نقيم به أمجاد الأمة، وعلينا أن نعلّم الولد كرامة أمته ومجدها في الكلمات العربية ليقرأها ويشعر بأنه يشرف على مجده وعزته القومية من خلال الحروف والكلمات». وله عدد من المؤلفات المطبوعة منها: الاحتذاء بحذاء الغير (١٨٩٦)، وفلسطين بعد الحرب الكبرى (١٩٢٠)، ومطالعات في اللغة والأدب (١٩٢٥)، وكذا أنا يا دنيا ـ يوميات السكاكيني (١٩٥٥)، إلى جانب عدد من الكتب المدرسية.

المرجع:

ـ يوسف حداد: خليل السكاكيني، حياته، مواقفه، آثاره، بيروت ١٩٨١.

• **الموسوعة الفلسطينية مجلد (٢)، الطبعة ١٩٨٤**

من تاريخ الدّولة البوَيهيّة:

البوَيهيّون: أصْلهم ونشأتهم

د. حسَن منيمنة



□ سوق قديم في بغداد العباسية.

صدر مؤخراً للدكتور حسن منيمنة كتاب بعنوان «تاريخ الدولة البويهية ـ مقاطعة فارس»[١]. يعرض فيه لتاريخ هذه الدولة التي حكمت الخلافة العباسية ما يزيد عن القرن، من خلال مقاطعة فارس إحد أهم مراكز الدولة. وأهمية هذه الدراسة انها من الدراسات القليلة عن البويهيين الذين كانت سيطرتهم إيذاناً ببدء مرحلة جديدة في حياة الدولة العباسية، وهي مرحلة انتقال السلطة فعلياً وبصورة شبه كاملة من أيدي العرب إلى أيدٍ غير عربية. تمثلت أساساً في قوى وشعوب انطلقت من جنوب بحر قزوين ومناطق ما وراء النهر (البويهيون، الأتراك بمختلف أسرهم الحاكمة) حاملة معها إلى داخل الدولة الإسلامية، التي كانت قد بلغت درجة عالية من التطور والرقي، ليس فقط عادات وتقاليد تتسم بالتخلف، بل والأهم من ذلك، مفاهيمها حول السلطة والملك والغلبة والولاء ودور العقيدة والأمة ونظرتها إلى الخلافة والخليفة. وواجبات الملك والرعية... الخ وستشكل هذه المفاهيم ـ التي ستأخذ بالتغلغل والترسخ ببطء داخل الدولة والمجتمع الإسلاميين ـ عناصر هامة كانت وراء حالة الجمود والتقهقر التي ستعاني منها الدولة الإسلامية منذ ذلك الوقت، أي منذ السيطرة البويهية.

ولقد اخترنا من الكتاب، الفصل الذي يتحدث عن أصول هذه الأسرة، وهو بعنوان «الديلم، الزيدية، بنو بويه».

الديلم، الزيدية، بنو بويه



إلى الجنوب من بحر الخزر، تقع أربع مقاطعات تبدأ شرقاً بجرجان حتى جيلان والران غرباً، مروراً بمقاطعة طبرستان. ويحيط بهذه المقاطعات جنوباً مقاطعات خراسان، وقومس، والجبال وأذربيجان.

وتأخذ مقاطعة جيلان شكل هلال على الطرف الجنوبي الغربي لبحر الخزر الذي يحدّها من الشرق، ومن الشمال الغربي أذربيجان ومن الجنوب إقليم الجبال ومن الجنوب الشرقي طبرستان ومن الشمال ارآن.

ويمكننا تقسيم هذه المقاطعة «جيلان» إلى قسمين: السهل الساحلي (المناطق المنخفضة) وتسكنه قبائل الجيل الذين أعطوا اسمهم للإقليم، والمناطق الجبلية التي سكنها الديلم وعرفت منطقتهم هذه باسم ديلمان[٢].

إذن، في البدء لم تكن منطقة الديلم التي سمّيت بالديلمان سوى منطقة صغيرة تقع داخل جيلان إلى الجنوب من مدينة «لاهيجان».

لكن في القرن ٤/١٠، وبعد قيام الدويلات الديلمية، وخاصة قيام الدولة البويهية، أخذت كلمة ديلم تحديداً جغرافياً جديداً، وباتت تشير تقريباً إلى كل المقاطعات الواقعة إلى الجنوب من بحر الخزر[٣]. وهذا ما نجده عند الجغرافيين العرب. فعند ابن حوقل، فإن بلاد الديلم تعني مقاطعات جيلان، وطبرستان وقومس، وجرجان وجزءاً من إقليم الجبال (الري وقزوين) وأجزاءمن أذربيجان وارآن[٤]. أما المقدسي، فيجعل إقليم الديلم يشتمل على قومس وجرجان ثم طبرستان والديلمان[٥] ثم الخزر[٦]. ولا يدخل فيه كما فعل سابقوه الري وقزوين.

عاش الديلم، أساساً في تلك المنطقة الجبلية في مقاطعة جيلان، ويبدو أنهم انتشروا تدريجياً فيما بعد في المقاطعات المجاورة، ولا نملك الكثير من المعلومات عن أصولهم البعيدة، ولكننا نعلم أنه في عصور ما قبل التاريخ كانت تعيش في منطقة بحر الخزر شعوب غير إيرانية على الأرجح، ولكنها قريبة من الإيرانيين[٧]. ولربما جاء الديلم من هذه الشعوب.

فأول ذكر أو إشارة للديلم وردت عند المؤرخ اليوناني Polybe (يوليبيوس حوالي القرن الثاني قبل المسيح). حيث أشار إلى شعب يسمى Delymaioi. كذلك عند الجغرافي Ptolémée (حوالي القرن الثاني الميلادي) الذي يشير إلى بلاد تدعى Delymais[٨].

أما في المصادر الإيرانية، فلا تبدأ المعلومات عن الديلم بالذكر إلا مع العصر الساساني. وينقل مينورسكي في مقالته عن الديلم عدداً من الشواهد، التي تأتي على ذكر الديلم ومشاركتهم كمرتزقة جبليين في حروب الدولة الساسانية وأحياناً إلى جانب البيزنطيين وذلك طوال القرن السادس الميلادي[٩]، وتشير تلك المصادر إلى طبيعتهم الحربية، وبأنهم مقاتلة جبلية مشاة ذات بأس شديد لكنهم لا يحسنون استعمال الخيل[١٠].

وقد اختلف المؤرخون والجغرافيون العرب حول أصل الديلم، فقد حاول بعضهم أن يجد لهم نسباً عربياً، فذكروا أنهم من بني ضبة وأنهم هاجروا في البدء إلى أذربيجان ثم تفرقوا في البلاد التي هي موطنهم الآن، وكانت هجرتهم بسبب نزاع بينهم وبين جيرانهم من القبائل الأخرى، وعند هجرتهم افترقوا فرقتين لأنهم كانوا ينسبون إلى أخوين «ديلم» و «جيل» فبقيت ذرية كل واحد من الأخوين منسوبة إليه[١١]. وعلى هذا الأساس يرجعون إلى أصل عربي. لكن معظم المؤرخين لم يأخذوا بهذا الرأي ووقفوا منه موقفاً متحفظاً. وعلى الأرجح فإن الدوافع التي دفعت أصحاب هذا الرأي بادعاء نسب عربي للديلم هي نفس الدوافع التي ستدفع أيضاً بادعاء نسب عربي للبويهيين (كما سنرى لاحقاً).

أما أصحاب الرأي الآخر من المؤرخين والجغرافيين العرب، فقالوا إن الديلم جنس متميز عن غيره من الأجناس كذلك الجيل، وإن مناطقهم التي سكنوها في الجنوب الغربي من بحر قزوين هي موطنهم الأصلي وقد تميزوا عن غيرهم بصفات وعادات وأخلاق خاصة، مما أعطاهم شخصية مستقلة، ومن هذه الصفات الخشونة والجلد والعجلة وقلة المبالاة[١٢]. ومما يؤكد على هذه الشخصية المستقلة، اللغة. فمعظم الجغرافيين العرب يقرون بأن لغة الديلم تختلف عن غيرها من عربية، وفارسية وأرمنية. بل أنه في منطقة الديلم نفسها، هناك قبيلة تتكلم لغة تختلف عن لغة الديلم والجيل[١٣].

ويقول ابن حوقل «ولسانهم منفرد عن الفارسية والرانية والأرمنية وفي بعض الجيل فئة وطائفة تخالف لسان الجيل والديلم»[١٤]، وهذا ما يؤكده أيضاً المقدسي[١٥].

ولكن إلى أي مدى تختلف هذه اللغة عن اللغات الأخرى الموجودة في تلك المنطقة، هل الاختلاف لدرجة أنها تشكل لغة قائمة بذاتها أم أنها مجرد لهجة محلية؟

الواقع أن هؤلاء الجغرافيين الذين كتبوا في القرن العاشر لا يخبروننا تماماً عن مدى هذا الاختلاف، على أننا نعرف أن البويهيين ذوي الأصل الديلمي كانوا يتكلمون الفارسية، ويقول مينورسكي في هذا الصدد: إن البقاء المشتت للغات القديمة أمر ممكن، ولكن من المؤكد أنه في العصر الإسلامي كان معظم الديلم قد باتوا «إيرانيين». ولغة الديلم كانت لهجة من شمال إيران، تختلف عن الفارسية التي كانت لهجة الجنوب، وبالأخص لهجة مقاطعة فارس[١٦].

كذلك، يكتنف الغموض ديانة الديلم القديمة. والأرجح أنها ديانة غير محددة. وقد دخلت إليهم الزرادشتية وربما أيضاً المسيحية[١٧]. لكن المسعودي يؤكد بأن «الديلم والجيل ـــ مذ كانوا ـــ لم ينقادوا إلى ملة ولا استحبوا شرعاً»[١٨]. وإنهم إلى أن دخلوا في الإسلام على يد الأطروش الزيدي في بداية القرن الرابع الهجري، كانوا ما زالوا «كفاراً على دين المجوسية، ومنهم جاهلية، وكذلك الجيل»[١٩]. لكننا نجهل تماماً، طبيعة الديانة الوثنية التي اتبعها الديلم. غير أن البيروني يخبرنا بأنهم كانوا يتبعون تعاليم افريدون الأسطورية، التي تأمر الرجال بأن يكونوا رؤساء في عائلاتهم، وتسمى «خذخدا»[٢٠].

المنطقة الجبلية التي عاش فيها الديلم طبعتهم بطابعها، ويصفهم المقدسي قائلاً: «بأن ليس لهم لباقة ولا علم ولا ديانة ولهم هيبة ورسوم عجيبة»[٢١]. ويضيف ابن حوقل قائلاً: «بأن ليس عندهم من الدواب ما يستقلون بها. والغالب على خلقهم النحافة وخفة الشعر والعجلة والطيش وقلة المبالاة»[٢٢].

ومن عاداتهم التي فاجأت المقدسي، أنهم كانوا «لا يزوجون إلى غيرهم»[٢٣]. ويقول أنه شاهد «صبية تعدو ورجلاً شاهراً سيفه يعدو خلفها يروم قلبها، فقلت ما فعلت حتى استوجبت القتل، قال إنها زوجت من غيرنا وقتل من فعل ذلك واجب عندنا»[٢٤].

وكان من عاداتهم أن يلهو الرجال والنساء سوية بعد العمل. وإذا ما أحب رجل امرأة فالزواج بينهما يتم بالاتفاق المباشر بينهما ومن ثم يبارك أهاليهما هذا الزواج[٢٥]. وكانت المرأة تعمل في الزراعة مثل الرجال. ويؤكد الروذراوري بأن نساء أكابر الديلم «كان يجرين مجرى الرجال في قوة الحزم وأصالة الرأي والمشاركة في التدبير»[٢٦]. ومن أغرب عادات الديلم، النواح والندب واللطم الشديد على أمواتهم، بل أيضاً على أقربائهم المرضى[٢٧]. وهذه العادة من أبرز العادات التي مارسها البويهيون والتي ستكون أساس فكرة التعزية عند الشيعة فيما بعد[٢٨].

لكن الصفة الأساسية التي اتصف بها الديلم وعرفوا بها، كانت الصلابة، والقدرة على التحمل وصبرهم على المجاعة والشدة في الحرب[٢٩]. وهاتان الصفتان أعطتهما شهرة عسكرية كقوات مشاة، لكنهم كانوا دائماً نموذجاً للقوات المرتزقة التي تنتقل من طاعة أمير أو دولة إلى طاعةخصومهما فقط وراء الكسب المادي والمنفعة المباشرة ولم يجدوا إطلاقاً حرجاً بذلك. وقد أشرنا سابقاً، كيف كان الديلم ينتقلون من خدمة الساسانيين إلى خدمة أعدائهم البيزنطيين وسنرى نفس الشيء يتكرر خلال الدولة البويهية.

لقد جعلت منهم كل الصفات التي أشرنا إليها شعباً مقاتلاً فقط، مرتزقة برابرة، لا أثر لأي حضارة فيهم، حتى عندما دخلوا في الإسلام، وأقاموا دولتهم على أرض الخلافة، فقد حافظوا كشعب على تلك الصفات، وكثيراً ما عانت بغداد من بربريتهم هذه. والتنوخي بعد أن يضيف إلى صفاتهم صفة الوساخة[٣٠]، ينقل قول المعتضد بـ «إن الديلم شر أمة في الدنيا واتمهم مكراً وأشدهم بأساً وأقواهم قلوباً، والله لقد طار عقلي فزعاً على الدولة من أن يتطرق إليهم دخول قزوين سراً ويملكونها ويلحق بالملك من الضعف والوهن بذلك أمر عظيم يكون سبباً لبطلان الدولة»[٣١]. وهذا ما كان.

توزع الديلم على مجموعة قبائل وأسر[٣٢]. وكان لهم أمراء يترأسونهم. فعند الفتح العربي، قاد أميرهم «مؤتا» قوات ديلمية لمقاتلة العرب. كما عرف الديلم التنظيم العشائري الذي يقوم على سلطة رؤساء الأسر[٣٣].

ساعدت طبيعة البلاد الجبلية الديلم على الوقوف بوجه كل الغزوات الخارجية. لذلك لم يستكن الديلم للفتح العربي بسهولة، بل شكلوا حتى القرن الثالث الهجري بؤرة مقاومة مستمرة للدولة الجديدة.

كان أول صدام فعلي بين العرب والديلم سنة ٢٢/٦٤٢[٣٤]، فبعد فتح نهاوند والدينور تابع نعيم بن مقرن بأمر من الخليفة عمر تقدمه للاستيلاء على همذان والري وأذربيجان، وبعدما استولى على همذان اتفق الديلم وأهل الري وأذربيجان على مقاتلته، وكان على رأس الديلم أميرهم مؤتا، لكن نعيم أنزل بهم هزيمة كاسحة[٣٥]. في بواج دوز بين الري وهمذان.

بعد هذه المعركة دخل نعيم بن مقرن الري حرباً ثم أرسل أخاه سعيد بن مقرن إلى قومس وجرجان وطبرستان وجيلان ففتحها صلحاً[٣٦]. ولم يزل أهل طبرستان وجرجان وجيلان ومن بينهم الديلم يؤدون الصلح مرة ويمتنعون عن إدائه مرة أخرى فترسل لهم الدولة قوات لإخضاعهم من جديد، فبعدما تم فتح الري وجيلان، عادوا فنقضوا الصلح فبعث لهم عمر، كثير بن شهاب فقاتلهم حتى رجعوا وغزا الديلم منذ عهد عمر وحتى عهد المأمون سبع عشرة غزوة[٣٧]، ولكن كل الغزوات لم تؤدِ إلى نتيجة حاسمة واحتفظ الديلم باستقلالهم، وظلت هذه المنطقة معتبرة دار حرب. وينقل عن علي بن أبي طالب قوله للرافضين مقاتلة معاوية «من كره منكم أن يقاتل معنا معاوية فليأخذ عطاءه وليخرج إلى الديلم فليقاتلهم». فخرج ما بين أربعة وخمسة آلاف مقاتل[٣٨].

وكان المتطوعة والغزاة يقصدون القلاع الإسلامية الواقعة على حدود الديلم لمقاتلتهم. وأهم هذه القلاع والثغور، هي قزوين وكلار وشالوس[٣٩].

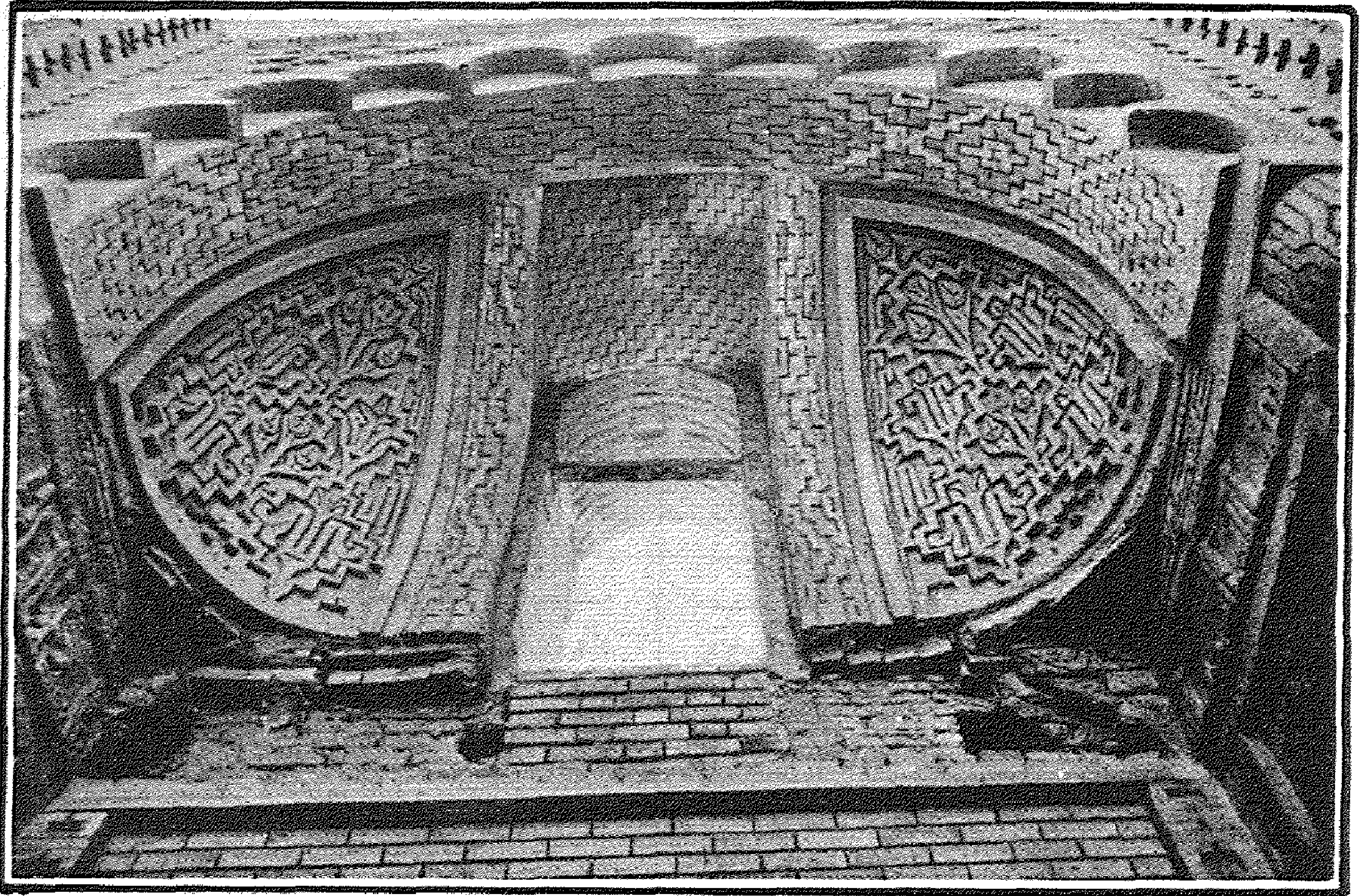
ظلت الحال على ما هي عليه حتى دخول الديلم في الإسلام على يد الأطروش العلوي أواخر القرن الثالث الهجري[٤٠]، والواقع أن الإسلام ما دخل إلى بلاد الديلم إلا بطريقة سلمية. فقد فشلت كل الحملات في إخضاع الديلم، هؤلاء السكان الجبليين الذين شكل لهم العمل العسكري كمرتزقة مورداً للمعيشة بسبب قلة مواردهم الزراعية وموارد صيد البحر التي يتمتع بها سكان السهول الساحلية. لكن محافظتهم على استقلالهم كانت لا شك تكلفهم كثيراً بسبب غزوات المسلمين المستمرة، والأخطار المحتملة من الدولة العباسية بعد أن سيطر الإسلام على كل المناطق المحيطة بهم. فكان لا بد لهم من حلفاء يقفون إلى جانبهم بوجه الدولة العباسية. وعلى هذا الأساس استقبلوا دعاة العلويين المعادين للعباسيين، بترحاب على أساس أنهم حلفاؤهم المحتملون. ومن جهتهم أدرك هؤلاء الدعاة الفائدة التي تعود عليهم من التبشير في بيئة لا تزال بكراً ومركزاً للديانات القديمة بدلاً من نشر دعوتهم بين قدماء المسلمين[٤١].

كان أول من التجأ إلى الديلم من العلويين هرباً من اضطهاد العباسيين يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، وكان زيدي المذهب، سار إلى الديلم سنة ١٧٥/ ٧٩١. فاشتدت شوكته وقوي أمره ونزع إليه الناس من الأمصار مما أخاف الرشيد فسيّر إليه سنة ١٧٦/ ٧٩٢ الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي في جيش مؤلف من ٥٠ ألف مقاتل وعلى رأسه كبار القواد، ثم نجح الفضل في مكاتبة يحيى مانحاً إياه مليون درهم. وقد وافق يحيى على الصلح مقابل عهد أمان من الرشيد فكان له ما أراد وعاد إلى بغداد وأكرمه الرشيد واحتفى به، ثم اعتقله وتقول شيعته أنه مات مسموماً[٤٢].

وتوالت ثورات الزيدية بعد ذلك في العراق بعد وفاة يحيى، فخرج محمد بن إبراهيم بن طباطبا في الكوفة واستولى عليها وهزم جيش الخليفة سنة ١٩٩/ ٨١٤ لكنه توفي فجأة في نفس العام[٤٣]. فعقد بعده لمحمد بن محمد بن زيد وكان غلاماً صغيراً، وقد دارت معارك عديدة بين العلويين والعباسيين انتهت بانتصار العباسيين وأسر محمد بن محمد بن زيد فعفا عنه المأمون وتوفي سنة ٢٠٢/ ٨١٧، وكان لا يتجاوز العشرين من عمره[٤٤]. ثم ظهر محمد بن القاسم الصوفي في الكوفة وجهر بالدعوة سنة ٢١٩/ ٨٣٤ وجمع أنصاراً كثيرين واتجه بهم إلى خراسان لكن عبد الله بن طاهر عامل المعتصم في خراسان، استطاع بعد معارك كثيرة كان النصر فيها في بداية الأمر لمحمد بن القاسم، من القبض عليه وأرسله إلى سامراء، فسجنه المعتصم ثم قتله بالسم[٤٥]. وفي عام ٢٥٠هـ / ٨٦٤ ثار يحيى بن عمر في الكوفة واستولى عليها فطالب المستعين بالله من أمير بغداد محمد بن طاهر إخماد الحركة التي انتهت بقتل يحيى بن عمر وتفرق أصحابه[٤٦].

إذاً، انتهت كل حركات التمرد والثورة الزيدية في العراق، وحتى محاولتهم في خراسان[٤٧]، إلى الفشل، أي بعد ما ينيف عن قرن وربع من ثورة[٤٨] زيد بن علي بن حسين بن علي ابن أبي طالب الذي تنسب إليه الزيدية ومقتله سنة ١٢٢/ ٧٣٩ في خلافة هشام بن عبد الملك. فكان لا بد لدعاة الحركة وأئمتها من موقع جديد بعيد نسبياً عن سلطة الخلافة، ومن أنصار جدد لم تثبط الصراعات الفكرية الدينية والاجتماعية من هممهم ويكون لأفكار الدعوة ودعاتها أثر أقوى في نفوسهم وهذا ما تحقق في الديلم.

يعتبر عام ٢٥٠/ ٨٦٤ بداية مرحلة جديدة في حياة الدعوة الزيدية؛ ستكون من أهم مراحل دعوتهم. خلالها حققوا بعض حلمهم. صحيح أنهم لم يستطيعوا القضاء على الدولة العباسية، إلا أنهم نجحوا أخيراً في إقامة دولة مستقلة في طبرستان ارتبط قيامها باسمهم (وأقاموا فيما بعد دولة في اليمن). ورغم أن هذه الدولة التي عرفت أوجها في مطلع القرن الرابع / العاشر بفضل شخصية الأطروش الفذة، إلا أنها لم تستمر طويلاً بسبب صراعات خلفائه وطموحات الأمراء المحليين في إقامة ممالكهم الخاصة. لكن الأثر الكبير الذي تركته الزيدية أنها أدخلت إلى الإسلام أهالي ذلك الإقليم وسكان الجبال المجاورة، الأمر الذي سيتيح لهم



□ القسم العلوي من مدخل جامع البويهيون، القرن العاشر ميلادي، ويشغل الآن جزءاً من مسجد «الحكيم» في أصفهان.

في المستقبل أن يلعبوا دوراً مهماً في حياة الدولة الإسلامية، خاصة الديالمة.

بدأت هذه المرحلة إثر مقتل يحيى بن عمر سنة ٢٥٠ / ٨٦٤ في أيام المستعين بالله، فهرب أنصاره وانتشروا في البلاد، وكان من بينهم الحسين بن زيد أحد أحفاد زيد بن علي، وكان منتظماً في حركة يحيى بن عمر في الكوفة، فالتجأ إلى الري وأقام فيها. وكان المستعين بالله قد أقطع محمد بن طاهر بعض الإقطاعات بطبرستان مكافأة له على قمع حركة يحيى بن عمر، ومن بين هذه الإقطاعات واحدة قريبة من ثغري طبرستان مما يلي الديلم، كلار وشالوس وكان بمحاذاتها أرض لأهل تلك الناحية من الأرض الموات لكنها ذات غياض وأشجار ومنعة لأهل الثغرين. فقام عمال الطاهريين، بالاستيلاء على تلك الأرض وأيضاً الإغارة على الديلم. وكان أهل مدن طبرستان في غاية الاستياء من عمال الطاهريين فاتفق الجميع، الديلم وأهل كلار وشالوس من المسلمين على محاربة عمال الطاهريين فاستدعوا الحسن بن زيد من الري فانتقل إلى طبرستان وبايعه أهل الثغور عامة ورؤساء الديلم، كجايا ولاشام ووهسوذان بن جستان، فقوي أمر الحسن بن زيد وتعاظم(٤٩)، فزحف بجيشه نحو مدينة آمل أول مدن طبرستان مما يلي كلار وشالوس واستولى عليها، وكبر جيشه ومال إليه الناس في تلك النواحي، ثم توجه إلى سارية وهزم عاملها وبذلك استولى على طبرستان بكاملها(٥٠). عندها قامت الدولة الزيدية بطبرستان ودامت نحو قرن من الزمن (٢٥٠ ـ ٣٥٥/٨٦٤ ـ ٩٦٥).

تابع الحسن بن زيد توسعه فاستولى أحد اتباعه على الري(٥١). وعمد الطاهريون إلى استعادتها ففشلوا. وفي العام التالي نجح أحد عمال الطاهريين بدخول طبرستان(٥٢) وأجبر الحسن بن زيد على الهرب والالتجاء إلى منطقة الديلم المنيعة كذلك انتزع عمال الخليفة الري من أيدي العلويين. وتكرر الأمر سنة ٢٥٥/٨٦٨ بحيث أنزل أحد قواد الخليفة مفلح الهزيمة

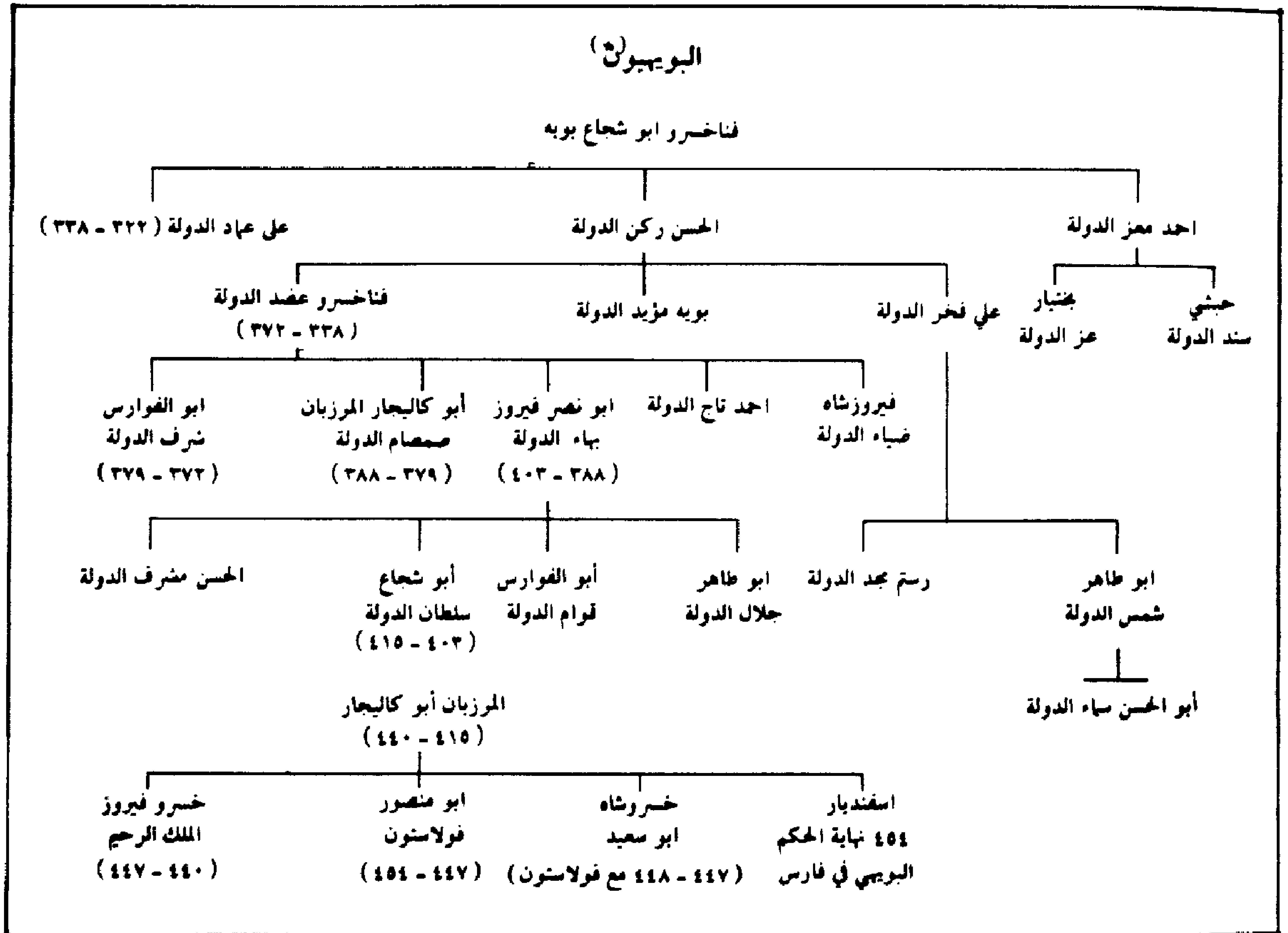
بالحسن بن زيد داخل طبرستان فهرب الحسن إلى الديلم فدخل مفلح آمل وأحرق منازل الحسن ثم عاد إلى طبرستان[٥٣]. وفي العام التالي ٢٥٦/٨٦٩ استعاد الزيدي الري فوجه إليه الخليفة المعتمد، قائده موسى بن بغا لقتاله[٥٤]، لكن في العام ٢٥٧/٨٧٠ حقق الحسن بن زيد انتصاره الثاني بالاستيلاء على جرجان[٥٥]. إلا أنه في سنة ٢٦٠/٨٧٣، كاد يعقوب بن الليث الصفار أن يقضي على الدولة الزيدية إذ هزم الحسن بن زيد فالتجأ هذا الأخير إلى أراضي الديلم واستولى يعقوب على طبرستان ولحق بالحسن إلى بلاد الديلم، لكن صعوبة المسالك ومخاطرها الحقيقية على جيشه اضطرته إلى التراجع عن فكرته[٥٦]، وعاد الحسن بن زيد إلى طبرستان وأحرق شالوس لممالاة أهلها يعقوب واقطع ضياعهم الديالمة[٥٧].

توفي الحسن بن زيد وكان لقبة الداعي الكبير وهو الداعي الأول[٥٨] سنة ٢٧٠/٨٨٣ فخلفه أخوه محمد بن زيد الملقب بالداعي الصغير[٥٩] الذي عرف بصفاته الجيدة. لكن في سنة ٢٧٥/٨٨٨ انتزع منه رافع بن هرثمة باسم السامانيين جرجان[٦٠]، فتراجع محمد إلى استراباذ فحصره فيها رافع لمدة سنتين. وفي سنة ٢٧٧/٨٩٠ انهزم محمد من جديد أمام رافع الذي استولى على طبرستان نفسها وهرب محمد إلى أرض الديلم[٦١]. لكن رافع سرعان ما اضطر إلى مصالحة محمد بن زيد سنة ٢٨٠/٨٩٣ للوقوف بوجه عمر بن الليث، فأعاد إليه طبرستان سنة ٢٨٢/٨٩٥ ووعده محمد بن زيد بإمداده بأربعة آلاف رجل من الديلم. لكن عمر بن الليث هدد محمد بن زيد بألا يفعل ذلك، فامتنع، وفي سنة ٢٨٣/٨٩٦ انهزم رافع أمام عمر بن الليث ثم قتل[٦٢]. وبعد أربع سنوات أي سنة ٢٨٧/٩٠٠ قتل محمد بن زيد على أيدي أحد قواد السامانيين الذين استولوا على طبرستان نفسها[٦٣].

امتدت هذه المرحلة وهي الأولى التي عرفتها الدولة الزيدية في طبرستان وأرض الديلم وأحياناً في جرجان والري، ٣٧ سنة (٢٥٠ ــ ٢٨٧ / ٨٦٤ ــ ٩٠٠) وشكل الديلم قواها المحاربة الأساسية، كما شكلت منطقتهم الجبلية الوعرة، الخطوط الخلفية للزيديين وقت الشدائد كما رأينا. وحتى نهاية هذه الفترة، لم يكن الإسلام قد انتشر بصورة كبيرة بين الديلم، وذلك أن يحيى بن عبد الله الذي التجأ إلى الديلم أيام هارون الرشيد[٦٤]، لم يطل مقامه عندهم ولا دعاهم إلى الدين إنما جاء إليهم معتصماً من الرشيد. لذلك كان ابتداء دخول الديلم في الإسلام أيام الحسن بن زيد الداعية الكبير، فأسلمت على يديه أطراف الديلم، دون الداخل والأرجح أن ظروف توليه الزعامة، وابتداء أمره بمنازعة ولاة السلطان كذلك الأمر أيام خليفته محمد بن زيد حالت دون إعطائهم لهذه المسألة الأهمية الأولى وبالتالي لم يشمل الإسلام كل الديلم[٦٥] في تلك الفترة، ولم يتم هذا الأمر إلا على يد الأطروش.

ارتبط التحالف الزيدي ــ الديلمي خلال هذه المرحلة، بأسرة بني جستان، وهي على ما يبدو كانت تتولى زعامة الديلم حيث يشير المؤرخون إليهم «بصاحب الديلم» أو «ملك الديلم» وأول مرة يشير فيها المؤرخون إلى هذه الأسرة سنة ١٨٩/٨٠٤ عندما زار هارون الرشيد الري وقدم عليه صاحب الديلم[٦٦] مرزبان بن جستان وعلى هذا الأساس يمكن اعتباره أول أمير لبني جستان[٦٧]. وربما كان هو أو سلفه الذي لا نعرف عنه شيئاً الذي خضع لضغوط الرشيد وساعده في إعادة يحيى بن عبد الله سنة ١٧٥/٧٩١. وفي سنة ٢٥٠/٨٦٤ عندما تم الاتفاق بين المرابطين في الثغور والديلم على استدعاء الحسن بن زيد وبمبايعته والوقوف بوجه العباسيين وولاتهم الطاهريين كان على رأس الديلم وهسوذان بن جستان الذي يعتقد أنه الثالث في إمارة هذه الأسرة[٦٨]. وخلفه ابنه خستان الذي استمر في تحالفه مع الزيديين وكان إلى جانبهم في كل معاركهم وقدم لهم الحماية في بلاده عندما اضطروا إلى ذلك.

ويبدو أن هذا التحالف استند إلى استقلالية الطرفين، فظل بنو جستان ملوكاً للديلم لا ينازعهم فيها الزيديون ولربما كان عدم طغيان طرف على آخر، أحد أسباب توقف انتشار



الإسلام في هذه المرحلة على أطراف منطقة الديلم.

بمقتل محمد بن زيد واستيلاء السامانيين على طبرستان هرب أصحابه إلى بلاد الديلم، وكان من بينهم الحسن بن علي، ناصر الدين الثائر الأطروش.

كان الأطروش من دعاة محمد بن زيد المقربين، دخل خراسان للدعوة له فاعتقل ثم هرب وعاد وحضر معه المعركة التي قتل فيها ثم انسحب إلى بلاد الديلم. وأقام عند ملكهم جستان بن وهسوذان. وكان الأطروش عالماً زاهداً شجاعاً وشاعراً(٦٩).

انصب عمل الأطروش خلال فترة إقامته بين الديلم التي استمرت ١٣ سنة على إدخالهم في الإسلام. فأظهر لجستان الملك أنه لا يرغب في التدبير أو الملك، وأنه فقط معلم ومرشد إلى الدين ولم ينتحل لنفسه الإمامة، وأخذ ينتقل من قرية إلى أخرى، والناس يسلمون على يده، إلى أن استوعب من بلاد الديلم وتجاوزه إلى بلد الجيل(٧٠). فأسلم معظمهم على يده فيما أسلم معظم الجيل على مذهب ابن حنبل السني. وقد نجح الأطروش في ضمان طاعة الديلم له بسبب إسلامهم على يديه من جهة ونفورهم من ملوكهم لسوء سيرتهم. عند ذلك انتحل الإمامة ويقال إنه لقب بالناصر الحق ولبس القلنسوة على رسم من قبله. وأخذ في مطالبة الناس بالأعشار والصدقات. وقام الأطروش بوضع حد لهجمات العرب من الثغور على بلاد الديلم؛ ففي سنة ٣٠٢/٩١٤ قام بتدمير حصن شالوس، ثم عمد إلى إعطاء حركته طابعاً «ديمقراطياً»، فدعا السكان للوقوف بوجه أمرائهم من بني جستان، واستلام السلطة بأنفسهم(٧١)، الأمر الذي أثار جستان فحاول الحد من سيطرة الأطروش وقال له: «إنما أطعناك على أنك معلم مرشد ولا طاعة لك إذا نازعتنا على ملكنا»(٧٢). وأدى الأمر إلى عدة معارك بين الطرفين انتصر فيها الأطروش لأن الديلم مالوا إليه، فاضطر جستان إلى الخضوع والطاعة وصالح الأطروش وبايعه(٧٣).



□ الخليفة العباسي، هارون الرشيد.

استتب الأمر للأطروش بين الديلم، وبدأ يستعد لاستعادة طبرستان من أيدي السامانيين، فكان له مع ولاة الخراسانيين عدة وقائع حتى تم له الأمر وانتصر على جيش الخراسانيين وملك طبرستان[٧٤] سنة ٩١٣/٣٠١. وفي العام التالي حاول الخراسانيون استعادة طبرستان ففشلوا[٧٥].

في هذا الوقت، اغتيل جستان على يد أخيه[٧٦] علي بن وهسوذان الذي كان موالياً للخليفة ومتقلداً أعمال الضرائب في أصفهان منذ سنة ٩١٢/٣٠٠. وفي سنة ٩١٦/٣٠٤ عين القائد العباسي مؤنس علي بن وهسوذان حاكماً على الري ودیناوند وقزوين وزنجان وأبهر[٧٧]، لكنه قتل في نفس هذه السنة على يد محمد بن مسافر[٧٨] (من الأسرة الديلمية الثانية الحاكمة في طارم) فخلفه أخ له هو خسرو فيروز[٧٩].

في هذه السنة أيضاً ٣٠٤ توفي الناصر الأطروش بطبرستان. ورغم قصر مدة حكمه (٣٠١ ــ ٣٠٤ / ٩١٣ ــ ٩١٦) إلا أنه استطاع أن يدخل معظم الديلم في الإسلام، وأن يعيد قيام الدولة الزيدية في طبرستان، وقال عنه الطبري: «بأن الناس لم يروا مثل عدله وحسن سيرته وإقامته الحق»[٨٠].

وبمقتل الأطروش، سيسود الصراع والتنافس بين المتنافسين على خلافته، كذلك الأمر بالنسبة لآل جستان الديلم، حيث سيؤول أمرهم بعد مقتل جستان بن وهسوذان إلى الانحلال وسيبرز قادة جدد للديلم.

خلف الناصر الأطروش الحسن بن القاسم الداعي الذي أبعد ابني الناصر إلى جرجان وولاهما حرب الخراسانيين. وبعد سلسلة من المعارك كان النصر فيها بادئاً لابني الناصر عادا فانهزما أمام الخراسانيين[٨١]. ومن ثم خلعا طاعة الحسن بن القاسم إلى اللجوء إلى بلد الجيل وظل مقيماً فيه إلى أن توفي ابن الناصر.

في هذه الأثناء بدأت مجموعة من قواد الديلم الذين خدموا إلى جانب العلويين بالبروز مكان بني جستان، في حين أن بني مسافر أقرباء بني جستان بالمصاهرة والذين دخلوا في صراع مع خلفه جستان بن وهسوذان انتقاماً لمقتله، اتجهوا نحو أذربيجان وما وراء النهر. أول من برز من هؤلاء القواد، ليلى بن النعمان حوالي سنة ٩٢٠/٣٠٨ بعد أن عقد له الديلم رئاسة الجيش[٨٢]، وكان ليلى أحد قواد أولاد الأطروش وقد استعمله الحسن بن القاسم الداعي سنة ٣٠٨ على ولاية جرجان ونجح في هذه السنة من الاستيلاء على نيسابور في خراسان وأقام الخطبة للداعي بعد أن هزم جيش الخراسانية، لكن في العام التالي ٩٢١/٣٠٩ عاد الخراسانيون وهزموه وأرسلوا برأسه إلى بغداد[٨٣]، ثم برز ماكان ابن كاكي، لكن سرعان ما نشبت الخلافات بين ماكان وأخيه حسين من جهة ومحمد بن أبي الحسين بن الناصر الأطروش الذي نصبوه إماماً خلفاً لأبيه، وأدت هذه الخلافات إلى استدعاء ماكان للحسن بن القاسم الذي كان ملتجئاً في بلاد الجيل وولاه الإمامة واستوليا على الري وجرجان[٨٤]. لكن قتل الداعية بن القاسم لبعض قادة الديلم والجيل الذين ناهضوه سابقاً، أدت إلى خروج قسم كبير من الجيش عن الطاعة وعقدوا الرياسة عليهم لأسفار بن شيرويه والتحقوا بصاحب خراسان طالبين عونه بوجه الداعي وماكان بن كاكي. فمدهم بالعساكر وهزموا ماكان بن كاكي واستولى أسفار على جرجان[٨٥] وذلك سنة ٩٢٧/٣١٥. ثم استدعى أسفار مرداويج بن زيار الجيلي وكان من قادة الجيل وقد نقم على الداعي لقتله أحد اقاربه، وجعله أمير الجيش

أمراء الدولة البويهية

	فارس	خوزستان		عُمان	العراق	الجبال	
٣٢١						(عماد الدولة)	
٣٢٢	عماد الدولة						
٣٢٣						(ركن الدولة)	
٣٢٤			(معز الدولة)				
٣٢٦		(معز الدولة)					
٣٣١						ركن الدولة	
٣٣٤		معز الدولة			معز الدولة		
٣٣٨	عضد الدولة		عضد الدولة				
٣٥٥				معز الدولة			
٣٥٦		عز الدولة	عضد الدولة	عضد الدولة	عز الدولة		
٣٥٧						**اصفهان ـ همذان**	**الري**
٣٦٦						مؤيد الدولة	فخر الدولة
٣٦٧		عضد الدولة			عضد الدولة		
٣٦٩							مؤيد الدولة
٣٧٢	شرف الدولة	تاج الدولة	شرف الدولة (*)	شرف الدولة (*)	صمصام الدولة		
٣٧٣						فخر الدولة	فخر الدولة
٣٧٥		شرف الدولة					
٣٧٦					شرف الدولة		
٣٧٩	صمصام الدولة	بهاء الدولة	صمصام الدولة	صمصام الدولة	بهاء الدولة		
٣٨٥		صمصام الدولة					
٣٨٧						شمس الدولة	مجد الدولة
٣٨٨	بهاء الدولة	بهاء الدولة	بهاء الدولة	بهاء الدولة			
٤٠٣	سلطان الدولة (*)	سلطان الدولة	أبو الفوارس قوام الدولة	سلطان الدولة	سلطان الدولة		
٤١٢					مشرف الدولة	سماء الدولة	
٤١٥	أبو كاليجار(**)	ابو كاليجار		أبو كاليجار		٤١٢ ـ بنو كاكويه : اصفهان	
٤١٦					جلال الدولة	٤١٤ ـ بنو كاكويه : همذان	
٤١٩			أبو كاليجار				
٤٢٠							الغزنويون
٤٣٥					ابو كاليجار		
٤٤٠	الملك الرحيم(***)	الملك الرحيم	فولاستون	المظفر بن أبي كاليجار	الملك الرحيم		
٤٤٧	فولاستون	السلاجقة		٤٤٢ : الخوارج	السلاجقة		
٤٤٨			السلاجقة				
٤٥٤	اسفنديار (فضلويه)						
٤٥٤	السلاجقة						

( ). سيطرة جزئية

واحسن إليه وقصدوا طبرستان واستولوا عليها وانهزم الداعي وقتل على يد مرداويج[٨٦] شخصياً وكان ذلك سنة ٣١٦/٩٢٨.

وبسرعة تعاظم أمر أسفار واستولى بالإضافة إلى بلاد طبرستان وجرجان على الري وقزوين وزنجان وأبهر وقم والكرج[٨٧]. وكل ذلك باسم صاحب خراسان الساماني إلّا أنه سرعان ما خرج عن طاعة السامانيين وأراد أن يجعل على رأسه تاجاً وينصب بالري سرير ذهب للسلطنة ويحارب الخليفة وصاحب خراسان[٨٨]. وبالفعل هزم أسفار جيش الخليفة بقيادة هارون بن غريب[٨٩]، إلا أنه اضطر إلى مصالحة صاحب خراسان بعد أن سار إليه بجيوش عظيمة لقتاله[٩٠]. لكنه تابع سياسته التعسفية بحق الناس وأطلق يد الديلم في مصالح الناس فاستغل مرداويج هذا الوضع لينقلب على سيده فقاتله وهزمه وقتله[٩١]. وأخذ مرداويج في الاستيلاء على البلاد فملك قزوين والري وهمذان وكنكور والدينور وقم وقاشان وأصفهان وغيرها. ثم طمع بجرجان وطبرستان وكانتا بأيدي ماكان بن كاكي الذي ساعده في القتال ضد أسفار، ولم يصمد ماكان أمام جيوش مرداويج الذي استولى على جرجان وطبرستان فيما التحق ما كان بخراسان وانضوى تحت لواء السامانيين[٩٢].

وثبت مرداويج بن زيار سلطته، خاصة بعد هزيمته لقوات الخليفة التي أرسلت لقتاله سنة ٣١٩/٩٣١، وبالتالي اضطر الخليفة إلى أن يقاطعه على الأعمال التي استولى عليها[٩٣]. وبالرغم من أن الأسرة الزيارية أصلها من جيلان، أي لم تكن ديلمية، إلا بالمعنى الواسع للكلمة، باعتبار أن الجيل كانوا مجاورين للديلم ويعيشون في نفس المنطقة، لذلك اعتبرت هذه الأسرة امتداداً للأسر الحاكمة التي خرجت من بلاد الديلم خاصة وإن القسم الأكبر من قواتها كانت من الديالمة. لذلك قال الأصفهاني أن مرداويج تولى رئاسة الجيل والديلم[٩٤].

والواقع، أنه مع أسفار بن شيرويه، بدأت في شمال ــ غرب إيران، السيطرة الديلمية، التي استكملت مع ماكان بن كاكي ثم مرداويج بن زيار. والأسرة الزيارية (٣١٦ ــ ٤٣٤ / ٩٢٨ ــ ١٠٤٢) كانت أول أسرة حاكمة إيرانية استقرت إلى الغرب من السامانيين[٩٥].

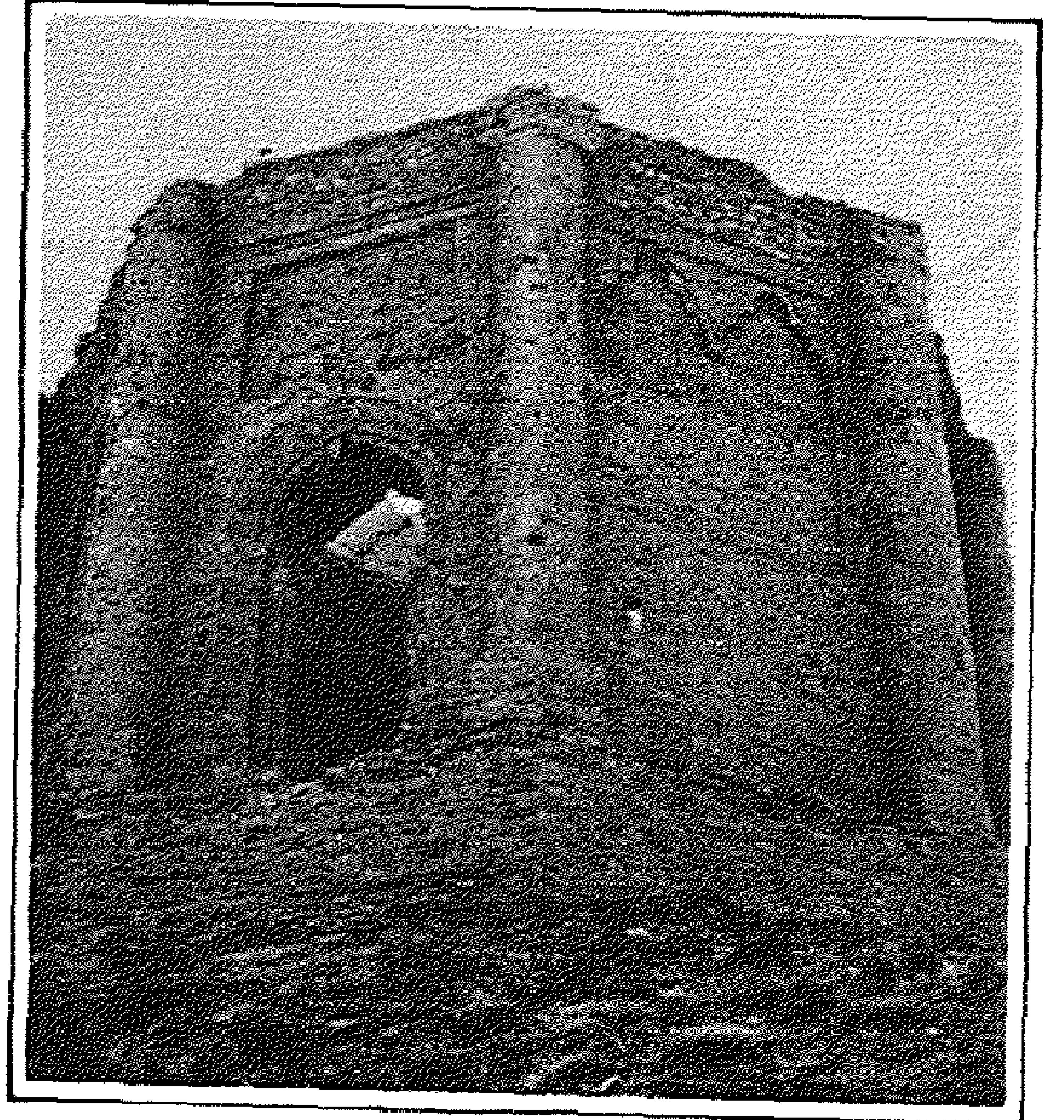
لكن مرداويج مؤسس هذه الأسرة والذي كان يطمح للسيطرة على العراق ويعيد ملك الفرس، ويقضي على السيطرة العربية، لم يعش طويلاً حتى يحقق حلمه، فقد قتله عبيده الأتراك سنة ٣٢٣/٩٣٤ وهو يستعد لتنفيذ مخططه[٩٦]. وبوفاته تقلصت الدولة الزيارية مع خلفائه، رغم أنها استمرت إلى سنة ٤٣٤/١٠٤٢، إلى حدود إحدى السلطات المحلية تاركة المجال لبروز أهم أسرة ديلمية حاكمة أي البويهيين.

بدأ أول ذكر للبويهيين في فترة الناصر الأطروش ومن بعده أيام ولديه أحمد وجعفر؛ فيذكر البعض أن من بين من خرج مع الناصر من وجوه الديلم والجيل علي بن بويه[٩٧]، وعندما تولى الحسن بن القاسم الداعي، خلافة الناصر، أرسل ولديه أحمد وجعفر لمقاتلة السامانيين فكان من بين الذين برزوا في قتال السامانيين أبو شجاع بويه بن فناخسرو[٩٨]. والثابت عند المؤرخين أنه إثر الخلافات التي نشبت بين خلفاء الأطروش خرج من الديلم جماعة من القواد التي أشرنا إليهم لامتلاك البلاد منهم ليلى بن النعمان وماكان بن كاكي وأسفار بن شيرويه وخرج مع كل واحد منهم ناس كثير من الديلم، وخرج أولاد بني بويه مع ماكان بن كاكي وكان مرداويج بن زيار من أصحاب أسفار[٩٩]. وعندما انهزم ماكان أمام مرداويج والتجأ إلى السامانيين، وبان ضعفه وعجزه استأذنوه (بنو بويه) بتركه وقالوا له: «إن الأصلح لك مفارقتنا إياك لتخف عنك مؤونتنا ويقع كلنا على غيرك فإذا تمكنت عاودناك»[١٠٠]، فأذن لهم ماكان والتحقوا بخصمه مرداويج.

ولم ينسحب البويهيون وحدهم بل اقتدى بهم عدد من قواد ماكان، ولما صاروا عند مرداويج خلع عليهم وأكرمهم وقلد كل واحد منهم ناحية من نواحي الجبل وأما علي بن بويه فإنه قلده الكرج[١٠١].

وهؤلاء البويهيون الذين نتحدث عنهم والذين على أيديهم قامت الدولة البويهية هم ثلاثة أخوة: علي (عماد الدولة)، الحسن (ركن الدولة)، أحمد (معز الدولة). وهذه الألقاب لقبهم بها الخليفة

□ بلاد فارس في خارطة (ابن حوقل).



□ برج ضريح، بناه البويهيون في احد جبال إيران، يعود للقرن العاشر ميلادي.

العباسي فيما بعد أثر استيلائهم على بغداد.

ولا نعرف الكثير عن نشأتهم الأولى، سوى بعض الإشارات التي وردت في تلك الحكاية الأسطورية التي ينقلها المؤرخون عن تفسير الحلم الذي رآه والدهم في المنام والذي فسر على أنه دليل على تملكهم للبلاد[١٠٢].

ومن هذه الحكاية نستشف أن والدهم أبا شجاع بويه كان حطاباً وكانوا فقراء وقد توفيت والدتهم وهم صغار، ويحكى أن أحمد (معز الدولة) في شبابه كان يحتطب على رأسه[١٠٣]، ولا شك أن هذه الحياة الصعبة قد دفعتهم كما دفعت معظم الديلم إلى العمل العسكري لتأمين معيشتهم.

أما نسبهم فقد اختلف الكثيرون حوله، فيذكر ابن خلقان[١٠٤]، أن الصابي ذكر في كتابه «التاجي» إنهم يرجعون في نسبهم إلى بهرام جور بن يزدجرد الملك الساساني لكن ليس هناك إجماع على صحة هذا النسب، فقد اختلف المؤرخون في بهرام الذي رفع إليه نسب بويه، فقال بعضهم بنسبته إلى الفرس: بهرام جور بن يزدجرد بن سابور[١٠٥]، وقال آخرون بنسبته إلى العرب وهو بهرام الضحاك بن الأبيض بن معاوية بن الديلم بن ضبة بن آد[١٠٦]. ويرى ابن الأثير نسبتهم إلى الديلم بسبب طول مقامهم ببلادهم[١٠٧]، وينقل ابن خلدون ما ذكره ابن ماكولا من أن نسبهم يعود إلى الساسانية وما قاله مسكويه، بنسبتهم إلى يزدجرد بن شهريار، لكنه يؤكد بأن هذه الأنساب موضوعة، وضعها من لا يعرف طبائع الأنساب في الوجود، واستبعد أن يكونوا من غير الديلم ثم تكون لهم رياسة الديلم لأن الرئاسة على قوم لا تكون في غير أهل بلدهم[١٠٨].

أما الأصفهاني وهو أكثر المؤرخين معرفة بأصول ملوك الفرس، فرغم أنه يجعل للبويهيين أصلاً يعود إلى الملك الساساني بهرام غور[١٠٩]، إلا أنه يعود ويذكر أن علي بن بويه كان زعيماً لإحدى قبائل الديلم تسمى شيرذيل اوندان[١١٠]، تقيم في قرية كياكاليش في ديلمان[١١١].

إذاً، فالبويهيون على الأرجح ينتسبون إلى الديلم، دخلوا في الإسلام، مع من دخله من الديلم على يد الناصر الأطروش، شيعة زيديين، وبسبب الأحوال المعيشية التي تفرضها طبيعة البلاد عليهم. فقد عملوا مثل معظم الديلم كجند مرتزقة لتأمين معيشتهم. فالتحقوا بإحدى القيادات التابعة للديلم، الصاعدة في ذلك الوقت، ماكان بن كاكي، الذي كان في البداية أحد قادة الأطروش وخلفائه. ولا شك أنهم استطاعوا في وقت قصير أن يصلوا إلى مراكز مهمة في جيش ماكان لشجاعتهم وخبرتهم العسكرية ولما حلت الهزيمة بـ ماكان التحقوا بالقائد الجديد الذي بدا نجمه في الصعود مرداويج بن زيار[١١٢]. كل ذلك بانتظار فرصتهم المناسبة لتحقيق مشروعهم الخاص، هذا المشروع الذي سيكتب له النجاح فيما فشل الآخرون من الديلم وغيرهم في تحقيقه. وستقوم الدولة البويهية لتسيطر على الخلافة العباسية حوالي قرن وربع، ولتشكل كما أسماها مينورسكي[١١٣] «مرحلة الانتقال الإيرانية بين السيطرة العربية منذ بداية الإسلام والغزو التركي في القرن الخامس / الحادي عشر».

الهوامش

(١) د. حسن منيمنة: تاريخ الدولة البويهية، السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي — مقاطعة فارس ٤٢٠ صفحة — الدار الجامعية — بيروت.

(٢) Minorsky, domination, p. 1. EI², art daylam t. II, p. 190.

(٣) Minorsky, domination p. 2. EI², art daylam t. II, p. 199.

(٤) ابن حوقل، ص ٣١٨ — ٣٢٦.

(٥) يستبدل المقدسي اسم مقاطعة جيلان بديلمان، ص ٣٥٥.

(٦) المقدسي، ص ٣٥٣.

(٧) Minorsky, domination p. 3. EI², art daylam, t. II, p. 196.

(٨) Ibid, Ibid.

(٩) EI², art daylam t. II, p. 196.

(١٠) DI², art daylam t. II, p. 196.

(١١) المنتزع، ص ٢٩ — ٣٢. المسعودي، مروج، ج ٤ ص ٣٠٨.

(١٢) الاصطخري، ص ١٢٠، المسعودي، مروج، ج ١ ص ١٣١.

(١٣) المصدر نفسه.

(١٤) ابن حوقل، ص ٣٢٠.

(١٥) المقدسي، ص ٣٦٨.

(١٦) Minorsky, domination, p. 3.

(١٧) Minorsky, domination, p. 4. EI², art daylam, t. II, p. 196. Azizi, domination, p. 259.

(١٨) المسعودي، مروج، ج ٤ ص ٣٧٥.

(١٩) المسعودي، مروج، ج ٤ ص ٣٠٨.

(٢٠) EI², art daylam, t. II, p. 196-197.

(٢١) المقدسي، ص ٣٥٥.

(٢٢) ابن حوقل، ص ٣٢٠.

(٢٣) المقدسي، ص ٣٦٨.

(٢٤) المقدسي، ص ٣٦٨ — ٣٦٩.

(٢٥) المصدر نفسه.

(٢٦) ذيل، ص ٣١٣.

(٢٧) المقدسي، ص ٣٦٩. مسكويه، ج ٢ ص ١٨٢.

(٢٨) EI², art daylam, t. II, p. 199-200.

(٢٩) مسكويه، ج ٢ ص ١٤٠ — ١٤١.

(٣٠) التنوخي، نشوار، ج ١ ص ٨٨ — ٨٩.

(٣١) التنوخي، نشوار، ج ١ ص ١٥٤.

(٣٢) المنتزع، ص ٢٩ — ٣٥.

(٣٣) Voir Minorsky, domination, p. 4.

(٣٤) الطبري، ج ٤ ص ٢٥١. والبعض يجعلها سنة ٢٣ أو ٢٤هـ. انظر البلاذري، فتوح، ص ٣١٣ — ٣١٦.

(٣٥) الطبري، ج ٤ ص ٢٥١ — ٢٥٣. البلاذري، فتوح، ص ٣١٣ — ٣١٦.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٢٥٣ — ٢٥٥.

(٣٧) البلاذري، فتوح، ص ٣١٣ — ٣٣١.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٣١٨.

(٣٩) قدامة، ص ٢٦١.

(٤٠) المسعودي، مروج، ج ٤ ص ٣٠٨.

(٤١) Cahen, Islam, p. 202. Minorsky, domination, p. 5. Azizi, domination, p. 260.

(٤٢) الطبري، ج ١٠ ص ٥٣ — ٥٩. المنتزع ص ٣٨ — ٣٩. ابن الأثير، ج ٥ ص ٩٠.
EI², art daylam t. II p. 196-197. Madeluns Alids p. 27-28.

(٤٣) الطبري، ج ١٠ ص ٢٢٧.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٢٢٨ — ٢٣٢.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٣٠٥.

(٤٦) الطبري، ج ١١ ص ٨٧ — ٨٩. ابن الأثير، ج ٥ ص ٣١٥.

(٤٧) الطبري، ج ٨ ص ٣٠٠ — ٣٠١.

(٤٨) الطبري، ج ٨ ص ٢٧٢ — ٢٧٧.

(٤٩) الطبري، ج ١١ ص ٩٠ — ٩٢. المنتزع، ص ٣٨ — ٤٥. المسعودي، مروج، ج ٤ ص ١٥٣. ابن الأثير، ج ٥ ص ٣١٦ — ٣١٧. Madelung, Alids p. 28.

(٥٠) الطبري، ج ١١ ص ٩٢ — ٩٣. الأصفهاني، ص ٢٣٩. ابن الأثير، ج ٥ ص ٣١٧.

(٥١) الطبري، ج ١١ ص ٩٣.

(٥٢) الطبري، ج ١١ ص ١١٣. ابن الأثير، ج ٥ ص ٣٢٩.

(٥٣) المصدر نفسه، ص ١٦٧، المصدر نفسه، ص ٣٤٥.

(٥٤) المصدر نفسه، ص ٢١١، المصدر نفسه، ص ٣٦٠.

(٥٥) ابن الأثير، ج ٥ ص ٣٦٣.

(٥٦) الطبري، ج ١١ ص ٢٢٣. ابن الأثير، ج ٥ ص ٣٧١. الأصفهاني، ص ٢٣٩ — ٢٤٠.

(٥٧) الطبري، ج ١١ ص ٢٣٤. ابن الأثير، ج ٦ ص ٧.

(٥٨) الطبري، ج ١١ ص ٢٧١. المنتزع، ص ٢٤ — ٤٥. ابن الأثير، ج ٦ ص ٥٥.

(٥٩) الأصفهاني، ص ٢٣٩ — ٢٤٠. المنتزع، ص ٤٥ — ٤٨.

(٦٠) ابن الأثير، ج ٦ ص ٦٥.

(٦١) المصدر نفسه.

(٦٢) الطبري، ج ١١ ص ٣٤٩ — ٣٥٢. ابن الأثير، ج ٦ ص ٧٤، ٧٥، ٨٤.

(٦٣) المصدر نفسه، ص ٣٧٠. المصدر نفسه، ص ٩٦ — ٩٧.

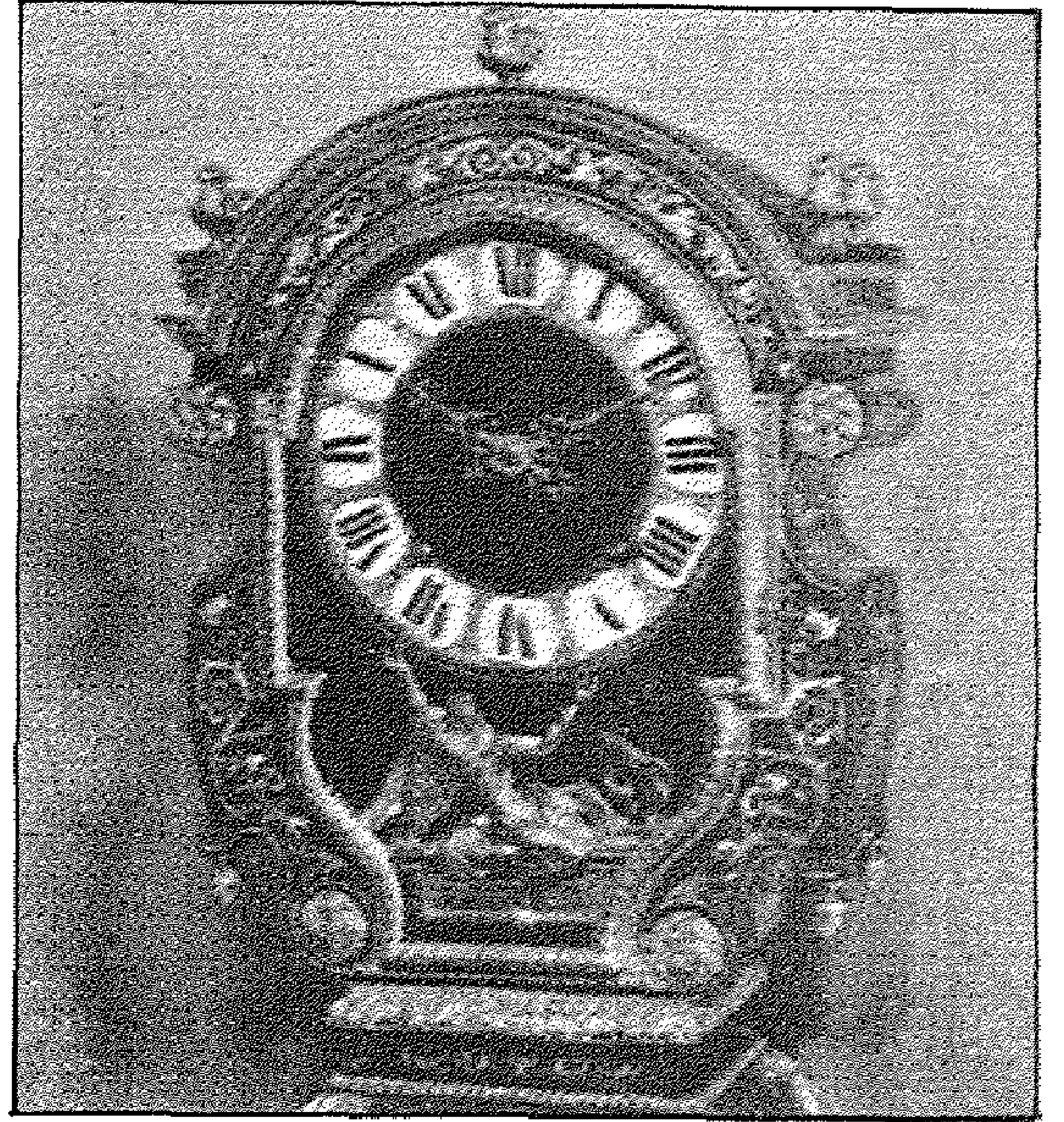
(٦٤) المنتزع، ص ٣٨.

(٦٥) المصدر نفسه، ص ٣٨ ــ ٤٥.
(٦٦) الطبري، ج ١١ ص ٩٦. ابن الأثير، ج ٥ ص ١٢١.
(٦٧) EI[2], art daylam, t. II p. 197.
(٦٨) Ibid.
(٦٩) المنتزع، ص ٤٩. ابن الأثير، ج ٦ ص ١٤٦.. Madelung, Alids, p. 29.
(٧٠) المنتزع، ص ٤٩. المسعودي، ج ٤ ص ٣٠٨.
(٧١) Minorsky, domination, p. 8.
(٧٢) المنتزع، ص ٥١.
(٧٣) المنتزع، ص ٥١.
(٧٤) المصدر نفسه، ص ٥٣ ــ ٥٦. المسعودي، مروج، ج ٤ ص ٣٠٨. ابن الأثير، ج ٦ ص ١٤٦، ابن خلدون، ج ٣ ص ٧٧٠ ــ ٧٧٢.
(٧٥) الطبري، ج ١١ ص ٤٠٩. مسكويه، ج ١ ص ٣٦.
(٧٦) EI[2], art daylam t. II, p. 197.
(٧٧) مسكويه، ج ١ ص ٥٠. ابن الأثير ج ٦ ص ١٥٦.
(٧٨) المصدر نفسه، ص ٥١. المصدر نفسه، ص ١٥٦.
(٧٩) EI[2], art daylam t. II, p. 198.
(٨٠) الطبري، ج ١١ ص ٤٠٩.
(٨١) المنتزع، ص ٥٨ ــ ٥٩؛ I.O.N.E.S., Vol. 26 (1967), p. 32-35.
(٨٢) المنتزع، ص ٦٠ ــ ٦١. الهمذاني، ص ٥١؛ Minorsky, domination, p. 8.
(٨٣) مسكويه، ج ١ ص ٧٦. ابن خلدون، ج ٣ ص ٧٩٩ ــ ٨٠٠ Ibid.
(٨٤) المنتزع، ص ٦٢ ــ ٦٣. ابن الأثير، ج ٦ ص ١٨٥. ابن الجوزي، المنتظم، ج ٦ ص ٢٠٧. ابن خلدون، ج ٣ ص ٧٩٨ ــ ٨٠٠.
(٨٥) المنتزع، ص ٦٣ ــ ٦٥؛ EI[2], art Asfar B. Shirawayh t. I, p. 709. Madelung, Alids, p. 37-38.
(٨٦) المصدر نفسه، ص ٦٤ ــ ٦٥. الأصفهاني، ص ٢٤٠ ــ ٢٤١. ابن الأثير، ج ٦ ص ١٨٩ و ١٩٥. ابن خلدون، ج ١ ص ٨٠٠ ــ ٨٠٢.
(٨٧) الأصفهاني، ص ٢٤١. ابن الأثير، ج ٦ ص ١٩٥؛ Madelung, Alids, p. 39.
(٨٨) ابن الأثير، ج ٦ ص ١٩٦.
(٨٩) المصدر نفسه، عريب، ص ٧١.
(٩٠) المصدر نفسه. ابن خلدون، ج ٣ ص ٨٠٢ ــ ٨٠٤.
(٩١) عريب، ص ٧٩. الهمذاني ص ٥١. مسكويه، ج ١ ص ١٦٢. ابن الأثير، ج ٦ ص ١٩٧ ــ ١٩٨. ابن الجوزي، المنتظم، ج ٦ ص ٢٠٧. الأصفهاني، ص ٢٤١. ابن خلدون، ج ٣ ص ٨٠٣ ــ ٨٠٤.
(٩٢) مسكويه، ج ١ ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦. ابن الأثير، ج ٦ ص ١٩٨؛ Madelung, Alids, p. 41-43.
(٩٣) مسكويه، ج ١ ص ٢١٥، ٢٢٨. ابن الأثير، ج ٦ ص ٢١٤، ٢١٥.
(٩٤) الأصفهاني، ص ٢٤٢.
(٩٥) Minorsky, domination, p. 9. EI[2], art Asfar B. Shirawayh. T.I. p. 709.
(٩٦) مسكويه، ج ١ ص ٣١٠ ــ ٣١٧. ابن الأثير، ج ٦ ص ٢٤٤ ــ ٢٤٦؛ Azizi, domination, p. 262-263. ابن الطقطقي، ص ٣٨٠. التنوخي، نشوار، ج ١ ص ١٥٦ ــ ١٥٧. السيوطي، ص ٣٩١؛ Cahen, Islam, p. 177.
(٩٧) المنتزع، ص ٥٤.
(٩٨) المصدر نفسه، ص ٥٨.
(٩٩) مسكويه، ج ١ ص ٢٧٥. ابن الأثير، ج ٢٣١. ابن خلدون، ج ٢ ص ٧٧٢.
(١٠٠) مسكويه، ج ١ ص ٢٧٧. ابن الأثير، ج ٦ ص ٢٣١.
(١٠١) المصدر نفسه، Frye, the golden, p. 208-209.
(١٠٢) ابن الأثير، ج ٦ ص ٢٣٠ ــ ٢٣١.
(١٠٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج ٦ ص ٢٧٠.
(١٠٤) ابن خلقان، وفيات، ج ١ ص ٣٥؛ Madelung, Alids, p. 24.
(١٠٥) ابن الأثير، ج ٦ ص ٢٣٠. ابن الطقطقي، ص ٢٧٦.
(١٠٦) البيروني، الآثار، ص ٣٨.
(١٠٧) ابن الأثير، ج ٦ ص ٢٣٠. ابن الطقطقي، ص ٢٧٦.
(١٠٨) ابن خلدون، تاريخ، ج ٣ ص ٨٢٦.
(١٠٩) الأصفهاني، ص ٢٤١.
(١١٠) المصدر نفسه، ص ٢٤٢ ــ ٢٤٣.
(١١١) Voir, Minorsky, domination, p. 9.
(١١٢) Frye, the golden, p. 209. The Cambridge, volume 4, p. 250-255. Madelung, Alids, p. 85-89.
(١١٣) Minorsky, domination, p. 21. EI[2], art Buyldes T.I. p. 1390.

* * *

● «إني لم أستعملك على دماء المسلمين، ولا على أعراضهم. ولكني استعملتك لتقيم فيهم الصلاة، وتقسم بينهم وتحكم فيهم بالعدل».

(الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه)



تاريخ الساعة

شذا عدره

«إن كل جهد إيجابي إنساني هو سعي إلى غاية. والعلم، من بين الجهود الإنسانية، سعي إلى غاية معينة هي الحقيقة. وبقدر ما يكون هذا السعي خالصاً وبقدر ما ينطلق بقوة وتراكم، تعلو قيمته ويغزر فعله وتتعاظم نتائجه. والتاريخ يشارك غيره من العلوم في أنه مثلها سعي وجهد نحو الحقيقة [1] وبقدر ما نلمّ بجوانب تلك الحقيقة ونعطيها القدر الكافي من الجدية والاهتمام والموضوعية، مهما كبُرت أو تضاءلت قيمتها، نكون قد أدينا واجبنا نحو «صناعة التاريخ».

والذي يحدونا لمثل هذا الكلام، هو مواقف بعض المؤرخين والباحثين الأوروبيين السلبية حيال التاريخ العربي والإسلامي بشكل عام والطريقة التي حاولوا أن يكتبوا فيها ذلك التاريخ مجتهدين في إبعاد العرب والمسلمين عن ضوء المساهمة في تطور الإنسانية في جميع مجالاتها الحضارية. وما موضوع «تاريخ... الساعات» الذي نشر في «مجلة التاريخ العالمي — International History Magazine عدد شهر أيار/مايو ١٩٧٣ — رقم (٥)، والذي ننشر ترجمة له على صفحات هذا العدد، ما هو إلّا دليل على ذلك. وإن كان يبدو بسيطاً في موضوعه ولكنه ولا شك مثال لما هو أهم، بل هو أيضاً من الأهمية بمكان من حيث دلالته وفحواه الحضاري.



تقدم لنا الباحثة الكسندرا فيادا (Alexandra Fiada)، في العدد المذكور، عرضاً عن تاريخ تطور الساعات منذ ظهور فكرة قياس الزمن حتى وقتنا الحاضر تقريباً تُركز خلال ذلك جلّ اهتمامها على دور الأوروبيين في هذا المجال متناسية تماماً دور الشعوب الأخرى وخاصة العرب والمسلمين، الذين كانوا في بعض الأحيان سبّاقين في مجال ضبط الوقت خاصة وأنهم كانوا أحوج الشعوب لذلك بسبب اضطرارهم لتحديد أوقات صلواتهم.. وهي لم تأت إلّا على ذكر ساعة الخليفة العباسي هارون الرشيد (٧٦٦ — ٨٠٩م) التي أهداها الى الامبراطور شارلمان (٧٤٢ — ٨١٤م) والتي حازت آنذاك على إعجاب ودهشة الأوروبيين. وقد قال عنها بعض مؤرخيهم بأنها الأولى من نوعها في أوروبا.

ولسنا هنا في صدد إلقاء الضوء على دور العرب والمسلمين وأهميته في مجال تطوير آلات الزمن، ولكن حسبنا أن نشير إلى بعض العلماء المسلمين الذين يعتبرون من المراجع المهمة في هذا المجال.

محمد بن موسى، الخوارزمي، (القرن التاسع ميلادي)، وهو أول من وصف كيفية استعمال الاسطرلاب لقياس ارتفاع الشمس عن سطح الأرض بهدف تحديد أوقات الصلاة واتجاه مكة المكرمة، وابن النديم، (القرن العاشر ميلادي)، وهو من أوائل من كتبوا عن موضوع الوقت والساعات في كتابه «الفهرست». والكندي، وله رسالة في عمل الساعات وبديع الزمان إسماعيل الجَزَري، (القرن الثالث عشر ميلادي)، وله كتاب في معرفة الحيل الهندسية وفيه التعليمات على صنع الساعات. هؤلاء بعض من كتب عن الرخائم ومقاييس الزمن ويجب أن لا يفوتنا أن منارة الجامع الكبير في دمشق تحتوي على ساعة ميكانيكية منذ القرن الثالث عشر الميلادي.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن مجلة «تاريخ العرب والعالم» قد نشرت في عددها الصادر في نيسان/أبريل ١٩٨١ رقم (٣٠) عرضاً موجزاً لتاريخ صنع الساعات في العالم الإسلامي مع تشديد على أهمية الساعات الأثرية الموجودة في قصر «توبكابي» في اسطمبول والدور الهام الذي قام به العرب في مجال تطوير تلك الصناعة.

كان، على الأرجح، الكلدانيون هم أول من أدرك أن طول ظلّ الإنسان أو قِصَره، يعتمد على حركة الشمس وموقعها وبالتالي قادهم هذا التفكير إلى محاولة قياس الوقت عن طريق قياس طول ظلّ وتدٍ خشبي كانوا يثبتونه عمودياً في الأرض.

تبنّت الشعوب المجاورة لهم، الآشوريون والفينيقيون والفرس واليهود، تلك الطريقة ونقلوها في ما بعد إلى المصريين، الذين كانوا قد سبق لهم، في حوالي سنة ٤٠٠٠ ق.م، أن قسموا النهار إلى اثنتي عشرة ساعة. وتجدر الإشارة، إلى أن عبارة «النهار» قد أثارت في القديم كثيراً من الجدل، من حيث توقيت بدايته ونهايته. ولم يُحَلّ ذلك الإشكال إلّا بعد آلاف السنين مع مجيء الإسلام ومع الآية الكريمة التي حددت موعد طلوع الفجر: «... حتى يتبيّن لكُمُ الخيطُ الأبيضُ من الخيط الأسود من الفجر...»[٢].

كان القدماء المصريون، بميلهم الغريزي نحو تشييد الأبنية الضخمة هم أول من فكر باستبدال الأوتاد الخشبية بمسلّات كبيرة. وقد



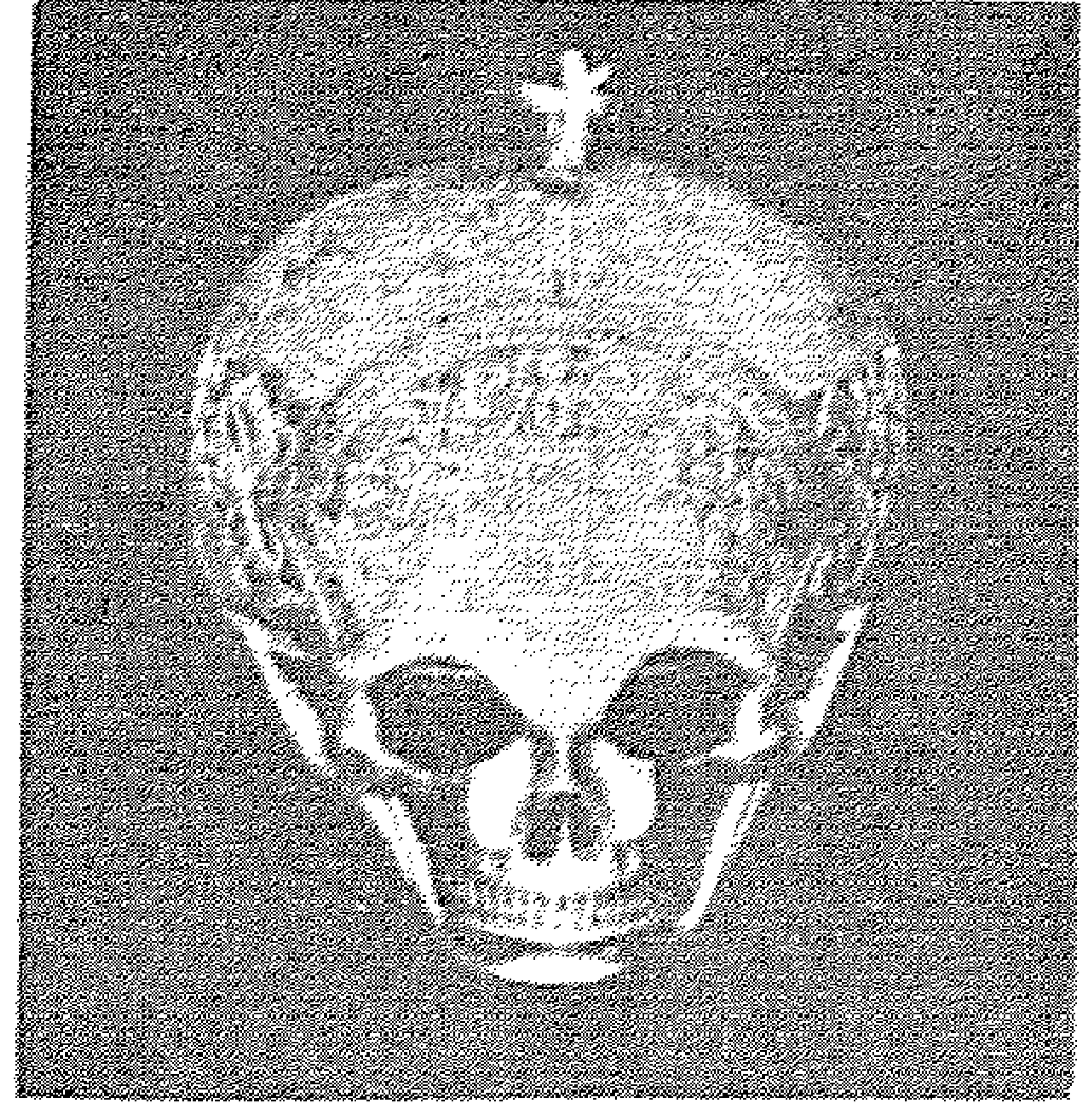
□ كان صناع ساعات الجيب يجتهدون في اشكالها. كبيضة نورمبورغ.

اعتبرت بمثابة ساعات (ظل) للعامة؛ حتى أن مصغرات من تلك المسلّات كانت تستعمل في المنازل كآلة توقيت[٣].

في حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م، اكتشف البابليون والمصريون، طريقة جديدة لقياس الوقت وهي «الساعة المائية» التي تتركب من آنية ترشيح، تملأ بالماء فيتسرّب منها قطرة قطرة إلى إناء آخر مقسم إلى أقسام تبيّن الوقت.

في حوالي عام ٣٠٠ ق.م، طرأ تطور جديد على «الساعة المائية» على يد ابن حلّاق من الاسكندرية يدعى ستسبيوس (Ctesibius) حيث اكتشف الدولاب المسنّن الذي يدور حسب قاعدة أرخميدس المتعلقة بعلم السوائل المتحركة واستعمله في صنع ساعة مائية متطورة عن سابقتها.

أما فيتروفييس (Vetruvius) الروماني، فقد صمم حوالي عام ٣٠ ق.م. ساعة مائية كبيرة ذات قرص ثابت وعقرب متحرك للإشارة إلى ساعات النهار، بالإضافة إلى قرص متحرك وعقرب ثابت يدل على إشارات البروج. وقد كان أبرز وظائف تلك الساعة أن اتخذتها كلّ من المحاكم اليونانية والرومانية كأداة لتنظيم وضبط الفترة التي يترافع فيها المحامون أمام القضاء.



□ ساعة على هيئة جمجمة أهدتها الملكة ماري ستيوات إلى ماري سيتون.

ومن أشهر الساعات التاريخية التي ما زالت تذكرها كتب التاريخ، هي ساعة هارون الرشيد التي أهداها إلى الملك شارلمان. وقد جاء وصفها في بعض كتب مؤرخيهم: «إنها مصنوعة من النحاس الأحمر المطلي بالذهب بها عدة تروس، وإنها تبين الوقت على ميناء وتدق الساعات على جرس عند سقوط كرات صغيرة من الحديد يساوي عددها عدد الساعات التي تدقها ويبيّنها المؤشر، وكان بها اثنتا عشرة نافذة تفتح من تلقاء ذاتها عند الدق ويخرج من كل نافذة فارس يتحرك حركة عسكرية حول نفسه فيعود مرة أخرى فيختفي داخل جهاز الساعة»(٤).

ومع القرون الأولى للميلاد، أصبحت الساعات المائية كثيرة التعقيد حتى أن بعض الأوروبيين كانوا يظنونها من صنع الآلهة.

أمّا ما يختلف عن «الساعة المائية»، فهي «الساعة الرملية» التي كانت عبارة عن إناء زجاجي صغير يوضع على حامل من الخشب والإناء على شكل كأسين يتسرب الرمل الناعم من الكأس العلوي إلى السفلي أو بالعكس من خلال ثقب رفيع بينهما كل ٢٤ ساعة»(٥).

وأول من عرفها المصريون القدماء الذين كانوا يعتبرونها رمز الحياة والموت. أما في العصور الوسطى فقد أصبحت تستعمل كإحدى وسائل الزينة.

أما الساعات الميكانيكية، فلا يمكن تحديد تاريخ ظهورها، ولكن من المرجّح أن تكون قد ظهرت في بعض الأديرة حوالي نهاية القرن العاشر ميلادي. فحياة الأديرة في القرون الوسطى، كان يتحكم فيها «الناقوس» الذي كان يُقرع في أوقات معينة ومحدّدة، لذلك من الممكن أن يكون بعض الرهبان هم أول من حاول جعل الوقت أكثر دقة عن طريق تحسين آلاته. وقد قيل إن أول من صنع ساعة ميكانيكية ذات دولاب مسنّن هو جيرفر (Girvort)، أحد الأساقفة الذي تربع فيما بعد على كرسي البابوية باسم البابا سيلفستر الثاني، وقد كان مشهوداً له التعمق في علوم الرياضيات والفلك في عصره.

استعملت تلك الساعات، في البداية، في الأديرة والكنائس، ولكن مع نهاية القرن الثالث عشر ميلادي، أخذت كثير من المدن تشيِّد لنفسها «أبراج نواقيس»(٦)، حتى أن ادوارد الأول، ملك إنكلترا، طلب من صنّاعه، في عام ١٢٨٨م، تشييد أكبر ساعة له في العالم، حيث تمَّ الانتهاء منها بعد عدة سنوات وظهرت في ساحة قصر وستمنستر القديم داخل برج حجري. كانت تعلن عن الوقت عند مرور كل ساعة من الزمن، بواسطة ناقوس كبير. وقد سميت تلك الساعة بـ «توم الكبير» وقد أصبحت تعرف فيما بعد، بـ «بن الكبير» أي (بيغ بن ـــ Big Ben).

بدأت التحسينات، مع ادوارد الثالث، تطرأ على الساعة الميكانيكية، حيث أحضر من هولندا ثلاثة صنّاع مهرة، يعود إليهم، على الأرجح، فضل صناعة ساعات سالزبوري وكاتدرائيات ويلز الشهيرة التي ما زال بعضها يعمل بصورة جيدة. ومع الوقت أخذت تظهر الساعات المنزلية الصغيرة، كما أن لويس الحادي عشر، ملك فرنسا، قد اشترى في عام ١٤٨١م ساعة متنقلة، كان يحملها أينما ذهب.

أما الحدث الأبرز في صناعة الساعات، فكان اختراع «الزنبرك» الذي أدّى إلى اختراع «ساعات الجيب» الخفيفة الحمل. وقد ظهرت أولى تلك الساعات، في بداية القرن السادس عشر ميلادي، مع بيتر هينلين (Peter Henlein)(٧)، صانع أقفال من مدينة نورمبورغ، التي غَدَتْ مع مثيلتها أوغسبورغ في ألمانيا، أهم مركزين لتلك الصناعة.

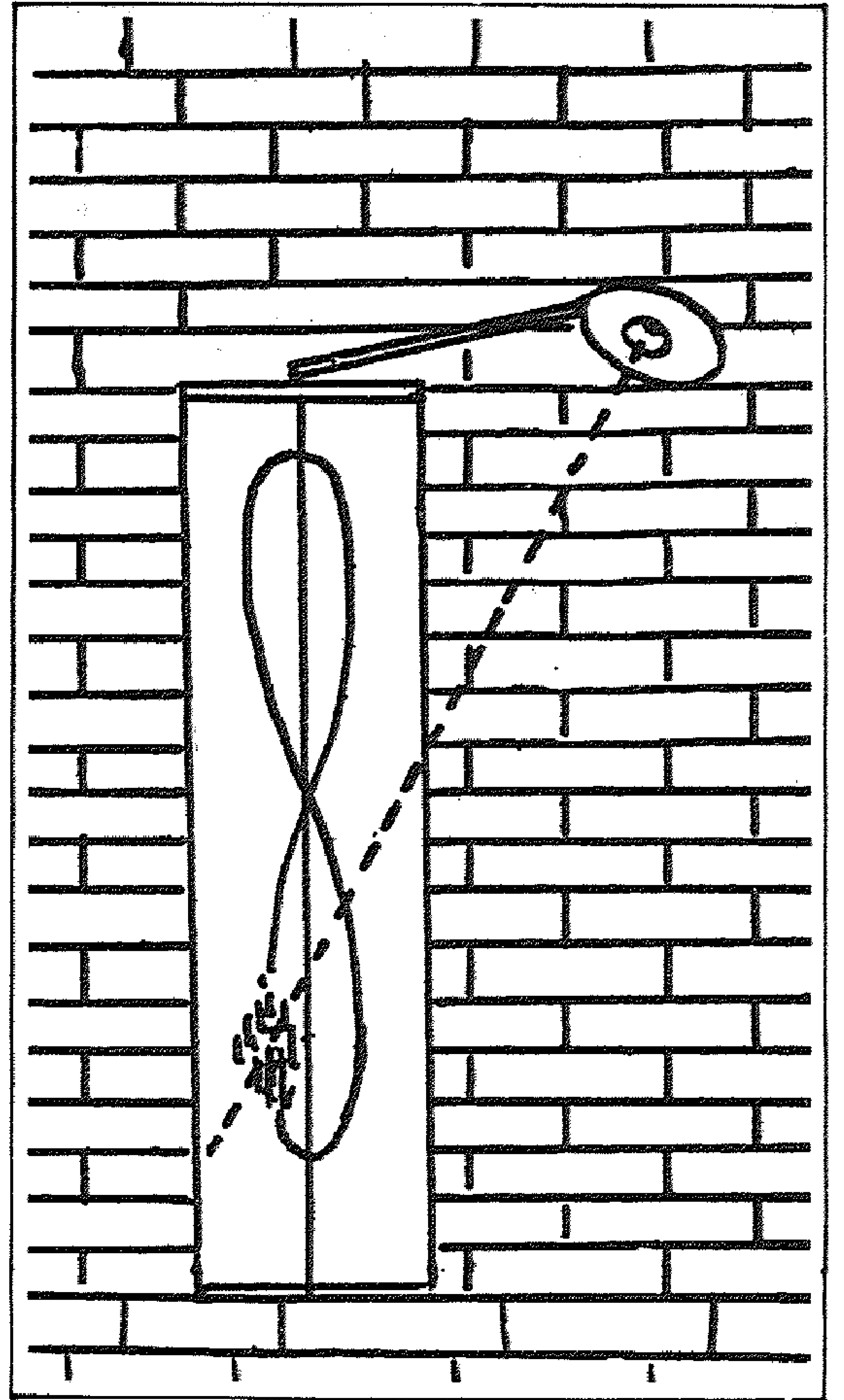
وفي عام ١٦٧٣م، طرأ تطور تقني هام على صناعة الساعات الكبيرة والجيب بفضل كريستيان هيجنز (Christian Huygens) الذي



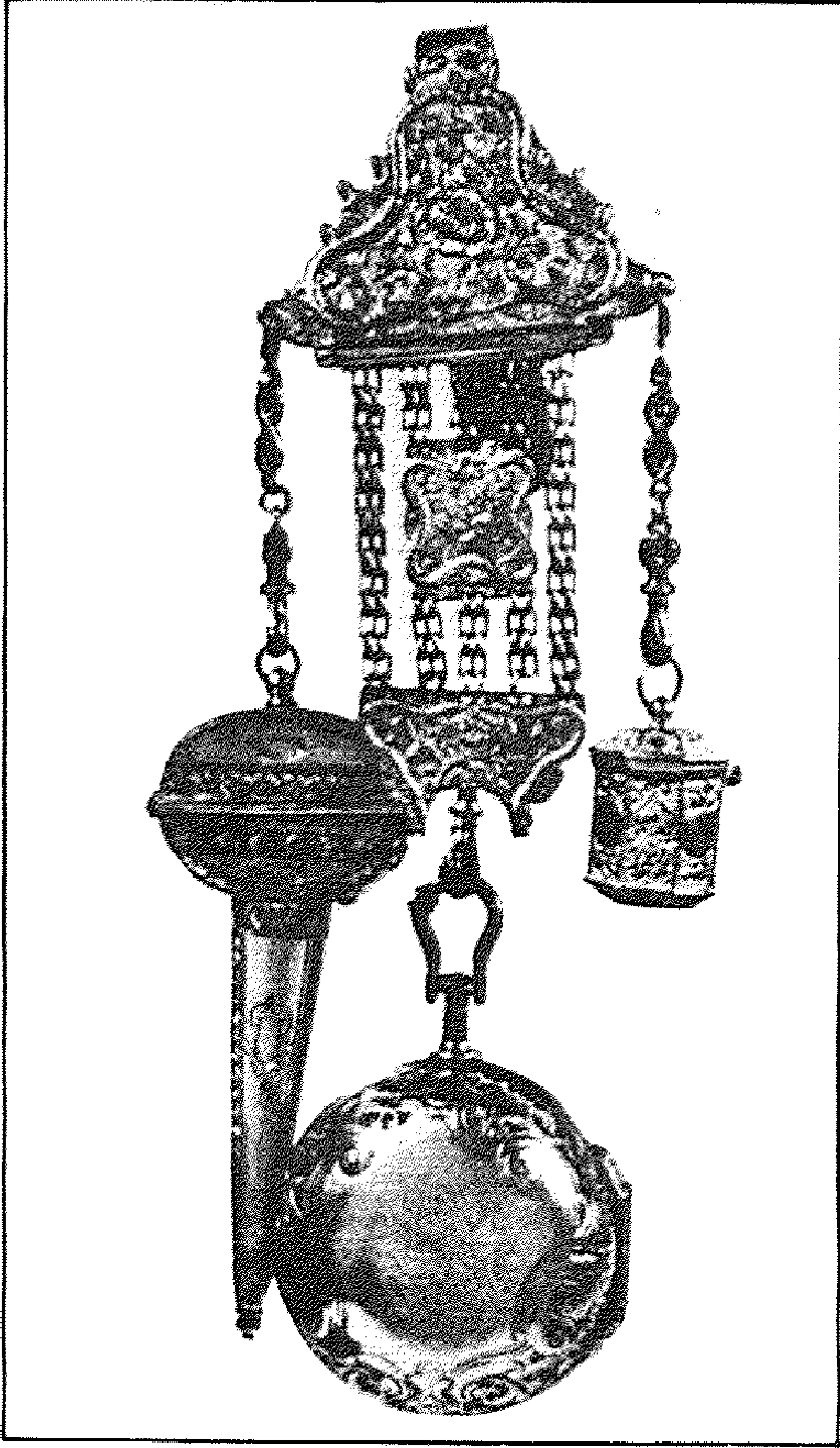
□ ساعة بيـغ ــ بن الشهيرة في لندن.

اخترع البندول أو رقّاص الساعة. وقد تقدم به إلى لويس الرابـع عشر ملك فرنسا فحاز إعجابه واهتمامه.

أعطى هذا الاختراع، الفنانـين والحرفيـين دفعة جديدة إلى الأمام نحو صناعة أكثر تطوراً وجمـالاً، ولم تعـد أوغسبـورغ ونـورمبـورغ المركزين الأهم في صناعة الساعات، بل شاركتهما عام ١٥٥٠م كل من باريس، ديجون وجنيف ومن ثمَّ لحقتها لندن في أواخر ذلك القرن. ولم يعد الهدف صناعة ساعة جيدة فقط بل صياغتها أيضاً بشكل جميل. وقد استعملوا لهذه الغاية معادن ومواد باهظة الثمن، كـالذهب، الفضة، الأحجار الكريمة، المخمل، الجلد وغير ذلك.



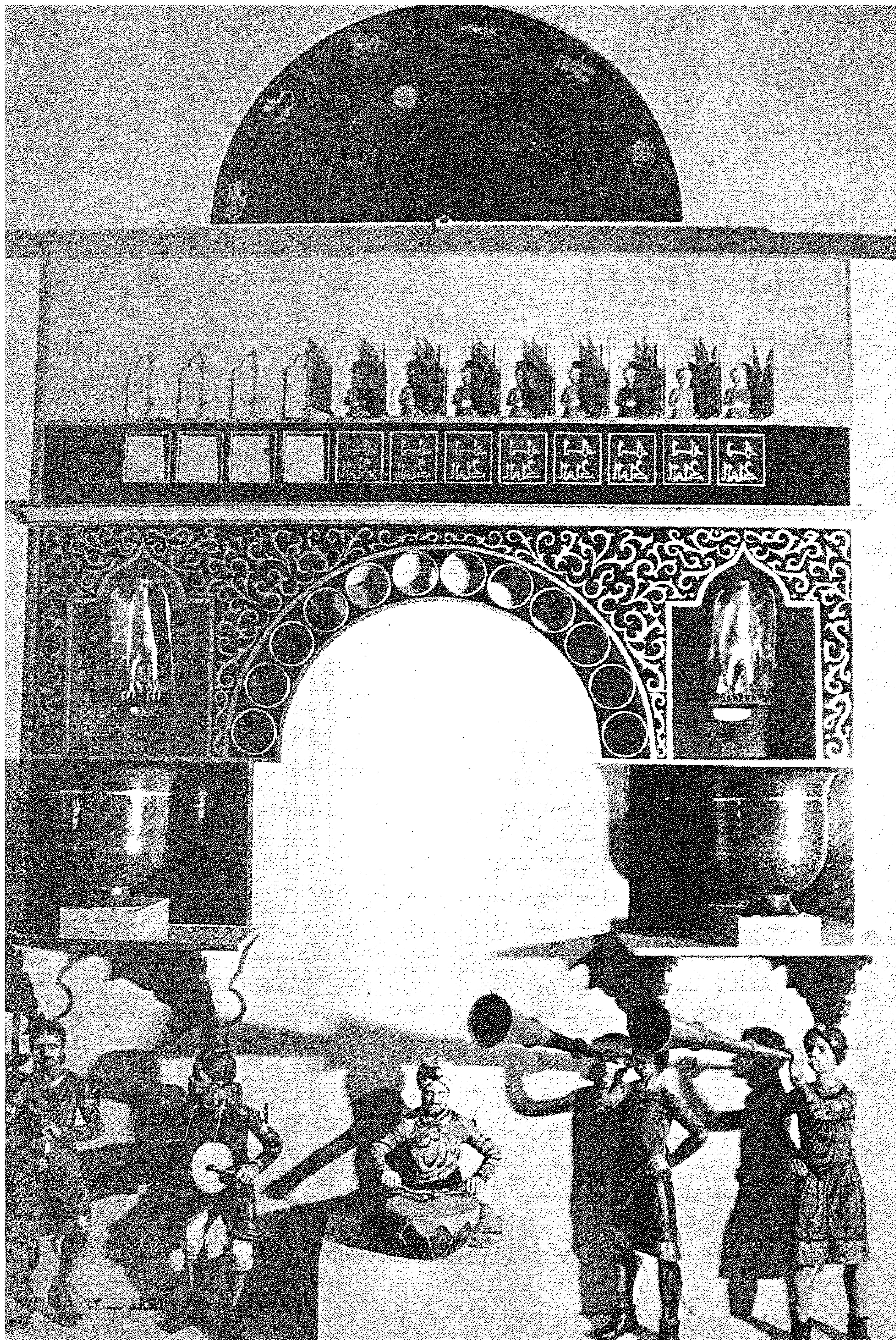
□ مزولة تبيّن الوقت الزمني.

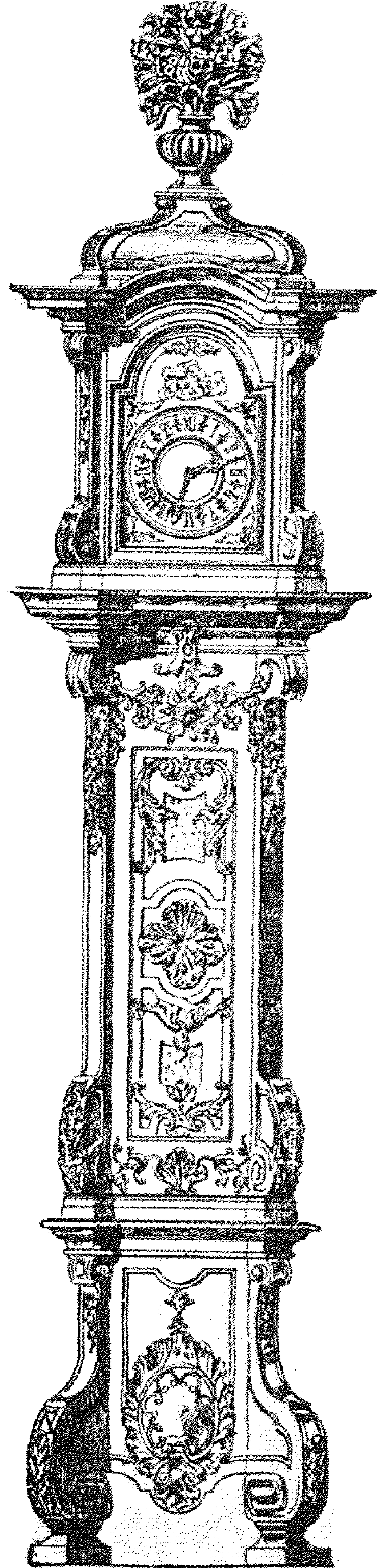


□ ساعة جيب. تُعلق في حزام «ست البيت» مع مقص وكشتبان.

وتجدر الإشارة، إلى أنه حتى منتصف القرن السادس عشر، لم يكن لصنّاع الساعات الكبيرة، أية نقابة تمثلهم، بل كانوا يعتبرون فنانين يمارسون مهنة حرة، أمّا صناع الساعات الصغيرة، فقد كانوا ينتمون إلى نقابة «صنّاع الأقفال». وفي عام ١٥٦٥م، طالب بعض أولئك الصنّاع في مدينة نورمبورغ الألمانية، طالبوا مجلس المدينة بالسماح لهم بتكوين نقابة خاصة بهم. أمّا في إنجلترا، فقد تكونت في ٢٢ آب/أغسطس ١٦٣١م أول نقابة لصنّاع الساعات بقرار من الملك شارل الأول، وأطلق عليها اسم «الشركة المبجّلة لصنّاع الساعات» وقد أعطيت الحق في التخلص من أية ساعة رديئة لئلا تسيىء لحرفتهم ولحماية العامة من الحرفيين المستغلين.

كانت صناعة الساعات، بالرغم من كلّ التقدم الذي حققته في مجاليْ التقنية والجمال، تفتقد مؤشراً مهماً بالنسبة لوقتنا الحاضر، وهو «عقرب الدقائق» الذي لم تتضح ضرورته إلّا مع بداية القرن السابع عشر خاصة بالنسبة لساعة الجيب التي كانوا يعتبرونها قطعة من الحليّ أكثر منها آلة لضبط الوقت. وقد غدت إنكلترا في القرن الثامن عشر، أهم مركز لصناعة ساعات الجيب في العالم وقد تبعتها فرنسا ومن ثمّ سويسرا. وقد تميزت تلك الفترة بظهور صنّاع اختصاصيين لكل قطعة من الساعة، فكان هناك صانع العجلة المسننة، وصانع الزنبرك وصانع القرص وصانع العلبة الخارجية،(٨)، وبذلك يتوزع العمل وبالتالي يتوزع الجهد الذي لم يعد يتطلب ثمناً باهظاً للساعة كما لو كان قد





قام بصنعها رجل واحد. وممّا لا بدَّ من ذكره، أن صنّاع فرنسا المهرة قد اهتموا بتحسين صندوق الساعة الخارجي، أي بجمال شكلها الخارجي وليس بتحسين تقنية آلاتها، التي حازت على اهتمام صنّاع سويسرا الذين صبّوا جلّ اهتمامهم على تحسين تلك الآلات وتطويرها فغدت معهم تضاهي جودة وتقنية الساعات الكبيرة.

ابتدأت إنكلترا مع أواخر القرن الثامن عشر وبالتحديد ما بين ١٧٩٧ و ١٧٩٨، تشهد تراجعاً ملموساً في صناعة الساعات بسبب الضريبة الباهظة التي كان يفرضها البرلمان على تلك الصناعة مما حَدَا بالكثيرين التوقف عن استعمالها. كما وإن فرنسا قد عانت أيضاً من ذلك التدهور آبان ثورتها، إذ كان استعمال الساعة دليلاً على الثراء والارستقراطية وهذا بالتالي اتهامٌ خطير قد يؤدي بأصحابه إلى المقصلة. لذلك حاول الكثيرون التخلص من ساعاتهم لئلا تؤدي بهم إلى الموت.

أما نورمبورغ وأوغسبورغ، فقد شهدتا أيضاً بنهاية ذلك القرن انحداراً ملحوظاً في تلك الصناعة، حيث انحصرت بجماعة من الحطابّين وبجماعة أخرى عُرفت باسم «مزارعي الغابة السوداء»، وقد كانوا يصنعون ساعات من الخشب ذات أشكال بديعة، وأشهرها ساعة «الوقواق» أو «الكوكو» التي ابتدعها فرانز كتّرِرْ (Franz Ketterer)، من الجماعة الأخيرة.

أمّا ساعة اليد، لم تصبح سائدة إلا مع بداية القرن التاسع عشر ميلادي، حيث أهدتها جوزفين، امبراطورة فرنسا، إلى إحدى قريباتها. هذا مع العلم أن ساعة اليد كانت قد ظهرت قبل هذا التاريخ، غير أنها لم تحظَ بإعجاب النساء، كما وأن الرجال اعتبروها متأنثة، أي ملائمة للنساء أكثر منها للرجال، ولكنهم أدركوا فيما بعد وخلال الحرب العالمية الأولى، مدى عملية استخدام ساعة اليد وذلك بدل تلمسها في جيوبهم، خاصة أثناء المعركة.

وفي عام ١٨٧٦، ظهرت ساعة جيب، تعتبر تحفة التطور التقني وأكثر الساعات تعقيداً، إذ ليست تشير فقط إلى الساعات والدقائق والثواني، بل تشير أيضاً إلى اليوم، التاريخ الشهر السنوات الكبيسة، الفصول، أوجه القمر،

دائرة البروج، التوقيت في ١٢٥ مدينة في العالم، وأكثر من ذلك، كان لديها بوصلة، ميزان حرارة، مقياس للضغط الجوي، مقياس للإرتفاعات مقياس الثقل النوعي للسوائل وأخيراً نغمة موسيقية تصدح عند مرور كل ساعة من الزمن. جميع هذه الخصائص اجتمعت في علبة ذهبية، لتؤلف ساعة جيب عادية.

وأخيراً، إذا كان إنسان القرن التاسع عشر، قد شهد ظهور أكثر الساعات تعقيداً في العالم، فحسبنا أن إنسان القرن العشرين قد ابتكر أكثر أداة لقياس الزمن دقة بحيث لا تتأخر سوى ثانية واحدة كل ثلاثة آلاف سنة.

الهوامش

(١) زريق، قسطنطين: **نحن والتاريخ**، (دار العلم للملايين — بيروت ١٩٧٤)، ص ١٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

(٣) استبدلت المسلة بالمزولة الشمسية التي اكتفت الباحثة في حديثها عنها ببعض المقاطع التي وردت في الإنجيل، لتشير من خلالها إلى تاريخ ظهورها حوالي ٦٩٥ق. م.
أما كتاب «قصة الزمن» الصادر عن الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر عام ١٩٧٠ لصاحبه حمدي مصطفى حرب، فيفيدنا ان تاريخ ظهور المزولة الشمسية يعود إلى البابليين، وهم أول من صنع المزاول الشمسية الدقيقة لتعمقهم في دراسات الفلك، ثم نقلها عنهم اليهود. أما روما فلم تكن تملك حتى عام ٥٧٠ق.م. سوى مزولة شمسية واحدة. ولكنها انتشرت بعد ذلك على يد اليهود في انحاء الامبراطورية الرومانية.
ويدل «برج الرياح»، وهو من الإثارة المشهورة في أثينا، على أن الإغريق قد استخدموا المزاول الشمسية التي تطورت فيما بعد وصنع منها أحجام صغيرة جميلة غاية في الدقة لتوضع في الجيب. ص ١٩ — ٢٠.

(٤) ورد هذا الوصف في المصدر السابق «قصة الزمن» ص ٢٣، وهو ما يتطابق تقريباً مع الوصف الذي جاء في مقال الباحثة.

(٥) ورد أيضاً هذا الوصف في المصدر السابق، ص ٢٠، وهو يشير أن الساعة الرملية قد ظهرت قبل الساعة المائية وقد عرفتها شعوب آسيا قبل التاريخ المسيحي بزمن بعيد.

(٦) «أبراج نواقيس» ما يعني برج الساعة العامة.

(٧) ان بيتر هينلين الالماني Peter Henlein، هو من صنع الساعة المعروفة باسم «بيضة نورمبورغ» التي تطورت فيما بعد إلى ساعة الجيب. المصدر السابق، ص ٤١ و ٤٣.

(٨) «العلبة الخارجية» هو ما يُعرف بأظْرُف الساعة التي كانت توضع فيها ماكينات الساعات الصغيرة.

أمير الأندلس وجاريته

● كتب الأمير عبد الرحمن بن الحكم صاحب الأندلس إلى الفقهاء يستدعيهم إليه. وكان عبد الرحمن قد نظر في شهر رمضان إلى جارية له كان يحبها حباً شديداً، فعبث بها، ولم يملك نفسه أن وقع عليها. ثم ندم ندماً شديداً.

فسأل الفقهاء عن توبته من ذلك وكفارته. فقال يحيى بن يحيى الليثي:
يكفّر ذلك بصوم شهرين متتابعين!
فلما بدر يحيى بهذه الفتيا سكت بقية الفقهاء، حتى خرجوا من عند الأمير، فقالوا ليحيى:
ما لك لم تفته بمذهب الإمام مالك، فعنده أنه مخيّر بين العتق، والطعام، والصيام؟
فقال:
لو فتحنا له هذا الباب سهُل عليه أن يطأ كل يوم ويعتق رقبة. ولكن حملتُه على أصعب الأمور لئلا يعود!

من كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان

المؤتمرون بعلي ومعاوية وعمرو (*)

لما قتلَ عليٌّ أهلَ النَّهرَوان، وكان بالكوفة زُهاء ألفين من الخوارج ممَّنْ لم يخرج مع عبدالله بن وهب، وقومٌ ممن اسْتَأمَنَ[1] إلى أبي أيوب الأنصاري: فتجمّعُوا وأمَّرُوا عليهم رجلاً من طيّء: فوجَّه إليهم عليٌّ رجلاً وهم بالنُّخَيْلَةِ[2] فدعاهم ورفق بهم فأبَوْا، فعاودهم فأبوا، فاقتتلوا جميعاً.

فخرجت طائفةٌ منهم نحو مكّة: فوجّه معاوية مَنْ يقيمُ للناس حجَّهم: فناوَشَهُ هؤلاء الخوارج: فبلغ ذلك معاوية: فوجّه بُسْرَ بن أرْطاةَ أحدَ بني عامر ابن لؤي فتوقّفُوا وتراضَوْا بعد الحرب بأن يصليَ بالناس رجلٌ من بني شيبة: لئلا يفوتَ الناسَ الحجُّ.

فلمَّا انقضى نظرت الخوارجُ في أمرها فقالوا: إن عليّاً ومعاويةَ قد أفسدا أمْرَ هذه الأمة، فلو قتلناهما لعاد الأمرُ إلى حقه.

وقال رجلٌ من أشْجَع: والله ما عمر ودونهما: وإنه لأصْلُ هذا الفساد! فقال عبدالرحمن بن مُلْجَم. أنا أقتل عليّاً! فقالوا: وكيف لك به؟ قال: أغْتَاله!.

فقال الحجاج بن عبدالله الصّريميّ: وأنا أقتلُ معاوية! وقال زَاذَوَيْه مولى بني العَنْبَر: وأنا أقتلُ عَمْراً!.

فأجْمَع رأيُهُم على أن يكون قتْلُهم في ليلةٍ واحدة: فجعلوا تلك الليلة ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان.

فخرج كلّ واحد منهم إلى ناحية: فأتى ابنُ ملجَم الكوفةَ، فأخْفَى نفسه، وأراد أن يتزوَّجَ من امرأةٍ يقال لها قَطَام بنت علقمة: وكانت ترى رَأيَ الخوارج[3]: فقالت له: لا أقنعُ منك إلا بصدَاقٍ أُسمِّيه لك وهو ثلاثة آلاف درهمٍ وعبدٌ وأمَةٌ، وأن تقتلَ عليّاً! فقال لها: لكِ ما سألتِ! فكيف لي به؟ قالت: ترومُ ذلك غِيلةً: فإن سَلِمتَ أرحت الناس من شرّ وأقمتَ مع أهلك، وإن أُصِبْتَ صِرْتَ إلى الجنة ونعيم لا يزول! فأنْعَمَ[4] لها، وخرج من عندها وهو يقول:

ولم أرَ مَهْراً ساقَهُ ذو سماحةٍ
كمَهْرِ قَطَام من فصيحٍ وأعْجَمِ
ثلاثةُ آلافٍ وعبدٌ وقينةٌ
وضربُ عليّ بالحُسَامِ المصمَّمِ[5]
فلا مَهْرَ أغْلى مِنْ عليّ وإن غَلاَ
ولا فَتْك إلاَّ دُونَ فتك ابنِ مُلْجَمِ

ثم أقام ابن مُلجَم: فلامته امرأته، وقالت: ألا تمضي لما قصَدْتَ! لشدّ ما أحببْتَ أهلك! قال: إني قد وعدتُ صاحبيّ وقتاً بعينه.

فلما كانت ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان خرج ابن مُلْجَم وشبيبٌ الأشجعي فاعتَوَرَا[6] البابَ الذي يدخل منه عليّ رضي الله عنه مغلّساً[7] ويوقظ الناس للصلاة: فخرج كما كان يفعل، فضربه شبيب فأخطأه، وأصاب سيفُه الباب، وضربه ابن مُلْجَم على صلْعَتِهِ وهو يقول: للَّهِ الحكم لا لك يا عليّ. فقال علي: فزت[8] ورب الكعبة! شأنكم بالرجل!.

وحمل ابن مُلْجَم على الناس بسيفه، فأفرجوا له، وتلقاه المغيرةُ بن نَوْفل بن الحارث بن عبدالمطلب بقطيفة، فرمى بها عليه، واحتمله فضرب به الأرض — وكان المغيرة أيِّداً[9] — فقعد على صدره.

وأما شبيب فانتزع السيفَ منه رجل من حَضْرَمَوْت، وصرعه، وقعد على صدره: وكثر الناس، فجعلوا يصيحون: عليكم صاحبَ السيف: فخاف الحضرمي أن يُكِبُّوا عليه، ولا يسمعوا عذره: فرمى بالسيف، وانسلَّ شبيب بين الناس.

فدُخلَ على عليّ رضي الله عنه، فأومر فيه فاختلف الناس في جوابه، فقال عليّ: إن أعِشْ فالأمرُ إليّ، وإن أُصَبْ فالأمر لكم، فإن آثرتُمْ أن تقتصوا فضربةٌ بضَرْبة، وأن تعفوا أقرب للتقوى.

وأقام عليٌّ يومين: فسمع ابن ملجم الرّنَّة من الدار، فقال له من حضره: أي عدوَّ اللَّهِ، إنه لا بأس على أمير المؤمنين، فقال: أما والله لقد اشتريتُ سيفي بألف درهم، وما زلت أعرضه فما يعيبه

أحدٌ إلا أصْلحتُ ذلك العيب، ولقد سقيْتُهُ السُمَّ حتى لفظه، ولقد ضربْتُه ضربةً لو قُسِّمَتْ على مَنْ بالمشرق لأتَتْ عليهم.

ومات عليٌّ رضي الله عنه، في اليوم الثالث.

فدعا به الحسنُ رضي الله عنه فقال ابن مُلجم: إنّ لي عندك سرّاً! فقال الحسن: أتدرون ما يريد مني؟ يريد أن يقرب من وجهي فيعض أُذني فيقْطَعها!.

فقال: أما والله لو أمكنتني منها لاقتلعتُها من أصلها! فقال الحسن: كلا والله لأضربنَّك ضربة تؤدي بك إلى النار! فقال: لو علمت أن هذا في يديك ما اتخذت إلهاً غيرك! فقال عبدالله بن جعفر: يا أبا محمد: ادفعه إليَّ أشْفِ نفسي منه: فأحْمَى له مِيلين وكحله بهما فجعل يقول: إنك يابن أخي لتكْحلُ عمك بملْمُولين[10] مضاضيْن[11]. ثم قتله.

وأما الحجاجُ بن عبدالله الصَّريميّ فإنه ضرب معاوية مُصَلِّياً، فأصاب مَأْكَمَتَه[12]، وكان معاوية عظيمَ الأوْرَاكِ فقطع منه عِرْقاً، فجاء الطبيب إليه فنظر إلى الضربة، فقال: إن السيف مسموم، فاخترْ إما أن أحميَ لك حديدة فأجعلها في الضربة، وإما أن أسقيك دواء فتبرأ وينقطع نسلك! فقال: أما النار فلا أطيقها، وأما النسل ففي يزيد وعبدالله ما تقرُّ به عيني، وحسبي بهما. فسقاه الدواء، فعُوفِي وعالج جرحه حتى التأم، فلم يُولَدْ لمعاوية بعد ذلك ولد.

فلما أُخِذَ قال: الأمان والبشارة: قُتِلَ عليّ في هذه الصبيحة، فاسْتُؤْنِيَ[13] به حتى جاء الخبر، فقطع معاوية يده ورجله، فأقام بالبصرة: فبلغ زياداً أنه قد ولد له، فقال: أيولد له وأميرُ المؤمنين لا يولد له فقتله.

وأما زَاذَوَيْه فإنه أرْصَدَ لعمرو، واشتكى عمرو بطنه فلم يخرُجْ للصلاة وخرج خارجة[14]، فضرب به زاذويه فقتله.

فلما دُخِلَ به على عمرو فرآهم يخاطبونه بالامرة، قال: أو ما قتلتُ عمراً! قيل: لا، إنما قتلت خارجة. قال: أردتُ عمراً. وأراد الله خارجة!.

وأُوقِفَ الرجل بين يدي عمرو فسأله عن خبره، فقصّ عليه القصّة، وأخبره أن عليّاً ومعاوية قُتِلا في هذه الليلة، فقال: لا بد من قتلك: فبكى، فقيل له: أجزعاً من الموت مع هذا الاقدام! فقال: لا والله، ولكن غمّاً أن يفوزَ صاحبيّ بقتل علي ومعاوية، ولا أفوز أنا بقتلَ عمرو! فضرب عنقه وصُلِب.

(*) المسعودي ٢ ــ ٤٠. ابن أبي الحديد: ٢ ــ ٤٢. ٢ ــ ١٤٤. الكامل ٢ ــ ١٢٥. رغبة الأمل ٧ ــ ١١٨.

(١) رفع علي راية الأمان مع أبي أيوب، فنادى: من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن، ومن انصرف إلى الكوفة أو إلى المدائن فهو آمن.

(٢) النخيلة: موضع قرب الكوفة.

(٣) كان علي قتل اباها واخاها يوم النهروان، وكانت أجمل اهل زمانها.

(٤) أنعم لها: قال لها: نعم.

(٥) المصمم من السيوف: الذي يمر في العظام.

(٦) اعتوزوا الشيء: تداولوه فيما بينهم.

(٧) التغليس: السير بغلس، والغلس ظلمة آخر الليل.

(٨) قار الشيء: قطعه من وسطه خرقاً مستديراً.

(٩) الأيد: القوي.

(١٠) الملمول: المكحال.

(١١) مض الكحل العين: آلمها.

(١٢) المأكمة: لحمة على رأس الورك.

(١٣) استأنى: تأنى وتثبت.

(١٤) هو خارجة بن حذافة أحد بني عامر ابن لؤي.



العدل المرغوب عنه

● شكا أهل بلدة إلى المأمون والياً عليهم، فقال:

كذبتم عليه. قد صحّ عندي عدله فيكم وإحسانه إليكم.

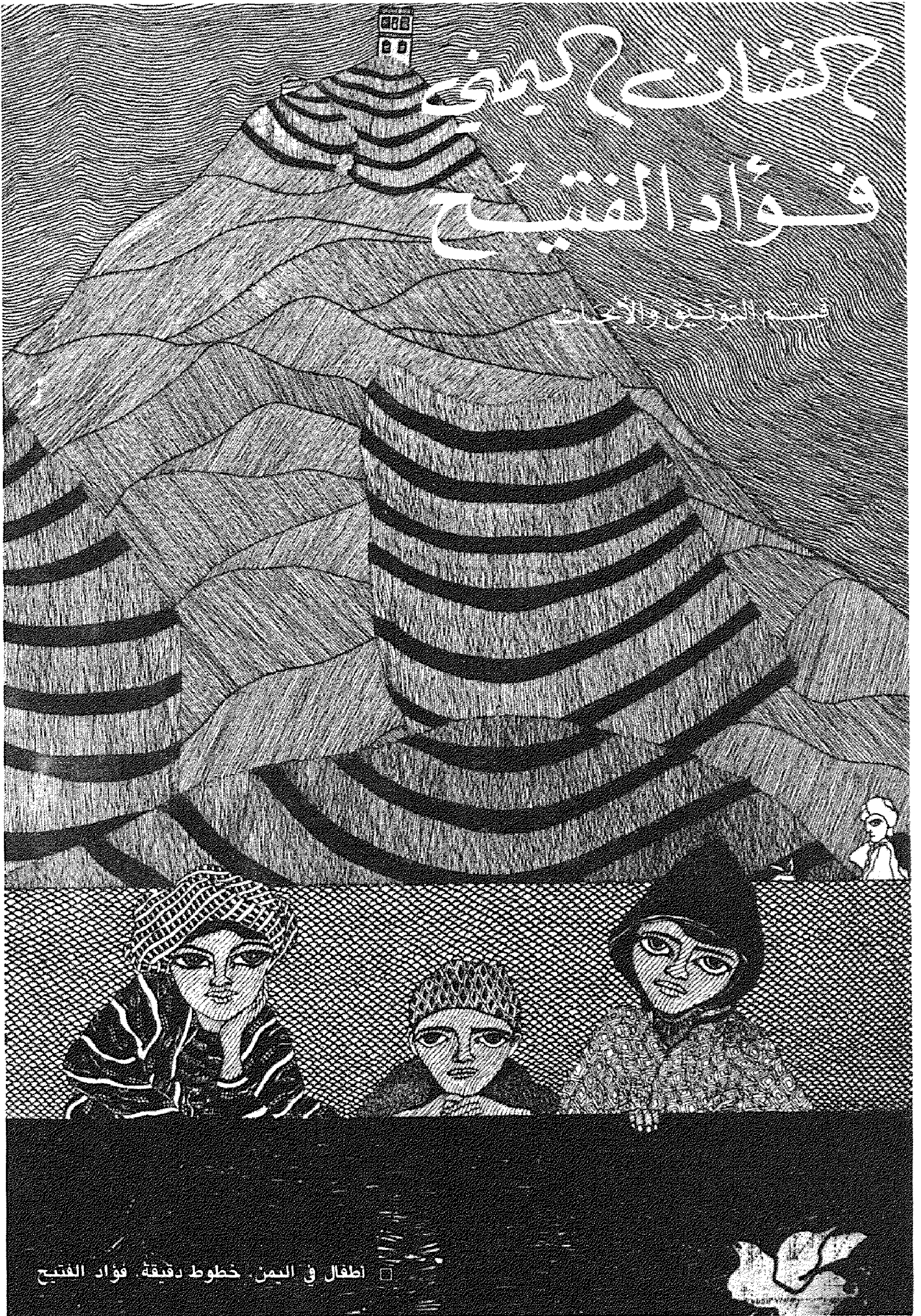
فقال شيخ منهم:

يا أمير المؤمنين، فما هذه المحبّة لنا دون سائر رعيّتك؟ وقد عدل فينا خمس سنين، فانْقُلْه إلى غيرنا حتى يشمَل عدلُه الجميع، وتريح معنا الكل!

فضحك المأمون وصرفه عنهم.

من كتاب «جمع الجواهر في المُلَح والنوادر» للحُصْري

فنان يمني
فؤاد الفتيح
بين التوثيق والأحلام



□ اطفال في اليمن. خطوط دقيقة. فؤاد الفتيح



ولد الفنان «فؤاد الفتيح» عام ١٩٤٨ في اليمن (قضاء الحجرية).

اتم الدراسة الاعدادية في عدن عام ١٩٦١ والدراسة الثانوية بالقاهرة، ثم التحق بكلية الآداب جامعة القاهرة (٦٥/١٩٦٦) لدراسة الأدب الانجليزي، غير أنه لم يلبث أن عاد إلى صنعاء عام ١٩٦٧.

ومن عدن انتقل إلى العراق للدراسة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة بغداد، ولكنه أيضاً لم ينتظم في هذه الدراسة طويلاً.

وسافر إلى أوروبا عام ١٩٧٠ من أجل دراسة الفنون، وهناك تنقل من بلغاريا إلى يوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية إلى أن استقر به المقام بمدينة دوسلدورف بألمانيا الغربية حيث إلتحق بأكاديمية الفنون الجميلة قسم المسرح، وقضى في هذا القسم عامين تحول بعدهما إلى قسم الحفر. في هذه الفترة الهامة من حياته بدأ فؤاد الفتيح يكشف مواهبه الحقيقية ووسائله التعبيرية وبدأ يشارك في الكثير من المعارض وبدأ يقيم معارضه الخاصة.

يكثر الحديث عن «الأصالة والمعاصرة» وعن «التجديد» و «الابتكار» و «الخَلق» في مختلف الفنون، ولعل هذا الحديث ذاته مؤشر من مؤشرات القلق وتعبير عن الحاجة إلى الاحساس بالذات وتأكيدها. والقضية في جوهرها هي قضية العلاقة الجدلية بين الخاص والعام وقضية السبق الأوروبي في مجالات الصناعة والعلوم والفنون.

وأحياناً ما يبدو الاحساس «بالخاص» — أي الاحساس بالقيم الجمالية والنفسية والبيئية للمجتمع الأصلي الذي نشأ فيه الأديب والفنان — أكثر تعميقاً ووضوحاً — حين يبتعد الفنان أو الأديب عن مجتمعه الأصلي فترة، أو حين ينظر إلى مجتمعه من الخارج. قد لا تكون هذه بالضرورة قاعدة يُستند إليها، ولكنها ظاهرة متكررة نصادفها بوجه خاص بين أعمال الفنانين التشكيليين العرب الذين يعيشون في الخارج. ونذكر من هؤلاء بوجه خاص الفنان السوري برهان كوكوتلي والفنان اليمني فؤاد الفتيح والفنان المصري حامد عبد الله. ومهما يكن من أمر فقد نما فؤاد الفتيح كفنان في الخارج، قبل أن يعود إلى صنعاء في عام ١٩٨٠.

المضمون هو الذي يعطي لوحات فؤاد الفتيح طابعها الخاص المتميز، وهذا المضمون يحمل بوضوح سمات البيئة الطبيعية والمعيشية التي نشأ فيها الفنان، والمضمون في لوحاته ليس شيئاً مسطحاً خارجياً وإنما هو حضاري وعمق نفسي وتساؤل وحلم إنساني. وفي النهاية لن نستطيع أن نفصل هذا المضمون عن الشكل الذي يأخذه هذا المضمون في اللوحة.

العيون

فلنتأمل تلك «العيون» التي تنظر منها الشخوص، وكأن كل ما يعتمل بها قد تجمع في حدقتيها. العيون هي بؤرة اللوحة. وفيها تتجمع مقولة اللوحة. ولعله من العسف أن نحاول نقل ما تقوله هذه العيون إلى لغة الكلام. فقدرة العيون على التعبير تتناسب طردياً مع امتناعها عن لغة الكلام أو ربما مع عجزها عن التعبير بالكلام أو الرغبة في الحديث بغير لغة الكلام. والعين وسيلة للتواصل التلقائي، ويبدأ الفنان فؤاد الفتيح هذه اللوحات برسم العين أولاً ثم رسم ما حولها ويمضي هكذا حتى يتم اللوحة. ومن أبرز لوحات«العيون المعبرة» : لوحة«إمرأة يمنية» و «فتاة واقفة» و«الصياد» و«المرأة المحجبة» و«الحياة الشعبية»...

وحين تختفي الشخوص من اللوحة تبرز الطبيعة، وهذه أيضاً تبرز طريقة خاصة مميزة من خلال الخطوط الدقيقة المتوازية، المتقاربة والمتباعدة، وتبرز كسطح منبسط متدحرج وتكتسب أعماقها من خلال التدرج فحسب، ولكنها دون أبعاد الحيز والمكان المألوفة. فهي بيئة قد شكلها قلم الفنان من تكوينات متعددة، ويغلب عليها العنصر الزخرفي الذي هو طابع الفنون الاسلامية والفنون الشعبية بوجه عام.

ولعله من الواضح أن فؤاد الفتيح فنان متأمل متمهل ينتج بتؤدة وهو بشكل ما يعبر من الداخل أكثر مما يعبر من الخارج، وتمتاز موضوعاته عادة بالسهولة والبساطة أيضاً ولكنها أيضاً بساطة صعبة، شديدة الأصالة، لا تعرف الجنوح



□ فؤاد الفتيح. شجرة. خطوط دقيقة (استخدمت هذه اللوحة كغلاف للترجمة الألمانية لمسرحية صلاح عبد الصبور «مأساة الحلاج»).

إلى التغرب أو التعقيد وبهذا المعنى يقول فؤاد الفتيح في حديث له:

«إنني لا أستطيع نقل زيف الحضارة تحت شعار المعاصرة في الفن ... وأحذر من السير خلف الفن الغربي أو التأثر به تأثراً مباشراً .. فخلق مدرسة للفن العربي المعاصر أعتبره واجبي المقدس، وطريق الأصالة الفنية هو الطريق الوحيد أمامي للوصول بفننا إلى ما يستحقه من مركز سليم ... فالأصالة هي الركيزة المتينة حين يقف الشكل بجانب المضمون الانساني جنباً إلى جنب».

فلنتذكر أن هذه قناعة قد عبر عنها هذا الفنان اليمني بفنه قبل كل شيء، ولنتذكر أن الذي يصيغ هذه الكلمات فنان قد تعلم في الغرب واكتشف طريقه وأدواته التعبيرية خلال دراسته في الغرب.

الخطوط والألون

ألوان الفنان فؤاد الفتيح في مرحلته الأولى هي في الأغلب الأسود والأبيض مع استغلال جميع الظلال التي يتيحها التدرج بينهما. فالتدرج اللوني والخطي من عناصره التعبيرية الهامة التي تجذب عين المشاهد وتشعره بالثبات والاستقرار. على أن هذه المرحلة الأولى، مرحلة الأبيض والأسود، قد انتهت تقريباً بعودة الفتيح إلى اليمن، إذ انتقل إلى مرحلة أخرى يحاول فيها معالجة الفكرة بأسلوب جديد، أو قل طرح الفكرة على اللوحة بطريقة مغايرة عما سبق.

ويوضح أسباب هذا التحول فيقول:

«يراودني الآن نوع من القلق، ويربط هذا القلق برغبة الفنان في الاستمرار والتجديد في نفس الوقت. وأنا أمارس عملي محاولاً التغلب على القلق أو حتى يتبدد القلق.»

في هذه المرحلة الجديدة التي تمتد إلى الحاضر يقوم فؤاد الفتيح بدراسات وتجارب للوصول إلى الوان أو تكوينات لونية جديدة تحل محل طريقة الخطوط والأبعاد التي استخدمتها من قبل في لوحات البعدين التي أقتصر فيها على الأبيض والأسود، ويقول في هذا الصدد:

«حين تتأمل بعض لوحاتي تلاحظ أهتمامي بالملابس. التي يرتديها الشخوص، فهذه الملابس تحتل مكاناً بارزاً. وأنا أطور نقوشاً من عندي فوق الثوب، وهذه النقوش بمثابة رموز تعبر عن الجو الذي أصوره. فالملابس أو الثياب تنتشر في حيز اللوحة وتعطي اللوحة طابعها الخاص. وهذه الخطوط الصغيرة الدقيقة تتداخل وتترابط في اللوحة وترتفع بها، أو تصبغ عليها نوعاً من الروحانية والانسجام.»

«وتلاحظ أني أستخدم الآن ألواناً مختلفة، واني قد استوحيت في لوحي بعض سور القرآن، كل سورة في لوحة. نعم إن تربيتي تربية إسلامية دينية،ولكنني أعالج أو أتصور أني أعالج في الألواح القرآنية قضايا معاصرة، فأنا أعيش ايضاً في الحاضر وفكري مستمد من الحاضر، وأحاول هنا في هذه الآيات القرآنية أن أعبر عن تلك القضية الجدلية الصعبة، قضية العلاقة بين الأبدي والزمني».



□ حمّالة الحطب، ١٩٧٥، فؤاد الفتيح.

العودة إلى اليمن

منذ عودته إلى اليمن يعمل فؤاد الفتيح مديراً لإدارة الفنـون التشكيلية بوزارة الاعلام والثقافة بصنعاء. وقد كانت مهمته في البداية إنشاء هذه الادارة، بهـدف شمل الفنـانين التشكيليـين، وتنـظيم المعـارض في الداخـل والاشتـراك في المعارض في الخارج، وتوفير الامكانات المختلفة لتنشيط الفنون التشكيلية، فبدون هذه الامكانات وبدون اتساع ميادين النشاط من العسير أن تروج الحركة الفنية.

على أن الفنون التشكيلية في اليمن لها تراث طويل أو هي فن قديم يمارسه البعض بطريقة متوارثة، يمارثه كحرفة من حرف البناء وكجزء من أعتراف المجتمع اليمني. ولنترك الكلمة لفؤاد الفتيـح للحديث عن خبـرة العودة إلى بيئتـه الأصلية:

«لاحظت أشياء أخرى بعد رجوعي إلى صنعاء لم ألاحظها من قبل. تكاثرت علي المناظر والأحداث التي تواجهني كفنان تشكيلي. ففن النحت مثلاً يشكل عنصرا أساسياً في الفن اليمني القديم، وأقصد هنا النحت البارز في الحجر، وأدهشني ذلك أولاً. والانسان حين يعود بعد غيبة طويلة إلى وطنه الشرقي وإلى بيئته الأصلية يحس بانزعاج ورهبة، ويضيق بالكثير من الظواهر وكأنه يراها لأول مرة، في حين أنه قد عاش فيها طويلاً. ولكن يبدو أنه يعيش فيها، ولا يراها بوضوح. مثال ذلك عامل الزمن، فأنت تحس أن الزمن لا يلعب في حياة الناس دوراً كبيراً أو أن الناس لا تهتم بعامل الزمن، ولكن الانسان العائد يتأقلم مع بيئته الأصلية من جديد، وبالتدريج يتخلص من إحساس الانزعاج هذا الذي أشرت إليه.

وحتى عـودتي إلى اليمن كـانت تجـربتي محصـورة في الرسم عـلى القمـاش والورق. أحسست بعد ذلك بالرغبة في استخدام مواد جديدة للتعبير، وأحسست بالحاجة إلى مادة فيها عنصر المقاومة الذي يحد من حريتك، ودون شك فللحجر مقاومة شديدة وكأنه يدعوك إلى شحذ قواك إلى أقصى الحدود. ومن ثم أقبلت عـلى ممارسة فن النحت الذي لم أمارسه من قبل».



كيف ولي أياس بن معاوية القضاء

- قدّم إياس بن معاوية شيخاً إلى قاضي دمشق، وكان إياس يومئذ غلاماً أمرد. فقال له القاضي:

ما تستحي تقدم شيخاً كبيراً إلى القضاء؟

قال إياس: الحقّ أكبر منه.

قال: ما أظنك يا غلام إلا ظالماً.

قال: ما على ظنّك خرجت من أهلي.

قال: اسكت!

قال: فمن ينطق بحجّتي إذاً؟

قال: ما أظنك تقول في مجلسك هذا حقاً.

قال: أشهد أن لا إله إلا الله.

فبلـغ ذلك الخليفة عبد الملك بن مروان، فعزل القاضي وولّاه وهو يومئذ غلام.

من كتاب المستجاد من فعلات الأجواد» للتنوخي

البحر الميت

(قسم التوثيق والأبحاث)



من أهم المظاهر الجغرافية الطبيعية، لا في فلسطين وحدها بل في العالم أجمع، لما يتمتع به حوضه من وضع بنائي ــ جيولوجي معين، ولما تتحلى به مياهه من صفات خاصة يندر وجودها في مكان آخر مشابه. وتتجلى الأهمية الاقتصادية لمياه البحر الميت في الثروات الطبيعية التي تحتويها، والتي بدىء باستغلالها منذ عام ١٩٣٠.

لمحة تاريخية



معرفة الإنسان بالبحر الميت قديمة قدم الحضارات التي قامت في المنطقة. فقد ورد ذكر البحر الميت، ورسمت له خرائط، فيما كتب عن فلسطين وبلاد الشام الأخرى في العهود اليونانية — الهيلينستية والرومانية والبيزنطية، ثم في العهد العربي الإسلامي والقرون الوسطى حتى الوقت الحاضر.

١ — **في العصور القديمة**: ورد ذكر البحر الميت في الكتاب المقدس تحت اسم بحر الملح (تكوين ١٤: ٣) وورد ذكره مرّة أخرى تحت اسم عمق السديم، أو بحر العربة. ولقد عرف الأنباط، أبناء الموجة العربية الرابعة التي وصلت مشارف شبه الجزيرة العربية في حدود سنة ٥٠٠ق.م.، عرفوا طريقة استخراج البيتومين والقطران من مياه البحر الميت. إذ تذكر المصادر أنهم كانوا يصدّرون هاتين المادتين إلى مصر حيث استخدمتا في التحنيط. ويذكر أرسطو البحر الميت في مؤلفه (الميتيورولوجيا). وكذلك يذكره سترابون في «الجغرافيا». وسترابون هو أول من وصف البحر الميّت بشيء من التوسع، وتحدث عن عمق مياهه الكبير وكثافتها العالية، إلى جانب وصفه قطع الإسفلت الطافية على سطحها، وغازات البحر وينابيعه الحارة. أما بليني الذي نقل عن سترابون الكثير من المعلومات فهو أول من سمّى البحر الميّت باسمه اللاتيني القديم «بحيرة الإسفلت». وظهرت تسمية البحر الميت لأول مرة في كتابات بوسانياس ثم غالين. ومنها انتقلت إلى المؤلفات الأوروبية المتأخرة والحالية. وتعدّ خريطة كنيسة مأدبا المرسومة بالفسيفساء في القرن السادس الميلادي من أهم الخرائط القديمة للبحر الميت، وتشتهر منطقة البحر الميت بالمخطوطات القديمة، وقد عثر على هذه المخطوطات داخل جرار فخارية في كهوف قمران التي تقع جنوب مدينة أريحا.

٢ — **في العصور الوسطى**: لم تستفض الكتابة عن البحر الميت إلّا في العصور الوسطى مع ظهور المؤلفات التاريخية والجغرافية في العهد العربي حيث يندر ألّا نجد ذكراً للبحر الميّت في معظم المؤلفات المذكورة. وقد ورد ذكره تحت أسماء كثيرة منها «بحيرة زُغَر» نسبة إلى واحة نخيل جنوبية، ويظن أن مدينة زغر القديمة التي لها علاقة بالنبي لوط كانت تقع في غور الصافي بالقرب من مصب وادي الحسا. وقد وصف ابن حوقل بلدة زغر بقوله إنها مدينة حارّة متصلة بالبادية صالحة الخيرات وبها النخيل الكثير ولها تجارة واسعة. وذكر الإصطخري أن بها تمراً عذباً حسن المنظر وله لون الزعفران. وذكرها المقدسي بقوله إن أهلها سودان غلاظ، وماءها حميم، إلّا أنها البصرة الصغرى والمتجر المربح. وقد تدهورت قرية زغر وزالت لفتك الحميات بأهلها ولتحول طرق التجارة عنها.

وسمي هذا البحر «بحيرة سدوم وعمورة» و «البحيرة المقلوبة» و «البحيرة المنتنة» كما يدعوه المسعودي وياقوت الحموي. أما تسمية «بحر لوط» فواردة في مؤلف ناصر خسرو. ويذكره ابن الفقيه والإدريسي. وهكذا لا تخرج المعارف عن البحر الميت في العصور الوسطى عن نطاق ما قدمه العرب بالدرجة الأولى إلى جانب اسم «بحر الشيطان» الذي أطلقه عليه بعض الحجاج الأوروبيين إلى الأراضي المقدسة. ومن الجدير بالذكر أن بعض المؤلفات العربية القديمة والوسطية تحتوي على خرائط فيها البحر الميت.

٣ — **في العصر الحديث**: كان الألماني زيتسن أول من قام بمحاولة لدراسة البحر الميّت في مطلع القرن التاسع عشر عندما قام بجولة في سواحل البحر ووصف التضاريس المحيطة به، ودرس مناخه عام ١٨٠٦ — ١٨٠٧م. وتلاه الإيرلندي كوستيجان الذي أبحر في مياهه سنة ١٨٣٧م. لكن بداية الدراسات الحديثة تأخرت حتى سنة ١٨٥٢م عندما قامت بعثة تابعة للبحرية الأميركية بدراسة البحر الميّت ونهر الأردن، وظهرت نتائجها في تقرير أصدره رئيسها لينشن في السنة نفسها. وبعد ذلك تتالت الأبحاث وكثرت الدراسات على يد علماء أجانب. ولا تزال تتتابع إلى اليوم.

جغرافية البحر الميّت

البحر الميّت، وهو الاسم المتعارف عليه حالياً، كتلة مائية تحتل أخفض حوض في غور الانهدام

السوري ـ الإفريقي الممتد مسافة تتجاوز ٦،٠٠٠ كم بين مرعش في تركيا شمالاً ونهر الزامبيزي في افريقية جنوباً. ويساير غور الانهدام هذا سواحل بلاد الشام على بعد يراوح بين ٤٠ و ٩٠ كم في سورية ولبنان وفلسطين. ويأخذ غور الانهدام شكلاً نموذجياً في غور (وادي) الأردن، ولا سيما في حوض البحر الميت ذاته حيث يظهر المفهوم الجغرافي والجيولوجي للأغوار الانهدامية بأجلى صوره. ويقع هذا البحر في العروض فوق المدارية شبه الصحراوية حتى الصحراوية. وهو يؤلف فاصلاً مائياً بين فلسطين في الغرب والأردن في السرق. ويمتد متطاولاً من الشمال نحو الجنوب مسافة قدرها ٧٨ كم، بعرض متوسط يبلغ ١٤ كم. وينخفض هذا الرقم إلى ٤ كم فقط لتقدّم بروز أرضي نحو الغرب يعرف باللسان. ويكاد بروز اللسان يفصل الربع الجنوبي عن باقي كتلة البحر الميت في الشمال لولا هذا المضيق المائي الضحل الذي يصل بين ما يدعى بحيرة اللسان وبقية البحر الميت شماليها. وتشير الدراسات إلى أن بحيرة اللسان التي تشكلت بفعل هزّة أرضية، والتي لا يتجاوز عمق مياهها ٤،٥م، لم تكن متصلة بجسم البحر الميت. ولم تتحد مياههما إلا قبل نحو ١،٥٠٠ سنة. وتقدّر مساحة البحر الميت بنحو ٩٤٠ كم٢، أما حوضه فتبلغ مساحته نحو ٤٠،٠٠٠ كم٢.

ينحصر حوض البحر الميت بين كتلتين من الجبال هما جبال القدس والخليل من الغرب. وجبال البلقاء والكرك (مؤاب) والطفيلة من الشرق. وترتفع قمم الجبال فوق مستوى سطح البحر الميت بين ١،٢٥٠م و ١،٣٠٠م. وتتميز صفحات الجبال الفلسطينية المشرفة على البحر الميت بالانحدارات الشديدة والسفوح القاسية التي تنقلب جروفاً قائمة في معظم الأجزاء. وتنحدر هذه الجروف بعنف شديد على سواحل البحر دون أن تترك بين أقدامها وخط مياه البحر شريطاً سهلياً ساحلياً عريضاً إلا فيما ندر. وعند مخارج الأودية السيلية من الجبال تتقدم دالاتها من المجروفات والأنقاض السيلية في البحر على شكل رؤوس صغيرة بارزة. وباقتراب المرء من نهايات البحر في الشمال والجنوب تبتعد الجبال الفلسطينية عن البحر لتفسح المجال لمساحات متطاولة منها مسايرة لساحل البحر الميت الجنوبي الغربي. أما في الشرق فلا يختلف الوضع اختلافاً جوهرياً إلاّ من حيث كون الانحدارات أضعف، والجروف القائمة أقل عدداً وارتفاعاً وأقصر امتداداً. ومما يميز الأطراف الشرقية من الغربية بروز وتقدم شبه جزيرة اللسان السهلية، وتقدم لسان سهلي أصغر هو غور النميرة الواقع جنوبي شبه جزيرة اللسان عند مصب وادي حديرة.

وينتهي البحر الميت في الشمال بأراضي غور الأردن في منطقة سهل أريحا، وفي الجنوب بسبخة واسعة منبسطة تمتد ٢٠ كم وتحتل معظم سهل غور الصافي، نهاية وادي عربة.

جيولوجية وأصل البحر الميت

نشأ غور الانهدام السوري ـ الافريقي نتيجة الحركات البنائية (التكتونية) التي أصابت القشرة الأرضية فكسرتها على امتداد خطوط صدوع أو انكسارات سببت خفس أجزاء منها طغت عليها مياه البحار (البحر الأحمر وخليج عدن وخليج العقبة وخليج السويس)، أو امتلأت بالبحيرات الطولية في افريقيا الشرقية وبلاد الشام. والبحر الميت واحد من الكتل المائية الكبرى التي ملأت أخفض حوض لا في غور الأردن وحده، بل في العالم كله، إذ يقع مستوى سطح مياهه على ارتفاع ٤٠٢م دون مستوى سطح البحر.

وقد أخذ الغور شكله الحالي في البليوسين المتأخر وحتى مطلع البلايستوسين. وتدل الدراسات الجيولوجية على أن حوض البحر الميّت محصور بين محورين للانكسارات يتفقان مع السواحل الشرقية والغربية. وتظهر على مرآة الصدع (الانكسار) الغربية منهما طبقات من صخور الكلس والدولوميت القاسية العائدة للعمر السينوماني والتوروني، في حين تظهر على المرآة الشرقية مجموعة صخور أقدم عمراً ترجع إلى الكريتاسي الأدنى والفترة الباليوزويكية ـ الميزوزويكية وتتألف في معظمها من الحجر الرملي النوبي المتعدد الألوان. أما في الطبقات العليا فتظهر صخور السينوماني والتوروني أيضاً.

وتظهر في أقصى الجنوب الشرقي صخور عائدة إلى ما قبل الكامبري تغلب عليها الكونغلوميرا.

وعند أقدام هذه الطبقات الصخرية، وعلى امتداد الساحلين توضعت رسوبيات رباعية طرية مؤلفة من مواد لحقية ــ نقضية وبحيرية الأصل. كما تظهر ترسبات ثلاثية العمر (نيوجينية) قارية الأصل شرقي شبه جزيرة اللسان وفي جسم جبل أسدوم المؤلف في معظمه من صخور ملحية. ويكثر ظهور الملح في الترسبات الساحلية الحديثة، كما في سبخة الجنوب (غور الصافي)، وأطراف البحر الذي تراجع فانحسر عنها الماء المالح.

وهناك آراء مختلفة حول الأصل الانهدامي لغور الأردن والبحر كنظرية غريغوري المعروفة بنظرية الشد، ونظرية الضغط لويلز، ونظرية الانزياح لكونيل.

التغذية المائية للبحر الميت

يقدّر حجم مياه البحر الميت بـ ١٤٢ كم٣ تقريباً. وهو حجم يتبدل تبعاً لكمية المياه التي تغذيه من حوض التصريف والأنهار والأودية السيلية والينابيع، وتبعاً لمقادير المياه المتبخرة من سطحه والخاضعة للأوضاع المناخية المتميزة بالحرارة المرتفعة والأمطار القليلة. فالحرارة السنوية المتوسطة لمنطقة البحر الميت ٢٥°، والحرارة القصوى المتوسطة لفصل الصيف ٤٠° ويحوم متوسط الأمطار السنوية حول ٥٠ مم. وهذا كله يشير إلى نسبة تبخر عالية تُدْخِل المنطقة في نطاق المناخ الجاف وشبه الجاف.

يشكل نهر الأردن بصبيبه المتبدل والبالغ متوسطه السنوي العام ١,٢ × ١٠⁹ م٣ أهم مصدر لمياه البحر الميت. ويساعده عدد من السيول والمياه القادمة من الجبال، ولا سيما من الجبال الشرقية. أهم الأودية السيلية الشرقية وادي الموجب الذي تصل الغزارة السنوية المتوسطة لصبيبه ٣٠ × ١٠⁶ م٣ منها ١٨ × ١٠⁶ م٣ من ينابيع الوادي المذكور وحوض تصريفه وشبكة أوديته الصابّة فيه. تليه في الأهمية منطقة تغذية وادي زرقاء ماعين ذات الغزارة السنوية المتوسطة البالغة ٤ × ١٠⁶ م٣. وهناك عدد آخر من الأودية السيلية يأتي وادي الحسا في طليعتها. هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الينابيع الباردة والحارة المرتصفة على امتداد خط الصدع (الانكسار) الشرقي، كمياه ينابيع زرقاء ماعين الحارة.

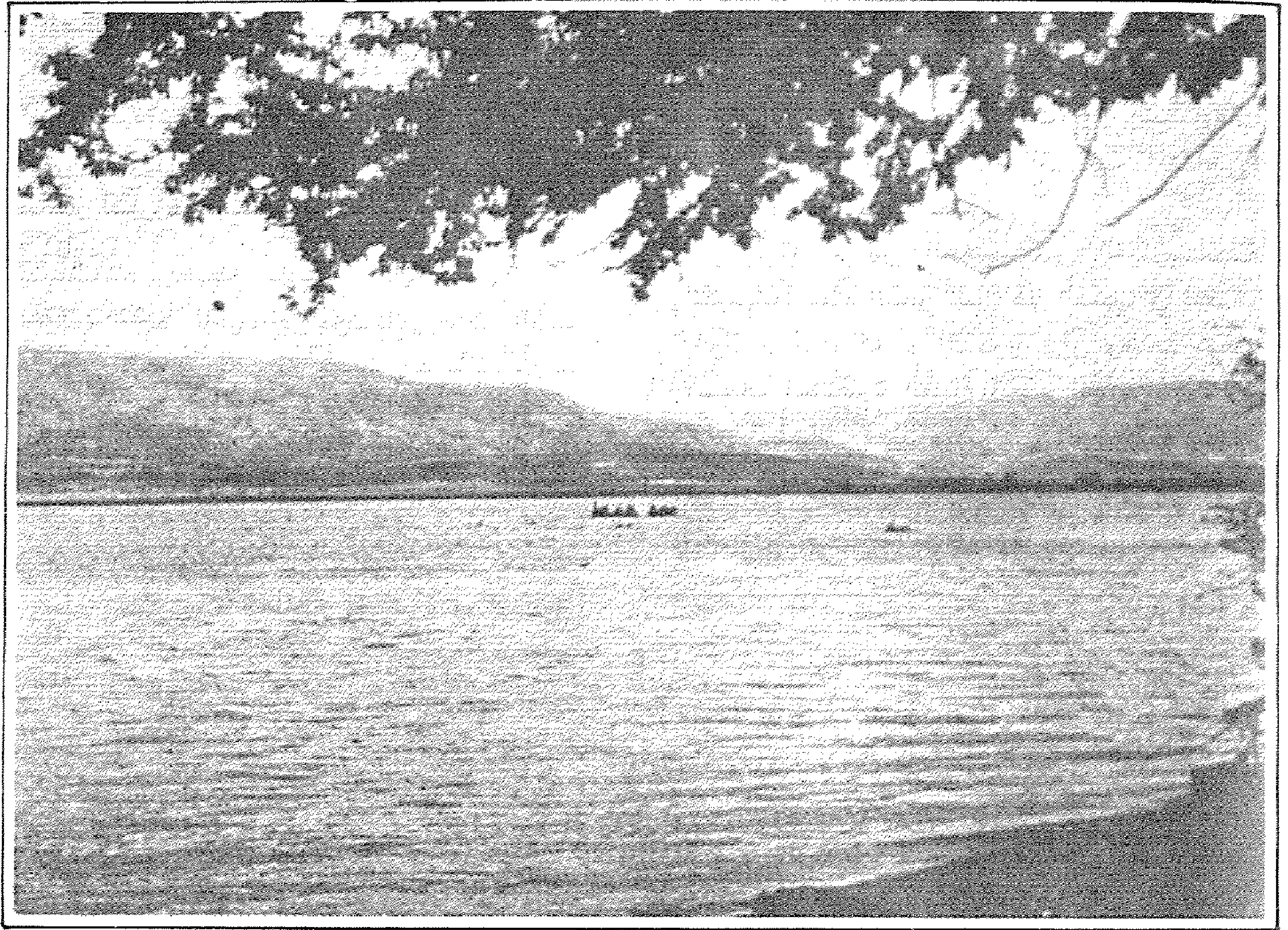
وتغذية البحر الميت بالمياه من الغرب ضعيفة نسبياً، ولا تتعدّى مياه سيول الأودية الهابطة من جبال القدس والخليل وامتداداتها جنوباً، إلى جانب عدد من العيون والينابيع المنبثقة من أقدام الجدار الصدعي للجبال المذكورة.

إن المتوسط السنوي للمياه التي يتلقاها البحر الميت يقدّر بـ ١,٦ × ١٠⁹ م٣. وهي كمية معرضة للتبدل والزيادة والنقصان حسب الأوضاع المناخية وتبدّلها السنوي، أو على مرّ السنين. وهذا يفسر التغيرات الطارئة على مستوى مياه البحر الميت وعمق المياه.

الخصائص الفيزيائية لمياه البحر الميّت

لمياه البحر الميّت خصائص فيزيائية يندر وجودها في بحر داخلي آخر له هذا الاتساع والحجم. فالوزن النوعي للمياه يبلغ على السطح متوسطاً عاماً قدره ١,٢٠٦ غ / سم٣، ينخفض في فصل الصيف إلى ١,٢٠١ غ / سم٣، ويرتفع في الشتاء إلى ١,٢١٠ غ / سم٣. وتزداد هذه القيمة في بحيرة اللسان الجنوبية حتى تصل إلى ١,٢٣٠١ غ / سم٣. وباستطاعة المرء أن يستلقي على المياه الكثيف ويطالع أثناء ذلك كتاباً أو صحيفة يومية. وهذا يعطي البحر الميت ميزة سياحية ترويحية غير معروفة في مكان آخر. والكثافة في الأعماق شبه ثابتة لا تتأثر بالتغيرات الفصلية، لكنها تتزايد من ١,٢٢٦ غ / سم٣ على عمق ٥٠م إلى ١,٢٣٤ غ / سم٣ على عمق ١٠٠م فما فوق.

إلى جانب هذه الكثافات العالية المتزايدة باتجاه قاع البحر الميت تتميز المياه بحرارات عالية أيضاً، إذ تراوح حرارة الطبقة المائية العليا من السطح وحتى عمق ٤٠ م بين ٣٥° في الصيف، و ٢١° في الشتاء. أما أدنى درجة حرارة معروفة فلم تنخفض دون ١٠°، وأقصى



درجة لم تتجاوز ٣٨°. وتصبح الحرارات ثابتة ومتزايدة بانتظام في الأعماق التي تزيد على ٤٠ ــ ٥٠م، وترتفع من ١٩° إلى ٢٢° باتجاه أعمق المياه.

وتتأثر حركة مياه البحر الميت بالرياح وبفروق كثافة المياه فتتولد بفعل الرياح أمواج صغيرة أو متوسطة الارتفاع، وقد تعلو إلى متر واحد وعشرة سنتمترات حين تشتد حركة الرياح. لكن هذا قليل، فالأمواج شبه معدومة معظم أيام السنة عدا فصل الشتاء حين تنشط الرياح بين الحين والآخر.

أما التيارات المائية فهي مسيرة بعامل فروق الكثافة المائية في الدرجة الأولى. وتبيّن أن لحوض بحيرة اللسان الصغيرة التي تحتل نحو ربع مساحة البحر الميت و ٠,٥ ٪ فقط من حجم الكتلة الإجمالية لمياه البحر، تبيّن أن لهذا الحوض دوراً هاماً في نشأة التيارات وحركة الماء الأفقية. فمن حوض بحيرة اللسان القليلة العمق العالية الكثافة يخرج تيار من المياه الدافئة المرتفعة الكثافة مساير للشواطىء الشرقية عن طريق مضيق اللسان إلى الشواطىء الأردنية في البحر الميت حيث الأعماق الأكبر والكثافة المائية الأقل. وتتم عملية تعويض فاقد بحيرة اللسان والكثافة المائية الأقل. وتتم عملية تعويض فاقد بحيرة اللسان بتيار قادم من الشمال مساير للشواطىء الغربية للبحر الميت يدخل عن طريق المضيق المذكور إلى البحيرة. ومياه هذا التيار أقل دفئاً وأدنى كثافة من مياه التيار المقابل المتجه شمالاً. وهكذا فإن دورة التيارات المائية في البحر الميت متكاملة، حركتها عكس حركة عقارب الساعة.

وإلى جانب فرق الكثافة بين مياه الحوض الرئيس للبحر الميت ومياه بحيرة اللسان تساهم الرياح على امتداد المحور الشمالي الجنوبي للبحر في تنشيط حركة المياه الأفقية هذه.

الخصائص الكيميائية والترسبات

الملوحة الزائدة هي الميزة الكيميائية الرئيسة التي تميز مياه البحر الميت من أي بحيرة داخلية

في العالم، إذ يبلغ مقدار الملوحة المتوسطة ٣١,٥ ٪ تنخفض باتجاه المياه السطحية إلى ٢٨ ٪، وتزداد باتجاه الأعماق إلى ٣٢,٧ ٪. ويعطي الجدول التالي التركيب الكيميائي ومقادير العناصر البارزة المؤلفة لهذه النسبة العالية جداً من الملوحة:

CL	الكلور	٢٠٨	مغ / ل
Mg^{2}	المغنزيوم	٤٢	مغ / ل
Na	الصوديوم	٣٥	مغ / ل
Ca^{2}	الكالسيوم	١٥,٨	مغ /ل
K	البوتاسيوم	٧,٥٦	مغ / ل
Br	البروم	٥,٩٢	مغ / ل

ويبلغ مقدار هذه العناصر المذكورة في الجدول مع بعض العناصر الأقل أهمية نحو ٣١٥ مغ / ل. وتنخفض هذه المقادير في المياه السطحية فلا تجاوز ٣٥٠و٢٧٣ مغ / ل.

ومياه البحر الميت فقيرة بالأوكسجين، إذ لا يجاوز الأوكسجين الحرّ في المياه السطحية ١,٦ مل / ل. ولم يسجل له أي وجود أو أثر في الأعماق الزائدة على ٥٠م.

وهكذا فإن مياه البحر الميت منقع ملحي كبير يسود فيه الكلور والمغنزيوم والصوديوم والكالسيوم. والمركبات الملحية الناتجة عن هذه العناصر تقدم الثروات الطبيعية التي يكتنزها هذا البحر من كلورات المغنزيوم وكلور الصوديوم والبوتاس وغيرها من الأملاح المنحلة في الماء.

أما بالنسبة إلى المواد المترسبة في أرض البحر الميت فالغالب عليها الوحل الذي تراوح سماكته بين ١٠ ــ ٥٠ سم في الحوض الواقع شمال اللسان. ويتركز هذا الوحل على قاعدة من الملح الصخري ذات سماكة غير معروفة. وتتألف ترسبات حوض بحيرة اللسان من تعاقب سافات من الملح والطين والمارن. وتتناوب ترسبات المارن والوحول الأخرى عامة مع الأراغونيت والكالسيت والجص. وتختلط هذه الترسبات بما يصل البحر الميت من الحصباء الدقيقة التي تحملها مياه نهر الأردن والسيول الأخرى من أراضي حوض البحر. وكذلك تختلط بالرمال وفتات البازلت والصوان وغيرها من مواد الصخور المحيطة بالبحر.

ويفسر العلماء ظاهرة التلّون بالبياض التي ينقلب فيها اللون الأزرق للمياه إلى لون أبيض حليبي مرّة كل ٤ ــ ٥ سنوات، وفي أشدّ أوقات السنة حرارة، يفسرونها بالترسيب المفاجيء لمادتي الأراغونيت والجص.

وما تقدم من الخصائص الفيزيائية والكيميائية لمياه البحر الميت هو السبب في انعدام الحياة في مياه البحر المذكور. وإن وجدت بعض الأسماك الصغيرة القليلة العدد إلى جانب بعض أنواع الطحالب فعند مصبّات ينابيع المياه العذبة على الشواطىء فقط حيث تتعدل خصائص المياه.

تغيرات مستوى البحر الميت

إن جميع الأرقام السابقة عن مياه البحر الميت من حيث الحجم والمساحة والنسب المئوية وغيرها عرضة للتبدل لعدم ثبات مستوى مياه البحر. وقد لاحظ الدارسون هذه الحقيقة من خلال الشواهد الجيومورفولوجية، ولا سيما المصاطب الساحلية للبحر والمصاطب النهرية لنهر الأردن، وكذلك من خلال القياسات المختلفة لمستوى مياه البحر، وتذكر الأبحاث المختلفة أن المستوى كان في أوائل القرن العشرين على انخفاض ٣٩٢م تحت مستوى سطح البحر، وأن أكبر عمق لمياه البحر الميّت هو ٤٠١م، أي أن قاعه يقع على عمق ٧٩٣م تحت سطح البحر المتوسط، وأن كمية المياه قد تزايدت عمّا كانت عليه قبل ربع قرن، وأن مستوى المياه قد ارتفع مترين. وقد رأى ماسترمان عام ١٩٠١ أن التبدلات السنوية القصوى (الدنيا والعليا) تبلغ ٩٦,٣٦ سم. والجدول التالي يرينا تذبذب المستوى منذ سنة ١٨٦٥ حتى ١٩٨٠.

مستويات البحر الميّت من عام ١٨٦٥ ــ ١٩٨٠

السنوات	المستوى	السنوات	المستوى
١٨٦٥	– ٣٩٣,٨م	١٩٤٤	– ٣٩٥م
١٩١٠	– ٣٩٢م	١٩٤٦	– ٣٩٤,٢٩م
١٩١٢	– ٣٩١م	١٩٦١	– ٣٩٥م
١٩١٥	– ٣٨٧م	١٩٦٣	– ٣٩٨,٥م
١٩٢٨	– ٣٩٣م	١٩٦٦	– ٣٩٩م
١٩٣٣	– ٣٩٤م	١٩٧١	– ٣٩٩م
١٩٣٨	– ٣٩٥م	١٩٧٣	– ٣٩٨م
		١٩٨٠	– ٤٠٢م

ويتبين من هذا الجدول أن الفرق بين أدنى مستوى وصلت إليه المياه وأعلى مستوى هو ١٥ م خلال هذه الفترة الزمنية.

وتؤكد بعض الدلائل والأبحاث أن مستوى مياه البحر الميت كان أعلى من مستواه الحالي بنحو ٢٢٠م، أي أنه كان على انخفاض ١٨٢م. وبالتالي فإن المياه كانت ممتدة على طول غور الانهدام، من أطراف بحيرة طبرية في الشمال وحتى موقع عين حصب في وادي عربة على بعد ٣٨ كم جنوبي البحر الميت الحالي، وذلك في الحقبة الواقعة بين ٢٠،٠٠٠ و ٧٠،٠٠٠ — ١٠٠،٠٠٠ سنة سابقة. وترى هذه الدراسات أن عمر البحر الميت الحالي نحو ١٢٠،٠٠٠ سنة.

ترجع أسباب تغيرات مستوى مياه البحر الميت إلى التغيرات المناخية التي تعرضت، وتتعرض لها المنطقة، واختلاف نسب التبخر. لكن يجب أن يضاف إلى الأسباب المناخية الأسباب البنائية (التكتونية) التي لا بد أن تكون قد لعبت دورها أيضاً إلى جانب العامل البشري ومدى استغلال الإنسان لمياه الأنهار والينابيع المغذية للبحر، خاصة مياه نهر الأردن في الأغوار الشمالية لوادي الأردن نفسه، وتحويل قسم كبير منها إلى الأراضي الغربية في فلسطين مما يقتطع جزءاً كبيراً من حصة البحر الميت من مياه هذا النهر.

الإنسان وثروات البحر الميّت

لا تشجع سواحل البحر الميت ولا مياهه على السكنى والاستقرار. فالأرض الصالحة للزراعة صغيرة المساحة ومحصورة في نقاط معينة، والمياه الصالحة للري قليلة الكمية. والحرارة عالية، والأمطار قليلة والمناخ قاس، حتى الأسماك التي يمكن أن تجتذب السكان إلى البحر غير متوفرة في مياهه. كما أن الصخور الجرداء العارية تحيط البحر بجدران عالية تجعل من الحوض حفرة خانقة تعيق المواصلات وتقيد نشاط الإنسان.

لذلك كانت سواحل البحر الميت من المناطق القليلة الكثافة البشرية، وكانت ملجأ لمجموعات بشرية صغيرة جداً جاءتها هاربة لأسباب مختلفة. وأول السكان الذين ارتبط وجودهم في شرقي البحر الميت باستغلال بعض ثرواته من الأملاح وغيرها هم الأنباط. حتى هؤلاء لم يقطنوا على ما يظهر سواحل البحر، بل أقاموا في الجبال الشرقية حيث عاصمتهم سلع (البتراء). وكانت فئات منهم تأتي البحر لاستخراج مادة البيتومين. أما جبال غربي البحر الميت فكانت موطناً لقبائل فلسطينية مختلفة اقتصر نشاطها وتحركها على المرتفعات الغربية، ولم تول البحر الميت أي اهتمام. وبرغم عداء الطبيعة للإنسان قامت بعض المراكز البشرية الصغيرة جنوبي البحر حيث كانت تقوم واحة نخيل (زُغر) التي أعطت البحر اسمها العربي القديم. وكذلك الواحة الصغيرة التي قامت عند عين جدي على الساحل الغربي.

وقد بقي الإنسان جاهلاً بثروات البحر الميت الطبيعية، أو عاجزاً عن استغلالها استغلالاً صحيحاً حتى الربع الأول من القرن العشرين حين واكبت تطور العلوم والصناعة الدراسات والأبحاث حول البحر الميت، وازدادت الحاجة إلى الأملاح المختلفة في الصناعات الكيميائية. فقامت شركة بوتاس فلسطين عام ١٩٢٩ بإنشاء معمل شمالي البحر الميت عام ١٩٣٠. ثم ألحقت به سنة ١٩٣٤ فرعاً بنته جنوبي غرب البحر الميت في أسدوم. وقد تعطّل المعمل الشمالي في أحداث ١٩٤٨.

وجميع الأرقام التي تشير إلى ما يستخرج من ثروات البحر الميت أرقام صغيرة جداً إذا ما قورنت بمخزون هذا البحر من الأملاح المعدنية التي تدخل في صلب الكثير من الصناعات الهامة. يضاف إلى ذلك أن بعض ما يفقده البحر من الأملاح يتجدد ويتعوض بما تحمله إليه المياه الصابة فيه. وتقدّر كمية الثروة المعدنية بنحو ٤٥ مليون طن من الأملاح يتوزع أهمها على الشكل التالي:

١ — كلوريد المغنزيوم	٢٣، ٠٠ مليون طن
٢ — كلوريد الصوديوم	١٢، ٦٥ مليون طن
٣ — كلوريد الكالسيوم	٦،١١٩ مليون طن
٤ — كلوريد البوتاسيوم	٢، ٠٥ مليون طن

وقد تأسست عام ١٩٧٦ في الأردن شركة البوتاس العربية لاستخراج البوتاس وغيره من

المواد مثل كلوريد المغنزيوم وكلوريد الصوديوم والكلورين والبـرومـين من الجـزء الجنـوبـي الشـرقي من البحر الميت، وقـد بدأ الإنتـاج عام ١٩٨١.

يضـاف إلى هـذا بعض النشـاط الزراعي المتواضع الذي يستفيد من المساحات الصغيرة المروية الصالحة للزراعة، ولا سيما في منطقة الأغوار الجنوبية على الساحل الشرقي جنوبـي شبه جزيرة اللسان، وكذلك في سهل أريحا شمالي البحر الميت، وواحة عين جدي على الساحـل الغربـي. وتمتاز هذه الواحات المتفرقة بزراعة البواكير وفواكه المناطق فوق المدارية.

● **نقلاً عن الموسوعة الفلسطينية مجلد (١)**
الطبعة ١٩٨٤

المراجع:

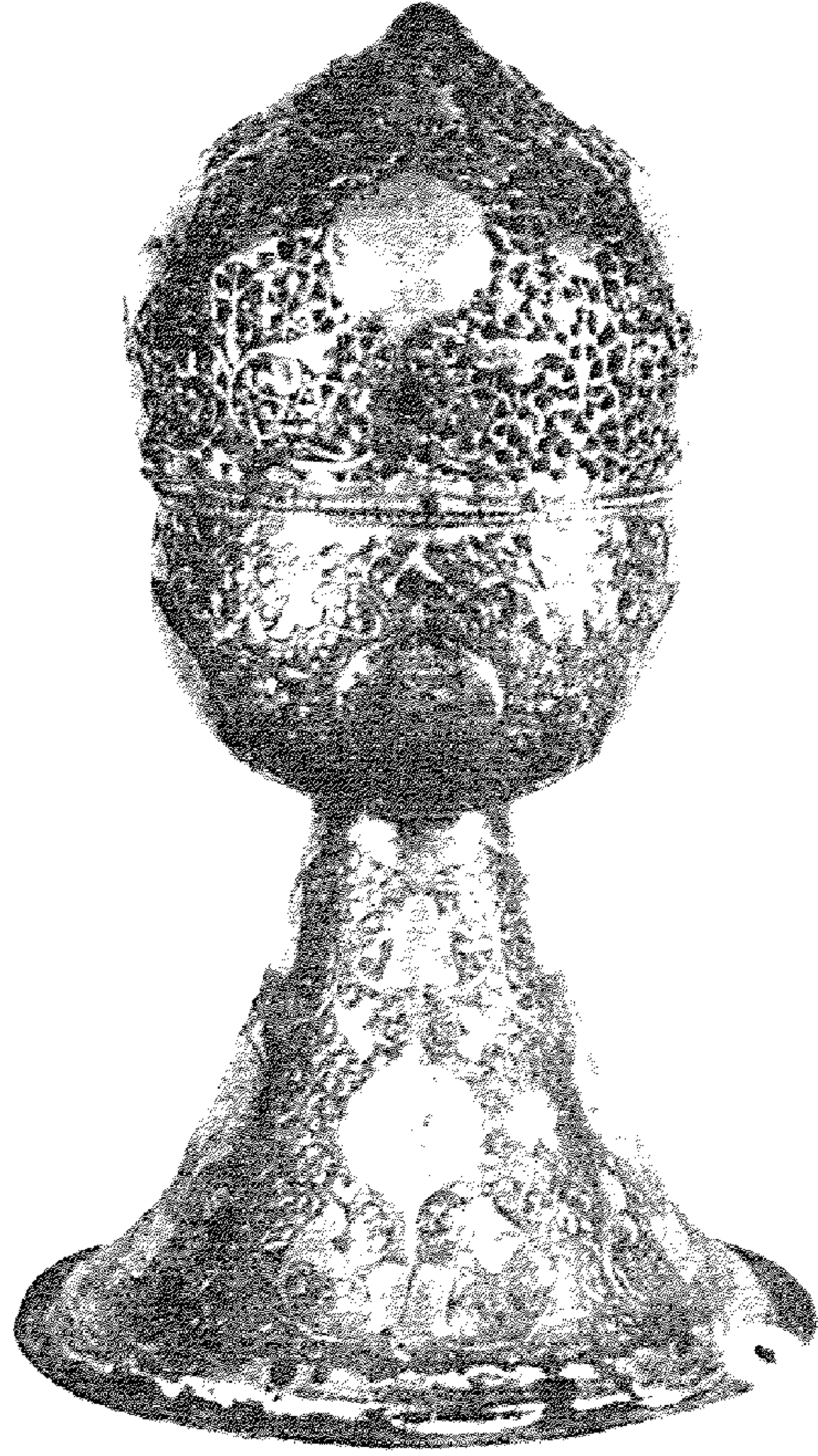
— مصطفى مراد الدباغ: **بلادنا فلسطين**. ج ١، ق ١، بيروت ١٩٦٥.
— الأب مرمرجي الدومنيكي: **بلدانية فلسطين العربية**، بيروت ١٩٤٨.
— ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج ١ و ج ٣، بيروت ١٩٥٥ و ١٩٧٥.
— الإصطخري: **المسالك والممالك**، القاهرة ١٩٦١.
— المقدسي: **احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ليدن ١٨٧٧.
— **إبراهيم شريف**: **نهر الأردن ومشاريع الري**، بغداد ١٩٦٢.
— **هاردنغ لانكستر**: **آثار الأردن** (مترجم)، عمان ١٩٦٥.
— **العهد الجديد**: إنجيل مرقس.
— **العهد القديم**: سفر نشيد الإنشاد، وسفر يشوع، وسفر التثنية، وسفر الملوك الأول.
— **خريطة فلسطين**: مقياس ١:١٠٠,٠٠٠، لوحات القدس والبحر الميت وجبل أسدوم ووادي عربة.
— Blanckenhorn, M. : *Entstehung und geschichte des toten Meeres*, Zeitschr. Deutsch-Palaest. Vereins 1896.
— Blanckenhorn, M. : *Naturwissenschaft Studien am Toten Meer und in Jordantal*, Berlin 1912.
— Burrows, M. : *The Dead Sea Scrolls*, London 1956.
— Garstang, J. : *The Story of Jericho*, London 1940.
— *The Encyclopedia Americana*, Vol. 8, 1976.
— *The Encyclopedia Britannica*, Vol. III, 1974.
— Lynch, W. F. : *Official Report of the U.S. Expedition to Explore the Dead Sea and the River Jordan*, Baltimore 1852.
— Quennell, A. M. : *The Structural and Geomorphic Evolution of the Sea Rift*, London 1959.
— Willis, B. : *Dead Sea Problem: Rift Valley or Ramp Valley*, 1928.

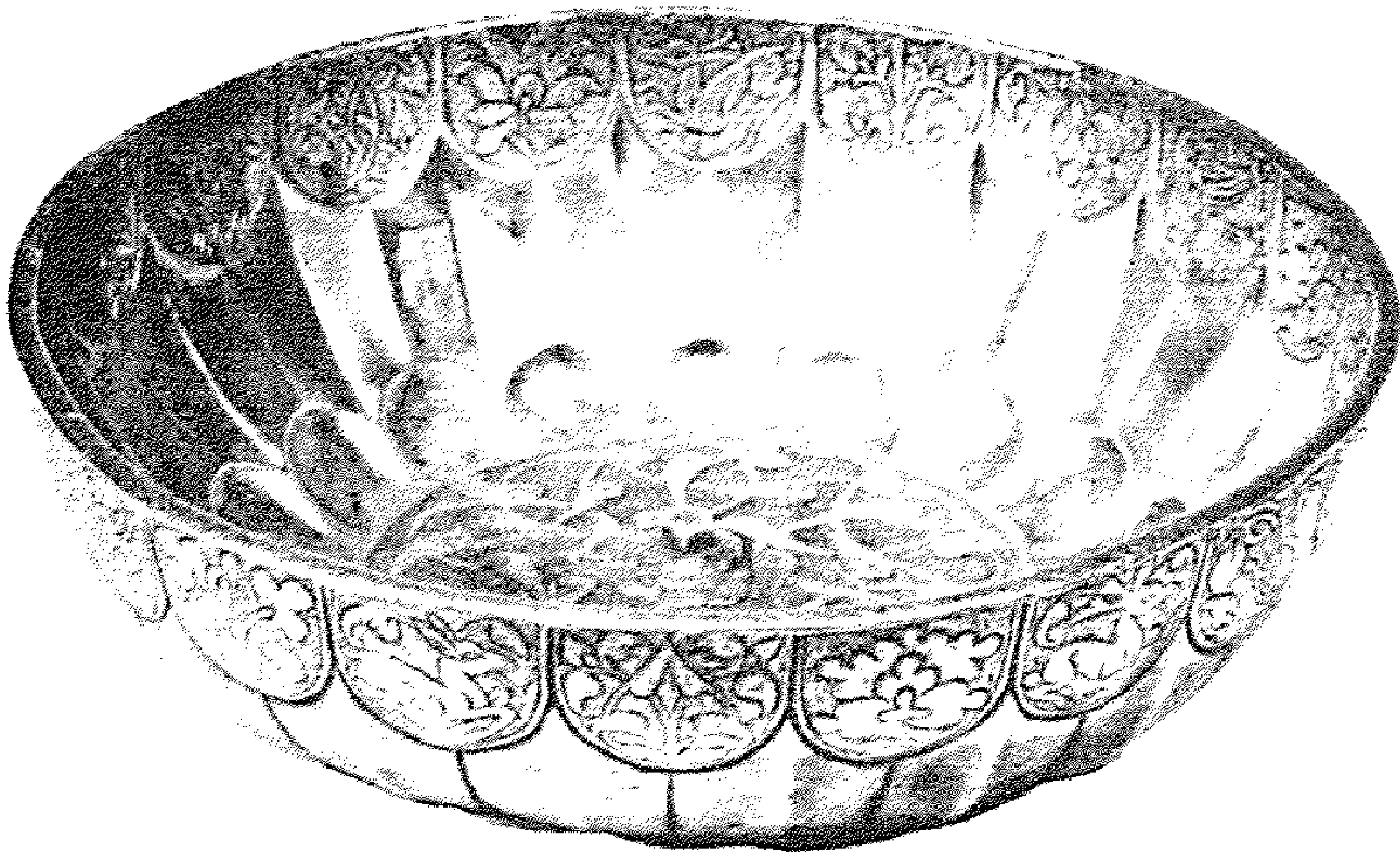


نَعْلُ رسولِ الله

● قعد الخليفة المهدي قعوداً عاماً للناس، فدخل رجل وفي يده نعل في منديل، فقال:
يا أمير المؤمنين، هذه نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أهديتها لك.
فقال: هاتِها!
فدفعها إليه، فقبّل المهدي باطنَها ووضعها على عينيه، وأمر للرجل بعشرة آلاف درهم. فلما أخذها وانصرف، قال المهدي لجلسائه:
أترون أني لم أعلم أن رسول الله لم ير النعل هذه، فضلاً عن أن يكون لبسها؟ غير أننا لو كذّبناه قال للناس: أتيتُ أميرَ المؤمنين بنعل رسول الله فردّها عليّ، وكان من يصدّقه أكثرَ ممن يدفع خبرَه، إذ كان من شأن العامة الميل إلى أشكالها، والنصرة للضعيف على القوي وإن كان الضعيف ظالماً. فاشترينا لسانَهُ، وقبلنا هديته، وصدَّقنا قوله، ورأينا الذي فعلناه أنجح وأرجح.

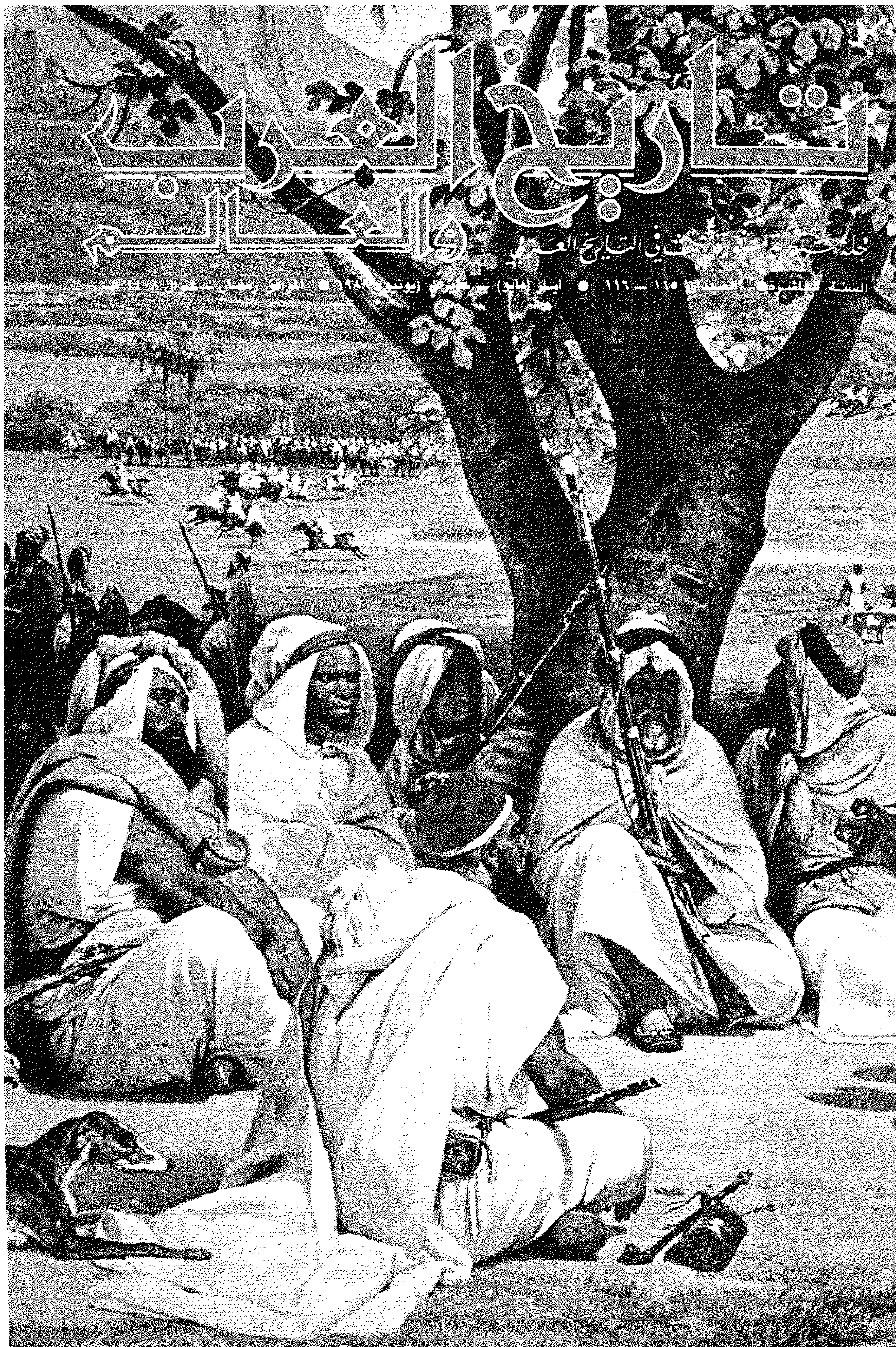
من كتاب «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي





فوق: محرقة عطر فضية على شكل ساق فنجان، ذات غطاء مثقب، مكسوة برسوم نافرة وزخرفية زهرية. تركيا العثمانية: القرن الثامن عشر.

تحت: سلطانية فضية ذات أطراف محزّزة بيضوياً، وزخرفة نافرة ومشجرة. تركيا العثمانية: أواخر القرن السابع أو أوائل الثامن عشر.


تاريخ العرب والعالم
السنة العاشرة • العددان ١١٥ ـ ١١٦ • ايار (مايو) ـ حزيران (يونيو) ١٩٨٨ • الموافق رمضان ـ شوال ١٤٠٨ هـ

□ قطعة نقدية على وجهها صورة خليفة.



الغلاف الأول

□ مجلس إشراف القوم يجتمعون في ظل شجرة سنديان (القرن التاسع عشر ميلادي) من كتاب The Civilization of Islam. by jean Mthé P.40.

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا ترد إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ١١٥ ـــ ١١٦ ● ايار ـــ حزيران ١٩٨٨.

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : **فاروق البربير**

المستشار : د. **أنيس صايغ** المدير المسؤول : **محمد مشموشي**

قسم التوثيق والأبحاث : **شذا عدرة**

قسم التوزيع والاشتراكات : **علي عبدالساتر**

الانتاج: **مطبعة المتوسط ش.م.م.**

التوزيع **الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.**

ثمن النسخة

لبنان	٧٥٠ ل.ل.	سوريا	٣٥ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٥ دولار
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥ دولار
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ١٠٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ـــ بيروت. لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـــ تلفون. ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 14. No. 115/116, May - June 1988

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. نراعي في الالقاب الصفات العلمية فقط ■



الثقافة الإسلامية في لبنان منذ الحرب الأولى

التغيير والتجديد والتمرّد العاجز

د. رضوان السيّد

نهاية التقليد



الصورة صورة تاريخية من الطراز الأول. والواقعة واقعة تاريخية من الطراز الأول. لكن كما في أكثر تلك اللحظات الهامّة في التاريخ الحديث والمعاصر، تصبح الصورة أكثر تجسيداً والتقاطاً للتاريخ من الحدث نفسه. أمّا الحدث فهو إعلان قيام لبنان الكبير من جانب الجنرال غورو بعد وقعة ميسلون عام ١٩٢٠. وأمّا الصورة فللجنرال المنتصر بميسلون وبلبنان الكبير يحيط به من اليمين البطرك الحويك، ومن اليسار المفتي الشيخ مصطفى نجا. صورة تكثّف الرمز بتركيبها، بل وبواقعيتها إلى درجة تستعصي على التصديق لما تعنيه من نهايات أكثر مما تعنيه من بدايات. إنها نهايات كثيرة كثيرة: نهاية الدولة الإسلامية العثمانية، ونهاية الوضع المتميّز للمسلمين ببلاد الشام، ونهاية الحلم الذي لم يستمرّ غير شهور، حلم الدولة العربية الوارثة للسلطنة في منطقة المشرق العربي. لكنها قبل ذلك وبعده نهاية للثقافة الإسلامية التقليدية التي اكتملت مع الصعود السلجوقي، وبلغت الذروة في الحقبة المملوكية، واستقرّت عليها حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي.

إنها ثمانية قرون من السيادة التي لم يكد يعكّرها شيء بحيث ما كان لرجالات مثل الشيخ أحمد الأغرّ، وعبد الباسط الفاخوري، وعبد القادر القباني، ومصطفى نجا أن يصدّقوا أنّ ذلك كلّه يمكن أن ينتهي هكذا فجأة، وفي ساحات معارك الحرب الأولى وليس في جبهات النضال الثقافي. ومن هنا فالذي لا شكّ فيه أنّ الشيخ نجا الجالس على شمال الجنرال الفرنسي ما كان يدرك خطورة جلوسه أو قعوده هذا، هو الرجل الصوفيّ الشافعيّ الذي كانت خصوماته طوال حياته لا تتجاوز مماحكات مع فقهاء السلطنة من الأحناف أو الجدل مع السلفيين الجدد المعادين للصوفية والتصوف. كانت كتاباته وكتابات سلفه الشيخ الفاخوري لا تتعدّى الابتهالات الصوفية، والحواشي على تفصيليات الفقهاء، والموجزات في تاريخ الإسلام والسلطنة، والمدائح النبوية، والدفاع مع الشيخ يوسف النبهاني عن كرامات الأولياء في وجه منكريها.

وعبثاً يحاول مؤرّخو السنّة المحدثون الدفاع عنه بالقول أنه رفض لقب «مفتي الجمهورية اللبنانية»، وأصرّ على لقب «مفتي بيروت» حتى وفاته. فالرجل وجيله من شيوخ التقاليد العريقة، هم ممثّلو حقبة ماضية مضت منذ عقود دون أن يدركوا جميعاً ذلك. فهل كان البطرك الحويك

مـدركاً لخـطورة تلك اللحـظات التـاريخيـة هو الجالس إلى يمين السلطان الجديد؟!

أيا يكن الأمر فإنّ البطرك بخـلاف المفتي سعى بوعي ومنذ سنـوات قبل العـام ١٩٢٠ للوصول إلى الكيان. لكنّ المشكوك فيه أن يكون قد أدرك تماماً عقابيل تلك الجلسة وعواقبها. فكتابات جبـران ونعيمه في العشـرينات كـانت ما تزال تؤكّد على المشكلات الداخلية، وتعتبر الإصـلاح إصلاحـاً ذاتياً داخلياً بمعزل عن عـواصف العصر، وبدايـات النـظام الدولي في البلقان، والمشرق العـربـي. لكنّ الجلوس على يمين الجنرال كان خيراً ولا شكّ في نظر البطرك الحـويك ومشايعيه من أن لا يكون لهم مجلس على الإطلاق. أمّا جلسة مفتينا الجانبية فكانت ولا شـكّ إيذانـاً بأنـه لم يعد لتلك المـنظومة التقليدية مكان في السلطة السياسية الجديدة. وكان الشيـخ نجا فعلاً آخر مفتي بيروت، كما كان آخر مفتي السلطنة أو الحاصلين على براءة تولية من السلطان.

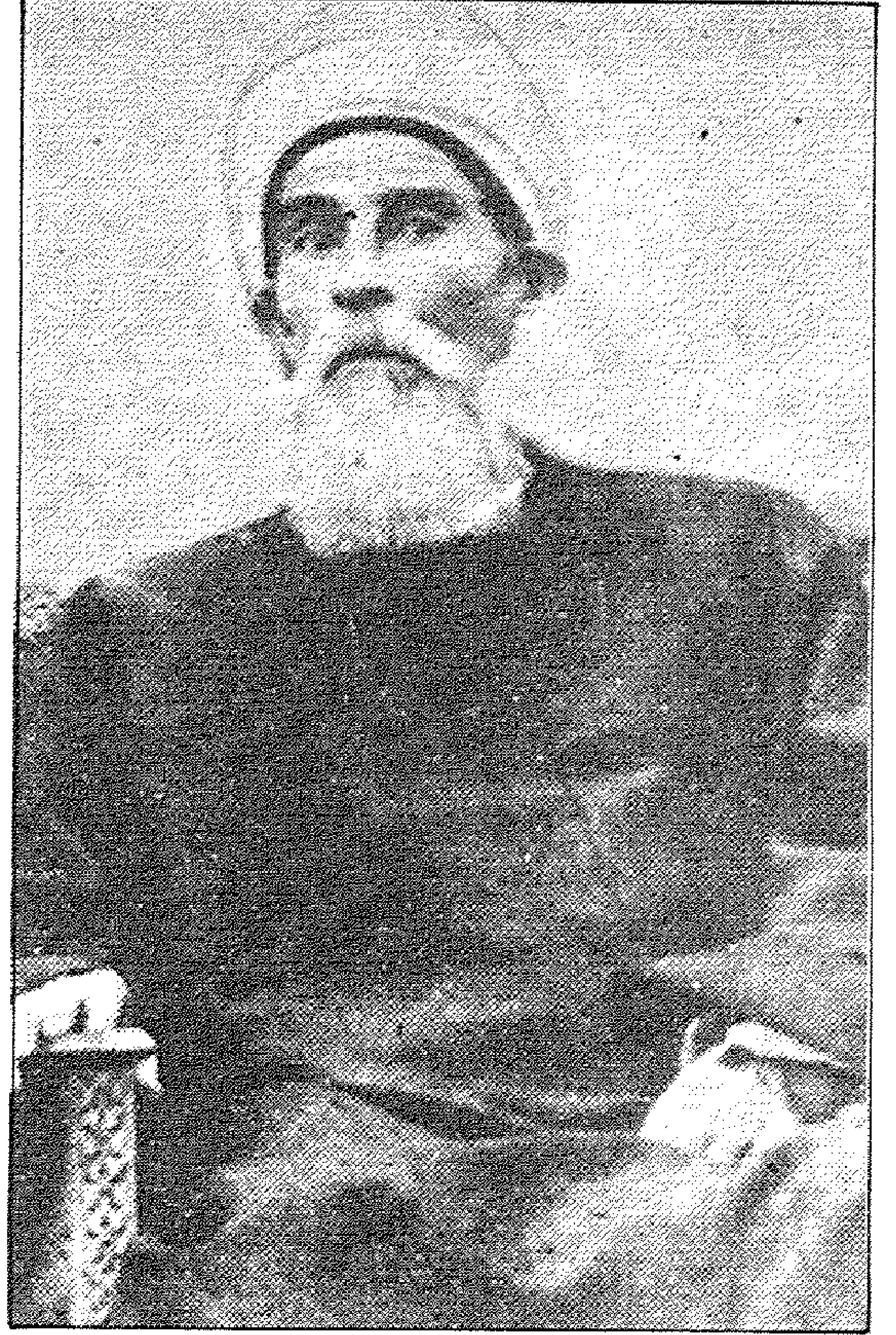
إشكاليات الإصلاح

بيد أنّ نهاية الفاخوري ونجا، رجلي الثقافة الإسلامية التقليدية، كانت بمعنى من المعاني نهاية لتيار ثقافيّ إسلاميّ آخر طلـع من قلب التقليد، وسعى للإصلاح والتجديد انطلاقاً منه هو تيّار الشيـخ محمد عبده وتلامذته. ونعني بهم في سياقنا هنا أمثال السيد رشيد رضا، والأمير شكيب أرسلان، والسيد محسن الأمين. فقد عاش هؤلاء في وهـج العصر، وعانوا قضايا الإصـلاح الداخليّ، وأدركـوا تشابـك الخارج بالداخل، وهجمة الخارج على الداخل، لكنهم أبوا أن يقطعوا مع أي طرف بالداخل أو بالخارج، كما أبوا في الوقت نفسه أن يتجاوزوا التقليدية الإسلاميـة. كـان التقليـد مـا يـزال يتمتـع بالمشروعية الرسمية المؤسّسية، كما كان ما يزال يتمتـع بركائز اجتماعية معتبرة من خلال الطرق الصوفية، والأصناف، ورجالات الأوساط المدينية. كان الإصلاحيون يعيشون حتى إلغاء الخلافة عام ١٩٢٤ في فضاء الجامعة الإسلامية التي اخترعها جيل جمال الدين الأفغاني، فيهربون من قتامة الداخل المشرقي باتّجاه إسلام الهند



□ الإمام المجاهد الشيـخ محمد رشيد رضا.

وأندونيسيا والمغرب من الناحية الثقافية. وباتجاه الاعتماد على تناقضات السياسات الاستعمارية للدول الأوروبية بالمشرق. يتجادلون مع التقليدية الشافعية والحنفية العثمانية، بالعودة إلى حنبلية ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب. ويـناضلون الفرنسيين بالتوجـه نحو الإنجليـز، ويناضلون الإنجليز بالتوجه نحو الطليان والألمان. ما كانوا يجرؤون على التفكير ببدائل للخلافة العثمانية. حتى أذا ألغى مصطفى أتاتورك الخلافة، معلناً انسحاب تركية من الوحدة العثمانية، سـارع رشيد رضا إلى التنظير لإمامـة عظمى لإمـام أو سلطان آخـر رغم زوال الإمامـة والسلطنة أو زوال دار الإسلام لصالـح الجزء المشرقي من النظام الدولي الجديد. صحيـح أنّ اهتمامات هؤلاء أو وجوه تركيزهم كانت متنوعة. فقد غلبت الاهتمامات والحلول الفقهية على رشيـد رضا ومحسن الأمـين. بينمـا غلبت الاهتمـامـات



□ **العلامة الشيخ مصطفى نجا.**

السياسية على شكيب أرسلان. لكنّ أدوات النضال كانت واحدة. لقد ظلّت تلك الأدوات هي أدوات التقليد الإسلامي ذاتها: النّص القرآني الأحاديث النبوية. بالنّص القرآني، وآثار آل البيت

حاول محسن الأمين أن يبعث روحاً إصلاحية تتجاوز الإسلام الشيعي الشعبي، إسلام تقاليد الغدير وعاشوراء وملحمة الحسين. وبالسنة الصحيحة حاول رشيد رضا أن يتجاوز تقليدية الطرق الصوفية، وتدقيقات فقهاء التقليد. فإذا وصل الأمر إلى المشروع السياسي الإسلامي العامّ الذي كان يحتضر مع احتضار السلطنة، اغفلوا نصوص التقليد جميعها دون أن يجدوا مستنداً شرعياً أو مشروعية معتبرة لتخبطاتهم بين قوى الاستعمار، والقوى السياسية الجديدة المتكونة على حواشي النظام الدولي، وفي تعاون ظاهر أو مستتر معه. وتفتّقت أذهان رجالات **حركة الخلافة** بالهند عن حلّ اعتبروه بديلاً للخلافة العثمانية الزائلة. فقد أبوا أن يعترفوا بزوال **دار الإسلام** أو فكرتها لزوال السلطنة، فرأوا العودة للأصل، **للإجماع**، صاحب أصل السلطة في الإسلام السنّي، فكانت المؤتمرات المتتابعة لعلماء الإسلام في العشرينات، والتي توّجت بالمؤتمر الإسلامي بالقدس عام ١٩٣١، وهو **مؤتمر الإجماع** الذي رجوا من ورائه وفي مقدمتهم رشيد رضا وشكيب أرسلان أن يحلّ إشكالية زوال الخلافة، والتهديد الصهيوني لفلسطين، والاستعمار الغربي لأكثر ديار الإسلام. وما فكّر أكثر الإصلاحيين الذين تولّوا المناصب الرسمية في الكيانات الجديدة الطالعة على أنقاض دار الإسلام، بماهية هذه الكيانات، وكيف ينبغي التعامل معها، ومع سلطاتها الناشئة برعاية المستعمرين وحمايتهم. وحده الأمير شكيب نظر لذلك كلّه بعين ناقدة بسبب وجوده في الخارج، وعدم اضطراره لمجاملة هذا الحاكم أو ذاك. لكنه في الوقت نفسه لم يجروء على طرح مشروع **الأمة العربية** أو **المشروع السياسي العربي** باعتباره الوارث للمشروع **الوحدوي العثماني** رغم تأسيسه لمجلة **«الأمة العربية»** بسويسرا. لقد راودت الفكرة الجميع على مايبدو، لكن كيف كان يمكن الدعوة إليها والهنود مايزالون يدعون للخلافة، وربما كانوا يوافقون على خليفة عربيّ؟ وكيف كان يمكن الدعوة إليها ولم يشتدّ ساعدها بعد في مصر رغم وجود إصلاحيّ إسلامي كبير شيخاً للأزهر هو محمد مصطفى المراغي؟! كان مأزق الإصلاحيين عدم القدرة على القطع مع التقليد حتى لا يفقدوا المشروعية، وعدم القطع مع البريطانيين حتى لا يواجهوا النفي أو تتحدّد حرية حركتهم. وفي الوقت نفسه ما كانوا يستطيعون التواصل التّام مع الكيانات المتكوّنة خشية الوصول للاعتراف بزوال دار الإسلام وعدم وجود البدائل. لذلك تحولت حركتهم إلى ردود أفعال ناقدة أو مؤيّدة لهذه السلطة أو تلك، ولهذا التصرف أو ذاك — دون أن يكون هناك سياق شامل لتلك التحركات المتضاربة إلّا إذا اعتبرنا الموقف المتحفّظ من الظواهر السياسية الجديدة سياقاً معتبراً. وكان هذا أيضاً هو شأن حركة العلماء الجزائريين والجماعة الإسلامية بالهند، وحركة الأخوان المسلمين المتكوّنة بمصر. وما ملك الإصلاحيون



□ الأمير شكيب أرسلان.

أفراداً وجماعات غير الصمت أمام تحركات السياسيين الذين تجاوزوهم في الثلاثينات، وراحوا يؤسّسون حركات وطنية محلية تناضل الاستعمار في بلدانها، وتؤجّل الحديث في الهوية، وإشكاليات الكيانات الجديدة مع الاسلام الواحد، لما بعد الاستقلال القطري. وهكذا شاخ الإصلاح الإسلاميّ دون أن يعيش شباباً واعداً، وكهولة ناضجة، مع وفاة رشيد رضا عام ١٩٣٥، وشكيب أرسلان عام ١٩٤٦، ومحسن الأمين عام ١٩٥٢.

وليس بالوسع اعتبار الشيخ عبد الله العلايلي واحداً من أولئك الإصلاحيين، لأنه قطع مع التقليد، وتيار الإصلاح، في الوقت نفسه. لكنّ ذكره في هذا السياق ضروريّ، لأنه أصدر عام ١٩٤١ كتابه: «دستور العرب القومي» الذي دعا فيه لقومية عربية، وأمة عربية، ووحدة عربية، متجاهلاً الكيانات الجديدة في الوقت نفسه الخلافة الغاربة. وكان ادمون ربّاط قد سبقه لذلك في رسالة له عام ١٩٣٧.

وهكذا فإن ذكر هذين في سياق الإصلاحيين رغم عدم انضوائهم في تياراتهم، يعود إلى أنهما كانا بمثابة النتيجة المنطقية لأحاديث رشيد رضا

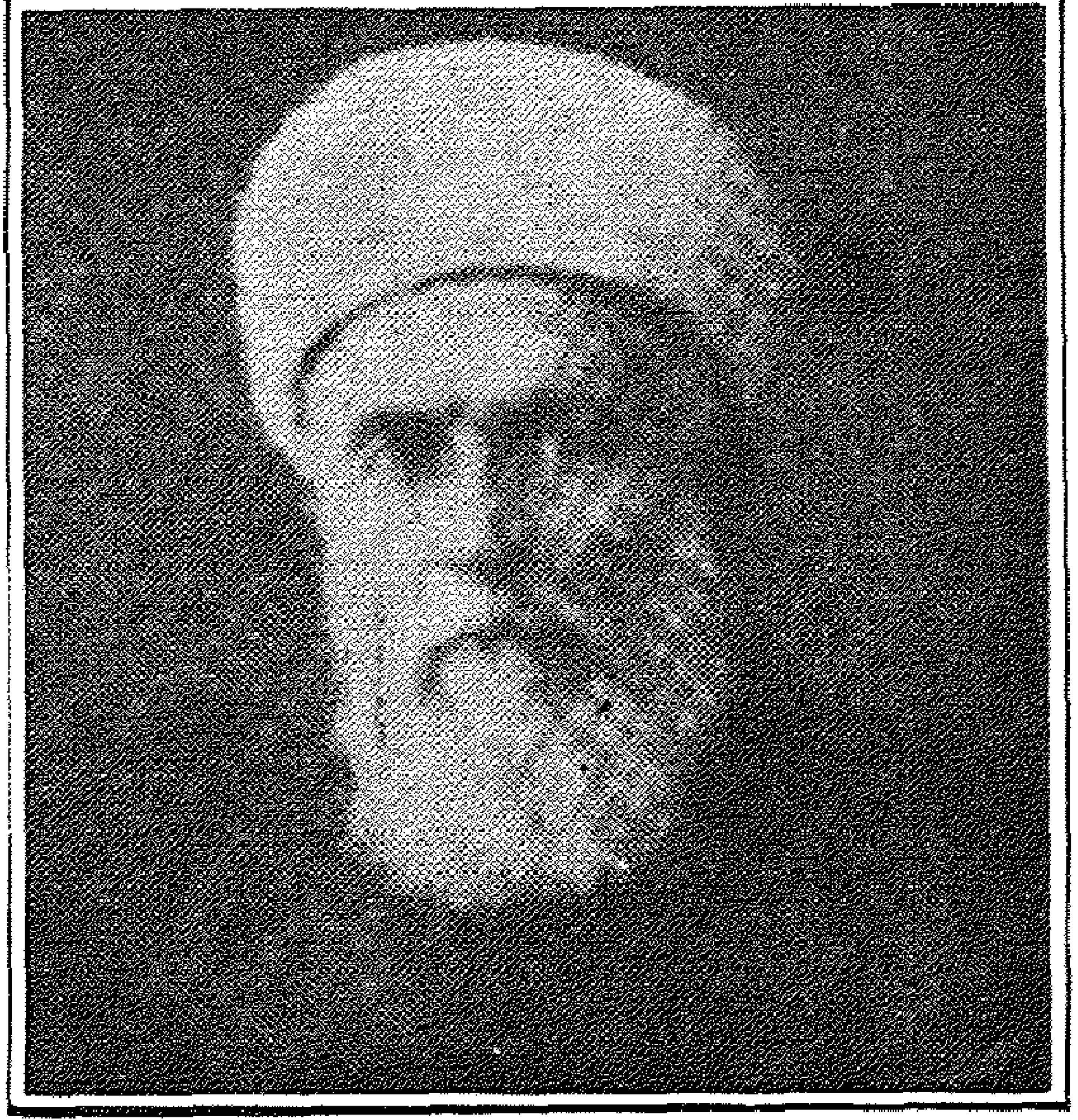
□ الشيخ عبد الباسط الفاخوري.



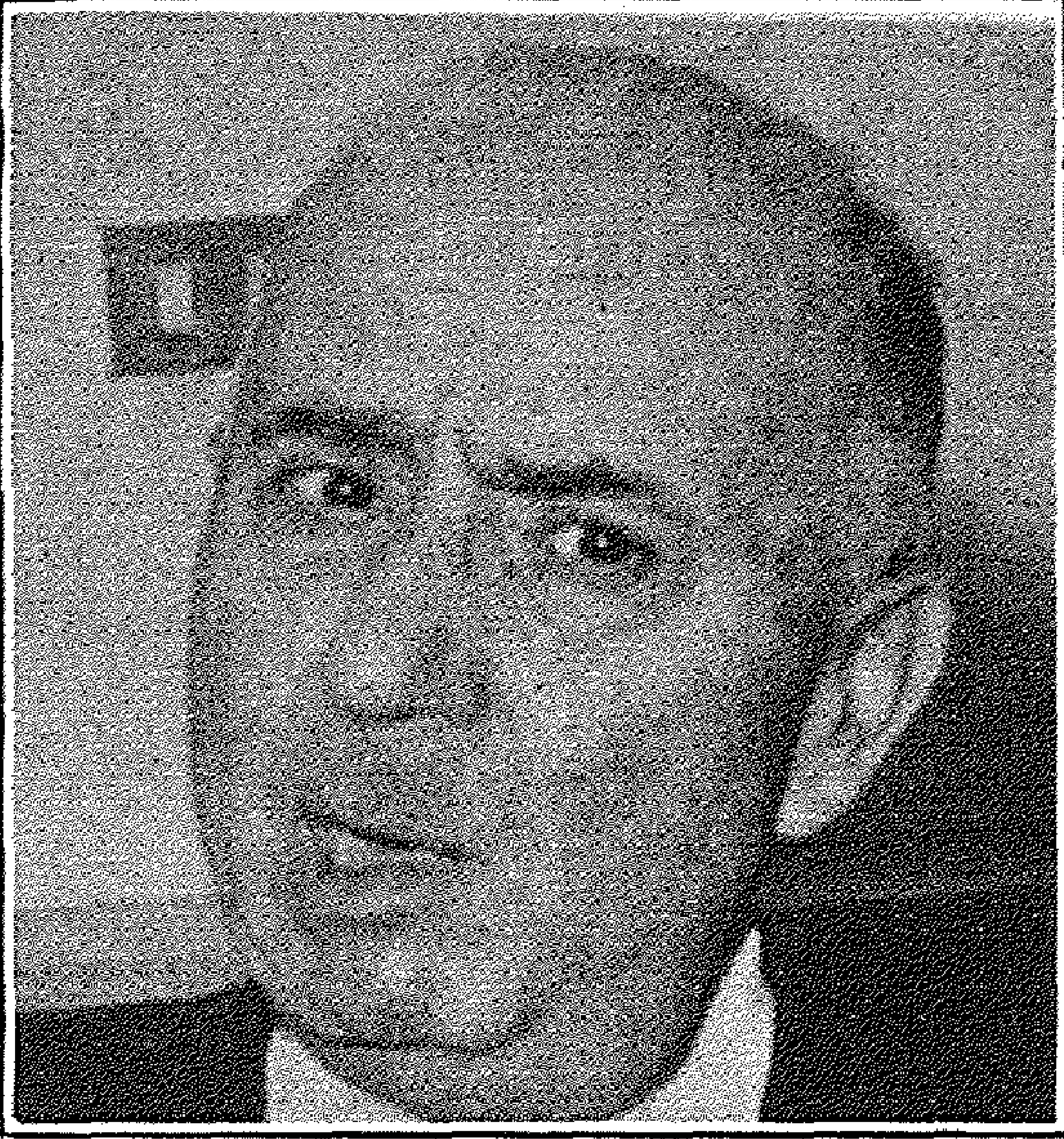
وشكيب أرسلان ومحسن الأمين عن الأمة العربية من الناحية الثقافية فما فعله العلايلي هو تحويله فكرة الإصلاحيين الثقافية إلى مشروع سياسيّ، وإن لم يحدث ذلك انطلاقاً منهم مباشرة.

التمرد العاجز

.. وانتهت الحرب العالمية الثانية باستتباب الكيانية العربية، وقيام الجامعة العربية تتويجاً لها، ودرءاً عنها. وعلى مستوى لبنان، فإنّ الثقافة الإسلامية وقعت أسيرة الإشكاليات التي اصطنعها النظام الطائفي في الدستور والميثاق والدولة. فقد انصرف المثقّفون والصحفيون والسياسيون المسلمون للدعوة لإصلاح النظام بإزالة الغبن عن المسلمين في جهاز الدولة. وقد وصلت هذه المحاجّة إلى التاريخ والجغرافية



□ الشيخ عبد القادر القباني.



□ إدمون رباط.

والأخلاق والدين. فقد كان مهما بالنسبة للمرحوم الدكتور زكي النقاش أثبات إسلامية بل سنّية الأمير فخر الدين المعني الثاني، إثباتاً لأصالة المسلمين بلبنان. وراح المؤرّخ محمد جميل بيهم في اتّجاه معاكس لكن للوصول للنتيجة نفسها، أنه لا أحد أفضل من أحد ــ فالمسلمون عريقون بلبنان عراقة المسيحيين. وهذا ما حاوله ويحاوله آخرون كثيرون من المثقفين المسلمين حتى السنوات الأخيرة من محمد علي مكّي وعمر تدمري، إلى حسّان حلّاق ومحمد علي ضناوي. وكان الوجه الآخر لهذا الإحساس العميق بالظلم والاضطهاد والغبن السير في اتجاهات إسلامية فضفاضة ودفاعية في وجه أيديولوجيا الانعزال، والهجوم على الإسلام والمسلمين باعتبارهم متخلّفين وصحراويين وغير حضاريين. في هذا السياق استعاد د. عمر فرّوخ جداليات جمال الدين ومحمد عبده مع رينان وهانوتو وفرح أنطون، لكنّ الخصوم هذه المرة كانوا المبشرين الذين يريدون افتراس الإسلام بشكل عام. وشارل مالك، وفؤاد افرام البستاني ومن لفّ لفّهما، ممن كتبوا ويكتبون ضدّ الإسلام، توصّلاً لتبرير استغلال المسلمين، واضطهادهم في الكيان، فإذا كانت معركة زكي النقاش ومحمد علي مكي وعمر تدمري تاريخية وجغرافية، فإنّ معركة عمر فرّوخ حضارية عامّة. الأولون يستعيدون الكيان جغرافياً وتاريخياً للإسلام والمسلمين، وعمر فرّوخ يخوض معركة العلاقة غير العادلة بين المسيحية الهاجمة على الإسلام، والإسلام المتشبّث بمواقعه دفاعاً عن عقيدته وحضارته ومستقبله. وكما وقع الإصلاحيون ضحية للحطام المتناثر نتيجة انهيار الدولة العثمانية، فإنّ إسلاميي ما بعد الحرب الثانية بلبنان كانوا ضحية تبلور المشروعات الكيانية العربية، والإشكاليات الداخلية الناجمة عن هذا التبلور. وبالوسع تأمّل بعض من إشكاليات هذا الفكر في المحاضرات التي ألقاها المسلمون من على منبر **الندوة اللبنانية** في عشري الخمسين والستين، أذ تمثّل تلك المقولات العلنية ذات الطابع الشامل الطرف الآخر للحجاج الثقافي الداخلي. فقد كان الطرف الأول الشديد المحلية إبراز الغبن الفظيع، والدفاع عن إنجازات المسلمين التاريخية بلبنان وله. بينما كان الطرف الآخر البارز في محاضرات المسلمين من على منبر **الندوة** بلورة الإسلام باعتباره منظومة حضارية عظيمة وسامية، تؤمن بالتحديث، وتناظر المسيحية الحضارية السامقة بلبنان والغرب الأوروبي. وواضح أنّ كلا الطرفين حجاجيّ دفاعيّ مستميت في التماهي مع مقولات الفريق المسيحي، وإن بدا في العلن شديد المخاصمة له.

وقد كانت لبعض أجنحة التيار الثاني ثمرات علمية إيجابية، بسبب تضاؤل النزعة الجدلية فيها، وإن كان أصلها حجاجياً. إذ انصرف عمر فرّوخ للتأريخ للعلوم العربية الإسلامية، وانكبّ صبحي المحمصاني على الفكر الفقهي الإسلامي مقنّناً ومنظّماً ومقارناً مع المنظومات القانونية الغربية. ودأب صبحي الصالح على صياغة التراث الإسلامي في علوم القرآن، والسنة، واللغة، صياغة «عصرية» مدرسية جيدة. وأنجز محمد جواد مغنية مؤلّفات مفيدة في مجال الفقه التفصيلي، فقه الحلال والحرام، في ظلّ هموم العصرنة، ومساوقة الجديد في الحياة الاجتماعية.

لكنّ هؤلاء جميعاً، في لجوئهم إلى صوفية علمية تحديثية المظهر، كانوا يعلنون انسحابهم من معركة الإسلام السياسي التي انفجرت بمعزل عنهم منتصف عشر الستين، وما تزال مشتعلة الأوار. إذ لم تكن إشكالية الفكر الإسلامي بلبنان، بعد الحرب الثانية، كما يزعم الكثيرون اليوم، رفض الكيان لصالح مشروعات عربية أو إسلامية أوهما معاً، بل كانت الاستماتة من أجل الحصول على اعتراف بهم كما هم، بإسلامهم وعربيتهم، في وقت بدأ فيه الطرف الآخر مستعداً للاعتراف بالعالم كلّه إلّا بهم هم خشية النتائج السياسية المترتبة على تفهّم ذلك الهمّ الثقافي الغلّاب. من هذا المنطلق يمكن لنا اليوم، بعد أن لم تعد الساحة الثقافية ما كانته قبل اندلاع الحرب الأهلية، أن نفهم شراسة ذاك **التمرّد العاجز** الذي توفي آخر رموزه، أعني د. زكي النقّاش منذ فترة، في رفض **العلمنة** التي سبق لأكثرهم في عشر الخمسين أن أيّدوها. فقد فهموا من نقل النقاش حول العلمنة من الجدل الثقافي إلى الجدل السياسي، محاولة لإلغائهم من نافذة شديدة الحساسية بالنسبة لهم هذه المرة نافذة الهوية الثقافية الواحدة، وهي كلّ ما تبقى لهم.

لكن، ماذا بعد؟ وأين هم المسلمون بلبنان اليوم؟ أنّ الباقي والمستقبليّ ذاك المشروع الثقافي/ السياسي الذي يحمل لواءه على المستوى الثقافي الشيخ محمد مهدي شمس الدين، وعلى المستوى السياسي الدكتور سليم الحصّ. وبدايات ذلك بل حدوده القصوى: كرّاس كاظم الصلح في الاتصال والانفصال في عشر الثلاثين من هذا القرن. إذ ليس ممكناً في الثقافة والفكر والسياسة أن يمضي المسلمون أبعد من ذلك في الأدْلَجة للكيان، أيّ كيان كان. في هذا المجال يمثل مشروع الشيخ محمد مهدي شمس الدين فهماً عربياً إسلامياً واضحاً ومتوازناً لعلاقة الخاصّ بالعامّ، المحلّي والإقليمي بالعربي والإسلامي. وتمثّل **نافذة** الدكتور سليم الحصّ على **المستقبل** تقويماً نقدياً لمسيرة بناء الوطن والدولة، وآفاق الإصلاح السياسي الضروري لاستمرار الوطن والدولة.

إنّ مشروع هذين الرجلين لبناء الوطن والدولة، هو البلورة الوحيدة الممكنة اليوم للفكر الإصلاحي الإسلامي في حقبة ما بين الحربين. وهو بمعنى ما التجاوز الضروري للتمرد المجهض لمثقفي المسلمين في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وما بعد حربنا المحلية الثانية أيضاً. فهل يتجاوز الطرف الآخر نفسه أيضاً من أجل بناء وطن للجميع ودولة حديثة عادلة؟ أرجو أن يكون ذلك.



● «خلق الله لنا يدين: واحدة لنعطي بها فلا يجب إذاً أن نجعل من أنفسنا صناديقاً للادخار، وإنما قنوات يعبرها الخير ليصل إلى غيرنا».

(بيلي جراهام)

ملاحظات حول ظاهرة الإرهاب الدولي

د. محمّد المجذوب (*)

لقد اتّسع، في الآونة الأخيرة، نطاق الإرهاب الدولي فعمّ مختلف أرجاء الدنيا، واتّسم بالعنف الشديد، وأشاع جواً من الذعر والقلق.

ولم تَخْلُ عمليات الإرهاب من آثار مأساوية دراماتيكية تجسّدت في تصفية الرهائن ونسف الطائرات وتدمير المنشآت...

وإذا كان البعض يلجأ أحياناً إلى أسلوب العنف والتهديد لانتزاع بعض المكاسب المعقولة، فإن البعض الآخر يتخذ من العنف وسيلة لابتزاز الأموال أو إرضاء النزوات الخسيسة. وكانت إسرائيل رائدة سباقة في هذا المضمار. ففي ١١/٥/١٩٦٠، اختطفت الألماني (ايخمان) من ضواحي العاصمة الأرجنتينية ونقلته جواً إلى تل أبيب وأذاقته قبل إعدامه كل أنواع التعذيب الجسدي والنفسي. وكل ذلك دون احتجاج من الدولة التي انتُهكت حرمة سيادتها، ودون استنكار من الهيئات والمنظمات الدولية التي تدعي الحرص على حقوق الإنسان.

وإلى جانب القلق العالمي الذي اشتدت وطأته بسبب انتشار العمليات الإرهابية، فإن مشكلة الإرهاب قد فجرت جدلاً طويلاً ما زال يتفاعل في الأوساط الدولية والفكرية. وفي كل مرة تُبحث فيها المشكلة يُسفر الجدل عن اختلاف في المواقف وتباين في ردود الفعل.

وليس ذلك بالأمر المستهجن. فالعالم اليوم، كما كان في كل عصر، منقسم على نفسه من حيث العقيدة والاتجاه والمصلحة. ولا يُنتظر منه الإجماع على أية قضية أو ظاهرة معينة.



مع تصاعد وتيرة الأعمال الإرهابية، وتصاعد الخسائر المعنوية والمادية، وتصاعد الشعور بالهلع في المجتمع الدولي، عكفت المنظمات الدولية، وفي مقدمتها الأمم المتحدة، على دراسة هذه الظاهرة للتعرف إلى أسبابها وإيجاد التدابير المناسبة لقمعها أو الحدّ من أخطارها.

ويمكننا إلقاء نظرة عجلى على مختلف الجهود التي بذلها المجتمع الدولي في هذا السبيل، من خلال الملاحظات العشر التالية:

الملاحظة الأولى
خطورة الإرهاب

يُعدّ الإرهاب الدولي من أخطر الظواهر التي عرفها المجتمع الدولي الحديث. وتكمن خطورته في عدة أمور أو نتائج نذكر منها:

١ — العدد الهائل من الضحايا التي تسقط.

٢ — والخسائر المادية الفادحة التي تصيب الممتلكات والمؤسسات العامة والخاصة ومختلف وسائل الاتصال.

(*) مداخلة قُدّمت في الندوة العالمية حول الإرهاب الدولي التي اقامتها منظمة الاشتراكيين التقدميين لحوض البحر المتوسط، في طرابلس الغرب، ما بين ١٣ و ١٦/٤/١٩٨٨.



□ الإرهاب في إيرلندا.

٣ ــ والذعر الرهيب الذي يستولي على الناس، وجُلّهم من الأبرياء.

٤ ــ وعدم التمييز، عند ارتكاب أفعال القتل والإيذاء، بين الأشخاص أو الأهداف.

٥ ــ والاستهتار بكل المبادىء والاتفاقيات والمواثيق القانونية والأخلاقية.

٦ ــ وتوتير العلاقات الدولية مما قد يؤدي إلى حروب واصطدامات مسلحة.

الملاحظة الثانية
إرهاب الدولة

لا يكون الإرهاب الدولي دائماً نتيجة فعل يرتكبه فرد أو جماعة بدافع الانتقام أو الابتزاز أو التخريب، بل قد يكون نتيجة حملات إجرامية تنظمها بعض الدول بقصد قمع حركات التحرر، أو منع شعب من المطالبة بحقوقه المشروعة، أو فرض سياسة معينة أو توجيه معين على حكومة مستقلة. والأمثلة المعاصرة كثيرة، نذكر منها:

١ ــ الإرهاب الذي يمارسه الكيان الصهيوني ضد الفلسطينيين وضد الدولة العربية.

٢ ــ سياسة الإرهاب التي يتبعها النظام العنصري في جنوب أفريقيا ضد السكان الأصليين من الأفريقيين.

٣ ــ أسلوب الإرهاب تنفّذه حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ضد الدول التي ترفض الرضوخ لإرادتها. وعدوانها على الجماهيرية الليبية شاهد على ذلك.

الملاحظة الثالثة
قِدَم ظاهرة الإرهاب

ليست ظاهرة الإرهاب الدولي نتيجة حادث معين، كما أنها ليست حدثاً جديداً في التاريخ السياسي، فقد عرفت البشرية هذه الظاهرة منذ القدم. ويكفينا أن نشير إلى الأعمال الإرهابية التالية:

١ ــ اغتيال الامبراطور الروماني يوليوس قيصر، في العام ٤٤ قبل الميلاد، داخل مجلس

الشيوخ، بتحريض من الطبقة الأرستقراطية التي نقمت عليه بسبب إصلاحاته الشعبية.

٢ ــ أساليب الإرهاب والعنف التي لجأت إليها جماعة (الحشاشين) في القرن الحادي عشر من أجل مقاومة سطوة الحكام السلاجقة، والتي كان من أبرز نتائجها اغتيال الوزير السلجوقي، نظام الملك، في العام ١٠٩٢، واغتيال المركيز الصليبي، كونراد دو مونفرا، في العام ١١٩٢، الذي أعلن نفسه ملكاً على القدس في العام نفسه، ومحاولة اغتيال البطل العربي صلاح الدين الأيوبي.

٣ ــ طرق الإرهاب التي اعتمدتها جماعة (الخنّاقين) في الشرق الأقصى، أو التي كانت تتجلى في خنق المعارضين والخصوم بأشرطة حريرية.

٤ ــ أعمال القرصنة البحرية ضد السفن التجارية، التي ازدهرت في القرن السادس عشر، وكانت ترمي، في معظم الأحيان، إلى الابتزاز والنهب.

٥ ــ وسائل الإرهاب التي مارستها بعض المنظمات والمذاهب العنصرية أو الفوضوية في الغرب، منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى. ومن أشهرها:

(أ) المنظمة الإرهابية (كوكلاكس كلان) التي أنشأها، في العام ١٨٥٦، المزارعون البيض في جنوب الولايات المتحدة لإعلان رفضهم منح الحقوق المدنية للزنوج والملونين. وكان قانون المنظمة يقضي بشنق الزنجي على الشجرة.

(ب) الحركات الفوضوية التي دعت إلى تحقيق التحوّل السياسي والاجتماعي عن طريق العنف والإرهاب. ومن أشهرها حركة (العصابة السوداء) التي هاجمت الكنائس والشركات واغتالت، في فترة عشرين سنة، عشرة من رؤساء الدول والحكومات.

٦ ــ الأعمال الإرهابية التي لجأت إليها النقابات التي تبنّت الفوضوية، وأدّت في فترة ما بين الحربين، إلى قيام الاضطرابات وارتكاب الاغتيالات وإضعاف الحكم الديموقراطي في كل من فرنسا وإيطاليا وإسبانيا.

٧ ــ الإرهاب الذي مارسته الأنظمة الدكتاتورية في أوروبا، في الفترة نفسها، وحوّلته إلى عقيدة أو سياسة للدولة.

٨ ــ أعمال العنف التي ظهرت في بعض الأقاليم الرازحة تحت نير الاستعمار، أو الخاضعة للنفوذ الأجنبي. فقد نشأت فيها حركات ومنظمات سرية تدعو إلى نيل الاستقلال، ولو تمّ ذلك بالقوة، وإلى محاربة ممثلي السلطات الأجنبية وأعوانهم، ولو اقتضى ذلك اللجوء إلى الاغتيال.

الملاحظة الرابعة
تطور وسائل الإرهاب

اتّسعت، منذ الستينات من هذا القرن، دائرة العنف، وتخطّت الأعمال الإرهابية حدود الدولة، واستفاد أنصار الإرهاب من التطور العلمي والتكنولوجي الحديث فطوّروا وسائلهم وأدواتهم. فالإرهابي لم يعد يكتفي باستعمال السكين أو المسدس أو القنبلة، بل أصبح يعمد إلى المتفجرات على أنواعها، والسيارات المفخّخة، والرسائل والطرود الملغومة، والقنابل المحرقة، وخطف الطائرات والأشخاص، والسطو على الممتلكات.

الملاحظة الخامسة
أسباب الإرهاب

للإرهاب، مهما تختلف وسائله وأغراضه، أسباب سياسية واجتماعية ونفسية. ولا بد من تشخيص هذه الأسباب وتحديدها اقبل اتخاذ التدابير العملية الكفيلة بالقضاء على الإرهاب.

وجرت محاولات كثيرة، لم تُكلّل بالنجاح، لتحديد أسباب الإرهاب. ولعل الإخفاق يعود إلى التباين في تفسير عوامل الإرهاب، وفي الاتفاق على الحلول الناجعة. غير إن اللجنة الخاصة بموضوع الإرهاب الدولي التي كوّنتها الجمعية العامة للأمم المتحدة، في العام ١٩٧٢، استطاعت عبر ورقة عمل قُدّمت إليها في العام ١٩٧٩، أن تُشخّص عدداً من الأسباب الرئيسية لظاهرة الإرهاب. فمن الأسباب السياسية ذكرت الورقة:

ــ الاستعمار والتشبّث بالسيطرة الاستعمارية.
ــ إنكار حق تقرير المصير للشعوب.

ـ حرب الإبادة.
ـ العدوان.
ـ استخدام القوة وانتهاك الاستقلال والسيادة والوحدة الإقليمية للدول.
ـ احتلال أراضي الغير والهيمنة على الشعوب.
ـ التدخل في الشؤون الداخلية للدول.
ـ الإرهاب الرامي إلى السيطرة على الشعوب وإجبار السكان على النزوح.
ـ الفاشية بأنواعها وسياسة التوسع.
ـ المنازعات بين الدول.
ـ الاضطهاد الديني وإثارة الفتن الطائفية وإشعال الحروب الأهلية.
ـ الاستبداد والظلم والقهر وكبت الحريات وانتهاك الحقوق.
ـ استخدام المرتزقة أو الاستعانة بالعصابات المسلحة للاعتداء على الغير.

وإلى جانب الأسباب السياسية حدّدت الورقة أهم العوامل الاقتصادية والاجتماعية، وهي:
ـ استمرار وجود نظام اقتصادي دولي جائر.
ـ الاستغلال الأجنبي للموارد الطبيعية الوطنية.
ـ الاستغلال السياسي والاجتماعي والاقتصادي.
ـ انتهاك حقوق الإنسان والجماعات.
ـ الفقر والجوع والشقاء والضيم واليأس والإحباط.

وأضافت الورقة إلى هذه الأسباب عوامل شخصية ونفسية، منها:
ـ التهرب من تنفيذ حكم أو التزام معين.
ـ حبّ الظهور أو الشهرة.
ـ الاستخفاف بالأنظمة والعقوبات الدولية.
ـ الاختلال العقلي.
ـ الرغبة في الحصول على مساعدات مادية لصالح أفراد أو جماعات تعيش في ظروف معيشية صعبة.

الملاحظة السادسة
الإرهاب والتقدم التكنولوجي

ساعدت الاختراعات والتطورات العلمية الحديثة، إلى حد كبير، على اتساع نطاق ظاهرة



□ **الإرهاب في** لبنان.

الإرهاب، ومكّنت الإرهابيين من استخدام وسائل وأجهزة عصرية، دقيقة الهدف وصغيرة الحجم وضئيلة الثمن. ومن هذه الوسائل:
ـ الطائرات القادرة على نقل الإرهابيين بسرعة من بلد إلى آخر، والتي أصبحت، هي نفسها، هدفاً سهلاً للاستغلال السياسي.
ـ البنادق المتطورة المجهزة بمنظار تلسكوبي.
ـ القنابل والمتفجرات الموقوتة والموجهة...

وليس من المستبعد أو المستغرب أن يتمكن الإرهابيون، في مستقبل قريب، من الاستيلاء على أسلحة نووية واستخدامها لتحقيق أغراض شخصية أو سياسية.

ويلاحظ الباحثون أن المجتمع الدولي أصبح اليوم، أكثر من الأمس، عرضةً لممارسات الإرهابية، وذلك بسبب التقدم التكنولوجي العملاق الذي تمخّض عن إنجازات ضخمة في حقل الصناعة والمجمّعات الصناعية. فالإرهاب الموجه إلى مصفاة نفط، أو محطة لتوليد الكهرباء، أو سدّ لاختزان المياه، أو مختبر للأبحاث، أو مجمع للطاقة النووية... أشد قسوة وخسارة من الإرهاب الذي يقتصر على إصابة سيارة أو تدمير بناية.

الملاحظة السابعة
الإرهاب جريمة دولية

الإرهاب الدولي باعتراف الجميع، جريمة دولية تستحق العقاب الشديد. فالقانون الدولي العام يُصنّف بعض الأفعال الجرمية في خانة الجرائم الدولية ويُقرّ لكل دولة، عند ارتكاب هذه الأفعال، بممارسة اختصاصها الجزائي تجاهها بصرف النظر عن جنسية الفاعل أو الضحية أو مكان الجريمة. فالقرصنة البحرية أو الجوية، مثلاً، جريمة دولية. وهناك اتفاقيات عديدة حول هذه الجريمة تلزم الدول الأطراف بممارسة صلاحياتها عند حدوثها.

ومع تطور العلاقات وتشابك المصالح واختزال المسافات ورسوخ وحدة المصير بين البشر والدول، اكتسبت الجريمة الدولية مفهوماً جديداً وشهدت تطبيقات جديدة. فالمفهوم التقليدي الذي يعتبر الجريمة الدولية إذا ارتكبت خارج حدود الدولة وأحدثت آثاراً دولية لم يعد كافياً أو صالحاً. إن القانون الدولي المعاصر ينظر اليوم إلى هذه الجريمة بمنظار إنساني أوسع يأخذ بعين الاعتبار كرامة الإنسان ومصلحة البشرية والنظام الاجتماعي للمجتمع الدولي. وعلى هذا الأساس يُعتبر خطف الطائرات، والإتجار بالرقيق والمخدرات، وتزوير العملات، وارتهان الأشخاص، وإبادة الجنس، جرائم دولية تسيء إلى المصلحة العليا والنظام الدولي للبشرية جمعاء.

الملاحظة الثامنة
التمييز بين الإرهاب والكفاح الوطني

هناك تمييز واضح بين الإرهاب الدولي والكفاح المسلح الذي تمارسه حركات التحرر الوطني في العالم. وقد نجحت الأمم المتحدة، منذ العام ١٩٧٠، في توضيح هذه المسألة. ففي هذا العام، أصدرت الجمعية العامة قراراً أكدت فيه شرعية نضال الشعوب من أجل تقرير مصيرها واسترداد حقوقها بكل الوسائل المتاحة، بما فيها الكفاح المسلح. وبعد عام، دعت الدول المحبة للحرية والسلام إلى تقديم المساعدات إلى هذه الشعوب. وحثّت، في قرارات أخرى، على معاملة



□ الإرهاب في فرنسا.

المشاركين في حركات المقاومة كأسرى حرب عند إلقاء القبض عليهم.

غير أن الأمم المتحدة رفضت، في بعض وثائقها المتعلقة بمكافحة الإرهاب، التمييز بين الأفعال الإرهابية والأفعال الصادرة عن الحركات الوطنية. فالإتفاقيات الدولية الخاصة بجرائم الخطف الجوي وارتهان الأشخاص لا تقيم وزناً لمسألة الدوافع والنيات.

الملاحظة التاسعة
صعوبة تعريف الإرهاب الدولي

لقد أخفقت جميع المساعي والمحاولات الرامية إلى وضع تعريف محدد للإرهاب الدولي. صحيح أن بعض الدول أو المنظمات



أو الجمعيات الدولية قد اقترحت أو تبنّت بعض التعريفات، ولكن هذه التعريفات لم ترْق إلى مستوى الاتفاق الدولي، وتعارض المصالح والمواقف والنظريات هو سبب الإخفاق. وعدم الاتفاق حالياً لا يعني استمرار الاستحالة. والسوابق تدعو إلى شيء من التفاؤل. ففي الماضي استطاعت دول العالم الاتفاق على تعريف إبادة الجنس والمتاجرة بالنساء والأطفال والمخدرات.. ولعل في اتساع ظاهرة الإرهاب الدولي، وتفاقم خطرها، وتهديدها للجميع دون استثناء، ما يدفع الدول إلى التفاهم والاتفاق حرصاً على مصلحتها العامة المشتركة.

ويرى معظم الباحثين أن هناك ثلاثة أساليب لتعريف الإرهاب:

ــ أسلوب يكتفي بتعداد الأفعال التي تشكل جريمة الإرهاب.

ــ وأسلوب يكتفي بإيراد عبارات عامة عن الإرهاب دون ذكر الأفعال التي تُشكل تلك الجريمة.

ــ وأسلوب ينطوي على عبارات عامة عن الإرهاب ولكنه يذكر بعض الأفعال الإرهابية على سبيل المثال لا الحصر.

والأسلوب الأخير هو الأفضل. ومن المستحسن، في حال الأخذ به، الاستعانة بمحكمة العدل الدولية، أو بأية هيئة قضائية خاصة أخرى، للفصل في مسألة التكييف القانوني لبعض الأفعال الإرهابية المختلف عليها.

الملاحظة العاشرة
مساعي المجتمع الدولي لمكافحة الإرهاب

كان الإرهاب وما زال موضع دراسات ومناقشات. وقد بذل المجتمع الدولي جهوداً جبارة للتوصل إلى وضع التدابير القادرة على مكافحته أو الحدّ من أضراره. وسارت هذه الجهود في اتجاهات ثلاثة:

أولاً ــ اتجاه وطني اعتمد على ما تتخذه الدول في تشريعاتها الوطنية من تدابير ووسائل لمكافحة الأفعال الإرهابية.

وكانت الجمعية العامة للأمم المتحدة قد أوصت، في قرارها الصادر في ١٧/١٢/١٩٧٩، الدول الأعضاء بالامتناع عن تنظيم الأفعال الإرهابية في دولة أخرى أو التحريض عليها أو التغاضي عنها، وناشدتها الانضمام إلى الاتفاقيات الدولية القائمة والمتعلقة بمختلف جوانب مشكلة الإرهاب الدولي، ودعتها إلى اتخاذ التدابير الملائمة لجعل تشريعاتها الداخلية منسجمة مع تلك الاتفاقيات، وحثّتها على التعاون الوثيق في هذا المجال وتبادل المعلومات وإبرام المعاهدات الخاصة بتسليم الإرهابيين الدوليين ومحاكمتهم.

ومن اطلاعنا على مختلف التشريعات الوطنية حول الإرهاب الدولي نستنتج:

١ ــ إن هناك دولاً أقدمت على سنّ تشريعات جديدة، أو على تعديل تشريعات قديمة، بغية معالجة مشكلة الإرهاب.

٢ ــ إن هناك تفاوتاً واضحاً في الجهود الوطنية المبذولة لاتخاذ الإجراءات الفعالة لمنع الإرهاب أو محاربته.

٣ ــ إن هناك دولاً ما زالت ترفض استصدار تشريعات خاصة بالإرهاب، أو تمتنع عن الانضمام إلى الاتفاقيات الثنائية أو الجماعية الخاصة بالإرهاب، أو تتلكأ، في حال الانضمام إليها، في تنفيذ الالتزامات المترتبة عليها.

ثانياً ــ اتجاه إقليمي اعتمد على ما تتخذه المنظمات الإقليمية من تدابير ووسائل لمناهضة الإرهاب الدولي.

فعلى **الصعيد الأوروبي**، وقّعت في العام ١٩٥٩ اتفاقية استرداد بين الدول الأوروبية. وفي العام ١٩٧٦، وافقت لجنة الوزراء في مجلس أوروبا على استبعاد الجرائم الخطرة، مثل خطف الطائرات وأخذ الرهائن، من فئة الجرائم السياسية. وفي العام نفسه صدر الاتفاق الأوروبي لقمع الإرهاب وحدّد بعض الأفعال الإرهابية واعتبرها جرائم عادية. وفي العام ١٩٨٠، نظمت الجمعية البرلمانية في مجلس أوروبا مؤتمراً في مدينة (ستراسبورغ) تحت عنوان: «الدفاع عن الديموقراطية ضد الإرهاب في أوروبا». وصدر عن المؤتمر توصيات تدعو إلى وضع تعريف قانوني موحّد للإرهاب، ودراسة دور الثقافة والتربية ووسائل الإعلام في القضاء على الإرهاب، وإنشاء مركز دراسات وتوثيق خاص بشؤون الإرهاب.

وعلى **الصعيد الأمريكي**، وافقت منظمة الدول الأمريكية، في العام ١٩٧١، على اتفاقية خاصة بقمْع أفعال الإرهاب ومعاقبة مرتكبيها، وخصوصاً أفعال الخطف والاغتيال والاعتداء على بعض الأشخاص الرسميين، وأفعال الابتزاز.

وعلى **الصعيد الافريقي**، دان ميثاق منظمة الدول الافريقية، في العام ١٩٦٣، جميع أشكال الاغتيال السياسي والأعمال التخريبية التي ترتكبها دولة افريقية ضد أخرى. وفي العام ١٩٧٣، وضعت المنظمة اتفاقية لاستئصال المرتزقة من افريقيا واعتبرت أن أفعالهم تشكل جرائم ضد السلام والأمن في القارة.

ولا نجد على **الصعيد العربي** اتفاقيات خاصة بالإرهاب الدولي، بل نجد محاولات لمكافحة الجريمة، فقد أنشأت جامعة الدول العربية المنظمة العربية للدفاع ضد الجريمة، التي تهدف إلى توثيق عرى التعاون بين الدول الأعضاء للوقاية من الجريمة ومعالجة آثارها في مجالات التشريع والقضاء والشرطة. وأنشأت الجامعة، كذلك، مجلس وزراء الداخلية العرب

لتوثيق التعاون العربي في مجال الأمن، ومكافحة الجريمة، ووضع سياسة جنائية وأمنية عربية، والعمل على تطوير القوانين المتعلقة بالمجرم والجريمة.

ثالثاً ــ اتجاه دولي اعتمد على ما تقوم به المنظمات والوكالات الدولية من جهود ومساع، وما تضعه من اتفاقيات، للقضاء على الإرهاب الدولي.

وكانت عصبة الأمم قد اهتمت بموضوع الإرهاب الدولي على أثر اغتيال ملك يوغسلافيا ووزير الخارجية الفرنسية في العام ١٩٣٤، وشكلت لجنة من الخبراء لدراسة المسألة. وفي العام ١٩٣٧، وضعت اتفاقية لمنع الإرهاب ومعاقبة مرتكبيه. ولكن الاتفاقية لم تبرم إلّا من جانب دولة واحدة.

ومع تفاقم خطر الإرهاب في السبعينات، أوصت الأمم المتحدة الوطالات المتخصصة فيها بإيلاء الموضوع عناية خاصة واتخاذ التدابير اللازمة لمكافحته في حدود الصلاحيات التي تملكها.

وتجاوبت **منظمة الأونسكو** مع هذه التوصية وقررت معالجة الأسباب الكامنة وراء الإرهاب بالتدابير التالية:

١ ــ تعزيز السلام والأمن الدوليين عن طريق نشر البحوث المتعلقة بالسلام العالمي، وتوطيد أركان التفاهم الدولي، ودراسة دور القانون الدولي والمنظمات الدولية في أقامة نظام عالمي سليم.

٢ ــ حماية حقوق الإنسان وحرياته الأساسية وصونها من كل انتهاك.

ولبّت **المنظمة الدولية للطيران المدني** نداء الأمم المتحدة وسارعت، عند استفحال خطر الخطف الجوي في الستينات، إلى إعداد ثلاث اتفاقيات دولية:

١ ــ اتفاقية طوكيو للعام ١٩٦٣، حول الجرائم وبعض الأفعال الأخرى التي ترتكب على متن الطائرات.

٢ ــ اتفاقية لاهاي للعام ١٩٧٠، حول قمع الاستيلاء غير المشروع على الطائرات.

٣ ــ اتفاقية مونتريال للعام ١٩٧١، حول قمع الأفعال غير المشروعة الموجهة ضد سلامة الطيران المدني.

وقد وُجّهت إلى **اتفاقية طوكيو** عدة انتقادات نشير إلى أهمها:

١ ــ أنها تكتفي بالنص على الجريمة دون أن تقرن ذلك بالعقوبات الملائمة، ودون أن تفرض على الدول المتعاقدة أي التزام بمعاقبة الخاطفين.

٢ ــ أنها لا يمكن أن تطبق على جميع حالات اختطاف الطائرات.

٣ ــ أنها تتضمن نصوصاً تتّسم بالغموض أو العمومية بحيث يمكن التنصّل بسهولة من تطبيقها أو التحايل عليها.

٤ ــ أنها لا تضع قاعدة لسلّم الأولوية في الاختصاص.

٥ ــ أنها تطرح مبدأ التسليم أو الاسترداد دون أن تنظم كيفية تطبيقه.

ووُجّهت إلى **اتفاقية لاهاي**، كذلك، عدة انتقادات، أهمها:

١ ــ أنها تأخذ بنظام تزاحم أو تواكب الاختصاصات.

٢ ــ أنها لا تحدّد عقوبة الخاطف، ولا تحدد للدول الأطراف فترة زمنية للقيام بالتزاماتها.

٣ ــ أنها لا تشير مطلقاً إلى القاعدة التي تحرّم تكرار العقوبة بالنسبة إلى الجرم ذاته.

٤ ــ أنها لا تتحدث مطلقاً عن صلاحيات قائد الطائرة عند وقوع الجرم.

٥ ــ أنها لا تنص على أية حصانة قضائية لصالح الأبرياء الموجودين على متن الطائرة المخطوفة الذين يضطرون إلى الهبوط في دولة لا يرغبون في الدخول إليها.

٦ ــ أنها لا تعالج بعض الجرائم التي تكرر وقوعها، والتي لا يمكن إدخالها في إطار جريمة الاستيلاء غير المشروع على الطائرات، مثل الجرائم المرتكبة ضد الطائرات الجاثمة في المطارات، أو ضد منشآت الطيران.

وتعرضت **اتفاقية مونتريال**، أيضاً، لانتقادات مماثلة، ولم يشترك في التوقيع عليها إلّا عدد ضئيل من الدول. ولعل سبب ذلك يعود إلى اعتقاد الدول بأنه من الأفضل إسناد مهمة كبح

عمليات الاختطاف الجوي وتدمير الطائرات إلى التشريعات الوطنية بدلاً من الاتفاقيات الدولية. ولهذا، فإن دولاً مثل فرنسا وإسبانيا والمكسيك قد تخلّفت عن توقيع الاتفاقية، مفضّلة إصدار تشريعات وطنية تعالج المشكلات التي تثيرها عمليات الخطف. ومع ذلك فإن الكثيرين يشكّون في مقدرة التشريعات الوطنية، في هذا المضمار، على معالجة مشكلات الخطف الجوي بشكل حاسم ونهائي.

وبعد توقيع اتفاقية مونتريال بعام واحد حصلت حادثة ميونيخ فشنّت وسائل الإعلام الغربية، بتحريض من الصهيونية العالمية، حملة شعواء على العرب. واهتمت الأمم المتحدة بالأمر وأدرجت في جدول أعمال الجمعية العامة للعام ١٩٧٢ بنداً حول التدابير الرامية إلى منع الإرهاب الدولي الذي يُعرّض للخطر أرواحاً بشرية. وشكلت لجنة خاصة لدراسة الموضوع من جوانب ثلاثة: تعريف الإرهاب الدولي، ومعرفة الأسباب الكامنة وراءه، وتحديد التدابير الكفيلة بمكافحته.

وعقدت اللجنة عدة اجتماعات خلال السنوات اللاحقة دون التوصل إلى اتفاق دولي حول المشكلة. وسبب الخلاف يكمن في تباين الاتجاهات. فهناك فريق، في طليعته إسرائيل وأمريكا وبعض الدول الغربية، يصرّ على وصف الأعمال التي تنجزها الحركات التحررية في العالم بالإرهاب، في حين أن هناك فريقاً آخر ممثلاً بدول العالم الثالث يُبعد هذه الصفة عنها ويعتبر أن هذه الحركات الوطنية تمارس حقاً مشروعاً تُقرّبه وتباركه المواثيق والقرارات الدولية. وما زال بند (الإرهاب الدولي) يتصدر، منذ ذلك التاريخ، جدول أعمال الجمعية العامة لكل دورة سنوية.

وخلال هذه الفترة تمكنت الأمم المتحدة من إنجاز اتفاقيتين دوليتين: الأولى، في العام ١٩٧٣، وهي خاصة بمنع ومعاقبة الجرائم المرتكبة ضد الأشخاص المحميّين دولياً، بمن فيهم الممثلون الدبلوماسيون. والثانية، في العام ١٩٧٩، وهي خاصة بمناهضة ارتهان الأشخاص.

والاتفاقية الثانية تُشكل خطوة متقدمة على طريق مكافحة الإرهاب وتنطوي على تطور كبير في هذا المجال لأنها تعترف في ديباجتها بشرعية الكفاح الذي تلجأ إليه حركات التحرر الوطني من أجل تقرير مصيرها واسترداد حقوقها.

الخاتمة

لقد بذل المجتمع الدولي جهوداً كبيرة في سبيل وضع إطار قانوني قادر على قمع الإرهاب الدولي ومكافحة موجة العنف التي تجتاح العالم. وأسفرت هذه الجهود، كما رأينا، عن ظهور عدة اتفاقيات دولية. وهذه الجهود تطرح سؤالين مهمين:

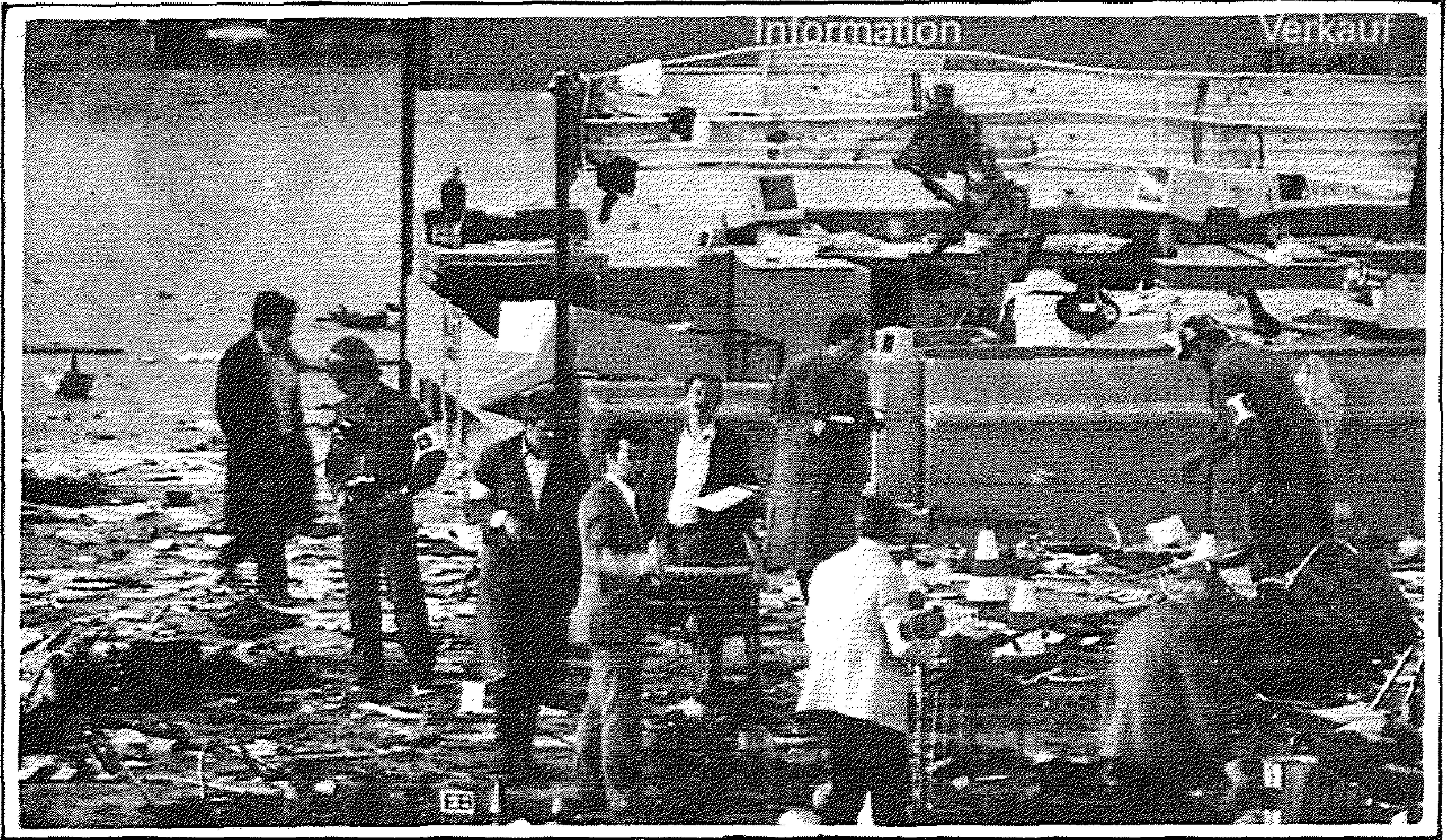
السؤال الأول هو: هل باستطاعة الاتفاقيات الدولية القضاء كلياً على ظاهرة الإرهاب الدولي، أو على الأقل كبح جماحها؟

إن فاعلية الاتفاقيات، أو نجاحها، أو مصيرها، يتوقف في الواقع وإلى حد بعيد، على مقدرة المجتمع الدولي على حل المشكلات الثلاث التالية:

١ ــ **مشكلة التسليم**: فقد تركت معظم الاتفاقيات الدولية للدولة التي تأسر الإرهابي حرية التسليم أو المحاكمة. وأثبتت الحوادث أن الدولة ترفض التسليم عادةً وتُفضّل الاعتماد على سلطاتها القضائية لمقاضاة الإرهابيين. وبما أن الإرهابي يبحث دائماً عن الدولة التي تتعاطف مع اتجاهاته السياسية للجوء إليها والتخلص من العقوبة، فإن الرادع الذي بنت الاتفاقيات عليه الآمال ينهار هنا.

وقد نسارع إلى التأكيد على أن الحل يكمن في اشتراط التسليم الفوري. ولكن ذلك يصطدم بالحق الذي ما زالت الدولة تحتفظ به لنفسها وتحرص عليه وتعتبره من أبرز مبادىء سيادتها ومظاهر استقلالها، وهو حقها في منح اللجوء السياسي لمن تشاء من الفارين من وجه العدالة.

٢ ــ **مشكلة الصيغة السياسية**: فإن الغالبية الساحقة من دول العالم ترفض تسليم اللاجئين إليها بعد ارتكابهم الجرائم السياسية في بلد آخر. والقانون الدولي يُقرّ مبدأ عدم تسليم المجرمين السياسيين. وتحرص بعض الدول على النص على هذا المبدأ في دساتيرها أو معاهداتها الخارجية.



□ الإرهاب في ألمانيا.

ونلاحظ أن مفهوم الجرم السياسي فضفاض ومطاط وقابل للتأويل والتفسير. وللدولة مطلق الحرية في تقدير الجرم وإضفاء الصفة السياسية عليه. وتاريخ العلاقات الدولية حافل بالمنازعات حول هذه المسألة. وأتيح لمحكمة العدل الدولية إصدار أحكام فيها (مثلاً، قضية حق اللجوء السياسي بين كولومبيا والبيرو في العام ١٩٥٠ ــ ١٩٥١).

٣ ــ مشكلة الإلزام والعقوبة في القانون الدولي: وبعد كل اتفاقية يطرح السؤال التالي: هل ستتقيد الدول الأطراف بمضمونها؟ وإذا رفضت إحدى الدول الالتزام بما قررته الاتفاقية، فما هي الوسائل والتدابير المجدية المتوافرة لدى المجتمع الدولي لإرغامها على التنفيذ؟

قد يقال بوجوب رفع الأوامر إلى مجلس الأمن الدولي القادر على فرض عقوبات سياسية وعسكرية واقتصادية على الدول المخالفة. ولكن المجلس مكون من ١٥ دولة، من بينها الدول الخمس الكبرى التي تتمتع بحق النقض (الفيتو). وقد يحول استعمال هذا الحق، ولو بشكل اعتباطي، دون الموافقة على فرض أية عقوبة على الدولة التي تخالف أحكام الاتفاقيات الدولية. وسجل مجلس الأمن حافل بالأمثلة والشواهد في هذا الحقل.

والسؤال الثاني، المهم والأهم، الذي تطرحه الاتفاقيات الدولية المتعلقة بقمع الإرهاب هو: هل باستطاعة التدابير القانونية، الداخلية والدولية، حل المشكلة؟

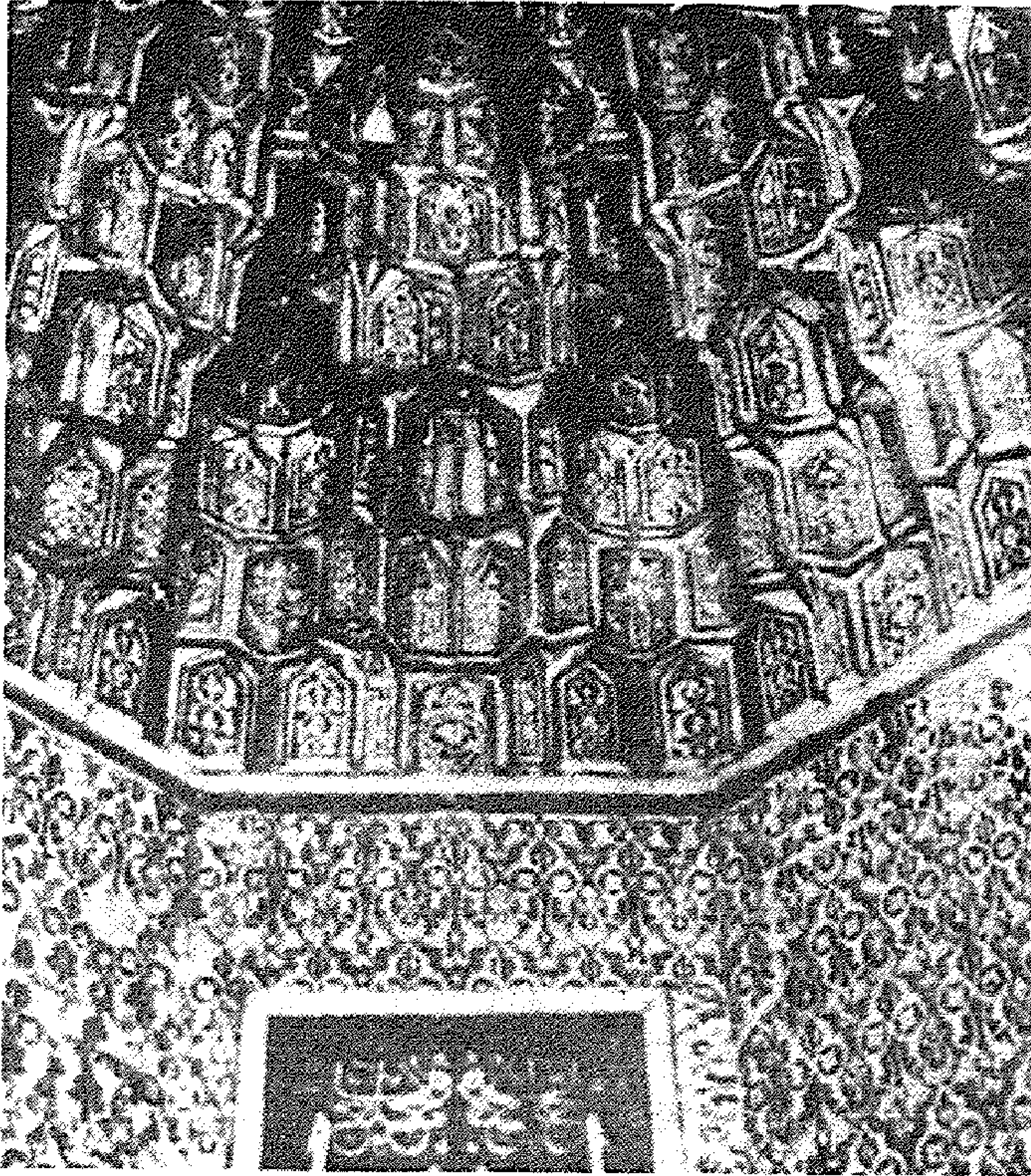
لقد لاحظنا أن هذه الاتفاقيات مُنيت بالفشل حتى الآن. ويبدو أنها ستبوء بالفشل ما دام المجتمع الدولي يتهرب من تحمل مسؤولياته تجاه بعض المشكلات الدولية الملحة. إن هناك شعوباً تعاني أنواعاً شتى من الظلم والقهر والكبت. وقد اتبعت كل الوسائل المشروعة للمطالبة بحقوقها. وعندما عجز المجتمع الدولي عن إنصافها وقابل مطالبها بالإهمال قررت اللجوء إلى أساليب العنف التي بات هذا المجتمع يشكو منها.

إن ما سُمّي أحياناً بالإرهاب الدولي ليس، في الحقيقة، سوى دفاع مشروع عن النفس، يعترف به القانون الدولي المعاصر. وعلينا، قبل أن نتسرع ونصف عملاً من أعمال العنف بالإرهاب، أن نتعرف إلى مسبباته، ففيها تكمن الجذور الخبيثة التي ينبغي للمجتمع الدولي استئصالها.



زخرفة المقرنص الإسلامية

قسم التوثيق والأبحاث



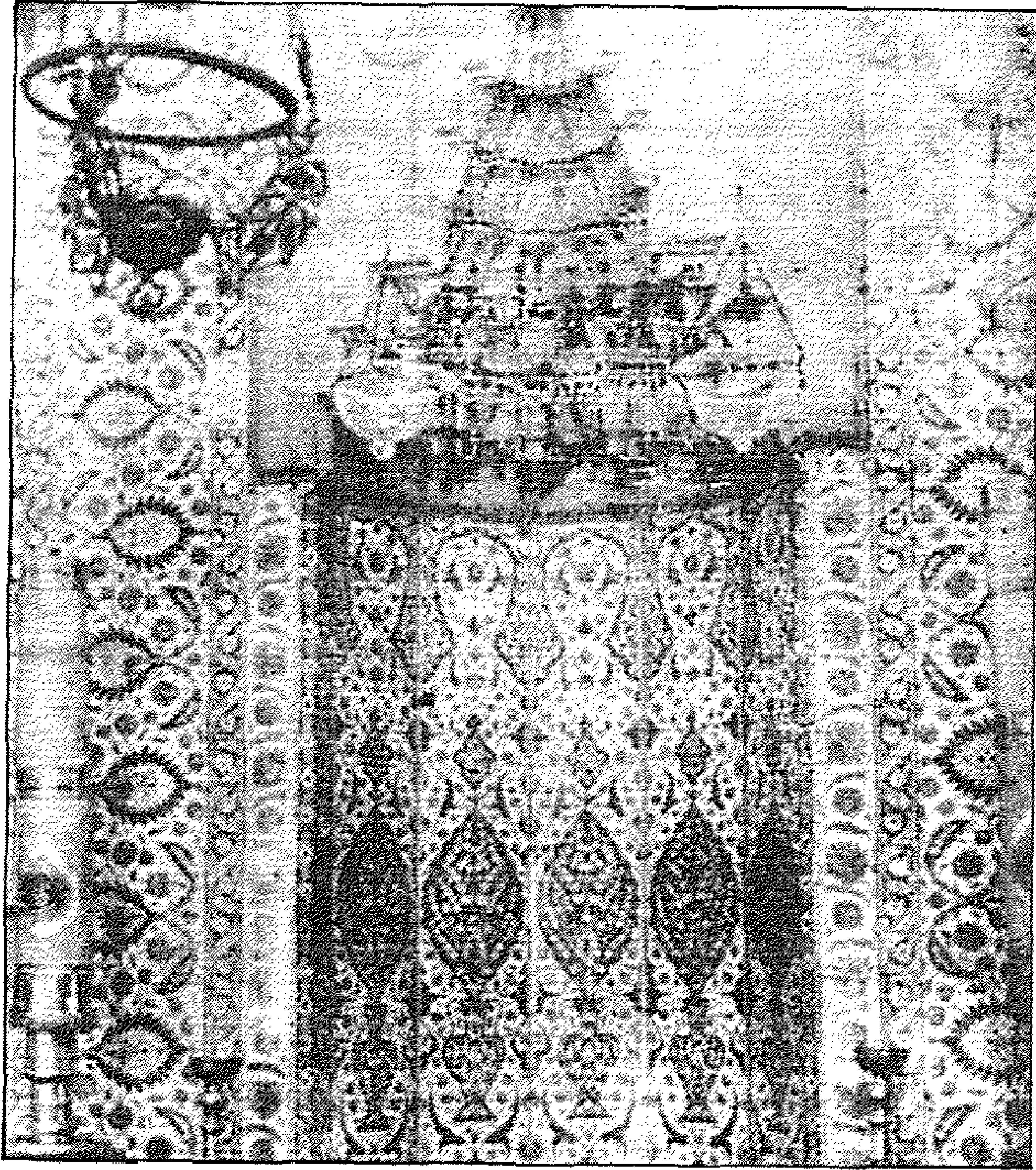
□ زخرفة المقرنص، كما تبدو في محراب الجامع الأخضر في بروسة.



أصبح السلطان مراد الثاني سلطاناً (١٤٢١ ــ ١٤٥١م)، وقد كان محباً للعلم، مشجعاً للفن، ويعتبر عصره العصر الذي بدأت فيه الثقافة العثمانية القديمة التي كانت تقوم على أكتاف رجال الدين تنكمش لكي يحل محلها اتجاه ثقافي جديد، إذ بدأ يظهر نثر وشعر شعبي باللغة التركية العثمانية مثل قصة «المحمدية» التي نظمها الشاعر أوغلوا سنة ١٤٤٩م. ولكن يلاحظ أن قدامى المثقفين الذين كانت لغتهم المفضلة هي الإيرانية ــ نظروا إلى هذا الاتجاه الثقافي الجديد نظرة احتقار ولم يتعاونوا معه.

وتتجلى عناية هذا السلطان بالفن فيما خلفه وراءه من عمائر وتحف، أما العمائر فمن أهمها الجامع الأخضر الذي بناه في مدينة بروسه سنة ١٤٢٤م ومسجد المرادية الذي شيده في أدرنة سنة ١٤٣٣م. والأول منهما يمتاز بمحرابه الجميل ذو الزخارف النباتية التي يبدو فيها التأثير الصيني ونقرأ في أعلاه عبارة: «من عمل أساتذة تبريز» أي أن الإيرانيين قد أسهموا في إنشائه، ويستلفت النظر في هذا المسجد أمران لهما أهميتهما: الأول أن بابه يعتبر أقدم تحفة خشبية عثمانية. والثاني أنه قد استغنى فيه عن الأعمدة ذات التيجان البيزنطية التي كانت مألوفة في المساجد السابقة واستخدمت أعمدة لها تيجان من المقرنص[1]. أما المسجد الثاني فيمتاز بقراميده (Tiles) الجميلة ذات اللونين الأزرق والأبيض وذات الزخارف النباتية المستلهمة من الزخارف الإيرانية في العصر التيموري.

اما التحف التي وصلت إلينا من عصر هذا السلطان فمن أحسنها ما يتصل بفنون الكتاب



□ زخرفة المقرنص كما تبدو في محراب مسجد رستم باشا في اسطنبول.

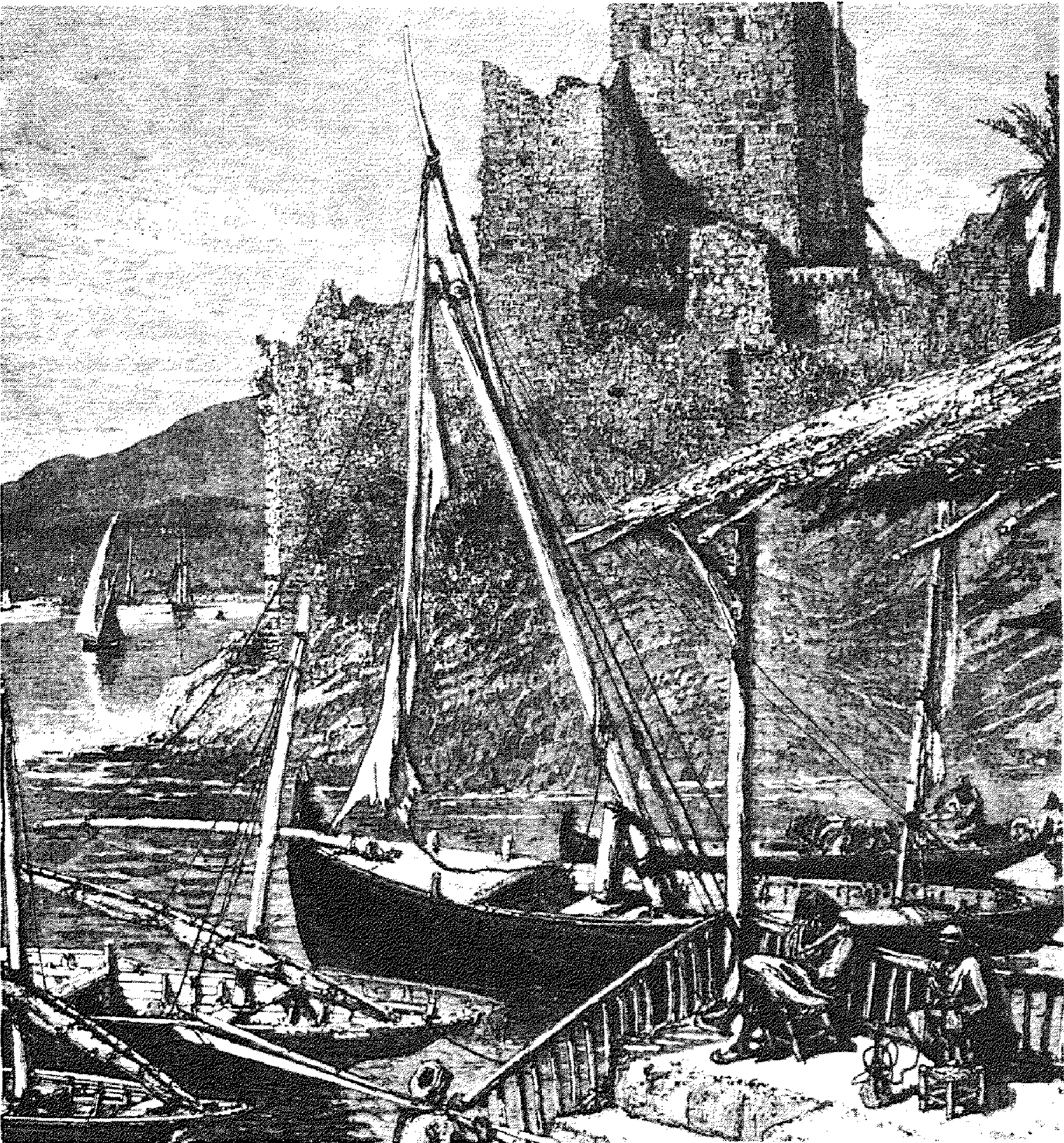
إذ وصل إلينا من هذا العصر مخطوطان موجودان في مكتبة متحف طوبقابو، يزدان كل منهما بزخارف مستوحاة من الفن الصيني. وقد سما فن التذهيب في هذا العصر إلى درجة عظيمة ويكفي أن نشير إلى مخطوطة في الطب عنوانها (تفاريح الإرواء» قد أبدع المذهب أحمد بن حاج محمود اق سراي (وهو من أبناء قونية) في تذهيبها فبدت تحفة فنية تملأ أنظار العين بجمالها.

الهوامش:

(١) زخرفة المقرنص لم تكن معروفة قبل الإسلام، وهي تعرف عند مؤرخي الفن من الغربيين باسم Stalactite، وقد لعبت دوراً هاماً في الفن الإسلامي واصبحت من ابرز خصائص هذا الفن. وقد نبتت فكرتها من الكوة Niche التي كانت تشيد فوق الزوايا الأربع لغرفة مربعة يراد تسقيفها بالقبة، وبواسطة تلك الكوى الأربع يستطيع البناء أن يوجد سطحاً يمكن للقبة ان تستقر عليه. وقد كانت هذه الكوى مستعملة قبل الإسلام ولكنها كانت عاطلة من الزخرف الأمر الذي لم يستطع البناء المسلم أن يصبر عليه طويلاً، فما كاد يتهذب ذوقه وترتقي ملكته الفنية حتى اخذ يعدل في شكل تلك الكوى ويعقد في مظهرها، نقسمها إلى كوى صغيرة متعددة، وتفنن في وضع تلك الكوى الصغيرة داخل الكوة الكبيرة وفي تنسيقها وفي تزيينها حتى بدت قطعاً من الفن الجميل كلما تأملت فيها غمرتك بلذة روحية، وزادتك إيماناً بعظمة الفن الإسلامي، وقد شاء لهم خصبهم الفني الا يقفوا بالمقرنصات عند حد وظيفتها المعمارية باستعمالها تحت القباب بل اتخذوا منها وسيلة لتزيين الفتحات من أبواب ونوافذ، وتزيين العقود والأعمدة، والمداخل والزوايا وكل مكان في البناء يصلح لقبول هذا العنصر الزخرفي.

اليقظة العلمية في بيروت العثمانية

د. حسان حلاق



بيروت في أوائل القرن الحالي من كتاب (Wortabet, Syria and the Syrian, Ip. 67) للفنان وودورد (Woodward)

يسر مجلة «تاريخ العرب والعالم» أن تستضيف على صدر صفحاتها ابتداء من هذا العدد الدكتور حسان حلاق، الذي سيمد المجلة بمجموعة دراسات عن تاريخ وتراث بيروت العثمانية، بما فيه سورها وابوابها العتيقة وأبراجها وأسواقها وشوارعها وساحاتها وعاداتها وتقاليدها، وبما فيه دراسة عائلاتها وواقعها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والتراثي عامة. وفي هذه الحلقة يجول د. حلاق في الحياة العلمية في بيروت العثمانية.



شهدت بيروت حركة علمية وثقافية وادبية منذ تاريخها القديم، سيما في العهد الروماني، وتكفي الإشارة إلى مدرستها الشهيرة مدرسة الحقوق التي دمرها الزلزال فيما دمر من معالم بيروت. ويكفيها فخراً ابجديتها التي عمّت العالم فنشرت مع شقيقاتها الفينيقيات الحرف والعلم. وقد أشار الأب لويس شيخو إلى أن بيروت أصبحت من حواضر البلاد، وجمعت في ربوعها ضروب الرقي والحضارة. والحقيقة فقد شهدت بيروت وبلاد الشام بعد موقعة اليرموك عام ٦٣٦م، وفادة الكثير من العلماء المسلمين الذين تفاعلوا مع علماء النصارى في المسائل العلمية والفلسفية والدينية، ومن الوافدين على بيروت في تلك الفترة المبكرة: أبو الدرداء، بشير بن سعد، أبو ذر الغفاري، سلمان الفارسي، آمر بيروت وواليها الفقيه ايوب بن خالد الجهني الخزاعي الذي تتلمذ على الإمام الأوزاعي إمام أهل الشام ردحاً طويلاً، وقد ارتبط اسم بيروت ولا يزال باسم وعِلم الإمام الأوزاعي إمام بيروت وبلاد الشام والذي أفتى في سبعين الف مسألة.

ومن علماء بيروت في العهدين الأموي والعباسي، عمر بن أحمد بن أسد البيروتي، والعباس بن الوليد البيروتي، والهقل بن زياد البيروتي.

ومن الأهمية بمكان القول بأن الزوايا والمساجد والكتاتيب والأديرة والكنائس استمرت لفترات طويلة مراكز دينية وتعليمية في آن واحد. وكان الناس يرسلون أولادهم لتلقي مبادىء القراءة والكتابة، وتعلم القرآن الكريم والأنجيل عند شيوخ الزوايا والكتاتيب وقساوسة ورهبان الأديرة.

بالإضافة إلى ذلك فقد تنافست بيروت مع بقية المناطق اللبنانية التي انتشرت فيها المدارس مثل مدرسة عينطورة التي أسسها الأب بطرس مبارك عام ١٧٣٤م، ومدرسة جزين التي أسسها محمد مكي بعد عام ١٢٧٠م، ومدارس جبل عامل التي أنشأها علي عبد العالي الميسي في منتصف القرن السادس عشر، والسيد موسى الحسيني الأمين الذي أسس مدرسة في أواخر القرن الثامن عشر، والبطريرك يوحنا مخلوف الذي أسس مدرسة سيدة حوقة عام ١٦٣٢، وقد تعددت وازدادت المدارس في العهد العثماني ومن اهمها مدرسة عين ورقة.

وبدأ التنافس العلمي في بيروت وبقية المناطق يأخذ طابع التفاعل والتكامل، حتى أن علماء المسلمين لم يجدوا مانعاً من أن يفردوا مكاناً خاصاً في باطن بيروت العثمانية قرب جامع النوفرة (جامع الأمير منذر) للمعلم الياس اده الشاعر، ليبحثوا معه الأمور العلمية والفقهية ويتناشدون الأشعار. ولم يجد النصارى مانعاً من أن يتتلمذ أبناؤهم على علماء المسلمين. فمن المعروف أن الفقيه اللبناني الشيخ بشارة الخوري (١٨٠٥ ــ ١٨٨٦) كان تلميذاً من تلامذة مفتي بيروت وقاضيها الشيخ أحمد افندي الأغر (١٧٨٣ ــ ١٨٥٨) كما تتلمذ على الشيخ يونس البزري والشيخ محمد عرابي. وكان الفقيه الشيخ بشارة قد لقب باسم مفتي النصارى، بعد أن أصبح عالماً من علمائهم.

وبالرغم من أن البعض يرى بأن بيروت العثمانية كانت تحيا حياة التخلف والركود والانحطاط العلمي، غير أن الوقائع العلمية والثقافية تناقض هذا القول، وقد ثبت من خلال عدد الجامعات والمدارس والعلماء والمستشفيات والأطباء والجمعيات والمخطوطات والكتب

والصحف وسواها من مظاهر اليقظة العلمية في بيروت العثمانية، بأن بيروت كانت تذخر بالحياة العلمية والثقافية.

التعليم والمدارس في بيروت العثمانية

وقد أصدرت الدولة العثمانية سيما في القرن التاسع عشر بعض التنظيمات التي تختص بوجوه التعليم وإنشاء المدارس. ففي عام ١٨٥٢ انشأت مكتباً خاصاً لوضع المناهج والكتب المدرسية التي كانت تحتاج إليها المدارس والمعاهد.

وفي النظام الأساسي العثماني الصادر عام ١٨٧٦، جعلت الدولة العثمانية التعليم الابتدائي إجبارياً على كل فرد من أفراد العثمانيين. وانعكس أثر هذا النظام على بيروت المحروسة وجبل لبنان والولايات العثمانية، وشجع ذلك على إقامة المزيد من المدارس والمعاهد من قِبَل العثمانيين والرعايا المحليين والمؤسسات الإرسالية الأجنبية.

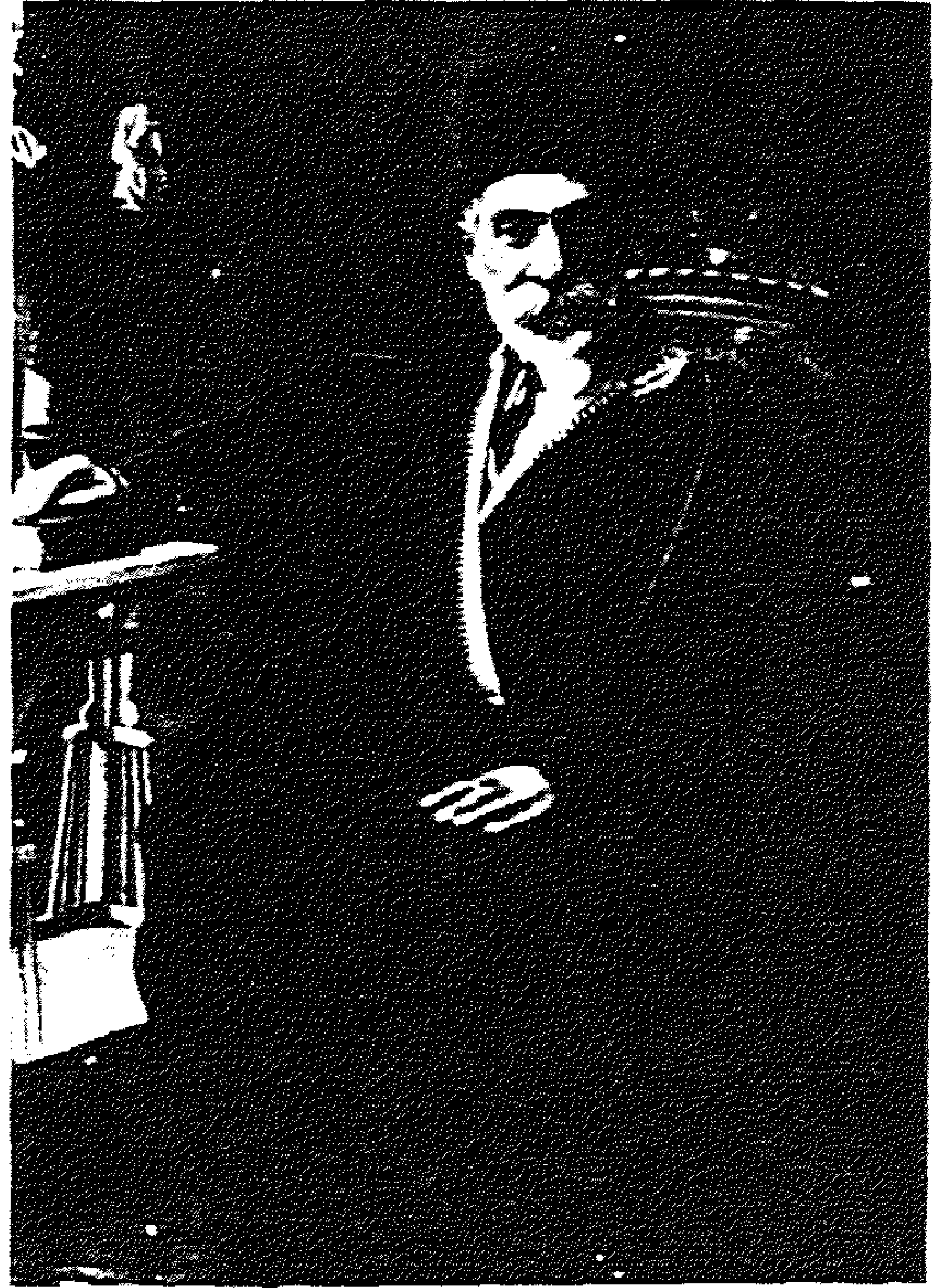
وأشار السلطان عبد الحميد الثاني في أحد خطاباته أمام مجلس المبعوثان (النواب) إلى ما نصه «من واجبنا أن نعير انتباهنا لتثقيف عقول شعوبنا، مع تأكدنا بأن الأمم الأوروبية قد حازت الازدهار الذي تنعم به من جراء التعليم العام، فإننا نتمنى أن يتمكن ابناء رعيتنا إلى أية طبقة انتموا من الاستفادة من حسنات العلم، فإننا أصدرنا مرسوماً بإنشاء مدارس تصبح فيها الثقافة والتربية بالتساوي في متناول الجميع».

وقد أشار السلطان عبد الحميد الثاني إلى ارتفاع عدد المدارس وأوضاعها في عهده، ومما قاله في مذكراته «لقد ارتفع عدد المدارس منذ اعتليت العرش إلى عشرة أضعاف ما كانت عليه (٢٠٠,٠٠٠) مدرسة ومع ذلك فلا تفي هذه المدارس بالحاجة، والمدارس الثانوية عندنا على مستوى عال من المناهج، تعترف به الأوساط العلمية، ونحن بحاجة إلى فتح مدارس إعدادية تهيء الطلاب لدخول مؤسسات علمية ليتخرج منها مهندسون ومعماريون وفنيون».

هذا وكان سليم علي سلام نائب بيروت في مجلس المبعوثان قد طالب الحكومة العثمانية بتطوير التعليم والاقتداء بالمدارس الأجنبية، وطالب بزيادة الإنفاق على وسائل المعارف بحيث تزيد على (٤٥٠) ألف ليرة عثمانية، ومما قاله: «إنني أقول لكم بالنيابة عن الذين انتخبوني أنهم ارسلوني لأقبل كل ضريبة تفرض للإنفاق على المعارف». وهذا دليل واضح على إقبال البيارتة وشغفهم بالتعلم والعلوم.

وكانت اليقظة العلمية في بيروت العثمانية قد بدات بالتفتح بظهور مدارس عديدة نذكر منها على سبيل المثال: المدرسة البطريركية الكاثوليكية التي أنشأها البطريرك غر يغوريوس يوسف في منطقة زقاق البلاط عام ١٨٦٥، وكانت منافسة لمدرسة الحكمة والثلاثة اقمار، والمدرسة الوطنية التي أسسها المعلم بطرس البستاني عام ١٨٦٢ في منطقة زقاق البلاط ايضاً، ومدرسة الثلاثة اقمار للروم الأرثوذكس التي انتقلت من سوق الغرب إلى بيروت عام ١٨٦٦، ومدارس راهبات مار يوسف، ومدارس الفرير التي انشئت عام ١٨٩٧، ومدرسة الحكمة لمؤسسها المطران يوسف الدبس بين عامي ١٨٧٤ ـــ ١٨٧٥، ومدرسة العميان التي أنشأتها مس طومسون في بيروت لتعليم العميان قراءة التوراة، ومدرسة زهرة الإحسان التي اسستها السيدة أملي سرسق للبنات الأرثوذكس عام ١٨٨٠.

ومن المدارس الهامة في بيروت، والتي أحدثت نقلة نوعية في حياة المسلمين والبيارتة، هي مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت التي تأسست عام ١٨٧٨م ـــ غرة شعبان ١٢٩٥هـ ، والمدرسة الإسلامية الحديثة، ومدرسة الإمام الأوزاعي، ومدرسة الشيخ عبد الباسط الأنسي، والمدرسة الرشيدية، ومدرسة زاوية الشهداء، ومدرسة النوفرة، ومدرسة الشيخ علي الملا، ومدرسة الشيخ محمد المجذوب، والمدرسة السورية الإسلامية لمؤسسها الشيخ سليم محمد المغربل، والمدرسة القادرية لمؤسسها الشيخ عمر البربير، والمدرسة الوطنية، ومدرسة الإخلاص، والمدرسة الحميدية الأهلية، والمدرسة الأدبية لمؤسسها الشيخ مصباح شبقلو، المدرسة السلطانية التي أشرف على بنائها



□ محمد علي القباني مفتش المعارف في ولاية بيروت (١٩٢٥)



□ السيدة ابتهاج قدورة في شبابها أول مسلمة خريجة المدرسة الأميركية في بيروت تخرجت عام (١٩٠٩).

الشيخ عبد القادر قباني، مدرسة لجنة التعليم ١٩٠٩، دار العلوم ١٩١٠، المكتب العسكري الحكومي ١٨٦٠، المكتب الإعدادي، كلية الحقوق ١٩١٣ (نقلت إلى دمشق بعد إعلان الحرب العالمية الأولى ١٩١٤) وكانت الدولة العثمانية تنوي إنشاء كلية للطب لولا وجود مثلها في الكلية السورية الإنجيلية في بيروت، لذا رأت أن دمشق بحاجة إلى الكلية أكثر من بيروت. ومن المدارس البيروتية أيضاً:

مدرسة سكزنحي نمونه أي المدرسة الابتدائية النموذجية الثامنة ١٩١٣، التابعة للمكتب السلطاني (وموقعها اليوم ثانوية المقاصد للبنات في الباشوراء) مدرسة الشيخ يوسف الحلواني في رأس بيروت، مدرسة (كلية) الصنائع والتجارة الحميدي، مدرسة المعارف، المدرسة التوفيقية لمؤسسها الشيخ محمد توفيق خالد، المدرسة العلمية لمؤسسها الشيخ عبد الرحمن سلام، ومدرسة الشيخ أحمد عباس الأزهري المعروفة باسم الكلية العثمانية والتي احدثت تغييراً أساسياً في بنية المجتمع التربوي في بيروت ولبنان والعالم العربي، وغيرها الكثير من المدارس الوطنية والأجنبية. وكانت لغات التدريس في مدارس بيروت وجبل لبنان هي اللغات: العربية، التركية، الفرنسية، الأنجليزية، الايطالية، الألمانية وسواها.

وقد وصف عبد الرحمن سامي بك في كتابه «القول الحق في بيروت ودمشق» المدارس القائمة في بيروت العثمانية: «... وقد صارت المدارس الداخلية في بيروت أشهر من نار على علم، كلها تقبل التلامذة بأجور قليلة، وتعلّم وتعتني بصحتهم وسلامتهم، ومنها من ترسل مندوباً من قبلها كل سنة إلى البلاد المجاورة لأخذ تلامذة إليها...».

هذا وقد بلغ اهتمام المسلمين في بيروت بالعلم والعلماء وطلاب العلم أن خصصوا أوقافاً خيرية خاصة تتضمن أملاكاً وأراضي عديدة يعود ريعها وخيراتها على العلم والعلماء ولتنفق في وجوه التحصيل العلمي، مثال وقف العلماء، وقف طلاب العلم، وقف المكتبات وسواها. ويكفي الإشارة إلى أن «وقف العلماء» اليوم يعتبر من اغنى الأوقاف الإسلامية على الإطلاق.



□ العلامة الشيخ محمد البربير.



□ الدكتور عبد الرؤوف حمادة.

هذا وقد عملت الدولة العلية العثمانية على تشكيل مجلس معارف لولاية بيروت لتنظيم الأوضاع العلمية والتربوية والتعليمية في الولاية. وقد ضم هذا المجلس: الشيخ إبراهيم الأحدب، عزتلو حسن بيهم، مكرمتلو الشيخ أحمد عباس الأزهري، رفعتلو عبد الله بيضون، الدكتور أديب قدورة، عزتلو يوسف عرمان، خليل سركيس، إبراهيم اليازجي، سليم الجلخ، بيجو أفندي.

الطباعة في بيروت

ومن الأهمية بمكان القول بأن بيروت العثمانية عرفت الطباعة منذ عام ١٧٥١، حيث انشأت طائفة الروم الأرثوذكس بمسعى الشيخ يونس نقولا الجبيلي المعروف بأبي عسكر، مطبعة القديس جاورجيوس. ومن مطابع بيروت المعروفة أيضاً المطبعة الأميركية التي نقلت من مالطة إلى بيروت عام ١٨٣٤، بالإضافة إلى المطبعة الكاثوليكية ــ اليسوعية في بيروت التي تأسست عام ١٨٤٧، ومطبعة حديقة الأخبار ١٨٥٧، ومطبعة المعارف ١٨٦٧، والمطبعة الأدبية ١٨٧٤، المطبعة اللبنانية ١٨٦٩، المطبعة السليمية ١٨٧٢، المطبعة العلمية ١٨٩٠، مطبعة جمعية الفنون الإسلامية ١٨٧٤، مطبعة بيروت ١٨٨٥، مطبعة ولاية بيروت الرسمية ١٨٨٥، ومطبعة الفوائد ١٨٩١، المطبعة الأنسية ١٨٩٥، ومن مطابع بيروت مطبعة النفائس والمطبعة الأهلية والنهضة وسواها من المطابع البيروتية واللبنانية.

وكانت الطباعة قد انتشرت في الدولة العثمانية ابتداء من عام ١٧٢٦ عندما أصدر السلطان احمد الثالث (١٧٠٣ ــ ١٧٣٠) فرماناً أمر فيه بإنشاء مكتب للطباعة في الآستانة بعد إصدار فتوى من شيخ الإسلام تجيز وتسمح بالطباعة باستثناء القرآن الكريم خوفاً من التحريف. وقد ازداد تأثر بيروت والبيارتة بالأصلاحات العثمانية التربوية والتعليمية سيما في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ ــ ١٨٣٩) الذي اهتم بالتعليم اهتماماً بالغاً بإرسال البعثات العلمية إلى الخارج وإنشاء مدارس الطب والهندسة والترجمة.

البعثات العلمية

يعتبر الشيخ العلامة محمد الحوت



الجامعة الاميركية في بيروت ويبدو مرصد الجامعة على الجبس.

(١٧٩٥ ــ ١٨٦٠) من أوائل البيارتة الذين رحلوا عن بيروت طلباً للعلم والفقه، وذلك منذ أوائل القرن الثامن عشر، ومنهم العلامة الشيخ مصطفى الغلاييني (١٨٨٥ ــ ١٩٤٤) الذي سافر إلى مصر والتحق بالأزهر الشريف، والعلامة الشيخ أحمد عباس الأزهري (١٨٥٣ ــ ١٩٢٧) الذي سافر إلى مصر أيضاً ليتزود بالعلوم من الأزهر الشريف، ومنهم ايضاً نقيب الأشراف الشيخ عبد الباسط الأنسي (١٨٦٧ ــ ١٩٤٠) والعلامة الشيخ حسن المدور (١٨٦٢ ــ ١٩١٤) وغيرهم الكثير.

واتجه قسم كبير من البيارتة واللبنانيين للتعلم في القدس الشريف واستانبول وباريس منهم على سبيل المثال: عبد الغني العريسي، محمد محمصاني، توفيق فايد، شارل دباس، شكري غانم، ندره مطران، جميل معلوف، عبد القادر كيلاني، محمد جميل دوغان، يوسف روكز، الأمير حسن حسان الأيوبي، محمد أبو الفضل قواص، الأمير احمد الشهابي، الأمير بهجت الشهابي، منيف لطيف، بدر الدين الرافعي وسواهم الكثير.

الصحافة في بيروت

ومن وسائل تطور الحياة الثقافية والعلمية في بيروت العثمانية مئات وآلاف الكتب المطبوعة المتنوعة في اختصاصاتها ومجالاتها، ومئات الصحف والدوريات الصادرة فيها. ومن يطلع على كتابي: الفيكونت فيليب دي طرازي: تاريخ الصحافة العربية، ويوسف أسعد داغر: قاموس الصحافة اللبنانية، يدرك كم هي أعداد الصحف الصادرة في بيروت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وكنت أول صحيفة بيروتية هي صحيفة «حديقة الأخبار» لمؤسسها خليل جبرائيل الخوري عام ١٨٥٨. ومن الصحف البيروتية الأخرى على سبيل المثال لا الحصر: «نفير سوريا» لمؤسسها المعلم بطرس البستاني عام ١٨٦٠، «ثمرات الفنون» لمؤسسها الشيخ عبد القادر قباني عام ١٨٧٥، «لسان الحال» لمؤسسها خليل سركيس عام ١٨٧٧، «بيروت» لمؤسسها محمد رشيد الدنا عام ١٨٨٦، «بيروت الرسمية» لمؤسسها الوالي علي باشا عام ١٨٨٨، «المشرق» للأب لويس شيخو عام ١٨٩٨، «الكنانة» الصادرة عن الكلية السورية الأنجيلية

عام ١٩٠٠، «الإقبال» لمؤسسها الشيخ عبد الباسط الأنسي عام ١٩٠٢، (Melanges) الصادرة عن الجامعة اليسوعية عام ١٩٠٦، «الاتحاد اللبناني» للشيخ أحمد حسن طبارة وخليل عورا عام ١٩٠٨، «أبابيل» للشيخ حسين محيي الدين الحبال عام ١٩٠٩، «الكوثر» لبشير رمضان عام ١٩٠٩، «النبراس» للشيخ مصطفى الغلاييني عام ١٩٠٩، «المفيد» لعبد الغني العريسي، «الحقيقة» للشيخ أحمد عباس الأزهري عام ١٩٠٩، «الرأي العام» لطه المدور عام ١٩١٠، «الرشيد» للشيخ صالح المدهون اليافي عام ١٩١٠، «لسان العرب» و «فتى العرب» لعبد الغني العريسي وفؤاد حنتس عامي ١٩١٢ و١٩١٣، وغيرها الكثير من الصحف والدوريات التي لا يمكن حصرها كلها في هذه الدراسة.

الجمعيات في بيروت

أما فيما يختص بالجمعيات العلمية والثقافية والاجتماعية فيأتي في مقدمتها: الجمعية العلمية السورية، وهي أول جمعية تأسست في بيروت عام ١٨٥٨، وقد انضم إليها (١٨٠) عضواً من مختلف الطوائف من أعضائها: الحاج حسين بيهم العيتاني، ناصيف اليازجي، إبراهيم اليازجي، رزق الله خضرا، حبيب بسترس، حُنين الخوري، سليم البستاني، عبد الرحيم بدران، سليم شحاده، سليم رمضان، موسى فريج، حبيب جلخ. ومن المعروف أن هذه الجمعية ساهمت في الحياة السياسية البيروتية، ووزعت منشورات في بيروت بين العامين ١٨٨٠ ــ ١٨٨١، دعت فيها إلى الوطن السوري الواحد، وانتهت المنشورات بأبيات شعرية لابراهيم اليازجي القائلة:

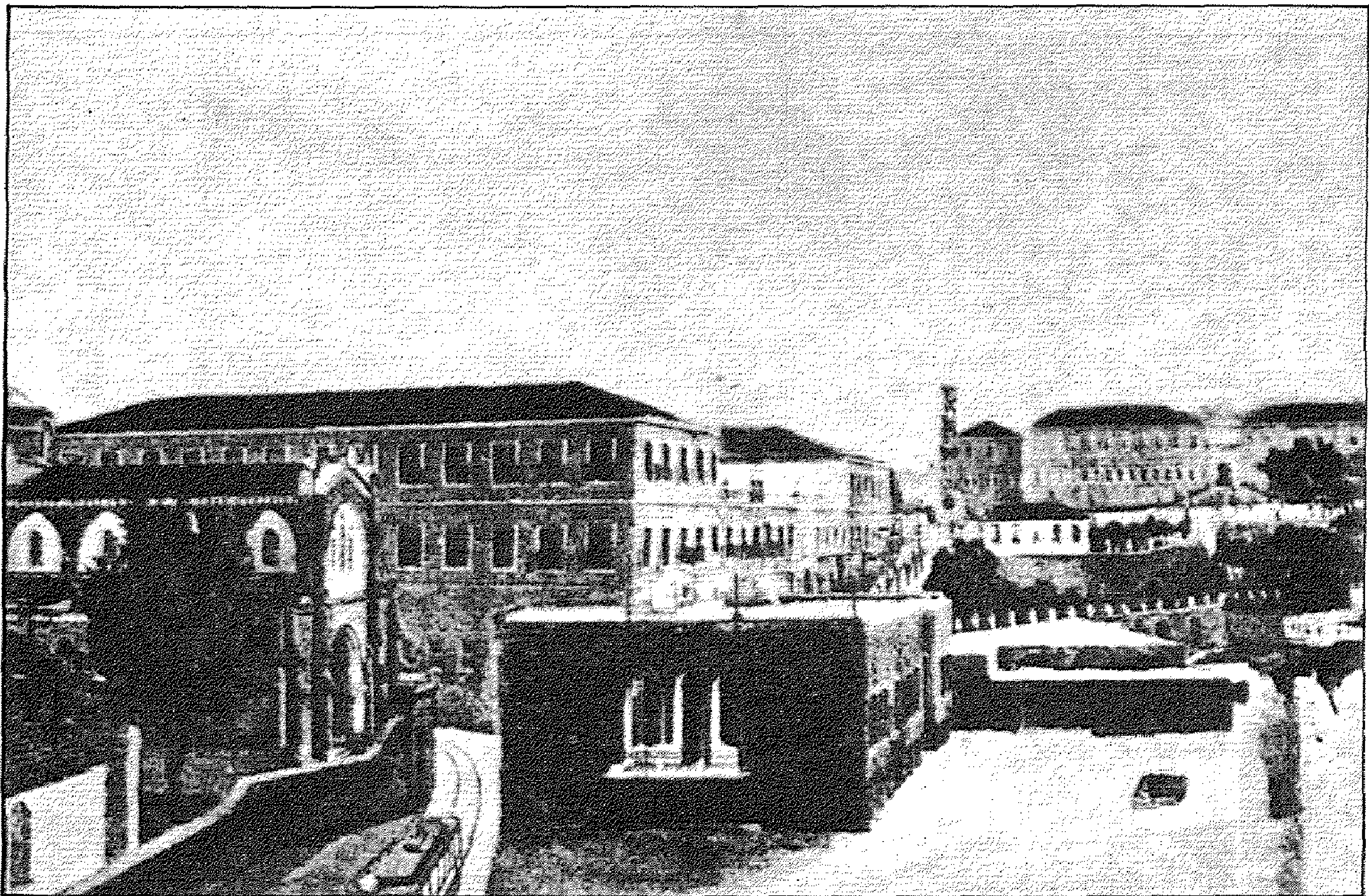
«تنبهوا واستفيقوا أيها العرب»

ومن الجمعيات العلمية والثقافية والتربوية والاجتماعية في بيروت العثمانية: جمعية زهرة الإحسان، جمعية شمس البر، جمعية زهرة الآداب، جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية، جمعية الفنون، جمعية ثمرة الإحسان، جمعية لجنة ثمرة الإحسان الإسلامية، جمعية لجنة التعليم الإسلامية، جمعية اللجنة الخيرية الإسلامية، جمعية بيروت الإصلاحية، وسواها من الجمعيات الخاصة بإنشاء المدارس والقيام بأعمال خيرية وإنسانية واجتماعية وتربوية.

المرأة البيروتية

ومن الدلائل على وجود حياة علمية متطورة في بيروت العثمانية، واقع المرأة البيروتية واللبنانية. فالوقائع التاريخية تناقض الاتهامات التي تساق ضد المرأة التي بدأت بالتعلم في المراحل الابتدائية والثانوية وفيما بعد الجامعية. كانت جمعية «باكورة سوريا» أول جمعية للخريجات تأسست عام ١٨٧٩، من أهدافها العمل على تعليم المرأة وترقية أوضاعها الاجتماعية والثقافية، وقد انتخبت السيدة جسن عتيق أول رئيسة لهذه الجمعية. وقد تلتها جمعيات نسائية عديدة كان لها مجلات ثقافية وأندية اجتماعية ومن رائدات هذه الجمعيات والأعمال الاجتماعية: مريم مزهر، سليمة ابي راشد، الأميرة نجلاء أبي اللمع، أملي سرسق، لبيبة جهشان، جوليا طعمة دمشقية، مدام ملحمة، نازك عابد بيهم، ابتهاج قدورة، عنبرة سلام الخالدي، وداد محمصاني، شفيقة غرَّيب، هند حشاش، اليس أدلبي، أمينة حمزة، عادلة بيهم، نجلاء محمد راشد بيهم، زليخا قباني، أسما غندور ادريس، ثريا طبارة، أمينة الحمزاوي، وحيدة الخالدي، سلمى أبي راشد، ماري يني، وسواهن الكثير ممن شاركن في الحياة الاجتماعية، والتربوية والثقافية. وكان عزمي بك والي ولاية بيروت وأحمد مختار بيهم وجورج نقولا باز، يعتبروا من مشجعي النهضة النسائية في العهد العثماني.

وبمرور الزمن كانت المرأة البيروتية واللبنانية تتابع تخصصها العالي وتحرز النجاح تلو النجاح، وذلك في العهدين العثماني والفرنسي ومنهن: الدكتورة انسطاس بركات باز التي نالت الدكتوراهمنذ عام ١٩٠٥ من جامعة متشيغن في الولايات المتحدة الأميركية، الدكتورة سنية حبوب خريجة جامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة الأميركية، الدكتورة ادما أبو شديد، الدكتورة الين صافي، الدكتورة هدى رفاعي، الدكتورة مي سعادة، الدكتورة آسيا مصطفى العيتاني وسواهن.



□ **الثكنة العسكرية والمستشفى العسكري وكنيسة الكبوشية في نهاية العهد التركي.**

وفي ميدان الصيدلة برزت الدكتورة زهية بركات والدكتورة أملي صافي وسواهن. ومن القابلات منذ القرن التاسع عشر السيدة رشدية فاخوري زوجة الدكتور أنيس قدورة. ثم برزت القابلات القانونيات خريجات الجامعة الأميركية والجامعة اليسوعية — معهد الطب الفرنسي منهن: سهيلة سعادة، كوثر حلاق، درية الصغير، بديعة صندقلي، فاطمة العريس، مكرم الحسيني، لمياء عضاضة، وداد صندقلي، رمزية مروش، سلوى رواس، والآنسة غندور وسواهن الكثير.

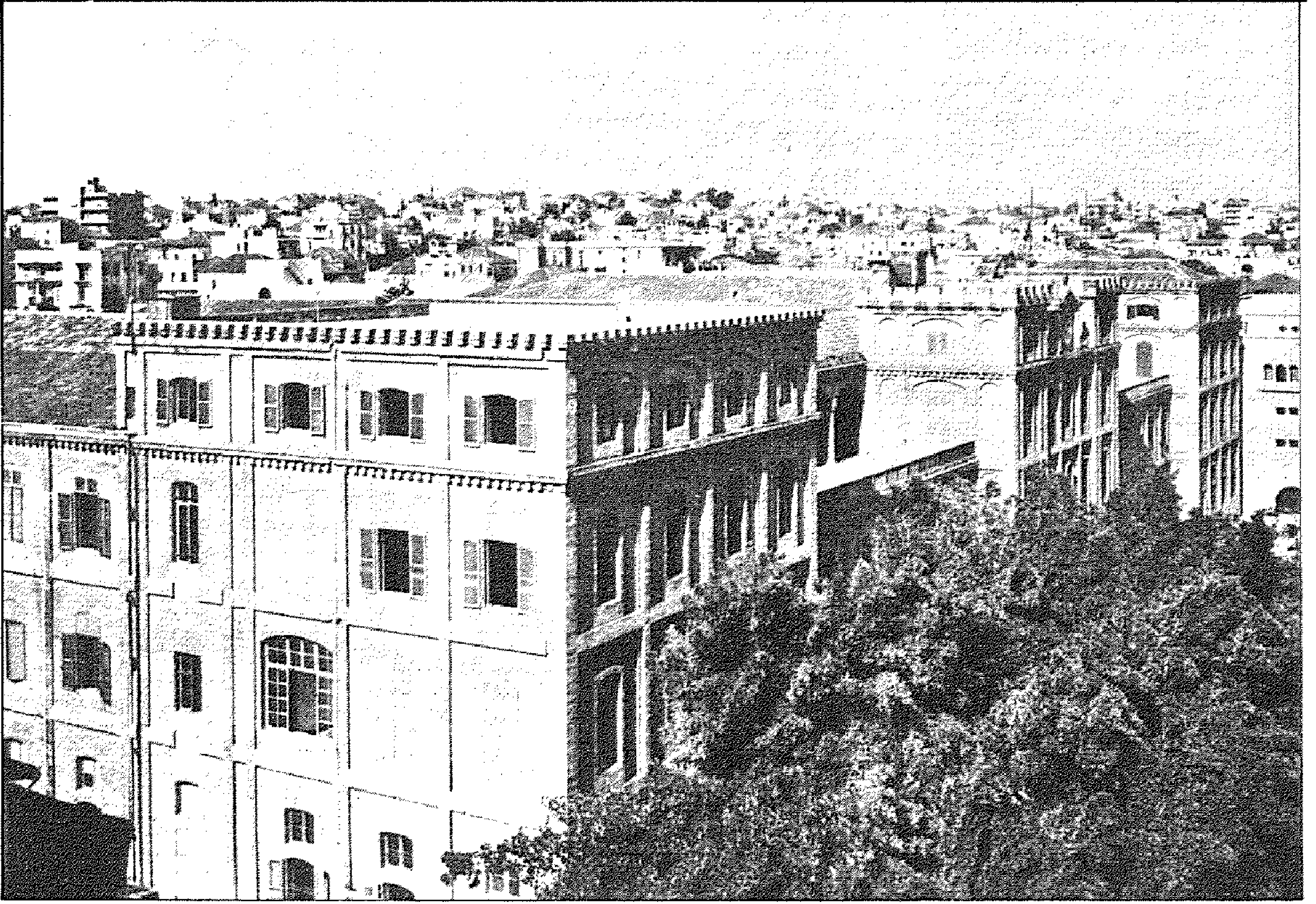
وفي إطار دور المرأة في الحياة العلمية في بيروت، فلا يمكن أن ننسى ظاهرة «الست حفيظة كريم» التي كانت علماً من أعلام المسلمين في بيروت، حيث قامت بدور بارز وأساسي في تعليم الفتيات المسلمات في العهدين العثماني والفرنسي.

وفي مجال العلوم والآداب الإنسانية برزت فيما بعد كل من: د. زاهية قدورة، د. نجلاء عز الدين، د. سلوى نصار، د. إكرام الصغير وسواهن. أما حاملات الليسانس والدبلومات فهن كثيرات ولا يتسع المجال لذكرهن جميعاً، ولكن من الرعيل الأول منهن: هيفاء طبارة، مريم عيتاني، أناقة الزعني، إنعام الصغير، زاهية دوغان، رجاء الشريف، سيرين الحسيني، عزيزة الزين، فاطمة الزين، يسرى محمد علي بيهم، دينا ونهلا مروة، ممدوحة السيد، عايدة عانوتي، فتنة مسيكة وسواهن الكثير.

ولا بد من الإشارة إلى أن عهد الانفتاح الذي شهدته بيروت العثمانية في القرن التاسع عشر، أدت إلى ولادة بعض الجامعات والمعاهد الأجنبية خاصة الكلية السورية الأنجيلية التي عرفت باسم الجامعة الأميركية وجامعة القديس يوسف المعروفة باسم الجامعة اليسوعية.

الكلية السورية الأنجيلية (الجامعة الأميركية فيما بعد)

أقيمت الكلية السورية الأنجيلية عام ١٨٦٦ بمسعى الدكتور دانيال بلس، الذي كان رائداً للتبشير الأنجيلي البروتستانتي في البلاد السورية، وقد آزره في إقامة الكلية الدكتور وليم طومسون، كما لاقى الدعم والتأييد من الحكومة الأميركية. وكان افتتاح الكلية في البدء في منطقة زقاق البلاط قبل انتقالها إلى منطقة رأس بيروت.



□ كلية الطب في جامعة القديس يوسف (اليسوعية).

وقد زاولت الكلية عملها بستة عشر تلميذاً، أثنا عشر من جبل لبنان وواحد من طرابلس وثلاثة من بيروت، استضافهم المعلم بطرس البستاني في مدرسته الوطنية في زقاق البلاط.

وفي عام ١٨٦٧ افتتحت كلية الطب بهمة الدكتور فانديك والدكتور يوحنا ورتبات، وكانت الدروس تلقى باللغة العربية. وعندما اشترى المبشرون الأميركيون أراضي في رأس بيروت من آل عاقل وآل منيمنة ومن عائلات بيروتية أخرى، وضعوا حجر الأساس عام ١٨٧١، وسخر البيارتة يومذاك من الأميركيين، لأن منطقة رأس بيروت كانت مقفرة من الناس وقال البيارتة يومذاك: «الأميركان بدهم يسكنوا بين الواوية».

والحقيقة فإن الكلية لم تنتقل إلى رأس بيروت إلا عام ١٨٧٣، ومنذ ذاك التاريخ بدأ الناس يعرفون أهمية الكلية فوهبوها أوقافاً وأراضي مجاناً لبناء بقية المدارس والصفوف عليها. وقد عثرت من بين وثائق سجلات المحكمة الشرعية في بيروت لعام ١٢٨٦هـ على وقف للكلية السورية الأنجيلية مقدم من الخواجه ميخائيل بن يونس الغرزوزي، وقد تضمن الوقف ثلاث قطع أرض سليخ في محلة الطنطاس في رأس بيروت. واشترط الواقف أن تبنى في الأراضي الموقوفة مدرسة لتعليم أنواع العلوم والصناعات لكل من يريد التعلم من سائر الطوائف. واشترط الواقف ميخائيل الغرزوزي أن يكون الخواجه دانيال بلس الأميركاني رئيساً على المدرسة التي ستبنى في أرض الوقف، ولمن يكون رئيساً بعده كائناً من كان. وهذه الوثيقة تنشر للمرة الأولى.

وباعتبار أن الكلية الأميركية كلية تابعة للوقف الأنجيلي، ولما كانت الأوقاف عامة معفاة من الضرائب، فقد أصدرت الدولة العثمانية فرماناً يعفي الكلية من الضرائب على مبانيها وعقاراتها وعلى مواد البناء التي يمكن أن تستوردها.

والجدير بالذكر أنه ما هي إلا سنوات حتى غدت الكلية السورية الأنجيلية من أهم المؤسسات الثقافية في بيروت العثمانية، وقد تعددت اختصاصاتها وكلياتها منها كليات:



□ كلية المقاصد في بيروت.

الاستعدادية، العلمية، كلية الطب، كلية الصيدلة، كلية طب الأسنان، كلية التجارة، كلية الآثار. كما اشتهرت عبر تاريخها بمرصدها الهام الخاص بقياس الجو والطقس الذي أنشىء عام ١٨٩٤. وإلى جانب ذلك فقد ضمت الكلية مكتبة ازدادت أهميتها تباعاً، وهي لا تزال إلى اليوم، من أهم المكتبات العاملة في بيروت تزخر بأمهات المصادر والكتب النادرة، كما تحوي مخطوطات نادرة في مختلف العلوم والآداب والتاريخ والفلسفة وسواها. وكان التدريس في الكلية باللغة العربية ثم باللغة الأنجليزية.

الكلية اليسوعية (الجامعة اليسوعية)

تأسست الكلية اليسوعية في بيروت عام ١٨٧٥، بفضل جهود الرهبان الكاثوليك ودعم فرنسا بالدرجة الأولى. وقد قامت كرد فعل على قيام الكلية السورية الأنجيلية الأميركية التي كانت قد بدأت باستقطاب اللبنانيين ومنهم أبناء الطائفة الكاثوليكية. لذا رأى اليسوعيون إنشاء كليتهم للمساهمة في الحياة الثقافية من وجهة نظرهم. وقد تألفت الجامعة في البدء من كليتين دينيتين هما: كلية اللاهوت وكلية الفلسفة، ثم أضيفت كليات الطب والصيدلة والحقوق والآداب وسواها. وكان التعليم في البدء باللغة العربية ثم تحول إلى اللغة الفرنسية. وكما فعلت الكلية السورية الأنجيلية بإقامة مرصد لها عام ١٨٩٤، عمدت الجامعة اليسوعية إلى إقامة مرصد خاص بها عام ١٩٠٧، وهو المعروف باسم مرصد كسارة. وبالإضافة إلى ذلك فقد استحدثت الكلية مكتبة هامة تزايدت أهميتها مع مرور الزمن، وتعتبر المكتبة اليسوعية من أهم المكتبات العاملة في بيروت ولبنان إلى جانب مكتبة الجامعة الأميركية، حيث تضم أيضاً مجموعات نادرة من المصادر والكتب والمخطوطات المتنوعة.

مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت

من المميزات الثقافية والتربوية في بيروت

العثمانية، تأسيس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية للعناية بتعليم النشء الجديد، تخوفاً من استيعاب المؤسسات التبشيرية التربوية لهذا النشء. وكان الاجتماع الأول لأعضاء الجمعية في الأول من غرة شعبان ١٢٩٥هـ ــ ١٦ تموز ١٨٧٨م، برئاسة الشيخ عبد القادر قباني، وعضوية السادة: أحمد دريان، بشير البربير، بديع اليافي، حسن بيهم، حسن الطرابلسي، حسن محرم، خضر الحص، راغب عز الدين، سعيد الجندي، سعيد طربيه، طه النصولي، عبد الله غزاوي، عبد القادر سنو، عبد اللطيف حمادة، عبد الرحمن نعماني، محمود خرما، محمد ديه، محمود رمضان، مصطفى شبارو، محمد فاخوري، محمد اللبابيدي، مصباح محرم، محمد أبو سليم المغربل، وهاشم الجمال..

والأمر اللافت للنظر أن أول مدرسة مقاصدية خصصت للإناث. وجاء في الفجر الصادق للجمعية مبررات ذلك فيما يلي نصه: «فوجدنا أن أحسن وسيلة لنشر المعارف فيها هو تعليم الإناث منها طرق التربية وما يحتجن إليه من العلوم والصنائع، إذ هن المربيات الأول وعلى تقدمهن المعول، فتذاكرنا بافتتاح مدرسة لهن» وكان الإقبال على مدرسة الإناث المقاصدية شديداً فضمت ما يقارب مئتي فتاة في منطقة الباشورة، وكانت كلية المقاصد الإسلامية. ثم عمدت الجمعية إلى فتح مدارس عديدة للذكور والإناث مقدمة لافتتاح جامعة المقاصد الإسلامية يومذاك. ثم اهتمت الجمعية بالعلوم الطبية فأرسلت خمسة طلاب لتعلم الطب في المدرسة الطبية الخديوية في مصر وهم: كامل قريطم، عبد الرحمن الأنسي، محمد سلطاني، حسن الأسير، سليم سعد الدين سلام.

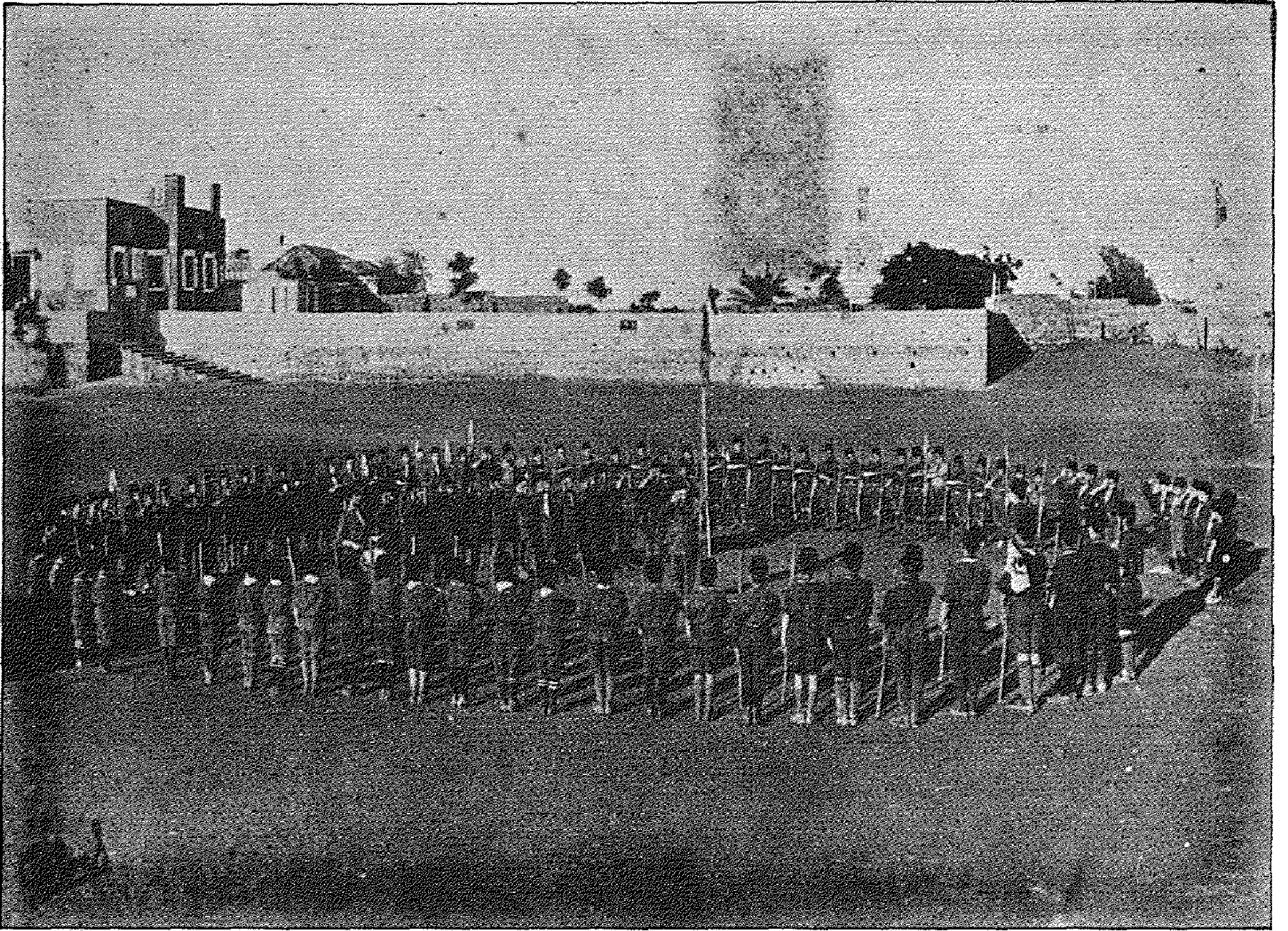
هذا وقد أقبل المسلمون والطوائف الأخرى على الالتحاق بمدارس المقاصد التي انتشرت في مختلف المناطق اللبنانية. وقد استطاعت هذه المدارس إحداث المزيد من اليقظة العلمية والتطور التربوي والعلمي في بيروت العثمانية.

الكلية العثمانية الإسلامية

من المدارس العاملة والمؤثرة في اليقظة العلمية ليس في بيروت العثمانية فحسب، وإنما في مختلف مناطق الدولة العثمانية المدرسة (الكلية) العثمانية لمؤسسها الشيخ أحمد عباس الأزهري بالاشتراك مع الشيخ عبد القادر قباني وذلك في عام ١٨٩٥. وقد قامت هذه الكلية بدور بارز في مجالات النهضة والتربية والتعليم، واستقطبت طلاباً من بيروت وجبل لبنان ومن العالمين الإسلامي والعربي، واعتمد فيها مناهج التربية الحديثة وجعلها على مراحل: روضة الأطفال، المرحلة الابتدائية، القسم الاستعدادي ثم العلمي. وقد حدد الشيخ أحمد عباس الأزهري منهجه التربوي قائلاً: «... سالكين بتلامذتها في سبل أنحاء التعليم وطرق التحصيل من النهج الأعم والطريق الأقوم... مرتفعين بهم في مدارج العلم إلى غاية تكسبهم عقلاً جديداً ونشأة مستأنفة وثيقة العرى حسنة الصبغة ترصفهم أخلاق العلوم شيئاً فشيئاً...» ومما قاله مشيراً إلى أهمية العلم: «... إن مكانة الأمة مرتبطة بارتقاء قوى أفرادها العقلية، فتكون رفيعة الشأن منيعة العزة إذا كانت قوى أفرادها العقلية نامية مرتقبة... لا مراء في أن أسمى البلاد مكانة وأكرمها منزلة من جعلت العلم شعارها، فكلما ارتفع منار العلم ارتفع شأن الأمة...».

ومن الأهمية بمكان أن رواد النهضة العربية والإسلامية منذ العهد العثماني بغالبيتهم من تلامذة وخريجي الكلية العثمانية ومنهم على سبيل المثال: الدكتور نسيب البربير، الدكتور بشير القصار، الدكتور مليح سنو، الدكتور محمد كنيعو، عمر الزعني، بهاء الدين الطباع، بشير النقاش، محمد الصانع، عمر فاخوري، عبد الرحمن المجذوب، أحمد دياب، توفيق فايد، معروف الأرناؤوط، مختار طبارة، أحمد فاخوري، عادل أرسلان، رفيق البراج، الرئيس عبد الله اليافي، الرئيس حسين العويني، الرئيس رياض الصلح، شكيب الجابري، عارف العارف، علي ناصر الدين، توفيق الناطور، عارف النكدي، عمر حمد، عبد الغني العريسي، محمد ومحمود محمصاني، أحمد مزبودي وسواهم الكثير.

وفي الإطار الثقافي في بيروت العثمانية لا بد من الإشارة إلى ظاهرة محمد أفندي بيهم ــ عضو مجلس المبعوثان العثماني ــ الذي



□ اجتماع عام للكشاف المسلم في ملعب الكلية الإسلامية، بيروت ١٩٢٦.

عرف عنه حبه وتقديره وتشجيعه للعلم وللمتعلمين، فقد درج في نهاية كل عام مدرسي على توزيع ساعات يدوية للمتفوقين من تلامذة بيروت لا سيما تلاميذ المقاصد. كما اشتهر عنه بأنه صاحب القول المأثور «تعلم يا فتى فالجهل عار» وكان يطلب من بعض الشبان كتابة هذا القول على جدران شوارع بيروت العثمانية.

مكتب الصنائع والتجارة الحميدي (الصنائع)

رأت الحكومة العثمانية ضرورة الاتجاه نحو إنشاء الكليات والمدارس الصناعية والمهنية والتجارية، بعد أن تكاثرت المدارس العادية. ورأى والي بيروت بأن المدينة تحتاج إلى مثل هذه المدارس، فعمد بعض المسؤولين إلى البحث عن موقع لبناء مدرسة مهنية، فارتأى البعض أقامتها في باطن بيروت في سوق البازركان بعد أن استملك مجلس إدارة ولاية بيروت خان الصاغة، ولكن استقر الرأي أخيراً على إقامة المدرسة في حي الرمل الذي عرف فيما بعد باسم منطقة الصنائع. وبالفعل ففي عام ١٩٠٥ احتفل والي بيروت ونقيب السادة الأشراف الشيخ عبد الرحمن الحوت ومجموع من العلماء والقادة والمسؤولين بوضع حجر الأساس لمكتب الصنائع والتجارة الحميدي. وبعد حوالي ثلاث سنوات من العمل المتواصل، افتتح المكتب في عام ١٩٠٧ في إطار احتفال ضخم، وبالمناسبة ذاتها تم غرس أول شتلة (غرسة) في حديقة الصنائع.

وكان النظام التعليمي في هذه الكلية الصناعية: قبول الطلاب مجاناً، إقامة الطلاب داخلية مع تأمين النوم والأكل والملبس والتعليم، تعليم الطلاب مختلف المهن والصناعات والفنون والعلوم التجارية والاقتصادية.

هذا وقد انفق على بناء هذه الكلية مبلغ (٣٥) ألف ليرة عثمانية، جمع المبلغ بالتعاون ما بين الدولة والمواطنين. وقد عين رئيساً للجنة هذا المكتب المهني عمر بك خلوصي، ومن

أعضائها: الشيخ عبد القادر قباني (مدير المعارف) والشيخ محمد الكستي (رئيس كتاب المحكمة الشرعية في بيروت) والشيخ رشيد فاخوري (محرر المقاولات) ومحمد اللبابيدي (مأمور الأجراء) وأمين حلمي (محاسب الولاية) والحاج محمد الطيارة من أعيان بيروت.

وبالإضافة إلى هذه المدارس والكليات والجامعات، كانت هناك مدارس حكومية وخاصة عديدة، قامت بدور بارز في الحياة العلمية في بيروت العثمانية.

علماء بيروت

من الأهمية بمكان القول بأن بيروت العثمانية شهدت ولادة الكثير من العلماء والمفتين والقضاة والفقهاء، ولا تزال بيوت البيارتة ومكاتبهم تزخر إلى اليوم بالمئات من المخطوطات وأمهات الكتب والمؤلفات العلمية والأدبية والتاريخية والفقهية والدينية، وأن الكثير من هذه المخطوطات لم تنشر إلى الآن، لذا لا بد من الاهتمام بها لإخراجها وتحقيقها مقدمة لطبعها وإصدارها في كتب علمية.

ومن علماء بيروت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين على سبيل المثال لا الحصر (مفتون، قضاة، فقهاء...): أحمد الأغر، أحمد البربير، عبد الباسط فاخوري، عبد اللطيف فتح الله، محمد الحلواني، محيي الدين اليافي، مصطفى نجا، إبراهيم الأحدب، محمد سعيد أياس، أحمد عباس الأزهري، يوسف الأسير، عبد الباسط الأنسي، أحمد بدران، محمد البربير، حسين بيهم، محمد جميل بيهم، حسين الحبال، عبد الرحمن الحوت، محمد الحوت، عبد الله خالد، محمد رشيد الدنا، عبد الرحمن سلام، أحمد طبارة، عبد الغني العريسي، مصطفى الغلاييني، عبد القادر قباني، محمد الكستي، إبراهيم المجذوب، محمد المجذوب، أحمد المحمصاني، حسن المدور، عبد الكريم أبو النصر اليافي، محيي الدين الخياط، سليم البابا، محمد علي الأنسي، محمد توفيق الهبري، يوسف علايا، أحمد مختار العلايلي، عبد القادر نحاس، قاسم الكستي، محمد سوبرة، أحمد علي عساف وسواهم الكثير مما لا يتسع المجال لذكرهم.

الخستة خانات (المستشفيات) والأطباء

كانت بيروت على غرار أكثر المدن العربية، فبعد مرحلة الانهيار العلمي الذي عم المناطق العربية والإسلامية بعد العصور الوسطى، بعد أن كانت تتميز هذه المناطق بأنها مراكز للعلم، عادت الأساليب التقليدية في معالجة المرضى، واختفت البيمارستانات (المستشفيات) المتخصصة، لتحل محلها أساليب التداوي العادية.

وكان الحلاق في المجتمع البيروتي والعربي بشكل عام هو الطبيب المختص في الحالات كافة سيما الأمراض الجلدية وأمراض الرأس وأوجاع الأسنان والأضراس، وهو الذي يقوم بختن الأطفال. ومن هنا جاء المثل الشائع عن الحلاق «بيكون عمبيحلق فإذا به بيقبع أضراس».

وتبعاً للظروف الصحية والعسكرية ، بدأت الدولة العثمانية بإنشاء بعض الخستة خانات (المستشفيات) في بيروت والولايات العثمانية. ففي أواسط القرن الثامن عشر أنشأت الحكومة العثمانية المستشفى العثماني في بيروت في المحلة المعروفة بالتكنات بجوار بوابة يعقوب (سراي الحكومة السابق). كما أنشأت في أواسط القرن التاسع عشر الخستة خانة الجديدة في بيروت مع القشلة العثمانية (الثكنة) المعروفة اليوم بمنطقة سراي الحكومة القديمة ومركز العدلية السابق في داخل البلد، وقد عرف ذلك المستشفى باسم «بيروت عسكري خستة خانة سي». ومن أطباء المستشفى الحكومي العثماني الدكتور إبراهيم أفندي صافي والدكتور خيري بك. وقد وصف عبد الرحمن سامي بك في حوالي عام ١٨٩٠ هذا المستشفى بقوله:

«توجهت مع حضرة عزتلو محيي الدين بك حمادة لزيارة مستشفى الحكومة السنية. فقابلنا هناك جناب الفاضل الدكتور خيري بك ، نجل احد اعيان الآستانة العلية، وارانا مع رفقائه الأطباء غرف المستشفى ومعداته. فإذا هو كامل الترتيب، نظيف للغاية، وجميع اسرته على احسن ما شاهدت في المستشفيات (الأسبتاليات). وكان المرضى قليلين وذلك لجودة الهواء واعتناء حضرات الأطباء. ومما زادني سروراً أنس حضرة الدكتور خيري بك، ومعاملته مع حضرات رفقائه المرضى باللطف والاعتناء والاهتمام الزائد. وبلغني أن معظم الفضل في قلة الأمراض عائد لحضرة الفاضل حمادة بك



صورة طلاب الكلية الإسلامية وهم:

١ ــ بهاء الدين الطباع.
٢ ــ بشير النقاش.
٣ ــ محمد الصائغ.
٤ ــ عمر حمد.
٥ ــ عمر فاخوري.
٦ ــ عمر الزعني.
٧ ــ عبد الرحمن المجذوب.
٨ ــ احمد دياب.
٩ ــ توفيق فايد.
١٠ ــ معروف الارناؤوط.
١١ ــ الدكتور بشير قصار.
١٢ ــ الدكتور مليح سنو.
١٣ ــ مختار طبارة.
١٤ ــ احمد فاخوري.
١٥ ــ من عائلة طبارة.
١٦ــ من عائلة بيضون.

رئيس مجلس بلدية بيروت الذي يفرغ جهده اناء الليل وأطراف النهار مهتماً بأحوال النظافة وبإزالة ما يضر بالصحة العمومية...».

ومن المستشفيات العثمانية الحكومية «المستشفى الحميدي» الذي أقيم في محلة الرمل (أي منطقة الصنائع فيما بعد) بالقرب من مكتب الصنائع والتجارة الحميدي.

ومن الخستة خانات العاملة في بيروت العثمانية المستشفى البروسي المعروف باسم «خستة خانة بروسيا» (المستشفى الألماني) وموقعه في رأس بيروت قرب الكلية السورية الأنجيلية، وهو على نفقة الألمان وأمراء مار يوحنا. وكان يقبل على هذا المستشفى الفقراء من مختلف المناطق، وكانت المعاينة مجانية، في حين كانت الراهبات تعتني بالمرضى وبنظافة الغرف. وكانت رئيسته في أواخر القرن التاسع عشر السيدة لويزا.

ومن المعروف أن العلّامة فان دَيْك (Van Dyke) خدم في هذا المستشفى، ونال أعلى نيشان (وسام) من الأمبراطور الألماني غليوم الثاني.

أما فيما يختص بأساتذة الطب في الكلية السورية الأنجيلية، فأنهم كانوا يعاينون المرضى في المستشفى البروسي. كما كان طلاب الطب في هذه الكلية يتدربون في هذا المستشفى، وذلك قبل إنشاء المستشفى الخاص بهم. علماً أن كلية الطب الأميركية ذاتها تأسست بمسعى الدكتور فان ديك والدكتور يوحنا وربتات.

ومن المستشفيات في بيروت العثمانية أيضاً، المستشفى اليسوعي في اليسوعية، وكان يديره أساتذة الطب في المدرسة اليسوعية، وكان هؤلاء الأطباء يطببون أيضاً في مستشفى الراهبات العازاريات في منطقة العازارية في باطن بيروت، والذي عرف فيما بعد باسم المستشفى الفرنسي. ومن المستشفيات أيضاً أوتيل ديو (Hotel Dieu) التابع لكلية الطب الفرنسية، وهو لا يزال إلى الآن من المستشفيات العاملة وموقعه إزاء متحف بيروت الوطني.

وفي العهد العثماني أنشأت الطائفة الأرثوذكية مستشفى في الأشرفية. وقد تقدم للمعاينة فيه مجاناً كل من الدكتور فان ديك والدكتور حبيب طبجي والدكتور سمعان الخوري.

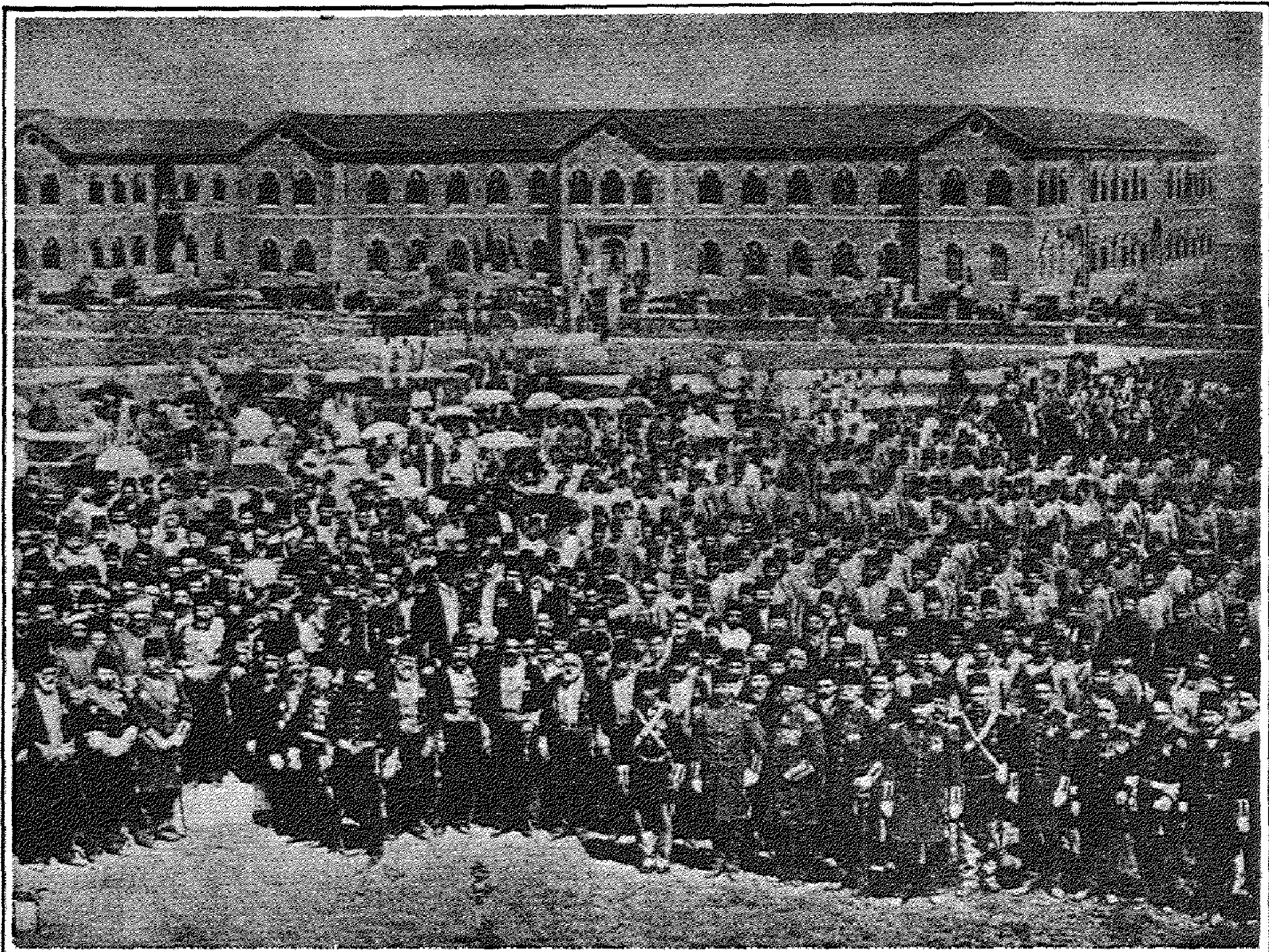
هذا ومن ملامح اليقظة العلمية في بيروت العثمانية تطور الحياة الطبية والصحية فيها، فمن أطباء بيروت المحليين والأجانب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين: إبراهيم صافي، إبراهيم مطر، إبراهيم زغرب، إبراهيم ثابت، إبراهيم مدور، إبراهيم صوما، أدمسي، أسعد عفيش، أديب قدورة، اسكندر بارودي، اسكندر رزق الله، الفرد خوري، الياس عرمان، الياس شكر الله، الياس الحاج، الياس جبارة، انطوان نقاش، بركستوك، براسقولي، بشارة زلزل، بوش، بلس، بوايّه، تيوفيل دبانة، توفيق رزوق، جان باسيليو، حبيب شملاوي، حسن الأسير، حسن قباني، حبيب طويجي، حليم بن أديب قدورة، حنا حنين، خيري بك، داوود برباري، دندن، دوبران، ديرك، زورز بوست، روبه، سامح فاخوري، بشير القصار، سليم هرموش، سليم جلخ، سمعان خوري، شابوتن، شاكر خوري، شوفلر، عبد الحفيظ العريسي، عبد الرحمن الأنسي، عبد الرزاق حمادة، ڤانديك، فريد كساب، فضل الله عسيلي، كالمات، لورانج البروسي، متري السيوفي، ملحم فارس، نجيب بربور، نيكر، نيكولاكي، هاش، وفيق بيضون، يعقوب ملاط، يوحنا وربتات.

ومن المعروف أن الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر شجعت على اليقظة العلمية وعلى اختراق ميدان الطب، فمنحت بعض الأوسمة الرفيعة (النيشان) للأطباء المميزين، والذين أدوا خدمات طبية في الدولة، ومنهم على سبيل المثال: «كرنيلوس ڤان ديك». كما اعتمدت الدولة العثمانية في مجال الطب نظام اللجان الطبية بالتعاون مع فرنسا، وأنظمة الامتحانات والمعادلات (الكولوكيوم). هذا وقد كان للأطباء نقيب يعرف باسم «سر أطباء» أو «سر دوقتور» أي نقيب الأطباء. أما فيما يختص بالأطباء المسلمين الأوائل في بيروت، فإن لذلك قصة ينبغي ذكرها والإشارة إليها. فمن المعروف أن آل قدورة ــ وآل فاخوري من بعدهم ــ أول من اخترقوا جدار الطب في بيروت. وكان الدكتور أديب قدورة أول طبيب مسلم بيروتي يتخرج من الكلية السورية الأنجيلية (الجامعة الأميركية) عام ١٨٨١ بعد أن أمضى خمس سنوات في دراسة الطب (١٨٧٦ ــ ١٨٨١). بينما كان مصطفى قدورة أول صيدلي مسلم من بيروت يتخرج عام ١٩٠٠ ويؤسس صيدلية في منطقة السور في باطن بيروت (ساحة رياض الصلح فيما بعد).

وهذا الواقع حدا بالشيخ عبد القادر قباني أول رئيس لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت إلى حث المسلمين على التعلم ومجاراة الطوائف الأخرى. ومما حدا برئيس الجمعية الجديد حسن بك محرم إلى الاهتمام بتوجيه الطلاب نحو التخصص في كليات الطب، وقد بدأ النشاط في هذا الاتجاه ابتداء من ٢٢ شوال ١٢٩٦هـ ــ ٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٧٩، عندما طلبت جمعية المقاصد من الحكومة العثمانية العمل لقبول الحكومة المصرية خمسة طلاب ترسلهم الجمعية إلى مدرسة الطب الخديوية. وبعد إنهاء الاتصالات اللازمة ما بين ولاية بيروت والحكومة العثمانية والحكومة المصرية، اختارت جمعية المقاصد خمسة طلاب لإرسالهم إلى مصر للتخصص الطبي وهم: كامل قريطم، عبد الرحمن الأنسي، سليم سعد الدين سلام، حسن الأسير، ومحمد سلطاني.

وفي جلسة جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت من يوم الجمعة ٢٦ محرم ١٢٩٧هـ ــ ٩ كانون الثاني ١٨٨٠ جاء في محضر الجلسة ما يلي:

«نقدم الشكر إلى الله سبحانه وتعالى الذي وفق هذه الجمعية لإرسال الخمسة التلامذة المتقدم ذكرهم سابقاً إلى مدرسة الطب في مصر، وذلك في يوم السبت الواقع في ٢٢ محرم ١٢٩٧ في قمرة الوابور الفرنساوي عن طريق الأسكندرية مصحوبين مع أحد ذوات البوليس، حسن أفندي المأمور المخصوص من طرف الحكومة السنية بإيصالهم إلى حكومة الأسكندرية، التي ترسلهم لمصر للمدرسة المذكورة. كما أننا نقدم الثناء لدولة والينا الأفخم، ولسعادة متصرفنا الأكرم، وللحكومة



□ **حفل افتتاح مكتب الصنائع والتجارة الحميدي، بحضور والي بيروت وكبار القادة والرسميين ورجال الدين والخيالة والعسكريين وحشد من البيارتة. ويبدو في الصورة غرسات (شتل) لزرعها حيث اصبحت فيما بعد حديقة الصنائع.**

المصرية، ولكل من ساعدنا بهذا المشروع الخيري».

وبعد ذلك شهدت بيروت تخرج العديد من الأطباء المسلمين والنصارى، وانضموا إلى زملائهم للقيام بدور رائد في ميدان الخدمة الطبية والصحية في بيروت والمناطق اللبنانية.

الأجزاخانات (الصيدليات)

عرفت بيروت العثمانية الكثير من الأجزاخانات (الصيدليات) التي كانت تلبي حاجة المرضى والأطباء والمستشفيات. وتشير سالنامة ولاية بيروت للعام ١٣٢٦هـ ــ إلى أسماء الصيادلة وأماكن صيدلياتهم وإلى أسمائها ومن هؤلاء الصيادلة:

إبراهيم طعمة، أدوار طوقاتلي، اسكندر حلو، أمين فاخوري، إسماعيل، انطوان عرب، الياس يمين. بطرس انطوان شكر الله، بول صوما، جورج انطوان شكر الله، جورج فياض، حبيب سليم بتلوني، حليم غرزوزي، خالد خازن، داود نحول، سليم فاخوري، عبدو وعبد الله صوراتي، عزت تحسين، الكساندر باولي، فريد تلحوق، فيليب مطر، محمد مصباح جمال، مرأت بارودي، مصطفى قدورة، نجيب عدراسي، نعمة جريوس مدور، نعوم باخوس، هانس هاني، يوسف بدران، يوسف الجميل. بالإضافة إلى أجزاخانات عديدة أخرى منها أجزاخانة حمادة، وأجزاخانة شاكر إخوان. وقد كان لهذه الأجزاخانات «سر أجزة» أي نقيب الصيادلة، وقد تولاها فترة الصيدلي مصطفى قدورة.

الكرنتينا (المحجّر الصحي)

قد يظن البعض بأن تاريخ إنشاء الكرنتينا (المحجر الصحي) في المنطقة المعروفة اليوم باسم الكرنتينا شرقي بيروت، يعود إلى عهد الانتداب

نمرة ٢٥٤

صورة ما في مجلس الشرع الشريف بمدينة بيروت المحروسة حضر الخواجا ميخائيل بن يونس الغرزوزي ووقف وحبس وهو بحالة تعتبر شرعا ما هو له
وجار في ملكه وتحت تصرفه وايل اليه بالشراء الشرعي بموجب حجتين شرعيتين بيده سابقتي التاريخ كلتاهما بامضاء وختم الحاكم الشرعي
المومى اليه محررة ~~في اليوم المتمم للعشرين من شوال المكرم سنة ست وثمانين وذلك~~ احداهما في ثالث محرم الحرام افتتاح سنة خمس
وثمانين والثانية محررة في اليوم المتمم للعشرين من شوال المكرم سنة ست وثمانين وذلك الموقوف هو جميع قطع الاراضي الثلاث السليخ
المتلاصقة الكائنة في محلة الطنطاس من مزرعة رأس بيروت يحدها قبلة وقف كنيسة الروم وملك نعمة الشويري وميخائيل الزين
واسعد تلحوق وجرجس البخعازي وشمالا املاك بنات دندن وحبيب كاللس وحبيب البخعازي وتمامه الارض الاتي تحديدها
ثانيا وشرقا الارض الاتي تحديدها ثانيا وغربا الارض الاتي تحديدها وتمامه ملك جرجس البخعازي وجميع قطعة الارض الكبيرة
بمشتملاتها الموصوفة بالطنطاس الكائنة في مزرعة رأس بيروت المزبورة المشتملة على صخور ومغاريس واصل زعرور واصل خرنوب
وعلى جبوب التوت وبئر خرب معين لجمع ماء المطر موصوف ببئر الدوما فيحد القطعة المذكورة بمشتملاتها قبلة الطريق الحادث
النظامي وتمامه القطع المحدودة اولا وشمالا املاك الحاج مصطفى قمورليه وشرقا كالى وتمامه ملك ورثة محمد اللاذقاني وحسن نجم وعلي
البلبع وحسن الغاوي وعمر حطب وشرقا ساقية الماء الشويري وغربا املاك عبد الواحد الشيخ وتمامه ملك ورثة حبيب البخعازي
والقطع الاراضي المحدودة اولا وورثة احمد حطب وورثة ~~رضوان~~ رضوان الدنا وجميع قطعة الارض السليخ الصغيرة بمشتملاتها
الكائنة في المزرعة المزبورة الفاصل بينها وبين القطعة المحدودة ثانيا الطريق النظامي المذكور يحد هذه القطعة المزبورة
قبلة ملك جبران الزين وشمالا الطريق النظامي المذكور وشرقا ملك بنات الياس ورتي وغربا الطريق السالك وتتمة الحدود
وقفا صحيحا شرعيا وحبسا مؤبدا مرعيا ليبنى به مدرسة كلية لتعليم انواع العلوم والصناعات لكل من يريد التعليم
من سائر الطوائف ويكون باقي الاراضي بعد البناء وقفا على مصالح المدرسة وما تحتاج اليه وشرط ان يكون الناظر
على الوقف المذكور للخواجا دانيال بن لوصي بلس الاميركاني رئيس المدرسة الكلية في بيروت الذي يكون رئيسا
على المدرسة التي ستبنى في الوقف المذكور ولمن يكون رئيسا عليها بعده كائنا من كان وسلمه الوقف المرقوم تسليما مثله
شرعا وهو تسلمه منه ثم عن للواقف المذكور الرجوع عما وقفه بدعواه عدم صحته ولزومه فعارضه الناظر
المرقوم بصحته ولزومه بمجرد قوله وقفت وعند الترافع الشرعي فيما بينهما بهذا الخصوص حكم مولانا الحاكم الشرعي
المومى اليه بصحة الوقف المحرر ولزومه عالما بالخلاف ومنع الواقف المرقوم من دعواه الرجوع حكما ومنعا صحيحين
شرعيين وبالطلب تحرر ما هو الواقع في اليوم المتمم للعشرين من ذي الحجة ختام سنة ست وثمانين ومائتين والف سنة ١٢٨٦

شهود الحال

مكرمتلو السيد ابراهيم افندي الاحدب — مكرمتلو الشيخ عبد الرحمن افندي النحاس — السيد خليل عز الدين — الشيخ خليل افندي الغر — السيد حسن افندي عز الدين — محمد اصلان السيد ابو الحسن افندي الكستي

وغيرهم — الشيخ سليم افندي الجيلاني كاتب مجلس تمييز الحقوق — السيد محيي الدين ناصر

□ إعلان اوقاف الخواجه ميخائيل الغرزوزي لاراضيه في راس بيروت لصالح الكلية الإنجيلية لبناء مدرسة عليها لتعليم مختلف العلوم والصناعات لمختلف الطوائف على أن يكون الواقف عليها الخواجة دانيال بلس ومن ياتي بعده (مجموعة سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ١٢٨٦هـ) (تنشر للمرة الأولى).

اطباء محليه واجنبيه

اسامی	معاينه خانه‌سی
دوقتور ابراهيم مطر	علي الصور ده‌كي خانه‌سنده
« ابراهيم مدور	دحداح ده‌كي «
« ابراهيم صوما	جنزه ده‌كي «
« ادمنى	رأس بيروتده‌كي «
« اسعد عفيش	اشرفية محتاده‌كي «
« اسكندر بارودى	مار نقولا ده‌كي «
« الفرد خورى	رميله ده‌كي «
« الياس حرمان	مصيطبه‌ده‌كي «
« الياس شكرالله	طريق الشامده‌كي «
« الياس الحاج	« «
« الياس جباره	طريق النهر ده‌كي «
« انطون قاش	« «
« بركستوك	خندق الغميق ده‌كي خانه‌سنده
« براسقولى	على الصور ده‌كي «
« ثوفيل دباته	باشوره ده‌كي «
« توفيق رزوق	طريق الشامده‌كي «
« حسن الاسير	بسطاء محتاده‌كي «
« حسن قبانى	« «
« حبيب طوبجي	مار نقولاده‌كي «
« حليم قدوره	على الصور ده‌كي «
« حنا حنين	طريق النهر ده‌كي «
« دوبران	مصيطبه‌ده‌كي خانه‌سنده
« ديرق	رأس بيروتده‌كي «
« ژورژ پوست	رأس بيروتده‌كي «
« ساع فاخورى	بسطاء محتاده‌كي «
« سليم هرموش	اشرفية محتاده‌كي «
« سليم جاخ	مار مارونده‌كي «
« سمعان خورى	طريق الشامده‌كي «
« شابوتن	اشرفية محتاده‌كي «
« شاكر خورى	رأس النبع ده‌كي «

□ بعض اسماء الأطباء ومواقع عيادتهم في بيروت العثمانية (عن سالنامة ولاية بيروت ١٣٢٦هـ).

الفرنسي في لبنان أو إلى عهود الاستقلال. علماً أن هذا المحجر الصحي أقيم تجاه جامع الخضر عام ١٨٣٤ بتشجيع ومسعى إبراهيم باشا بن محمد علي باشا، بعد أن خضعت بلاد الشام للحكم المصري.

وكان إبراهيم باشا قد كلَّف قنصل فرنسا في بيروت هنري غيز للقيام بهذا العمل، وبالتعاون مع بقية قناصل الدول الأجنبية، بعد أن ازداد التخوف من امتداد الطاعون إلى بيروت وبلاد الشام

وكان الأسلوب المتبع في هذه الحال، بإدخال السفن القادمة من الخارج سيما التي انتشر في بلادها الطاعون، وإدخال القادمين إلى الكرنتينا ولمدة أربعين يوماً للتدقيق والمعاينة والمراقبة الصحية. وقد اعتبر هذا العمل في حينه من الأعمال الشاقة والصعبة لما أحدث من إرباك في مرفأ بيروت والمرافىء المجاورة البيروتية المتخصصة. علماً أن جهود إبراهيم باشا وجهود القناصل الأجانب قد انصبت بشكل كثيف على تحصين بيروت والبلاد السورية من تلك الأمراض المعدية والقاتلة، وقد نجحوا فعلاً في حماية البلاد من الأوبئة التي لو انتشرت في حينه لأحدثت أزمات صحية واقتصادية واجتماعية، بالإضافة إلى تأثيرها على الوضع العسكري وعلى القوة العسكرية المصرية، لأن إبراهيم باشا كا يتخوف من أن يصيب الطاعون جنوده، وبذلك يفقد قدراته العسكرية

وبالرغم من اكتشاف بعض الحالات والإصابات، غير أن القائمين على الكرنتينا أقاموا أكواخاً كبيرة بمثابة محاجر صحية لإيواء القادمين وإيداع البضائع. ولما ازدادت أعباء العمل نتيجة استمرار مجيء السفن والركاب، فقد رأت «اللجنة الصحية» المختصة إيجاد أمكنة مضاعفة لاستيعاب العمل المضاعف.

والأمر الملاحظ أن الكرنتينا التي أقيمت في عام ١٨٣٤ لدواع طارئة وتخوفاً من انتشار مرض الطاعون في بلاد الشام، فقد استمرت في أعمالها وتوسع نطاق نشاطها، ثم تطورت أساليب الوقاية الصحية. وقد توارثت الحكومات المتعاقبة هذا الإنجاز واستمر إلى وقتنا الحاضر في المنطقة ذاتها المعروفة باسم الكرنتينا ــ الخضر، إلى أن بدأت الحرب اللبنانية عام ١٩٧٥ فقضت على معالم هذه الوحدة الصحية.

* * *

والحقيقة فإن اليقظة العلمية في بيروت العثمانية، اسفرت عن نتائج هامة في مختلف الميادين الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية أيضاً، حيث أن اليقظة العلمية فتحت المجال للبيارتة وللبنانيين للاطلاع على أوضاع الدول الأوروبية سياسياً واقتصادياً وثقافياً، فتأثروا بتلك الأوضاع بصورة أو بأخرى، فبدأوا يطالبون بتحسين أوضاعهم، أو هم على الأقل عملوا على تطوير أوضاعهم تلقائياً. ومما ساهم في تطور الحياة العلمية خطوط المواصلات المعتمدة داخلياً ومع بقية الولايات، ثم اعتماد تنوير بيروت بالغاز منذ عام ١٨٨٨ بواسطة «شركة تنوير بيروت بالغاز». ثم تنوير بيروت بالكهرباء منذ عام ١٩٠٨، كل ذلك سهل تنشيط الحركة العلمية والثقافية في بيروت العثمانية.

ومما تقدم يتبين لنا بأن بيروت العثمانية تميزت بحركة علمية نشطة، وبحياة ثقافية وأدبية متميزة، مما جعل «بيروت المحروسة» مقصداً لطلاب العلم بعد أن توارثت تراثها العلمي، وبعد أن طورت في هذا التراث، وفي حياتها العلمية عامة، وفي مختلف المجالات والميادين.

مصادر البحث

الوثائق:

١ ــ سالنامة ولاية بيروت عام ١٣٢٦هـ.
٢ ــ سجلات المحكمة الشرعية في بيروت (وثائق متفرقة).
٣ ــ مجموعة د. زاهية قدورة الوثائقية.

المصادر والمراجع

(١) ابن عساكر: تاريخ ابن عساكر، ج ٣، ٦، ٢٢، ٣٠، ترتيب الشيخ عبد القادر بدران، دمشق ١٩٣٨.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، بيروت ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م.

(٣) اسامة عانوتي: الحركة الادبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٧١.

(٤) اسعد تميم: معالم المسلمين في بيروت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ١٨٤٠ ــ ١٩٤٠ رسالة ماجستير غير منشورة ــ الجامعة اللبنانية ــ قسم التاريخ ١٩٨٧.

(٥) جرجي نقولا باز: إميلي سرسق، المطبعة الأدبية، بيروت ١٩٣٧.

(٦) حسان حلاق: مذكرات سليم علي سلام ١٨٦٨ ــ ١٩٣٨، الدار الجامعية، بيروت ١٩٨٢.

(٧) حسان حلاق: أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني، المركز الإسلامي للإعلام والإنماء، بيروت ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م.

(٨) حسان حلاق: التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية، الدار الجامعية بيروت ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م.

(٩) حسان حلاق: بيروت المحروسة في العهد العثماني، الدار الجامعية، بيروت ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م.

(١٠) حسان حلاق: مقدمة في تاريخ الدولة العثمانية، كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية، بيروت ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م.

(١١) زاهية قدورة: بحوث عربية وإسلامية، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٤.

(١٢) زين زين: نشوء القومية العربية، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٩.

(١٣) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي، كمال سليمان الصليبي، دار المشرق، بيروت ١٩٦٧.

(١٤) عبد الحميد الثاني: مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٩٧هـ ــ ١٩٧٧م.

(١٥) عبد الرحمن سامي بك: القول الحق في بيروت ودمشق (رحلة في أواخر القرن التاسع عشر إلى بلاد الشام) دار الرائد العربي، بيروت، نسخة مصورة ١٩٨١.

(١٦) علي حويلي: تطور التعليم في مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت ١٨٧٨ ــ ١٩٤٥ رسالة ماجستير غير منشورة ــ الجامعة اللبنانية قسم التاريخ، بيروت ١٩٧٩.

(١٧) كامل الداعوق: علماؤنا، بيروت ١٣٩٠هـ ــ ١٩٧٠م.

(١٨) كمال جرجي ربيز: رزق الله عهيد بك الايام باراس بيروت، المطبوعات المصورة، بيروت ١٩٨٥.

(١٩) لحد خاطر: الشيخ بشارة الخوري الفقيه (١٨٠٥ ــ ١٨٨٦) مطابع نصار ــ بيروت ١٩٥٦.

(٢٠) محمد جميل بيهم: فتاة الشرق في حضارة الغرب، بيروت ١٣٧١هـ ــ ١٩٥٢م.

(٢١) الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي: نفحة البشام في رحلة الشام، دار الرائد العربي، بيروت، نسخة مصورة ١٩٨١.

(٢٢) محمد علي باشا: الرحلة الشامية، دار الرائد العربي، بيروت، نسخة مصورة ١٩٨١هـ.

(٢٣) محمد كرد علي: خطط الشام، ج ٥، ٦، مكتبة النوري ــ دمشق، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م.

(٢٤) هنري غيزو (قنصل فرنسا في بيروت): بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن، ج ١، دار المكشوف ــ بيروت ١٩٤٩، تعريب: مارون عبود.

(٢٥) يوسف اسعد داغر: قاموس الصحافة اللبنانية ١٨٥٨ ــ ١٩٧٤، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٧٨.

(٢٦) Debbas, Fouad; Beyrouth, Notre Mémoires, Beyrouth 1986 (Naufal Group)..

الدوريات:

١ ــ أوراق لبنانية (بيروت) م ١، ج ٣، بيروت ١٩٥٥.

٢ ــ أوراق لبنانية (بيروت) م ٢، ج ٦، بيروت ١٩٥٦.

٣ ــ ثمرات الفنون (بيروت) ١٩٠٤.

٤ ــ ثمرات الفنون (بيروت) ١٩٠٥.

٥ ــ ثمرات الفنون (بيروت) ١٩٠٧.

الكرك - نوح



منظر عام لبلدة الكرك.

ودورها السياسي والحضاري في العالم الإسلامي ..

تأليف : د. حسن عباس نصر الله

مراجعة : د. حسين سلمان سليمان

٤٠ ـــ تاريخ العرب والعالم

بالرغم من الروايات التي تذهب بأن النبـي نوح عليه الصلاة والسلام قد دفن في بلدة الكرك، حيث يوجد مزار ما يزال يعرف بـ (قبر نوح) يقصده الناس للتبرك، وبالرغم من أن البلدة لعبت دوراً بارزاً في تاريخ البقاع، فلم يتصد أي مؤرخ لدراسة تاريخها، كما أغفل ذكرها أبناؤها الذين نشأوا في ربوعها، فلم يكتب أحد من الكركيين لمحة عابرة عن مسقط رأسه، بحيث أنه لولا وجود المشهد النوحي واشتهار أمره ابتداء من القرن السابع الهجري لبات صعباً التعرف على هوية الكرك في العصور الإسلامية، مثلما ضاعت ملامح حياتها الفينيقية والرومانية. هذه الدوافع كانت سبباً في جعل د. حسن عباس نصر الله أن ينصرف عن موضوعات اللغة العربية وآدابها، إلى دراسة تاريخ بلدة الكرك نوح في العصور الإسلامية.

التسمية والموقع



كرك نوح: أي مدينة نوح، أو حصن نوح، وقيل كرك لفظة سريانية (كركو) بمعنى حصن أو معقل، وورد أيضاً بالعربية (كِرْكونَوَه) أي مدينة السلام وضبطها العرب بفتح الكاف وسكون الراء، بمعنى الجبل تمييزاً لها عن كرك الأردن بفتح الراء. أما نوح أو (نـوه) فهي اسم عبـري معنـاه الراحـة والطمأنينة أو السلام، ونيح لفظة عامية بمعنى أراح، وتنيَّح استراح. وقد يكون الاسم يعني مدينة الراحة أو حصن السلام. ويقـوي هذا الظن أنها محطة قديمة في طريق القوافل الوافدة من الساحل إلى بعلبك فتدمر. وهذا أمر مألوف بالنسبة للموقـع، لأن الكرك تقـع على تلة عند سفـح الجبل، تشرب من مياه البردوني وكانت الأدغال والغابات تتصل بها من جهة جبل لبنان، بينما يربض سهل البقاع الخصيب عند أقدامها وقد تكون هذه التسميات قد أحدثت لبساً لدى المتـأخرين فـأسموهـا (كرك نـوح) نسبـة إلى نبـي الله نوح عليه السلام وأقاموا له مزاراً، ما زال يعرف بـ (قبـر نوح)، يقصـده الناس للتبرك.

ومما ينبغي الإشارة إليه أنه ليس هناك اتفاق بين المؤرخين حول المكان الذي دفن فيه نوح، فهناك رأي بأنه توفي بثمانين، وهي قرية بناها نوح حيث رست السفينة على جبل الجودي قرب الموصل، والثاني أنه توفي بالهند على جبل بوز، والرأي الثالث أنه توفي بمكة، والرابـع ببـابل (الكوفة)، والرأي الخامس بأنه توفي في «قرية في البقاع فيها قبر يقال إنه قبره» وهذا الأخير رأي سبـط بن الجـوزي في كتـاب مـرآة الزمـان (١:٢٤٤ ـــ ٢٤٥).

تاريـخ الكرك

ولقد دمّرت الكرك قديماً بدليل وجود هـذا الضريـح فيها، وهي تقـع في حفـرة الانهدام أو سورية المجوفة، البقعة التي ضمت قبور أوائل الأنبياء في تاريخ البشرية، منهم أبـو الأنبياء شيت بن آدم (ع)، ثم نوح وحام بن نوح وإلياس وخليفته اليسـع، وهناك روايات تقول إن نوحاً سكن بعد الطوفان مـع أهله سهل البقاع وظل مقيماً حتى وفاته ودفن في الكرك.

وتاريـخ الكرك المدون أتى متأخراً بيد أن بعض الحفريات الخاصة التي يقوم بها السكان تدل على قدم الكرك وأنها كانت عامرة في عهد الرومان واحتمت بحصن منيـع وكانت نقـطة وصـل بين بيـروت الحقوقيـة وبعلبك المملكـة الدينية. وخضعت لسلطة بطليموس بن ميناوس ملك عنجر (خالكيس) الذي حكم البقاع وامتدت سلطته إلى بعلبك.

ثم انتقلت إلى سلطة ابن زينون Zendorus شيـخ المشايـخ Tetrachus وقد استمر حكمه حتى وفاته سنة ٢٠ق.م. وبما أن الكرك كانت من أعمال بعلبك وأحياناً تخضـع لسلطة ملوك عنجر، فلقد تأثرت بالعبادات الوثنية، واتخذت البعل أو جوبتير إله بعلبك رمـزاً لها، إسـوة بـزميلاتهـا تلك القرى القـائمة عـلى السفوح

الشرقية لسلسلة جبال لبنان، حيث وجدت تماثيل جوبتير البعلبكي Jupiter Heliopoliten في اليمونة، وقصرنبا ونيحا.. وهناك تمثال لا يزال قائماً إلى جانب الحائط الجنوبي لمزار النبي نوح، وهو من التماثيل الموجودة في هياكل بعلبك.

فالكرك كانت مدينة محصنة، ويقارب عدد سكانها خمسة عشر ألف نسمة، ولقد جرَّت إليها مياه نهر البردوني، وهناك قناة رومانية، قال عنها عيسى إسكندر المعلوف، بأنها لا تزال قائمة تحت نزل الصحّة.

ولم يأت المؤرخون على ذكر الكرك في أيام الفتوحات، لكنها دخلت تحت راية الإسلام صلحاً وغدت ثغراً يرابط فيه فرسان المسلمين، ومن هناك يغيرون على الساحل اللبناني، فيفتحون ويبيعون غنائمهم من أهل بعلبك رومها وفرسها. ويرجح أن يكون العرب هم الذين شيدوا مزار النبي نوح، ورفعوا مسجداً إلى جواره، فتوافد المؤمنون والنساك يتبركون بزيارة قبره، وأقاموا بجواره يتعبدون حيث نشأت مدرسة مبكرة للفقه الإسلامي في القرن الأول الهجري. ويرجح أن تكون البلدة قد اتخذت مكانة استقلالية، فكانت قلعة حصينة، يقيم فيها حاكم يرتفع إلى رتبة الوالي أحياناً، يرتبط بوالي بعلبك، وقد يتصل بوالي دمشق مباشرة، وإلى جانب الوالي نجد قاضياً يفصل في الدعاوى بين الناس.

ويبدو أن استراتيجية موقع الكرك الاستقلالي جذبت إليها الشيعة منذ الفتح الإسلامي بسبب وجود القبائل الموالية للإمام علي (ع) مع الجيوش التي فتحت بلاد الشام، ودخلت البقاع، فقطنتها قبائل شيعية مثل همذان وخزاعة التي تفرع منها الحرافشة، وربما زارها أبو ذر الغفاري، وبذر فيها محبة الإمام علي. وتنامت مع الزمن فضمت السادة لأن بعض قضاة الكرك، وولاتها اتهموا بالرفض وقتلوا بسبب هذه التهمة، وكثيراً ما جرد ولاة الشام جيوشهم وهاجموا الكرك وقتلوا أهلها ومشايخها بسبب ترفضهم. وحتى الإمام الأوزاعي[1] الذي درس في الكرك يبدو متأثراً بطريقة الشيعة في الرواية عن أهل البيت.

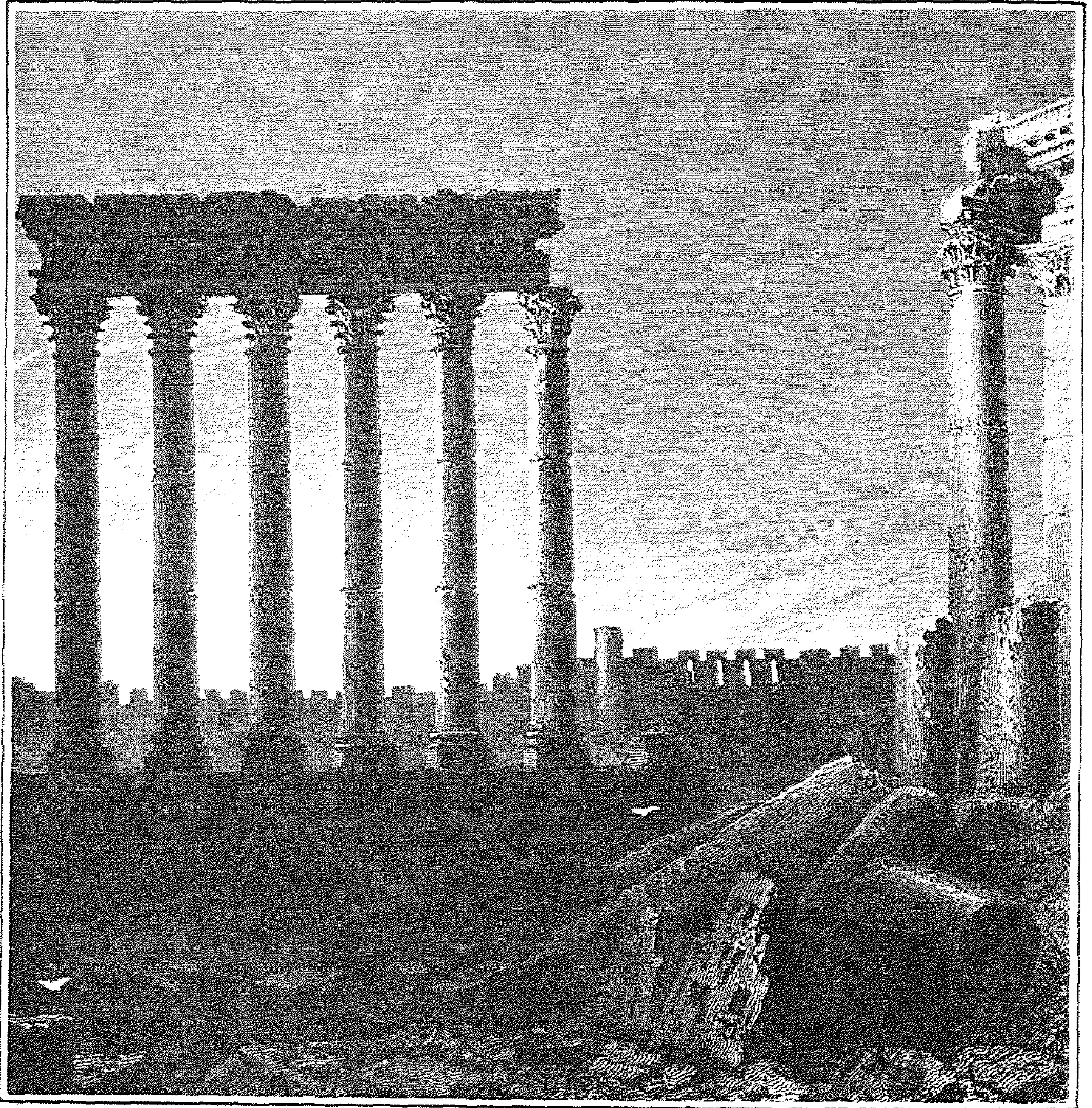
وفي العهد الزنكي، اهتم نور الدين زنكي (٥٦٩هـ) بإنشاء المدارس في دمشق وبعلبك وحماه وحلب، وعرفت بـ (النورية)، ومع أنه لم يشد مدرسة في الكرك، لكنه على الأقل دعم مدرسة الكرك القديمة القائمة في زاوية النبي نوح، كما أوقف أوقافاً على زاوية النبي نوح لكي يطعم منها الوارد والصادر. وفي حين أشار ابن بطوطة إلى أن الأوقاف المذكورة إنما أوقفها السلطان نور الدين على قبر أبي يعقوب يوسف، فإن د. حسن نصر الله يعتقد بأنه لا يصح التكهن بأن قبر نوح هو نفسه قبر أبي يعقوب يوسف، لأن ابن بطوطة ذكر الكرك منسوبة إلى نوح، بل وهم وقال قبر أبي يعقوب يوسف بدلاً من قبر نوح.

أما في العهد الأيوبي فقد اتخذت في هذه الحقبة استقلالية تامة، فغدت شبه مملكة صغيرة تحكم ولاية البقاع العزيزي نسبة إلى العزيز، ولقد فصلت هذه الولاية عن بعلبك، وأحياناً كان يجمع معها البقاع البعلبكي.

وفي عهد صلاح الدين الأيوبي أجريت الصدقات على زاوية النبي نوح للصرف على الوارد والصادر وغدت الكرك ثغراً مهماً يقف بوجه غارات الصليبيين الوافدة من السواحل عبر جبل لبنان. واشتهر أمرها فقصدها الزوار المؤمنون لزيارة ضريح النبي نوح (ع).

أما في عهد المماليك فتشير المصادر إلى أن السلطان الظاهر بيبرس البندقداري قام في العام ٦٥٨هـ /١٢٥٨م بزيارة مقام النبي نوح متبركاً، فأمر بتجديد بناء الضريح، وأولى الكرك عناية خاصة فاستمرت في عهده مركزاً لولاية البقاع العزيزي، يضاف إليها أحياناً البقاع البعلبكي ويحكمها والٍ جليل، كان يتدخل في صراعات ولاة دمشق، ويبادر مع قواته المكونة غالباً من العشائر إلى مناصرة عساكر السلطان.

وحين قدم قيتباي إلى بلاد الشام في العام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م، عرج على الكرك وزار القبر النوحي، وفي عهد محمد بن قيتباي أغار عليها نايب دمشق كرتباي الأحمر ونكل بسكانها وقبض على مشايخها وقتل عدداً منهم.



□ بعلبك وآثارها التاريخية.

ولقد عرفت الكرك في العهد المملوكي ظاهرتين جديرتين بالدراسة والتدوين تكشفان عن أهمية الكرك في هذا العهد.

الظاهـرة الأولى تتمثل بمجمـوعة مـراسيم مملوكية، نقشت على أعمـدة وجدران مسجـد النبـي نوح (ع)، تختزن معلومات مفيدة، وتؤكد الإهمال المتعمد الذي نال هذه البلدة فلم تأت على ذكرها كتب المؤرخين إلا نادراً. ورغم الإهمال نتبين مكانة مرموقة نالتها الكرك، كما أن أهمية البلدة تبدو واضحة من نقش هذه المراسيم على جدران مسجدها، ومضامين هذه المراسيم تعالـج قضايا ترتبط بالسكان المحليين. فنجد مرسوماً صادراً سنة ٧٧٩هـ يلغي ارتفاع الأسعار، يليه آخر صادر سنة ٧٨٠هـ يبطل المظالم الضرائبية وينص على اسم والي الكرك، في حين يكشف مرسوم سنة ٧٩٤هـ. عن رواج صناعة النسيـج في الكرك، حتى أن بعض الولاة فرضـوا على الحياكين ضرائب باهظة، ولما احتـج الحياكون لدى المراجـع المختصة صدر قانون يلغي هذه المظلمة،ومرسوم صادر في سنة ٧٩٥ يحدد قيمة الضريبة المفروضة على المدينة. تلاه مرسوم سنة

٧٩٦ ينظم المصروفات على العنصر البشري المتواجد في مدرسة الكرك التي قامت بجوار مرقد النبي نوح، ويرينا حركة حشد من الناس تزاحموا حول الضريح، ونقرأ حروف ازدهار علمي، يضم الشيوخ والطلاب والفقراء والمؤذنين والخطباء والمجاورين من الزهاد والمتصوفة، يصرف عليهم مبلغ خمسة آلاف درهم من أوقاف النبي نوح.

والظاهرة الثانية هي بروز أسرة الحنش البدوية البقاعية، وهي أسرة قيسية الولاء شافعية المذهب، ظهرت في البقاع العزيزي في أواخر القرن الثامن الهجري. وليس هناك ما يشير إلى كيفية تمكن هذه الأسرة من تكوين ملامح نفوذها في مراحله الأولى في المنطقة، إنما قد تكون اعتمدت في ذلك على عنصر الشجاعة، وحسن السياسة في قيادة بعض عربان حمص والبقاع، ومصاهرة مشايخ القبائل أمثال جانباي البدوي أمير الشام الذي تولى بلاد حوران والمرج.

ومن المرجح أنهم كونوا، في باديء الأمر، زعامة شعبية، وفرت لأحد رجالهم علاء الدين بن الحنش الأول لقب شيخ العشير وهو الذي يقود الفلاحين والبدو في المهمات العسكرية. ثم ارتقى علاء الدين بن الحنش الثاني إلى رتبة طبلخانة[٢]، منحه إياها السلطان برقوق يوم جرّده إلى محاربة تركمان كسروان، وبفضل خدماتهم نالوا مقدمية البقاع العزيز، وتلقبوا بالأمراء.

ويلاحظ أن كتب التراجم قد أهملت أعلام هذه الأسرة، فلم يذكرهم ابن حجر[٣] العسقلاني الذي ترجم للأعلام في القرن الثاني للهجرة وضمنهم أمراء الطبلخانة، وأغفل ذكر علاء الدين بن الحنش الذي حظي بهذه الوظيفة وقتل سنة ٧٩٣هـ، وحذا حذوه عبد الرحمن[٤] السخاوي في تراجم القرن التاسع، وأهملهم أيضاً نجم الدين[٥] الغزي في رجال القرن العاشر، وأتى على ذكرهم عرضاً مرة واحدة عندما ترجم لمنصور بن الفريخ وقال عنه «أمير البقاع العزيز بعد أولاد الحنش».

وقد يكون هذا الإهمال ناتجاً بسبب نمط الحياة التي عاشها آل الحنش، فقد حافظوا في حياتهم على تقاليد قبلية فأحبوا الترحال من بلدة إلى أخرى، فكانت إقامتهم تتبدل من بعلبك إلى كرك نوح فقب إلياس فمشغرة فصيدا. هذه الحياة المضطربة كانت سبباً في تقليص نفوذهم، إذ لم يتمكنوا من حشد قوة ضاربة، ومؤيدة تنطلق من قاعدة ثابتة. فعاش مقدموهم بين كر وفر حتى أن سلطتهم كانت تلغى نهائياً من قبل نواب دمشق. وكثيراً ما قاد النواب جيوشاً لتأديب آل الحنش المتمردين على مراسيم السلطة الشرعية اللاغية لسلطتهم.

وأقدم مصدر أتى على ذكر آل الحنش، مرسوم سلطاني صادر بتاريخ العشر الأخير من سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م، ومنقوش على حجر فوق الباب الجنوبي الغربي في مسجد كرك نوح، يفيدنا أن بعلبك كانت نيابة، بينما كان البقاع مقسماً إلى عملين مركزهما كرك نوح، يدير شأنهما أبو بكر حسن ابن الحنش.

وفي العام ١٣٨٩ قامت ثورة في بلاد الشام قادها الزعيم المملوكي منطاش ضد السلطان برقوق (١٣٨٢ ـ ١٣٨٩، ١٣٩٠ ـ ١٣٩٩)، فعين ابن الحنش حاكماً على نيابة بعلبك بدلاً من نائبها الذي التحق بمنطاش. ولكن الأخير سرعان ما تمكن من السيطرة على دمشق وسمى حكاماً على مدن الأقاليم الشامية، لكن علاء الدين الحنش أبى أن يقدم له الولاء، وتقدم على رأس قواته إلى بعلبك فاحتلها وعاث فيها فساداً ونهبها. فوجه منطاش جيوشاً لمواجهتهم وإخراجهم من المدينة بالقوة، وبعد حصار استمر أربعة أشهر استسلمت المدينة صلحاً، وجرى أسر علاء الدين وعدد من أتباعه فاقتيدوا إلى دمشق، حيث نفذ فيهم جميعاً حكم الإعدام. وما لبث أن قتل ابنه علاء الدين الثاني الذي جمع قوات من عشائر القيسية بهدف الانتقام لوالده، لكن قوات منطاش تمكنت من هزيمته والقضاء عليه وعلى كل أعوانه، وكان ذلك في يوم الخميس ٢٧ شعبان سنة ٦٩٣هـ / ٣٠ تموز سنة ١٣٩١م. وبمقتله غابت أخبار بني الحنش لتظهر عرضاً في تاريخ بيروت، بذكر علاء الدين بن الحنش الثالث الذي ناصر آل بحتر أمراء الغرب. ثم توارت أخبارهم لمدة نصف قرن، وأطلت لما كان القرن التاسع

الهجري يلفظ أنفاسه بخبر يفيد أن ناصر الدين بن الحنش شارك في معركة إلى جانب نائب الشام في العام ٨٩٣هـ.

وأشهر من برز في الأسرة الحنشية في مطلع القرن العاشر الهجري، ناصر الدين محمد بن الحنش الذي يعتبر أشهر أمرائهم، وأبعدهم طموحاً، فغدا مقدم البقاع العزيز ونال نيابتي حمص وصيدا، واستطاع أن ينتزع لصهره ابن جانباي البدوي أمير الشام، بلاد حوران والمرج، وطمح إلى نيابة دمشق فأكثر من العصيان. لكن كثيراً ما ساءت علاقة ناصر الدين مع نواب المماليك في بلاد الشام، وذلك بسبب طموحاته وسعيه إلى تقوية نفوذه المحلي، وتبدل نواب الشام وجشعهم في جباية الأموال، فيضطر إلى الفرار من وجههم وبالتالي تتعرض قرى البقاع للنهب والتخريب. إلى أن كان عهد نايب دمشق سباي، فما إن وصل الآخر إلى دمشق حتى نشب الخلاف مع ابن الحنش، وحين فشلت جهوده بالقبض على الأخير، توسط أمراء دمشق في النزاع فتم الوفاق على مبلغ يدفعه ابن الحنش. فقوي نفوذ الأخير وتولى نيابة صيدا إلى جانب مقدمية البقاع، وقام في العام ٩١٧هـ بزيارة نايب دمشق الذي رحب به.

وحين قدم السلطان العثماني سليم الأول لاحتلال بلاد الشام، وقف ناصر الدين بن الحنش إلى جانب المماليك، وهرع إلى دمشق لاستقبال السلطان قانصوه الغوري الذي وفد للدفاع عن بلاد الشام، وكان ابن الحنش من جملة الأمراء الذين استقبلوا الغوري ثم قدم له ما لا يقل عن ألف دينار، وهدايا عينية من خيل وزيت وعسل ومواش وطيور، كل ذلك طمعاً برضا السلطان وتمهيداً للحصول على نيابة دمشق وحين تنامى إلى ابن الحنش مقتل السلطان المملوكي قانصوه الغوري في معركة مرج دابق، تقدم من جان بردي الغزالي الذي ضبط الأوضاع في دمشق مع فرسانه، وتطوع لحماية البلاد من حماه إلى حمص فالبقاع يدرأ عنها خطر السلطان العثماني. ولكن هذا التطوع لضبط البلاد المذكورة لم يكن بدون أي مقابل، فقد اشترط ابن الحنش على جان بردي الغزالي شرطين.

١ ــ أن يقتل جان بردي الغزالي سجينه المقدم علاء الدين بن العماد المقدسي، الشهير بابن علاق، وهو عدو لدود لابن الحنش.

٢ ــ أن يحيل الغزالي إلى ابن الحنش نيابة حمص.

وبالفعل فقد نفذ الغزالي الشرطين المذكورين، لكن السلطان العثماني سليم الأول لم يتح لابن الحنش فرصة الاستفادة من تولي نيابة حمص، ذلك أن السلطان المذكور كان قد احتل حماه وحمص وبدأ يستعد للزحف على دمشق.

وحين دخل السلطان سليم إلى دمشق، كان ناصر الدين بن الحنش من بين الأمراء الذين قدموا على السلطان لتقديم فروض الطاعة، فرحب به السلطان وألبسه خلعة(٦) وأعطاه سنجقاً وأبقى له لقب المقدم وأقطعه عدة إقطاعات.

ومع ذلك فقد ظل ناصر الدين ابن الحنش يبدي الحنين إلى المماليك، أسياده الأول، فما ان انتقل السلطان سليم إلى مصر، استمر ناصر الدين في الظاهر يبدي ولاءه للعثمانيين، خائفاً من سلطتهم وقوتهم الفتية، لكنه كان في السر يثير الأراجيف ضدهم، كما استقبل بعض مسؤولي المماليك الفارين من وجههم.

ولم تكن هذه التحركات بخافية على العثمانيين، ولذا فقد استاء السلطان العثماني ونقم على ناصر الدين الحنش، فأمر في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٩٢٣هـ بتجريده من مناصبه، وأعطاها للأمير محمد بن قرقماس، فولاه نيابة بيروت وصيدا، وأن يكون مقدماً على البقاع وما يتبعها، وأشاع بأنه ينوي التوجه إلى البقاع للقبض على ابنه الحنش وعلى من عنده من المماليك الفارين. ولكن ما إن ترامى إلى علم ناصر الدين بأن السلطان قد حرك قوات للقبض عليه، حتى تواری واختفى عن الأنظار.

وفي الخامس من صفر ٩٢٤هـ / ١٦ شباط ١٥١٨ م غادر السلطان سليم دمشق عائداً إلى استامبول، بعد أن ترك حاكماً على بلاد الشام جان بردي بن عبد الله الغزالي، من زعماء المماليك في بلاد الشام سابقاً. فتشجع ناصر الدين بن الحنش وعاد إلى الظهور على المسرح السياسي لبلاد الشام مجدداً، وحاول



□ السلطان سليم الأول

التقرب من نايب الشام الغزالي، فأرسل وفداً لمقابلة الأخير طالباً منه أن يعفو عنه ويسمح له بالعودة إلى ممارسة وظائفه السابقة. وتظاهر الغزالي بالموافقة على إصدار عفو عن ناصر الدين وإعادته إلى وظائفه السابقة، لكنه اشترط مقابل تنفيذ ذلك، أن يستسلم له الزعيم الحنشي ويقدم الخضوع والولاء. وبالفعل انطلت الحيلة على الأخير، وتمكن الغزالي من القبض عليه، فأمر بقتله مع شخص آخر من مشايخ العربان يقال له ابن الحرفوش، وأرسل رأسيهما إلى السلطان سليم الذي كان لا يزال في حلب، وهو في طريقه إلى استامبول.

وبنهاية ناصر الدين بن الحنش أحال جان بردي الغزالي حكم البقاع إلى والٍ جديد يدعى يوسف بن سنان الرومي، لكن الغزالي ما لبث أن أقاله من منصبه في شهر ذي القعدة سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م، ذلك أن وفاة السلطان سليم الأول شجعت ناصر الدين الغزالي على الاستقلال بحكم ولاية الشام عن السلطنة العثمانية، ورأى أن تحقيق ذلك يتطلب التفاف العصبيات المحلية في المنطقة إلى جانبه، فأصدر أمراً بجعل أحمد بن ناصر الدين الحنش والياً على البقاع، وطلب من الأخير مساندته في الثورة على العثمانيين. واستجاب الأخير للعرض وقاد عربانه وقاتل إلى جانب الغزالي، كما شارك رجال أحمد الحنش في حصار الغزالي لمدينة حلب.

ولكن بهزيمة جان بردي الغزالي في ٢٦ صفر ٩٢٧هـ / ٦ شباط (فبراير) ١٥٢١م وما تلى ذلك من مقتله وإرسال رأسه إلى الآستانة، اختفت أخبار المقدم أحمد بن الحنش، وغابت أخبار بني الحنش مدة خمسين سنة، لتظهر في وثيقة عثمانية تفيد بأن محمد بن الحنش هو أحد زعماء التيمار(٧)، وبأنه منح خمس حاصلات قرية رقادة في نيابة كرك نوح، بالإضافة إلى مزرعتي تل ابن حسين، ودير الاماسي في الناحية نفسها. ثم غابت أخبار آل الحنش وانتهى دور هذه الأسرة التي عاشت بين ظهور وأفول، ولم تتمكن من فرض سيطرتها بشكل فاعل ولم تعرف حياة الاستقرار.

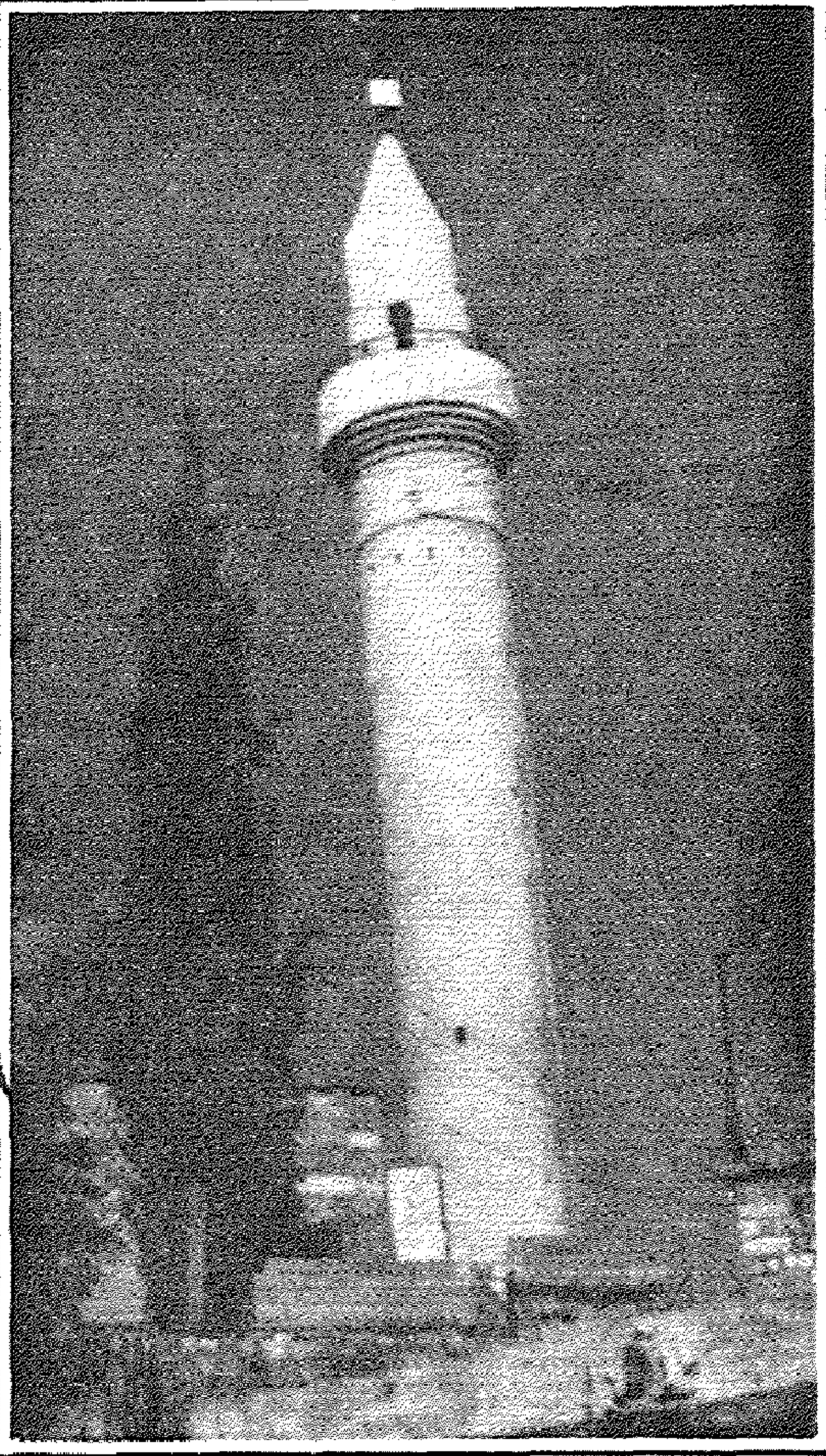
وبانتهاء سلطة آل الحنش انتقل الحكم في البقاع العزيز إلى آل فريخ البدو من عرب البقاع، ومنصور بن الفريخ هو أول من حاز منصب أمير في هذه الأسرة، حيث كوفىء على ضبطه الأمن في البقاع ومطاردته اللصوص وقطاع الطرق فعهد إليه بحكم البقاع العزيز، وقاتل الدروز وألبَّ عليهم إبراهيم(٨) باشا الذي قاد حملة اجتاحت الشوف وأجبرت الأمير قرقماز المعني إلى الاختفاء في كهف حيث قضى مختنقاً. ويرجح أن منصور بن الفريخ لم يقم في الكرك نوح بل تحول عنها إلى قب إلياس وبوارش حيث بنى قصوره وقلاعه، ولقد قبض عليه والي دمشق مراد باشا بدسيسة من الأمير فخر الدين المعني، وقتله نهار الثلاثاء ١٣ ربيع أول سنة ١٠٠٢ / ٧ كانون الأول ١٥٩٣، كما قضي على ابنه قرقماز بعد ذلك بعام نتيجة مؤامرة أعدها أمير جبل الدروز فخر الدين المعني وحاكم بعلبك موسى الحرفوش، فانتقل حكم البقاع العزيز وكرك نوح

إلى الأسرة الحرفوشية.

ويعود تاريخ تواجد آل الحرفوش في كرك نوح منذ عهد آل الحنش واستمر في عهد منصور الفريخ، ولقد نما نفوذهم في هذه البلدة مما ساعدهم على تسلم زمام الحكم في بعلبك ومشغرة فيما بعد، ولقد حشد فيها الأمير يونس الحرفوش عدداً من رجاله وسكبانه[٩] لتكون ثغراً يدرأ خطر المعنيين عن امارة الحرافشة، وفي العام ١٦٦٢ وفيما كان يونس الحرفوش غائباً عن الكرك هاجمها الأمير فخر الدين المعني وأمر رجاله بنهبها وإحراقها. لكن أمراء آل الحرفوش عادوا وجددوا بناءها، فبفضل موقعها الهام على حدود امارتهم، كانت بمثابة ملاذ أمرائهم عند حلول الملمات، كما كانت تخرج من أيديهم عندما تغضب السلطات العثمانية عليهم، فتوعز والي الشام أن يمنح حكم بعلبك والبقاع إلى أمراء محليين، أو ولاة يدفعون مبالغ طائلة من المال.

ناحية كرك نوح

وكما أشرنا فإن الكرك كانت مركز ولاية البقاع العزيزي وكان يقيم فيها والٍ في حين لم يكن يقيم في ولاية البقاع البعلبكي، نسبة إلى قرية بعلبك، والٍ، ذلك أن بعلبك كانت نيابة في العهد المملوكي. وأمدتنا دفاتر الطابو العثمانية بأسماء القرى التابعة لناحية كرك نوح، مع إحصاء لعدد الأسر (خانة) والعازبين (مجرد) وائمة المساجد (إمام) والخطباء والسادة الأشراف، وتميز بين النصارى والمسلمين مع ذكر أصحاب العاهات العاجزين عن العمل. وهذه الإحصاءات تكشف عن تبديل في أسماء بعض القرى، فعلى سبيل المثال فإن براق البصل هي (رياق) اليوم، وأشرفية هي (علي النهري)، وبيت نائل (بدنايل). وهناك قرى اندثرت واختفت مثل: بحوشين التي تحولت إلى كروم وحقول في خراج الكرك. كما يتبين بأن القرى التالية كانت مشتركة بين المسلمين والمسيحيين، وتحولت مع الزمن إلى قرى مسيحية صرفة: دير الأحمر، عيناتا، الفرزل، وكان في هذه القرى مساجد وخطباء، وكانت الفرزل تضم إمامين مع سيد شريف، في حين كان سكان زحلة جميعهم من المسلمين.



□ المئذنة والمشهد النوحي في الكرك.

الحركة العلمية في الكرك

ويستشف من مصادر ترجمة الإمام الأوزاعي، أنه نشأت في الكرك مدرسة علمية مبكرة قامت بجوار ضريح النبي نوح، كان يتواجد فيها الزوار والمجاورون والطلاب، ولقد غابت أخبار هذه المدرسة في القرون الأولى ولم تلق اهتماماً في العهد الزنكي حيث صدرت مراسيم إنشاء المدارس (النورية) في حدود سنة ٥٥٢هـ والسنوات التي تلتها، في دمشق وبعلبك وحمص وحماه وحلب، وربما كان التجاوز بسبب تشيع أهل الكرك. وفي عهد المماليك استعادت الكرك نشاطها وكثر الطلاب، الذين كانوا يستفيدون من الأوقاف الوفيرة التي حبست على مؤسسة الكرك، مقام النبي نوح والمسجد والمدرسة، ولقد سكتت المصادر عن هذا النشاط

أيضاً، مثلما سكتت مصادر العصور السابقة. بيد أنه يستخلص من مرسوم صدر عن السلطان برقوق سنة ٧٩٦هـ، ونقش على عمود داخل مسجد الكرك ونصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، رُسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري أعلاه الله تعالى وشرّفه، أن يُستمر ما شملت الصدقات الشريفة: الخطيب والمؤذنين والقراء والطلاب والمجاورين بحرم سيدنا نوح عليه السلام من مال البلد المذكور وهو في كل سنة خمسة آلاف درهم وينقش ذلك عند رأس نبي الله...».

هذا النص يكشف عن وجود حركة علمية ناشطة ضمت الخطباء والمؤذنين والقرّاء والطلاب والشيوخ والمتصوفة والزهاد* من المجاورين، وتواجد هؤلاء في الكرك يعني، أن ازدهار البلدة، ورواج الثقافة، لم يكونا وليدا الساعة. فالمرسوم نفسه يؤكد قدم هذا النشاط باستخدامه كلمة (يُستمر)، ويسعى بذلك إلى الحفاظ على استمرارية تراث قديم وموروث.

ولقد ازدهرت مدرسة الكرك في القرنين العاشر والحادي عشر وبلغت درجة مرموقة، من حيث عدد العلماء والطلاب، وأنواع العلوم التي تُعطى وطرق التدريس، فقصدها طلاب المعرفة من مختلف الأقطار وخصوصاً من جبل عامل، أمثال الشهيد الثاني زين الدين الجبعي الذي رحل إلى الكرك طلباً للأخذ عن مشايخها يرافقه الشيخ حسين بن عبد الصمد والد البهاء.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن النهضة العلمية التي شهدتها الكرك في القرنين العاشر والحادي عشر، لم تقتصر نتائجها الإيجابية على الكرك والبقاع، بل اندفعت تياراتها الزاخرة بالعلوم، تجتاز البلاد العربية إلى إيران، حيث غادر قرابة ثلاثين عالماً مسقط رأسهم الكرك، على امتداد قرنين، ودخلوا بلاد إيران، حيث كانت قد قامت في تلك البلاد الدولة الصفوية، واحتاجت إلى فقهاء لتعليم الناس أمور دينهم وتسلم القضاء. ولقد استقر المهاجرون الجدد في إيران، ونالوا لقب التبريزي أو الأصفهاني أو القزويني إلى جانب لقبهم الأساسي الكركي، وأخذوا على عاتقهم تنظيم الدولة الجديدة على أسس الإسلام الحق، ونال علماء الكرك مراتب عالية في الدولة الصفوية منها: الأمير وشيخ الإسلام في أصفهان ونائب الإمام والمفتي ومروّج المذهب وشيخ الإسلام في طهران.

كما لعب الكركيون دوراً فعالاً في تنظيم الحياة العلمية والثقافية والاقتصادية والعمرانية في إيران إذ فتحوا المدارس، وصرفوا على الطلاب، ونظموا الخراج والقضاء، وضبطوا اتجاه القبلة في أكثرية بلاد العجم وهندسوا المساجد والمآذن والقباب، وحثوا الناس على الالتزام بالدين، وألفوا الكتب وردوا على رهبان النصارى.

فالمحقق الكركي الذي ظهر في (هرات) سنة ٩١٦هـ، ودخلها مع الشاه طهماسب، قام بوضع الأسس الشرعية الدستورية لدولة الصفويين، ولم يفرق بين السياسة والدين، بل قال بالتلازم بين شؤون الدين وشجون السياسة. ووضع خطة العمل لبناء دولة إسلامية، دستورها الشرع الحنيف. فعمل بمبدأ التسامح، ورفض العنف الذي يعتمده الملوك والحكام لبسط نفوذهم، وقهر المعارضة، فدعا إلى الاحتكام إلى العقل والمناظرات.

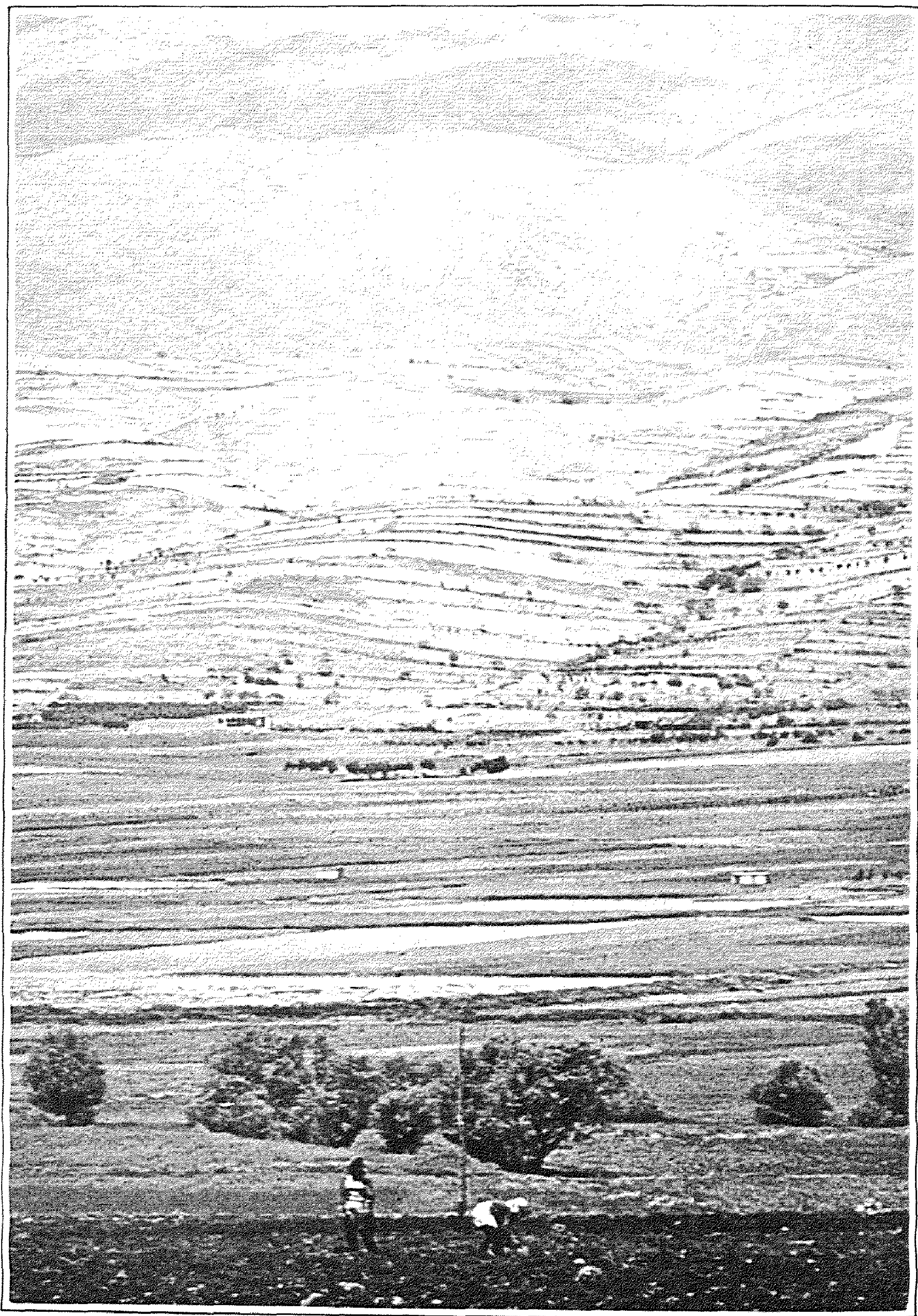
وكتب إلى علماء الكرك وجبل عامل وحثهم على النهوض إليه، ولما توفر لديه عدد من رجال الدين المخلصين أخذ يوجه النشاط الديني في إيران كلها، من خلال مجموعة من العلماء مؤمنة ومدربة على العمل الاجتماعي والسياسي.

ويمكننا أن نرد ازدهار الحركة العلمية في الكرك خلال هذه الحقبة إلى أمور منها:

١ ـ انتهاء حكم المماليك الذين لاحقوا الشيعة وشردوهم، وقد تمت آخر حملة ضدّهم في عهد محمد بن قيتباي في العام ٩٠٤هـ، إذ قتل نائبه على الشام كربتاي الأحمر عدداً من مشايخ الكرك.

٢ ـ انتقال السيطرة في البقاع من أسرة آل الحنش السنية إلى الأمراء الحرافشة الشيعة، وبروز بعض العلماء من الحرافشة.

٣ ـ الأوقاف الخيرية التي قدّمها الأمير محمد بن ناصر الدين الحنش إلى النبي نوح في العام ٩٥٠هـ، واشترط أن تصرف على المجاورين والعابدين.



□ سهل البقاع بخيراته الكبيرة.



□ الباب الجنوبي للمسجد ــ الكرك

المعالم الأثرية

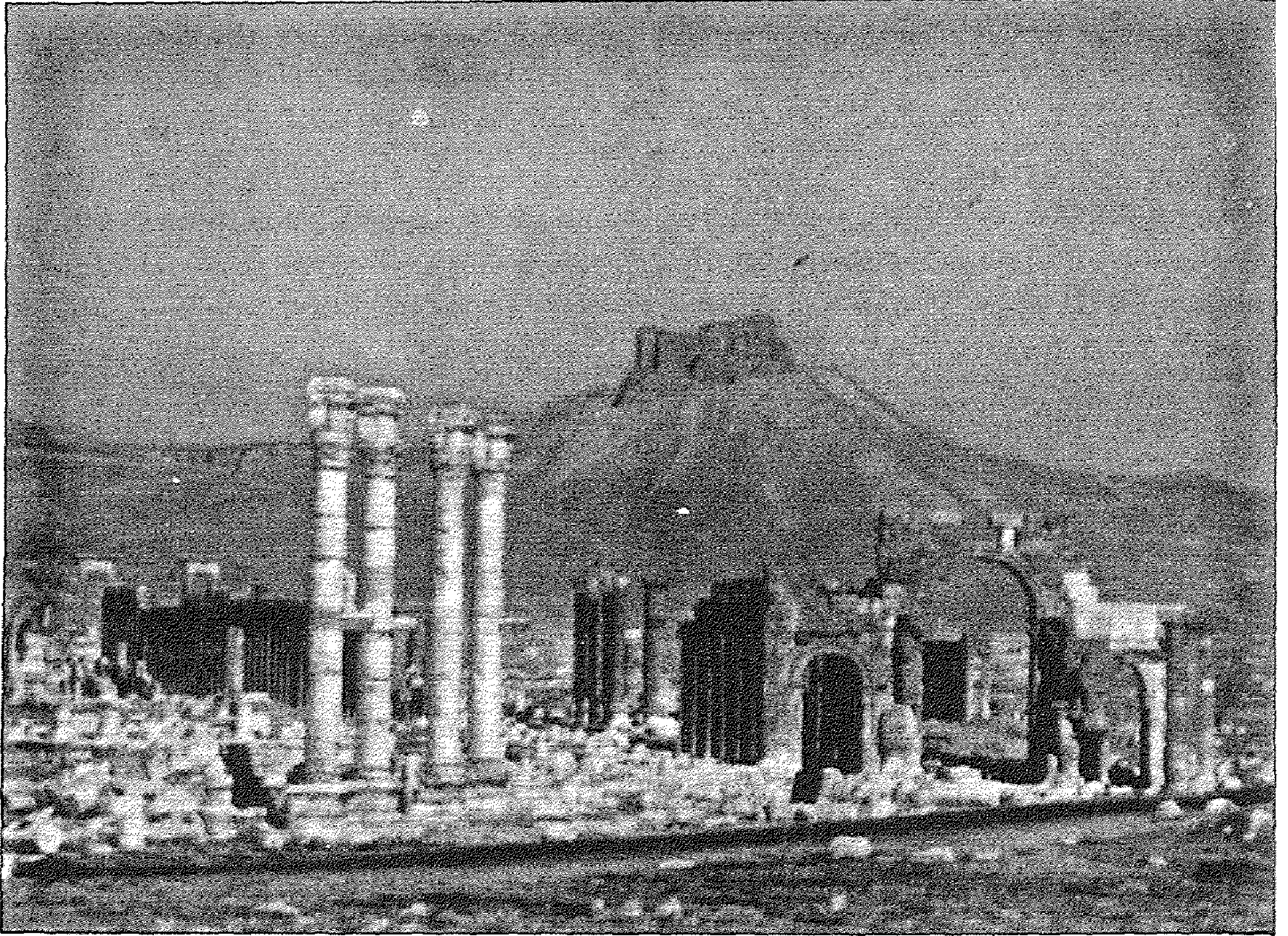
لا تزال الكرك القديمة مدفونة تحت التراب، والحفريات الخاصة التي يقوم بها السكان تكشف أحياناً عن مدينة رومانية مسوّرة، جرّت إليها مياه البردوني وصبت في خزانات، ثم انطلقت في قنوات فرعية كانت تستخدم لتوزيع المياه على المنازل والأحياء. وفي صحن المسجد تمثال حجري منقوش وهو من نوع التماثيل الموجودة في هيكل باخوس في بعلبك، كما وجدت في البلدة كتابات رومانية تدل على أن الكرك كانت مدينة رومانية محصنة.

ويعتبر مزار النبي نوح من أهم معالم البلدة الأثرية، وهو ضريح حفر في الصخر، يمتد أربعين ذراعاً، إلى قرابة ثلاثين متراً عليه بناء قديم رمم مراراً وقد وصف المقام الرحالة عبد الغني[١٠] النابلسي الذي زار بعلبك والبقاع في العام ١١٠٠هـ/١٦٩٨م. قال: «... فوق قبره جبلون من الخشب بمنزلة السفينة المقلوبة، وقد صفت فوقها الكراميت من الفخار المشوي كأسطحة بلاد الروم، وحول القبر درابزينات منصوبة، وذلك القبر في صحن الجامع المبلط بالأحجار، وحول ذلك الصحن جدران الجامع مبنية بالحجارة المنحوتة. وفيها شبابيك الحديد تطل من العلو على تلك المروج والأقطار، والجامع مبني مع القرية فوق الجبل، وفيه محراب ومنبر، وله منارة لطيفة فوق رأس القبر، بها ذلك الحسن اكتمل، وربما قال مؤذنها مكان حي على الصلاة، حي على خير العمل.

وفي طرف الجامع قبة مبنية من الحجارة المنحوتة، وتحت القبة فسقية يجري فيها الماء من ماء القرية، تطل تلك القبة على تلك الجهات المنحوتة».

وعلى الجانب الغربي من المزار قام المسجد، وطوله أربعة عشر متراً وعرضه عشرة أمتار، له محراب جميل، وبوابتان قديمتان في الجدار الجنوبي، الأولى عن يمين المحراب والثانية عن يساره، وحجارتهما متوسطة الأحجام ومنحوتة تعلوهما كتابات قديمة لكنها مهشمة. وله بوابة ثالثة في الجدار الشرقي تكون مدخله الحالي وتفضي إلى الصحن المبلط، وفيه صفان من الأعمدة كل صف يتكون من عمودين الأول عن يسار المحراب عليه كتابات ونقوش من عهد المماليك، هي عبارة عن مراسيم تتعلق بالأوقاف. ويستنتج من وصف النابلسي للمسجد القديم أن التعديلات قد أصابته مع الزمن، لقد ألغي المنبر، كما ألغيت المئذنة القديمة التي كانت تنتصب في زاويته الشمالية عند رأس القبر، وتحول مدخلها إلى خزانة صغيرة، ونقلت إلى طرف المقام من الجهة الشرقية (عند اقدام القبر). هذه المئذنة الشاهقة استخدمت أيام السلم لإعلان الآذان، لكنها اتخذت أيام الحروب، معقلاً يتحصن به المدافعون عن القرية. أما جدران الصحن وشبابيكه والقبة والفسقية فقد اندثرت جميعها، حتى أن الماء الجاري قد جف وعلى الأرجح أن يكون الجامع اتخذ شكله الحالي بعد زيارة النابلسي بربع قرن تقريباً.

وكما سبق وأشرنا فإن المكانة التي احتلها مزار النبي نوح في نفوس المؤمنين، والحكام دفعتهم وفرضت عليهم تقديم الصدقات والهبات، تصرف على الزهاد والمجاورين. وتوالت الوقفيات مع الزمن، ابتداء من تنكز الحسامي في العام ٧٣١هـ، حتى وقفية الأمير ناصر الدين الحنش



□ آثار مدينة تدمر الجميلة

المؤرخة في الثاني والعشرين من شهر رجب سنة ٩٥٥هـ/١٥٤٣م، وضمت كثيراً من الطواحين والبساتين والحقول... واشترط أن تصرف على عمارة النبي نوح، وأماكنه، وتنويره وفرشه، ومطبخه لإطعام المجاورين والواردين والمنقطعين والمتولي والناظر، وأرباب الشعائر والإمام والخطيب والمؤذنين والخدم.

أما من حيث الحياة الصحية فلم تذكر المصادر دوراً للاستشفاء في الكرك، وكل ما ورد ذكره عن أحد أعلامها الشيخ حسين بن شهاب الدين الكركي (١٦٠٣ ــ ١٦٦٥)، قيل إنه اشتغل بالتطبيب، ولقب بالحكيم لأنه كان يداوي المرضى. ومع أنه رحل إلى إيران والهند، فقد مارس الطب في مسقط رأسه الكرك وترك مؤلفات طبية أشهرها:

١ ــ كتاب الطب الكبير.

٢ ــ كتاب الطب الصغير.

وهكذا أتيح لبلدة الكرك نوح، أن تلعب دوراً سياسياً وحضارياً في تاريخ المنطقة والعالم الإسلامي، بحيث لم يقتصر دورها على أن تكون مركزاً إدارياً للبقاع العزيزي، وإنما أيضاً مشعلاً فكرياً حمله أبناؤها حيثما حلوا لكشف ظلمات الجهل.

تلك ملامح عامة لأهم ما جاء في دراسة د. حسن نصر الله عن تاريخ كرك نوح، وفي الواقع فقد تمكن الباحث من خلال هذه الدراسة القيمة أن يسد فراغاً في المكتبة التاريخية. فالكتابات عن تاريخ مدن وقرى البقاع هي نادرة للغاية، بسبب صعوبة جمع المادة العلمية التي يجب أن تتوفر بين يدي الباحثين، ذلك أن معظم المصادر الأجنبية والمحلية التي تناولت تاريخ لبنان في مختلف عهوده، إنما ركزت على تاريخ المناطق الساحلية والمرتفعات الغربية المطلة على البحر، في حين أهملت للغاية تاريخ المناطق اللبنانية الداخلية.

وهناك بعض الملاحظات التي بدت لنا من خلال قراءتنا «تاريخ كرك نوح» سوف نحاول إبرازها لكي يتسنى لهذا العمل الفكري أن يصل

إلى درجة الكمال، إذا أعيد طبعه للمرة الثانية.

١ ــ أن أسلوب كتابة هذه الدراسة جاف وغير متماسك البنيان وتحتاج الموضوعات التي عالجها المؤلف إلى ربط.

٢ ــ هناك تكرار واضح لكثير من الموضوعات، كما أنه كان بإمكانه التخلص من كثير من الاقتباسات الواردة في النص وإعادة كتابتها بأسلوبه الخاص.

٣ ــ هناك الكثير من المصطلحات التي ترد في النصوص تحتاج إلى إيجاد تفسير لها.

٤ ــ التاريخ بالسنة الهجرية يجب أن يشير إلى ما يقابله بالسنة الميلادية، وهذه الناحية غابت عن كثير من الموضوعات، فهو حيناً يؤرخ بالتاريخ الهجري ويشير إلى ما يقابله بالتاريخ الميلادي وأحياناً أخرى يهمل هذه الناحية إهمالاً تاماً.

٥ ــ لقد عاد د. نصر الله إلى أمهات المصادر الأولية أثناء إعداد هذه الدراسة ولكن غابت عنه بعض المصادر الأولية الأخرى سوف نحاول أن نذكرها له مثل مينادوا[١١] والدويهي[١٢] والبوريني[١٣] وابن سباط[١٤]، ومن المراجع المهمة هناك بحث أعده د. كمال الصليبي وفرنسيس هورس[١٥] عن آل الحنش وأهميته بأنه تمكن من العودة إلى تقارير قناصل البندقية الذين كانوا متواجدين في مدينة دمشق أثناء الفتح العثماني لبلاد الشام، لذا فهذا البحث يلقي أضواء جديدة على أسرة آل الحنش والدور الذي لعبته خلال السنوات الأولى من الحكم العثماني لبلاد الشام. كما أن هناك رسالة دكتوراه عن آل الحرفوش وغيرهم من الأسر الشامية، وهي في غاية الأهمية نظراً لأنها أمدتنا بمعلومات جديدة على ضوء مصادر محلية وعثمانية وأجنبية معاصرة للفترة موضوع البحث[١٦].



الحواشي

(١) الإمام الأوزاعي. هو عبد الرحمن بن يحمد الأوزاعي، أجمعت المصادر القديمة على أنه ولد في بعلبك سنة ثمان وثمانين، ونشأ في البقاع في حجر أمه، وكانت تنتقل به من بلد إلى بلد وتأدب بنفسه. ويميل د. حسن نصر الله إلى الاعتقاد أن الإمام الأوزاعي نشأ في حاضرة البقاع (كرك ــ نوح) وعاش مع أمه من الصدقات التي تمنح للمجاورين من الزهاد والمتصوفين وطلاب العلم. انظر ص ٨٣ من تاريخ كرك ــ نوح؛ في حين يذكر الشيخ طه الولي في مقالة عن الأوزاعي نقلاً عن مقال لمحمد كرد علي بأن الإمام الأوزاعي ينسب إلى قرية الأوزاعي في قلب دمشق على مقربة من باب الفراديس **المقاصد** (٢١:١ ــ ٢٩) كانون الثاني (يناير) ١٩٨١؛ ويذكر صالح بن يحيى بأن مذهب الإمام الأوزاعي عمل به بالشام نحو مائتي سنة، وعمل به في الأندلس ما يقارب الأربعين سنة، ولقد توفي الإمام الأوزاعي في منزله وزاويته في باطن مدينة بيروت (أول سوق الطويلة حالياً)، ولقد دفن في قرية حنتوس المعروفة بمنطقة الأوزاعي حالياً. لمزيد من المعلومات انظر: حسان حلاق. أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني، المركز الإسلامي للإعلام والإنماء، بيروت، ١٩٨٥، ص (١٠٣ ــ ١٠٤)؛ داوود كنعان. بيروت في التاريخ، وطبعة عون، بيروت، ١٩٦٣، ص ١٩ ــ ٢٠.

(٢) الطبلخانة. لفظة فارسية الأصل بمعنى الطبل، وهي في العهد المملوكي لقب كان حامله برتبة أمير اربعين ومقدم مائة، وكان يحق له أن تدق الطبول له لرفعة مقامه، وفي العهد التركي بطلت عادة دق الطبول أمام منزل الأمير الطبلخانة، وبقي استخدام اللفظ عرفياً.

(٣) انباء القمر بأنباء العمر، دمشق، ١٩٦٣؛ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت.

(٤) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة، ١٩٦٦.

(٥) الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة، دار الآفاق، بيروت؛ لطف السمر وقطف الثمر، دمشق، ١٩٨١.

(٦) الخلعة: سترة ثمينة من فرو السمّور كانت توجهها السلطة الحاكمة لمن تعهد إليه بأحد المناصب، وهي بمثابة الأوسمة في عصرنا، نوعاً من وسائل الترغيب والتحذير او من علامات الرضا والتقدير من السلاطين والولاة.

(٧) التيمار: هي إقطاعات عسكرية كانت تمنحها السلطات العثمانية في الأرياف لقوات تعرف اصطلاحاً باسم «السباهية»، وكان أفرادها يحصلون على رزقهم من هذه الإقطاعات. وكانت قوات السباهية على مراتب، أعلاها رتبة يعرف بالزعيم، وكان يمنـح إقطاعاً يطلق عليه اسم «زعامت»، والمردود السنوي لهذا الإقطاع لا يقل عن عشرين ألف اقجة، ثم التيماري ولا يقل مردوده عن ستة آلاف اقجة. وكان على التيماري واجبات تجاه تيماره فنجده يشرف على فلاحة جميـع الأرض المقطعة له، واستصلاح العاطل منها، وعليه أيضاً أن يمد الفلاحين بالبذار اللازم وتقديم بعض المساعدات الأخرى. وكان التيماري يحصل على نسب معينة من محصول تيماره تتراوح بين ثلث المحصول أو ربعه أو خمسه أو سدسه وكان على التيماري واجبات تجاه الدولة منها الحضور شخصياً إلى ميدان القتال إذا طلب منه ذلك، وعليه أن يحضر معه عدداً من الأتباع يختلف عددهم حسب ريـع التيمار. لمزيد من المعلومات انظر: نوفان الحمود. العسكر في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابـع عشر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١، ص (٥٦ـ٥٧).

(٨) هناك إجماع من المؤرخين بأن حملة إبراهيم باشا في العام ١٥٨٥ التي أدت إلى نهاية الأمير قرقماز المعني، إنما كانت بسبب نهب اللصوص في جون عكار لقافلة «خزنة مصر» وهي متوجهة إلى الأستانة عن طريق الساحل الشامي، وأول من أشار إلى ذلك كل من: أسطفان الدويهي. تاريـخ الأزمنة، ١٠٩٥ ـ ١٦٩٩، نشرة فرديناند توتل، بيروت، ١٩٥١، ص ٣٨٤: طنوس الشدياق. كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، حققه فؤاد أفـرام البستاني، بيـروت، ١٩٧٠، ص (٢٥١ ـ ٢٥٢): حيدر الشهابـي. تاريـخ الأمير حيدر الشهابـي، القاهرة، ١٩٠٠، ص ٣٨٤. لكن المصادر المعاصرة لحملة إبراهيم باشا على الشوف، لا تربط بين هذه الحملة وأي حادث معين، ناهيك بحادثة جون عكار. وإنما السبب الحقيقي لهذه الحملة انتشار الأسلحة النارية البعيدة المدى لدى دروز المرتفعات الجبلية اللبنانية والتي كانت أحدث من تلك التي مـع القوات العثمانية في بلاد الشام، وتمنـع الأهالي عن دفـع الضرائب المتوجبة عليهم. لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر الدراسة التي أعدها د. عبد الرحيم أبو حسين الأستاذ في الجامعة الأميركية في بيروت:

Abu Husayn, Abdul-Rahim. Provincial LeaderShips in Syria, 1575-1650, American University of Beirut, 1985. pp. (78-80).

(٩) السكبان: هم عناصر محلية شابة من فلاحي الأناضول وبدوها، ممن لديهم القدرة على استخدام الأسلحة النارية، كانت السلطات العثمانية تجمعهم لمساعدة جيشها على الجبهة الأوروبية. وبعد انتهاء فترة تعاقدهم يسرحون من الخدمة، فيبدأون في البحث عمن يستأجرهم من جديد وذلك لتأمين عيشهم، فانخرطوا في خدمة الأمراء المحليين، الذين كانـوا بحاجة إليهم للوقوف أمام جيش الدولة العثمانية، وإذا ما وجد السكبان المال الوفير عند هؤلاء الأمراء، فهم الخدام الأوفياء. ولذا فقد استخدمهم المعنيون وآل الحرفوش وغيرهم.
محمد نوفان الحمود. العسكر في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابـع عشر الميلاديين، دار الآفاق، بيروت، ١٩٨١، ص ١٤٧ ـ ١٥٤.

(١٠) حلة الذهب الابريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز، المعهد الألماني، بيروت، ١٩٧٩.

(١١) Minadoi, Giovanni. Historia della Guerra Fra Turchie persiani, Venetia , 1594.

(١٢) الدويهي، أسطفان. تاريـخ الأزمنة، ١٠٩٥ ـ ١٦٩٩، نشرة فرديناند توتل، بيروت، ١٩٥١.

(١٣) البوريني، الحسن. تراجم الأعيان من أنباء الزمان، نشرة صلاح الدين النجد، دمشق، ١٩٥٩ ـ ١٩٦٣.

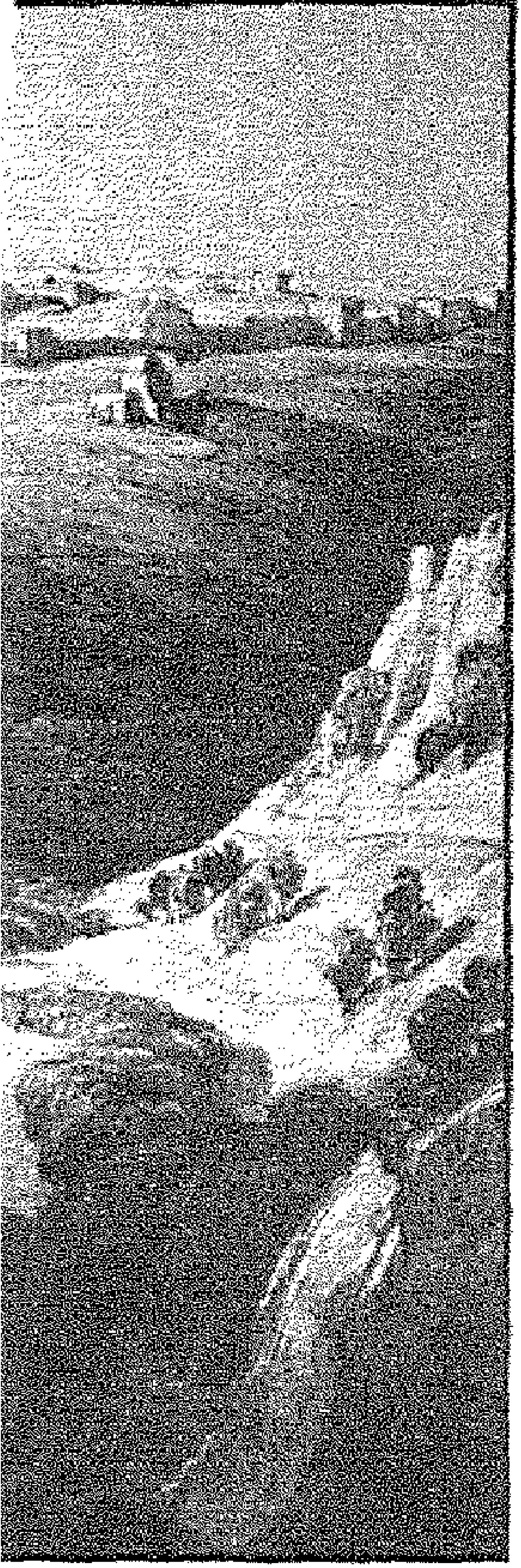
(١٤) ابن سباط، حمزة. صدق الأخبار، يعرف أيضاً بتاريـخ ابن سباط، مخطوط مسجل في مكتبة يافت في الجامعة الأميركية تحت رقم MS/956.9.

(١٥) Hours et Salibi, Francis et Kamal. Muhammad ibn al-Hanas, Muggadam de la Biqa, 1499 —— 1518: Un épisode peut connu de l'histoire libanaise, Mélanges de l'université Saint-Joseph, XLIII.

(١٦) Abu-Husayn, Abdul-Rahim. Provincial Leaderships in Syria 1575-1650, American university of Beirut, 1985.

● نصيحة الخليفة عمر بن عبدالعزيز إلى الوليد:

«إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم، وإن عمالك يقتلون ويكتبون لك ذنب المقتول، وأنت المسؤول عنه والمأخوذ به، فاكتب إليهم ألا يقتل أحد منهم أحداً حتى يكتب إليك بذنبه، ثم يشهد عليه ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك».



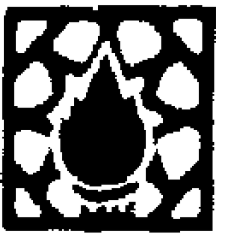
أرناط

الفارس اللصّ

نشأته حياته غزواته ودوره في تهيئة الظروف لمعركة حطّين

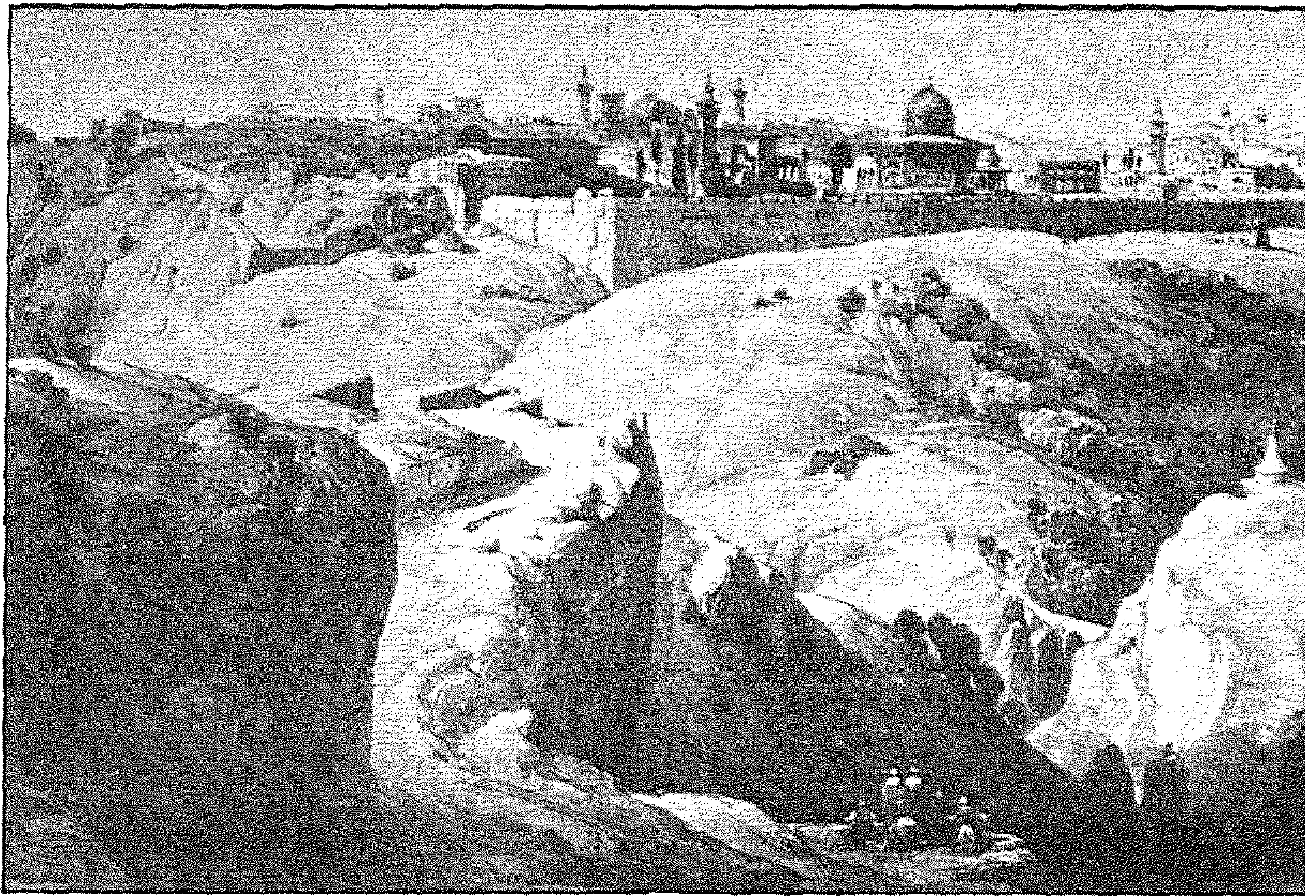
د. برهان العابد (الجزء الأول)

بدأت الحروب الصليبية منذ اليوم الأول لغزو طارق بن زياد الأرض الإسبانية سنة ٧١١ ميلادية ومنذ ذلك اليوم بدأ الصراع المرير بين العقيدتين الإسلامية والمسيحية وتسلمت الكنيسة زمام قيادة الشعوب المسيحية وأخذت في تنظيم المرحلة الدفاعية التي دامت أكثر من ثلاثة قرون قبل أن تنتقل في نهاية القرن الحادي عشر إلى المرحلة الهجومية وتدفع بجموع المسيحيين إلى الشرق لتخليص القبر المقدس من سيطرة المسلمين.



إذن فالحركة الصليبية لم تخلق بين عشية وضحاها ولم تكن مسيرة مرتجلة دفعت أمواجها بلاغة البابا أوربان الثاني وكلماته المؤثرة على الحشود التي اجتمعت في كليرمون فيران في تشرين الثاني عام ١٠٩٥ ولكنها كغيرها من الحركات الأساسية في التاريخ كعصر النهضة أو الثورة الافرنسية ثمرة حالة فكرية عامة تعهدتها طبقة مثقفة واعية لحاجات الناس ورغباتهم. فالحروب الصليبية كانت استجابة لفورة العواطف الدينية ولضرورة التوسع التي أخذ يشعر بها عنصر فتي وقوي.

ففي أواخر القرن الحادي عشر ازداد عدد السكان في أوروبا وبرزت مشكلة بطالة بالنسبة للفرسان والنبلاء الفقراء الذين لا يملكون أرضاً يعيشون منها ولم يكن أمامهم إلا اللجوء إلى الغزو والسطو في بلادهم أو القيام بمغامرات في بلاد بعيدة. لذلك فإن الظروف الاقتصادية والاجتماعية في الغرب تفسر جزءاً من النجاح الذي أصابته الحملات الصليبية. ويقارن لويس هالفين Halphen هذه الحروب التوسعية الاقطاعية بالحروب الاستعمارية(١). ومما سهل الأمر أن أوروبا قبل نشأة الحكومات كانت



□ القدس ويبدو الحرم الشريف (صورة بريشة دافيد روبرتس).

تشكل وحدة متكاملة اسمها العالم المسيحي Chretiente لأن الأمراء كانوا ضعافاً والامبراطور ذاته لم يكن يتمتع بسلطة حقيقية لذلك فإن البابا كان رئيساً لهذا العالم يتولى إرشاد شعوبه في أمورها الروحية ويخطط لطراز حكمها وسياستها الدنيوية في زمن لم تكن فيه الحدود واضحة بين الدين والدنيا.

إن استقرار العرب المسلمين في إسبانيا وجنوب فرنسا وصقلية وجنوب إيطاليا وفي أكثر جزر البحر الأبيض المتوسط قضى قضاء مبرماً على أوروبا العصور القديمة وهزّ كيانها وأشاع الذعر في قلب روما التي تعرضت لهجمات المسلمين المخيفة منذ عام ٨٤٦ ميلادية(٢). لذلك فقد فكر أباء الكنيسة في حرب مقدسة لمجابهة حركة الجهاد الإسلامي وكان أول المبشرين بها البابا جان الثامن الذي يعد أيضاً أول من أوجد فكرة الحروب الصليبية(٣) فبدأ في إشاعة المصالحة بين الأوروبيين ووضع لهم هدفاً مشتركاً تمهيداً لتوجيههم مجتمعين ضد المسلمين. ثم أخذت الكنيسة في تنظيم المجتمع المسيحي بشكل يسهل سيره صفاً واحداً نحو الهدف الذي عيّنته وهو تحطيم الإسلام وإبعاده عن أوروبا وأفريقيا أولاً ثم عن آسيا الصغرى واحتلال القبر المقدس وإقامة دولة تيوقراطية هناك.

إن أكبر مؤسسة كنسية عملت على بث روح الحروب الصليبية ونشرها بين جموع الأوروبيين هي رهبانية كلوني التي كانت تضم ما يقرب من ألفي دير منتشرة في جميع أنحاء أوروبا الغربية وخاصة في فرنسا. وليست كلوني رابطة نساك وصوفيين يقضون أيامهم ولياليهم في تلاوة الكتاب المقدس ولكنها تنظيم لرهبان يؤمنون بالعلم وبالعمل بينهم الفلاسفة والكتّاب والمهندسون والفنانون والموسيقيون والنحاتون ونساخو الكتب والصناع المهرة والخبراء في اللغات الشرقية وبينهم أيضاً محاربون أشداء.



□ جندي عربي أيام صلاح الدين.

فخلال قرنين من الزمن فرض دير كلوني وصاية على الباباوات والملوك ونظم الروح القتالية لدى الإقطاعيين وأعلن أولوية الأمور الروحية وحقق حلم جان الثامن بتوحيد أوروبا وجعل من الحرب المقدسة شغله الشاغل. لقد لاحظ الناس كيف كان رهبان كلوني يدفعون أهلهم وأصدقاءهم ومحبيهم والمعجبين بهم نحو محاربة المسلمين في إسبانيا وأفريقيا وصقلية والأراضي المقدسة وكيف كانوا هم أنفسهم يحملون السلاح دفاعاً عن الكنيسة.

ولعل من اهم الوسائل التي استعملها دير كلوني لنشر فكرة الحرب الصليبية كان تجديد عادة الحج التي كان لها دور كبير في حياة الإنسان في القرون الوسطى وكانت إحدى وسائل نشر الشعر البطولي Chansons de geste الذي يحث الناس على الحرب المقدسة ويدفعهم إلى حمل السلاح.

ومما يدعو إلى الدهشة ما لوحظ من انطلاق حملات صليبية من الأمكنة التي كان الناس يحجون إليها. فقد خرجت من روما حملات صليبية إلى جنوب إيطاليا ومن سان ميشيل دومون غارغان St. Michel du mont Gargan انطلقت الحروب الصليبية النورماندية إلى صقلية ومن سان جاك دو كومبوستيل سارت الحملات الصليبية لتحرير إسبانيا وعلى يد حجاج القبر المقدس قامت الحملات الصليبية الشرقية(٤).

لقد كانت الكنيسة تعرف حق المعرفة بأن الحرب المقدسة لا يمكن أن تقوم إلا على سواعد الفرسان. وفي مجتمع يلعب فيه الفرسان دوراً هاماً كالمجتمع الفرنسي في القرون الوسطى لم يكن من الصعب إثارة عواطف هؤلاء الشباب وطموحاتهم لكي ينطلقوا لتحقيق أحلام الكنيسة وأحلامهم. فالكنيسة وجهت أطماع الفرسان نحو هدف جديد وحولت عاداتهم في السلب والنهب والغزو ونظمتها ونسقتها ضمن حرب تحرير خارجية تتسع للمغامرات والبطولات.

وبذلك أطفأت نيران الحروب الأهلية الداخلية ودلت على حس سياسي رفيع وخصوصاً البابا أوربان الثاني الذي أضاف قيماً روحية معينة وأعطى ميزات مادية لمن يحمل الصليب. فإليه يدين الغرب باستعادة وحدته وبالشعور بقوته وبالتمتع بالسلام على أرضه.

وسأحدثكم عن أنموذج فريد من نوعه لهؤلاء الفرسان يجسد أخلاق وسلوك هذا الطراز من المحاربين الذين أبعدتهم أوروبا عن أرضها لكي تنعم بالسلم بعد عدة قرون من الحروب الداخلية والأهلية فجاؤوا إلى أرضنا لينشروا الذعر والخوف والدمار. أنه رونو دو شاتيون الفارس اللص كما اصطلح على تسميته المؤرخون الفرنج فمن هو وأين عاش وماذا ارتكب من أعمال خلال أربعين عاماً وماذا كان دوره في تهيئة الظروف لمعركة حطين العظيمة وزوال المملكة الصليبية.

لا يعلم شيء مضبوط عن طفولة رونو دو شاتيون Renaud de Chatillon الذي يسميه المؤرخون العرب ارناط ولكن من المؤكد أنه نشأ في بلدة صغيرة اسمها شاتيون تقع في منطقة غاتينيه Gatinais بوادي نهر اللوان Loing القريب من أورليان وعاش كأمثاله من

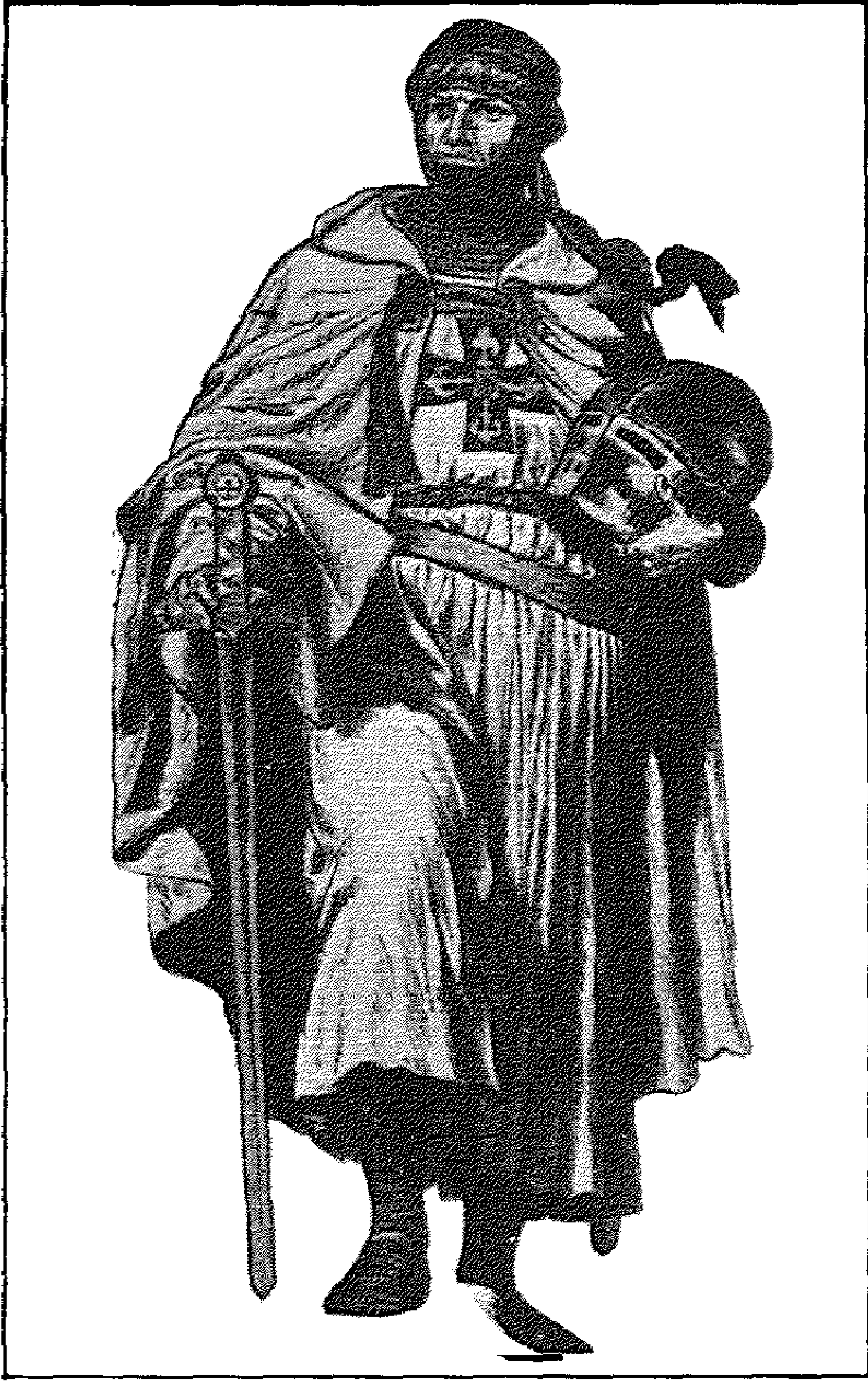
طبقة فرسان ذلك العصر عيشة تتصف بالقسوة والحرية والمعارك المتواصلة. كما لا نعلم شيئاً عن سنه عندما أتى إلى الأراضي المقدسة ولا تاريخ سفره غير أن المؤرخ شلومبورجيه يحدد عام ١١٢٧ لمولده وعام ١١٤٧ لسفره إلى الشرق ومن الثابت مرافقته للحملة الصليبية الثانية التي استجابت لنداء القديس برنار في فيزيليه Vezelay وكان من أركانها ملك فرنسا لويس السابع وزوجته الملكة إيلينور Eleanore وكونراد امبراطور ألمانيا وأتباعهم من الفرسان الفرنسيين والألمان والتي انتهت بفشل ذريع في صيف عام ١١٤٧ على أرض البساتين الخضراء الجميلة المحيطة بدمشق[٥].

لقد ورد اسم ارناط للمرة الأولى عام ١١٥٣ عند ذكر معركة عسقلان في جملة فرسان إمارة إنطاكية الذين كانوا يحاربون تحت علم ملك بيت المقدس بغدوين الثالث الوصي على تلك الإمارة بعد مقتل أميرها ريمون دو بواتيه. فمن المحتمل أن يكون ارناط قد التحق بخدمة أمير إنطاكية قبل عودة لويس السابع إلى أوروبا في ربيع عام ١١٤٩[٦]. وربما اشترك بالمعركة الهائلة التي دارت رحاها بين أفاميا والروج وانتهت بقتل أمير إنطاكية من قبل أسد الدين أحد قواد نور الدين محمود[٧].

ويذكر ابن الأثير في حوادث عام ٥٤٤هـ بأن معركة أخرى جرت في تلك الفترة أسر خلالها (البرنس الثاني زوج أم بيمند) ولكنه سرعان ما استعاد حريته على أثر عقد السلام بين نور الدين والصليبيين[٨].

بقيت إمارة إنطاكية تحت وصاية ملك بيت المقدس تحكم من قبل أميرتها الأرملة كونستانس التي رفضت كل من تقدم لطلب يدها من أمراء وفرسان. واستمر هذا الرفض ما يقرب من خمس سنوات انتهى فجأة بوقوعها في حبائل الفارس الفرنسي المغمور رونودو شاتيون ولكنها اشترطت عليه قبل الزواج حصوله على موافقة ابن عمها بغدوين الثالث ملك بيت المقدس.

وسرعان ما غادر ارناط أرض الإمارة وتوجه لمقابلة الملك أثناء حصاره لعسقلان. وقد تمكن من انتزاع موافقته بعد أن ارتمى يقبل قدميه ويرجوه أن لا يحرمه هذا الشرف العظيم. فوافق



□ جندي صليبي.

الملك ليتخلّص من أعباء الوصاية التي تولاها على الإمارة منذ وفاة أميرها الشرعي[٩]. ولا شك بأنه فرح لزواج ابنة عمه من فارس أثبت خلال المعارك التي خاضها كل شجاعة وإقدام.

عاد ارناط إلى إنطاكية حاملاً رسالة الملك بالموافقة وجرت مراسم الزواج وسط دهشة الجماهير التي لم تر فيه كفأ لابنة ريمون دو بواتيه إحدى أكبر الأميرات الصليبيات ووريثة أهم مدن الشرق اللاتيني بعد بيت المقدس[١٠].

إن أول حادث عرف عن ارناط بعد زواجه مباشرة والذي يدل على طبيعته الشرسة ويرسم صورة لسلوكه الذي استمر حتى قتله في حطين هو معاملته الوحشية لبطريرك إنطاكية إيميري دو ليموج Aymeri de Limoges هذا الراهب الذي أعلن صراحة عدم موافقته على زواج الأميرة كونستانس من هذا الفارس المجهول وأصر على موقفه العدائي منه بعد زواجه. فقد كان إيميري رجلاً أمياً يملك ثروة



□ مدينة دمشق في اواخر القرن التاسع عشر.

ضخمة جداً، وهو مسموع الكلمة بالرغم من صفاته البعيدة عن ما يجب أن يتحلى به رجال الدين من عفة وطهارة إذ يقول وليم الصوري بأن حياته الخاصة كان فيها كثير من الحرية وأنه كان لا يجد حرجاً في انتقاد ارناط ومعارضته علناً. وكانت هذه الانتقادات تصل إلى مسامع الأمير الأحمق مما حدا به إلى إضاعة صوابه والتصرف بشكل بعيد جداً عن العقل والروية إذ سجن البطرك وعامله معاملة خالية من الرحمة والاحترام فبعد تجريده من ثيابه وتكبيله بالحديد وضربه بالسياط ضرباً مبرحاً دهن رأسه وجروحه بالعسل وتركه في برج القصر تحت أشعة الشمس المحرقة عرضة للدغ الذباب والحشرات[11].

ويعتقد المؤرخ البيزنطي كيناموس Kinnamos بأن ارناط عامل هذا الراهب بهذه القساوة سعياً وراء الاستيلاء على ثروته الكبيرة وذلك لتمويل حملته ضد جزيرة قبرص[12]. وعندما وصلت أخبار هذه الحادثة إلى مسامع الملك بودوان الثالث أرسل فوراً مستشار المملكة رؤول مع أسقف عكا للعمل على إطلاق سراح هذا السجين العالي القدر وإعادة أمواله واعتباره إليه.

ولكن البطرك أسرع في مغادر إنطاكية فور خروجه من السجن وذهب لاجئاً إلى بيت المقدس حيث استقبله الملك والملكة الأم ميليساند وزميله بطرك القدس وغيرهم من رجال المملكة بكثير من الحفاوة والترحيب.

وسأستعرض في هذه الدراسة أهم الغارات والغزوات التي قام بها ارناط مبتدئاً بمهاجمة جزيرة قبرص.

وفي عام ١١٣٦ ــ ١١٣٨ استولى الامبراطور البيزنطي جان كومنين على ولاية كيليكيا أرمنية وسجن حاكمها ليون وابنه طوروس ولكن طوروس تمكن بعد مدة قصيرة من الهرب من القسطنطينية والعودة إلى كيليكيا حيث أخذ باسترجاع أراضيها وحصونها من أيدي الحاميات البيزنطية بعد أن تحالف مع جيرانه

فرنج إنطاكية وتوج انتصاراته بالاستيلاء على مدينة ما ميسترا وأسر القائد البيزنطي فيها. لذلك فقد عمد الامبراطور إلى طلب مساعدة سلطان قونية السلجوقي مسعود لإخماد الثورة الأرمنية وإرجاع كيليكيا إلى الحكم البيزنطي ولكن المقاومة الأرمنية دحرت الجنود الأتراك في مضائق جبال طوروس وأجبرتهم على طلب الصلح والانسحاب. عند ذلك لم ير الامبراطور أمامه إلا تكليف صاحب إنطاكية البرنس ارناط بمهمة إخضاع الأرمن والقضاء على حكمهم في كيليكيا بالرغم من المرارة التي كان يشعر بها بسبب عدم استشارته في تنصيب ارناط أميراً على إنطاكية وهي الإمارة التي تعد قانوناً من أملاك التاج الامبراطوري، وقد تعهد الامبراطور لقاء هذه الخدمة بالاعتراف بارناط وبدفع تكاليف هذه الحملة وبعد معركة صغيرة جرت بين طوروس وارناط على أرض الإسكندرونة كان النصر فيها حليف أمير إنطاكية عل حد قول المؤرخ ويليم الصوري فأعاد الأرمن حصن بغراس الحدودي إلى الداوية الذين وعدوا بالمساعدة وأقسموا بالدفاع عن الأرمن حتى الموت. لا شك بأن طوروس وارناط اقتنعا بأن الرابح الوحيد من الخصومة بينهما هو الامبراطور البيزنطي عدوهما المشترك وبتشجيع من الداوية فقد عقدا النية على التحالف ضد البيزنطيين وبدأ ارناط مضايقاته بمطالبة مانويل كومنين بدفع تكاليف الحملة ضد طوروس ولكن الامبراطور رفض الدفع لأن ارناط لم ينجز المهمة(١٣). عندئذ قرر أمير إنطاكية أن يستوفي حسابه بنفسه. فبدأ بشن حرب عصابات ضد القوات البيزنطية الموجودة في كيليكيا وأخرجها من الأماكن القليلة التي كانت تحتلها. ثم اتخذ قراراً بنقل المعركة إلى أرض أخرى. ولسوء الحظ وقع اختياره على جزيرة قبرص التي كانت تنعم بالسلام إذ أن البحريحميها ويبعدها عن مراكز الصراع في اليابسة تجاه شواطئها بحيث لم تعرف منذ زمن طويل الحرب والسلب والكوارث التي كانت تنزل دون رحمة بالبلاد المجاورة لها كسورية وكيليكيا وآسية الصغرى(١٤). فأراضيها خصبة يستثمرها شعب مجد ذكي ينعم بالغنى والرفاهية ومدنها عامرة



□ صلاح الدين الايوبي.

وأنيقة وكنائسها تزخر بالمجوهرات والكنوز وأديرتها القديمة تطفح بالنفائس وبالذهب والفضة. وكانت الامبراطورية بحاجة إلى كل جندي من جنودها على البر الآسيوي لمواجهة الاعتداءات الأرمنية المستمرة وغارات الأتراك السلاجقة المتوقعة في كل زمان ومكان. مما حملها على أن لا تترك في الجزيرة إلا قوة ضئيلة كافية لدفع غزوات القراصنة المسلمين الذين كانوا من مصر أو ليبيا. كذلك فإن الاحتلال الصليبي للساحل السوري الذي مضى عليه نصف قرن كان نعمة على هذه الجزيرة التي كانت فيما مضى مسرحاً يومياً لغارات المراكب الآتية من المرافىء السورية. هذه المرافىء وإن لم تصبح تحت سيطرة حلفاء أوفياء فإنها على الأقل كانت بأيدي أناس تجمع بينهم وبين البيزنطيين رابطة الدين(١٥).

فالرخاء والسلام الطويل جعلا سكان الجزيرة ينامون ملء عيونهم بطمأنينة خادعة في كنف الحكم اللين والعطف الأبوي لنواب الامبراطور.

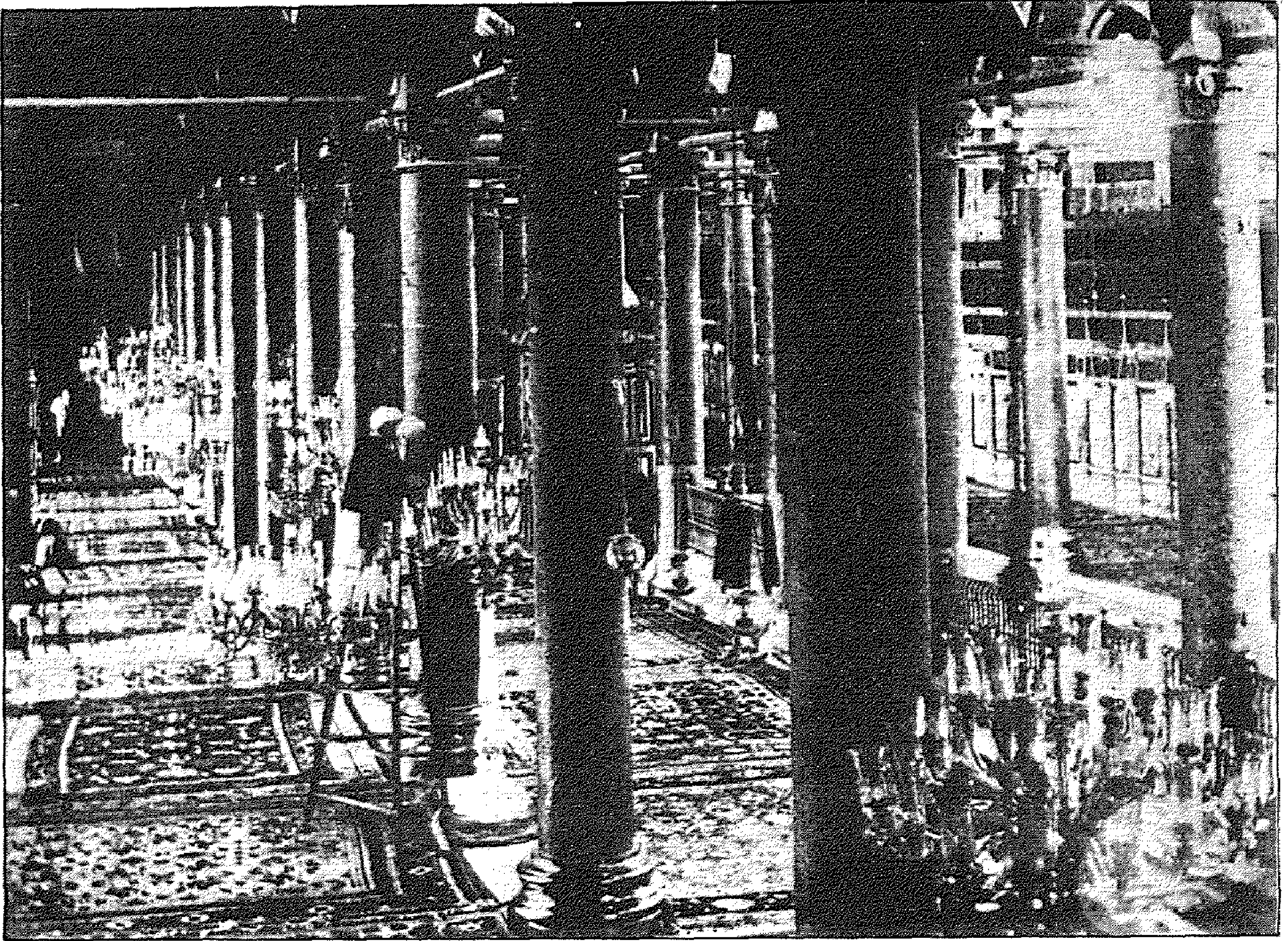
وفجأة أيقظتهم المغامرة المخيفة للأمير أرنـاط الذي نقم على الامبراطور مانويل وقرر أن يقتص منه بنهب ثروات أرض من أراضيه فمن الناحية القانونية كانت إمارة إنطاكية بحالة سلم مـع الامبراطور الذي يعدها تابعة له حسب التقاليد والروابط الإقطاعيـة. لذلك كانت الغـارة عملاً دنيئاً من أعمال القرصنة. ففي يوم من أيام عام ١١٥٥ جمـع عـلى عجل أسـطولا لنقله ونقل جنوده وفرسـانه وعصـاباتـه التي تتألف من الأجناس والأديان الموجودة في البلاد السورية بينهم التركوبـوليه والبـدو والدروز إلى جانب حلفائه الأرمن جنود طوروس(١٦).

وقد حرص على سرية حملته بحيث فـاجأ القبارصة بهجوم مباغت يفوق كل تصور وحساب مما جعل أحد المؤرخين الأرمن يقول بأن جنود إمارة إنطاكية عاملوا أهل جزيرة قبرص كمـا لو كانوا مسلمين(١٧). فقد أغرقوا الجزيرة في بحر من الدم والنار. وانبرى لمقاومة الغزاة دوق قبرص جان كومنين ابن أخ الامبراطور وميشيل براناس قائد القوات العسكرية للجزيـرة ولكن سرعان مـا انهارت مقـاومتهما ووقعـا في أسر ارناط. وانقلبت الجزيرة مسرحاً لمجزرة هـائلة استمرت أيامـاً حيث قتل الرهبـان واغتصبت الراهبـات وأحـرقت المـدن والقـرى والأديـرة والكنائس واضطر السكان المذعورون الهائمون على وجوههم إلى اللجوء إلى أعالي الجبال تاركين وراءهم كل ما يملكون من متاع الدنيا عرضة للنهب والدمار والحرق ولم تنته هذه المأساة إلا بعد أن أتت النيران على آثار العمران في الجزيرة. وقبـل وصـول الأسـطول الامبـراطوري ركب الفـرنجة مـراكبهم ورجعوا إلى بلدهم محملين بكميات هائلة من الذهب والفضة والأقمشة الفاخرة والغنائم من جميع الأنواع وإضافة للقائدين الكبيرين عاد ارناط بعدد كبير من الرهائن بينهم كبار رجال الدين والأساقفة ورهبان الأديرة والحكام والقضاة وكبار الملاكين والتجـار الأغنياء مـع عائلاتهم ولم يطلق سراحهم إلا بعد أن أدوا كـامل الفـدية الكبيـرة التي فـرضهـا عليهم ارناط(١٨) وقد ذكر المؤرخون الإيطاليـون أنه أرسل بعض المشوهين إلى القسطنطينية عـلى سبيل السخرية والهزء.

لم يمض زمن طويل على هذه الغارة الرهيبة حتى قام الفارس اللص بالاعتداء على أراض إسلامية مجاورة. ففي خريف عام ١١٦٠ علم ارناط بواسطة جواسيسه بوجود أعداد كبيرة من القطعان ملكاً لرعاة من المسيحيين من أصول سورية أو أرمنية أصبحوا تحت حكم المسلمين منذ استيلاء نور الدين على مدينة الرها بصورة نهائية عام ١١٤٧. كان هؤلاء الرعاة يعيشون بسلام تحت حكم أسيادهم التركمان لقاء اتاوات يدفعونها لهم.

ويقـول رئيس أساقفـة صـور بـأن رونـو دو شاتيون طمـع في الحصول على كسب وفير من إغارته على تلك النواحي بالرغم من وجود هدنة بين نور الدين وبين الأمراء الفرنـج منذ إخفاق هجومهم على حلب. ولكن المعاهدات لم تكن لتثني ارناط عن عزمه. لذلك فقد جمـع جموعه على عجل وسار بسرعة هائلة باتجاه الفرات ونشر فرسانـه وجنوده في تلك الأراضي فنهبـوا كل ما فيها من القطعان ثم بدأوا طريق العودة إلى إنطاكية فرحين مسـرورين بما فـازوا به من إسلاب بينها آلاف الرؤوس من الأغنام والبقر والجمال. ولسوء حظهم أجبرتهم كثرة القطعان والأجمال الثقيلة للمنهوبـات على السـير ببطء شديد.

وعندما وصل خبر هذا الاعتداء إلى مسامـع نائب نور الدين في حلب الأمير مجد الدين بن الداية جهز بسرعة مجموعة قوية من الفرسان أمـرها بـاقتفاء آثـار الغـزاة والقبض عليهم. وبمساعدة بعض الأدلاء من رجال ارناط الذين وقعوا في الأسر تم العثور على الجناة قرب مرعش حيث أخذ جنود نور الدين في حصارهم والتضييق عليهم حتى أدرك ارناط ورجاله بأنهم وقعوا في الفـخ وأنه لا قبل لهم في مواجهة المسلمين نظراً لكثرتهم. وقد ارتأى بعض العقلاء من الغزاة أن تترك الغنائم ويخوض الفرسان المعركة في سبيل النجاة بأرواحهم. ولكن ارناط أصر على الدفاع عن الغنائم وأمر وضـع قطعان الماشية والأسلاب بين صفين من الرجال ومقابلة الحلبيين. إن بطء السير مكن المسلمين من الانقضاض على جنود إنطاكية وإشاعة الفوضى بين صفوفهم وتفريقهم بين الحيوانات الهائجة.



□ جامع المدينة المنورة من الداخل (١٩٠٩).

لقد كانت المعركة طويلة وقاسية قاتل فيها الجميع بضراوة وخصوصاً ارناط الذي كان يلقي بنفسه في أحمى المواقع أملاً في حسم المعركة وجمع شمل رجاله الذين أخذوا في الفرار بعد أن تأكدوا من الهزيمة. وانتهت المعركة بسقوط ارناط عن جواده والقبض عليه مع ثلاثين من فرسانه ويذكر المؤرخ ميشيل السوري بأن جنود ابن الداية قتلوا أربعمئة جندي فرنجي في تلك الموقعة وهكذا فقد عاد الحلبيون ومعهم أسراهم المحمولون على ظهور الجمال وهم عراة مكبلين بالحديد ملطخين بالدم وآثار ضراوة المعركة بادية على وجوههم وأجسامهم وبعد عرضهم في شوارع حلب أودعوا السجون.

هذا ولا يذكر التاريخ شيئاً عن فترة اعتقال ارناط التي دامت ستة عشر عاماً اللهم إلا ما قيل على لسان أحد المؤرخين الفرنج بأنه تعلم شيئاً من اللغة العربية وإنه لم يبرح مدينة حلب مطلقاً. لقد شاهد ارناط وهو في سجنه ورود قوافل من الأسرى الفرنج أشهرهم بوهيموند الثالث الذي خلفه في إمارة إنطاكية وهوابن كونستانس من زوجها الأول كما أحضر جنود نور الدين الشاب الكونت ريموند أمير طرابلس وجوسلان الثالث أمير الرها وهوغ Hugues دو أوسينيان وكبير القواد البيزنطيين في كيليكيا وغيرهم أيضاً من الأمراء المسيحيين الذين تمكنوا من تدبير المبالغ الكبيرة التي طلبها نور الدين ثمناً لإطلاق سراحهم. فبوهيموند لم يمكث إلا سنة واحدة في الأسر بفضل معونة زوج اخته الامبراطور البيزنطي مانويل. وليس من العسير على الباحث أن يجد تفسيراً لسبب بقاء ارناط هذه الفترة الطويلة في سجنه. فسمعته السيئة وغدره وأخلاقه البعيدة كل البعد عن أخلاق الفرسان الشرفاء تفسر تشدد المسلمين في شروط بيعه ووضعهم العقبات في سبيل إخراجه من سجنه كما تفسر عدم اهتمام ملك بيت المقدس أو الامبراطور أو سكان إمارته في افتدائه والتعجيل في إخراجه من سجنه[١٩].

وأخيراً وبعد ستة عشر عاماً تمكن أصدقاء ارناط من جمع المبلغ الهائل الذي طلب فدية له والذي زاد على كل ما طلب ثمناً لحرية أي أمير من الأمراء الصليبيين الذين اعتقلهم نور الدين محمود. فبينما كانت فدية بوهيموند مئة ألف دينار وريمون ثمانين ألفاً وجوسلان خمسيناً لم يطلق سراح ارناط إلا بعد دفع مئة وعشرين ألف دينار وهي تعادل فدية مملكة كاملة كما قال أحد المؤرخين في ذلك العصر. ومع ذلك لم ينج كوموشتكين وزير السلطان الملك الصالح الذي فاوض في بيع ارناط من انتقاد ومهاجمة الرأي العام الذي رأى في إطلاق سراح هذا الأسير الخطير خيانة للمسلمين وجريمة لا تغتفر في حق الإسلام.

لما خرج ارناط من سجنه وعاد إلى إنطاكية وجد أن الأمور قد تبدلت تبدلاً كبيراً إذ لم يعثر على من يستقبله في تلك الإمارة التي كان في يوم من الأيام حاكمها لذلك فقد توجه نحو بيت المقدس حيث استقبله الملك بغدوين الرابع استقبالاً حاراً جداً لأن البلاد كانت بأمس الحاجة إلى أمثاله من المحاربين الأشداء إذ لم تعرف مملكة بيت المقدس منذ تأسيسها أوقاتاً أصعب مما كانت تمر به في تلك الفترة. إذ نزلت بها مصيبتان كبيرتان الأولى موت الملك عموري الباكر والثانية ظهور صلاح الدين على مسرح الأحداث كعدو قوي ومخيف للصليبيين في بلاد الشام، وضع المملكة الصليبية وإماراتها بين فكي كماشة، مصر من الجنوب ومملكة حلب التي سيستولي عليها قريباً من الشمال.

وبما أن الطريق الطبيعية التي تصل بين مصر والشام كانت تمر عبر إمارة الكرك لذلك فإن صلاح الدين استولى على أيله قبل أن يستولي على دمشق ثم وجه اهتمامه لمضايقة حصون الكرك والشوبك[٢٠] ونظراً لأن مستشاري بودوان الرابع يدركون أهمية هذه الإمارة التي تسيطر على الطريق التي تصل بين طرفي امبراطورية صلاح الدين والتي هي بنفس الوقت طريق الحج أسرعوا في انتقاء رجل قوي اختبر سابقاً في حماية إمارة إنطاكية وهو رونو دو شاتيون فزوجوه عام ١١٧٧ وريثة إمارة شرقي الأردن إيتين دو ميلي. لقد ازداد ارناط كرهاً وحقداً على الإسلام والمسلمين بعد السنوات الست عشرة التي قضاها أسيراً منبوذاً في سجون نور الدين. وإن تصميمه على الانتقام ظهر منذ اليوم الأول لتسلمه زمام هذه الإمارة فبالرغم من تصرفاته الهوجاء التي كانت تعرض المملكة لشتى أنواع الأخطار لم يكن الملك بودوان ولا مستشاروه الذين يشعرون بحاجتهم لخدمات سيفه يتجرؤون حتى على انتقاده مما حمله على اعتبار إمارته مستقلة استقلالاً تاماً عن مملكة بيت المقدس ولا ترتبط بالمعاهدات التي تبرمها ولذلك لم يجد أي حرج في نقض الهدنة ومهاجمة القوافل التي تمر بين حصون إمارته.

(يتبع)

المراجع

(١) Paul Rousset. Histoire des croisades. Payot. Paris 1978 page 14.

(٢) Anoir Hatem. Les poemes epiques des croisades. Genese Hhistoricite —— localisas-tion. Libraire orientaliste. 1932 page 34.

(٣) IBID, page 36.

(٤) IBID, page 48.

(٥) Schlumburger G. Renaud de chatillon prince d'antioche librairie plon 1898 page 5.

(٦) IBID page 6.

(٧) ابن الأثير ــ الكامل في التاريخ طبعة دار الكتاب العربي بيروت عام ١٩٦٧ الجزء التاسع صفحة ٢٥ حوادث سنة ٥٤٤.

(٨) نفس المرجع ونفس الصفحة.

(٩) RENN Grousset. histoire des croisades et du royaume france de jerusalem librairie plon 1935 page 327.

(١٠) iBID page 329.

(١١) IBID page 331.

(١٢) Schlumberger G. Renaud de chatillon page 53.

(١٣) Runciman S. A History of the crusades Pen-guin books 1965 vol. II page 346.

(١٤) Schlumurger G. Renaud deChatillon page 69.

(١٥) IBID page 70.

(١٦) IBID page 72.

(١٧) IBID page 74.

(١٨) IBID page 78.

(١٩) Runciman S. A History of the crusades vol. II page 358.

موطنها لبنان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجوية اللبنانية
جذورها راسخة في الشرق الأوسط
وأغصانها ممتدة في أرجاء الدنيا



نيويورك
لندن
باريس
كوبنهاغن
فرانكفورت
جنيف
بروكسل
زوريخ
مدريد
نيس
تونس
ميلانو
مونروفيا
روما
ابيدجان
اثينا
لاغوس
اسطنبول
كانو
بيروت
القاهرة
مسقط
لرنكا
رأس الخيمة
انقرة
أبوظبي
عمان
دبي
بغداد
الدوحة
جدة
البحرين
الخرطوم
الظهران
عدن
الكويت

معاهدة النبي العربي (صلى الله عليه وسلم) مع اليهود

اعداد: شذا عدره

استكمالاً لما ورد في باب «وثائق ومعاهدات» العدد (١١١ ـ ١١٢) في معاهدات النبي صلى الله عليه وسلم، تنشر المعاهدة الثانية من تلك المعاهدات وهي معاهدة الرسول الكريم مع اليهود.

معاهدة مع يهود المدينة

إمتاع الأسماع للمقريزي ج ١ ص ١١٠ –
ثم مرة أخرى في القسم الغير المطبوع منه (خطية كوپرولو ، استنبول) ص ١٤١٢

فجاءت يهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكون ذلك – [أي قتل كعب بن الأشرف] – فقال : إنه لو فرّ كما فرّ غيره ممن هو
٣ على مثل رأيه . ما اغتيل . ولكنه نال منّا الأذى وهجانا بالشعر . ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان السيف . ودعاهم إلى أن يكتب بينه وبينهم كتاباً ينتهون إلى ما فيه ؛ فكتبوا بينهم وبينه كتاباً في دار رملة بنت الحارث .

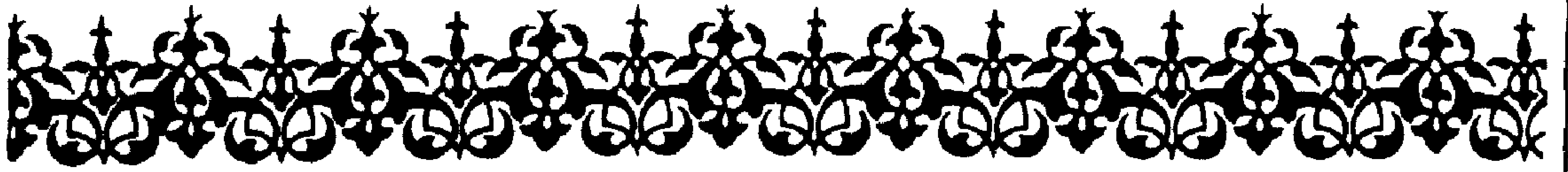
ولم يرونص الكتاب .

الى يهود خيبر

به ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧ – بط ع ١/٩ – عمخ ع ١٢٦ عن أبي نعيم –
الزيلعي ع ٧ (عن أبي نعيم) – كنز العمال ج ٥ ع ٥٥١٣ - ٥٥١٤
– إمتاع الأسماع للمقريزي (خطية كوپرولو استانبول) ص ١٠٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد رسول الله صاحب موسى وأخيه المصدّق لما جاء به .

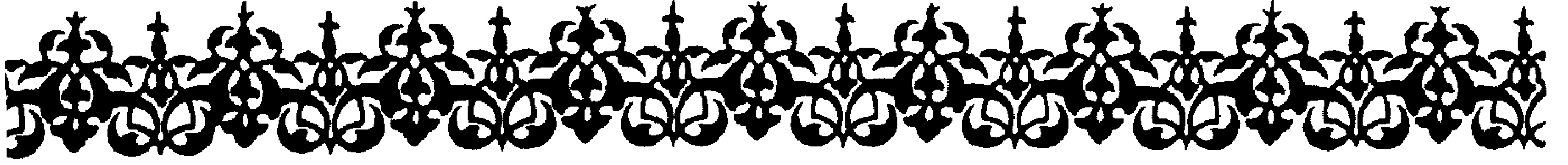


ألا إنّ الله قال لكم يا معشر أهل التوراة وإنكم لتجدون ذلك في كتابكم : « محمدٌ رسولُ الله والذين معه أشِدّاءُ على الكفّار رُحَمَاءُ بينهم ، تراهم رُكّعاً سُجّداً يبتغون فضلاً مِن الله ورِضواناً .

سِيماهم في وُجُوهِهِم مِن أثَرِ السُّجود. ذلك مَثَلُهُم في التّوراةِ. ومَثَلهم في الإنجيل كَزَرْعٍ أخْرَجَ شَطْأَهُ فآزَرَهُ فاسْتَغْلَظَ فاستوى على سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرّاعَ لِيَغيظَ بِهِمُ الكفّارَ . وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ منهم مَغْفِرَةً وأجراً عظيماً » .

وإني أنْشِدُكم بالله وأُنشدكم بما أُنزل عليكم وأُنشدكم بالذي أطْعم مَن كان قبلكم مِن أسباطكم المَنَّ والسّلوى . وأُنشدكم بالذي أيبسَ البحرَ لآبائكم حتى أنجاكم مِن فِرْعونَ وعَمَلِه .إلاّ أخبرتموني : هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد ؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كُرْهَ عليكم . « قد تَبَيّنَ الرُّشْدُ من الغيِّ » فأدعوكم إلى الله وإلى نبيّه .

(٢) عمخ : المصدق بما جاء موسى .
(٣) بط ، عمخ : معشر يهود وأهل التوراة .
(٣-٤) بط : تجدون – أ محمد؟ .
(٦-٩) عمخ : لا يذكر من « سيماهم » إلى آخر الآية .
(١١) عمخ : قبلكم .. المن والسلوى .
(١١-١٢) بط : أيبس الأرض .
(١٢) بط : أخبرتمونا .
(١٣-١٥) عمخ : بمحمد ... قد تبين الرشد – بط : كره لكم – عمخ : وأدعوكم .



الى يهود خيبر أيضا

بم ص ٧٧٨ – موطأ مالك : باب القسامة – عمخ ع ١٢٥ –
الطرق الحكمية لابن القيم ص ١٨٨
قابل طب ص ١٥٨٩ – ٩٠ – بخاري ١٤/٩٣
– مسلم ٦/٢٨ ، رقم ١٦٦٩

كتب إلى يهود خيبر حين كلّمتْه الأنصارُ :

إنه قد قُتِل بين أبياتكم فَدُوه ، أوِ ائذَنوا بحربٍ من الله .

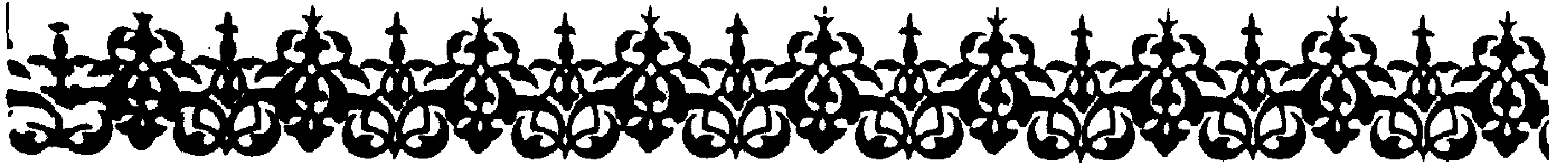
فكتبوا ، يحلفون بالله: ما قتلوه ، ولا يعلمون له قاتلاً ، فوَداه رسولُ الله مِن عنده .

مقاسم أموال خيبر

مغازي الواقدي ورقة ١٥٨ (وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم للرهاويين بطعمة من خمس خيبر بجاد مائة وسق ، وللداريين بجاد مائة وسق ، فهم عشرة من دير ان ... وأوصى للأشعريين بجاد مائة وسق) .
قابل بم ص ٧٧٥ – ٧٧٦ – بس ١/٢ ص ٧٦ للرهاويين

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى محمد رسول الله : لأبي بكر بن أبي قحافة مائة وسق ، ولعقيل بن أبي طالب مائة وأربعين ، ولبني جعفر بن أبي طالب خمسين وسقاً ، ولربيعة بن الحارث مائة وسق ، ولأبي سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب مائة وسق ، وللصلت بن مخرمة بن المطلب ثلاثين وسقاً ، ولأبي نبِقة خمسين وسقاً ، ولركانة بن عبد يزيد خمسين وسقاً ، وللقاسم بن مخرمة بن المطلب خمسين وسقاً ، ولمسطح ابن أثاثة بن عباد وأخته هند ثلاثين وسقاً ، ولصفيّة بنت عبد المطلب



أربعين وسقاً . ولبُحَيْنة بنت الأرتّ بن المطلب ثلاثين وسقاً ، ولضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب أربعين وسقاً ، وللحصين وخديجة وهند بني عبيدة بن الحارث مائة وسق ، ولأمِّ الحكم بنت الزبير بن عبد المطلب ثلاثين وسقاً ، ولأمّ هانىء بنت أبي طالب أربعين وسقاً . ولجمانة بنت أبي طالب ثلاثين وسقاً ، ولأمّ طالب بنت أبي طالب ثلاثين وسقاً ، ولقيس بن مخرمة بن المطلب خمسين وسقاً ، ولابنيْ أرقم خمسين وسقاً . ولعبد الرحمن بن أبي بكر أربعين وسقاً ، ولأبي بصرة أربعين وسقـاً . ولابن أبي حُبيش ثلاثين وسقاً ، ولعبد الله بن وهب وابنيه خمسين وسقاً لابنيه أربعين وسقاً ، ولنميلة الكلبي من بني ليث خمسين وسقاً . ولأمّ حبيبة بنت جحش ثلاثين وسقاً ، وللمكان بن عبدة ثلاثين وسقاً . ولمحيصة بن مسعود ثلاثين وسقاً .

(١) به : ...

(٢) به : ... لفاطمة مائتي وسق ولعلي بن أبي طالب مائة وسق ، ولأسامة ابن زيد مائتي وسق وخمسين وسقاً نوى ، ولعائشة مائتي وسق ولأبي بكر

(٣-٤) به : جعفر ... خمسين .

(٤-٦) به : وسق ... والصلت بن مخرمة وابنيه مائة وسق للصلت منه أربعون وسقاً .

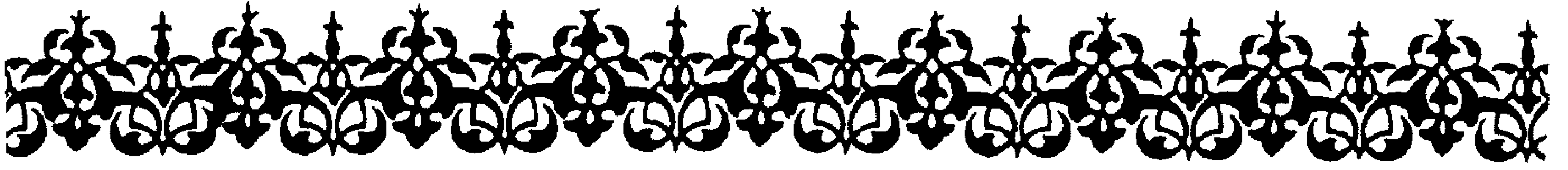
(٤-٦) به : وسق ... ولقيس بن مخرمة ثلاثين وسقاً ولأبي القاسم بن مخرمة أربعين وسقاً ولعبد الرحمن –

(٧-١٢) به : + [ولبنات عبيدة بن الحارث وابنة الحصين بن الحارث مائة وسق ، ولبني عبيد بن عبد يزيد ستين وسقاً ، ولابن أوس بن مخرمة ثلاثين وسقاً] ولمسطح بن أثاثة وابن اليأس خمسين وسقاً ، ولأم رميثة أربعين وسقاً ، ولنعيم بن هند ثلاثين وسقاً ، ولبحينة بنت الحارث ثلاثين وسقاً ، ولعجير بن عبد يزيد ثلاثين وسقاً .

(١٢-١٣) به : حذف هنا ذكر أم هانىء وأم طالب .

(١٤-١٨) به : ولأم الأرقم خمسين وسقاً ، ولعبد الرحمن بن أبي بكر أربعين وسقاً ، ولحمنة بنت جحش ثلاثين وسقاً ، ولأم الزبير أربعين وسقاً ، ولضباعة بنت الزبير أربعين وسقاً ، ولابن أبي خنيس ثلاثين وسقاً ، ولأم طالب أربعين وسقاً ، ولأبي بصرة عشرين وسقاً ، ولنميلة الكلبي خمسين وسقاً ، ولعبد الله بن وهب وابنيه تسعين وسقاً ، لابنيه منها أربعين وسقاً ، ولأم حبيب .

(١٩) به : للمكو بن عبدة ثلاثين وسقاً ، ولنسائه (صلى الله عليه وسلم) سبع مائة وسق . (وحذف ذكر محيصة)



قسمة قمح خيبر

ـه ص ٧٧٦

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر ما أعطى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نساءه من قمح خيبر : قسم لهن مائة وسق وثمانين وسقاً ، ولفاطمة ابنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خمسة وثمانين وسقاً ، ولأسامة بن زيد أربعين وسقاً ، وللمِقداد بن الأسود خمسة عشر وسقاً ، ولأمّ رُميثة خمسة أوسق .

شهد عثمان بن عفان ، وعبّاس ، وكتب .

وقف عمر ما ملك من أموال خيبر

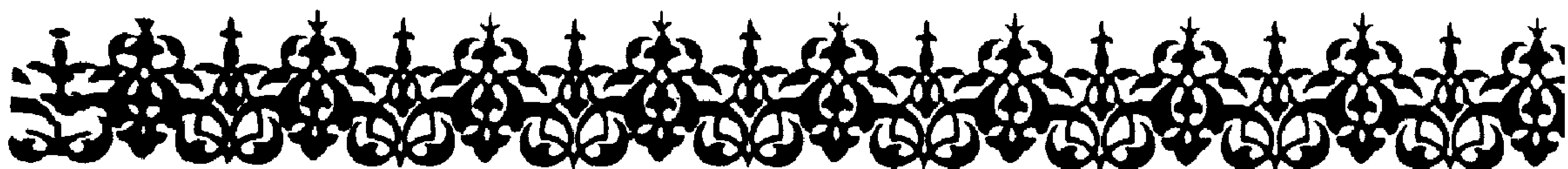
سنن الدارقطني ، كتاب الأحباس ٢/٥٠٦

جاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني أصبت مالاً لم أصب مثله قط – وكان له مائة رأس – فاشتريت بها مائة سهم من خيبر من أهلها . وإني قد أردت أن أتقرّب بها إلى الله عز وجل . قال : فاحبس أصلها ، وسبّل ثمرها ... فكتب عمر :

هذا كتاب من عمر بن الخطاب في ثمغ والمائة وسق التي أطعمنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أرض خيبر . وإني حبستُ أصلها وجعلت ثمرتها صدقة لذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والمقيم عليها أن يأكل أو يؤكل صديقاً لا جناح .

ولا يباع ولا يوهب ولا يورث ما قامت السماوات والأرض .

جعل ذلك إلى ابنته حفصة . فإذا ماتت فإلى ذي الرأي من أهلها .



أمان ليهود بني عاديا من تيماء

بس ج ٢/١ ص ٢٩ (ع ٤٧ ، ١) – ديب ع ٦
قابل الخراج لقدامة ورقة ١٢٠ ب – اللسان مادة « عدا »
وانظر كايتاني ٩ : ٥٠ – اشبرنكر ج ٣
ص ٤٢١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد رسول الله لبني عاديا : إنَّ لهم الذمّة وعليهم الجزية ، ولا عَداء ولا جَلاء ، الليل مدٌّ ، والنهار شدٌّ . ٣
وكتب خالد بن سعيد .

(٢) عاديا : كذا في ديب ، وفي بس : غاديا .
(٣) اللسان : بلا عداء .

طعمة ليهود بنى عريض

بس ج ٢/١ ص ٢٩ – ٣٠ (ع ٤٧ ب) – ديب ع ٧
وقابل بط ع ١/٢١ – ٢ – سهيلي ١٤٢/١
انظر كايتاني ٩ : ٥١ – اشبرنكر ج ٣ ص ٤٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد رسول الله لبني عُريض : طعمةٌ مِن رسول الله عشرة أوسق قَمح ، وعشرة أوسق شَعير في كل حصاد ، وخمسين ٣
وسقاً تمر ؛ يُوفَون في كل عام لِحينه ، لا يُظلَمون شيئاً .
وكتب خالد بن سعيد .

وفي إمتاع الأسماع للمقريزي ج ١ ص ٤٥٥ : (وأهدى له عليه السلام بنو عريض اليهودي هريساً ، فأكلها . طعمهم أربعين وسقاً فلم تزل جارية عليهم) .

(٢ – ٣) ديب: محمد النبي – قمحاً.
(٣ – ٤) ديب شعيراً – وسق تمر في كل جداد يوفون ذلك – لا يظلمون فيها.

حل رموز الاختصارات

المستعملة في أوائل الوثائق

ألف	... طرف الوجه من ورقة المخطوطة
ب	... طرف الظهر من ورقة المخطوطة
بآ	... سيرة ابن اسحاق (ترجمتها الفارسية)
بث	... أسد الغابة لابن الأثير
بح	... الإصابة لابن حجر
بحز	... ابن حزم
بحن	... مسند أحمد بن حنبل
بد	... سنن أبي داود
بس	... طبقات ابن سعد
بسن	... سيرة ابن سيد الناس
بط	... إعلام السائلين لابن طولون
بع	... أبو عبيد
بعب	... الاستيعاب لابن عبد البر
بعح	... ابن عبد الحكم
بعر	... ابن عبد ربه
بق	... زاد المعاد لابن القيم
بك	... ابن كثير
بلا	... فتوح البلدان للبلاذري
به	... سيرة ابن هشام
بيو	... الخراج لأبي يوسف
ديب	... الديبلي
طب	... تاريخ الطبري
عمخ	... عبد المنعم خان
قس	... القسطلاني
قلقش	... القلقشندي
ج	... الجزء أو المجلد
س	... سطر
ص	... الصفحة
ع	... عدد أو رقم والمراد به عند ذكر طبقات ابن سعد مثلا ترقيم ويلهاوزن في طبعه نخباً من هذا الكتاب وأشرنا سوى هذا إلى عدد الجزء والصفحة من الطبعة اللايدنية . أو رقم الفصل في كتاب (الأموال) ، أو رقم الحديث في كنز العمال وغير ذلك
ف	... الفقرة والفصل
+ [ ]	... علامة الإضافة والمضاف
...	... علامة الحذف في بيان اختلاف الرواية
—	... علامة الاستمرار أو التكرار في الروايتين
قابل	... يشير إلى الروايات غير الكاملة من الوثائق أو الاقتباسات
انظر	... يشير إلى البحوث الحديثة

الرشيد وهدايا خراسان

● ركب يحيى بن خالد البرمكي يوماً مع هارون الرشيد، فرأى الرشيد في طريقه أحمالاً، فسأل عنها، فقيل له:

هذه هدايا خراسان بعث بها إليك عليّ بن عيسى بن ماهان.

وكان ابن ماهان وَليها بعد الفضل بن يحيى البرمكي. فقال الرشيد ليحيى:

أين كانت هذه الأحمال في ولاية ابنك؟!

فقال يحيى:

كانت في بيوت أصحابها.

فأفحم الرشيد وسكت.

من كتاب «معجم الادباء» لياقوت

الشاعر المُغَنِّي

● كان حُنَين شاعراً مُغَنِّياً فحلاً من فحول المغنّين(١). وكان نصرانياً يسكن الحِيرة(٢). ولم يكن بالعراق غيره، فاستولى عليه في عصره. وقَدِم ابن مُحْرز المغني إلى الكوفة، فبلغ خبرُه حُنَيْناً، فخشيَ أن يعرفه الناسُ فَيَسْتَحْلُوه ويستوليَ على البلد فيسقُطَ هو. فتلطّف له حتى دعاه، فغنّاه ابنُ مُحرز لحناً، فسمع ما هاله وحيّره. فقال له حنين:

كم مَنَّتْك نفسُك من العراق؟

قال: ألفَ دينار.

فقال: فهذه خمسمائة دينار عاجلة، فخُذها وانصرف، واحلف لي أنك لا تعود إلى العراق.

وكان ابنُ مُحْرز صغير الهمّة، لا يحبّ عشرة الملوك، ولا يُؤْثِر على الخَلْوة شيئاً. فأخذها وانصرف.

* * *

ثم قدم الحِيرَة ابن سُرَيج المغني ومعه ثلاثمائة دينار. فأتى بها منزل حُنين، وقال:

أنا رجل من أهل الحجاز، بلغني طِيبُ الحيرة وجَودة خمرها، وحُسن غنائك، فخرجت بهذه الدنانير لأنفقها معك وعندك، ونتعاشر حتى تنفد وانصرف.

فسأله حنين عن اسمه ونَسَبه، فَعَرَفهما، وانتمى إلى بني مخزوم. فأخذ حنين المال منه وقال:

مُوَفَّرٌ مالُك عليك، ولك عندنا كلُّ ما يحتاج إليه مثلُك ما نَشِطْتَ للمُقام عندنا، فإذا دَعَتْك نفسُك إلى بلدك جَهَّزناك إليه، ورددنا عليك مالك.

وأسكنه داراً كان ينفرد بها، فمكث عنده شهرين لا يعلم حنين ولا أحد من أهله انه يُغَنّي، حتى انصرف حنين من دار الوالي في يوم صائف مع قيام الظَّهيرة، فصار إلى باب الدار التي كان أَنزل ابن سُريج فيها، فوجده مغلقاً. فارتاب بذلك، ودقَّ الباب فلم يُفتح له ولم يُجبه أحد. فصار إلى منازل الحُرَم فلم يجد فيها ابنتَه ولا جواريها، ورأى ما بين الدار التي فيها الحُرَم ودار ابن سُرَيج مفتوحاً. فانتضى سيفه ودخل الدار ليقتل ابنته، فلما دخلها رأى ابنته وجواريها وقوفاً على باب السرداب وهنَّ يُومِئْنَ إليه بالسكوت وتخفيف الوطء. فلم يلتفت إلى إشارتهن لِمَا تداخله، إلى أن سمع تَرَنُّم ابن سريج. فالقى السيف من يده، وصاح به ــ وقد عرفه من غير أن يكون رآه، ولكن بالنَّعْت والحِذْق:

أبا يحيى، جُعِلتُ فداءك، اتيتنا بثلاثمائة دينار لتنفقها عندنا في جيرتنا! فوحقِّ المسيح لا خرجتَ منها إلا ومعك ثلاثمائة دينار وثلاثمائة دينار وثلاثمائة دينار، سوى ما جئت به معك!

ثم دخل عليه فعانقه ورحّب به، ثم صار معه إلى الوالي فوصَلَه بعشرين ألف درهم.

* * *

وكان المغنون في ذلك العصر اربعة نفر: ثلاثة بالحجاز هم ابن سريج والغَريض ومَعْبَد، وحُنين وحده بالعراق. فاجتمع الثلاثة بالحجاز فتذاكروا أمر حنين، وقالوا: ما في الدنيا أهلُ صناعة شرّ منا؛ لنا أخ بالعراق ونحن بالحجاز، لا نزوره ولا نستنزيره(٣)؟! فكتبوا إليه، ووجّهوا إليه نفقة، وكتبوا يقولون:

نحن ثلاثة وأنت وحدَك، فأنت أولى بزيارتنا.

فَشَخَص إليهم(٤). فلما كان على مرحلة من المدينة بَلَغَهم خبرُه، فخرجوا يتلقّونه. ودخلوا المدينة، فلما صاروا في بعض الطريق قال لهم معبد: صِيروا إليَّ. فقال له ابن سريج: إن كان لك من الشرف مثل ما لمولاتي صِرنا إليك. فقال الغريض: إن كان لكما من الشرف والمروءة مثلُ ما لمولاتي سُكَينة بنت الحسين عَطَفْنا إليك. فقال: ما لي من ذلك شيء. وعَدَلوا إلى منزل سكينة. فلما دخلوا إليها أَذِنَت للناس إذْناً عاماً، فَغَصَّت الدارُ بهم ليسمعوه، وصعِدوا فوق السطح وازدحموا عليه، فسقط الرُّواق على مَن تحته فمات حنينٌ تحت الهدم.

من كتاب «الاغاني» لأبي الفرج الأصفهاني.

(١) من فحول المغنين: من عظمائهم.
(٢) الحِيرة: بلدة في العراق بين النجف والكوفة.
(٣) نستنزيره: نطلب منه زيارتنا.
(٤) شخص إليهم: رحل قاصداً إياهم.



بيت لحم

قسم التوثيق والأبحاث



من أعرق المدن الفلسطينية يرتبط تاريخها بتاريخ الشعب الفلسطيني وأصالته.

تقع المدينة في جبل يرتفع قرابة ٧٨٠م عن سطح البحر في الجزء الجنوبي من سلسلة جبال القدس، وعلى مسافة تزيد قليلاً على ١٠كم جنوبي مدينة القدس.

تشكل مدينة بيت لحم مع مدينتي بيت جالا وبيت ساحور تجمعاً عمرانياً ثلاثياً، فالواحدة لا تبعد عن الأخرى سوى ٢ ـ ٣كم، فبيت جالا تقع شمالي غربي بيت لحم، وبيت ساحور شرقيها.

مناخ المدينة معتدل البرودة شتاء، فمتوسط درجة الحرارة في شهر كانون الثاني يراوح بين ٨° و ١٠°. أما الصيف فلطيف جاف، ويبلغ معدل درجات الحرارة في شهر تموز ما بين ٢٣° و ٢٥°. تسقط الأمطار في فصل الشتاء، ويصل عدد الأيام الممطرة إلى ما بين ٤٠ و ٥٥ يوماً، ومتوسط كمية الأمطار السنوية نحو ٦٠٠مم.

قدر عدد سكان المدينة عام ١٩٧٨ بنحو ٣٤ ألفاً فيهم قرابة ٩ آلاف نسمة من اللاجئين الفلسطينيين. وكان للأحداث السياسية والآلام التي تعرض لها الشعب الفلسطيني عام ١٩٤٨ دور في تطور عدد سكان المدينة، وبعد أن كان عدد سكان المدينة عام ١٩٤٧ قرابة ٨,٠٠٠ نسمة قفز عام ١٩٤٩ إلى ١٤ ألفاً، إذ لجأ الآلاف من أبناء فلسطين وسكنوا مخيمات ثلاثة بالقرب من المدينة، أكبرها مخيم الدهيشة ولا يزال هؤلاء اللاجئون يعيشون في هذه المخيمات في ظروف سكنية قاسية، إذ التمركز السكاني الشديد على مساحات ضيقة من الأرض، والخدمات الضرورية متواضعة جداً.

وهناك عامل سكاني آخر تتميز به مدينة بيت لحم هو الهجرة إلى الخارج ـ ولا سيما إلى الأمريكتين ـ التي تأخذ عادة طابع الهجرة الدائمة. وقد بدأت هذه الهجرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأخذت تتسع في بداية القرن العشرين. وتعود هذه الهجرة إلى أسباب عدة أهمها السعي إلى العيش في ظروف أفضل نتيجة التصور القديم عن ثروات الأمريكتين. وكان لعوامل الاضطراب وعدم الاستقرار السياسي أيضاً دورها في هذا المجال. ويقدّر عدد من يعود إلى أصل تلحمي في الأمريكتين حالياً بما يزيد على ٥٥ ألفاً.

لمحة تاريخية

بيت لحم مدينة قديمة في التاريخ سُكنت حوالي سنة ٢٠٠٠ق. م. وتذكر ألواح تل العمارنة التي ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد مدينة جنوبي القدس تسمى بيت إيلو لاهاما (Bit Ilu Lahama) أي بيت الإله لاحاما أو لاخاما. وهذا الإله هو إله القوت والطعام عند الكنعانيين. والأرجح أن اسم المدينة الحالي مشتق من اسم هذا الإله. وربما كان سبب جعل المدينة بيتاً للإله لاحاما أنها كانت تقع في منطقة خصبة ترعى فيها الأغنام ،والمواشي وتنتشر فيها حقول القمح والشعير والكروم والزيتون. ومن المعروف أيضاً أن كلمة بيت لحم تعني بالآرامية بيت الخبز. وفي

هذا أيضاً إشارة إلى خصب الأرض المحيطة بالمدينة. ولبيت لحم اسم قديم آخر هو أفراته أو أفرات، وهي كلمة آرامية كذلك معناها الخصب والإثمار، وبذلك يلتقي اسما المدينة عند معنى الخصب.

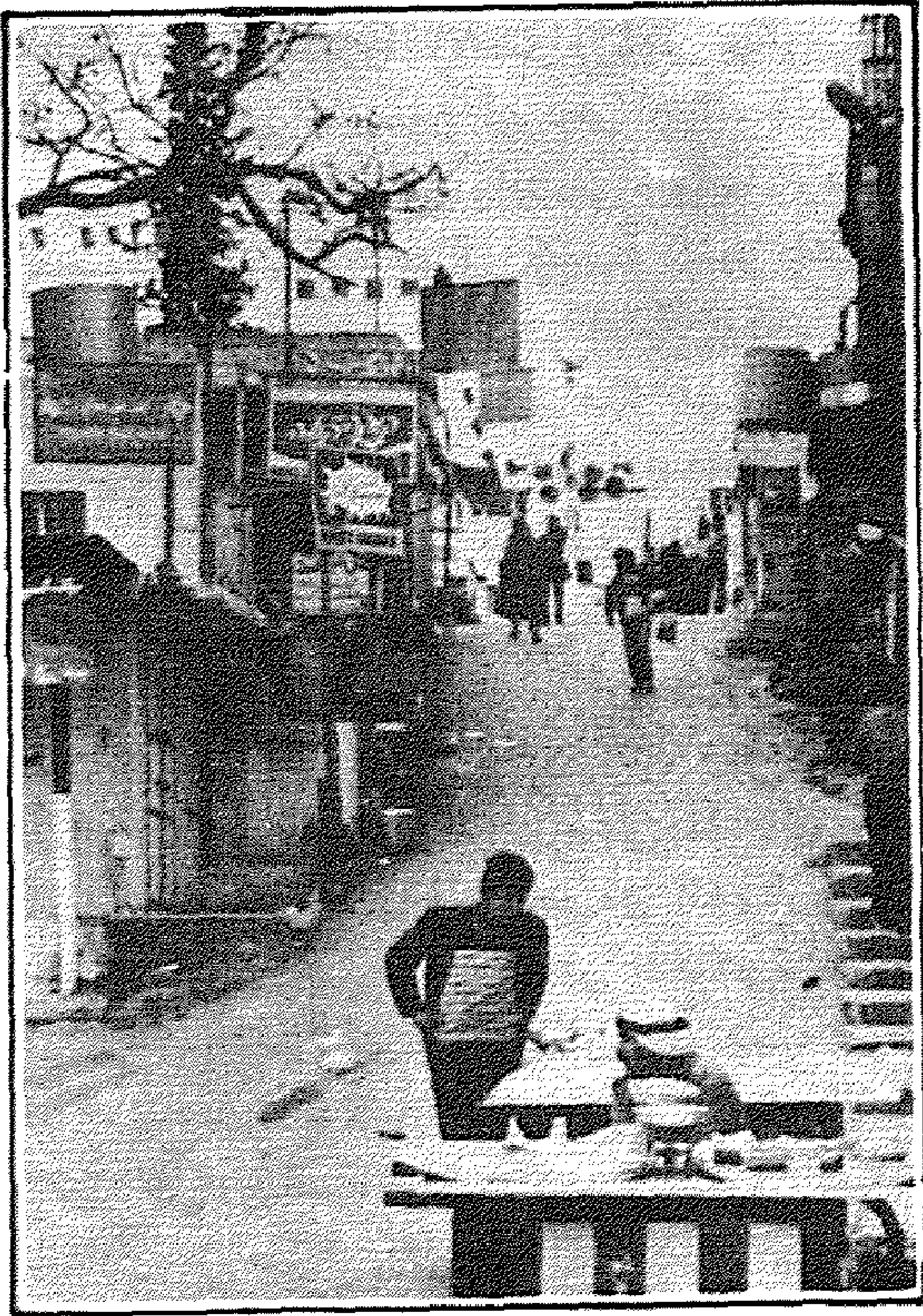
غزت القبائل اليهودية هذه المدينة الكنعانية واستقرت فيها بعد الكنعانيين. ويروى أن يعقوب عليه السلام جاء إلى المدينة من بيت إيل وهو في طريقه إلى الخليل، وقد اضطر للتوقف فيها لأن زوجته راحيل جاءها المخاض عندها فماتت ودفنها في مكان قريب من بيت لحم يعرف اليوم بقبة راحيل.

وفي أواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد تغلّب الفلسطينيون على الملك اليهودي شاؤول وقتلوه وأقاموا في بيت لحم فترة من الزمن إلى أن تغلب عليهم الملك داود.

وفي بيت لحم ولد الملك داود. ويروي سفر راعوث أحد أسفار العهد القديم قصة راعوث المآبية التي انتقلت بعد وفاة زوجها مع حماتها ناعومي إلى بيت لحم حيث تزوجت الثري اليهودي محلون وولدت له عبيد (Obed)، وهو كما قيل جد داود. وبذلك جعلت راعوث غير اليهودية جدة الملك داود. والواقع ان هذه القصة هي إضافة متأخرة إلى أسفار العهد القديم ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس قبل الميلاد، وكان القصد منها تصحيح الصورة الانعزالية لليهود خاصة بعد عودتهم من السبي البابلي في القرن السادس، وهي من الأساطير.

استمدت بيت لحم أهميتها الكبرى وشهرتها في العالم من مولد السيد المسيح فيها. ويروي إنجيل لوقا (٢: ١ ــ ٢٠) أن مريم ويوسف النجار ذهبا إلى بيت لحم ليسجلا اسميهما في الاكتتاب (الإحصاء) العام بناء على أمر أغسطس قيصر. وقد ولدت مريم السيد المسيح وهي هناك. وذكر الداعية المسيحي يوستين مارتير (Justin Martyre) الذي كتب بعد سنة ١٥٥م أن مريم ولدت السيد المسيح ووضعته في مذود في مغارة قريبة جداً من القرية.

أخمد جيش الامبراطور الروماني هادريان ثورة اليهود بقيادة باركوخبا (Bar Kokhba)، وهدم المدينة وأقام فيها حامية رومانية. ثم أمر الإمبراطور ببناء معبد للإله أدونيس فوق المغارة التي ذكر أن السيد المسيح ولد فيها.



وفي حوالي سنة ٣٣٠م بنى الإمبراطور قسطنطين الروماني كنيسة فوق المغارة دعيت بكنيسة القديسة مريم. والمشهور أن الذي بنى هذه الكنيسة هو القديسة هيلانة أم قسطنطين، وذلك بين سنتي ٣٢٦ و ٣٣٣م. وفي سنة ٣٨٦ حلّ في بيت لحم القديس جيروم وترجم فيها العهد القديم إلى اللغة اللاتينية. وبقيت الكنيسة حتى عام ٥٢٩م حين هدمها السامريون عندما ثاروا على الدولة الرومانية، فأعاد بناءها الامبراطور جوستنيان بشكلها الحالي تقريباً وأصبحت تدعى كنيسة المهد.

ويروى أن الفرس عندما احتلوا فلسطين سنة ٦١٤م لم يمسّوا الكنيسة بأذى لأنهم رأوا على واجهتها الصورة المصنوعة من الفسيفساء التي تمثل سجود المجوس بملابسهم الفارسية أمام السيد المسيح.

وعندما فتح المسلمون القدس سنة

١٥هـ/٦٣٦م أظهروا الاحترام لمهد عيسى عليه السلام. ويذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب زار بيت لحم سنة الفتح وأعطى أماناً لأهلها وحضرته الصلاة وهو في كنيسة المهد فصلى داخل الكنيسة عند الحنيّة القبلية، وكتب عمر للبطرك سجلاً ألّا يصلي في هذا الموضع من المسلمين إلا رجل واحد بعد رجل. ولم يزل المسلمون يزورون بيت لحم ويقصدون إلى تلك الحنية ويصلون فيها. ومن دلائل تعظيم المسلمين لكنيسة المهد أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يبعث بزيت يسرج في بيت لحم حيث ولد عيسى عليه السلام. وقد ظل معظم سكان بيت لحم من النصارى على دينهم بعد الفتح، ومما يذكر أن الحاكم بأمر الله الفاطمي لما أمر بهدم الكنائس المسيحية سنة ١٠٠٩م لم يهدم كنيسة المهد. وقد وصف القس اركولفوس (Arculfus) بيت لحم في القرن السابع الميلادي (حوالي ٦٧٠) فقال إنه كان للمدينة آنذاك سور منخفض لا أبراج فيه.

وفي سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م دخل الصليبيون مدينة بيت لحم بقيادة تنكريد (Tancréd). وفي السنة التالية (١١١٠م) توج بلدوين الأول (Baldwin I) فيها ملكا على القدس. وأصبحت بيت لحم أبرشية سنة ١١١٠م. وأعاد الصليبيون تعمير المدينة، وأضافوا إلى كنيسة المهد ديراً على النمط القوطي، وبنوا حصناً فيها، وأقاموا عمائر مختلفة حول الكنيسة. وفي أثناء حكم الصليبيين لم يكن اليهود يجرؤون على العيش في بيت لحم.

ولما انتصر صلاح الدين على الصليبيين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م عادت بيت لحم إلى حكم أهل البلاد، لكنها ما لبثت أن سلمت إلى الصليبيين ثانية سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م بموجب اتفاقية عقدت بين الملك الكامل الأيوبي والإمبراطور فريدريك. وفي سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م تمكن الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل من استعادة بيت لحم بمساعدة الخوارزميين.

وفي عصر المماليك زار بيت لحم أو وصفها عدد من الكتاب والرحالة المسلمين منهم الهروي المتوفى سنة ٦١١هـ/١٢١٤م وياقوت المتوفى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م الذي ذكر أنها كانت عامرة حافلة فيها سوق ومزارات، والقزويني المتوفى سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م، وابن بطوطة المتوفى سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م والظاهري المتوفى سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٩م. ومعظم هؤلاء ذكروا أن بها جذع النخلة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم (سورة مريم آية ٢٥).

وحدثت في آخر العهد المملوكي سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م فتنة في البلاد أسفرت عن هدم حصن المدينة المنيع وتخريب أسوارها. وفي سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م استولى العثمانيون على بيت لحم وبقي المسيحيون فيها يتمتعون بحريتهم الدينية. وقدر الرحالة الفرنسي فولني (Volney) عدد سكانها في القرن الثامن عشر (الثاني عشر الهجري) بستمائة شخص، وقال: «إن المسيحيين في بيت لحم يعيشون في سلام ووئام مع مواطنيهم المسلمين. وجميعهم من الحزب اليمني، والفلسطينيون حزبان يمنيون وقيسيون».

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر (الحادي عشر والثاني عشر للهجرة) حدثت نزاعات بين طائفتي الروم الأرثوذكس واللاتين حول ملكية الأماكن المقدسة في بيت لحم ومنها ما حدث سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٧م. وعندها أصدرت الحكومة العثمانية أمراً جددت فيه ما خص كلًا من الطائفتين، وفاز الأرثوذكس بمعظم الأماكن.

استمرت الخصومات في القرن التاسع عشر (الثالث عشر للهجرة). وفي عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م اختفت النجمة الفضية المثبتة في مغارة المهد وقد كتب عليها باللاتينية «هنا ولد المسيح من العذراء مريم». وكانت سرقة النجمة عاملاً هاماً في الأزمة الدولية التي أدت إلى حرب القرم (١٨٥٤م — ١٨٥٦م) بين روسيا من جهة والدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى. وانتهت الحرب بانتصار العثمانيين وحلفائهم. وسمح للاتين بعد ذلك بأن يضعوا يدهم على قسم من كنيسة المهد. وقسمت الكنيسة بين الروم الأرثوذكس واللاتين والأرمن. وما زال هذا الوضع قائماً حتى الآن.

وفي عام ١٣٣٦هـ/١٩١٧م دخلت بيت لحم وفلسطين كلها تحت الحكم البريطاني الذي

استمر حتى سنة ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م. وفي هذه الفترة كانت بيت لحم من مراكز الثورة الفلسطينية ضد الانتداب البريطاني. وكان مركز الشرطة الإنكليزي فيها هدفاً لهجمات الثوار الفلسطينيين في أعوام الثورات المتكررة ضد الاستعمار البريطاني وحليفته الصهيونية.

وبعد نكبة عام ١٩٤٨ دخل المصريون قطاع الخليل وبيت لحم، ثم انسحبوا منه في أيار عام ١٩٤٩. واستقر الحكم بعد ذلك في بيت لحم وفي الضفة الغربية كلها للأردن حتى حرب ١٩٦٧ عندما وقعت بيت لحم والضفة الغربية كلها تحت الاحتلال الإسرائيلي.

التطور السكاني والعمراني

كانت بيت لحم في العصور القديمة قرية متواضعة تكتنفها الأودية العميقة من جهاتها الثلاث. وقد اشتهرت كمركز تجاري في العهد الروماني لقيامها على الطريق التجارية التي تربط بين البحر الأحمر وبلاد الشام. ووصلت شهرتها إلى الذروة نتيجة لميلاد المسيح فيها. وفي القرن الخامس عشر الميلادي كانت بيت لحم محاطة بالأسوار، واشتملت في القرن التاسع عشر على المدارس والكنائس والأديرة والمساجد والمشاغل الصناعية، وقدر عدد سكانها في أواخر ذلك القرن بنحو ١٠,٠٠٠ نسمة. وفي أوائل القرن العشرين قدر عددهم بنحو ١٢,٠٠٠ نسمة.

أخذ عدد سكان بيت لحم يتناقص خلال الحرب العالمية الأولى بسبب الحرب والأمراض والمجاعات والهجرة. ففي عام ١٩٢٢ أصبح عددهم ٦,٦٥٨ نسمة. ولكنه أخذ يتزايد ببطء شديد فيما بعد فوصل عام ١٩٣١ إلى قرابة ٦,٨١٤ نسمة، عدا سكان الضواحي الذين قدر عددهم آنذاك بنحو ٥٠٦ نسمات. وفي عام ١٩٤٥ قدر عدد سكان بيت لحم بنحو ٨,٨٢٠ نسمة. وبالرغم من بطء النمو السكاني أثناء فترة الانتداب البريطاني شهدت المدينة نمواً عمرانياً آنئذ بسبب تدفق رؤوس الأموال من المغتربين من أبناء بيت لحم. وقد استثمر معظمها في إنشاء المباني السكنية العصرية، والمصانع المختلفة، والمحلات التجارية، ومما يدل على ذلك زيادة عدد بيوت المدينة من ١,٥٠٦ بيوت عام ١٩٣١ إلى ٢,٠٠٠ بيت عام ١٩٤٥. كذلك توسعت رقعة المدينة بفعل امتدادها العمراني، وأصبحت مساحتها ١,٦٩٤ دونماً في عام ١٩٤٥.

وفي الفترة التالية لعام ١٩٤٨ تطورت أحوال بيت لحم، وزاد عدد سكانها نتيجة تدفق اللاجئين الفلسطينيين إليها. وانعكس الأمر على زيادة بيوتها. ففي عام ١٩٦١ بلغ مجموع سكانها ٢٢,٤٥٣ نسمة يقيمون في ٣٠٥٥بيتاً. وأخذت المدينة بعدئذٍ تنمو حتى قدر عدد السكان في عام ١٩٦٦ بنحو ٢٤,٠٠٠ نسمة يقيمون في نحو ٣,٥٠٠ بيتاً. وقد أدّى الاحتلال (الإسرائيلي) للمدينة عام ١٩٦٧ إلى انكماش عدد سكانها في نهاية العام إلى ١٦,٣١٣ نسمة. وبعد أن استقرت الأوضاع نسبياً في المدينة أخذ عدد السكان يرتفع تدريجياً حتى عاد إلى ما كان عليه قبل الاحتلال، ووصل عام ١٩٨٠ إلى ٢٥,٠٠٠ نسمة. وأخذت المدينة تتوسع عمرانياً، لا سيما بمحاذاة طريق القدس ــ الخليل.

الحياة الاقتصادية

١ ــ **السياحة**: ساهم كون بيت لحم مسقطاً لرأس السيد المسيح في أن يكون لعامل السياحة وما يرتبط بها الدور الأساسي في اقتصاد المدينة التي تحولت إلى محج للسياح على مدار السنة. وعلى الرغم من أن المدينة تفتقر إلى الفنادق السياحية الكبرى فإن الجوانب الأخرى السياحية فيها متطورة، وأهمها تطور صناعة الأراضي المقدسة من خشب الزيتون والصدف والنحاس والتطريز. وقد دخلت هذه الصناعة في القرن الثاني عشر الميلادي. فأتقنها أهل المدينة وأصبحت مصدر الرزق الرئيس لمعظم بيوتها، ثم أخذت تتطور بدخول الآلة إليها.

وصناعة التحف الخشبية من أقدم الصناعات في المدينة. ففي المدينة قرابة ٨٠ منجرة تقوم بتصنيع التحف الخشبية. لكن هذه الصناعة واجهت بعد الاحتلال الصهيوني الكثير من الصعوبات، ولا سيما صعوبة تأمين خشب الزيتون الذي كان يستورد قبل الاحتلال من سورية لأن الخشب المحلي لا يكفي. وقد أدى

ذلك إلى التوجه إلى صناعة الصدف. ومعظم المتاجر صغيرة الحجم، عدا أربع منها كبيرة نسبياً، وتنتج وحدها قرابة ١٠ ٪ من الإنتاج العام.

أما صناعة الصدف فيبلغ عدد المعامل فيها ٥٠ معملاً معظمها حرفي صغير الحجم، عدا معملين كبيرين يقدمان قرابة ٣٠ ٪ من إنتاج الصدف العام. ويستخدم في هذه الصناعة الصدف الخام المستورد من الخارج. ويعمل في صناعة الصدف قرابة ٨٠٠ شخص معظمهم من أصحاب المعامل الصغيرة.

ويشكل هذان الفرعان الدخل الرئيس للمدينة، فالصدف وحده يقدم أكثر من نصف دخل المدينة الصناعي. ويذهب ٧٠ ٪ من إنتاج الخشب والصدف للتصدير إلى الخارج في حين يباع الباقي للسياح في السوق المحلية. وفي بيت لحم أكثر من ٤٥ محلاً تجارياً لبيع تحف الأراضي المقدسة.

والتطريز يدوي تقوم به نساء المنطقة على قطع صغيرة، أو على الثياب النسائية. وتشتهر منطقة بيت لحم بجمال أشكال التطريز. وقد تطورت في المدة الأخيرة في مدينة بيت لحم صناعة التحف المعدنية النحاسية، واقيم فيها معملان آليان لإنتاج هذه التحف.

٢ ـ **الصناعة**: مدينة بيت لحم ثاني مدينة في الضفة الغربية بحجم إنتاجها الصناعي بعد نابلس. وقد تطورت فيها فروع صناعية متعددة أهمها وأقدمها صناعة النسيج. وهي تساهم بسد حاجة السكان. ويبلغ عدد معامل النسيج بمختلف أنواعه ٢٧ معملاً ذات أحجام مختلفة. وهي تقوم بإنتاج أنواع كثيرة من الأقمشة، خصوصاً أقمشة الفرش والأقمشة الخشنة والمناشف. يضاف إلى ذلك عشرة معامل «للتريكو» تنتج مختلف الألبسة الصوفية وهناك ثلاثة مصانع للجوارب، وتسعة معامل لإنتاج الألبسة الداخلية. ومعظم هذه المعامل صغيرة الحجم يعمل في كل منها أقل من خمسة عمال، لكن هذا لم يمنع وجود معامل متوسطة الحجم يعمل في كل منها ما بين ٤٠ و ٥٠ عاملاً. وتستورد هذه المعامل المواد اللازمة لصناعتها من الخارج.

وتتطور في المدينة صناعة المعكرونة، ويقوم المصنعان اللذان يعمل في كل منهما قرابة ٢٠ ـ ٢٥ عاملاً بتزويد الضفة الغربية بهذه المنتجات.

كذلك تنمو في بيت لحم صناعات أخرى أهمها صناعة الأثاث المعدني التي تتم في معملين آليين. وظهر في هذا المجال مصنعان لأثاث الألمنيوم. ويتم في المدينة إنتاج السخانات الشمسية في مصنع كبير يزود الضفة بأكملها بالسخانات الشمسية. وفي المدينة مصنع مسامير وبراغي، ومعمل لإنتاج هوائيات التلفزيونات، ومعمل آخر للأسلاك المعدنية، ومصنع للمحولات الكهربائية.

وفي مجال الصناعة الكيميائية هناك معملان لإنتاج الدهانات ومعمل لإنتاج خُضُر اللدائن (البلاستيك) ومعامل أخرى لأدوات التجميل، وللصابون ولمواد التنظيف ولمبيدات الحشرات.

وفي المدينة قرابة ١٩ مقلع حجارة ومكسرة، ونحو ١١ معملاً للبلاط تزود المنطقة بما تحتاج إليه من هذه المواد.

٣ ـ **الزراعة**: ليس للزراعة في حياة بيت لحم ما للصناعة من أثر، ذلك لأسباب كثيرة أهمها طبيعة الأراضي الجبلية للمدينة التي تحدّ من تنوع الإنتاج الزراعي، وشيوع الملكية الزراعية الصغيرة التي تحدّ من الاستثمار الشامل والآلي للزراعة، يضاف إلى ذلك العراقيل التي وضعها الاحتلال الصهيوني في وجه الزراعة والتي أدّت إلى تحوّل الأيدي العاملة إلى العمل الصناعي.

والزراعة في أراضي المدينة بعلية. وأهم المنتجات الزراعية هي الشجرية من زيتون وعنب ولوزيات، يضاف إلى ذلك بعض الخضر الصيفية. ويزرع في المنطقة من الحبوب والقمح والشعير وبعض البقول.

أما الثروة الحرجية في المنطقة فبسيطة. وقد عانت من الاستعمال الجائر في سنوات الحرب العالمية الأولى. ولا توجد الأحراج الآن إلّا في بقع متفرقة حول الأديرة وبعض مناطق التحريج.

البناء والمباني الأثرية

في المدينة طرازان معماريان مختلفان، الأول قديم في البلدة القديمة حيث القباب والجدران السميكة المصنوعة من الحجر الكلسي، والأبواب

والشبابيك على شكل الأقواس. وتلتصق هذه البنايات بعضها ببعض مقسمة البلدة القديمة إلى حارات متراصة ذات شوارع ضيقة. وكان هذا هو الشكل الأمثل لتأمين الدفاع عن المدينة والأحياء قديماً. أما الطراز الثاني فهو الطراز الحديث في مناطق السكن الجديدة، ويتكون البناء فيه من الحجر المنحوت من الخارج والإسمنت من الداخل. والشبابيك والأبواب مستطيلة الشكل، والسقف مسطح. وشكل البناء السائد هو البيوت المستقلة ذات الطبقة الواحدة. وقد بدأ حديثاً بناء عمارات من طبقات متعددة.

وبيت لحم وضواحيها غنية بالآثار وأهم هذه الآثار المعمارية كنيسة المهد أقدم كنيسة في العالم.

المستوى الثقافي

نالت بيت لحم قسطاً وافراً من التعليم منذ زمن بعيد، إذ أقيمت أولى المدارس فيها منذ أكثر من ١٠٠ عام. ويعود ذلك إلى الطابع الديني الغالب على المدينة الذي أدّى إلى وجود الإرساليات والأديرة التي أقامت المدارس الخاصة منذ زمن بعيد. وقد وصل عدد طلبة المدارس فيها عام ١٩٧٨ إلى ٨,٣٠٠ طالب، أو ما يزيد على ٣٤ ٪ من سكان المدينة. ويدرس هؤلاء في ٢١ مدرسة. أما القفزة الرئيسة في التطور التعليمي في المدينة فكان افتتاح جامعة بيت لحم عام ١٩٧٣، وقد بلغ عدد طلابها عام ١٩٧٨ نحو ٧٥٠ طالباً يدرسون في كلية العلوم (أقسام الكيمياء والرياضيات والأحياء)، وفي كلية الآداب (أقسام اللغة العربية واللغة الإنكليزية وعلم الاجتماع وعلم النفس والخدمة الاجتماعية)، وكلية التمريض، وكلية المعلمين، ومعهد الفنادق. وعدد المدرسين في الجامعة ٦٤ مدرساً، ويطبق فيها نظام الساعات المعتمدة. وتساهم جامعة بيت لحم مع غيرها من المؤسسات التعليمية العالية في الضفة والقطاع بإعداد المتعلمين اللازمين للبلاد، وهي بذلك تحدّ من عملية إفراغ الأراضي الفلسطينية منهم.

الخدمات الصحية

وهي متطورة في المدينة بشكل عام. وبيت لحم من أقدم المدن الفلسطينية التي وجدت فيها المشافي. ففي المدينة ٣ مستشفيات يصل عدد الأسرة فيها إلى ٢٣١ سريراً، ويعمل فيها ٢٨ طبيباً يضاف إليهم ١٩ طبيباً لهم عياداتهم الخاصة و ٨ صيدليات.

المراجع

— مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، النجف ١٩٦٨.
— مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، بيروت ١٩٧٤.
— مرمرجي الدومينيكاني: بلدية فلسطين العربية، بيروت ١٩٤٨.
— وليد مصطفى: مدينة بيت لحم — دراسة إقليمية، دمشق ١٩٦٥.
— المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٨٧٧.
— ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت ١٩٥٧.

— Encyclopedia Britannica.
— Hamilton R. W.: The Church of the Nativity-Bethlehem, Jerusalem 1947.
— Perowne, S.: Jerusalem and Bethlehem, London 1965.

— الموسوعة الفلسطينية، المجلد (١)، الطبعة ١٩٨٤.



● «أيها الناس إني والله لا أبعث عمالي إليكم، ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنّة نبيكم، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلي. فوالذي نفسي بيده لأمكننه من القصاص».

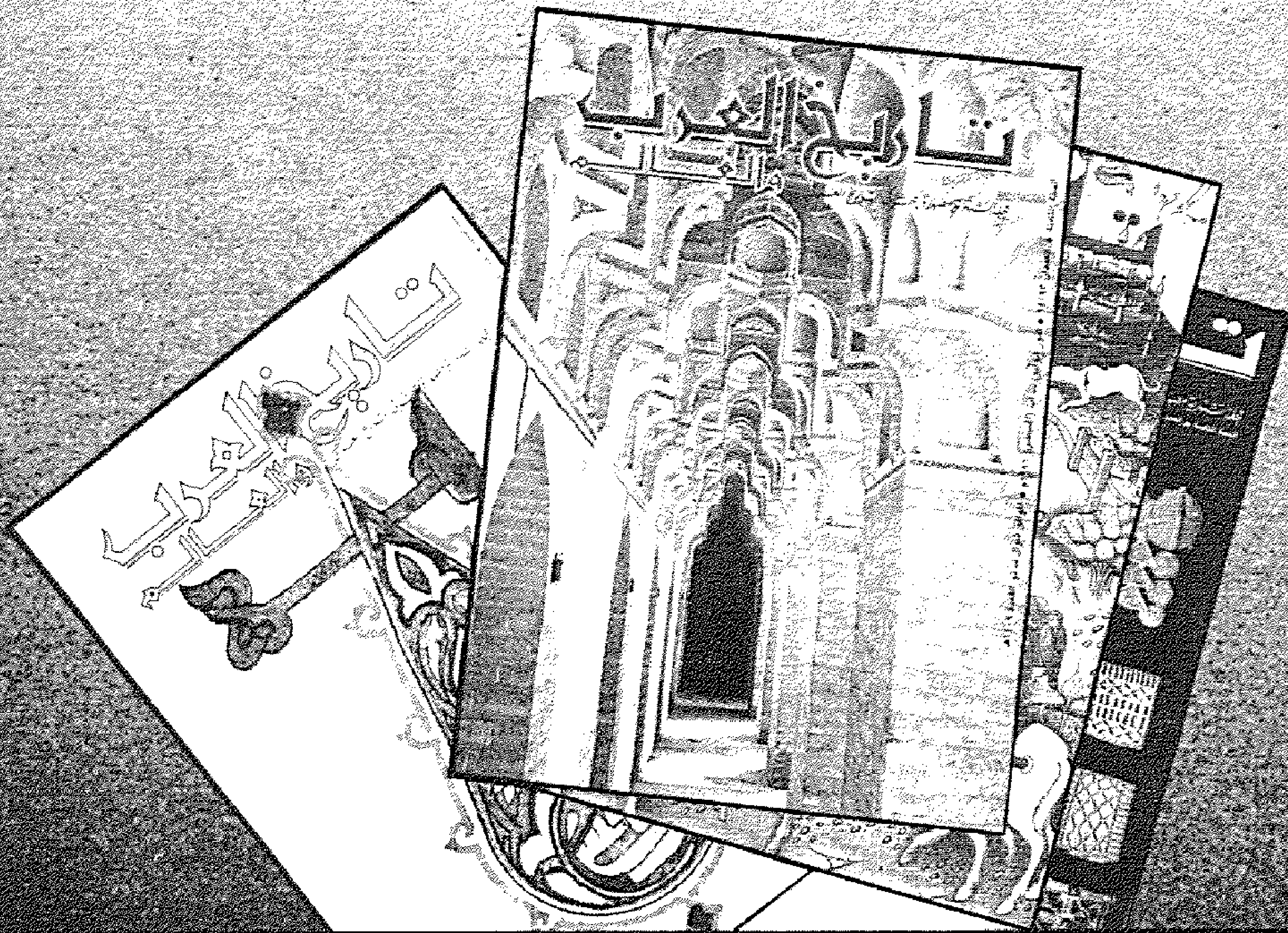
(الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه)

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير



الاشتراكات

- في لبنان .... ١٥ دولار
- للأفراد في الوطن العربي .... ٣٥ دولاراً
- للأفراد في دول العالم الأخرى ...... ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في الوطن العربي .... ٧٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية خارج الوطن العربي .... ١٠٠ دولار

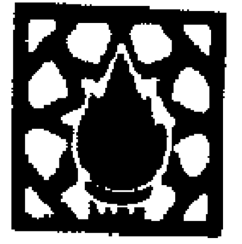
جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

بناية ابو هليل – شارع السادات – بيروت – لبنان – ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣

دائرة المعارف

هدنة

الهدنة اتفاقية لوقف العمليات العسكرية ولا تعني إنهاء حالة الحرب



الهدنة اتفاقية يتم إبرامها بين حكومات الدول أو الجماعات المتحاربة تقرر وقف الأعمال الحربية الدائرة بين أطرافها خلال مدة معينة. ولا يمكن تشبيه الهدنة بحالة السلام التي تترتب على إبرام الصلح، كما لا يمكن وصفها بأنها حالة سلام مؤقت، وذلك لأن الهدنة لا تنهي حالة الحرب. وعلى ذلك تستمر حالة الحرب قائمة بين أطراف اتفاقية الهدنة، كما تنتج حالة الحرب آثارها في علاقات هؤلاء الأطراف مع الدول المحايدة. ونتيجة لذلك فإنه من المقرر في القانون الدولي أن الدول المتحاربة تستطيع على الرغم من إبرام الهدنة ممارسة حق زيادة وتفتيش السفن المحايدة، كما يكون لها الحق في أسر السفن التي تحاول اختراق الحصر البحري، والحق في مصادرة المهربات الحربية.

وعلى الرغم من أن كافة اتفاقيات الهدنة متشابهة من حيث أثرها في وقف الأعمال الحربية، إلا أنه من الممكن التمييز بين الصور الآتية:

١ ـ **وقف القتال**: (Suspension of Arms) وقف القتال هو اتفاق مؤقت يبرم بين قواد القوتين المتحاربتين مؤداه تعطيل أعمال القتال خلال فترة قصيرة لأسباب لها طابع عسكري محلي.

٢ ـ **الهدنة العامة**: (General Armistice) تتميز الهدنة العامة عن وقف القتال بالمعنى الضيق في أن لها طابعاً سياسياً في حين يعتبر وقف القتال عملاً عسكرياً. ويترتب على الهدنة العامة وقف الأعمال الحربية بصفة عامة بالنسبة لكل القوات المسلحة التابعة للمتحاربين وبالنسبة لكافة مناطق الحرب.

٣ ـ **الهدنة الجزئية**: (Partial Armistice) الهدنة الجزئية اتفاقية مقتضاها قبول المتحاربين لوقف الأعمال الحربية على نطاق واسع يمتد لكي يشمل جانباً هاماً من القوات المسلحة أو منطقة كبيرة من مناطق العمليات الحربية.

أما فيما يتعلق بالسلطة المختصة بإبرام اتفاقيات الهدنة فيجب عمل التمييز الآتي:

١ ـ **القواد العسكريون المحليون**: يستطيع القواد العسكريون المحليون إبرام اتفاقيات وقف القتال بالمعنى الضيق حيث أن الباعث عليها يكون باعثاً عسكرياً محلياً كما أن مدتها مؤقتة. على أن هؤلاء القواد لا يبرمون عادة مثل هذه الاتفاقيات قبل الرجوع إلى القائد العام للقوات المسلحة.

٢ ـ : **القائد العام للقوات المسلحة**: يستطيع القائد العام للقوات المسلحة إبرام الهدنة الجزئية دون حاجة إلى تصديق دولته، أما الهدنة العامة فيجب التصديق عليها من السلطات العليا في دولته.

٣ ـ **الحكومات**: تختص الحكومات بإبرام الهدنة العامة لما لها من طابع سياسي ولما لها من أثر مباشر في سير الحرب.

اما عن النتائج القانونية المترتبة على إبرام اتفاقية الهدنة فيمكن تلخيصها على النحو الآتي:

١ ــ وقف الأعمال الحربية بصفة كاملة أو جزئية وفقاً للأحكام المتفق عليها في اتفاقية الهدنة وعند خطوط الهدنة المتفق عليها.

٢ ــ يكون من حق كل طرف الاستمرار في استعداداته الحربية وفي تسلحه ما دام أن هذه الأعمال تجري بعيداً عن الخطوط والجبهات التي تفصل بين الفريقين المتحاربين.

٣ ــ يوجد خلاف في الرأي بشأن حق الدول المتحاربة في زيادة قواتها العسكرية الموجودة على خطوط القتال الأمامية، والرأي الراجح أن مثل هذه الأعمال تعتبر غير مباحة لأنها تدخل تغييراً في الحالة العسكرية عند خطوط الهدنة كان من الممكن أن يمنعه الطرف الآخر لو أن الأعمال الحربية كانت مستمرة.

٤ ــ تبقي الهدنة على حقوق وواجبات المحايدين في البر وفي البحر إذ أن حالة الحرب تظل قائمة.

وتبدأ الهدنة في إنتاج الآثار القانونية المتقدمة من تاريخ إبرامها أو من التاريخ المحدد فيها لهذا الغرض. وعندما تكون القوات المحاربة موزعة على جبهات مختلفة وعلى مساحات كبيرة فإنه من الجائز أن يتم الاتفاق على تحديد تواريخ مختلفة لبدء الهدنة بالنسبة للجبهات المتعددة. ويحصل أحياناً أن تستمر بعض الوحدات في أعمال القتال بعد بدء الهدنة وذلك لأن تعليمات وقف القتال لم تصل إليها في الوقت المناسب ومن المقرر في مثل هذه الأحوال أنه يجب إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه في الوقت الذي كان محدداً لوقف القتال بالتطبيق لاتفاقية الهدنة.

ولا يجوز للقوات المحاربة التابعة لأطراف الهدنة خرق الهدنة. وإذا ما قامت القوات المسلحة التابعة لطرف بأعمال حربية ضد الطرف الآخر إخلالاً منها بشروط الهدنة، فإنها تعتبر مسؤولة دولياً، ومع ذلك فإذا ثبت أن خرق الهدنة كان نتيجة لأعمال قوات الميدان بدون تصريح من الدولة فإن المسؤولية تنصب على الأفراد الذين أمروا بها، وتجب معاقبتهم.

ولقد قام خلاف في الرأي حول موقف الدولة التي تضار نتيجة لخرق الهدنة.

ويمكن تلخيص الأحكام التي أتت بها المادة الأربعون من اتفاقية لاهاي سنة ١٩٠٧ فيما يتعلق بخرق الهدنة على النحو الآتي:

١ ــ إذا كان خرق الهدنة ليس جسيماً فإنه لا يبرر نقضها من جانب الطرف الآخر في اتفاقية الهدنة.

٢ ــ تبرر المخالفات الجسيمة لاتفاقية الهدنة إعلان الطرف الآخر لتحلله منها ولا يجوز له استئناف القتال قبل هذا الإعلان.

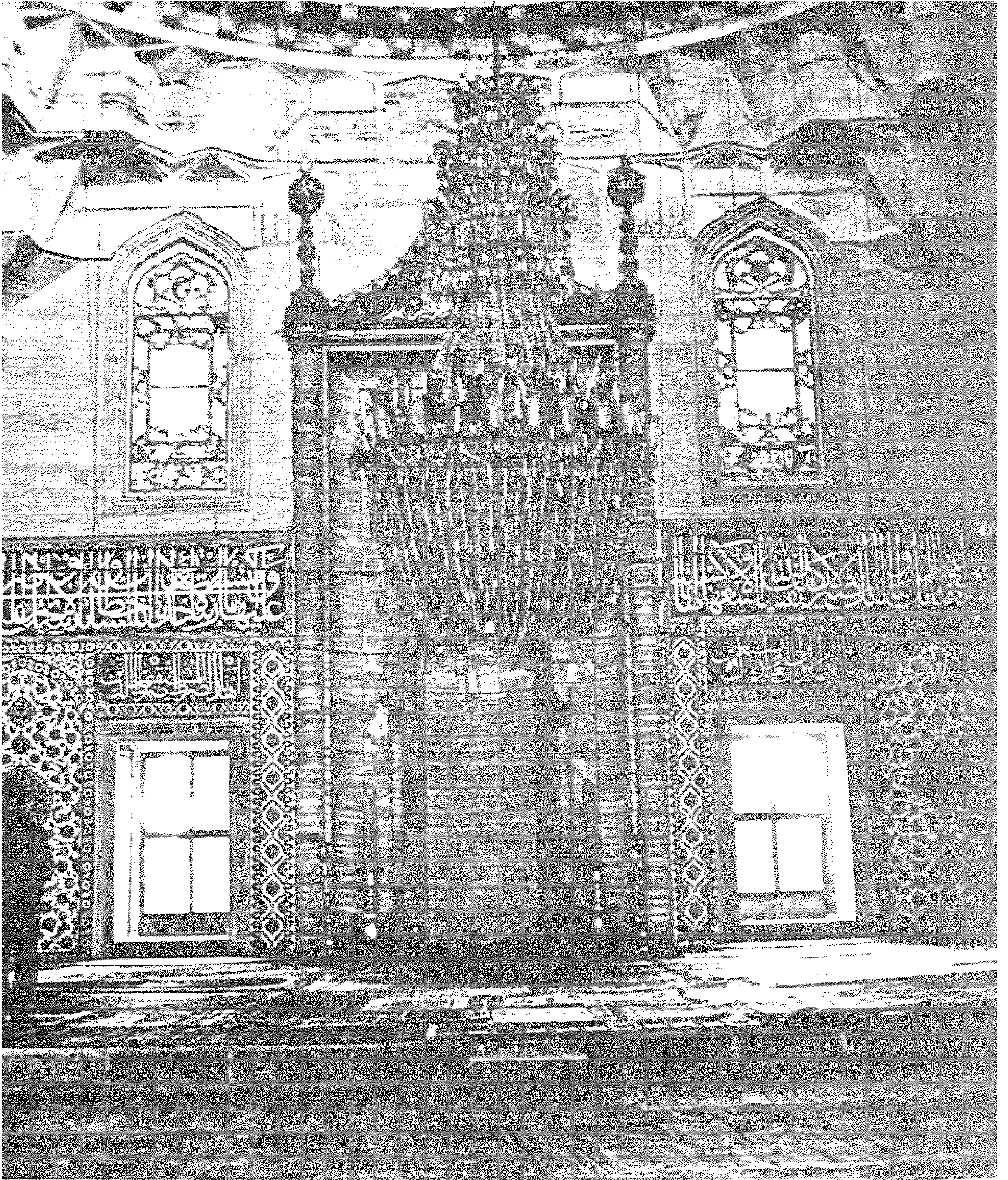
٣ ــ في حالات الضرورة يجوز استئناف القتال فوراً.

د. محمد حافظ غانم
جامعة عين شمس

إن شاء الله!

● خرج رجل إلى السوق يشتري حماراً، فلقيه صديق له، فسأله أين هو ذاهب، فقال:
إلى السوق لأشتري حماراً.
فقال:
قل إن شاء الله.
قال:
ليس ها هنا موضع إن شاء الله: الدراهم في كمّي، والحمار في السوق.
فبينما هو يطلب الحمار، سُرقت منه الدراهم، فرجع خائباً، فلقيه صديقه فقال له:
ما صنعت؟
قال: سُرقت الدراهمُ إن شاء الله!

من كتاب «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي



□ زخرفة داخلية في مسجد السلطان سليم في أدرنة.

عدد خاص

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة العاشرة • العددان ١١٧ ــ ١١٨ • تموز (يوليو) ــ آب (أغسطس) ١٩٨٨ • الموافق ذو القعدة ــ ذو الحجة ١٤٠٨هـ

ثورة الحجارة



تـاريخ العرب والعالـم

العددان ١١٧ ــ ١١٨ • تموز ــ آب ١٩٨٨

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهرين

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ . المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

الانتاج : مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٧٥٠ ل.ل.	سوريا	٢٥ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الإمارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٥ دولار
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥ دولار
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ١٠٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان • بناية أبو هليل
شقة ١١ • شارع السادات ــ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
BIMONTHLY PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 14, No. 117 / 118 • July - August 1988

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

شهادات من الخارج



ثورة الحجارة...
ملحمة جديدة في تاريـخ العرب الحديث

فاروق البربير

إذا كانت الأمة العربية أصيبت بنكسة أمام قوى خارجية ضخمة تسترت وراء إسرائيل، وهذا لا يقلل من قوة إسرائيل الذاتية، إلا أن شعوباً كثيرة غيرنا تعرضت لنكسات وهزائم أشد خطورة ولكنها سرعان ما ضمدت جراحها واسترجعت قواها المادية والبشرية والمعنوية وسارت مرة أخرى في طريق الوحدة والقوة والكرامة.

فالمعارك العسكرية بالمعنى الفني الدقيق ليست إلّا جزءاً أو ناحية من كفاح الشعوب من أجل الحرية. وقد تخسر الشعوب معركة عسكرية أو أكثر أحياناً ولكنها في نهاية الأمر تكسب الحرب الشاملة ضد الاستعمار بشتى صوره، ومختلف أشكاله السافر منها والمستتر. ذلك أنها حرب تتعدد فيها الأسلحة وبعضها كثيراً ما يكون أشد مضاء وأقوى مفعولاً في الأجل الطويل..

والعرب لا ينقصهم كثرة الأسلحة التي يملكونهـا، أكانت عسكـرية أم اقتصـادية أم بشـرية أم جغرافية.. ولعل أمضى هذه الأسلحة وأخطرها هو سلاح الوحدة والإيمان، وبالتالي النضال الجاد. لغد عربـي أفضل..

وثورة الشعب الفلسطيني في الأراضي العربية المحتلة ما هي إلا الدليل الساطـع والحي على إيمان وتصميم هذه الأمة على النضال لاسترجاع الأرض التي سلبت بالخداع والقهر والقوة..

إن حق الشعب العربـي باسترجاع أرضه وحريته وحلمه، هو ملازم، لاسترجاع إنسانيته التي فقدها، عام ١٩٤٨، والتي بدونها لا يستطيـع أن يحيا..

إن الثورات من أجل الحرية، سواء كانت ثورات تحرر الشعوب من نير حكم المطلق أو تحرر الأمم من حكم الاستعمار الأجنبـي، لا يصـح أن يبنى الحكم في أمرها على مخاوف الخائفين مما تتقاضاه الثورات التحررية من الجهود وما تتكلفه من التضحيات فالحرية لا تتجزأ: فأما حرية مـع وحدة وكرامة وعزّة، وأما خضوع واستسلام للقدر الذي لا يساوم ولا يرحم.

ومما يؤسف له أن الثورة المستمرة منذ أكثر من عشرة أشهر في الأراضي العربية المحتلة تستحوذ على انتباه وقلوب الملايين من أحرار العالم ولكننا لا نلمس أو نجد أن هناك اهتماماً ودعماً حقيقياً من الملايين العربية المنتشرة من الخليـج العربـي إلى المحيط. ونخطىء خطأ كبيراً إذا ظننا بأن هذه الثورة هي ثورة فلسطينية بمعناها الإقليمي.. فهي ثورة عربية في منطلقها ومسارها وأهدافها وأحلامها..

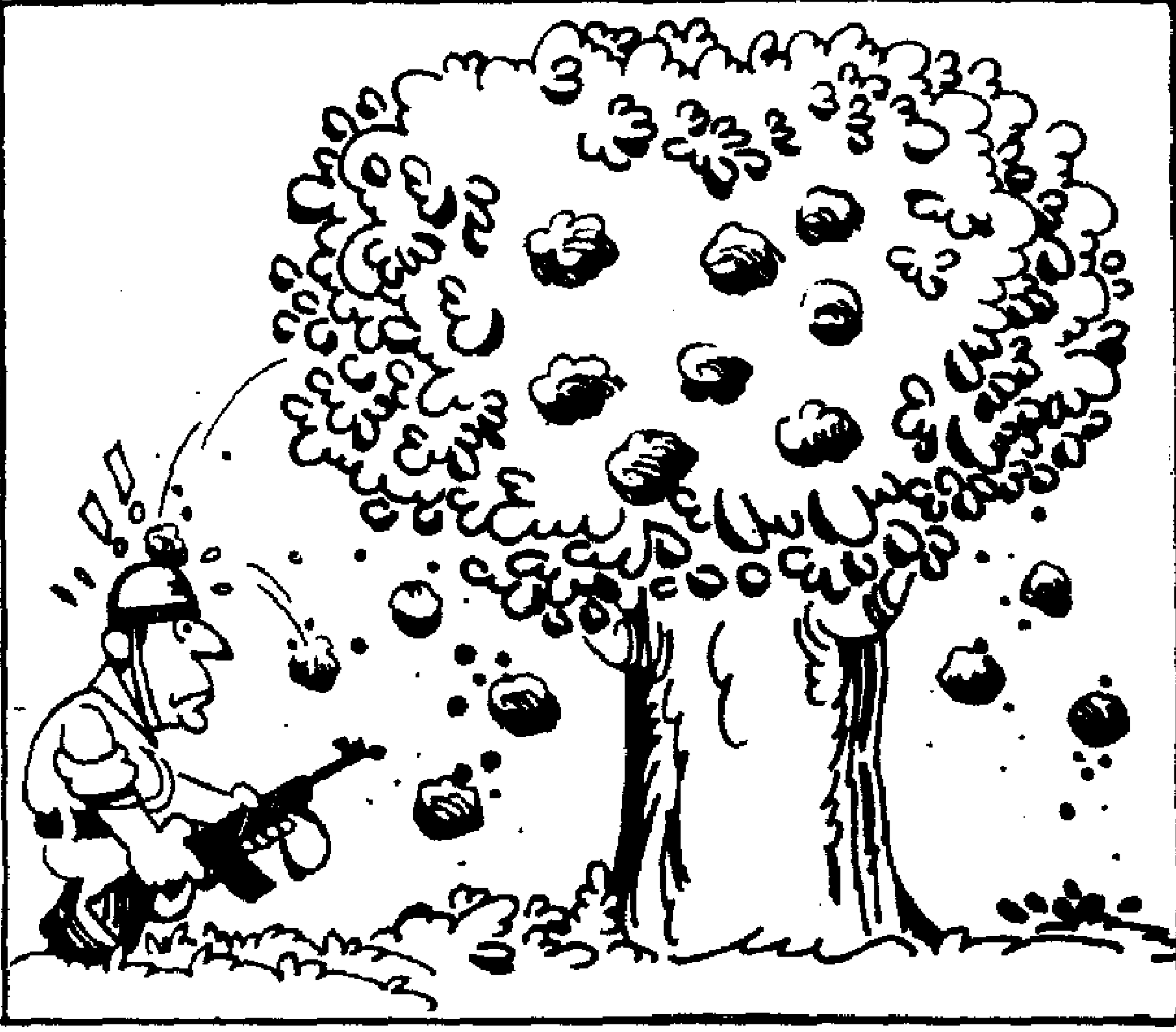
هي ثورة ضد الاستعمار الإسرائيلي، الذي حرق وهدم ثم احتل الأرض ثم شرد وقتل الأحرار ثم جال بنظره إلى «خارج» فلسطين فاحتل سيناء والجولان وجنوب لبنان، ولم يتورع من احتلال عاصمتين عربيتين هما: القدس عام ١٩٦٧ وبيروت عام ١٩٨٢!..

إن محو الاستعمار لا يمكن أن يعبر عبوراً دون أن يلاحظه أحد كما يقول «فرانز فانون»، لأنه يتناول الوجود، لأنه يغير الوجود تغييراً أساسياً. إن المناضل الفلسطيني في الأراضي العربية المحتلة يتحول رويداً رويداً من مواطن عادي إلى مناضل حقيقي يدخل التاريـخ من بابه الواسـع ويحمل إلى الوجود لغة خاصة وإنسانية جديدة. إن النضال ضد الاستعمار الإسرائيلي هو خالق رجال جدد حقاً.

إن هذا العدد الخاص من مجلة «تاريـخ العرب والعالم» هو عطاء متواضـع للمناضلين والمناضلات في الأراضي العربية المحتلة الذين يسطرون فصلاً جديداً رائعاً من نضال العرب الحديث.



ثورة الحجارة



□ نقلاً عن جريدة الحقيقة ١٩٨٨/٣/٢٥.

المطران جورج خضر



أطفال فلسطين كالموسيقى لغة يفهمها كل البشر. خطاب إلى الله، بلوري مثله، قوي مثله لأن القلب البريء من الزيف يقول الله أمام الجبابرة الطفولة الواحدة في العالم طريّة كالندى، مطهرة كالنار. هي بدء سابق للفكر، متقنة كالقلب، محكمة كالوتر وعت القدس نفسها مثل وعي العذراء بتوليتها وكما أدرك ضياء الكون أنه ليس إلى إنقضاء.

الحق لا يحتاج إلى شرح. في الشرح بعض من شك. هذا كفاح طالع من الفجر أنه من طبيعة الصدق، من وثبة الشهادة، من طهرها وأبديتها. لذلك أسلم له العالم واستعاد به بكارته. في التوراة قصته. فيها أن رجال إسرائيل «اصطفوا لمحاربة الفلسطينيين ووقف الفلسطينيون على جبل من ههنا ووقف إسرائيل على جبل من هناك وبينهم الوادي. فخرج رجل مبارز من عسكر الفلسطينيين إسمه جليات.. فوقف ونادى صفوف إسرائيل وقال لماذا تخرجون للاصطفاف في الحرب... اختاروا رجلاً ينازلني. فسمع شاول وجميع إسرائيل كلام الفلسطيني هذا فارتاعوا وخافوا جداً. تصدى له داود الفتى الصغير ورفض داود حمل الدرع والسيف ولكنه أخذ عصاه وانتقى خمسة حجارة ملس من الوادي ووضعها في الجراب ومقلاعه بيده وأخذ داود حجراً من الجراب وقذف بالمقلاع... «وظفر داود بالفلسطيني بالمقلاع والحجر».

وانقلبت الأدوار. إسرائيل منذ نشوئه يستضعف أهل الأرض. يصبح هو جليات الجبار. داود الصغير أضحى اليوم أي ولد في الضفة وفي غزة يجسر بمقلاع وبغير مقلاع أن يقول لا للظلم كل هؤلاء الصبية ما ذاقوا بلدهم القديم. ولدوا «في تشريد الحرية» في ذكرى وطن محذوف.

الشيء الدائم في الوطن أنه مكنون لا يلغيه في القلوب الفتح والو قهر الفتح ترابه. إن للتراب عندنا قدسية ولكن إن صارت الأرض وما عليها من تاريخ بعضاً من كياني فهي باقية ما بقيت. الذين يعيشون على رقعة واحدة إذا تدخلوا فما من إمكان استئصال تاريخهم إذا جعلت منه رؤيتي إلى أين أخرج منه؟ فلسطين لم تطرح من قلوب أبنائها يحلمون بها كما يحلم الجائع بالرغيف. يأتي العبان سياسي ليقول أن هذا سراب، إن ثمة تاريخاً أصدق وأصل. توحي سارة إلى إبراهيم عن هاجر: «أطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني اسحق» (تكوين ٢١ : ١٠). فمضت وتاهت وكان إسماعيل «ينمو رامي قوس» ابنه في الضفة وغزة ينمو رامي حجر لأن خطيئة اسحق هي إياها أن ينفي أخاه إلى الصحراء، إلى صحراء الخلو من الكرامة.

أنا أفهم حنين اليهود إلى فلسطين. إنهم يحسون أن لهم معها روابط لا تنفك ولكن كيف لا يفهمون أن أهل فلسطين لهم أيضاً في نفوسهم معراجاً إليها؟ في آخر المطاف يتبين أن التلازم الذي تقيمه الايديولوجية الصهيونية بين هذه الأرض وشعب اليهود دون سواه يصطدم بالواقع الفلسطيني الإنساني. إن ضراوة النظرية تقود إلى إبادة الأجساد الفلسطينية. إن تفريغ الأراضي المقدسة من الشعب العربي أمر تفرضه النظرية إذا ذهب بها دعاتها إلى آخر المنطق. وهذا مسجل في تاريخهم منذ البدء. إن الممارسات الحالية لفي خط مستقيم مع هذا الذي ورد عند أول فاتح عبري لفلسطين عنيت به يشوع بن نون لما قال لذويه عن خمسة ملوك كنعانيين: «ضعوا أرجلكم على أعناق هؤلاء الملوك. فتقدموا ووضعوا أرجلهم على أعناقهم» (يشوع ١٠:٢٤). هذا يوافق سياسة الأرض المحروقة وإبادة النـاس، تلك السياسة التي نادت بها التوراة في فتح أريحا تقول: «فتكون المدينة وكل ما فيها محرماً للرب» (١٧:٦) أي مبيداً إبادة كاملة. كذلك الجندي العبري الذي لا ينفذ هذه السياسة فهو وبنوه وبناته وكل ما يملك فينطبق عليه القول «رجمه إسرائيل بالحجـارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة» (٢٥:٧).

يشوع بن نون فتح كنعان بإسم الله، أدولف هتلر آمن على طريقته بهذا الإله لأنه أخذ من كلام أشعياء النبي كلمته «معنا هو الله» وحفرها على منطقة (زنار) كل جندي وبدا للألمان آنذاك أن الله نفسه يبيح لهم البلدان التي احتلوها. إنهم حسبوا أنهم بإسم الله يقتلون اليهود ويقتلون الغجر وأن الإله نفسه يريدهم أن يفنوا كل هذه الأقوام. أفظع مجزرة في تاريخ الناس تلك التي ارتكبها النازي في حق اليهود. النازية هي أن ترفض الآخر لمجرد أنه آخر وأن تمحو ذكره من الأرض. ذلك أنك بنيت نظرية في وحدة الأمة وسلامتها وكل ما يجرح هذه الوحدة يجب أن يزول.

الموت، موت الآخرين، شرط لتثبيت وحدة قرارنا نحن قوامها وعناصرها. أما إذا دل الواقع على أن هذه الوحدة المصبوبة نظرياً لا تلائم الساحة فلتخرب الساحة لتبقى الأيديولوجية. إنه لمن المحزن جداً ألا يكون اليهود قد أفادوا من خبرتهم المريرة لألمانيا النازية ولم يسعوا إلى ديموقراطية حق. لقد وضعوا غير كتاب عن أوشفيتز حيث عُذبوا وأحرقوا وجعلوها مصدراً لكل فلسفة جديداً وقالوا إن اللاهوت أي أرقى تأمل إنساني لا يسع الإنسانية أن تقيمه اليوم كما كانت تقيمه قبل أوشفيتز. أنا أتعاطف وهذا تعاطفاً كبيراً. ولكن لماذا تصبح الضحية جلاداً والمقهور قاهراً؟ لقد أعطى اليهود للإنسانية المتحضرة درساً لن تنساه وستفكر هذه باللعنة التي حلت بالبشرية المسيحية الأوروبية لما عصت مثلما عصت وتشوهت كما تشوهت. إن اليهود في عصر هتلر كانوا مسيح الرب. بدماء لهم زكية خرجوا من بابل تلك وتمجدوا في عيني الرب وما قصرت يده عن غذائهم. لكنه في ما بعد أيقظ لهم الصباح وقد فهمنا معهم ألا «نخاف من إنسان يموت ومن ابن الإنسان الذي يجعل كالعشب». انتفضوا من التراب وجلسوا وكعبد الله الذي ترنم به أشعياء تعالو وارتقوا وتساموا جداً لأنه لم تبق لهم صورة ولا جمال «وحمل الرب أوجاعهم كما حمل أوجاع ماسيا لأنهم سيقوا، أمة، إلى الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها لم يفتحوا أفواههم» (أشعياء ٥٣).

فتية فلسطين ونساؤها اليوم يساقون إلى الذبح لأنهم شهدوا. أهكذا ضعف إسرائيل أنه يخشى الحصى؟ الحجارة لا تقتل. إنها تشهد. الدعوة الصهيونية تقول عن اليهود النازحين إلى فلسطين أنهم شعب بلا أرض يجيئون إلى أرض بلا شعب: إن كان هذا هو الحق فكيف ينبت هؤلاء الأحداث؟ يطلعون من قلب النهار وإسرائيل لا يريد أن يرى حتى يصح فيهم قول نبي لهم: «غلظ قلب هذا الشعب وثقل أذنيه وأغمض عينيه لئلا يبصر بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه ويرجع فيشفى» (اشعياء ٦:٩ ، ١٠). كنا نعذر الناس في استقرائهم تاريخهم فمن السهل أن يكذبوا. ولكن هل تكذب الحادثة؟ كيف لا نقرأ طراوة العظام إذا جاء الجندي وكسرها؟ درساً في العظام بليغاً هكذا أرادوه. «إن كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا فماذا يكون باليابس»؟ (لوقا ٢٣: ٢١). الإيمان يقاوم الدروع. انتفاضة حادة في قناعتها، ليس كالوداعة، متمردة كالصوان. اليهود شعب يتقن البكاء وأنتج أجمل أدب المراثي في العالم. يتباكون ويستبكون ويلفتون الناس إلى كونهم أضاحي أبدية. الذين توجعوا بهذا القدر المذهل كيف يحطمون أعضاء البشر؟ كيف ينفذون الأمر العسكري بالتعذيب وهم يعدون مجرمي حرب ليس فقط الضباط الفاشيين ولكن الأنفار الذين نفذوا الأوامر؟ هذا الشعب الذي قال أنبياؤه في العدل ما لم يقله ثائر، كيف لا يرى أن صراخ الشعب الفلسطيني يصعد هو أيضاً إلى إله الرحمة والرأفات الذي يعبده اليهود؟ إن كانت الحرية خيراً وحقاً للناس فهي أيضاً لهذا الشعب العربي الذي صار، بالقمع الذي يذوقه، مسيح العالم.

(«النهار» ١٢ آذار ١٩٨٨)



هذه الانتفاضة الفلسطينية المباركة

السفير د. حليم أبو عز الدين



منذ ان اعلنت بريطانيا في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٧، في كتاب وجّهه وزير خارجيتها في ذلك الحين، اللورد بلفور، إلى رئيس الهيئة اليهودية الصهيونية البريطانية، من قبل ان تحتل بريطانيا فلسطين، منذ ذلك الحين وحتى اليوم، لم تخل الأرض الفلسطينية من ثورة او وثبة او تحرك او اضراب أو اضطراب أو حرب تخاض في سبيل الدفاع عن الحق العربي الفلسطيني وعن الأرض العربية الفلسطينية أو عن ما تبّقى منها.

والواقع ان تاريخ فلسطين، منذ سبعون عاماً، هو تاريخ ثائر متحرك متوثب ديناميكي لم يهداء البتّة، وإذا هادن فترة فلكي يتمكن الشعب الفلسطيني من إعادة استجماع قواه واعدادها لخوض حركة جديدة، أو حرب جديدة.

وهذا قدر فلسطين وشعب فلسطين وارض فلسطين، فأرضها مقدسة ترنو إليها الابصار وتلاحقها الخواطر والافكار وتكّرمها اديان توحيدية متعددة. وقدر شعب فلسطين ان يدفع من ارواح ابنائه وراحتهم، من آلامهم وتضحياتهم، من شدائدهم ومآسيهم، ثمن قداسة ارضهم.

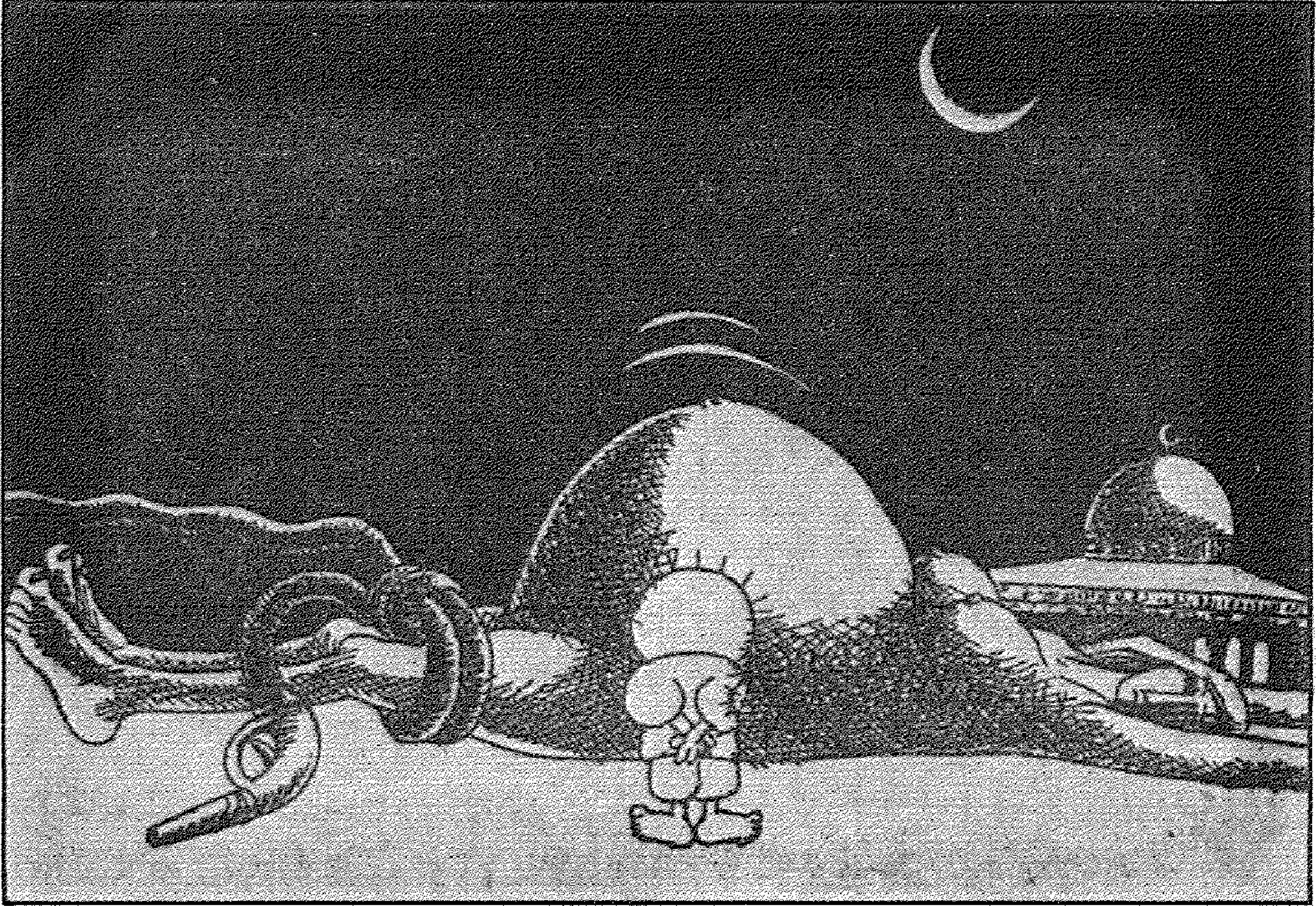
وتكاتفت على شعب فلسطين قوى خارجية متعددة، قوى استعمارية وقوى صليبية وقوى دينية، تضافرت كلها عليه وعملت على السيطرة على مقدساته واستطاعت ان تهجّر اكثره من دياره وان تقيم على ارضه دولة غريبة تجمع إلى مثالب الاستعمار بغض التعصب الديني وعدوان العنصرية الحاقدة. ولم يركن الفلسطينيون، وورائهم اخوانهم العرب، إلى الاستسلام للقهر، ولم يرضوا بالهوان. فرفضوا الواقع الاليم وقاوموه وجالدوه.

وإذا كان تاريخ القضية الفلسطينية تحت الانتداب البريطاني بين عامي ١٩١٧ و١٩٤٨، هو تاريخ الحركات والاضطرابات والثورات، فإن تاريخ القضية الفلسطينية، منذ العام ١٩٤٨، أي منذ قيام اسرائيل، هو تاريخ الحروب والويلات والهزائم والتهجير.

ولكن الفلسطينيين والعرب، وبرغم هذه المآسي المتسلسلة، لم يستسلموا للضيم ولم يقبلوا الهوان. تعرضّوا للقهر ولكنهم لم يقبلوه، ومنوا بالهزائم ولكنهم لم يرتضوا بها. وخسروا الأرض والمال، وتعرضوا للمهانة ولكنهم ما استهانوا وواجهوا الذل ولكنهم لم يذلّوا.

واستمر تاريخ فلسطين بعد العام ١٩٤٨، كما كان قبله، بل واشدّ تاريخ الحروب والرفض والالآم. وعاشت القضية الفلسطينية طيلة السنوات بين مدّ وجزر وحرب ولا حرب وقتال وتهادن.

ولم يغفل العرب، بجانب هذا الصراع الدائم العمل السياسي والنضال الديبلوماسي من اجل مساندة قضيتهم الكبرى. طرحوا قضيتهم امام العالم، طرحوها في الامم المتحدة وفي مجلس الامن، طرحوها أمام سائر المنظمات الدولية وامام المؤتمرات وأمام الهيئات ذات الطابع الأممي، طرحوها أمام اللقاءات الاقليمية والعالمية



□ بريشة ناجي العلي.

والمتخصصة، طرحوها أمام مؤتمر «باندونـغ» والمؤتمرات الاسيوية الافريقية، أمام مؤتمرات القارات الثلاث، امام مؤتمر عدم الانحياز، امام المؤتمر الإسلامي، أمام المجموعة الاشتراكية، أمام المجموعة الأوروبية الغربية وغيرها. وحل بند «قضية فلسطين» بنداً دائماً على جدول أعمال الجمعيات العامة للأمم المتحدة وأمـام دورات مجلس الأمن. واستصدر العرب مجموعات من القرارات الدولية لتأييد قضيتهم في فلسطين، لا تقع تحت تعداد ولا حصر.

ولكـــن،

ولكن هذه القرارات بقيت كلّها حبراً على ورق. بقيت قرارات نظرية، لم تتمكن الأمم المتحدة، ولم يتمكن مجلس الأمن، ولم تتمكن المـؤتمـرات الاقليمية والدولية من وضعها موضع التنفيذ. وتأكدّ للعرب ان قضية فلسطين لا يمكن أن تحلّ إلاّ على ارض فلسطين.

فالعرب خسروا فلسطين في حروبهم على أرض فلسطين، واليهود ربحوا اسرائيل في حروبهم على أرض فلسطين، وما خسره العرب بانفسهم لا يمكن ان يعيده العالم إليهم، والرئيس الخالد جمال عبد الناصر قال: «ما خسره العرب بالقوة لا يسترد بغير القوة». وعمل الرئيس العربي السوري المناضل الفريق حافـظ الأسد عـلى استكمال التـوازن الاستراتيجي مـع اسرائيل من اجل الاعـداد لاعادة الاعتبار واستعادة الأرض.

وفي وسط هذا الخضّم من الاحداث ، ومنها ما هو ايجابي ، ومنها ما هو سلبي ــ كمعاهدة كامب دافيد بين مصر واسرائيل ــ وكذلك الخلافات العربية ــ العربية، والفلسطينية ــ الفلسطينية، في وسط هذه الأوضاع التي تتراوح بين المدّ والجزر، بين الأمل والقنوط، بين الرجاء واليأس، انبثق، فجأة، في ٨ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٨٧م، نور حركة شعبية شمولية قام بها شعب فلسطين يجمع فئاته في وجه الاحتلال العسكري الاسرائيلـي.

وسطـع نور هذه الحركة داخل فلسطين وامتدّ شعاعه إلى الخارج فحرّك النفوس واحيا الآمال. وحار العرب في وصف هذه الحركة: أهي ثورة ، ام اضراب، أو اضطراب؟ أهي ثورة أم فورة؟ أهي

ثابتة أم انية؟ أهـي ومضة لامعة لا تلبث ان تخبو، أم هـي شعلة دائمة؟ أهـي مدروسة ومخطط لها، أم هـي مرتجلة ومبتسرة؟ كـل هذه الخواطر جالت في افكار العرب، وغير العرب، ولبث العرب وغيرهم ينظرون وينتظرون ، وإذا بها تشتعل وتمتد وتمضي قدماً وتتسع، وإذا بها تشمـل الجميـع.

إذن هـي حركة شعبية جماهيرية لا يمكن ان تكون مرتجلة وكيفية. ومـع الايام تأكد ان هذه الحركة المباركة تجاوزت مرحلة العودة او ردّة الفعـل. واثبتت انها «انتفاضة» شعبية جماهيرية عارمة اختلط فيها الجميع وامتزج في ثنايـاها الجميع، واكدّت انها صحوة قومية طال انتظارها. وظهر منها انها بداية حركة تصحيحية في مسيرة النضال العربي الفلسطيني. وراهنت على انها نقلة نوعية جديدة وواعية فـي مجال العمل القومي العربي.

واشرأبّت إليها الأفكار وتعلقت بها الآمال ونظر إليها العرب على أنها حركة تصحيحية في مسيرة النضال العربـي الفلسطيني.

حركة قامت على الدرس والتخطيط والتنظيم، قامت على صهر جميع الفئات الفلسطينية في بوتقة شعبية واحدة، حركة ازالت الطبقية والقوميـة والتحتية، وجمعت بين كبار الملاكين والاثريـاء والمتوسطي الحال والعمال والطلاب في جمهرة واحدة عاملة. حركة اظهرت انّ الشعب هو القائد وان الجماهير هي الفاعلة.

حركة برهنت على اختمار الوعي القومي وعلى حسن انتهاج السبيل العلمي التنظيمي في العمل الوطني. حركة بلغ من جماهيريتها وانتشارها انها عبرت حدود القدس والضفة الغربية وقطاع غزة، إلى سائر اراضي فلسطين العام ١٩٤٨، إلى حيفا ويافا والجليل وعكا وصفد وطبريا. حركة اقضّت مضجـع الاسرائيليين، خاصة عندما تجـاوزت حدود العام ١٩٦٧ إلى العام ١٩٤٨.

هذه الانتفاضة التي تلقفها العرب واهتزّ لها العالم واهتـم بها كما لم يهتم لأية قضية عربية من قبل. هذه الانتفاضة التي دخلت قواميس لغات العالم بلفظهـا العربي وتبنّتهـا سائـر اللغات الاجنبية. فاصبحنا نسمـع لفظة «الانتفاضة» باللغات الانكليزية والفرنسية والالمانية والايطالية والاسبانية وأيضاً بالروسية.

هذه الانتفاضة الفلسطينية اثبتت ان الجماهير توازي، ان لم تتقدم ، على قياداتها، وان الشعب الفلسطيني قد استوعب عبر الماضي واستفاد منها، من العمل السليم ومن الاخطاء، واضاف إليها خبرة الواقع الأليم، الواقع الذي يطهّر الانفس ويشحذ الهمم.

الانتفـاضــة اظهـرت ان العمــل السلبي الجماهيري يتجاوز العمل النظامي العسكري وانّ ما خسره العرب أمام اسرائيل في الحرب النظامية، هم قادرون على التعويض عنه بالحرب الشعبية الجماهيرية غير النظامية، حرب الكرّ والفرّ، حرب الاستنزاف التي تقلق اسرائيل وتخيفها اكثر من الحرب النظامية التي اعدّت لها اسرائيل كلّ عدّتها.

الانتفاضة اثبتت، من حصيلة تجارب اربعين سنة من الرفض والنضال، أنّ العمل من الداخل من داخل الأراضي المحتلة، هو أفعل من العمل في الخارج أو من الخارج. وإنّ العمـل الخارجي هو مساند للعمل الداخلي.

الانتفاضة اثبتت انّه لابدّ منهـا، للتحريك والإثارة والاستنزاف، لحين التوصل إلى تحقيق التوازن الاستراتيجـي . الانتفاضة جاءت تطرح القضية الفلسطينية باسلوب جديد ومن زاوية جديدة اثارت انتباه العالم وأهتمامه. والانتفاضة ازالت الصبغة الروتينية التي كانت قد آلت إليها قضية فلسطين بعد سنوات طوال من تكرار بحثها على المنابر الدولية. والانتفاضة فتحت البـاب من جديد أمام مشاركة الفلسطينيين في تقرير مصيرهم وعدّلت من مواقف بعض الدول المناهضة لهذا الحق الفلسطيني.

الانتفاضة هـي العمل العربي الفلسـطيني الجاد، الفاعل، الذي يجب ان يستمر إلى النهاية ، وحتى تقرير المصيـر.

ضحـايا الانتفـاضة غـالية، ودمـاء ابـطال الانتفاضة غالية، ولكن الارض غالية، والكرامة غالية. ومهما غلا الثمن فهو رخيص أمام القضية ، أمام الأرض، وأمام الكرامة. هذه الانتفاضـة الفلسطينية المباركة يجـب ان تستمر حتى النهاية، حتى النصر.







نضال الشّعب الفلسْطيني مِن خلال ثوراته في عهْد الانتداب (١٩٢٠ ـ ١٩٤٨)

العَميد الركن د. ياسين سوَيد

تاريخ العرب والعالم ـ ٧



منذ ان بدأت الحركة الصهيونية تبذل مساعيها الناشطة لتحقيق حلمها بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، في أواخر القرن المنصرم، بدأ الشعب الفلسطيني يتحسس الاخطار المحدقة به ويسعى جاهداً لتعطيل مساعي تلك الحركة ووضع حدّ لاطماعها، وذلك باشكال مختلفة من النضال تارة سرّية وطوراً علنية، وإن لم يكتب لهذا النضال ان ينجح في منع الصهيونية من تحقيق اهدافها، فذلك لان الاستعمار، بكل اشكاله، قد تآمر على الأرض والشعب في فلسطين، فانتزع الأرض من اهلها والقاطنين فيها وقدّمها لقمة سائغة للدخلاء اليهود، وشرّد الشعب الفلسطيني، وهو لا يزال يرفض، منذ اربعة عقود، حق هذا الشعب في العودة إلى ارضه وتقرير مصيرة وتكوين دولة مستقلة له على تراب وطنه.

ما ان وضعت الحرب (العالمية الأولى) اوزارها، حتى تبيّن للعرب مدى الخداع والتضليل الذي مارسه حلفاؤهم البريطانيون والفرنسيون تجاههم، وهم الذين ثاروا على الحكم العثماني، وانضموا إلى صفوف الحلفاء في الحرب، آملين ان يساعدهم هؤلاء الحلفاء على إقامة كيانهم القومي المستقل على امتداد الأرض العربية، إلّا أنّ هؤلاء الحلفاء عمدوا إلى احتلال الوطن العربي باسم «الاستعمار» الصريح تارة، وباسم «الانتداب» وهو استعمار مضمر، تارة اخرى، بل واكثر من ذلك جزّؤوه إلى كيانات ضعيفة هشّة، ثم عمدت بريطانيا إلى اعطاء ما لا تملك (ارض فلسطين) إلى من لا يستحق (اليهود) وفقاً لما سمّي «بوعد بلفور».

وهكذا بدأ العرب عامة، والشعب الفلسطيني خاصة، نضالهم الشاق الطويل ضد التحدي الصهيوني الاستعماري الجديد.

لقد سبق لعرب فلسطين ان تنبّهوا للخطر الصهيوني قبل فترة الانتداب البريطاني، إذ بدأت هجرة اليهود إلى فلسطين تتزايد، وبدأت نشاط الحركة الصهيونية المتمثلة بالمؤتمر الصهيوني العالمي يتصاعد، مما أثار مخاوف الفلسطينيين، فبدأوا يسعون لمنع موجات الهجرة اليهودية او يعملون على الحدّ منها بمختلف الوسائل[1] خاصة وأن هذه الهجرة كانت تتخذ طابعاً استيطانياً واضحاً، وما أن نشر وعد بلفور (في الثاني من تشرين الثاني عام ١٩١٧) ثم اعلنت بريطانيا انتدابها على فلسطين (عام ١٩٢٠) حتى أصبح الفلسطينيون وجهاً لوجه أمام الحقيقة الدامغة: عزم بريطانيا على تنفيذ وعد بلفور بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

ولم يأل الفلسطينيون جهداً في مقاومة الحركة الاستيطانية اليهودية، فعقدت لهذا الغرض المؤتمرات (المؤتمر العربي الفلسطيني في القدس ــ بدءاً من المؤتمر الاول عام ١٩١٩ وحتى المؤتمر السابع عام ١٩٢٨ ــ ومؤتمر التسليح في نابلس عام ١٩٣١ ــ ومؤتمر الشباب العربي الفلسطيني الأول في يافا عام ١٩٣٢ ــ والثاني في حيفا عام ١٩٣٥)، وأصبح هذا الهم الوطني والقومي هو الشغل الشاغل لجميع المؤسسات الفكرية والجمعيات والمنتديات والاحزاب السياسية، كما انتشرت حركات التمرد على الانتداب وكثرت المنازعات المسلحة بين الفلسطينيين واليهود، وتعددت الاضرابات والانتفاضات والثورات. ونتوقف عند اهم تلك الثورات وابرزها وهي:

١ ــ ثورة البراق.
٢ ــ ثورة القسام.
٣ ــ الثورة الفلسطينية الكبرى.

١ ــ ثورة البراق (١٩٢٩)

البراق، وهو المعروف عند اليهود «بحائط المبكى»، هو المكان الذي أسرى إليه النبي (صلعم) ووفقاً للآية الكريمة «سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير ــ الإسراء:١»، ويعتقد المسلمون أن النبي (صلعم) أسرى من المسجد الحرام في مكة المكرّمة إلى المسجد الأقصى في القدس على متن براق[2] حطّ به في ذلك المكان الذي اضحى مقدساً عند المسلمين، وقد ثبتت ملكية المسلمين له بموجب صكوك ووثائق رسمية وشرعية[3]، وقد ادّعى اليهود ملكية هذا الحائط باعتبار انه قد قامت، في المكان نفسه، هياكل يهودية في ازمنة متعاقبة، وانّ البنى التحتية لهذه الهياكل تقع في اساس الحائط المذكور.

بدأ النزاع القائم بين المسلمين واليهود على ملكية «البراق» أو «حائط المبكى» باعمال أخذ اليهود يقومون بها للتدليل على ملكيتهم لهذا الحائط

كالتكثيف من زيارته والصلاة عنده ووضع المقاعد والطاولات امامه وكذلك «الكراسي والمصابيح والحصر وتابوت العهد وكتب التوراة» كما اقاموا امامه حاجزاً يفصل بين الرجال والنساء[٤] مما جعل المسلمين يتنبّهون لنوايا اليهود فيعمدون إلى مجابهة هذه الأعمال ومحاولة منعها، ولم يعدم اليهود الوسائل الاعلامية الدعاوية اللازمة لنشر مزاعمهم في ملكية هذا الحائط على العالم. وبدأ النزاع يتخذ طابع العنف في أواخر ايلول /سبتمبر ١٩٢٨ مما دفع بالحكومة المنتدبة، في تشرين الثاني / نوفمبر، من العام نفسه، إلى اصدار «كتاب ابيض» يؤكد حق المسلمين بملكية هذا الحائط وحق اليهود بزيارته، إلّا ان ذلك لم ينه النزاع، فعقدت المؤتمرات الصهيونية بهدف الضغط على بريطانيا كي تتراجع عن كتابعها الابيض، وعقدت المؤتمرات الاسلامية ردّا على المؤتمرات الصهيونيّة، ودفعاً للمحاولات اليهودية[٥]. وازداد الصراع عنفاً، فتوالت التظاهرات من كلا الفريقين، ولكن الذي اتّجه تظاهرة قام بها اليهود أمام الحائط انشدوا خلالها «الهاتفكا» وهو النشيد القومي اليهودي، ورفعوا العلم الصهيوني، فوقعت بين الفريقين اشتباكات دموية ظلت تتصاعد حتى أدّت إلى صدام مسلح (هو ما عرف تاريخياً بثورة البراق) انفجر في القدس بعد صلاة الجمعة في ٢٣ آب ١٩٢٩ واستمر اسبوعاً كاملاً ولم يتوقف إلّا بعد تدخل سلطات الانتداب البريطاني التي وقفت إلى جانب اليهود مستعملة ، ضد العرب، مختلف انواع الاسلحة بما فيها «الطائرات الحربية للارهاب»، نتج عن هذا الصدام «عشرات القتلى والجرحى من الجانبين»[٦].

٢ ــ ثورة القسّام (١٩٣٢ ــ ١٩٣٥)

الشيخ عز الدين القسّام سوري من جبلة، ولد عام ١٨٧١[٧]، ونشأ وترعرع في رحاب العلم والدين والوطنية. درس في مصر على الشيخ محمد عبده، ثم عاد منها إلى سورية ليعمل مدرساً في مسجد البلدة نفسها، ولمّا نشبت الثورة ضد الاحتلال الفرنسي للساحل السوري عام ١٩١٨، كان واحداً من الأوائل الذين لبّوا نداءها، فشارك فيها إلى جانب الشيخ صالح العلي (في جبال العلويين)، ثم لجأ إلى حيفا عام ١٩٢٢ بعد أن حكم عليه الفرنسيون بالاعدام، فاقام فيها، حيث عرف بانه «واعظ ديني ومرشد ورئيس لجمعية الشبان المسلمين في المدينة»[٨] إلّا انه في الحقيقة كان أكثر من ذلك بكثير، كان داعية ثورة ومؤسس عصبة من المجاهدين عرفت، بعد استشهاده عام ١٩٣٥، باسم «عصبة القسّاميين»[٩].

وقد مرت ثورة القسّام بثلاث مراحل:

المرحلة الاولى: مرحلة الاعداد للثورة: وهي تلك التي كان القسّام فيها واعظاً دينياً في الظاهر، إلّا انه كان، في الواقع، مؤسس خلايا جهادية شعارها «هذا جهاد، نصر أو استشهاد»[١٠] وقد انضم إليه كثير من المؤمنين تحت هذا الشعار، وغالبيتهم من العمال والفلاحين والطبقات الكادحة، وكانت عصبة القسّام «السرّية» هذه تتجهز بالسلاح من اموال تجمعها من دخل افرادها وتبرعاتهم وتبرعات المخلصين للقضية ، وقد قامت بين القسّام والحاج امين الحسيني، قائد الحركة الوطنية في فلسطين يومذاك، علاقة مباشرة استمرت حتى استشهاده عام ١٩٣٥، إلّا أن احداً من المؤرخين، وخاصة معاصري الحاج أمين والقسّام، لم يحدّد، بالتأكيد، هوية هذه العلاقة بالضبط ، فرأى بعضهم انها علاقة واعظ برئيس ديني، ورأى آخرون إنها علاقة مجاهد بقائد وطني[١١].

وكان القسّام يشكل خلاياه على طريقة الحلقات، كل حلقة من خمسة افراد على الاكثر، بينهم مسؤول عن توجيههم وتثقيفهم وادارتهم وقيادتهم، وقد تألفت عصبة من خمس وحدات: الاولى لشراء السلاح، والثانية للتدريب العسكري، والثالثة للاستخبارات ومراقبة تحركات اليهود والانكليز، والرابعة للدعوة إلى الجهاد في المساجد والمجتمعات، والخامسة للاتصالات السياسية[١٢]. وكانت القيادة جماعية « تتألف من اثني عشر عضواً» و «لم تكن للقسّام وحده»[١٣]. وقد اختلف في عديد هذه العصبة ، فمنهم من بالغ وذكر انها مؤلفة من «المئات العديدة» ، ومنهم من قال انها من «مايتي إلى ثلاثماية مجاهد لا اكثر»[١٤].

المرحلة الثانية: مرحلة العمل السرّي: لا يمكن تحديد تاريخ بدء هذه المرحلة بالضبط، خاصة

وأنها اتسمت بالسرية التامة والمطلقة، فهي كانت عبارة عن أعمال «التصدي لدوريات الجيش (البريطاني) والشرطة والاصطدام بها، وقطع طرق المواصلات والاغارة على ثكنات الجيش ومراكز الشرطة، ومهاجمة حرس المستعمرات اليهودية وزرع الالغام والمتفجرات فيها»[١٥] بالإضافة إلى «ملاحقة وتأديب الذين يخرجون عن الشعب ومصالحه، مثل التعاون مع الحكومة ضد الحركة الوطنية، أو التجسس لحساب المخابرات البريطانية، او بيع الأراضي من اليهود او السمسرة عليها لحساب الاعداء»[١٦]. ولم تكن العصبة تعلن مسؤوليتها عن تلك الأعمال.

إلّا ان ما يمكن تحديده، بالضبط، هو العملية التي قامت بها تلك العصبة ضد مستعمرة «نحلال» اليهودية في كانون الاول / ديسمبر عام ١٩٣٢، حيث القيت قذائف يدوية على تلك المستعمرة فقتلت رجلاً (يوسف اليعقوبي) وابنه (داود)[١٧]، وكانت هذه العملية واحدة من سلسلة عمليات سابقة، إلّا ان هذه كانت أهمها.

وتبعت عملية «نحلال» عمليات اخرى اشد من سابقاتها، مما جعل سلطات الانتداب تحوم بشكوكها حول القسّام نفسه، فقرر عندها الخروج بنضاله إلى العلن.

المرحلة الثالثة: مرحلة الجهاد العلني: في الثاني من تشرين الثاني / نوفمبر عام ١٩٣٥، وفي الذكرى الثامنة عشرة لصدور وعد بلفور، خرج عز الدين القسّام وبعض افراد عصبته إلى احراش «يعبد» بمنطقة جنين، حيث اعلن الثورة على الحكم البريطاني في فلسطين، وتحركت قوات الامن البريطاني لمطاردة الشيخ المناضل وعصبته، وكان دليلها في تعقبها للشيخ القسّام ضابط أمن عربي يدعى «احمد نايف»فقادهم إلى مكمن القسّاميين الذين خاضوا ضد القوات البريطانية معركة عنيفة وغير متكافئة استمرت ساعتين واستشهد على أثرها الشيخ القسّام ونخبة ابرار من عصبته امثال المجاهدين يوسف عبد الله الزيباوي وسعيد عطية المصري، وكان ذلك في ١٧ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٥، وقد خرج الآلاف من العرب والفلسطينيين في وداع القادة الثلاثة الشهداء الذين لفّت نعوشهم بالاعلام العربية[١٨]. ودفن القسّام في قرية «الشيخ» احدى قرى فلسطين التي استشهد دفاعاً عن عروبتها[١٩]. أمّا الضابط الخائن «أحمد نايف» فلم يلبث ان لقي جزاءه بان اغتيل على يد «القسّاميين» انفسهم «في مدينة حيفا، وفي وضح النهار»[٢٠].

لم يكن القسّام عظيماً وجليلاً في حياته كما أمسى بعد استشهاده، فقد عرف العرب عموماً، والفلسطينيون خصوصاً، سرّه المجيد، فاكبروه وعظّموه حتى القداسة[٢١] واستمرت عصبته، بعد استشهاده، تعمل في الخط نفسه الذي رسمه لها قائدها الشهيد، حيث عادت إلى «السرّية» فنفذت سلسلة من الاغتيالات لعدد من «الخونة والجواسيس»، وكانت لا تقرر اغتيال احد إلّا بعد صدور فتوى شرعية بهذا الشأن، فاغتالت عدداً من المسؤولين البريطانيين الذين لاحقوا العصبة وقضوا على عدد من افرادها، وممن اغتالتهم: المستر اندروز (حاكم الجليل)، وحليم بسطه (مصري عميل كان يعمل مساعداً لقائد الشرطة البريطانية في حيفا)، كما اغتالت العديد «من الخارجين على الثورة وعلى المبادىء الوطنية» من الفلسطينيين[٢٢].

٣ ـ الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩)

مرّت الثورة الفلسطينية الكبرى بمرحلتين:

ـ **المرحلة الاولى**: الاضراب العام.

ـ **المرحلة الثانية**: الثورة المسلحة

المرحلة الاولى: الاضراب العام (٢٠ نيسان / ابريل ـ ١٢ تشرين الاول / اكتوبر ١٩٣٦):

سبق الاضراب العام اضطرابات في طول البلاد وعرضها بسبب تكثيف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وقد صعّدت «عصبة القسّام» من نشاطها السرّي في تلك الفترة التي سبقت الاضطراب، فهاجمت في ١٥ نيسان / ابريل ١٩٣٦ قافلة من السيارات (بالقرب من قرية عنبتا في قضاء نابلس) حيث قتلت يهوديين كانا من ركابها وجرحت آخر، الأمر الذي أثار اليهود فقتلوا، في اليوم التالي، ١٦ نيسان، عربيين (بالقرب من جسر العوجا)، وبدأت الأمور تتفاقم ممّا دعا المندوب السامي البريطاني إلى اعلان الطوارىء وتطبيق نظام منع التجول في كل من يافا وتل أبيب اعتباراً من مساء ١٩ نيسان، فكان الرد العربي في يافا إضراباً شاملاً واشتباكات

مسلحة بين اليهود والعرب[٢٣].

وتداعت المدن العربية الفلسطينية لتأييد يافا في اضرابها، وكانت نابلس أولها، وهكذا بدأت الحركة الثورية تتكون من رحم الاحداث المتعاقبة والمتفاقمة. فشكّلت «حركة وطنية» اتخذت من نابلس مقراً لقيادتها، واذاعت هذه الحركة اول بيان لها، في اليوم نفسه (١٩ نيسان)، حيث دعت إلى:

ــ وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

ــ تأليف «لجنة قومية في نابلس» و «لجان قومية» في سائر انحاء البلاد، وأخرى احتياطية لمتابعة اهداف الحركة، والاتصال بسائر المدن والقرى العربية في فلسطين لتأليف هذه اللجان.

ــ تنظيم اعمال الجباية والانفاق على العمل الوطني.

ــ اعلان الاضراب العام والشامل في مختلف انحاء البلاد حتى تحقيق الهدف الرئيسي وهو «وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين»[٢٤].

وتجاوبت فلسطين كلّها مع هذا النداء، وبدأ الاضراب العام والشامل، وباشر الأهلون في كلّ مدينة بتأليف «اللجان القومية» لمتابعة العمل الوطني وأهم ما فيه استمرار الأضراب حتى تنفيذ المطالب. وتّم في خلال الايام الاولى من الأضراب (٢٦ نيسان) تشكيل «لجنة عليا» برئاسة الحاج أمين الحسيني، حدّدت مهمتها متابعة اعمال اللجان القومية وتوجيه الاضراب حتى تحقيق الاهداف التالية:

«١ ــ منع الهجرة اليهودية منعاً باتاً».

«٢ ــ منع انتقال الاراضي العربية إلى اليهود».

«٣ ــ انشاء حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي»[٢٥].

هزّت انباء الاضراب العام في فلسطين الاقطار العربية والعالم، بينما كان عرب فلسطين يصعّدون الاحداث فيها، فينتقلون من الاضراب العام الشامل إلى العصيان المدني الشامل، حيث قرّر مؤتمر اللجان القومية، الذي انعقد في القدس بتاريخ ٧ ايار / مايو ١٩٣٦ الدعوة بالاجماع إلى «اعلان الامتناع عن دفع الضرائب اعتباراً من ١٥ أيار الجاري إذا لم تغيّر الحكومة البريطانية سياستها تغييراً اساسياً تظهر بوادره بوقف الهجرة اليهودية «كما قرر المجتمعون» مقاطعة اليهود وتأليف اللجان لهذه الغاية»[٢٦]. في هذه الاثناء، كانت جماهير الشعوب العربية في مختلف اقطارها تتجاوب مع الانتفاضة الفلسطينية بحماس منقطع النظير، فتطوع الكثير من الشباب العربي لمؤازرة العمل الوطني في فلسطين، كما تطوع الكثير منهم لجمع التبرعات دعماً لتلك الانتفاضة.

واستمر الاضراب في تصاعد مطرّد، فعمّ كل القطاعات في البلاد (باستثناء القطاعات الضرورية لحياة الناس)، وتوقف الكثير من العرب الفلسطينيين عن ممارسة اعمالهم الحرة ووظائفهم الحكومية، ابتداء من المخاتير الذين اعلنوا «انهم يعتبرون انفسهم مستقيلين وقدموا للسلطة اختامهم»، وصولاً إلى المحامين الذين قرروا «الاضراب عن حضور المرافعات ما عدا ما يتعلق بقضايا الاضطرابات»[٢٧]. امّا الموظفون العرب من الدرجة الاولى، وفي مختلف الدوائر الرسمية : فقد ارسل عدد كبير منهم مذكرة إلى سلطات الانتداب (وقعّها ١٣٧ موظفاً) وتتضمن المطالبة بوقف هجرة اليهود إلى فلسطين [٢٨]، كما تتالت برقيات التأييد من مختلف رؤساء الطوائف الدينية ومن الزعماء والرجال الوطنيين في الاقطار العربية.

أمام هذا السيل العارم من التأييد، وأمام هذا الاصرار العنيد من الشعب العربي الفلسطيني، لم تجد سلطات الانتداب في فلسطين اسهل عليها من التنكيل بزعماء البلاد الذين يقودون الحركة الوطنية، وهكذا، ما ان بدأ تنفيذ العصيان المدني (في ١٥ أيار / مايو ١٩٣٦)، حتى خرجت التظاهرات في المدن الفلسطينية فقابلتها قوات الانتداب باطلاق الرصاص وبالتنكيل اعتقالاً وضرباً، وباعلان الكثير من احكام الاعدام والحبس والاعتقال، وكانت شراذم مسلحة من اليهود تعاون الانكليز في اعمالهم القمعية هذه، فثارت ثائرة الجماهير، وبدأت «عصابات مسلحة» تظهر في الجبال وتهاجم دوريات الانكليز ومخافرهم، كما تهاجم المستعمرات اليهودية وتنسف الجسور وتقطع خطوط الهاتف والمواصلات. وبدأ الاضطراب يتحول، تدريجياً، إلى ثورة مسلحة، ورغم ان سلطات الانتداب حشدت، لاخماد هذه الاضطرابات، نحو ٢٥ الف جندي، إلّا انها عجزت عن ذلك، ولم يجدها نفعاً ان جعلت عقوبة الاعدام أو الحبس المؤبد لبكل من يطلق النار على الجيش أو «البوليس»، الأمر الذي زاد الثورة حماساً

واشتعالاً[٢٩]، فاسقط في يد تلك السلطة، ولم تجد مفراً من اللجوء، كعادتها، إلى الخداع والحيلة، فتوسطت مع بعض الأنظمة العربية، لقاء وعود كاذبة، لعلّ عرب فلسطين ينهون إضرابهم ويضعون حدّاً لثورتهم، على ان تنفذ مطاليبهم . وكان لانكلترا، عن طريق هذه الانظمة، ما أرادت، وفي الحادي عشر من تشرين الأول/ اكتوبر من العام نفسه (١٩٣٦)، صدر عن «اللجنة العربية العليا» بيان بانهاء الاضراب.

وقد جرت، في هذه المرحلة، عدة معارك بين الثوار العرب والانكليز من جهة، وبينهم وبين اليهود من جهة اخرى، خاصة بعد ان وصل القائد فوزي القاوقجي إلى فلسطين في مطلع شهر ايلول، بدعوة من اللجنة العربية العليا، وتسلم قيادة القوات المسلحة للثورة[٣٠]، وكانت اهم تلك المعارك: معركة بلعا بتاريخ ٣٦/٩/٢ (أي بعد وصول القاوقجي مباشرة، وقد قاد هذه المعركة بنفسه)، واستشهد فيها المجاهد خليل بدوية[٣١]، ومعركة «سهل بيت امرين» بتاريخ ٣٦/٩/٢٨[٣٢] ومعركة جرت «بين قريتي نحالين ورأس أبو عمار»، بتاريخ ٣٦/١٠/٦، استشهد فيها القائد سعيد العاص[٣٣] وكانت جميعها بين الثوار العرب وجنود الانكليز.

المرحلة الثانية: الثورة المسلحة (اول تشرين الاول / أكتوبر ١٩٣٧ ــ اول ايلول / سبتمبر ١٩٣٩):

كانت النتيجة الاولى لوقف الاضراب تشكيل لجنة ملكية بريطانية ، برئاسة اللورد بيل، لدرس الاوضاع في فلسطين . وقد وصلت هذه اللجنة إلى فلسطين في ١١ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٦، وكان قد سبقها اعلان من وزير المستعمرات بأن الهجرة اليهودية إلى فلسطين لن تتوقف في أثناء عمل اللجنة مما اثار المناضلين العرب وجعل «اللجنة العليا» تقرر مقاطعة اللجنة الملكية، ولكن الوساطة العربية عادت للعمل من جديد على الخط، و «نصحت» عرب فلسطين بالتعاون مع تلك اللجنة «بالنظر لما لنا من الثقة بحسن نية الحكومة البريطانية في انصاف العرب» ونزلت «اللجنة العربية العليا» عند رغبة الوساطة العربية وعادت عن قرارها بمقاطعة اللجنة[٣٤].

وكم كانت خيبة امل العرب كبيرة، وخاصة اولئك الذين وثقوا بانكلترا وتوسطوا بينها وبين المناضلين الفلسطينيين، عندما صدر قرار اللجنة الملكية بتقسيم فلسطين إلى دولتين: واحدة يهودية، والأخرى عربية تضم إلى شرق الأردن، وتوضع القدس وما حولها، وحيفا ومنطقتها، وبيت لحم، تحت الانتداب البريطاني[٣٥]، وقد صدر هذا القرار في القدس بتاريخ ٧ تموز /يوليو ١٩٣٧، أي بعد نحو ثمانية اشهر من وصول اللجنة إلى فلسطين وسماعها اقوال الشخصيات العربية واليهودية وشهاداتهم، مع ان القرار كان متخذاً، سلفاً، لمصلحة الحركة الصهيونية ، وكان من الطبيعي أن يرفض عرب فلسطين هذا القرار، رفضاً باتاً، جملة وتفصيلاً.

لم يكن «الرفض» هو الجواب الوحيد الذي ردّ به عرب فلسطين على قرار اللجنة الملكية، بل ان هذا القرار أثار في النفوس غضباً دفيناً ممزوجاً بالأسى وخيبة الأمل، ليس فقط من الانكليز، وكان عرب فلسطين يعرفون جيداً نواياهم، وإنما من اولئك العرب الذين صدقوهم ووثقوا بهم واصروا على انهاء الثورة طمعاً في عدلهم. وتوالت ردود الفعل المستنكرة من مختلف الاقطار العربية[٣٦]، وتداعى الزعماء العرب للاجتماع في «بلودان» لتدارس الموقف ، وفي هذه الاثناء بادرت سلطة الانتداب في فلسطين إلى القيام باعمال القمع والترهيب والاعتقال ضد المناضلين العرب في فلسطين، فحاولت اعتقال المفتي الحاج أمين الحسيني رئيس اللجنة العليا (في ١٧ تموز ١٩٣٧)، ولما افلت من يدها اعتقلت المحامي «صبحي الفرا» وكان في منزل المفتي، ثم افرجت عنه في اليوم التالي[٣٧] كما اعتقلت عدداً من المناضلين (أكرم الجاعوني وعوني الشهابي وراسم الحسيني) والقتهم في سجونها واخذت تعذبهم كي يعترفوا «بتهمة اعدادهم والقائهم قنابل يدوية»[٣٨].

بعد كل ما تقدم، لم يعد أيّ شك في انّ بريطانيا تسعى لضرب العرب في فلسطين ضربة قاضية تمكنها من فرض سيطرتها عليهم بقصد تسهيل إقامة الوطن القومي الذي وعدت اليهود به، وان العرب الذين توسطوا لاخماد نار الثورة في فلسطين عام ١٩٣٦ معتمدين على صدق نوايا حليفتهم

بريطانيا، كانوا مخدوعين ومضللين.

لم تكن «عصبة القسّام» قد استسلمت لاضاليل الانكليز، ولم تهادنهم، رغم كل ذلك، وكانت بوادر المرحلة الثانية (مرحلة الثورة المسلحة) قد بدأتها هذه العصبة نفسها عندما اقدمت (في ٢٦ ايلول/ سبتمبر ١٩٣٧) على اغتيال حاكم الجليل اندروز، وكان هذا خصماً حقوداً للعصبة، لايفتأ يلاحق اعضاءها وينكل بمن يقع منهم في قبضته، فثار ثائر الانكليز بعد هذا الحادث وبدأوا ينكلون بكل من يقع في قبضتهم من المناضلين، ممّا اجّج لهيب الثورة من جديد، إلى ان كان يوم ١/١٠/١٩٣٧، حيث اعلنت سلطات الانتداب في بيان لها، ان «اللجنة العربية العليا وجميع اللجان القومية في فلسطين جمعيات غير مشروعة»، واصدرت اوامرها بالقبض على عدد من قادة النضال الفلسطيني وهم : أحمد حلمي باشا وجمال الحسيني وفؤاد سابا ويعقوب الغصين والدكتور حسن الخالدي ورشيد الحاج ابراهيم، ومعظمهم من أعضاء اللجنة العربية العليا، كما عزلت الحاج أمين الحسيني من منصبه الرسمي كمفتي للديار الفلسطينية ، ومن منصبه كرئيس للمجلس الاسلامي الاعلى[٣٩]، وقد اعتقلت بالفعل كلّاً من أحمد حلمي باشا (عبد الباقي)، والدكتور الخالدي وسابا والغصين ورشيد الحاج إبراهيم، ونفقتهم إلى جزيرة «سيشيل»[٤٠]. أمّا المفتي فقد استطاع الافلات من أيديهم واللجوء إلى لبنان في خلال النصف الاول من الشهر نفسه (تشرين الأول ١٩٣٧)[٤١].

كان اعلان سلطات الانتداب الصادر في ١/١٠/٣٧ بمثابة اعلان للحرب على القوى الوطنية المناضلة في فلسطين، إذ انه ما ان علمت تلك القوى بذلك الاعلان حتى نفر مقاتلوها «خفافاً وثقالاً» وصعدوا إلى الجبال وبدأوا بالتصدي لقوات الانتداب في كل مكان ظفروا بها فيه. فهوجمت مخافر قوات الانتداب كما هوجمت مستعمرات اليهود ، مما دعا سلطات الانتداب إلى انشاء محاكم عسكرية لمحاكمة الثوار[٤٢]. ومما زاد الثورة اشتعالاً حكم الاعدام الذي اصدرته سلطات الانتداب بحق الشيخ فرحان السعدي رفيق «القسّام» وخليفته في قيادة عصبته، وقد نفذت هذا الحكم فيه محكمة عسكرية، في ٢٢ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٧، وهو شيخ صائم في الثمانين من عمره، الأمر الذي الهب حماس الثوار واشعل حقدهم على الانكليز واليهود معاً، ونشطت عصبة من الثوار باشرت عملها باسم «أخوان فرحان» حيث انتشرت فروع لها في مختلف المدن والقرى الفلسطينية[٤٣]، وتصاعدت اعمال الثورة وتعددت وحداتها وقياداتها، إلّا ان التنسيق بين هذه الوحدات ظلّ قائماً طيلة فترة الثورة، وذلك بواسطة «لجنة مركزية» انشئت لهذا الغرض وكان مركزها «دمشق» ويرأسها مناضل رفيق للمفتي هو الاستاذ «عزة دروزة»[٤٤].

أمّا اعمال التنسيق بين مختلف فصائل الثوار فقد تمّ كالآتي:

— إنشاء «القسّاميون» لأنفسهم قيادة عليا مستقلة شملت «المناطق الشمالية في طبريا وصفد وعكا والناصرة وقسماً من منطقة نابلس وقسماً من منطقة القدس الشمالية» وكان قائدهم، بعد استشهاد الشيخ فرحان السعدي، خليل العيسى (أبو إبراهيم الكبير) يعاونه كل من: توفيق الابراهيم (أبو إبراهيم الصغير) وسليمان عبد القادر، المسمى بابي علي[٤٥].

— أمّا باقي الوحدات فقد شكلت أربع مناطق أخرى رئيسية هي:

— المنطقة المتوسطة ، وتشمل لواء نابلس، وفيها أربع قيادات.

— مناطق الجنوب والخليل والقدس، ولكل منها قيادة واحدة.

أمّا أبرز القادة في هذه المناطق فهم: عبد الرحيم الحاج محمد (أبو كمال، وكان القائد العام)، وعارف عبد الرزاق (أبو فيصل)، وحسن سلامة (أبو علي) وعبد القادر الحسيني[٤٦].

إلّا أن التنسيق كان تاماً بين القسّاميين وباقي الواحدات في مختلف المناطق المشار إليها. وكانت البنية التحتية لكل وحدة من هذه الوحدات تقوم على اساس ان القيادة الواحدة تضم عدداً يراوح بين ٥ فصائل و١٥ فصيلة ، وكان ارتباط كل هذه القيادات باللجنة المركزية[٤٧].

وقد اعتمدت وحدات الثوار في قتالها مع العدو اسلوب «الكر والفر» وهو الاسلوب المفضل للثوار عادة، كما شملت عملياتها المسلحة «الدوريات وقوافل الاسلحة والمخافر والمعسكرات والمطارات

والمحطات والمستعمرات الصهيونية وانابيب البترول والجسور والسكك الحديدية»[٤٨] وكان من أهم اهدافها «الاستيلاء على الاسلحة بأي شكل من الأشكال وغنيمة ما يمكن من أموال الحكومة واليهود ، ومعاقبة الخونة الذين يتعاونون مع الحكومة»[٤٩].

وقد نفذ الثوار عدة عمليات اغتيال كان ابرزها اغتيال الضابط الانكليزي سيكرست، وقد اغتاله المناضلان سامي الانصاري وبهجت أبو غربية، إلّا ان سامي الانصاري استشهد في هذه العملية فانتقم له رفيقه ابو غربية بعد اسبوع فقط بقتله اثنين من الطيارين الانكليز[٥٠].

والجدير بالذكر، انّ الثوار اعتمدوا لباس «الكوفية والعقال» شعاراً لهم، فاصبحت السلطات البريطانية تتعمد اعتقال كل من يلبس هذا الشعار باعتباره «فدائياً » الأمر الذي دفع معظم الرجال العرب في فلسطين ، بمن فيهم الموظفون، لارتداء هذا الشعار تمويهاً للفدائيين[٥١].

مقابل ذلك، زادت السلطة من بطشها وانتقامها، فاصدرت الكثير من أحكام الاعدام بحق من يقع في يدها من المناضلين، حتى بلغ من أعدم من ابطال هذه الثورة ١٤٦ ثائراً ، وبلغ عدد من حكم عليهم بأحكام سجن طويلة الأمد نحو الفين، وبلغ عدد المعتقلات ١٤ معتقلاً، وبلغ عدد المعتقلين نحو خمسين الفاً، وفرضت الغرامات على الأهالي ، وهدمت المنازل، بل ونسفت احياء سكنية بكاملها[٥٢]، تماماً كما درج المحتلون الصهاينة على ان يفعلوا ضد المقاومين الفلسطينيين منذ احتلالهم فلسطين.

وحاولت بريطانيا امتصاص زخم الثورة بوعود كاذبة جديدة، فارسلت لجنة فنية لدرس امكانية تقسيم البلاد، واوصت بواسطة عملائها ان هذه اللجنة سوف تتراجع عن مشروع التقسيم، إلّا ان عرب فلسطين اكتشفوا الخدعة الجديدة، فاستقبلوا هذه اللجنة يوم وصولها (في ٤ كانون الثاني / يناير ١٩٣٨)، بالمظاهرات والاحتجاجات واعلنت اللجنة العربية العليا (وكان قد اعيد تشكيلها) مقاطعة اللجنة الزائرة[٥٣].

وعادت اللجنة بخفي حنين، واستمرت الثورة في جميع انحاء فلسطين حتى عام ١٩٣٩ «على الدرجة نفسها من القوة والانتشار»[٥٤]. إلّا انّ الأمور بدأت تتعثر منذ مطلع العام المذكور، فعدم وجود قيادة موحدة للثورة «والتنافس بين القادة الذين كانوا يتصرفون وكأنهم امراء اقطاع» والتناقص المطرد في عدد المقاتلين وكميات الاسلحة، كلّ ذلك أدّى إلى «المزيد من الحدّة والتوتر في علاقات القادة مع بعضهم البعض»[٥٥]. وكانت الضربة القاصمة للثورة في استشهاد قائدها العام «عبد الرحيم الحاج محمد» في ٢٧ آذار/ مارس ١٩٣٩، الأمر الذي اصاب المناضلين بالذهول والضياع.

وكانت إمارات الحرب العالمية الثانية قد بدأت تظهر في أفق العلاقات الدولية المتأزمة والمتوترة، وما ان اعلنت هذه الحرب في ٣/ ٩/ ١٩٣٩ حتى بدأت سلطات الانتداب تضيق الخناق على الثوار كي تتخلص منهم وتتفرغ لحربها الجديدة مع دول المحور، كما ان سلطات الانتداب الفرنسي بدأت بدورها تضيّق الخناق على الوطنيين والمناضلين المقيمين في دمشق، الأمر الذي اضطر معظمهم إلى مغادرة سوريا. وهكذا ، فقد حملت الحرب العالمية الثانية معها نذر القضاء على الثورة في فلسطين، وبدأ المجاهدون الفلسطينيون يغادرون ارض وطنهم إلى بلدان اخرى هرباً من تعسف سلطات الانتداب وجورها، فوصلت اعداد كبيرة منهم إلى العراق بعد اندلاع الحرب مباشرة، فوصل إليها نفر في ٢٤/٩/١٩٣٩ (منهم جمال السحيني وموسى العلمي واسحق درويش وحسن أبو السعود)، ووصل نفر آخر بعد ذلك (منهم ممدوح السخن وعبد القادر الحسيني وراسم الخالدي وداود الحسيني وغيرهم)، ثم وصل اليها بعد ذلك، في ١٠/١٠/١٩٣٩، واصف كمال، ووصل في ١٤ منه حسن سلامة (قائد المنطقة الجنوبية للثورة الفلسطينية)، وفي ١٦ منه، وصل إلى بغداد كذلك، المفتي نفسه، اتياً من لبنان[٥٦].

وهكذا انتهت الثورة الفلسطينية الكبرى مع بداية الحرب العالمية الثانية، وقد كتب أكرم زعيتر يومذاك: «لا ريب في ان الثورة قد انتهت قتالاً وسلاحاً ومعارك وغارات، وان تكن جذوتها تحت الرماد حتى يحين موعد الكّرة القادمة، فتستأنف فلسطين نضالها الدامي»[٥٧]

وفعلاً، ما لبثت الكّرة التالية ان أزفت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة، أي عام

١٩٤٧ ثم عام ١٩٤٨، وتكررت المجابهات الفلسطينية ــ الاسرائيلية بعد ذلك مراراً، وفي كلّ مرة كان داود يظن إنه ربح الجولة ضد الفلسطيني، فإذا به يقف مشدوهاً أمام الفلسطيني وهو ينهض من جديد «ومد» (الفلسطيني) يده إلى الكنف واخذ منه حجراً ورماه بالمقلاع وضرب (داود) في جبهته، فارتزّ الحجر في جبهته وسقط على وجهه إلى الأرض. فتمكن (الفلسطيني) من (داود) بالمقلاع والحجر وضرب (داود) وقتله. ولم يكن سيف بيد (الفلسطيني).

(العهد القديم، سفر صموئيل الأول، الإصحاح ١٧، الآية ٤٩ و٥٠ ، طبعة صححتها: ثورة الحجارة).

●

* * *

الحـــواشـــي

(١) للتفصيل، انظر: قيادة الجيش اللبناني ومؤسسة الدراسات الفلسطينية، القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، ص ٢٠١ ــ ٢١٢.

(٢) روي عن رسول الله (صلعم) أنه قال: «اتيت بالبراق وهو دابة ابيض (طويل) فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه. فركبته حتى اتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي يربُط بها الانبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين...» (القرطبي، الجامع لاحكام القرآن جـ ١٠: ص ٢٠٥ ــ ٢٠٦) وقد اختلف الفقهاء فيما إذا كان اسراء النبي اسراءاً بروحه أو بجسده «فذهبت طائفة إلى انه اسراء بالروح، ولم يفارق شخصه مضجعه، وانها كانت رؤياً رأى فيها الحقائق ، ورؤيا الانبياء حق. ذهب إلى هذا معاوية وعائشة ، وحكي عن الحسن وابن إسحاق». (م. ن.: ص ٢٠٨).

(٣) انظر توضيحاً لذلك في: الحوت، بيان نويهض، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ١٩١٧ ــ ١٩٤٨، ص ٢١٨ ــ ٣٢٠.

(٤) م. ن. ص ٢١٩.

(٥) م. ن. ص ٢١٩ ــ ٢٢١.

(٦) م. ن. : ص ٢٢٢.

(٧) الحوت، بيان نويهض، الشيخ المجاهد عز الدين القسّام، ص ٢٥ وانظر الحاشية ٣١ في الصفحة ذاتها.

(٨) الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ص ٣١٩.

(٩) م. ن. : ص. ن. والزركلي، الاعلام، جـ ٦: ٢٦٧ ــ ٢٦٨. والغوري، فلسطين عبر ستين عاماً، جـ ٢: ص ٣٤٩.

(١٠) الحوت، المصدر السابق، ص ٣١٧.

(١١) يذكر عزة دروزة العلاقتين معاً (الحوت، المصدر السابق، ص ٣٢٦). ويذكر الغوري ان الشيخ كامل القصّاب رفيق القسّام في الجهاد، كان ينقل «توجيهات الحاج امين» إلى عصبة القسّام، كما كان ــ أي القصّاب ــ «يتسلم منه ــ أي من الحاج أمين ــ الأموال المطلوبة لنفقاتها واعمالها وتسلحها الخ.. ويسلمها بدوره للشيخ القسّام ليتولى انفاقها». (المصدر السابق، جـ ١: ٢٥١).

(١٢) الحوت، المصدر السابق، ص ٣٢٤ عن: صبحي ياسين، الثورة العربية الكبرى في فلسطين (وهو واحد من مناضلي هذه الثورة وشهودها).

(١٣) م. ن.: ص. ن.

(١٤) م. ن.: ص. ن.

(١٥) الغوري، المصدر السابق، جـ ١: ص ٢٥٢.

(١٦) م. ن.: ص. ن.

(١٧) الحوت، المصدر السابق، ص ٣٢٤.

(١٨) م. ن. : ص ٣١٩ ــ ٣٢٠، والغوري، المصدر السابق: جـ ١: ٢٥٢ ــ ٢٥٣، وجـ ٢: ص٣٨.

(١٩) الزركلي، المصدر السابق، جـ ٦: ٢٦٨.

(٢٠) الغوري ، المصدر السابق، جـ ١: ص ٢٥٣.

(٢١) يشهد على ذلك البيان المنشور في ص ٨٠٧ من كتاب «وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨ ـــ ١٩٣٩ من اوراق اكرم زعيتر» لأكرم زعيتر، والذي ورد حرفياً في عنوانه «القيادة العامة لثورة سوريا الجنوبية فصيلة الشيخ عز الدين القسّام ، رضي الله عنه».

(٢٢) الحوت، المصدر السابق، ص ٤٠٥ ـــ ٤٠٦.

(٢٣) م. ن.: ص ٣٣١ ـــ ٣٣٢، وانظر زعيتر، أكرم، الحركة الوطنية الفلسطينية: ص ٥٣ ـــ ٥٤ (يوميات ١٦/٤/٣٦) وص ٥٥ (يوميات ١٧/٤/٣٦).

(٢٤) زعيتر ، م. ن.: ص ٦١ (يوميات ١٩/٤/٣٦).

(٢٥) م. ن: ص ٧٦ ـــ ٧٧ (يوميات ٢٦/٤/٣٦).

(٢٦) الحوت، المصدر السابق، ص ٣٣٧، وانظر: زعيتر، الحركة الوطنية الفلسطينية، ص ٩٠ ـــ ٩٥، (يوميات ٧/٥/٣٦).

(٢٧) الحوت، م. ن.: ص ٢٤٢.

(٢٨) م. ن: ص ٣٤٣.

(٢٩) م. ن.: ص ٣٤٩ ـــ ٣٥٣.

(٣٠) زعيتر م. ن: ص ١٦١ (يوميات ٣/ ٩ /٣٦).

(٣١) زعيتر، م. ن: ص ١٦٢ (يوميات ٣/٩/٣٦) وص ١٦٧ (يوميات ٥/٩/٣٦).

(٣٢) م. ن: ص ١٩٤ (يوميات ٢٩/٩/٣٦).

(٣٣) م. ن: ص ٢٠١ (يوميات ٨/١٠/٣٦).

(٣٤) الحوت، المصدر السابـق، ص ٣٥٩ ـــ ٣٦٠.

(٣٥) الشقيري، جميل ، مجموعة شهادات العرب في فلسطين أمام اللجنة الملكية البريطانية ، ص ١١٦، وانظر: زعيتر، الحركة الوطنية الفلسطينية، ص ٢٩٤ ـــ ٢٩٩ (يوميات ٧ و٨/٧/١٩٣٧).

(٣٦) انظر ردود الفعل هذه عند: زعيتر، م. ن.:٢٩٩ ـــ ٣٠٣ (يوميات ٩ ـــ ١٤/٧/١٩٣٧).

(٣٧) م. ن.: ص ٣٠٦ (يوميات ١٧/٧/١٩٣٧).

(٣٨) م. ن.: ص. ن.

(٣٩) م. ن.: ص ٣٣١ (يوميات ١/١٠/١٩٣٧).

(٤٠) الحوت، المصدر السابق، ص ٣٧٣.

(٤١) زعيتر، المصدر السابق، ص ٣٣٦ (يوميات ١٥/١٠/١٩٣٧).

(٤٢) م. ن.: ص ٣٣٨ (يوميات ١٠ و١١/١١/١٩٣٧).

(٤٣) م. ن.: ص ٣٤٠ (يوميات ٢/١٢/١٩٣٧).

(٤٤) الحوت، المصدر السابق، ص ٣٧٨.

(٤٥) م. ن.: ص. ن.

(٤٦) م. ن.: ص ٣٧٩.

(٤٧) م. ن.: ص. ن.

(٤٨) م. ن.: ص. ن.

(٤٩) م. ن.: ص. ن.، عن: صبحي ياسين، الثورة العربية الكبرى في فلسطين.

(٥٠) م. ن.: ص. ٣٨١.

(٥١) م. ن.: ص. ن.

(٥٢) م. ن.: ص ٣٨٢.

(٥٣) م. ن.: ص ٣٨٣.

(٥٤) م. ن.: ص. ٤٠٠.

(٥٥) م. ن.: ص ٤٠٨ عن: دروزة، حول الحركة العربية الدينية (وهو واحد من مناضلي هذه الثورة وشهودها).

(٥٦) م. ن.: ص ٦٠٦ ـــ ٦٠٩ (يوميات ٢٤/٩ و ٢٧/٩ و١٤/١٠ و١٦/١٠).

(٥٧) م. ن.: ص ٦١٠ (يوميات ٣/١١/١٩٣٩).

المـراجـع

ـ قيادة الجيش اللبناني ومؤسسة الدراسات الفلسطينية، القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط (١) ـ ١٩٧٣.

ـ القرطبي، أبو عبدالله: الجامع لأحكام القرآن، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ـ ١٩٦٧.

ـ الحوت، بيان نويهض: القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ ـ ١٩٤٨، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ـ ١٩٨١.

ـ الحوت، بيان نويهض: الشيخ المجاهد عز الدين القسّام، دار الاستقلال للدراسات والنشر، بيروت ـ ١٩٨٧.

ـ الغوري، أميل: فلسطين عبر ستين عاماً، دار النهار للنشر، بيروت ـ ١٩٧٢.

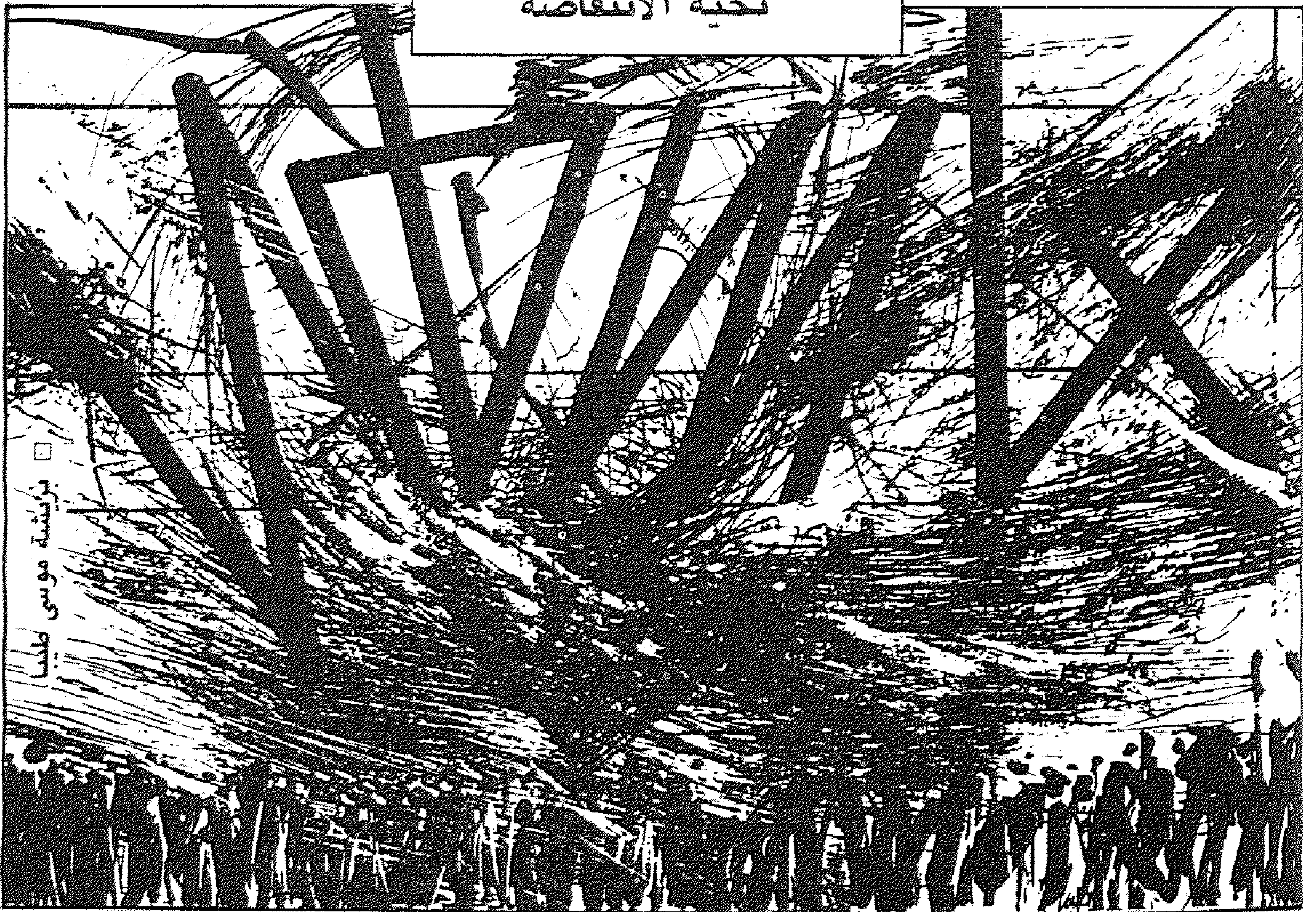
ـ الزركلي، خير الدين: الاعلام، طـ ٢، دار العلم للملايين، بيروت ـ ١٩٨٠م.

ـ زعيتر، اكرم: وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨ ـ ١٩٣٩، من أوراق اكرم زعيتر، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ـ ١٩٧٩.

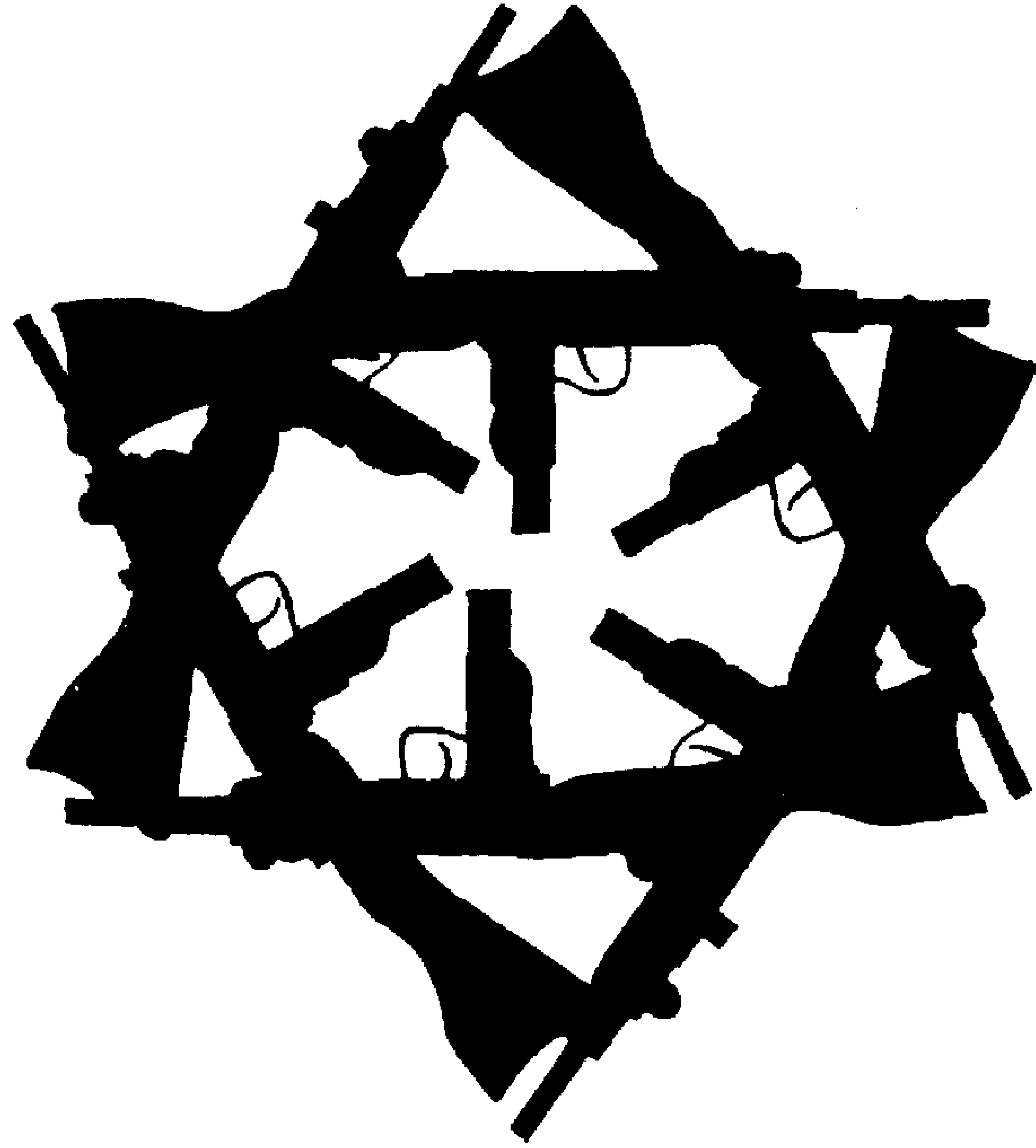
ـ زعيتر، اكرم: الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥ ـ ١٩٣٩، يوميات اكرم زعيتر، مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت ـ ١٩٨٠.

ـ الشقيري، جميل: مجموعة شهادات العرب في فلسطين أمام اللجنة الملكية البريطانية ، مع خلاصة قرار اللجنة الملكية للدعاية ، مطبعة الاعتدال، دمشق ـ ١٩٣٨.





[redacted]



الإنتفاضة

وحق الشعب المضطهد في المقاومة

د. محمد المجذوب

بعد قليل ستدخل الانتفاضة الفلسطينية في الأراضي العربية المحتلة في شهرها العاشر، وستسجل رقماً قياسياً في مجال التصدّي للمغتصبين. وتعتبر هذه الانتفاضة أعظم تحرك جماعي متماسك هادف شهده العرب منذ بداية الصراع بينهم وبين الدخلاء الصهيونيين.

مغزى الانتفاضة

وللانتفاضة مغزى عميق يتمثل في عدة أمور، أهمها:

أولاً ـــ إن النفحة القومية والثورية ما زالت تعمر قلوب عرب الأراضي المحتلة، فالكيان الصهيوني، بكل جبروته القمعي وأساليبه التعسّفية، خلال السنوات الأربعين المنصرمة، لم يتمكن من إخماد جذوة العنفوان القومي العربي لديهم. لقد بقيت هذه الجذوة ملتهبة وكامنة تحت رماد التمرد تنتقل من جيل إلى جيل برعاية الإيمان القومي الذي يسري في العروق مع الولادة.

ثانياً ـــ إن الانتفاضة التي تعرّضت منذ اندلاعها لأبشع ضروب القمع والبطش،

وافظع أساليب التهديد والوعيد، وأشنع وسائل التفتيت والتآمر، لم تضعف ولم تستسلم، بل تصاعدت واتسعت وانتظمت تحت قيادة وطنية موحدة وقادرة على التكيف مع الظروف والمتغيرات المستجدة.

ثالثاً ــ إن الانتفاضة قد استفادت من تجارب الشعوب التي خاضت معارك نضالية ضد المستعمرين والمحتلين. ولهذا رأينا أهل الانتفاضة يطبقون أساليب جديدة في مواجهة العدو وارباكه، وفي توجيه ضربات قاسية إلى مقومات وجوده. ولعل الأسلوب الأفضل الذي اختارته يكمن في أمرين:

١ ــ انتهاج سياسة الاعتماد على الذات في الشؤون الحياتية، فقد دعت قيادة الانتفاضة السكان العرب إلى تشكيل لجان لحراسة الممتلكات والمزروعات وحمايتها من اعتداءات قوات الاحتلال وعملاء المحتلين، كما دعتهم إلى بناء الاقتصاد المنزلي الذي يقضي بإنشاء التعاونيات الزراعية والاقتصادية وتنسيق التعاون الاجتماعي.

٢ ــ اتباع أسلوب النفس الطويل في المواجهة. وهذا الأسلوب يفترض تغيير المنهج أو التكتيك من وقت إلى آخر، وفقاً لمخطط مدروس ينطلق من فكرة التجاوب والتكيف مع الظروف السائدة والوقائع المتغيرة. ففي البداية، اعتمدت الانتفاضة أسلوب المواجهة والمظاهرات الشاملة والتصدي المباشر لجنود الاحتلال. ولكن العدو لجأ، في هذه الفترة، إلى كل ما يملك من تدابير القمع، فاستعمل الضرب المبرح، وتكسير العظام، وهدم المنازل، وطرد الشباب أو إبعادهم، واعتقال الآلاف منهم. وعمدت الانتفاضة عند ذلك إلى إحداث تغيير في تكتيكها، فلجأت إلى الأعمال المتفرقة والمكثفة والمستمرة، حتى اضطر المتحدث الرسمي باسم الحاكم العسكري للضفة الغربية إلى الاعتراف بأن هذه الحوادث المتفرقة التي حلّت محل المواجهة على نطاق واسع أصبحت تشغل الحيّز الأكبر من طاقة قوات الاحتلال، وبأن الجيش الإسرائيلي يستخدم اليوم لمواجهة الانتفاضة أربعة أضعاف القوة التي يستخدمها عادةً في الأراضي المحتلة.

رابعاً ــ إن أهل الانتفاضة سئموا الأساليب الملتوية التي تتبعها معظم الأنظمة العربية والفصائل الفلسطينية لمساعدتهم على استرداد حقوقهم. فهم، منذ أربعين عاماً يسمعون كلاماً معسولاً ولا يرون عملاً جاداً واحداً. إن المشاريع التي وُضعت، والمؤتمرات التي عُقدت، والبيانات التي أذيعت، والخطط التي اتخذت من أجل تحرير فلسطين تعد بالآلاف، ولكنها كلها بقيت دون الحد الأدنى من التنفيذ. ولم يعد بمقدور المواطن العربي في الأراضي المحتلة أن يفهم كيف أن الدول العربية التي تملك الثروات الفلكية والمواقع الاستراتيجية والجيوش الجرارة تقف أمام العربدة أو الغطرسة الإسرائيلية عاجزة، وأحياناً ذليلة، رغم إدراكها للخطر الصهيوني الذي بات يتهددها جميعاً دون استثناء. وأمام العجز أو التقاعس العربي فضّل أهل الانتفاضة الاعتماد على النفس وإعلان التمرد والتسلح بالحجارة. وكانوا يتخيلون أن انتفاضتهم، إذا استمرت أسبوعين على الأقل، ستهز المشاعر، وتحرك العواطف، وتحث الأنظمة العربية على اتخاذ بعض التدابير للتجاوب معهم وشد أزرهم. غير أن أملهم خاب، ففترة المد القومي قد ولّت برحيل عبد الناصر، والإقليمية المتزمتة هي سيدة الموقف، والحكام بالمرصاد لمن يبدي رأياً غير رأيهم. وهذا الموقف العربي المتخاذل يذكّرنا بما قاله أبو البقاء الرّندي في رثاء الأندلس:

لكل شيء إذا ما تمّ نقصانُ
فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسانُ...

يا راكبين عِتاق الخيل ضامرةً
كأنها في مجال السبق عِقبان

وراتعين وراء البحر في دعة
لهم بأوطانهم عزّ وسلطان

اعندكم نبأ من اهل اندلس
فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم
واليوم هم في بلاد الكفر عُبدان...

المقاومة في الممارسة الدولية

والانتفاضة تطرح، على صعيد الأعراف والقوانين والقرارات الدولية، سؤالاً مهماً يتعلق بحق السكان الخاضعين لاحتلال أجنبي في اللجوء إلى مختلف وسائل المقاومة للتصدي لهذا الاحتلال.

إن معالجة هذا الموضوع من الناحية القانونية والفقهية لا يحول دون التأكيد على وجوب التلازم والتكامل والتفاعل بين الظواهر الاجتماعية والمواقف القانونية والفقهية، إذ بفضل وقوف الشعوب في وجه المعتدين والمحتلين، بعد عجز الدولة أو غيابها أو تغييبها، استطاع الفكر المقاوم تحديد العلاقة بين سلطات الاحتلال وسكان الأراضي المحتلة. وقد جاء هذا التحديد على أساس استمرار علاقة الولاء والتبعية لدولة الأصل وانتفاء أي التزام بالطاعة أو الرضوخ لدولة الاحتلال.

وكان لمختلف أشكال المقاومة التي مارستها الشعوب الرازحة تحت الاحتلال في سبيل الدفاع عن وجودها وكرامتها أثر بارز ودور فاعل في تطوير أحكام القانون الدولي المتعلق بالاحتلال الحربي، والحفاظ على سيادة الدولة المحتلة، وجواز الدفاع عن النفس طلباً للحرية والاستقلال.

وليس في القانون الدولي المعاصر قاعدة واحدة تُحرّم على سكان الأراضي المحتلة القيام بأعمال المقاومة الوطنية، مسلحة كانت أم غير مسلحة. ولم يتخلّف الفقه الدولي الحديث عن الركب في هذا الميدان فاعترف بحق هؤلاء السكان في الثورة على سلطات الاحتلال. بل أن فئة من الفقهاء ذهبت إلى أبعد من ذلك عندما رأت أن على السكان واجب الثورة وأن هذا الواجب مغروس في نفوسهم بموجب علاقة الولاء المستمرة بينهم وبين دولتهم الرازحة تحت الاحتلال.

وهناك دول غربية كثيرة، منها بريطانيا والولايات المتحدة، أيدت هذا الاتجاه وضمّنت تشريعاتها العسكرية نصوصاً حول انتفاضات الحرب War Rebellions وطالبت المسؤولين العسكريين في قواتها بعدم معاملة المسلحين التابعين لجماعات الشعب الثائر في وجه العدو معاملة اللصوص المسلحين.

والمقاومة، المسلحة وغير المسلحة، على أنواع. وقد مورست منذ القديم. ولكن ممارستها اتّسعت بعد الحرب العالمية الثانية، فأسفر ذلك عن ازدياد الاهتمام بها في المحافل الدولية ومحاولة تنظيمها وإضفاء صفة المشروعية على القائمين بها.

وكانت القواعد التقليدية لقانون الحرب تميّز بين فئتين من الناس: المحاربين الذين يكوّنون القوات المسلحة للدولة، وغير المحاربين الذين ينتمون إلى السكان المدنيين. وفي القرن الماضي أثير خلاف حول الاعتراف بصفة المحارب للمقاتلين غير النظاميين، وذلك في حالتين رئيسيتين: الأولى تتعلق بـ (هبّة الشعب) في وجه العدو، والثانية بفصائل المتطوعين:

و (هبة الشعب) قد تعني انتفاضة السكان المدنيين في وجه العدو الغازي أو المحتل، بناءً على دعوة حكومتهم، وانضمامهم إلى التنظيمات العسكرية الرسمية. وقد تعني أيضاً نوعاً من التعبئة الشعبية العامة والمنظمة. وقد تعني كذلك انتفاضة السكان الذين يهبّون، تلقائياً أو تلبية لنداء السلطات الحاكمة أو التنظيمات الوطنية، إلى حمل السلاح أو أي شيء آخر (ولو كان الحجارة) من أجل التصدي للغازي أو طرد المحتل. وهذا ما فعله الشعب الروسي في العام ١٨١٣ لمقاومة الاحتلال النابليوني.

أما فصائل المتطوعين (أو القناصة كما يُسميهم الفرنسيون) فتتكون من أفراد يشتركون طوعاً في العمليات الحربية دون أن يكونوا أعضاء في أية وحدة من وحدات الجيش النظامي. ولكن الوضع القانوني لهؤلاء الأفراد ما زال غير محدّد. وللألمان والفرنسيين مواقف متباينة في هذا الصدد. فبروسيا مارست هذا العمل في العام ١٨١٣ ضد جيش نابليون وأضفت عليه صفة المشروعية، ولكنها رفضت منح المتطوعين هذه الصفة عندما لجأت فرنسا إليه في العام ١٨٧٠ لمقاومة جيش بسمارك. وحينما فرضت ألمانيا النازية الهدنة على فرنسا، في العام ١٩٤٠، أجبرتها على التعهد بمنع حملة

الجنسية الفرنسية من محاربة ألمانيا عن طريق الانضواء في صفوف الدول التي تخوض الحرب ضد ألمانيا.

ولو راجعنا الاتفاقيات الموقعة في لاهاي في العام ١٩٠٧، وغيرها من الاتفاقيات اللاحقة، لوجدنا أنها كلها تمنح أفراد الميليشيات والمتطوعين صفة المحارب النظامي، إذا توفرت فيهم الشروط الأربعة التالية:

(أ) أن يكونوا تحت إمرة شخص مسؤول.
(ب) أن يحملوا علامة مميّزة ثابتة يمكن تبيّنها عن بعد.
(جـ) أن يحملوا السلاح علناً.
(د) أن يراعوا في عملياتهم قوانين الحرب وعاداتها.

وخلال الحرب العالمية الثانية برزت ظاهرتان تتعلقان بمسألة التصدي لقوات الاحتلال:

١ ـ ظاهرة (القوات الحرة). ففي العام ١٩٤٠ تخاذلت غالبية الحكومات الأوروبية بعد هزيمتها أمام النازيين ووافقت على إيقاف العمليات الحربية. غير أن مجموعات من العناصر الوطنية رفضت الرضوخ لهذا الأمر وقررت متابعة الكفاح بكل الوسائل المتاحة. وهذا ما فعلته (القوات الفرنسية الحرة) بقيادة الجنرال ديغول في فرنسا. وقد ساوى الاجتهاد الفرنسي، وكذلك الأوروبي، بين أفراد هذه القوات وبين المحاربين النظاميين.

٢ ـ ظاهرة (حركات المقاومة). وقد حملت هذه الحركات التي عمّت أوروبا أسماء مختلفة، وأشهرها حركة (الأنصار) التي أبلت البلاء الحسن ضد جيوش المحور.

وبعد الحرب ظهرت، من جديد، أنواع مختلفة من المقاومة غير النظامية، مارست نشاطها في العديد من دول آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية. وهذا ما دفع الكثير من الباحثين إلى المطالبة بإدخال تعديلات على قوانين الحرب لكي تتمكن من مواكبة التطورات الحديثة في مجال التصدي للمعتدين أو المحتلين، وتستوعب أعمال المقاومة في داخل الأراضي المحتلة أو خارجها، سواء أتوافرت فيها الشروط الأربعة المذكورة أم لا. ولهذا جاءت أحكام المادة الرابعة من اتفاقية جنيف للعام ١٩٤٩، الخاصة بأسرى الحرب، تشمل بحمايتها كل أشكال المقاومة، حتى ولو كانت مستقلة عن الجيوش النظامية، وتخضعها لأحكام قوانين الحرب.

المقاومة في القوانين والقرارات الدولية

إن أحكام القانون الدولي العام المعاصر تُقرّ اليوم بحق كل شعب في مقاومة العدوان أو الاحتلال. وشرعية المقاومة الوطنية، أو شرعية حرب التحرير للتخلص من الاحتلال، ليست مسألة طارئة فاجأت القانون الدولي، وإنما هي مسألة طُرحت في النصف الثاني من القرن الماضي، عندما جرت المحاولات الأولى لتقنين قواعد الحرب.

ولو تركنا جانباً كل الوثائق والمواثيق القديمة التي تكرّس أو تدعم المبادىء المتعلقة بحق المقاومة ومشروعيتها، وانتقلنا إلى ميثاق الأمم المتحدة؛ لوجدنا أن هذا الميثاق لم يكتف بتحريم الحرب واستخدام القوة، بل حرّم كذلك مجرد التهديد باستخدام القوة. إنه لم يسمح بالحرب إلّا في حالة الدفاع المشروع عن النفس، وضمن قيود أو شروط معينة.

ولكن الدول الاستعمارية أصرّت على تفسير حق الدفاع عن النفس بشكل مخالف للواقع. فقد ادّعت أنه يقتصر على الدول فقط دون الشعوب، ورفضت بالتالي مبدأ حروب التحرير وحركات المقاومة الشعبية. إلّا أن غالبية الفقهاء ترى أن هذا الموقف مرفوض بحكم الواقع الدولي. فالدول الصغيرة أو الناشئة لا تقوى على مواجهة عدوان الدول الكبرى بحروب نظامية وفي جبهات تقليدية. إن تفوّق الكبار في السلاح والتكنولوجيا يضطرها إلى ممارسة حقها في الدفاع المشروع عن طريق المقاومة بمختلف أشكالها وأدواتها، وفي طليعة ذلك المقاومة الشعبية وحرب العصابات والعصيان المدني.

وقد مارست شعوب أوروبا هذا الأسلوب ضد الاحتلال النازي، واعترف الجميع بمشروعية عملها. بل أن الدول الكبرى، مثل الولايات المتحدة وبريطانيا، تعاملت مع المقاومة الأوروبية كممثل شرعي لشعوبها وأمدتها بالمال والسلاح.

وبعد الحرب ظهرت اتفاقيات ومواثيق دولية كثيرة كرّست حق الشعب في أن ينتفض ويثور



□ الانتفاضة: تغيير المعادلات.

على الظلم والقهر والاستبداد. فالإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الصادر في العام ١٩٤٨، يعتبر، في ديباجته، أنه من الضروري أن يتولى نظام قانوني حماية حقوق الإنسان لئلاّ يضطر المرء، في نهاية الأمر، إلى التمرد على القهر والطغيان.

وتطبيقاً لمبادىء حقوق الإنسان وحقّ الشعوب في تقرير مصيرها أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة في العام ١٩٦٠ «الإعلان الخاص بمنح الاستقلال للأقطار والشعوب المستعمرة». وقد جاء فيه «إن إخضاع الشعوب للاستعباد الأجنبي والسيطرة الأجنبية والاستغلال الأجنبي يُشكل إنكاراً لحقوق الإنسان الأساسية، ويناقض ميثاق الأمم المتحدة، ويعرض السلام والتعاون العالميين للخطر».

وفي العام ١٩٧٠، أصدرت الجمعية العامة «الإعلان المتعلق بمبادىء القانون الدولي، الخاصة بالعلاقات الودية والتعاون بين الدول». وقد جاء فيه أن «على كل دولة أن تمتنع عن اللجوء إلى أي تدبير قسري من شأنه أن يحرم الشعوب... من حقها في تقرير مصيرها، ومن حريتها واستقلالها. وعندما تنتفض هذه الشعوب وتقاوم (خلال ممارستها لحقها في تقرير مصيرها) أيَّ تدبير قسري كهذا، فمن حقها أن تلتمس وتتلقى دعماً يتلاءم مع أهداف الميثاق ومبادئه».

ومنذ العام ١٩٧٥، نجد في القرارات الصادرة عن الجمعية العامة نصاً يتكرر سنوياً ويتضمن إعادة تأكيد الجمعية «على شرعية كفاح الشعوب في سبيل الاستقلال والسلامة الإقليمية والوحدة الوطنية والتحرر من السيطرة الاستعمارية والأجنبية، ومن التحكم الأجنبي، بكل ما تملك هذه الشعوب من وسائل، بما في ذلك الكفاح المسلح».

وكانت الجمعية العامة قد أصدرت في العام ١٩٧٤ قراراً بتعريف العدوان، اعتبرت فيه الاحتلال عملاً يشكل عدواناً.

أما قراراتها حول حق تقرير المصير للفلسطينيين فتُعدّ بالعشرات. ففي العام ١٩٧٠، أصدرت عدة قرارات أكدت فيها على أن «احترام حقوق الفلسطينيين هو عنصر لا غنى عنه في إيجاد سلم عادل ودائم في الشرق الأوسط»،

واعترفت «لشعب فلسطين بالتساوي في الحقوق وبحق تقرير المصير»، وبحقوقه «في الحرية والمساواة وتقرير المصير وشرعية نضاله من أجل استرداد تلك الحقوق».

وفي العام ١٩٧٤، اعترفت الأمم المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعياً للشعب الفلسطيني ودعتها إلى الاشتراك في كل الاجتماعات التي تعقدها الهيئات التابعة للأمم المتحدة، وأكدت من جديد «حقوق الشعب الفلسطيني في فلسطين غير القابلة للتصرف، وخصوصاً الحق في تقرير مصيره دون تدخل خارجي، والحق في الاستقلال والسيادة الوطنية».

* * *

والخلاصة أن سكان الأراضي العربية المحتلة في فلسطين أصبحوا يجدون اليوم، في الوثائق والقرارات والمواقف الدولية، ما يبرّر لجوءهم إلى العصيان أو التمرد أو الانتفاضة، أو حتى حمل السلاح، للدفاع عن الأرض والكرامة وحق تقرير المصير.

ولكن الاعتماد على القوانين والقرارات الدولية فقط لا يكفي، فالسيادة المفقودة، أو الأرض المغتصبة، أو الكرامة المهدورة، لا تعاد إلّا بالقوة. والقوة ليست دائماً قوة السلاح؛ فقد تكون قوة الرفض أو قوة الصمود.

صحيح أن الشعوب المستضعفة قد حققت، عن طريق القانون الدولي المعاصر وقرارات الأمم المتحدة، مكاسب عظيمة في حقل الحقوق والحريات والاعتراف بحق المقاومة وحماية رجال المقاومة، ولكن هذه المكاسب وحدها لا تعيد حقاً إلى نصابه ولا ترجع شعباً إلى أرضه، فنحن اليوم نعيش في عالم يسوده منطق القوة، والقوة لا تعالج إلّا بمثلها. ولولا الانتفاضة المستمرة التي تشكل قوة إرادة لشعب مضطهد لما تحرك الرأي العام وكثر الحديث عن حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني.



□ قناع، ومقلاع وحجر، انتفاضة!...

□ على من يستقوون...!؟



● مثل من باع بلاده وخان وطنه. مثل الذي يسرق من مال أبيه وأخيه ليطعم اللصوص. فلا أبوه يسامحه ولا اللص يكافئه.

«نابليون»



أسْطورة الحَجر الكنعَاني

من داود وَجليات إلى جيل الانتفاضة

د. بيَان نويهض الحوت



□ حفر على الخشب، تمثل داود وجليات، تعود للقرن الخامس عشر.



الأرض أرض كنعان

وعلى هذه الأرض، كانت أول الحضارات في المنطقة، حضارة الكنعانيين. وما زالت أقدم الآثار في المنطقة، آثارهم.

استقطبت أرض كنعان الأنبياء والفاتحين والغزاة والمهاجرين والتجار، على مرّ العصور. وكانت أرضاً للصراع، وممراً للجيوش المتقاتلة من الشرق والغرب.

وعبر تاريخها الطويل الحافل بالحروب، نتوقف إزاء الحروب بين بني إسرائيل والفلسطينيين القدماء، ونختار من سلسلة هذه الحروب، حرباً واحدة. ثم، نختار من هذه الحرب يوماً واحداً، بل مشهداً واحداً، هو مشهد النزال بين داود الإسرائيلي وجليات الفلسطيني.

ثلاثون قرناً من الزمن تفصل بين تلك المجابهة في الأمس البعيد، والتي انتهت بمصرع جليات القائد المدجج بالسلاح، بالحجر الذي رماه به داود، فأصاب منه مقتلاً في جبهته، وبين المجابهة التي تتواصل اليوم على أرض كنعان نفسها، بين جيل ثائر من الفلسطينيين، لا يستخدم من أسلحة القرن العشرين سوى الحجارة، وفي مجابهة جيش إسرائيلي يملك من الأسلحة الحديثة المتطورة، ما يضاهي به أقوى الجيوش في هذا العصر.

وقد تبدو المقارنة أسطورية أو روائية، من النظرة الأولى ليس إلا. فالحجارة الصغيرة الملساء بمقلاع الفتى داود، من جبال كنعان ــ وهي العنصر الأقوى في الأسطورة ــ عادت لتظهر من جديد، وبعد ثلاثة آلاف سنة، ومن جبال كنعان نفسها، بأيدي فتيان الضفة الغربية والمنطقة الجنوبية. وتلك هي الصورة المرئية، وأما الصورة الخفية، ففيها تكمن حقيقة الانتصارين الأول والثاني. والأول هو انتصار الفتى داود على القائد جليات كذكرى تاريخية، والثاني هو انتصار جيل الانتفاضة على جيش الاحتلال، كحتمية مستقبلية.

الحقيقة واحدة ولنبدأ بأرض كنعان، وهي الأصل، وهي المهد وهي الساحة.

بلاد كنعان: فلسطين

أثبتت المكتشفات الأثرية ما بين النهرين في العراق، أنّ أولى الهجرات السامية جرت قبل ميلاد السيد المسيح بخمسة آلاف سنة، وربما حدث غيرها قبل ذلك.

ومن أبرز الهجرات السامية من شبه الجزيرة العربية إلى خارجها بالنسبة إلى تاريخ فلسطين، كانت الموجة السامية المعروفة بالموجة الآمورية ــ الكنعانية، وقد استقر الآموريون في المنطقة الداخلية من بلاد الشام، واستقر الكنعانيون في الساحل الشرقي للمتوسط، أي الأرض التي عرفت فيما بعد باسم فلسطين. وما من ريب في أن أرض كنعان قد شملت مساحة أوسع بكثير من الأرض المعروفة اليوم بفلسطين، إذ شملت أجزاء من لبنان وسوريا. فصيدا وصور وأوغاريت، على سبيل المثال، عرفت بالمدن الكنعانية، إلّا أنها تبنّت الأسم الفينيقي الذي أطلقه اليونان على التجار الكنعانيين القادمين إليهم[١]، وأما أرض كنعان: فلسطين، فلم تحمل الأسم الفينيقي يوماً.

قال البعض بأنّ الكنعانيين كانوا منذ بداية الألف الثالث قبل الميلاد، مستقرين في البلاد، وذلك من خلال اكتشاف أسماء مدن كنعانية، ترجع إلى الأسرة الخامسة المصرية (أي في ٢٩٦٥ ق. م)[٢].

وإلى أبعد من ذلك، قال آخرون بوجود الكنعانيين إلى ما قبل سبعة آلاف سنة، وذلك من خلال تتبع الآثار الكنعانية، وأقدمها مدينة أريحا الباقية حتى اليوم، وهي من أقدم مدن العالم[٣].

وإن تأرجحت تقديرات البداية الزمنية لوجود الكنعانيين، فممّا لا خلاف عليه إطلاقاً، أنهم كانوا أول من سكن المنطقة من الشعوب المعروفة تاريخياً، وأول من بنى على أرض فلسطين حضارة، كما كانت اللغة الكنعانية أول لغة تنتشر في البلاد كلّها...

اشتهر الكنعانيون بالزراعة على مختلف أنواعها، وبالتعدين، وصناعة الخزف والزجاج والنسيج، وبرعوا في فنّ العمارة، واستعملوا الحجر المنحوت. وأما داخل بيوتهم، فقد استعملوا الأسرّة والكراسي والفخار وأدوات المطبخ المتنوعة[٤].

ويعتبر المؤرخ فيليب حتّي أن الموسيقى قد تطورت إلى حد بعيد في عهدهم، إذ يقول:

«لم يُغْنَ شعب سامي بالفنّ الموسيقي كما عُني به الكنعانيون. فقد اقتبسوا كثيراً من عناصر موسيقاهمْ من شعوبٍ مختلفة توطنت الشرق الأدنى القديم. وسمّوا به إلى أعلى ما عرف في الموسيقى عند معاصريهم. ذلك لأن طقوس العبادة الكنعانية كانت تقتضي استخدام الغناء»(٥).

على الصعيد السياسي لم يكن الحكم في بلاد كنعان حكماً موحداً، بل حكم الدول المدينيّة، وكانت هذه الدول تتقاتل فيما بينها إلاّ عند مجابهة الخطر الخارجي. ومنذ القرن الخامس عشر ق. م. إلى أوائل القرن الثاني عشر ق. م. تعرضت البلاد لسلسلة من غزوات الحثيين والمصريين، وكثيراً ما ثار السكان على الاحتلال المصري الفرعوني، حتى آل إلى نهايته تدريجياً.

ولم يستقر الكنعانيون طويلاً بعد ذلك، حتى نازعهم على أرضهم قومان في عصر واحد، إذ جاءهم بنو إسرائيل عبر الصحراء من مصر، وجاءهم الفلسطينيون الأيجيّون عبر البحر من كريت. وعلى الرغم من براعة الكنعانيين في بناء القلاع والأسوار لحماية أنفسهم، وعلى الرغم من براعتهم في صناعة الأدوات الحربية، وعلى الرغم من كونهم أول من أدخل فنّ التعدين في صناعة الأسلحة من البرونز والحديد والفولاذ(٦)، فإنهم لم يشتهروا بأنهم شعب مقاتل. لقد كانوا شعباً مسالماً يدافع عن نفسه ولا يهاجم.

وهكذا، عندما تعرض الكنعانيون في القرن الثاني عشر ق. م. لغزوات الإسرائيليين والفلسطينيين الأيجيين، انتهى الأمر على صعيد الحكم والسلطة باقتسام البلاد، إذ بقي الكنعانيون في قسم من البلاد وفي الداخل، وانتشر الفلسطينيون على الساحل، وفي القسم الغربي، بينما الإسرائيليون في القسم الجنوبي وحتى وسط البلاد. ومنذ دخول يوشع بن نون، وما تلاه في عهد القضاة وحتى عهد الملك شاول، عاش الأقوام الثلاثة مئات من السنين تخللتها سلسلة من الحروب الفلسطينية ــ الإسرائيلية، والحروب الكنعانية ــ الإسرائيلية.

عهد شاول

جرى النزال بين داود وجليات في عهد الملك شاول، إلاّ أنه من أجل تفهم طبيعة النزال وأسبابه ونتائجه، يجدر التوقف إزاء الموقع والقوة لبني إسرائيل في عهده، وكذلك بالنسبة إلى الفلسطينيين، وهم الذين كان لهم عدة ملوك في الزمن الواحد، إذ كان لكل مدينة ملك، ومن أبرزهم الملك أخيش ملك مدينة جت، وهو أكثر من حارب الإسرائيليين.

تربط الرواية الدينية الإسرائيلية وجود بني إسرائيل بإبراهيم عليه السلام، باعتبارهم أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم؛ وأما كلمة «إسرائيل»، فتعود أيضاً إلى يعقوب الذي كان يلقب «بإسرائيل»، كما تعود أسباط بني إسرائيل الأثنا عشر إلى أبناء يعقوب، إذ غدا كل ابن ليعقوب أباً لسبط من أسباط اليهود.

ومن كنعان انتقلت أسرة يعقوب إلى مصر بعد استقرار ابنه يوسف فيها، وهناك عاشوا أربعمائة سنة في رغد من العيش، ولا يعرف أي فرعون انقلب ضدهم، وأخذ يعمل على إذلالهم، وفي مرحلة الذل ولد النبي موسى، ولكنه عاش في قصر ابنة الفرعون كما تروي الحكاية. وليس همّنا مناقشة الحكاية الدينية، بل سردها بإيجاز لأهميتها وعلاقتها بسيرة داود.

بعد أن نزح موسى عن مصر، أوحى إليه الرب على جبل الطور في سيناء بالعودة إلى مصر لإخراج بني قومه من عبودية الفراعنة، فعاد مع أخيه هارون، وأخرجا منها بني قومهما، وابتدأت رحلة التيه في سيناء، وكانت نحو ١٢٢٧ ق. م. وقد امتدت رحلة التيه هذه أربعين سنة، بسبب ارتداد قوم موسى عن دينهم التوحيدي إلى عبادة العجل، وخلالها نزلت الوصايا العشر، وخلالها أرسل موسى الرسل مراراً إلى أرض كنعان لجسّ نبضها، ودائماً عاد الرسل بأنباء عن خيرات الأرض، وعن قوة أهلها وبأسهم: وإزاء هذه الأنباء تردد قوم موسى ورفضوا الأقدام على العبور، ولما عزموا أمرهم أخيراً وحاولوا من جنوبي البلاد، لاقوا مقاومة شديدة، مما أجبرهم على التوغل شرقاً باتجاه شرقي الأردن، وهناك توفي النبي موسى، فقاد الجيش

يوشـع بن نون.

صمّم يوشـع بن نون على إبادة الكنعانيين، فالحرب في عرفه إبادة لا نصر، أو مجرد احتلال، وكانت أريحا أول المدن الكنعانيـة في طريقه، فكانت النموذج الأول على سياسة القائد الصلب العنيـد في الحرق والإبـادة، إلّا أنهـا لم تكن النموذج الأخير، فالخليل مثـلاً، وكانت تـدعى يومها «كريات أربـع» ، لاقت مصيـراً مشابهـاً لمصير أريحا.

اقتسم الإسرائيليون الأراضي التي استولوا عليها بين أسباطهم، ومنذ وفاة يوشـع، وطوال عهد القضاة الذي امتد قرنـاً ونصف القرن، لم يتـوحد الإسـرائيليـون، وحتى خـلال حكم صموئيل، آخر القضاة، وأحد الأنبياء؛ وكـان صموئيل، نفسه هو الذي أشار بتعيين شاول بن قيس ملكاً عليهم، لتوحيـد قبائلهم، وكـان هو أيضاً، من عاد وتنبّأ بقدوم داود ملكاً عليهم، وكان داود بعد فتى يـافعاً، وأصغـر اخوتـه الثمـانية، ويقتصر عمله عـلى رعي غنم أبيـه «يسّى» في بيت لحم.

ولا يعنينا في هذا المجال سير الملوك، بل يعنينا التوقف إزاء موضوعين لا غـير، لأهميتهما في موقـع بني إسرائيل في تاريـخ فلسطين، ويتناول الموضوع الأول مصادر التاريـخ القديم، والثاني أولوية الحضارة الكنعانية في المنطقة. وفي سياق هذين الموضوعين كانت حكاية داود وجليات.

مصادر التاريـخ القديم

تعتبر التوراة، أي العهـد القديم، المصـدر الأساسي أو شبه الوحيد لتاريـخ فلسطين القديم، وذلك باستثناء الكتابات اليونانيـة والرومانيـة المتأخرة.

ولما كانت التوراة كتاباً دينياً مقدساً، فقـد كانت الحقائق تقبل دونما نقاش. ولكن، لما كانت التوراة من كتابة اليهود، وعلى مئات السنين، ولمـا كان اليهـود من ألدّ أعـداء الكنعـانيـين والفلسطينيين، لذلك كان مؤرخو اليهود شديدي الوطأة في حكمهم على الفريقين. غير أنّه على الرغم من ذلك، وعلى الرغم من الصعوبات الناتجة عن تداخل الطبيعتين الدينية والتاريخية في التوراة، عند القراءة والتحليل، فمما لا ريب فيه أن هذا الكتاب يبقى المرجـع الأهم لهذه المرحلة.

وتجدر هنا الإشارة العابرة إلى أنّه من باب التوراة دخل المؤرخون العبريون آفـاق الفكر الأوروبـي (الغربـي) قديمه وحديثه. كما كان لهم أثر واضـح في فنّ التأريـخ، وبالنسبة إلى المؤرخ العبري، فالحدث لا يوجد مصادفة، لأن الأعـمـال من صـنـع الله لعقـاب الشـعـب أو لمكافأته(٧).

وبقيت التوراة هي المصدر الأول للتـاريـخ القديم حتى اكتشاف رسائل تل العمارنة في مصر سنة ١٨٨٧، واكتشاف مدينة أوغاريت في سوريا سنـة ١٩٢٨. ولما كـانت اللوحات والرسـائـل المكتشفة في المكانين، تعود إلى مـا قبل كتـابة التوراة، بل وإلى ما قبل مجيء الإسرائيليين إلى أرض كنعان، فقد أصبحت هذه الوثائق الأصلية القديمة، والتي تقدر بنصف مليون قطعة تتناول شؤون الحياة المختلفة لتلك المرحلة التاريخية، هي المرجـع العلمي للعديد من الأمور والقضايا، ومن أهمها التمييز بين الحقائق والأساطير في التوراة، وكذلك ضبط التواريـخ وفقاً للتسلسل الزمني(٨).

وما يهمّنا التوقف عنده إزاء هذه المكتشفات، مـا أثبتته من أولويـة الحضارة الكنعـانية في المنطقة، وأمّـا عبر المـؤرخين العبـريين، وعبـر التوراة، فقد ظهر الإسرائيليون للعالم، وكأنهم هم بناة الحضارة الأولى.

أولوية الحضارة الكنعانية

كان لاكتشـاف مدينة أوغاريت أهمية حضارية أدبية، فقد عثر فيها على مجموعـة كبيرة من اللوحات المسمارية، معظمهـا أساطير ومـلاحم شعرية وأناشيد وصلوات دينية، كتبت معظمها باللغة الكنعانية ــ الفينيقية. وتكمن الأهمية البـالغة لهذه الثروة الأدبية الفكرية في أنها تعود إلى ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد، وذلك إثبات بحد ذاته على أنّ الكنعانيين كانوا بنـاة الحضارة الأوائل، وكانوا الشعراء الأوائـل، وكانـوا هم المبـدعـين في أدب المـلاحم والمـوسيقى قبـل الإسرائيليين بزمن بعيد، فالإسرائيليون تعلموا من الكنعانيين كتابة الشعر وتذوقوا الموسيقى. داود تعلم فيما بعد منهم، فكانت مزاميره. وكذلك

تعلم منهم سليمان، فكانت أناشيده[٩]. وفي هذا المجال يوضح الدكتور أحمد سوسه:

«توصل الخبراء إلى أنّ الكثير مما ورد في التوراة من قصص وأساطير وشرائع يرجع إلى أصل قديم وجد مثيله أو ما يشابهه في المدونات السومرية والأكادية والكنعانية والبابلية والآشورية والمصرية، مما يدلّ على أنه ليس لليهود أدب مبتكر أو ثقافة خاصة بهم»[١٠].

صحيح، أن هذا الإثبات قد جاء متأخراً، وبعد ثمانية عشر قرناً من التواصل في تأكيد الإسرائيليين عبر توراتهم، ومؤرخيهم، على أنّهم وحدهم الأوائل، إلاّ أنه أثبات قاطع. وقد كان من أصدق المقارنات التاريخية وأبسطها، تلك التي أجراها برستيد، من كبار المؤرخين الثقات، فقد وصف المدن الكنعانية يوم دخلها بنو إسرائيل بقيادة يوشع يعملون فيها حرقاً وقتلاً، بأنها كانت مدناً مزدهرة، فيها الصناعة والتجارة والكتابة والمعابد، وفيها البيوت المترفة المريحة، وفيها الحضارة التي سرعان ما اقتبسها العبريون الرعاة البدائيون، فتركوا خيامهم وقلدوهم في بناء البيوت، كما خلعوا الجلود التي ارتدوها في الصحراء، وارتدوا الثياب الصوفية الزاهية الألوان. وبعد فترة، لم يعد في الإمكان أن يفرق المرء بين الكنعانيين والعبرانيين بالمظهر الخارجي. ثم يؤكد برستيد باختصار، أنّ العبرانيين اقتبسوا الحضارة الكنعانية، كما يقتبس المهاجرون الجدد إلى أميركا، في يومنا هذا، طرائق المعيشة الأميركية[١١].

إن عملية اقتباس العبرانيين أو الإسرائيليين من الحضارة الكنعانية في المدى الأرحب، وكما وصفها برستيد أعلاه، كانت عملية متواصلة، ويبدو أنها كانت آخذةً بالنضوج في عهدي داود وسليمان، أي في القرن العاشر قبل الميلاد. وأما شاول، أول الملوك، والذي نازل في عهده الفتى داود القائد، فقد كان مسكنه خيمة، وعاداته أقرب إلى البداوة، منها إلى الحضارة.

الفلسطينيون

ليس من السهل إجراء مقارنة شاملة بين حضارة الإسرائيليين القدماء والفلسطينيين القدماء في القرن الحادي عشر ق. م.، أي في عهد الملك شاول الإسرائيلي الفلسطينية القديمة لم يبق من معالمها الكثير، وقد اندثرت لغتها ولم يبق منها سوى كلمات، وأهم تلك الكلمات، كلمة «فلسطين».

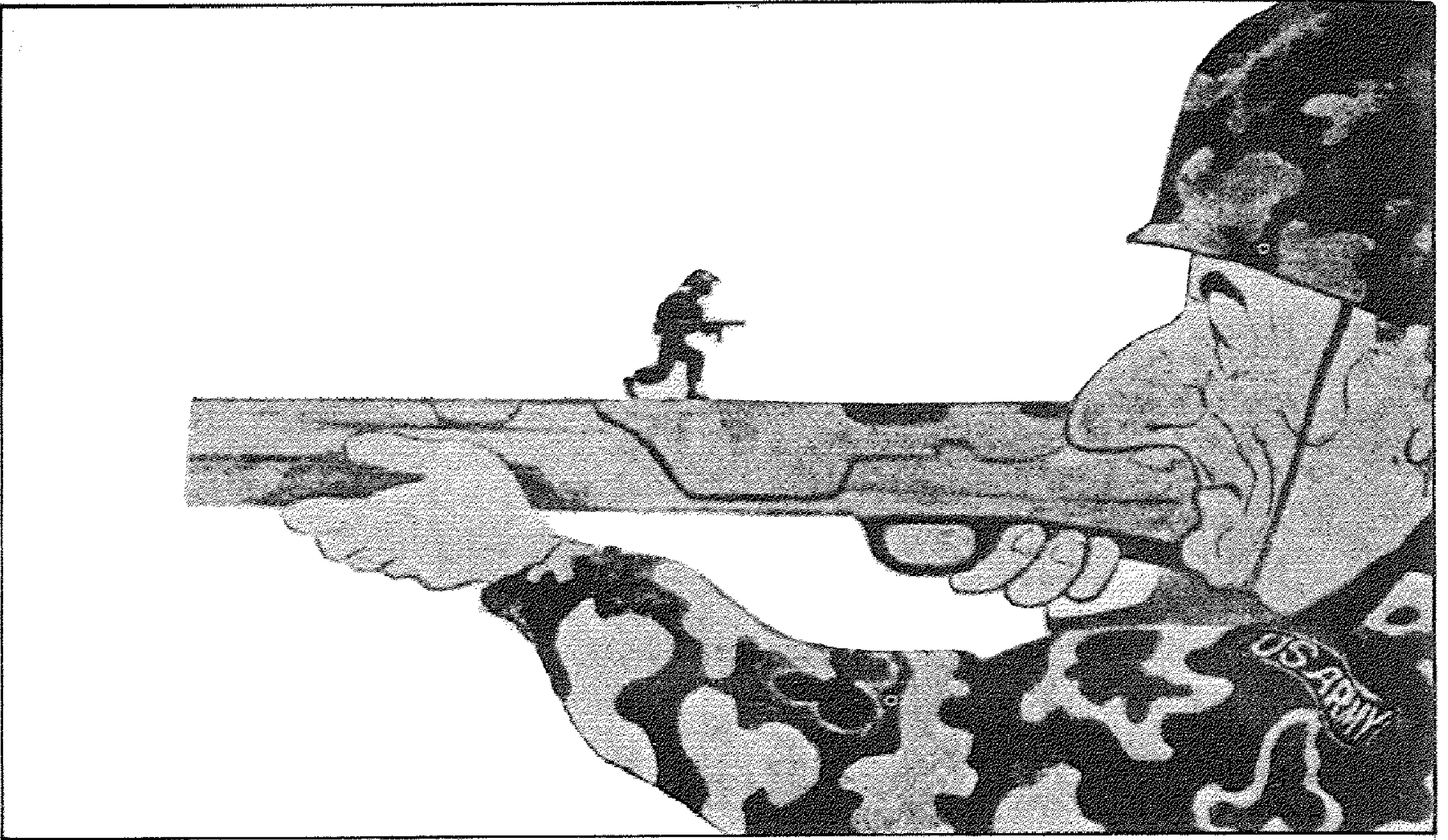
إلاّ أن المقارنة بين الشعبين على الصعيد الحربي تبدو ممكنة ـــ وخاصة بفضل التوراة والمؤرخين القدماء ـــ وهذا فضلاً عن أنّ الناحية الحربية أكثر ما يعنينا في هذا المجال.

تميز الفلسطينيون أو الفلسطيّون بين الشعوب والقبائل التي استقرت في بلاد كنعان، بأنهم ما كانوا من الساميين، فَهُمْ من الأيجيين اليونانيين الذين تركوا بلادهم، يوم زحفت عليها القبائل الهندو ـــ أوروبية في أواخر القرن الثالث عشر ق. م.، وكان قدوم الفلسطينيين من جزيرة كريت إلى أرواد وقادش، المحطة الأولى. وفي عهد رعمسيس الثالث (القرن الثاني عشر ق. م.) جرت معركة قاسية بينهم وبين المصريين، ولما تغلب عليهم المصريون، ما كان أمام الفلسطينيين إلاّ التوجه شمالاً، حيث استقروا على الساحل الكنعاني (الفلسطيني اليوم).

وما كان صعباً عليهم التغلب على الكنعانيين، والاستيلاء على أهم مدن الساحل، وسريعاً ما امتدت أرضهم من جنوبي من جنوبي الكرمل، حدودهم مع الفينيقيين (الجنوب اللبناني اليوم)، وحتى غزة، حدودهم مع مصر. وقد اشتهرت من مدنهم خمس، وهي غزة وعسقلان وأسدود وعقرون وجت.

لم يختلط الفلسطينيون بغيرهم من الشعوب، وربما يعود ذلك إلى كونهم من الآريين لا الساميين، وربما يعود أيضاً إلى كونهم قد جاؤوا بعائلاتهم، مما أتاح لهم العيش في مجتمعاتهم الخاصّة[١٢].

كان دخول الفلسطينيين أرض كنعان متزامناً مع دخول بني إسرائيل. ويشير البعض إلى سبق دخول الفلسطينيين[١٣]. إلاّ أن الأهم من السبق في الوصول إلى البلاد كان السبق في المجال الحربي، فمنذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر ق. م. ، وصل الفلسطينيون إلى أوج قوتهم الحربية. وهم، منذ البداية، تميّزوا بالطابع الحربي، فقد برعوا في صناعة الأسلحة الحديدية وفي استعمالها. وهم أول من بنى



صورة معاصرة كاريكاتور تمثل الجندي الأميركي والمقاتل الفيتنامي. وفي النص هناك تشبيه بين هذه الحروب (الغوريللا) وداود وجليات.

مصانع للحديد على أرض كنعان في الجنوب الغربي[١٤].

إن أبرز ما يتميز به تاريخ الفلسطينيين هو سلسلة الحروب التي خاضوها مع بني إسرائيل، ومن أبرز معاركهم المعركة الأولى وتعرف بمعركة أفيق (رأس العين)، وقد انكسر فيها بنو إسرائيل، وقتل فيها ثلاثون ألفاً، كما استولى الفلسطينيون على تابوت العهد المقدس لديهم، والذي كانوا يتبركون به ويحرصون عليه كل الحرص في ترحالهم وحروبهم[١٥]. وخبأ الفلسطينيون تابوت العهد في أسدود (إلّا أنهم ردوه فيما بعد إلى داود، بعد أن أصبح ملكاً، ثم وضع في هيكل سليمان، ولم يعرف مصيره بعد ذلك).

ونقتبس من سفر صموئيل الأول (٤: ١ — ١١) كيفيّة الاستيلاء على تابوت العهد:

«وكانَ كلامُ صَموئِيلَ إلى جميعِ إسرائيلَ وخرجَ إسرائيلُ للقاءِ الفِلسطينيينَ للحرب ونزَلوا عندَ حَجَرِ المعونةِ وأمَّا الفِلسطينيونَ فنَزَلوا في أفيقَ. واصطَفَّ الفِلسطينيونَ للقاءِ إسرائيل واشتبكتِ الحربُ فانكسرَ إسرائيلُ أمامَ الفِلسطينيينَ وضَرَبوا من الصَّفِّ في الحقلِ نحوَ أربعةِ آلافِ رَجُلٍ. فجاءَ الشعبُ إلى المحلَّةِ. وقالَ شيوخُ إسرائيلَ لماذا كَسَّرَنا اليومَ الربُّ أمامَ الفِلسطينيينَ. لنأخُذْ لأنفسِنا من شِيلُوهَ تابوتَ عهدِ الربِّ فيدخُلَ في وَسْطِنا ويخلِّصَنا من يدِ أعدائِنا. فأرسلَ الشعبُ إلى شِيلُوهَ وحَمَلُوا من هناكَ تابوتَ عهدِ ربِّ الجنودِ الجالسِ على الكَرُوبيم. وكانَ هناكَ ابْنا عَالِي حِفْني وفينْحاسُ مع تابوتِ عهدِ اللَّهِ. وكانَ عند دخولِ تابوتِ عهدِ الربِّ إلى المحلَّةِ ان جميعَ إسرائيلَ هتفوا هُتَافاً عَظيماً حتَّى ارْتَجَّتِ الأرض. فَسَمِعَ الفِلسطينيونَ صوتَ الهُتَافِ فقالوا ما هُوَ صوتُ هذا الهتافِ العظيمِ في مَحَلَّةِ العِبْرانيينَ. وعَلِموا أنَّ تابوتَ الربِّ جاءَ إلى المَحَلَّةِ. فخافَ الفِلسطينيونَ لأنهمْ قالوا قد جاءَ اللَّهُ إلى المَحَلَّةِ. وقالوا وَيْلٌ لنا لأنهُ لم يكنْ مِثْلُ هذا منذُ أَمْسِ ولا ما قَبْلَهُ. وَيْلٌ لنا مَنْ يُنقذنا من يَدِ هؤلاءِ الآلهةِ القادرينَ. هؤلاءِ هُمُ الآلهةُ الذينَ ضَرَبوا مِصْرَ بجميعِ الضَّرَباتِ في البَرِّيَّةِ. تَشَدَّدوا وكونوا رجالاً أيها الفِلسطينيونَ لئلا تُسْتَعْبَدوا للعِبْرانيينَ كما استُعْبِدوا هُمْ لكم. فكونوا رجالاً. وحاربوا. فحارَبَ الفِلسطينيون وانكسَرَ اسرائيلُ وهَرَبوا كُلُّ واحد

إلى خَيْمَتِهِ. وكانتِ الضَّرْبَةُ عظيمةً جدّاً. وسقطَ من إسرائيلَ ثلاثونَ ألفَ راجلٍ. وأُخِذَ تابوتُ اللَّهُ وماتَ ابنَا عالي حفْني وفِيْنحاسُ...».

وهكذا، كان الإسرائيليون في انكسار وضياع، عندما كان يظهر جليات أمامهم، يتحدّاهم.

من هو جليات؟

كان الجيشان الإسرائيلي والفلسطيني، كلّ واقفاً على جبل، وطوال أربعين يوماً، لمّا كان جليات قائد الفلسطينيين ينزل إلى الميدان كل صبح ومساء، وهو يرتدي الدرع والخوذة النحاسية والسلاح الكامل، فيتحدّى بني إسرائيل، ويطلب منهم مبارزاً، فلا ينزل منهم أحد، لشدّة ما كانوا يرهبونه. وقد جاء وصف الميدان ووصف جليات في سفر صموئيل الأول (١٧: ١ — ١١)، كالآتي:

«وجمعَ الفلسطينيون جيوشَهم للحربِ فاجتمعوا في «سوكُوَه» التي ليهوذا ونزلوا بين «سوكُوَه» و «عريقه» في افسِ «دمّيم». واجتمع شاولُ ورجالُ إسرائيل ونزلُوا في وادي البطمِ واصطفوا للحربِ للقاءِ الفلسطينيين. وكان الفلسطينيون وقوفاً على جبلٍ من هنا وإسرائيل وقوفاً على جبل من هناك والوادي بينهم. فخرجَ رجلُ مبارزٌ من جيوشِ الفلسطينيين اسمهُ جُلياتُ من جتّ طولُه ستُ أذرعٍ وشبر. وعلى رأسِه خوذةٌ من نحاسٍ وكان لابساً درعاً حرشفياً ووزنُ الدرعِ خمسةُ آلافِ شاقلِ نحاس. وجرموقا نحاسٍ على رجليه ومزراقُ نحاسٍ بين كتفيه. وقناةُ رمحهِ كنولِ النسّاجينَ وسنانُ رمحِه ستُ مئة شاقلِ حديدٍ وحاملُ الترسِ كان يمشي قدّامه. فوقفَ ونادى صفوف إسرائيلَ وقالَ لهم لماذا تخرجون لتصطفوا للحرب. أمَا أنا الفلسطينيُ وأنتم عبيدُ لشاولَ. اختاروا لأنفسِكم رجلًا ولينزلْ إليّ. فإن قدَرَ أن يحاربَني ويقتلَني نصيرُ لكم عبيداً. وإن قَدَرْتُ أنا عليه وقتلتُه تصيرون أنتم لنا عبيداً وتخدموننا. وقالَ الفلسطينيُّ أنا عيّرت صفوفَ إسرائيلَ هذا اليومِ. اعطوني رجلًا فنتحاربَ معاً. ولما سمعَ شاولَ وجميعُ إسرائيل كلامَ الفلسطيني هذا ارتاعوا وخافوا جداً».

ذاك هو جليات، والمصدر الأول لنا هي التوراة، ومن خلال التوراة يبدو جليات المحارب الكامل عدةً وسلاحاً وشجاعة، فكيف تغلّب عليه فتى أعزل من السلاح؟

من هو داود؟

داود الذي نبحث عنه هنا ليس داود الملك، بل داود الفتى يوم لقائه مع القائد جليات، «وكان أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر» (صموئيل الأول ١٦: ١٢)، وكان قد اشتهر ببراعته في اللعب على القيثار، وإلى الحد الذي استدعاه رجال شاول للعزف أمام ملكهم، وذاك يوم ابتدأت السوداوية تطغى عليه وبوادر الانحراف تظهر، فأشاروا عليه بالفتى، العازف الماهر، داود، ليعزف له، ويسرّي عن نفسه.

«فجاءَ داودُ إلى شاولَ ووقفَ أمامَه فأحبَّه جداً وكان له حامل سلاح. فأرسل شاولُ إلى يسّى يقولُ ليقفْ داودُ أمامي لأنّه وجدَ نعمةً في عينيَّ. وكانَ عندما جاء الروحُ من قِبَلِ اللَّهِ على شاولَ أنَّ داودَ أخذَ العود[16] وضربَ بيدهِ فكانَ يرتاحُ شاولُ ويطيبُ ويذهبُ عنه الروحُ الردي». (صموئيل الأول ١٦: ٢١ — ٢٣).

ولم يكن شاول يدري يومذاك أن الفتى عازف القيثار هذا، قد مسحه النبي صموئيل في بيت لحم ليصبح ملكاً من بعده وخليفة له، وذلك أن الاحتفال بمسح داود كان ضيقاً ومحصوراً كي لا تصل أنباؤه إلى شاول (صموئيل الأول ١٦: ١ — ١٣).

ولا ندري كم أدرك داود من أبعاد هذه النبوءة وآفاقها، إلّا أنه من المعروف أنه استمر في حياته المعتادة يرعى الغنم، ولما استدعي ليعزف أمام الملك، لبّى الدعوة.

التحق ثلاثة من أخوة داود الكبار بجيش شاول، واستمر داود — أصغرهم — ينتقل بين بيت لحم، حيث يرعى غنم أبيه، وبين خدمته لشاول.

وما مرّ في حياته حتى نزاله مع جليات أمر يذكر على صعيد تدريبه على القتال، باستثناء

الشجاعة الفائقة يوم تمكن من قتل أسد ودب هاجما قطيعه، فتمكن من قتلهما وتخليص الشاة من أنياب الأسد، وما عدا هذه الحادثة التي رواها داود لشاول (صموئيل الأول ١٧: ٣٤ — ٣٥)، فلم يعرف أن داود كان مقاتلاً، كل ما عرف عنه أنه صغير إخوته، وراعي غنم، وعازف قيثاره.

يوم النزال

بينما كان القائد جليات يتحدى الإسرائيليين يومياً، فلا ينازله أحد، طلب يسّى من ابنه داود أن يذهب إلى المحلّة، فيأخذ الطعام لإخوته، ويتفقد سلامتهم، ثم يعود منهم بعربون.

وصل داود إلى الميدان صباح اليوم التالي، وكان الجيش يتهيأ للحرب، فشاهد كيف اصطف الفريقان صفاً مقابل صفّ، فترك ما معه مع حافظ الأمتعة، وركض يسأل عن إخوته، وهو يستمع إلى جليات وهو يصعد من صفوف الفلسطينيين، فيتحدّى الإسرائيليين ويعيّرهم بجبنهم، ويشاهد الرعب الذي أصاب قومه، وهروبهم من أمام جليات.

سأل داود من حوله، ما ثواب الذي يتمكن من قتل هذا الفلسطيني الأغلف؟ وقيل له: «... فيكونُ أنَّ الرجلَ الذي يقتلُهُ يُغْنيهِ الملكُ غنىً جزيلاً ويعطيه ابنتَه ويجعلُ بيتَ أبيه حراً في إسرائيل (صموئيل الأول ١٧: ٢٥). وما أن رأى أليآب الأخ الأكبر لداود أخاه قادماً، حتى وبخه على قدومه وتركه غنيمات أبيه تسرح في البرية، فادعى داود أمام أخيه أنه لن يحارب، ولكنه كان قد اتخذ قراره في داخل نفسه، وقد أعلن قراره هذا لشاول لما استحضره أمامه، قائلاً له: «... عبدُكَ يذهلُ ويحاربُ هذا الفلسطينيَّ» (صموئيل الأول ١٧: ٣٢).

حاول شاول أن يردع داود لكونه غلاماً، بينما جليات رجل حرب منذ صباه، ولكنّ داود تسلح بحكاية قتل الدب والأسد قائلاً بأن الرب الذي أنقذه منهما ينقذه من يد هذا الفلسطيني.

ولبس داود درعاً وخوذة من نحاس وتقلّد سيفاً، ولكنه ما استطاع المشي بها، فنزعها عنه، «وأخَذَ عصاهُ بيدِهِ وانتخَبَ له خمسةَ حجارةٍ ملسٍ من الوادي وجَعَلَها في كِنْفِ الرعاةِ الذي له أي في الجراب ومقلاعَهُ بيدهِ وتقدَّمَ نحو الفلسطيني». (صموئيل الأول ١٧: ٤٠).

اقترب جليات من داود، وأمامه كان يتقدم حامل الترس، ولما رآه فتى غرّا أعزل من السلاح، احتقره وقال له: «ألعلّي أنا كلبٌ حتى أنَّك تأتي إليَّ بِعِصيٍّ. ولعَنَ الفلسطينيُّ داودَ بآلهتِه. وقال الفلسطينيُّ لداودَ تعالَ إليّ فأُعطي لحمَك لطيورِ السماءِ ووحوشِ البرية». (صموئيل الأول ١٧: ٤٣ — ٤٤).

وردّ عليه داود بقوله: «أنت تأتي إليَّ بسيفٍ وبرمحٍ وبترسٍ. وأنا آتي إليك باسمِ ربِ الجنودِ إلهِ صفوفِ إسرائيلَ الذين عيّرْتَهم جيش هذا اليومَ يَحْبِسُك الرب في يدي فأقتُلَك وأقطَعُ راسَك. وأعطي جثثَ جيش الفلسطينيين هذا اليومَ لطيورِ السماءِ وحيواناتِ الأرضِ فتعلمُ كلُ الأرضِ أنه يوجدُ إلهٌ لإسرائيلَ. وتعلَمُ هذهِ الجماعةُ كلها أنّه ليس بسيفٍ ولا برمحٍ يخلّصُ الرب لأن الحرب للربِ وهو يدفعُكُم ليدِنا». (صموئيل الأول ١٧: ٤٥ — ٤٧).

انتهت التحديات الكلامية بين الخصمين ليبدأ النزال وينتهي في دقائق.

تقدم جليات بكامل أسلحته للقاء داود، إلّا أن داود كان أكثر منه خفة وسرعة، إذ ركض للقائه ماداً يده إلى كنفه، فأخذ حجراً ورماه بالمقلاع فأصاب جبهته إصابة محكمة، سقط جليات أثرها على الأرض قبل أن يستل سيفه من غمده، وكان داود هو الذي ركض نحوه فاستل هذا السيف وقطع به رأس صاحبه.

هرب الفلسطينيون أثر مقتل جبارهم، فقام رجال إسرائيل ويهوذا ولحقوا بهم حتى أبواب مدينتي جت وعقرون. ولما وقف داود أمام الملك شاول، ورأس جليات بيده، سأله شاول: «ابن من أنت يا غلام[١٧]. فقال له داود ابن عبدك يسّى البيتلحمي»(صموئيل الأول ١٧: ٥٨).

وأراد داود إثبات نصره على الملأ، وخاصة اليبوسيين أهل أورشليم وحماتها، فأخذ رأس جليات وعرضه عليهم (وكان اليبوسيون من الكنعانيين وآخر من استسلم فيما بعد لداود الملك، والذي لم يتمكن من دخول مدينتهم إلّا في السنة الثامنة لحكمه).

إن المصدر الأول والأوحد لأسطورة داود وجُليات أعلاه، ومن بدايتها وحتى نهايتها، هو الإصحاح السابع عشر، كاملاً، من سفر صموئيل الأول، فالصفحات الأربع التي يتألف منها هذا الإصحاح، قد نسجت حولها الروايات وحكايا الأطفال في مختلف اللغات، فأصبحت هذه الأسطورة هي الرمز لتغلّب الضعيف على القوي الجبار.

داود بعد النزال

لا يعنينا في هذا المجال سيرة داود البطل ومن ثمّ، داود الملك، إلّا من حيث علاقة هذه السيرة، بالرجل نفسه، داود، ونفسيته يوم نازل جليات، وقضى عليه.

تحوّل داود إلى «البطل» بأعين الإسرائيليين، فاستثار غيرة شاول الذي ابتدأ يفكر بالخلاص منه، فطلب منه أن يقتل مائة فلسطيني قبل أن يزوّجه ابنته، وفعل داود أكثر مما أراده شاول، فقتل من الفلسطينيين مائتين، ثم تزوج إحدى بنات الملك، إلّا أن العداوة لم تهدأ بين الرجلين. فبقي النزاع الداخلي بين الإسرائيليين بينما الحروب مستمرة بينهم وبين الفلسطينيين، وفي هذه المرحلة قرّر داود أن يلجأ إلى أعدائه الفلسطينيين هروباً من شاول الذي حاول قتله أكثر من مرة. ولم ينجده الملك أخيش، ملك جت، فحسب، بل أعطاه مدينة صقلغ الفلسطينية ليسكنها مع رجاله الستمائة، ومع زوجتيه.

وفي إحدى حروب الفلسطينيين ضد شاول، طلب الملك أخيش من داود أن ينزل هو ورجاله ليحاربوا في صفوف الفلسطينيين، ورضي داود، ولكن أقطاب الفلسطينيين رفضوا ذلك، فهم لم يطمئنوا إلى داود، وطلبوا من ملكهم، أن يعيد داود إلى مكانه (أي صقلغ)، وعندها قال الملك أخيش لداود:

«حيٌّ هو الربُ إنَّك أنْتَ مستقيمٌ وخروجُكَ ودخولُكَ معي في الجيشِ صالحٌ في عينيَّ لأني لم أجدْ فيك شراً من يومِ جئتَ إليَّ إلى اليومِ وأمّا في أعين الأقطابِ فلستَ بصالحٍ. فالآن ارجعْ واذهبْ بسلامٍ ولا تفعلْ سوءاً في أعين أقطابِ الفلسطينيين. فقال داودُ لأخيشَ فماذا عملتُ وماذا وجدتَ في عبدِك من يوم صرتُ أمامك إلى اليوم حتى لا آتي وأحاربَ أعداءَ سيدي الملك. فأجابَ أخيشُ وقال لداودَ علِمْتُ أنَّك صالحٌ في عينيَّ كملاكِ الله. إلّا أن رؤساءَ الفلسطينيين قالوا لا يصعدْ معنا إلى الحربِ...» (صموئيل الأول ٢٩: ٦ ــ ٩).

لو لم تكن التوراة نفسها مصدر هذه الحادثة، لما صدّق أحد أن داود، أعظم ملوك بني إسرائيل، قد التجأ إلى الملك أخيش الفلسطيني واستعدّ ليقاتل معه ضد أعداء «سيده الملك»، أي ضد بني قومه، الإسرائيليين. إلّا أن داود بعد أن أصبح ملك الإسرائيليين كان أول همومه القضاء على الفلسطينيين، فأخذ يلاحقهم حتى تمكّن من إخضاع المدن الفلسطينية كلها، وأما مدينة صقلغ بالذات، وهي المدينة التي احتضنته «لاجئاً سياسياً» أثناء هروبه من شاول، فقد أمر بقتل سكانها جميعاً، نساء ورجالاً وأطفالاً، لئلا يبقى منهم من يخبر[١٨].

وهكذا، يكون الملك داود هو الذي قضى عسكرياً على جيوش الفلسطينيين، فلم يعد لهم ــ فيما بعد ــ على الصعيدين السياسي أو العسكري، شأن يذكر، وإن استمروا في حياتهم على الأرض التي ورثت منهم الأسم، بفضل هيرودوتوس، المؤرخ الكبير، الذي أطلق اسم فلسطين على الساحل، وبفضل الرومان الذين عمّموا الاسم على الأرض الكنعانية، من الشاطىء حتى النهر.

وبرهن داود الملك، على أنه كان ملكاً مثالياً لبني إسرائيل، فهو الملك المحارب، والسياسي، والشاعر، والموسيقي، وهو صاحب المزامير الشهيرة الخالدة.

معاني الأسطورة

عوداً على بدء، على يوم النزال، أو لحظات النزال بين داود وجليات، فممّا لا ريب فيه أنّ داود المحارب الشجاع هو القاسم المشترك بين داود الفتى وداود الملك.

ولن نتوقف عند سائر الصفات، والتي يتناقض بعضها كلياً في سيرة داود، من مرحلة إلى مرحلة. فأين داود الذي جاء وصفه في «قاموس الكتاب المقدس» وهو يتقدم نحو جليات:

«جاء ويمتلكه إحساس رائع بعدل القضية التي يدافع عنها ويحارب لأجلها، ويسود على قلبه وكل مشاعره شعور سماوي بالثقة بالله»[١٩].

فأين داود هذا من داود الذي خاطب عدوّه الملك أخيش، فيما بعد، «بسيده الملك»، والذي أبدى استعداده للقتال معه ضد بني قومه؟

إن التناقض صارخ. ولعلّ في هذا التناقض يكمن شيء من طبيعة العصر الذي عاش فيه داود، أو القوم الذين انتسب إليهم؛ إلّا أن داود، محور الأسطورة، هو داود الفتى يوم نازل جليات، وقد ورد عن هذا النزال في القرآن الكريم، فنزلت ثلاث آيات متتاليات تتناول المضمون دون التفاصيل، أي أنها تتناول قضية انتصار المؤمنين على الكافرين. وجليات في القرآن الكريم جالوت.

«... قالوا لا طاقةَ لنا اليومَ بجالوتَ وجنودِهِ، قالَ الذينَ يظنّونَ أنَّهم مُلاقوا اللّهِ كم من فئةٍ قليلةٍ غلبَتْ فئةً كثيرةً بإذنِ الله، والله مَعَ الصابرين. ولمّا بَرَزُوا لجالوتَ وجنودِهِ قالُوا ربَّنا افرِغْ علينا صبراً وثبّتْ أقدامَنا وانصرنا على القومِ الكافرين. فهزمُوهم بإذنِ اللّهِ وقتَلَ داودُ جالوتَ وآتاه اللّهُ الملكَ والحكمةَ وعلّمَهُ مما يشاء...» (سورة البقرة ٢: ٢٤٩ ــ ٢٥١).

فالمعنى الأول إذن من الأسطورة، ما أظهرته الآيات البيّنات من انتصار المؤمن بالله وصاحب الحق.

والمعنى الثاني ما أظهرته التوراة من كيفيّة تغلّب الأعزل من السلاح على غريمه المثقل والمدجج بالسلاح.

إن مجابهة كهذه، شبه مستحيلة، ولكنها كانت ممكنة مع داود، ذلك لأنه لم يكن حقيقة، أعزل من السلاح، فالسلاح الذي كان بيده، وهو الحجر، «سلاح» لم يتنبه له جليات، وهو يتقدم نحوه، وقد اختفى داخل الدرع والنحاس الواقي والخوذة العالية جسده ورأسه إلّا جبهته ووجهه. وجليات بطيء الحركة لثقل ما يحمل، وجليات بحاجة إلى الاقتراب من داود كي يستعمل سلاحه، وبينما جليات يقترب، ولا يغمر مشاعره إلّا الاستخفاف بهذا الفتى الغر الأعزل، ينقضّ عليه الفتى بمنتهى المهارة والخفة، فينقف جبهته بالحجر، كما ينقف العصفور الطائر.

فالمعنى الثاني من الأسطورة أذن، ليس ما يشاع حولها من تغلّب الفتى الأعزل على القائد المدجج بالسلاح، ولكنه تغلّب الضعيف الذكي الماهر بعنصر المفاجأة، وعنصر «السلاح» الذي لم يكتشف وجوده خصمه بعد، وكان هذا السلاح في أسطورة داود وجليات، هو الحجر.

ويبقى المعنى الثالث في عقل جليات وقلبه، فهذا القائد المحارب، والذي يعتبر بسلاحه الكامل النموذج الأول في عصره، إذ لم يكن يتقدم عليه أي محارب آخر، من شعب آخر، لا في نوعية السلاح الذي يملكه، ولا في حسن استخدامه؛ هذا القائد قد تملكه الغرور، حتى وقع في خداع الشكل والمظهر، والحسابات الخاطئة، مركزاً كل اهتماماته على استحالة تفوّق خصم أمامه، ما لم يكن يضاهيه ــ على الأقل ــ مظهراً وسلاحاً. ولما كان داود بعيداً كل البعد عن مظهر المحارب الكامل، أو شبه الكامل، فقد سيطرت على جليات تجاه خصمه مشاعر الازدراء، ولم يحاول للحظة، أن يحسب حساب وجود سلاح مستتر، ولذلك كله، فهو لم يحاول أن يتهيأ لخصم لا يضاهيه مظهراً في «طبقة المحاربين»، فالحرب، كما فهمها جليات، تعتمد نظرية «الطبقات».

وهذا المعنى الأخير، يركّز عليه المؤرخ توينبي في مناقشته لإسطورة داود وجليات، فهو يعرض تطور العديد من الجيوش وانتصاراتها، ومن ثم، استغراقها في نشوة من النصر، وفي سحابة من الغرور، وإلى الحدّ الذي تهمل معه الاهتمام بالقيم في تنشئة الجند، وفي هذا الإهمال يكمن سر انحدارها وهزيمتها أمام جيوش جديدة، تملك سلاحاً متطوراً، وتملك القيم، وتملك الشجاعة[٢٠].

جيل الانتفاضة

إن المقارنة بين انتفاضة فلسطين اليوم، وبين وقفة داود أمام جليات، مقارنة تبدأ بالحجر، ولا تنتهي بألف داود وداود، بين جيل الانتفاضة.



ربما يبدو ظاهرياً، أن الفلسطينيين اليوم هم ورثة جليات، إلّا أن هذه النظرة خاطئة، فالفلسطينيون اليوم، هم ورثة فلسطين، لا الفلسطينيين القدماء وحدهم، والفارق كبير.

الفلسطينيون اليوم، هم ورثة الكنعانيين، بناة الحضارة الأولى.

هم أبناء القبائل العربية البائدة التي سكنت أرض كنعان، من العمالقة والمديانيّين والإسماعيليين والمَعينيين وقيدار.

هم أبناء القبائل العربية التي سكنت واستقرت منذ حوالي الألفي سنة، هم أبناء الأنباط والغساسنة، والعديد من القبائل التي لم تعد تحصى، والتي كانت أكبر هجراتها مع الفتح العربي الإسلامي، ولكنها لم تكن آخر الهجرات.

ومنذ الفتح، استقر العرب في فلسطين، وكان عددهم في ازدياد لا نقصان. والأهم من ذلك، أنهم استمروا، واستقروا، ولم يهاجروا حتى عهد المؤامرة، عهد بلفور.

ويقرأ الفلسطينيون تاريخهم كاملاً غير مجتزأ، وهم على اختلاف طوائفهم يعرفون جيداً المكانة الدينية لبلادهم لدى الأديان السماوية الثلاثة، فنظرتهم إلى التاريخ أصلاً ليست انتقائية كالنظرة الصهيونية التي تأخذ ما تريد وفق أهوائها، وتنكر كل الإنكار ما لا يوافق أهواءها.

فلسطين هي الأصل والبداية والنهاية.

وداود النبي الشاعر الملك، في تاريخ فلسطين، لم يتنكر له شعب فلسطين يوماً، بل أشار إليه باحترام، وتلك مزاميره ما زالت تقرأ وتُرتل.

والفلسطينيون القدماء أيضاً، يشار إليهم باحترام، فقد أضافوا إلى التراث الحضاري الكثير، وخاصة في فن التعدين، وفي فنون الحرب، فهم جزء من تاريخ فلسطين. وأما التسمية التي ورثها شعب اليوم، عن شعب الأمس البعيد، فهي مجرد تسمية متوارثة، وليس معناها أن الفلسطينيين اليوم هم جليات بالأمس. والمقارنة ليست مقارنة عرقية أو شعوبية أو اسمية، فهي في حقيقتها مقارنة بين موقف وموقف مشابه، في تاريخ بلد واحد.

داود كان في موقف المؤمن الذي استثار حماسته وشجاعته وحكمته موقف الخصم المزدري بوجوده أصلاً، وتحدّي الخصم له لكونه من طبقة أو شعب دونه كفاءة وشجاعة بمراحل.

وجيل الانتفاضة اليوم، في موقف المؤمن الذي يستثير حماسته وشجاعته وحكمته ووحدته موقف العدوّ المزدري بوجوده أصلاً، وتحدّي العدو له باعتباره «شعباً» لا يستحق الحياة.

إن الذين يدعون اليوم أنهم تجمعوا في فلسطين من أجل إعادة بناء مملكة داود وسليمان، فهؤلاء هم الذين يقفون اليوم وقفة جليات.

هم يملكون الجيش المدجج بأحدث أنواع الأسلحة، ولكنهم يعجزون عن استعمال هذا السلاح أمام جيل الانتفاضة، كما عجز جليات عن استعمال سلاحه أمام داود.

وكان جليات بالأمس، رجلاً فرداً، فتمكن منه خصمه بالحجر على جبهته، وأما جليات اليوم، أي «إسرائيل»، فجبهتها لا ترى بالعين المجردة، كي تسقط كما سقط جليات، فتلك كانت أسطورة. أو... كانت «الأسطورة».

وأما، وقد تلاشت الأسطورة، فقد بقي الرمز، بقي الحجر الذي اهتزّ بسببه جليات، ثم سقط.

وهو الحجر، الحجر الكنعاني نفسه، الذي ابتدأ بسببه، يهتزّ كيان إسرائيل — ولأول مرة — ولو قليلاً.

الحــــواشي

(١) كلمة فينيقيا أصلاً عن الأسطورة اليونانية، أسطورة الإله فينيق، وقد أطلقت التسمية في القرن الثاني عشر ق. م.

(٢) Allbright, Archacology and the Religion of Israel (1942), p. 68, as quoted in:
احمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ: **حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الآثارية** (بغداد: وزارة الإعلام، ١٩٧٢)، المقدمة ل ـــ م.

(٣) Werner Keller, *The Bible as History: Archaeology Confirms the Book of Books*, Translated from the German by William Neil (London: Hodder & Stoughton, 1956), P. 159.

(٤) راجــع حول حضارة الكنعانيين:
مصطفى مراد الدباغ، **بلادنا فلسطين**، الجزء الأول ـــ القسم الأول (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٥)، ص ٤٦٢ ـــ ٤٨٨.

(٥) Philip K. Hitti, *Lebanon in History* (London: Macmillan, 1957) PP. 106 —107

(٦) Stewart C. Easton, *The Heritage* of the Past: from the Earliest Times to the Close of the Middle Ages (New York: Holt, Rinhart and Winston, 1963), P. 115:
~~Hilti~~, op.cit., PP. 83 —85.

(٧) Easton, op.cit., P. 115.

(٨) راجــع حول أهمية المكتشفات الأثرية الدكتور أحمد سوسة، وهو من أبرز المؤرخين الضالعين بعلم الآثار:
أحمد سوسة، **المرجــع السابق**، ص ١٨٣ ـــ ١٨٥.

(٩) راجــع:
حسن ظاظا، **الساميون ولغاتهم: تعريف بالقرابات اللغوية والحضارية للعرب** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١)، ص ٥٤ ـــ ٥٦.

(١٠) أحمد سوسة، **المرجــع السابق**، ص ١٨٥.

(١١) James Henry Breasted, *The Conquest of Civilisation* Revised ed, (New York: Harper & Brothers Publishers, 1938), P. 186.

(١٢) Hitti, op.cit., PP. 180 —181.

(١٣) Lewis Bayles Paton, *the Early History of Syria and Palestine*, Reprint of the 1901ed. (U.S.A.: Hyperion Press, 1981), P. 149.

(١٤) مصطفى الدباغ، **المرجــع السابق**، ص ٥٣٨.

(١٥) تابوت العهد أو تابوت الشهادة يعتبر الرمز لإله اليهود كَهْوه. وهو خزانة خشبية مكسوة بالذهب من الداخل والخارج، وفيها لوحا الشهادة، أي اللوحان الحجريان اللذان نقشت عليهما الوصايا العشر.

(١٦) ورد اسم الآلة الموسيقية التي عزف عليها داود في الترجمات العربية «العود»، أو «القيثار» وفي قاموس الكتاب المقدس (بيروت: مكتبة المشعل الأنجلية، ١٩٦٤)، المجلد الأول، ص ٣٦١ وردت التسمية: القيثار؛ وهي في «العهد القديم» بالإنكليزية: «Harp».

(١٧) من المستغرب أن يسأل شاول عن اسم داود، وكأنه يراه أول مرة، فداود ـــ وكما ورد في التوراة ـــ كان يعمل عنده حامل سلاح، ويعزف له على القيثار ليسرّي عنه.

(١٨) H. Jagersma, *A History of Israel in the Old Testament Period* translated by John Bowden from the Dutch (Philadelphia: Fortres Press, 1983, pp. 97, 102.

(١٩) **قاموس الكتاب المقدس**، تحرير بطرس عبد الملك وجون طمسن وإبراهيم مطر (بيروت: مكتبة المشعل الأنجيلية، ١٩٦٤)، المجلد الأول، ص ٣٦٢.

(٢٠) Arnold Toynbee, *A Study of History* (Oxford: Oxford University Press, 1979), vol. IV, PP. 431 — 465.

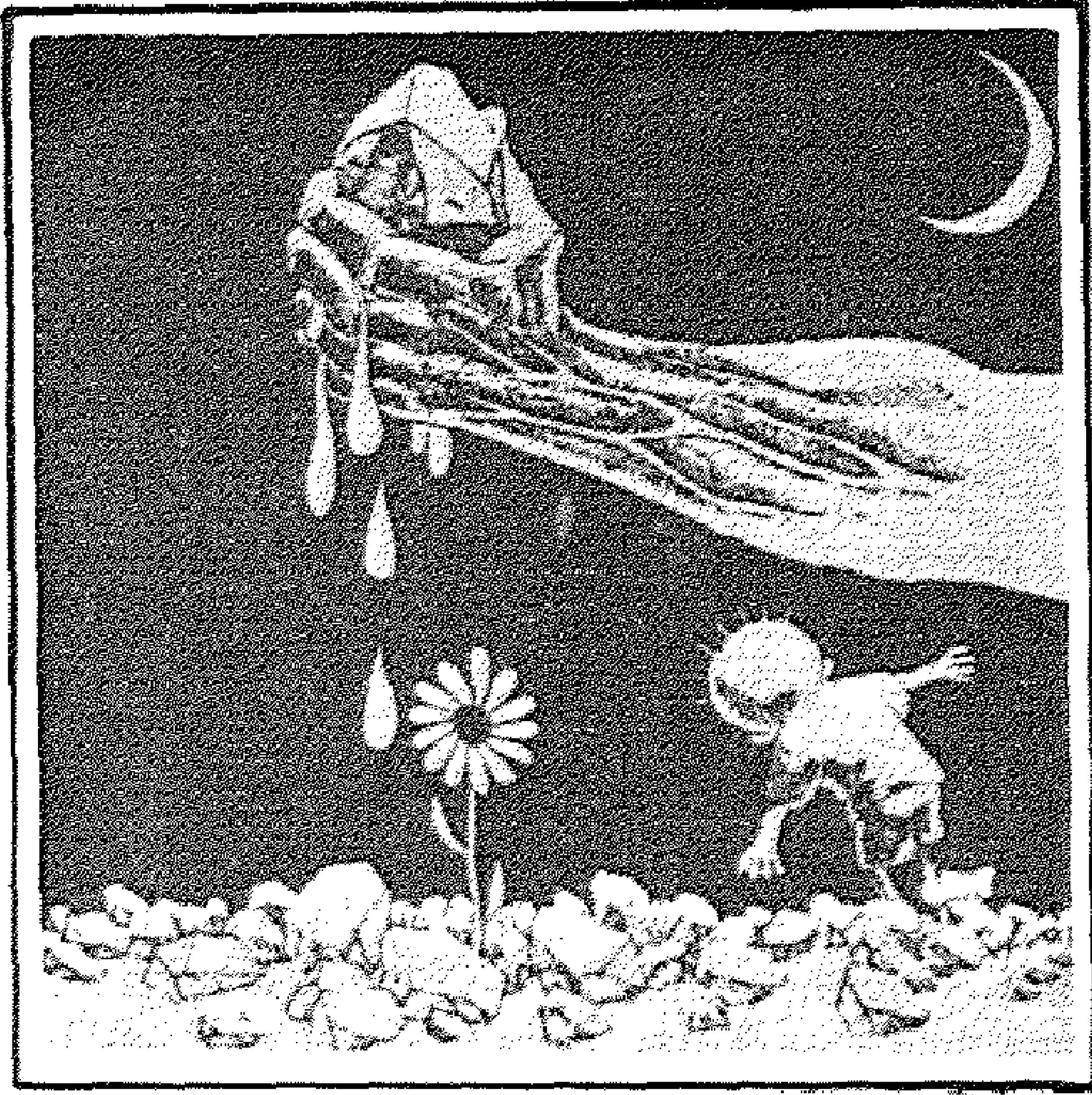
* * *

إذا كنت ترضى أن تعيش بذلة ... فلا تستعدن الحسام اليمانيا
ولا تستطيلن الرماح لغارة ... ولا تستجيدن العتاق المذاكيا
فما ينفع الأسد الحياء من الطوى ... ولا تتقى حتى تكون ضواريا

«المتنبي»

ضوء الانتفاضة في ظلمة السماء العربية

د. أسعد عبد الرحمن



□ «حجارة انتفاضة الضفة» لناجي العلي.



من ضمن الظواهر الملفتة للنظر في الانتفاضة الأخيرة لجماهير الشعب العربي الفلسطيني في المناطق المحتلة انها فاجأت الرأي العام العالمي ومن ضمنه العربي. بل ان الانتفاضة فاجأت دولاً وقوى سياسية دولية وعربية، ناهيك عن «اسرائيل» حكومة وقوى سياسية وشعباً، بعدما افترض جميع هؤلاء ان الشعب العربي الفلسطيني قد استكان بين جدران الأسر نتيجة تدجنه وتكيفه واستسلامه في نهاية الأمر لمصيره الجديد الذي مضى عليه فيه عشرون عاماً كاملة. كذلك فإن الانتفاضة الفلسطينية جعلت اجهزة الاعلام الاجنبي، ناهيك عن أجهزة الاعلام العربي، تلهث وراء الاحداث. وكم من مرة وجد فيها الصحافي الاجنبي نفسه. وهو في غمرة ركضة لتغطية احدث الانتفاضة، يتساءل بينه وبين ذاته أو يسأل من ذهب لمقابلتهم من «شيوخ» فلسطين أو بلاد العرب «الذين هم أدرى بشعابها» عما جعل مؤسسته ترسله على جناح السرعة لتغطية وقائع الانتفاضة وعن الأسباب التي تجعل هذه الأخيرة مختلفة عن سابقاتها. وفي هذا السياق، وفي ضوء كل ما جرى في الأسابيع القليلة المنصرمة، لا بأس من ان نسارع إلى طرح السؤال المباشر المحدد: كيف تختلف هذه الانتفاضة عن سابقاتها، وما هو سر الاهتمام الاقليمي والعالمي بها؟. وكيف أضاءت أحداث «كانون الأول المشتعل» — حسب التعبيرات الإسرائيلية — ظلمة السماء العربية؟

إن اول ما اختلفت به هذه الانتفاضة عن غيرها يرتبط بدرجة الفجائية العالية التي تميزت بها من زاوية التوقيت الزمني. ومع ان العلوم الأساسية والتطبيقية قد توصلت، بدرجة كبيرة من الدقة، إلى معرفة مسبقة بمواعيد انفجار البراكين الطبيعية، فإن العلوم الاجتماعية والانسانية لم تنجح بالدرجة نفسها او بما يقترب منها في مجال معرفة مواعيد ثوران «البراكين الشعبية». وعلى رغم ان الامبريالية، والدولة الصهيونية، تتباهيان بقدراتهما على فهم دواخل شعوب العالم الثالث، ومن ضمنه الأمة العربية، ومن ضمنها الشعب الفلسطيني، فإن الاحداث والتطورات الكبرى — من نوع الانتفاضة الفلسطينية الأخيرة — ما فتئت تفاجأهم وتأخذهم على حين غرة وما كان لهذا الأحساس العارم بالمفاجاة أن يسود هذه الأوساط لولا انها بالغت في ثقتها بنفسها وبخبراتها المتراكمة وبقواها البطشية والاغرائية المباشرة وغير المباشرة بحيث جعلها كل ذلك تعتقد إنها نجحت، وإلى فترة طويلة، في تطويق واحتواء وتكييف وتدجين وتيئيس الشعب العربي الفلسطيني تمهيداً لتوقيعه على وثيقة استسلامه!! وفي الوقت الذي اعتقدت فيه هذه الدوائر ان الشعب الفلسطيني قد نال منه الحصار والضرب

والقمـع الذي أصابه بشكل مباشر أو اصاب منظمته وفصائلها، فوجئت الدوائر ذاتها بأن ذلك الشعب قد انتفض وتحرك بعدما بـدا عليه من خنوع أو مـوات مفترضين وظاهرين، بـل ان القمـع الاسرائيلي المباشر قـاد إلى مواجهة بدل ان يؤدي إلى استكانة. كما أن تكالب الأعداء أدى إلى بلورة إرادة التحدي بدل فرض حالة من اليـأس. كذلك، فـإن تجاهـل بعـض الأشقاء والاصـدقاء وكـل الخصـوم والأعـداء للشعب الفلسطيني ولقضيته اسفر عن عزيمة أضافية لاثبات الـوجود. واخيراً، فإن المحاولات الدؤوبة على درب شطب الشعب الفلسطيني من المعادلة زوده بـالقوة اللازمـة لاعادة تثبيت نفسـه ــ بانتفاضتـه الأخيرة ــ عـلى الخريـطة المحلية والعربية والدولية. وهكذا، فـإن السائـرين في «جنازة» الشعب الفلسطيني، الذاهبين إلى المقبرة المعدة لدفنه، وجدوا انفسهم ــ فجأة ــ وجهـاً لوجه أمام «الفقيد» أو «المجنـي عليه» الذي لم يكتـف بالانتصاب الشجـاع أمامهم بل بادر إلى قذفهم بالحجارة أيضاً.

ثم، ان ثـانـي ما تميزت به الانتفاضة العربية الفلسطينية الأخيرة هـو كبر حجمها الكمي فهي لم تقتصر على شريحة أو شريحتين من جماهير المناطق المحتلة وهـي لم تكن فقط من صنـع الطلاب سواء كانوا في المرحلة الابتـدائية أو الأعدادية أو الثانويـة أو الجامعية. وهـي لم تكـن بمبادرة مقتصرة على ابناء النازحين في المخيمـات على رغم دورهم الطليعي المبادر في أغلب الأحيـان. ذلك ان الانتفاضـة تجـاوزت الفئات والشرائـح لتشملـها جميعاً ولتظلل تحـت رايتها جميـع الفئات العمرية والجنسية والطبقية بحيث اشتملت على الأطفال واليافعين والصبايا والشباب والرجال وانسـاء والكهول والشيـوخ ومختلف الطبقات المهنية والفلاحية والطلابيـة والتجـاريـة والعمـاليـة. ومن هنـا، اكتسبت الانتفاضة الأخيـرة هذه بعـدها الجمـاهيـري الواسـع الذي جعـل كثيـرين، ومن ضمنهـم المؤرخ الاسرائيـلي يهوشـاع بورات، يسجـل بالحرف الكبير حقيقة كون الانتفاضـة حركـة «شعبية» واسعة وشاملة. وممـا لا شك فيه ان ذلك ما كان ليحدث على هذا النحو لولا ان كأس مرارة وإذلال الاحتلال قـد امتلأ وفاض، ولولا ان مصالح جميع هذه الفئات قد تضررت نتيجة عمق الاستغلال المستمر الممـارس ضدهم من المحتلين، ولولا «تـوحد» جميع هذه الشرائـح تحـت وطأة جلد سـيـاط التعـسف الأمـنـي والسيـاسي والعنصـري والاقتصـادي الإسرائيلي المنهالة على أجساد وكرامات ونفسيات وحريـات وبطون جماهـير الشعب العربـي الفلسـطيني ماضياً وحاضراً وهكذا، وجدت الدولة الصهيونية نفسها، على رغم حشـدها لكـامل قـواها، في مـواجهـة مـع شعـب وحـدتـه قـوة القهـر الصهيوني / الأمبريالـي من جهة، وقـوة الحلم بالخلاص والتحرر من جهة أخرى.

أما ثالث ما اختلفت به وتمايزت فيه الانتفاضة الشعبية في المناطق المحتلة فقد تبدي باتساع امتدادها الأفقـي الجغرافـي وعلى رغم ان مثل هذا التطور قد حدث سابقاً في المناطق المحتلة بأسرهـا، فإنه كان هذه المـرة أشد وضـوحاً وأرسخ، فما كادت منطقـة فلسطينيـة تصاب بمكـروه حتـى تـداعـى له بـاقـي الجسـد الفلسـطيني، بـل والعربي بـالحمـى والسهر. ومـع ان الأمر لم يقتصر على تضامـن المناطـق المحتلة بعضهـا مـع بعض، فـإن الوشـائـج النضالية المباشرة في ما بينها تجذرت من ناحية، وشدتها على نحو اسرع وافعل من ناحية أخرى. وكما قال الكاتب الاسرائيلي أوري نير في صحيفة «هارتس»، فإنه كان بين الضفة الغربية وقطاع غزة «إشعاع فوري ثنائي الاتجاه» بل إننا ــ في ضوء الوقائـع المتركمة ــ نستطيـع تعميم هذه الحقيقة / الخلاصة بحيث تضاف إليها مناطق الجليل والنقب. والمثلث التي خضعت للاحتلال منذ العام ١٩٤٨. وكم هـي الكتابات الأجنبية، نـاهيـك عن الإسـرائيليـة، التي تحـدثت عن «المفـاجأة» أو «الصـدمة» أو «اللطمـة» التي أصابت الإسرائيليين وحكومتهم من جراء الموقف الذي اتخذه «فلسطينيو ١٩٤٨» وفي هذا الصدد، طالب عدد من المسؤولين الإسرائيليين باتخاذ اجراءات قمعية ليس ضد المتظاهرين فحسب، وإنما أيضاً ضد اعضاء اللجنة القطرية للمجالس

المحلية. أي القيادة المحلية المنتخبة التي لم تستطع ـ حتى لو أرادت ـ «ضبط» المتظاهرين ومنع «تماديهم» في اعمال العنف الشديد التي شهدتها المناطق المحتلة، بل ان عدداً آخر من المسؤولين الصهيونيين طالب بإعادة فرض الحكم العسكري على الجليل والنقب والمثلث وسائر القرى المحتلة منذ ١٩٤٨. هذا، طبعاً، عدا عن الآثار والانعكاسات التي تركتها الانتفاضة الأخيرة على امتداد نقاط التواجد الفلسطيني خارج الوطن المحتل، كي لا نتحدث عن الانعكاسات عند ابناء العروبة الآخرين وتجاوبهم الواضح الذي سر الصديق وأغاظ الأعداء. ونحن هنا لا نتحدث عما حدث من تضامن في صيدا ومخيم اليرموك وغيرها فحسب، ولا عما ظهر من تعاضد في الأوساط الشعبية والمهنية والطالبية المصرية أو الكويتية وغيرها فقط، وإنما نتحدث عما تبدي من تضامن واسع خارج اقطار الوطن العربي الكبير.

أما رابع ما تميزت به الانتفاضة الشعبية الفلسطينية الأخيرة فقد تجلى في الشجاعة المطلقة التي ابدتها جماهير الشعب العربي المأسور بين جدران الاحتلال من دون انتقاص من الشجاعة التي اظهرتها فئات من الجماهير العربية الفلسطينية في انتفاضات سابقة، فإن مستوى الشجاعة هذه المرة قد ارتفع فوق أي منسوب عادي وربما بسبب الظروف غير العادية التي وصلت إليها أوضاع الجماهير في الوطن المحتل، ومسألة «الشجاعة» هنا ليست مسألة خلقية مطلقة. فنحن نتحدث عن الشعب الشجاع ذاته سواء في هذه الانتفاضة أو غيرها من سابقاتها. غير ان الظروف الموضوعية لهذه الانتفاضة خلقت حالة نفسية جماهيرية موضوعية مختلفة فارتفاع منسوب القهر إلى نقطة أعلى هذه المرة، وبعدما كان من المفترض له أن يؤدي إلى استكانة وخنوع مطلقين ودائمين، إذا بذلك القهر يؤدي إلى شجاعة استثنائية وصلت إلى حدود المغامرة. ثم ان اتساع الانتفاضة واشتمالها على مختلف الفئات عزز ـ كما هو متوقع ـ الثقة بالنفس وزاد من الإيمان الداخلي بقابلية النصر وتحقيق النتائج المرجوة، بعدما تقوت إرادة الفئات المختلفة بمشاركتها ودعمها لبعضها البعض. كذلك، فإن «البعد الديني» الجديد للانتفاضة لعب دوره الخاص والمتميز، وبالذات بعدما تقوت القوى المقاومة تاريخياً للاحتلال بالحضور الجديد المشارك والفعال لقوى سياسية «إسلامية» اختارت مؤخراً سلوك دروب تعانقت فيها قلوبها وايديها مع قلوب وأيادي القوى القومية واليسارية المقاومة منذ المراحل الأولى المبكرة والمتمتعة بالخبرة والمراس في مقارعة المحتل وإلى درجة اصبح معها قتال قوات الاحتلال بمثابة «ديانة سياسية» محركة عنها. وهكذا ـ ومثلما يحدث عادة في كل الحالات التي ترقى فيها قيمة الاستشهاد في النفوس إلى الدرجة المطلوبة، سواء نتيجة دوافع دينية أو وطنية علمانية، أصبح الاستشهاد بديلاً للموت بكل ما يرافق ذلك من نفوس غير هيابة، لا تتوقف عند حدود الدفاع وإنما تتجاوزه نحو الهجوم المتصاعد المطرد، ومن دون خوف من الرصاص المتجه نحو الصدور والرؤوس والاطراف والاجساد. ولقد لاحظ هيرش غودمان مثلاً، في صحيفة «لوس انجلوس تايمز»، ان المنتفضين الفلسطينيين إنما «كانوا يريدون ان يصبحوا شهداء»، وفي هذا السياق، تجدر الإشارة إلى أن عدداً من الصحافيين والكتاب الإسرائيليين أشاروا إلى الخطأ الذي وقع فيه الجيش الإسرائيلي حين لجأ منذ البداية، إلى استخدام الرصاص خارماً نفسه، بالتالي ، من هذا السرح التخويفي الرادع في المستقبل خصوصاً بعدما ثبت ـ في عنفوان الانتفاضة الشعبية الفلسطينية ـ إن الرصاص كان اعجز من ان يخيف المنتفضين.

وعلى صعيد مرتبط بالعامل السابق، يبرز الأمر الخامس الذي تميزت به انتفاضة الشعب العربي الفلسطيني الأخيرة والمتمثل بكون الشجاعة المنقطعة النظير والاستعداد للاستشهاد لدى الجماهير ادى لحظة اصطدامه بالقوى القمعية الإسرائيلية المستشرسة، إلى سقوط عدد كبير من الشهداء والجرحى أكبر مما شهدته أية

انتفاضة سابقة، ناهيك عن المعتقلين والمبعدين. فقوات القمع الإسرائيلي، المؤلفة من جيش وحرس حدود وشرطة ومخابرات ومستوطنين، اصبحت مع تعاقب سنوات الاحتلال، وفي ظل تنامي فكر وقوة القوى الموغلة في اليمين في المجتمع الإسرائيلي، ومع تواكب هذا وتزامنه مع عمليات غسل الدماغ وبشكل اسفر عن فكر عنصري حاد ضد العرب معشش في اوساط الشارع السياسي الإسرائيلي ناهيك عن قوات القمع فيه. كل ذلك أدى إلى شراسة إسرائيلية ذاتية استثنائية. ومع تفاجؤ الإسرائيليين بالانتفاضة اولاً، وبحجمها الكمي ثانياً، وباتساعها الجغرافي ثالثاً، وبشجاعتها الاستثنائية رابعاً، تولدت لدى قوى القمع الإسرائيلي حالة من «الصراع الدموي» الاضافي جعلها تطلق النار للقتل وليس للتخويف او الارهاب فحسب. وكان ان أدى ذلك إلى سقوط شهداء وجرحى جدد. ولان الدم يستسقي الدم من ناحية، ولان كل شهيد «يضيء شعلة جديدة من الكراهية» حسب تعبير آمنون روبنشتاين وزير الاتصالات الإسرائيلي السابق، فإن ذلك أدى إلى اختلاف هذه الانتفاضة عن سابقاتها بسقوط العديد من الشهداء والجرحى. وإذا كانت هذه الحقيقة وما تعنيه من معاني تصعيدية خاصة هو ما سجله بوضوح شديد زئيف شيف، المعلق العسكري الإسرائيلي المعروف، فإن ما استخلصه غودمان في مقالته المشار إليها آنفاً، كان أكثر تعبيراً عندما قال ان «كل ضحية تخلف شهيداً جديداً، وهي سبب آخر لتراكم العنف وتصاعده» مستقبلاً. وبالتالي، فإن الموضوعي ان نستنتج ان هذه الانتفاضة لا تمتاز بما جنته حتى الآن من مكاسب مباشرة وسريعة فحسب، وإنما أيضاً بما استثمرته على درب الانتفاضات المستقبلية المأمولة.

ويتضح سادس ما تميزت به الانتفاضة الأخيرة لجماهير الشعب العربي الفلسطيني داخل الوطن المحتل في ما اسمته المصادر السياسية والاعلامية العالمية بالطبيعة «المحلية» أو «العفوية» أو «الذاتية المبادرة». ومع ان المصادر السياسية والاعلامية الرسمية الإسرائيلية حرصت في البداية على إظهار ما جرى في المناطق المحتلة على شكل «اعمال شغب» حركتها الأيادي «الإرهابية» في «الخارج»، فإن عدداً متزايداً من وسائط الاعلام الإسرائيلية الحزبية والمستقلة عاد فأكد على صفات العفوية والتلقائية والمحلية التي صبغت احداث الانتفاضة. بل ان هذه الوسائط إضافة إلى مثيلاتها الاجنبية، حاولت الغوص بحثاً عن الأسباب الموضوعية التي أدت إلى الانتفاضة وأدت إلى تميزها بالعنف الشديد والشمول الواسع والاستمرارية وغير ذلك من الحقائق التي ارتبطت بحركة الجماهير الفلسطينية في ما اصبح يعرف اسرائيلياً باسم «أحداث كانون الأول المشتعل». ثم عادت بعض المصادر السياسية والاعلامية الاجنبية، وشاركتها في ذلك بعض المصادر الإسرائيلية، للتركيز على هذه الصفات التي اتسمت بها الانتفاضة الأخيرة؛ لكن بقصد جديد الا وهو الانتقاص من دور منظمة التحرير وفصائلها وإظهار الانتفاضة وكأنها حدث منعزل ومنفصل عن الفصائل والقوى السياسية الفلسطينية غير ان الشعارات اللاحقة للانتفاضة، زائداً تجاوبها البارز والكامل مع دعوات منظمة التحرير للاضراب، خصوصاً في «يوم فتح» في اليوم الأول من العام الجديد، إضافة إلى اتضاح «الصلات والاتصالات» التنظيمية لعدد واسع من المعتقلين في اثناء محاكماتهم السريعة، كل ذلك عاد فوضع الأمور في نصابها وفي هذا السياق، ومع الاقرار باهمية الدور التلقائي والعفوي الريادي لجماهير الشعب العربية الفلسطيني الذي تجلى على أوضح ما يكون عليه التجلي في هذه الانتفاضة الأخيرة، فإن القوى السياسية والفصائل الفلسطينية سرعان ما عادت لتأكيد الصلات ولتتعلم، من جديد، من الجماهير ولتقودها في الوقت ذاته. وفي هذا الأمر المزدوج الأخير ضمانة الضمانات لاستمرار المقاومة وانتصارها قصر الزمان أم طال.

●

(عن «السفير» ١١/٢/١٩٨٨)



قراءة باللبناني لانتفاضة فلسطين

طلال سلمان



ما أبلغ الدروس والعبر التي تلقيها علينا، بغير قصد وبعفوية مطلقة، وكل يوم، هذه الانتفاضة الشعبية المباركة في أرض فلسطين المحتلة، نحن في لبنان المقسم بحدود الجراح أمماً (وأهدافاً) شتى.

إنهم يفعلون، بالضبط، عكس ما يصار إلى ارتكابه بإسمنا هنا، ومن هنا فهم يحتلون كل ساعة مساحة إضافية من اهتمامات العالم ومن وجدان إنسانه، في حين يمكن توجيه التهاني حارة إلى الزعامات اللبنانية الماجدة لنجاحها الباهر في إسقاط لبنان ذاكرة الدنيا، دولاً وشعوباً وأفراداً تنظمهم أحزاب وهيئات أو يتوزعون وفق أمزجتهم والأهواء.

ولنبدأ باستعراض المفارقات الجارحة والمؤلمة ولو بوجوهها الأبرز:

١ ـــ هناك يحترك الشعب، بمجموعة، كوحدة، ملتصقاً بالأرض كوحدة، حماية لانتمائه إليها وحقه غير المنازع فيها.

وهنا نكاد نصبح، بفضل قياداتنا ورعايتها لشؤوننا، شعوباً بعدد الطوائف والمذاهب (المسلحة)، وتكاد أرضنا تفقد وحدتها بعدما مزقت «دولاً»، وبعدما افتقدت عنصر وحدتها الأساسي: وحدة إنتماء الشعب الواحد إليها جميعاً.. وكيف تبقى للأرض قيمتها ـــ وطنياً ـــ إذا كانت «شعوبها» متعـددة الانتماءات، وأين الوطنية طالما استوطن «الجمهور» الطوائف، بالقهر أو بالقسر أو بتعذر البديل، لا فرق؟!

٢ ـــ هناك توحدت فئات الشعب جميعاً، الاجتماعية والطائفية، السياسية والدينية، تحت لواء هدف نضالي واحد هو توكيد وحدة هوية الأرض والشعب، فالأرض فلسطينية لأن الشعب فلسطيني، والشعب فلسطيني لأن الأرض فلسطينية، والمحتل هو العدو لأنه عدو فلسطينية الأرض والشعب.

... أما هنا فالهوية ما زالت موضع خلاف (؟!)، فقد تكون الأرض لبنانية لكن مواطنيها غير لبنانيين «بمعنى اللبناني اللبناني»، أو أن انتماءهم إلى لبنان ناقص وغير مكتمل!

ثم قد تكون الأرض لبنانية والمواطنون لبنانيين والهوية غربية، حضارياً، أو قد تكون الأرض لبنانية ويكون المواطنون لبنانيين من حيث المبدأ، ولكنهم متعددو الانتماءات عملياً، بعضهم شرقي والبعض الآخر غربي وبعض ثالث محيرَّ أو مخلط وبين بين.

٣ ـــ هناك ينتفضون بإرادة واحدة لإعادة تظهير صورة وطن شطبه، بالمعنى السياسي، الاحتلال الإسرائيلي... وهم يؤكدون عبر الانتفاضة أن وحدة الأرض الوطن ـــ أرضاً وشعباً ـــ أقوى من الاحتلال وأبقى.

... وهنا يتصرف أمراء الطوائف بنا وبالبلاد وكأن الطوائف، وتحت قيادتهم، أبقى من الوطن وأقوى، قد يذهب الوطن، أرضاً وشعباً، قد تذهب دولته (الحكم والحكومة) وتبقى الطوائف ويبقى الأمراء... فالوطن هم، يبقى ببقائهم، فإذا مست إمتيازاتهم «ألفوه» ليستبقوها!

والوطن هنا يتحدد بموقع الطائفة في الحكم، فإذا ما طرأ على الموقع أي تعديل، ومهما كان طفيفاً، صارت حتمية إعادة النظر في وجود الوطن أصلاً... فالبيك، وكلهم بيكوات، أهم من الوطن، هو حقيقة ملموسة والوطن خيال أو حلم أو وهم أو شيء من هذا وذاك.



□ صبيان فلسطينيان يرفعان سلاحهما الخشبي في رام الله.



□ جندي إسرائيلي يخمد حريقاً في قلقيلية.

وهنا جيرَّ كل «زعيم» انتفاضة قسم من الشعب لنفسه عبر إعلانها انتفاضة لمنطقته من بين المناطق، أو لطائفته من بين الطوائف، واقتطعها بإسم الانتفاض لنفسه ولذريته من بعده، وأخرجها من السياق الطبيعي للعمل الوطني من أجل استعادة وحدة الأرض والشعب.

وهكذا صارت عندنا «انتفاضات» بعدد الطوائف المسلحة، ولم يعد لنا وطن.

٤ ــ هناك لا جيش لهم ولا قوات مسلحة ولا سلاح، غير الحجارة المباركة والعصي والمقاليع والزجاجات وإطارات المطاط، وغير ما تصطنعه إرادة المقاومة من أسلحة ووسائل صمود.

... وهنا يمنـع قيام جيش وطني، ويجهر «الأمراء» بأنهم «طوبوا» الجيش لطائفتهم ودمجوه بـ «قواتهم» فجعلوه مجرد ميليشيا طائفية تضاف إلى قائمة الميليشيات الطائفية التي تتناهش في ما بينها ما كان في الماضي مشروع وطن.

وهكذا تتحول مدافع «جيش الشعب» عن أهدافها المفترضة إلى مدن الشعب وقراه، تدكها دكاً، وإلى منازل المواطنين تهدمها على رؤوس أصحابها، مرة بإسم الحفاظ على «الشرعية» كأنما الشعب غير شرعي، أو كأنما شرعية الحاكم أقدس من حياة الشعب، ومرة بإسم الحفاظ على كرامة الجيش كأنما هذه الكرامة منفصلة أو متعارضة مع كرامة الشعب أو أنها تنبع من مصدر آخر!!

على أن ثمة أمراً عاجلاً يرجى التنبه إليه:

تعودنا أن ننسب أعمال الطيش والرعونة إلى «الصبية»، وكنا حين نريد شتم «زعمائنا» الأماجد نتهمهم بأنهم صبية.

لكم نحن مدينون بالاعتذار اليوم للصبية، بعض صناع الانتفاضة المباركة وبعض وقودها المقدس.

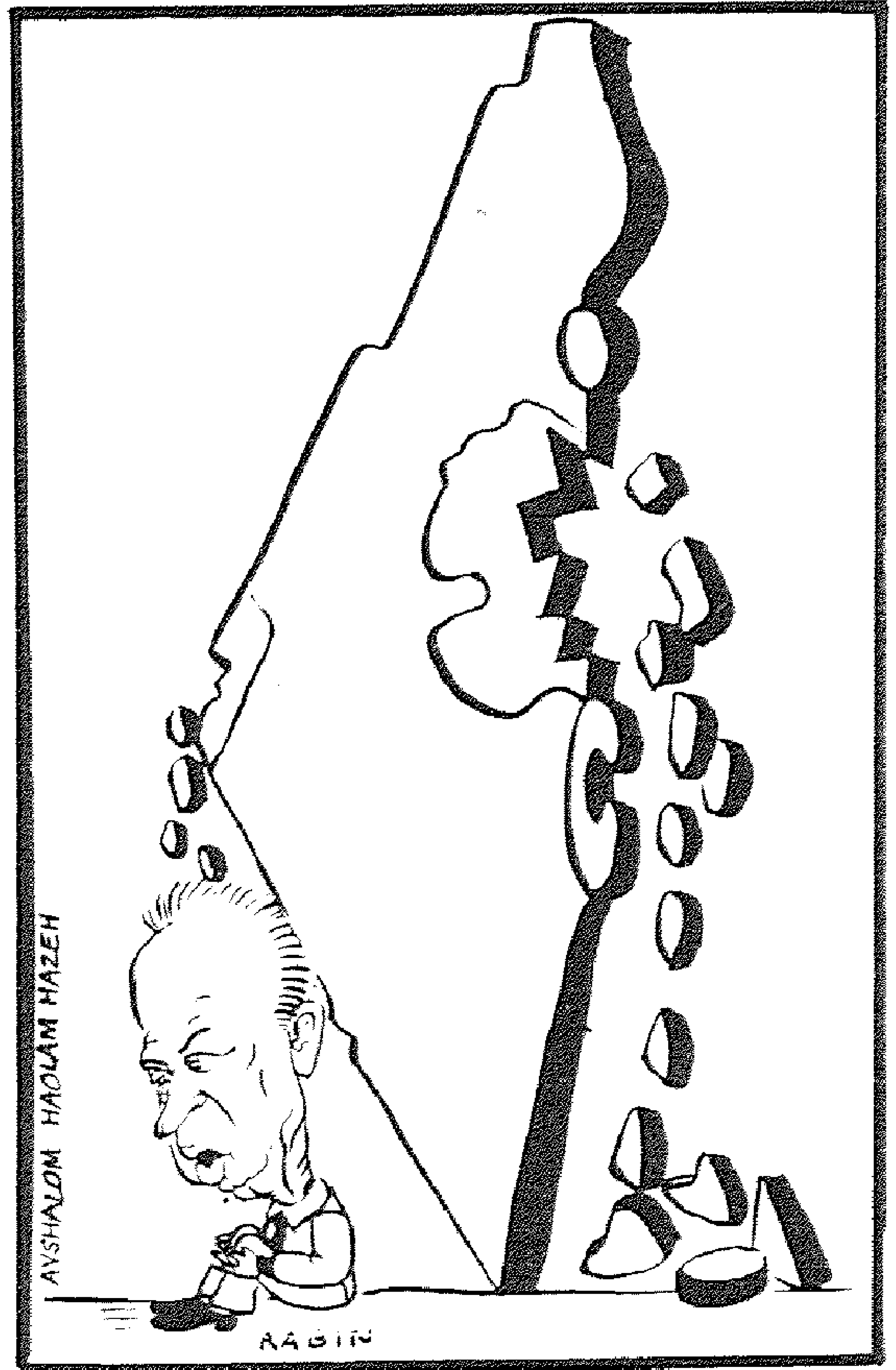
ولكم نحتاج، بل زعاماتنا والقيادات، إلى بعض هؤلاء الصبية الأبطال، الذين فهموا ما لم يفهمه هؤلاء العضاريط الصناديد عن وحدة الأرض والشعب، وحدة الانتماء، وحدة الوطن، وحدة الهوية، وحدة الأمة، وبالتالي وحدة العدو حتى لو تعددت رؤوسه...

... ومع الانتفاضة المباركة تحية إلى أحد القادة العظماء الذين وعوا هذه الحقيقة وقاتلوا حتى استشهدوا من أجلها، تحية إلى جمال عبد الناصر في ذكرى ميلاده، هو الباقي أبداً في وجدان الثوار والمجاهدين والعاملين لتحرير الأرض والإنسان في أربع رياح هذا الوطن العربي الكبير.

●

أثر الانتفاضة في الكيان الصهيوني

محمود سويد



لا يكتمل الحديث عن أثر الانتفاضة في الكيان الصهيوني مرة واحدة، ولا في معالجة آنية مهما بلغ طموحها إلى الاحاطة والشمول، ما دامت الانتفاضة قائمة ومستمرة، وما دام فعلها يتراكم ويتكامل في حركة يومية متواصلة تستعر احداثها وتتسع وتتشعب وتتشابك، فتنتج هذا الأثر أو ذاك، بقدر ما تحفر في العمق أو على السطح، أو فيما بينهما، في بيئتها اولاً وفي البيئات المحيطة بها والمجاورة لها ثانياً. ومن هنا فإن قراءة ما أحدثت الانتفاضة وما تحدث في المجتمع الاسرائيلي من أثر هي عملية يومية متصلة وديناميةً، تواكب الحدث. تناقش وتستخلص في ضوء معطيات تضاف وتطورات تستجد.

هذه المتابعة اليومية لا تقتصر على رصد حركة المجتمع الاسرائيلي في مواجهة الانتفاضة، فقط، ولكنها تتصل أيضاً بمدى التفاعل الذي تخلقه الانتفاضة مع امتدادها الفلسطيني الخارجي أولاً ومع محيطها العربي ثانياً. وهذا هو شرط اكتمال فعلها وتأثيرها ثم انتصارها.

وربما بسبب هذا الشرط بالذات، والظروف الصعبة التي تعيق تكوينه، لابد من القول، باديء ذي بدء، ان الانتفاضة على اهمية ما أحدثت من ارتباك في المجتمع الاسرائيلي وانهاك لآلته العسكرية، لم تحدث بعد الأثر الذي يضطر اسرائيل إلى اتخاذ موقف ينعكس بصورة إيجابية على مجريات الصراع العربي ــ الصهيوني، وعلى الحلول المطروحة للقضية الفلسطينية.

فإسرائيل التي شفيت أو كادت من حرب لبنان؛ وإسرائيل التي اطمأنت، بعد ٤٠ سنة على تأسيس الكيان، و ٢٠ سنة على التوسع الامبراطوري، إلى ما احدثت في الجسم العربي من سقم ووهن (فالسلام القائم مع مصر، والحرب العراقية ــ الايرانية وما

تستنزف من طاقات وامكانات وموارد، والحرب في لبنان ونتائجها الفلسطينية خصوصاً، والخلافات العربية الحادة، كل ذلك كاد يتحول إلى ثوابت تريح اسرائيل وتساعدها على اداء دورها كاملاً في المنطقة).

وإسرائيل التي فرضت على المناطق المحتلة علاقات استغلال نموذجية، على كل مستويات الانتاج والاستهلاك والعمالة وفي كل المجالات. علاقات السيد بالعبد بكل ما تنطوي عليه من دونية واذلال فضلاً عن الافقار والحرمان.

واسرائيل التي استقرت الحياة السياسية فيها، منذ انتخابات الكنيست الحادي عشر (عام ١٩٨٤) وتشكيل حكومة الائتلاف الوطني، على توازن دقيق بين القوتين الرئيسيتين اللتين تتقاسمان السلطة: الليكود وحزب العمل.

إسرائيل هذه. فاجأتها الانتفاضة، كما تفاجيء دائماً ثورات الشعوب المقهورة المستعمر المستبد المعتد بقوته وجبروته. والطريف ان اسرائيل التي بنت أحد اقوى جيوش العالم، لامت نفسها أخيراً لأنها لم تنتبه إلى ضرورة بناء قوة بوليسية متخصصة في قمع الانتفاضات، كما في جيوش العالم الأخرى، ولذلك فقد استعجلت قيامتها العسكرية لسد هذا النقص وتشكيل هذه القوة (يوسي ميلمان — دافار ٨٧/١٢/٢٥: «دوهمت اسرائيل المتخمة المستمتعة على حين غرة» ولم تعط اجهزة الأمن تحذيراً استخبارياً عن امكان وجود تحرك شعبي منظم في المناطق. لا يضم الجيش وحدات مخصصة لتفريق المظاهرات: تجهيزاً وتدريباً. يورام بيري - دافار ١٩٨٨/٣/١٣: اضافة وحدات جديدة إلى حرس الحدود، وتغيير خطط العمل والتدريب، وتطوير وسائل جديدة لتفريق التجمعات. هارتس ٨٨/٣/١٤: انشاء هيئة استخبارية جديدة في ضوء الدروس المستفادة من احداث المناطق، لجمع المعلومات وتقويمها وتقديمها إلى صانعي السياسة، والجديد في مهمة هذه الهيئة انها تشمل ايضاً جمع المعلومات عن العرب في اسرائيل إضافة إلى مهمتها في المناطق المحتلة عام ١٩٦٧).

وفيما الانتفاضة تفاجيء كل يوم، بما تكتسب، في خلال تجربتها بالذات، من خبرة وتمرسُ وابتداع لأشكال النضال وأساليبه وفنونه وادواته، يحتدم في اسرائيل نقاش يتناول قضايا اساسية في الصراع العربي - الاسرائيلي، ويشمل القيادة السياسية والرأي العام والجيش(*) وتعكس الصحافة الاسرائيلية هذا النقاش الذي ما فتيء يغطي معظم صفحاتها منذ اندلاع الانتفاضة في الاسبوع الاول من كانون الاول / ديسمبر ١٩٨٧ حاجباً إلى حد كبير ما عداها من شؤون واهتمامات.

أولاً: القيادة السياسية

تستأثر القوتان الرئيسيتان الليكود وحزب العمل بالقيادة السياسية في اسرائيل، عبر صيغة الحكومة الائتلافية التي فرضتها نتائج انتخابات الكنيست عام ١٩٨٤ وعدم حصول أي من القوتين على الأصوات التي تمكنها من الانفراد بالسلطة. وعكس هذا التوازن، في احد وجوهه، خلافات التيارين الصهيونيين الرئيسيين حول النظرة إلى القضية الفلسطينية وأساليب معالجة الحلول المطروحة بشأنها. ذلك ان هذه النظرة وتلك الحلول تمس جوهر وجود اسرائيل بالذات، وتضعه، كلما لاح طيف انتصار عربي، على رأس جدول النقاشات اليومية الحادة، التي تذكر الاسرائيلي العادي بأن صاحب الحق في البيت والأرض والوطن لا يزال يدق الباب بالحاح، وتضعه — الاسرائيلي العادي — في حالة التباس مقلقة امام حقيبة سفر وسفينة عودة لا يتبين ازاءهما بوضوح ملامح القادم والمغادر.

هذا النقاش يحتدم الآن في اسرائيل كما لم يحصل من قبل. فالانتفاضة تقتحم نقطة التوازن - الخلاف في السلطة وفي الرأي العام، وتهز الطمأنينة الاسرائيلية إلى «سلامة» الوضعين الفلسطيني والعربي، وتدفع بالمواقف إلى حلبة الصراع، فالحسم.

١ - **موقف الليكود**: يتبلور موقف الليكود والقوى التي تقف إلى يمينه (هتحيا بزعامة يوفال نئمان تسوميت بزعامة رفائيل ايتان،

غوش ايمونيم، كاخ بزعامة مئير كهانا) وتشده باتجاهها في ثلاثة اتجاهات:

أ — يدعو الاتجاه الأول، ويمثله اسحاق شامير رئيس الحكومة، إلى منح الفلسطينيين ادارة ذاتية، كما وردت في اتفاق كامب ديفيد.

ب — ويدعو الاتجاه الثاني ويمثله اريئيل شارون، الفلسطينيين إلى إقامة دولتهم شرقي نهر الأردن. بمساعدة اسرائيل أو بدون مساعدتها. «ثمة حل واحد فقط، إذا كنا سنتحدث عن حل حقيقي: دولة فلسطينية في الأردن. وإذا لم يوافقوا: عندها سيبدأ الحل عندما يوافقون» (نشرة م. د. ف. ١٩٨٨، ص ٢٧) «انني شخصياً أؤمن بمشروع الادارة الذاتية كجسر للسلام. بيننا وبين الدولة الفلسطينية القائمة الآن في الأردن» (يديعوت احرونوت ٢٦/٢/٨٨).

جـ — أما الاتجاه الثالث فيدعو إلى طرد العرب من الصفة الغربية Transfer الأمر الذي يحسم النزاع مرة واحدة، ويقيم وحدة «أرض اسرائيل» الحقيقية والناجزة. ومن ابرز دعاة هذا الحل: ميخائيل ديكل نائب وزير الدفاع. ويوفال نئمان زعيم حركة هتحيا، واللواء احتياط رحبعام زئيفي. (انظر نشرة م. د. ف. عدد ٨ — آب / أغسطس ١٩٨٧ — ص ٥٩٩).

على هامش هذه الاتجاهات ، حدثت في الأشهر الأخيرة خروق طفيفة في جسم الليكود كان ابرزها موقف موشيه عميراف، عضو اللجنة المركزية لحركة حيروت، الذي اقيل من منصبه بعد ان اتهم باجراء الاتصالات مع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية .انطلاقاً من قناعته بضرورة اجراء حوار مع المنظمة، وطرح مشروع حل «النقطة المركزية فيه»: «إطار حكم ذاتي فلسطيني في يهودا والسامرة وغزة — دولة تقريباً — تكون منزوعة السلاح وعاصمتها القدس الشرقية: وجيش اسرائيلي على نهر الأردن، والابقاء على المستعمرات ضمن منطقة لا يسرى عليها حكم دولة اسرائيل» (نشرة م. د. ف. ١٩٨٨، ص١٠٦).

وموقف شلومو لاهط رئيس بلدية تل أبيب الذي ينتمي إلى حزب الاحرار داخل الليكود، اثر مطالبته بالتخلي عن المناطق المحتلة باستثناء القدس لما تشكله من عبء على اسرائيل ولتطور انظمة اسلحة يتروواح مداها بين ٣٠٠ و ٤٠٠ كلم وتحمل كميات هائلة من المواد المتفجرة (نشرة م. د. ف. ١٩٨٨، ص ٢٦ و ١٠٤). وكذلك موقف ايهود اولمرت احد الأعضاء البارزين في حركة حيروت الذي يطالب بتطبيق الادارة الذاتية في المناطق المحتلة، من جانب واحد وتقليص الوجود العسكري الاسرائيلي فيها، وهو التطوير الذي ادخله في وقت سابق موشيه دايان على مشروع بيغن كما ورد في اتفاق كامب ديفيد، (نشرة م. د. ف. ١٩٨٨، ص ١٠٥، ١٠٨).

وإذا كانت هذه الخروق لم تؤثر حتى الآن في تماسك موقف الليكود وزعامته الرباعية: إسحاق شامير، موشيه أرنس، دايفيد ليفي، آرييل شارون، فإن الخارجين من الليكود يسعون إلى اجتذاب آخرين وتكوين تجمعات تخوض انتخابات الكنيست في تشرين الثاني / نوفمبر المقبل، مستقلة أو منضوية تحت أجنحة احزاب أخرى

٢ — **موقف حزب العمل**: يخوض حزب العمل الصراع الداخلي بزعامة شيمون بيريز، وينافسه على زعامة الحزب اسحاق رابين واشتهر موقف حزب العمل في موضوع التسوية باسم «الحل الوسط الاقليمي» الذي يقوم اساساً على بقاء اسرائيل دولة يهودية وتحاشي انزلاقها نحو دولة ثنائية القومية وتتنازع موقف الحزب اتجاهات متصارعة يشده بعضها يميناً، حتى يكاد يندمج في موقف الليكود: إدارة ذاتية كما في اتفاق كامب ديفيد، ويجذبه بعضها الآخر يساراً فيلامس الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني. لكن الموقف الرسمي الذي يمثل وحدة الحزب وتماسك اطره، يمكن تلخيصه بالنقاط التالية:

١ — القدس الكاملة والموحدة لن تقسم وستبقى عاصمة اسرائيل وتحت سيادتها إلى

الأبد.

٢ ـ لا لدولة ثالثة بين اسرائيل والأردن.

٣ ـ لا حوار مع م. ت. ف. بل مع وفد اردني ـ فلسطيني مشترك، لا يكون الفلسطينيون فيه اعضاء في م. ت. ف.

٤ ـ يطالب حزب العمل بمنطقة امنية، وسيادة اسرائيلية على طول نهر الأردن تشكل حاجزاً يحول دون عبور أي جيش عربي النهر غرباً (في حالة السلام) وهو ما يعبر عنه بمبدأ: حدود قابلة للدفاع تسند إلى «غور الأردن» وشمال غرب البحر الميت، والجولان، وغوش عتسيون ....» (نشرة م. د. ف. ١٩٨٨ ، ص ٢٢).

٥ ـ تنسحب اسرائيل من المناطق المكتظة بالسكان العرب في الضفة الغربية وقطاع غزة، وتعهد بها إلى إدارة أردنية (التقاسم الوظيفي) وتكون هذه المناطق منزوعة السلاح.

٦ ـ المستعمرات اليهودية في الضفة وغزة الواقعة خارج المنطقة الامنية، يتم ضمان سلامتها وأمنها في اتفاق مع الأردن، تبقى تحت السيادة الأردنية ، وبامكانها التصويت للكنيست في اسرائيل (انظر نشرة م. د. ف. ١٩٨٨، ص ١٩٤).

برز موقف رابين كوزير للدفاع في مواجهة الانتفاضة بأنه صاحب القبضة الحديدية وصاحب موقف «لا نملك سوى خيار قمع التمرد. والفلسطينيون سيتعبون اولاً» (هارتس ٨/٢/٨٨) و «لا وجود للحل المعجزة: سيتمكن الجيش الاسرائيلي من إعادة الهدوء حتى ولو احتاج ذلك إلى مزيد من الوقت» (Le Monde 11-3-88, p. 3)، ويتنبأ بعض المراقبين بأن يكون هذا الموقف، وهو الأقرب إلى موقف الليكود الأكثر شعبية في اسرائيل، سلاح رابين وعدته في منافسة بيريز على زعامة الحزب عشية انتخابات الكنيست المقبلة.

ومهما يكن، فإن اسحاق شامير يتساءل بحق: «لماذا يعمل بيريز على بلبلة العقول؟ إذ لا توجد فوارق كبيرة في مواقفنا [الليكود والعمل]: هم ونحن نؤيد إعادة النظام في المناطق إلى نصابه بالقوة. هم ونحن لن نسمح بخروج العرب من هذه المواجهة بمشاعر الانتصار. كلانا يعتقد انه لا يجوز قيام دولة فلسطينية. ولن يتخلى عن القدس. وكلانا يعتقد انه لا يجوز الحوار مع عرفات، وان الجيش الاسرائيلي يجب ان يتمركز على نهر الأردن. إذن ما هو الفارق بين الحل الوظيفي الذي يؤيده بيريز وبين الإدارة الذاتية التي يوافق عليها شامير؟ والمقصود بكلتا المقاربتين حل للسكان من دون التخلي عن الأرض» (يوئيل ماركوس ـ هارتس ٢٢/١/١٩٨٨).

ثانياً: الرأي العام

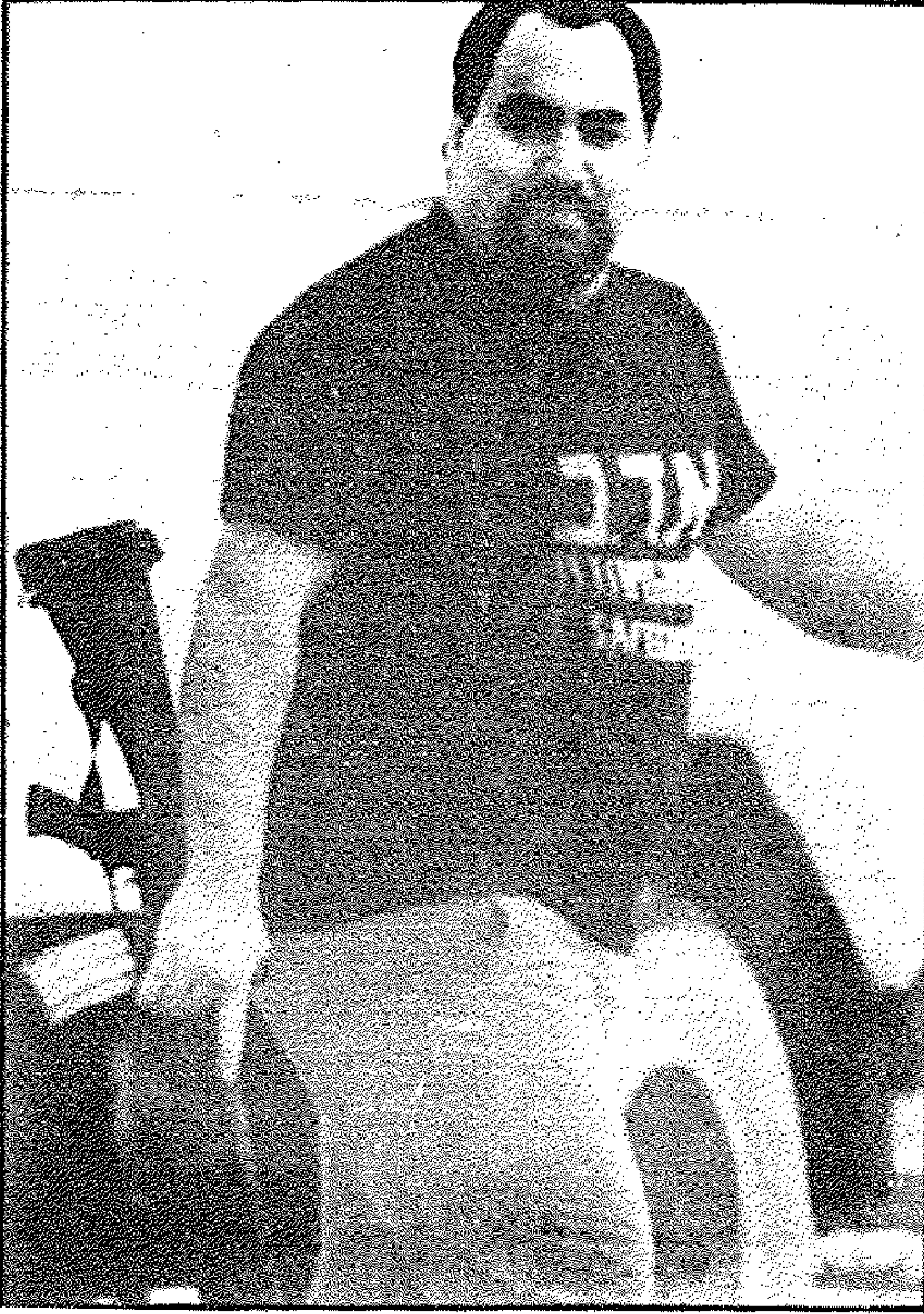
على هامش القوتين الرئيسيتين اللتين تتقاسمان بالتساوي تقريباً السلطة والمعارضة في آن معاً، حتى كاد أن يكون موشيه شامير زعيماً للمعارضة عندما كان نائباً لرئيس الحكومة بيريز ووزيراً للخارجية، منذ نحو سنة ونصف، كما يكاد أن يكون شيمون بيريز زعيماً للمعارضة، وهو يشغل الآن منصب نائب رئيس الحكومة شامير ووزيراً للخارجية . على هامش الحكم اذن يقوم ما اصطلح على تسميته «قوى السلام» في اسرائيل. وقد برز بعضها «السلام الآن»، «ثمة حد» في دور نشيط اعتراضاً على غزو لبنان. ولا نتحدث هنا عن حزب «مابام» الذي يكاد لا يسمع صوته لفرط وهنه، ولا عن «راكاح» و «القائمة التقدمية للسلام» اللذين نعتبرهما تنظيمين عربيين أصلاً، ونعتبر المنضوين فيهما من اليهود خارج اطار الأحزاب والتنظيمات ذات العقيدة الصهيونية.

عرف الشارع الاسرائيلي ولا يزال مظاهرات اعضاء وأنصار «السلام الآن» و «ثمة حد» وقوى السلام الأخرى التي تجاهر بموقفها ضد الاحتلال ومع محاورة م. ت. ف. والوصول إلى تسوية مع الشعب الفلسطيني، كما عرف بالمقابل مظاهرات القوى اليمينية المتطرفة التي اندفعت إلى الشارع دعماً لموقف شامير السياسي، ولموقف الجيش القمعي.

وتشهد اسرائيل نشاطات أخرى مناهضة



□ نصر.. لا بد اتٍ.



□ المستوطنون: التكامل مع دور الجيش.

للقمع الذي تمارسه قوات الاحتلال. نذكر منها زيارة ٢٠ أديباً وكاتباً اسرائيلياً مخيمات اللاجئين في قطاع غزة، اصدروا في أثرها بياناً نشرته صحيفة يديعوت احرونوت في ١٠ كانون الثاني / يناير الماضي وجاء فيه: «شاهدنا جنوداً يخنقون حياً بكامله بقنابل الغاز المسيل للدموع. وفي المكان الذي يسمى مستشفى شاهدنا فتى اقتلعت عينه برشق رصاصي مطاطي، وفي جباليا شاهدنا جمهوراً مصدوماً، غاضباً، مضروباً، ومهاناً. سمعنا باعتقالات جماعية واستمعنا إلى وصف مفصل (...) لضرب المعتقلين، ولتأخير العلاج الطبي» «لا نستطيع إلى ما لا نهاية اضطهاد شعب يناضل من أجل حريته (...) وينبغي أن نأخذ بالاعتبار هذه الحقيقة التاريخية» (نشرة م. د. ف. ١٩٨٨، ص ١٩ - ٢٠).

ونشرت جماعة تتكون من خمسمائة عالم نفساني وطبيب اخصائي في علم النفس بياناً حذرت فيه من الانعكاسات الخطرة لاستمرار القمع في المناطق على الجنود والمجتمع الاسرائيلي عموماً ودعت إلى «وضع حد لاستمرار فرض السيطرة والاحتلال على شعب آخر» (عال همشمار ١٩٨٨/١/٢٩).

ونشر ٦٠٠ استاذ في جامعات القدس وتل ابيب وحيفا وبئر السبع بياناً بعنوان: «السيطرة المفروضة بالاكراه والمستمرة في المناطق تعرض دولة اسرائيل للخطر» (ملحق هارتس ٨٨/٢/٥).

ووقع طلاب في جامعة تل أبيب عريضة تعهدوا فيها بعدم الخدمة العسكرية في الضفة وغزة، وبعدم شراء منتجات مصنوعة في مستوطنات المناطق المحتلة (صحيفة الموند دبلوماتيك آذار ١٩٨٨ ص ١٧).

ولابد من الاشارة، لدى عرض مواقف الرأي العام الاسرائيلي نحو الانتفاضة ، إلى الحيز الكبير الذي خصصته الصحافة الاسرائيلية وتخصصه يومياً لمتابعة أبناء الانتفاضة ونشر المقالات التحليلية لتطوراتها. وتتسم هذه المتابعة، مع الانتفاضة وضدها، بحيوية نخجل ان نقول انها تفوق مستوى ردود فعل اجهزة الاعلام العربية نحو الحدث نفسه.

تمارس السلطات الاسرائيلية رقابة امنية على الصحافة بصورة روتينية، ومـع ذلك، شعرت هذه السلطات في وقت من الأوقات ان الصحافة «تشتط» في ابراز احداث الانتفاضة، فدعتها إلى «التحـلي بـالمسؤوليـة» واغلقت صحيفة درش هانيتزوتس التي تصدر بالعبرية والعـربية في القدس. وأخفى التلفزيون الاسرائيلي صوراً من الانتفاضة اثارت اهتماماً واسعاً في اوساط الرأي العام العالمي (المصدر نفسه).

وأقامت مجموعة من المصورين معرضاً عن الانتفاضة في القدس ورفعت شعارات تدعو إلى وقف التدابير المتخذة في المناطق المحتلة. ومن هذه الشعارات: «لقد حمل جنودنا على تنفيذ اعمال غير اخلاقية وغـير مشروعـة» (المصدر نفسه).

ينقسم الرأي العام الاسرائيلي ، بحسب احد ابرز الباحثين الاسرائيليين ، يورام بيري، إلى ثلاثة اقسام: الذين يؤيدون ضم المناطق المحتلة، والذين يعتبرونها ورقة مساومة ويرون بالتالي الاحتفاظ بها بأرخص ثمن ممكن إلى أن يحين أوان التسوية، أما الذين يرفضون الاحتلال من حيث المبدأ، فهم أقلية ضئيلة ، ربما أقل من ٥٪ (دافار ١٥/١/١٩٨٨).

تـذكرنـا الخـلافات السيـاسية والنقـاشات الصحـافيـة والفكـريـة (امتحـان الادعـاء الديمقـراطي ومبدئيـة مواقف قـوى السـلام) والازمات النفسية والاقتصـادية، واحتجـاجات الجنود وامتناع بعضهم عن ممارسة العنف ضد شعب آخـر، يذكـرنا كـل ذلك بالتفـاعـلات المماثلـة التي شهدها المجتمـع الاسرائيـلي في حـرب تشرين ١٩٧٣، وحرب لبنان ١٩٨٢.، لكن مـا ان تنحسر آثار الهزة التي تصيب المجتمـع الاسرائيلي في كـل مرة. حتى يعود كل نقاش وكل اعتراض لينضوي تحت سقـف ديمومـة الدولة ووحـدة المجتمـع، وتتحـول تلك الظواهـر إلى «راحة ضمير» لبعض المثقفين الاسرائيليين، وإلى علامات ايجابية يتلقفها الغرب ليؤكد من خلالها انتماء اسرائيل إلى الديمقراطيات الغربية.

ثالثاً: الجيش

يكتسب الحديث عن تأثير الانتفـاضـة في الجيش الاسرائيلي أهمية خاصة تفوق القطاعات الأخرى من المجتمع الاسرائيلي، للأسباب التالية:

١ ـــ ان الدور الذي تضطلـع به قـوات الاحتياط كجـزء رئيسي من هذا الجيش، تجعله، من حيث تكوينه، جيشاً مختلفاً عن الجيـوش النظامية. فهذه القوات تستطيع احتلال منطقة مأهولة بالسكان لكنها لا تستطيع الاحتفاظ بها طويلاً لكونها مضطرة إلى العودة إلى مجالات عملها في المجتمع.

٢ ـــ ان قـوات الاحـتـيـاط في الجـيش الاسـرائيلي، وهـي الجـزء الأكبر من الجيش العـام إلى جانب القوات النظامية، هـي مجتمع بكـاملـه داخل المجتمـع. فهذه القـوات تضم اشخاصاً من جميـع الفئات والطبقات، وهـي منفتحة يوميـاً عـلى الحيـاة المدنيـة بمختلف قطاعاتهـا.

٣ ـــ هذا المجتمـع الاسرائيلي المصغر، هـو المكلف بالتعامـل المباشر واليـومـي مـع الشعب الثـائر في المنـاطق المحتلة بأسلوب وحيـد هو القمـع. وسرعان ما يعود هذا المجتمـع الصغير لينبث في المجتمع الأكبر، يعود الجندي والرتيب والضابط إلى الجامعة او الحزب أو المدرسة أو المصنع أو الحقـل او الوظيفة ، يكتب مقالاً في صحيفة، أو يسير في مظاهرة، أو يوقـع بياناً. بل ان هذا الجندي، إذا ما توافـر له ادراك ما واقتناع ما، يرفض الخدمة العسكريـة ويعلن اسبابه لذلك، مفضلاً عليها المحاكمة والسجن.

هذا الدور الذي يضطلـع به الجيش الإسرائيلي في المـجتمـع كجيش احـتيـاط والحـقـوق السياسية والمدنية التي يمارسها افراده بصورة طبيعية، وتماسه المباشر بالقمـع والضرب والقتل مـع شعب يكافـح من اجل حقـوق مشروعـة، يخرج مـوضوع الانتفاضة (الحق في الحـرية وتقـريـر المصـير) من الاطار المغلـق (الجيش النظامـي) ليصبح مـوضوعـاً رئيسياً للنقـاش



□ امرأة تضرب بالمقلاع.

والتداول في مختلف اوساط الرأي العام وقطاعاته، الأمر الذي سيحدد مستقبلاً مدى تأثير الانتفاضة في المجتمع الاسرائيلي. وبالتالي مقدار ما ستحق من نتائج : لن يكون بالأمكان

إخفاء أشكال القمع الذي يمارسه الجنود والمستوطنون في المناطق، وستؤثر سياسة الاحتلال في تماسك الجيش وتالياً في وحدة المجتمع.

من هنا أهمية ما نقرأ عن جنود ادلوا بشهادات عن المعاناة التي تسببها لهم المشاركة في الضرب (معاريف ١٩٨٨/٢/٥) وآخرين من المهاجرين الجدد اعربوا عن ندمهم لأنهم هاجروا إلى إسرائيل (معاريف ١٩٨٨/١/٢٩)، وعن ١٦٠ ضابطاً وجندياً من جماعة «ثمة حد» وقعوا نداء بعنوان «اوقفوا الاضطهاد» تعهدوا فيه بعدم الخدمة في الضفة والقطاع، وحكم على بعضهم بسبب ذلك بالسجن. وعن الف ضابط بينهم مائة من رتب عالية انتقدوا في رسالة مفتوحة سياسة اسحاق شامير رئيس الحكومة ودعوه إلى اختيار طريق السلام والتخلي عن فكرة «اسرائيل الكبرى» (صحيفة الموند ١١ آذار ١٩٨٨ ص ٣).

في وصف هذه الحالة، يقول الصحافي الاسرائيلي ماتي غولان (هارتس ١٩٨٨/١/٨):... قبل ان يتمكن هؤلاء «المجندون الصغار في السن» من «التعود على حقيقة كونهم مقاتلين، وحتى قبل ان يشعروا بأنهم اصبحوا رجالاً بالفعل، يصلون إلى المناطق، ويتجولون في أزقة نابلس وجنين ورام الله وبيت لحم، تائهين مذهولين. لا قتال في الليل والنهار، لا احتلال اهداف، لا يوجد امامهم جنود ولا حتى مخربون. العدو اطفال ونساء ، لا يمسكون بأيديهم بنادق ورشاشات وإنما

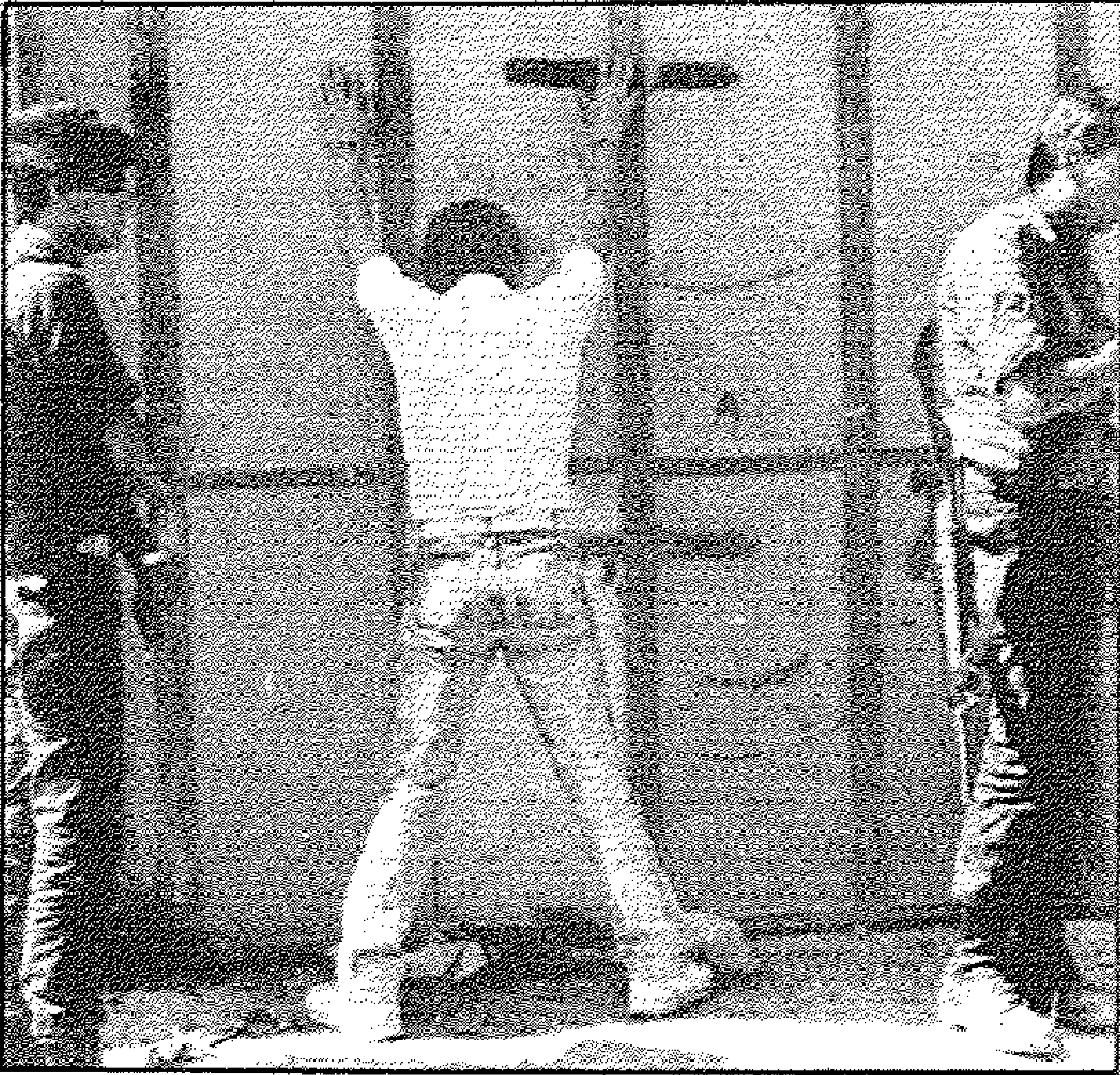
حجارة».

ونقلت هآرتس ١٩٨٨/٣/١١ عن إسحاق رابين قوله ان بعض الجنود والضباط الذين يخدمون في المناطق ابلغوا اليه في احاديث دارت معهم، ان النشاط الذي يمارسونه صعب عليهم جداً، وقد سئم الكثيرون من مطاردة الاطفال راجمي الحجارة. وروى رابين ان الكثيرين من الجنود يحتجون على المطاردات واعتقال الاطفال والتحقيق معهم.

ويذهب الباحث الاسرائيلي يورام بيري إلى ان النظرة في المجتمع الاسرائيلي إلى العرب (صراصير سامة، العربي الجيد هو العربي الميت، لا يستحقون الديمقراطية، استخدام العنف ضدهم مشروع) وممارسة الجيش في المناطق دور جيش احتلال في مواجهة حرب ثورية Une guerre revolutionnaire، يهيئان لنشوء مناخ جنوبي افريقي في اسرائيل.

ويعتقد بيري أيضاً ان الجيش الاسرائيلي سيضطر، في مواجهة حرب ثورية، إلى تطوير عقيدة عسكرية ــ سياسية، أي تسييس الجيش والتدخل في المجال المخصص للقيادة السياسية، وبالتالي الصدام مع رجال السياسة: إذا انتهج (الجيش) اسلوباً معتدلاً ينتقده المتطرفون من السياسيين، وإذا انتهج اسلوباً عدوانياً عنيفاً ضد الثوار، ينتقده المعتدلون. وهكذا يصبح الجيش طرفاً ينقسم الجمهور بشأنه، وليس عاملاً وطنياً جامعاً وموحداً في المجتمع . وقد يؤدي ذلك إلى تمرد الجنرالات على رجال السياسة، فالجيوش المتورطة في حروب سياسية تميل إلى جعل نفسها الهيئة السياسية المقررة. وهذا الوضع يفقد الجيش لحمته الداخلية ويهدد بانهيار قوته العسكرية.

ويضيف بيري ان الجيش الاسرائيلي تجنب خلال عشرين عاماً مصائر جيوش الاحتلال على الرغم من الحكم العسكري الذي فرضه على السكان العرب لاسباب ثلاثة: مستوى الشرعية العالي في المجتمع الإسرائيلي لوجود الجيش في المناطق، مستوى المقاومة المنخفض للسكان المحكومين، استخدام اجهزة متطورة



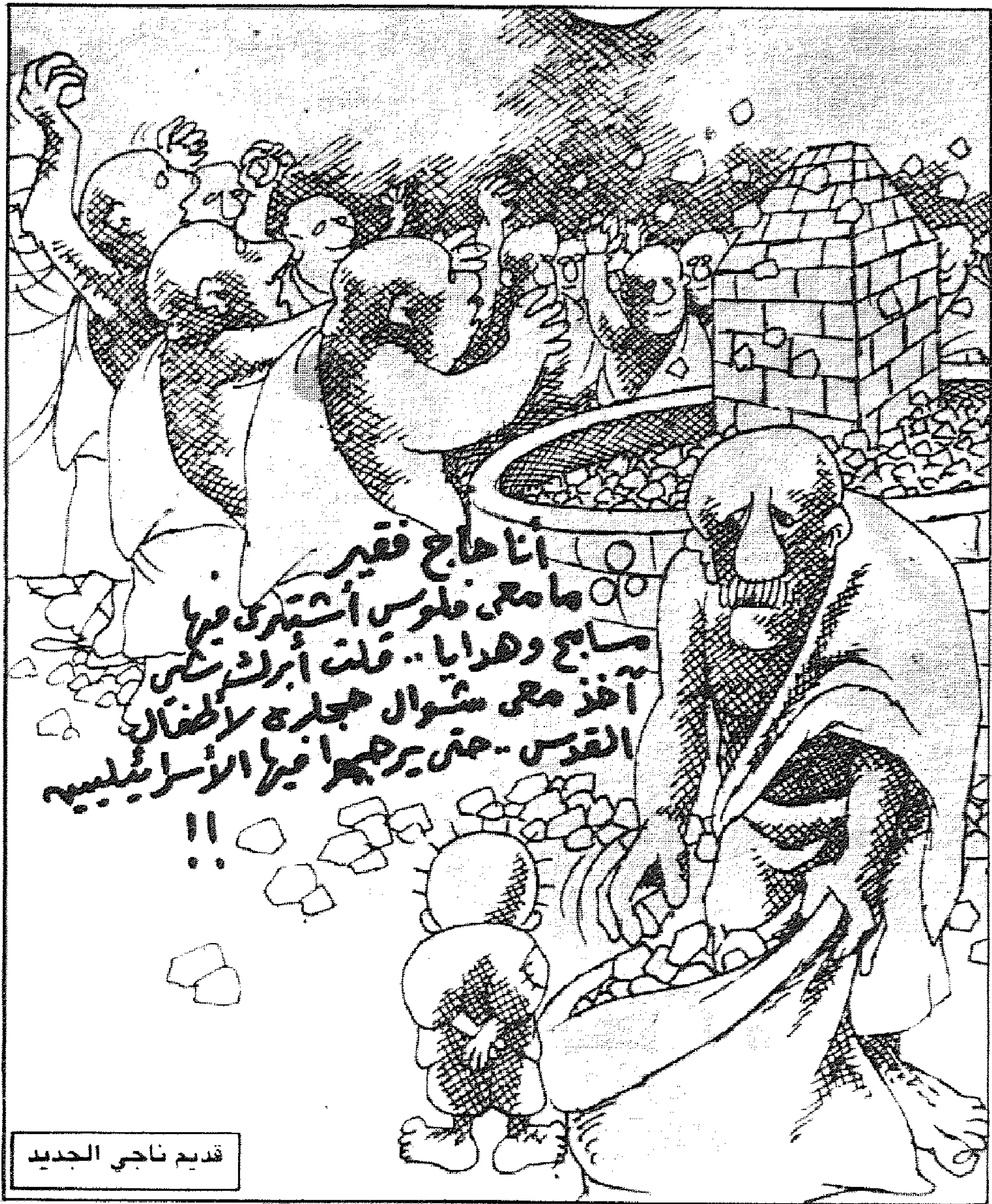
□ جنديان.. لكل أعزل..!



□ حقد دفين...!

لتخفيف حدة الاساءة التي يسببها الاحتكاك المباشر. وقد حطمت الانتفاضة الآن هذا الوضع. والجيش مستعد للمضي في قمع الانتفاضة ما دام هناك أفق سياسي للحل. وإذا اتضح خلال الاشهر المقبلة ان لا حل سياسياً، فسينشأ وضع جديد. وهنا يذكر بيري بالضغط الذي مارسه الجيش على رجال السياسة الاسرائيليين للانسحاب من لبنان.

ويعتقد بيري ان الجيش الاسرائيلي سيتخذ خلال الأشهر المقبلة تدابير متنوعة لاخماد الانتفاضة. أما إذا استمرت حتى موعد انتخابات الكنيست في تشرين الثاني / نوفمبر المقبل، فسيكون الوضع امام ثلاثة احتمالات:



ــ اما ان ينال المعراخ اكثرية تمكنه من الدخول في مفاوضات تؤدي إلى تنفيس الاحتقان.

ــ أو ان ينال الليكود اكثرية فيضاعف تدابير القمع، الأمر الذي يهدد بانقسام المجتمع الإسرائيلي، وباحتمال حدوث انقلاب عسكري.

ــ أو أن تستمر حالة التعادل، فتتشكل من جديد حكومة الرأسين ويستمر العجز عن الخروج من المأزق، مما يهدد بنشوب حرب اهلية عربية ــ يهودية، ويعزز التعاون بين الحزبين الحاكمين دور الجيش الإسرائيلي كأداة قمع. لكن العالم ــ يقول ــ بيري ــ لن يستطيع أن يظل متفرجاً ولا بد أن يحصل في وقت من الأوقات تدخل خارجي يضع حداً لهذا الوضع. (انظر نشرة م.د.ف. ١٩٨٨، ص ٢٠٧ ــ نقلاً عن دافار ١١ و ١٣ و ١٤/٣/١٩٨٨).

هل ذهب بيري بعيداً في استنتاجه : دولة على غرار جنوب افريقيا؟ انقلاب عسكري؟ حرب اهلية عربية ــ يهودية؟

إن أهمية الانتفاضة هي انها تضع اسرائيل حقاً امام الاسئلة الصعبة: فالاستمرار في حكم مليونين من العرب بالعلاقة بين المستعمِر والمستعمَر وبالمفاهيم التي أشرنا إليها اعلاه، ستحول اسرائيل اكثر فأكثر إلى دولة تمييز عنصري على غرار جنوب افريقيا. ومن الجهة المقابلة، فإن العودة إلى حدود ما قبل حرب ١٩٦٧ وقيام دولة فلسطينية هو فعلاً مشروع حرب اهلية يهودية — يهودية ، بل هو فعلاً بداية انهيار المشروع الصهيوني وبداية النهاية لاسرائيل.

ولا بد لإسرائيل إذن من أن تختار الحل الأقل كلفة بالنسبة إليها: قمع الانتفاضة مستفيدة من التقاعس العربي من جهة، ومن بطء التحرك الدولي من جهة ثانية.

ويصل بنا هذا الى الخلاصات التالية:

خلاصات:

١ — إن اسرائيل لم تستنفد بعد كل ما تستطيع تجنيده لقمع الانتفاضة والقضاء عليها، وهي المعتدة بإمكاناتها وقدراتها على ابتداع اساليب القتال وتطوير السلاح اللازم لكل ساحة من ساحات الصراع، وهي التي تملك الخبرة والتجربة الطويلة في تزويد أنظمة القمع في بلدان افريقيا واميركا الجنوبية بمختلف انواع الاسلحة اللازمة لمواجهة حركات التحرير بالإصالة عن نفسها احياناً، وبتوكيل من الامبريالية الاميركية احياناً أخرى.

٢ — تنبغي المبادرة إلى مد الانتفاضة بمختلف اشكال الدعم المادي والسياسي والاعلامي والعسكري ، لتمكينها من الثبات والاستمرار وتطوير اساليب النضال والصمود. وينبغي في هذا الصدد ان تبادر القوى الوطنية والاسلامية على ساحة الجنوب اللبناني إلى التنسيق مع قيادات الانتفاضة لتوسيع رقعة المجابهة وانهاك قوى العدو المضطرة في مثل هذه الحالة إلى تعبئة وتجنيد المزيد من قوات الاحتلال، بكل ما يثير ذلك من ارباك للساحة الداخلية الاسرائيلية وتكبيدها خسائر اقتصادية لا تقوى على تحملها وقتاً طويلاً.

ويستدعي ذلك تغليب الاساسي على الثانوي في علاقات القوى الوطنية بين بعضها البعض وبينها وبين القوى الإسلامية العاملة في ساحة المقاومة في الجنوب.

٣ — ان ذلك لا يعني ان تستمر الانتفاضة لوحدها في صراع قومي غير متكافىء القوى ، ان وضع طاقات هذا الجزء الصغير من الشعب الفلسطيني في مواجهة امكانات الجبار الاقليمي — الإسرائيلي، والجبار العالمي — الاميركي، مجتمعة، لهو ظلم فادح لهذا الشعب العربي المكافح. فالمعركة مع اسرائيل وحليفتها الكبرى الولايات المتحدة الأميركية، ذات طبيعة قومية، وتحتاج إلى كل امكانات الشعب العربي وطاقاته البشرية والمادية.

٤ — ان الدور الرئيسي للانتفاضة المستمرة والمتصاعدة هو ان تفجر من جهة الصراعات والتناقضات في المجتمع الاسرائيلي، وان تثور من جهة ثانية امتدادها الفلسطيني الخارجي وبيئتها العربية، فتلملم حركة التحرر العربية اشلاءها وتستنهض ما تبقى من طاقاتها وامكاناتها، وتضع برنامجاً نضالياً يهتدي بدروس المرحلة السابقة ويكون على رأس اولوياته :القضاء على مؤامرة تقسيم لبنان وإعادة توحيده وطناً لبنانياً عربياً ديمقراطياً ، وإعادة بناء التحالف السوري — الفلسطيني على اسس نضالية واضحة ومحددة، وانهاء الحرب العراقية — الإيرانية، واستعادة مصر من كامب ديفيد.

كم من الانتفاضات العربية سنحتاج قبل بلوغ ذلك؟ ■

(*) لا تتناول هذه القراءة الجانب الاقتصادي من تاثير الانتفاضة في اسرائيل.

(عن مجلة «الكرمل» التي تصدر في باريس — آذار — ١٩٨٨)



الغاضبون

- نزار قبّاني -



يا تلاميذ غزة.. علّمونا
بعض ما عندكم، فنحنُ نسينا
علّمونا.. بأن نكون رجالًا
فلدينا الرجالُ، صاروا عجينا
علّمونا كيف الحجارةُ تغدو
بين أيدي الأطفال.. ماساً ثمينا
كيف تغدو درّاجةُ الطفلِ لغماً
وشريطُ الحرير.. يغدو كمينا
كيف مصّاصةُ الحليب.. إذا ما
اعتقلوها.. تحوّلتْ سكّينا..

* * *

يا تلاميذ غزّةٍ.. لا تُبالوا
بإذاعاتنا.. ولا تسمعونا..
إضربوا.. إضربوا.. بكلِّ قواكم
واحزموا أمركم، ولا تسألونا

نحن أهل الحساب، والجمع والطرح
فخوضوا حروبكم، واتركونا
إننا الهاربون من خدمة الجيش..
فهاتوا حبالكم، واشنقونا..
نحن موتى، لا يملكون ضريحاً
ويتامى، لا يملكون عيونا
قد لزمنا جُحُورنا.. وطلبنا
منكم، أن تقاتلوا التِنِّينا
قد صَغُرنا، أمامكم، ألفَ قرن
وكبرتم، خلال شهرٍ، قرونا

* * *

يا تلاميذ غزة.. لا تعودوا
لكتاباتنا، ولا تقرأونا..
نحن آباؤكم.. فلا تُشبِهونا
نحن أصنامكم.. فلا تعبدونا
نتعاطى القاتَ السياسي.. والقمعَ..
ونبني مقابراً وسجونا
حرِّرونا من عُقدة الخوفِ فينا
واطردوا من رؤوسنا الافيونا
علمونا فن التشبُّث بالأرض،
ولا تتركوا المسيح حزينا
يا أحباءنا الصغارَ.. سلاماً
جعل اللّهُ يومَكُمْ ياسمينا
من شقوق الأرضِ الخرابِ طلعتم
وزرعتم جراحنا نسرينا
هذه ثورة الدفاترِ.. والحِبرِ..
فكونوا على الشفاه لُحونا
امطرونا.. بطولة وشموخاً
واغسِلونا من قبحنا.. إغسِلونا
لا تخافوا موسى.. ولا سحرَ موسى
واستعدوا لتقطفوا الزيتونا
إن هذا العصر اليهودي وهْمٌ
سوف ينهار، لو ملكنا اليقينا

* * *

يا مجانين غزةٍ.. ألفُ أهلاً
بالمجانين.. إن هم حرَّرونا
إن عصر العقلِ السياسي.. ولَّى
من زمان، فعلِّمونا الجنونا
جنيف ٢١/١/١٩٨٨

لن أُهاجر



ملاحظة المحرر: كتب هذه القصيدة احد كبار شعراء الأرض المحتلة، وقد وصلتنا من داخل السجن الكبير، سجن الاحتلال الذي يقبع فيه شعبنا الأبي. وسنحجب اسم الشاعر لأسباب لا تخفى على احد.

يا عدوي... أي حقد لك في نفسي... وهزء!!
لا تصدق أبداً أن لجرحي أي برء
غير قتلي لك ثارا لدمي هذا ورزء
أنت مني اليوم اقوى.. سيد، في كل شيء
وأنا الأقوى بشيء.. هو اني لن اهاجر!

** ** **

انا باق.. فوق أرضي حبها من كل قلبي
فانعم اليوم بقتل أنت يا عات ونهب
لك ما شئت.. فلن اشكو! ولكن انا حسبي!
انني أترك امري.. لظروف ولربي
وحسابي احسبه واقنع. انا يوماً لن اهاجر

** ** **

راسخ الأركان.. لا أهتز.. طود.. كل وقتي
شامخ أعرف ما حولي.. وما اجمع تحتي
كل نار..! فتوقع أنت مني كل موت
ودويا كل يوم يسمع العالم.. صوتي
أنني الصامد.. لا تحلم بأني سأهاجر..!

** ** **

أنبش الأرض وعني أنت حاول كل بحث
أنت في عنفك هذا مد أصرار وحث
بي على قتلك أني كنت قتلاً دون ريث
انا بعث.. ولكل العرب هذا البعث (بعثي)
لاجئاً ما عدت فاسمعني.. ولا عدت مهاجر

** ** **

أغلق الشارع وأمسك كل (صرصور) و (جرذ)
هكذا نحن لدى الحقد بتصنيف ونبذ
أطلق النار وخذ حذرك مني كل أخذ
وعلى الرأس وقل أنت على (رجل) و (فخذ)
وأنا مع كل هذا، يا عدوي لن أهاجر

** ** **

طارد الصبيان في كل زقاق وممر
ظل طول الليل معهم انت في كر وفر
سد سدا كل بوابة حي.. ومقر
أنت مهما كنت أو حاولت لن توقف سيري
أنا حر.. وتأكد إنا يوماً لن أهاجر

** ** **

أنت بالرشاش ليث الغاب.. (طز) الف (طز)
وانا الاعزل رفعي ليدي كاف وقفزي
هي للقنبلة اليوم.. بزلزال.. وهز
وهي للهام غدا.. تحتار في حز وجز
من هو الليث؟ انا الليث واني لن اهاجر

يا عدوي، الحال كم تبقى على نحس وتعس
يا عدوي، هل تظن اليوم يبقى مثل امس
او غداً تحسب لا يقلب من رجل لرأس؟
أو لم أقو بايماني على روم وفرس؟
وأنا ذا اليوم أقوى..! كيف يا ذئب أهاجر؟

** ** **

يا عدوي، أنت لن تأخذ غير الموت مني
أينما رحت.. انا معك رفيق مثل جن
لا تراني.. فتحدث لجميع الخلق.. عني
انني الموت.. واني.. ولأني.. وبأني...
يا عدوي، أأنا تطلب مني ان اهاجر؟

** ** **

أ ــ هدفي أنت.. ودوما هدف انت بوجهي
ب ــ ليس ما يعجزني عنك ولا يوماً سيلهي
ج ــ يا عدوي، انت كم للضرب تغري وتشهي!!
د ــ آفة أنت واني آفة الدهر سأنهي
هـ ــ يا عدوي، انت ووعيدي وعندي.. لن اهاجر

** ** **

يا عدوي، ليس لي غيرك حقاً بعدو
بدم معك حساباً وحساباً سأسوي
فبحر.. انا سوف القاك وبر.. ثم جو
يا عدوي، انا بركان.. ويوماً سأروي
سوف افنيك وإلا أنت هاجر!

** ** **

أهرب الآن! ولا تسمع.. لأي ولأي
انج.. أسرع..! واعتمد أي طريق.. أي جري!
يا عدوي، لا تعاند ابداً وأعمل برأيي
أن يومي ليس يصغي.. لأبي وأخي!
أنا لا ارحم! هاجر ويك يا ابن القهر هاجر!

«الدستور» الاردنية ١/١/١٩٨٨

● كلانا على دين به هو مؤمن   ولكن خذلان البلاد هو الكفر
«؟» عربي

ثورة الحجارة

هارون هاشم رشيد

(١)

لم يبق غيرك لي يا ايها الحجر
فقد تخلت جموع احجمت زمر
عشرون عاما.. واني في انتظارهمو
تجذرا في ترابي يشمخ العمر
عشرون عاما.. وراياتي مخضبة
بالدم. شرفها ابطالنا الغرر
قدمت ما بخلت ام ولا ولد
ولا تخلف شيخ او كبا نفر
قاتلت.. اول من دوت رصاصته
كنت الفتى يوم غام الياس والكدر
والآن هذا انا بالصدر منتصب
وبالحجارة.. لا خوف.. ولا حذر
يهمي الرصاص.. فما ترتد خطوتنا
عما نريد.. ويهمي الموت ينهمر

(٢)

في غزة الان هذا الزحف زلزلة
تهز من نكصوا عنا ومن غدروا
تحرك الغافل الغافي وتوقظه
على الزئير لاحباب بسها نفروا
فالارض جفت، وجف الضرع وانحسرت
شتى المنى، وجفانا البشر والبشر
البرتقال.. لقد غيلت موارده
وخربت. واستبيح النبت والزهر
الاف.. الاف.. اشجار مقطعة
هنا.. هناك رماها حاقد قذر
مستوطنات على انقاض دارتنا
يقيمها غاصب للارض مقتدر
مطرودة غزة الشماء غائبة
مغتالة في الحصار المر تعتصر

(٣)

قلنا لهم.. اينها «هانوي» ترفدنا
بما لديها. واين الدعم والنذر
وضفة النار. مازالت مؤججة
مثلث الرعب.. فيها لاهب خطر
والقدس صاخبة. تعلو بصرختها
الله اكبر.. فيها هاتف عمر
وفي القيامة، والاقصى.. مواكبنا
لما تزل. بنداء الحق تاتمر

(٤)

من هؤلاء. عيون الكون شاخصة
الى فلسطين. تستقري وتنبهر
لإخوة في ظلال القهر قد ولدوا
وفوق نار الاسى والحزن قد كبروا
تطاولوا. فاذا قاماتهم شمخت
فوق الذين تناسوا ذكرهم هجروا
اطفالنا هل رايتم مثل اعينهم
وكيف منها جرينا يدفق الشرر
وجوههم هل رايتم اي عاصفة
من الوجوه. تشق النار تنتشر
هي العروبة مازالت عقيدتهم
قد علموها فما حادوا ولا كفروا
تاخر الدعم عنهم.. غاب معتصم
لا السيف لاح. ولا اجناده ظهروا
عشرون عاما همو في الانتظار على
مجامر النار ما ارتدوا. ولا دحروا
الدارعات التي في وجههم نصبت
كما القلاع تحدوها. وما ذعروا
اطفالنا نبت ارض لا مثيل لها
تعطي سخاء اذا ما اهلها صبروا
لها تدفق وجدان. وعاطفة
من هؤلاء به تخضر تزدهر
كانوا البراعم تنمو تحت لافحة
من العذاب. وذاقوا الجوع واصطبروا
وابدعوا في صمود لا مثيل له
هاتوا لنا مثله في كل من غبروا
وقلبوا صفحة التاريخ على بها
اسما يجود بما جادوا وما سطروا

(٥)

اسطورة المجد. اطفال الحجارة في
هذا الزمان الذي يهوي وينكسر
اسطورة المجد. ما جاد الزمان بها
جادت به طفلة في كفها حجر
اسطورة المجد. ما الخنساء صابرة
فعندنا الف خنساء لها اثر
فهل رايتم نساء مثل نسوتنا
في كل ما خلد الكتاب او ذكروا
وعندنا الف.. الف من شبيبتنا
تلفحوا. برداء الموت واتزروا

(٦)

اسطورة المجد. قد ردت لامتنا
نهجا به تشمخ الاجيال تفتخر
ردت لنا غائبة. شماء رائعة
كادت وراء ستار الياس تندثر
تقول دولتنا. لا بد قائمة
من اجلها. يهدر البركان ينفجر
والقدس عاصمة الاحرار مذ وجدت
حراسها نحن.. نحن العسكر المجر
تحركت من ركام الموت لهبتها
وجن فيها اللظى، واستنفر الحجر
وانه النصر ات تلك قولتنا
فالليل، لا بد هذا الليل ينحسر
قد قالها. الشاعر الشابي* من زمن
لا بد... لا بد ان القيد منكسر
وانه النصر ات لا محال وان
طال الطريق بنا واستفحل الخطر
وانها ثورة للنصر زاحفة
مهما دجت حولها واسودت الغير
فلا تقولوا متى.. هذي بشائرها
فمن هناك بها قد جاءنا الخبر
تونس





نشيد الحجارة إلى أطفال فلسطين.. كل فلسطين..

سليمان العيسى

لا يملكون سوى الحجارةْ...
أطفالُنا المتشبثون بأرضهم.. وبشمسهم
وبزهْـرة الـرمان والزيتون في أيديهمْ.
لا يملكُون سوى الحجـارةْ..

• • •

يا أيُّها ـ الجنرال ـ .. يا منْ يمْتطي دبّابةً،
ويجـيءُ يحصدُهمْ..
لماذا الذُّعْـرُ؟
أطفالُ الخيام النائمون على الطَّوى،
منذُ أغتصبْت طعامهم، وترابهم،
لا يملكُون سوى الحجـارةْ..

يا راكب «الهدّارة» الصفراء..
نخلتُنا القديمةُ لم تزلْ تنْمو، وتُرْسلُ طلْعها،
وصغارُنا الْعاشوا..
ومات جدُودُهُمْ في ظلِّهـا..
لا يملكُون سوى الحِجـارةْ..

• • •

ما زلْت تسْحقُهمْ.. ويحْصُدُهمْ رصاصُك.
أيُّهـا السفّاح!
ثمّ يُفجّرون الأرْض حوْلك فجْأةً..
ويطيرُ لُبُّك منْهُمْ..

لَمِ أنْتَ مُرْتَعدُ الفَرَائص مِنْهُمْ؟
تُرغي وتُزْبدُ خانقاً..
لا يحْمِلُونَ سوَى الحِجَـارَةْ..

• • •

أطْفالُنا المُتَشَبِّثُـونَ بأرضِهِمْ، وبِشَمْسِهِمْ،
سَيُجازِفُون ببُؤسِهِمْ، وخيامِهِمْ،
وبكِسْرَةِ الخُبْزِ التي يَبِسَتْ على فَمِهِمْ،
نَعَمْ..
ويُفَجِّرونَ الأرْضَ تَحْتَكَ
أيُّهـا «الغَبَشُ» الدخيلُ..
ولَيْس في أيْديهِمْ غَيْرُ الحِجَارَةْ..

• • •

وبلى وراء «مَقالع» الأطْفال
جَبَّارُ السماوات العُلى..
وإرادةُ الصَّوَّانِ..
والتاريخ، والدُّنيا التي وقفتْ تُحَيِيهِمْ،
وتَلْثُمُ عُنْفُوانَ جِباهِهِمْ..
وتقولُ..
مَرْحَـى لِلْبُطولة..
للطفُولة... للحِجَـارةْ

• • •

الْعاشِقُون..
ألامَسَتْ يوماً أغانـي العاشقينَ غِلافَ قَلْبِكَ
أيُّهـا «الغَبَشُ» العتيقُ..؟

الْعَاشقونَ صِغارُنا..
وعلى الأصابعِ فَجرُنا، ونَهارُنا،
النّابتونَ بكُلِّ فَجٍّ من شقوقِ الارْض،
مِنْ جِلْدِ التُّراب..
هُمُ الذين سيكْتُبونَ الخاتِمةْ
ويُلَقِّنونَكَ آخِرَ الْعِبَرِ العِظَامِ القادِمَةْ
الْعاشِقُون.. سَيكتُبون نهايةَ الصَّلَفِ
المُزَنّرِ بالرَّصاصِ وبالقنابلِ..
يَهْزِمُونَكَ.. بالحِجَـارَةْ..

• • •

لا يَملِكُون سِوَى الحنين
إلى تُرابِ جُدُودِهِمْ..
عَتَبَاتِ دُورِهُمُ التي اغْتُصِبَتْ..
وظن الاحمقُ المحتلُّ..
أنَّ حقائقَ التاريخِ تُطْمَسُ بالرصاصَة
ظَنَّ..
وأنتَفَضَتْ .. تُزَلْزِلُهُ،
تقضُّ عليهِ مَضْجَعَهُ الحِجَـارَةْ..

• • •

أطْفالُنا.. لَيسُوا على عَجَلٍ..
فَعَبِّىء جيداً باقـي رَصاصِك..
وأنزل المَيْدانَ..
سوف تَراهُمُ أبداً.. هُنالِكَ..
بانتظارِكَ..
عند جِذْعِ النَّخْلَةِ الْعَاشُوا،
وماتَ جُدُودُهُمْ في ظِلِّها

سَتَراهُمْ أبداً.. هنالِكَ..

أيها «الغازي» الدخيلُ..

يبارزونك.

يهزموك.. بالْحِجَـارَةْ..

• • •

لَسْنا على عَجَلٍ..

فتاريخُ الجريمةِ يَستْطَيلُ.. ويَذْبحُ الأنفاس.

يَقْتَلَعُ الرُؤي مِنْ أعْيُنِ العُشَّاقِ..

ثُمَّ تَهُبُّ ريحُ الشَّعْبِ، ريحُ اللَّهِ،

والأرض الذبيحةِ.. فَجْأَةً..

ويسجل الْحَجَرُ أنتصارَهْ..

• • •

إنّــي لأَلمَحُ في التُّرابِ الْمُسْتَباحِ

بدايَةَ الطوفانِ..

أَلمَحُ في حُطَامِ السيفِ أُغْنِيةً،

أَقولُ: السَّيْفُ لم يَفْقِدْ غِرَارَهْ..

• • •

يا أرضْ.. يا زِلْزالَنَا الآتــي..

أغانــي العاشقينَ قِيَامَةٌ..

وزماننا العـربــي..

قالوا: غارَ.. قالوا: ماتَ

قالوا: هَرَّبُوه.. غَرَّبُوه..

ونَفْخَةٌ في الصُّورِ..

وانْظُرْهُ يدَمْدِمُ..

نافضاً عنه غُبارَهْ..

• • •

وأضُمُّ أطْفالي.. إلى وَتَري.

والْتَمِسُ البقايا من نشيدِ الجَمْرِ،

أُهْدِيها إليهمْ..

أرْسُمُ الألَقَ العظيمَ على الدُّخَانِ،

اقولُ لِلشُّعَرَاءِ:

هذا عَصْرُ مَلْحَمَةِ الحِجَـارَةْ..

• • •

هذا زَمَانُ النابتينَ من الرَّمَادِ،

زمانُ أطفالي..

الذين طَوتْهُمُ الأنْقاضُ في بَيْرُوت،

في صَبْرا، وشاتيلا..

زَمانُ القادِمينَ على جَوادِ الْمُسْتَحِيلِ..

يُلقّمون الْبَرَقَ صعقتَهُ ونارَهْ..

• • •

أبطالُنا الْمُتشبِّثونَ بأرضِهِمْ، وبشَمْسِهِمْ

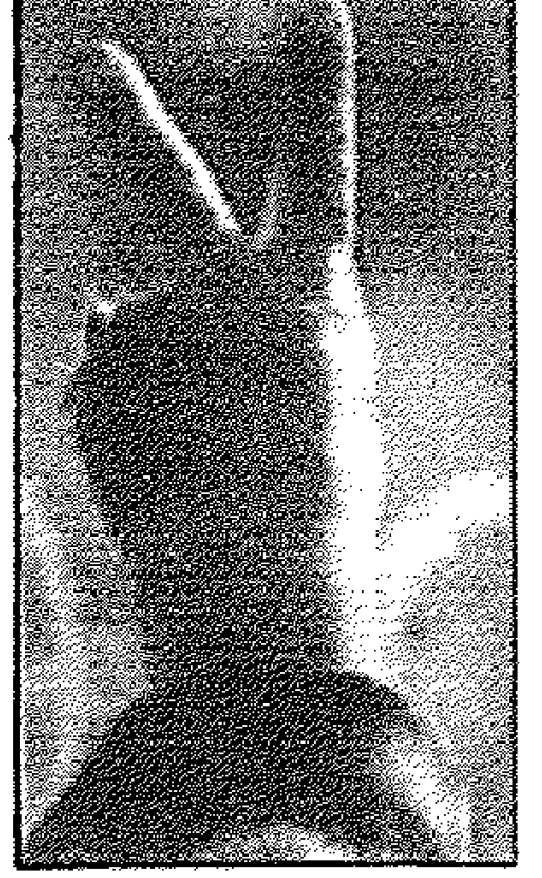
وبزَهْرَةِ. الرُّمَّانِ والزيتونِ في أيديهُمْ..

لَهُم تُهَيِّء ثَـوْبَهـا القُـدْسُ الجـرِيـحُ مُـطَرَّزاً بالأرْجُوانِ،

وتَسْتَعِدُّ لِعُرْسِها الْعَرَبيِّ..

قالَتْ لي الحِجَـارَةْ..





سيمفونية الأرض

د. سعاد الصباح

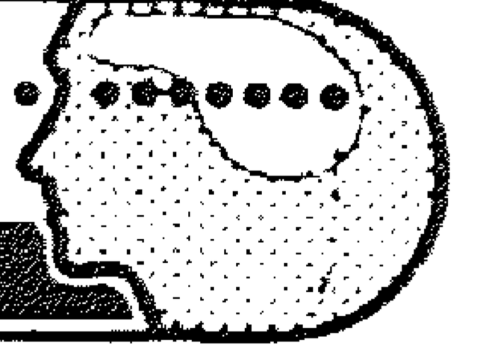
« ١ »

تلك سمفونية الأرض العظيمة
تتــوالــى..
تتــوالــى..
مثل ضربات القدر
مرةً في بيت لحــم
مرةً فــي غزَّة
مرةً فــي الناصرة
قلبت طاولة الروليت، والخمر، علينا..
سحبتنا فجأة من قدمينا
كنَّست في لحظة اسماء كلِّ الزعماء..
أغلقت بالشمع اوكار السياسة
ودكاكين الخــدر
ذبحت كلَّ البقر
فاستقيلوا يا كبــار الشعراء
ليس للشعر لدينا سادة أو امراء
ان للشعر اميراً واحداً يدعــى الحجــر

« ٢ »

تلـك سمفونية الأرض المجيدة
تتــوالى .. تتوالى
مثل ايقــاع النواقيس،
ومــوسيقــى القصيدة
تحمل البرق إلينــا.. والمطــر
أحــرقت اوراق كلِّ الأدبــاء
خلعت اضراس كـلِّ الخطباء
صبَّت النفط على لحية كلِّ الخلفاء
ورمتهــم في صقــر
فافرشــوا السجَّاد.. والورد.. لأطفال الحجـارة..
واغمروهم بالزهــر..
إن اسرائيل بيتٌ من زجــاج..
وانكســر..
هــا هــي الأخبار تــأتــي.. كالفراشات الينا.
خبراً.. بعــد خبر..
حجــراً.. بعــد حجــر..
فعــلى أجفاننا قمــح، ودفــلى. وورود
ها هــم اولادنا
يضعــون الشمس في اكياسهــم
يبدعــون الـزمــن الآتي.. يصيدون الرعــود..
ويثورون على ميراث عادٍ.. وثمود..
ها هــم اكبادنا..
يقتلون الزمن العبريَّ..
يرمــون الوصــايا العشر للنار..
ويلغــون اساطير اليهود..
رائــعٌ هــذا المطــر..
رائــعٌ هــذا المطــر..
رائــعٌ ان تنطــقَ الأرضُ.
وأن يمشي الشجــر
ها هــم ينمون كالاعشاب في قلب الشوارع
ففتاةٌ مثل نعناع البراري
وفتىً مثلُ القمــر
ها هــم يمشون للموت صفوفاً
كعصافير المزارع
ويعودون إلى خيمتهم دون اصابع
فاتركوا ابوابكم مفتوحةً
طول ساعات السحر
فلقد يأتــي المسيحُ المنتظر
ولقد يظهر فيما بينهــم
وجــه عليٍّ..
أو عمــر..
قاومــي .. ايتها الأيدي الجميلة..
قاومــي .. أيتها الأيدي التي بلَّلهــا ماء الطفولة
لا تبالــي ابداً.. بأكاذيب القبيلة
لم نحــرِّر نحــن شبراً من فلسطين.. ولكن
حرَّرتنا هذه الأيدي الرسولة..





الغضب الفلسطيني وعبثية النهج الإسرائيلي

مايكل أدامز



منذ حوالي عشرين سنة بالضبط ذهبت إلى مخيم جباليا للاجئين الذي هاجم فيه دايفيد ميلور مؤخراً وسائل الاحتلال الإسرائيلية في قطاع غزة ضقت مثله — ليس بسبب السياسة الفاسدة، لكن بسبب الوحشية التي كان الإسرائيليون يعاملون بها اللاجئين الفلسطينيين.

إلى حد ما، كانت الظروف آنذاك مشابهة تماماً لما هي عليه اليوم: كان هناك حظر تجول بالقوة في جباليا ومخيمين آخرين وكانت ناقلات الجيش الإسرائيلي تجول فيهم بسرعة كبيرة وتطلق النار. لكن كان يوجد فارق واحد مهم: لم يكن هناك أية مقاومة ظاهرة، وبالتأكيد لم يكن احد يرمي الحجارة على الجنود الإسرائيلين. لم يكن النجود يطلقون النار بدافع القتل، لكن لارهاب الناس، كان الاحتلال يومها في شهره السابع.

وفي مقال كتبته في ذلك الوقت وصفت القمع وشددت كما فعل ميلور، على ان الإسرائيليين كانوا، بممارساتهم تلك، يتجاهلون مقررات معاهدة جنيف الرابعة التي تنص على سبل معاملة المدنيين الخاضعين للاحتلال.

إن ممارسات الإسرائيليين اليوم عنيفة وغير شرعية بنفس المقدار الذي كانت عليه منذ عشرين عاماً. إن هذه السنوات العشرين تحت الاحتلال، لم تحبط إرادة المقاومة لدى الفلسطينيين. بل شجعتها وحثتها إلى الحد الذي أصبح فيه الأطفال مستعدين لمواجهة الموت بدلاً من الخنوع وهكذا ، فإن الوسائل الإسرائيلية تبدو وكأنها ليست فقط قاسية، بل انها أيضاً تعطي مفعولاً مضاداً.

لكن، إذا كان ما قاله السيد ميلور عن الوضع في الأراضي المحتلة هو صحيح اليوم، لماذا لم يقل ذلك من قبل وبنفس الوضع؟ فلو كان ذلك قد حصل، لو كان الجميع قد اتخذوا موقفاً واضحاً عام ١٩٦٨، عندما بدأ يظهر أن الإسرائيليين كانوا لا يحترمون واجباتهم كقوة محتلة، لما كان الموقف في فلسطين قد أصبح يائساً كما هو اليوم.

وكما اظهر ارنولد توينبي في مقدمته لـ «تحول فلسطين» عام ١٩٧١: «في فلسطين، الحق والباطل واحد كما في أي مكان آخر. إن ما يميز القضية الفلسلطينية هو ان العالم اصغى إلى الفريق الذي قام بالهجوم واعطى الضحية اذناً صماء».

لو اعطي صوت الضحية فرصة متساوية لقال شيئاً من هذا القبيل: «عندما اتيتم إلى فلسطين كفاتحين عام ١٩١٧، قلتم انتم البريطانيون انكم تريدون اقامة «موطن» لليهود فيها، لم تطلبوا موافقتنا، لكنكم وعدتم بأنكم ستحمون حقوقنا، حقوق الفلسطينيين الذي كانوا يشكلون تسعين بالمئة من السكان. وعلى امتداد الثلاثين سنة التالية رددتم ذلك الوعد، مصرين على عدم وجوب جعلنا رعايا دولة يهودية ضد مشيئتنا.

«واليهود ايضاً أعطوا وعوداً. قالوا انهم لا يريدون أن يحكمونا، لكنهم استغلوا كرمكم وعدم خبرتنا لاقتلاعنا من ارضنا عن طريق مناورات سياسية حيناً وعن طريق العنف حيناً آخر إلى ان تمكنوا

عام ١٩٦٧ من احتلال فلسطين كلها بالقوة. وما زلتم تعطون وعودا تفيد بأنكم ستحمون حقوق الفلسطينيين، لكنكم تخلون بها دائماً حتى اصبحنا شعباً صغيراً متروكاً لرحمة هؤلاء الغرباء الذين سرقوا حق مولدنا والذين، إذا اعترضنا، يضربوننا ويطلقون النار على اطفالنا ويرسلون زعماءنا إلى المنفى، وانتم في الغرب تبدون عاجزين عن كبحهم، علماً بأننا لم نلحق اي اذى لا بكم ولا باليهود.

«ماذا تتوقعون ان نفعل؟ لقد خسرنا كل شيء: نصف شعبنا في المنفى، ومن بقي — على رغم وعدكم — هم الآن رعايا دولة يهودية على رغم مشيئتنا. اين عدلكم ولماذا تكلمونهم بتهذيب وترفضون مكالمتنا؟».

ليس من المدهش ان يفاجأ الإسرائيليون إذا وجدوا انفسهم يهاجمون، وهم الذين سمح لهم كل هذا الوقت بأن يتصرفوا كما يحلو لهم في الضفة الغربية وقطاع غزة،فعندما كان مجلس الأمن او الجمعية العمومية في الأمم المتحدة يعمدان إلى اتخاذ قرارات تدين ممارسات اسرائيل كثيراً ما كان المندوب البريطاني يؤمر بالامتناع عن التصويت، فيما كان الاميركيون ينطلقون، عادة، للدفاع عن إسرائيل ولنقض اي قرار ضدها إذا لزم الأمر.

صحيح ان الوضع تحسن في ما يتعلق ببريطانيا — وان لم يكن ذلك صحيحاً بالنسبة إلى الولايات المتحدة — وذلك منذ عام ١٩٨٠ عندما أصدرت الأسرة الأوروبية اعلان البندقية الذي يدعو إلى حق تقرير المصير للفلسطينيين. لكن عندما اشاحت حكومة ريغان بوجهها عن حق تقرير المصير وعارضت بالفعل أي اعتراف بحقوق الفلسطينيين، بتأثير من اللوبي المؤيد لإسرائيل والذي حضها على ذلك، لزمت حكومتنا الصمت بكل بساطة.

قبل ان يتكلم دايفيد ميلور، ومع مساندة حازمة من قبل الحكومة البريطانية، كانت الحكومات البريطانية المتعاقبة، إن كانت من حزب العمل أو من حزب المحافظين عندما تحرج، تعرب عن استنكارها، إنكار إسرائيل، حقوق الفلسطينيين، ورفضها مقررات الأمم المتحدة المتكررة، وكان ذلك صوتاً منعزلاً دائماً كونها لم تكن تقوم بأية محاولة لإعطاء استنكارها مفعولاً خاصاً.

وفي الواقع انه، عبر قبولنا بتحدي الحكومة الإسرائيلية للقوانين الدولية وعدم احترامها للقيم الانسانية، شجعنا العنصر المتطرف في إسرائيل..فمنذ ان احتلوا الضفة الغربية وقطاع غزة قبل عشرين سنة، لم يكن الإسرائيليون متأكدين مما سيفعلون بهما، وقد اختبروا الأمر عبر انشائهم فيهما مستوطنات يهودية عدة، وعندما لم يبد أحد أي اعتراض جدي امتلكوا مساحات شاسعة من الأراضي العربية في الضفة الغربية. وبما انهم لم يلقوا سوى اعتراضات تافهة ضموا القدس العربية ومرتفعات الجولان ورحلوا من الفلسطينيين أولئك الذين يبدون أدنى معارضة. كما كانوا، بالوقت نفسه، اللاجئين الفلسطينيين باستمرار وقاموا أخيراً باجتياح لبنان، الذي كان بمثابة مصيبة لجميع الفرقاء وللإسرائيليين أنفسهم بنفس المقدار.

إن الهدف الثابت للحكومات الإسرائيلية المتعاقبة، وعبر اتباعها هذه الممارسات الهدامة والمرعبة، هو القضاء على المقاومة الفلسطينية وحرمان الفلسطينيين من أي امل بإنشاء موطن له حكومة من اختيارهم في فلسطين..وهناك الآن العديد من الإسرائيليين وأكثر منهم من اليهود خارج إسرائيل من يرون انه لمن العبثية الاستمرار على هذا النهج. وإذا كان دايفيد ميلور، عندما تكلم، اعطاهم بعض التشجيع، فإنه يكون قد اسدى لإسرائيل وللفلسطينيين، على حد السواء خدمة مهمة.

(عن صحيفة «اندبندنت» البريطانية ٨٨/١/١٨ نشرت في جريدة «السفير» بتاريخ ٨٨/١/٢٨)



إنهـا إشارة الإنطلاق ... فالفلسطينيـون لــن ينتظـروا ٢٠ سَنــة أخـرى

قسطنطيـن غـايفـاندوف



يبدو من أخبار وكالات الانباء ان إنتفاضة الفلسطينيين في الضفة الغربية من نهر الأردن وقطـاع غزة المحتلين مستمرة وتتخذ طابعـاً منظمـاً. وهذا لا ينسجم مـع تأكيدات القادة الاسرائيليين على ان الوضـع هناك اصبـح «طبيعيـاً». وفـوق ذلك، ان سلطـات الاحتلال تتوسـع في استخدام القوة العسكرية في الأضطرابات التي اججتهـا، كما هـو واضـح من تصريحات رئيس الوزراء شامير حـول تصميمـه عـلى إشاعة «القانون والنظام» باستخدام «القبضة الحديدية».

كان من يحـاول إدراك ما تعنيه تل ابيب بعبارة «القانون والنظام» بعد ٢٠ سنة من السيطرة على الأراضي الفلسطينية المحتلة لابد وان يتوصـل إلى الاستنتـاج الآتـي الذي توصلـت إليه صحيفـة «واشنطن بوست»: مطالبة العرب بقبول سيطرة إسرائيل الدائمة على الأراضي المحتلة أي الأسلوب الذي يؤدي إلى مزيد من الاضطرابات وإطلاق النار، إلى مزيد من النفي والاعتقالات الجديدة وإلى مآس جديدة.

اثارت أعمال القمـع الإسرائيلية غضباً في جميـع انحـاء العالم. وليس مصادفة أن مجلس الأمن الدولي اجتمع للمرة الثانية خلال الشهر الحـالي واتخذ قراراً بالاجماع يتضمن دعوة اسرائيل بالامتناع عن انتهاك القوانين الدولية، كإبعاد الفلسطينيين من الأراضي المحتلة. واشار مجلس الأمن إلى ضرورة التزام تل أبيب باتفاقيـة جنيف لعام ١٩٤٩ الخاصة بحماية السكان المدنيين اثناء الحرب، وأكد على ان هذه الاتفاقية تنطبق تماماً على الوضـع في المناطق المحتلة.

وينبغي القول إنه بالنسبة للمسائـل المتعلقة بعدوان اسرائيل ضد جاراتها، فإن مجلس الأمن الدولي لديه الكثير مما يفعله في هذه الأيام. فما أن انتهي من مناقشة الوضـع في الضفة الغربية من نهر الأردن وقطـاع غزة. حتى جاء دور لبنان الذي طالبت حكومته باتخاذ اجراءات عاجلة لوضـع حد لأرهاب تل أبيب في الجنوب اللبناني المحتل. ومن المعروف انه على الرغم من سلسلة من القرارات التي اتخذها في عام ١٩٧٨ مجلس الأمن وطالب فيها بانسحاب القوات الاسرائيلية على الفور من أراضي لبنان، فإن اسرائيل لا تكتفي بالاستمرار في احتلال جزء من أراضي هذه الدولة، بـل وانها حولته إلى قاعدة لاعمالها العدوانية. فخلال العام المنصرم فقط شن الطيران الإسرائيلي ٢٣ غارة جوية على المراكز السكانية الآمنة ومعسكرات اللاجئين الفلسطينيين والتي اسفرت عن مقتل ١٠٥ وجرح أكثر من ٢٥٠ مواطناً.

هذه المضاعفات المأساوية لفتت مجدداً انتباه الرأي العام العالمي إلى ان الأزمة العربيـة ـــ الإسرائيلية لا تزال بدون حل حتى الآن، وخصوصاً جوهرها المتلخص في المشكلة الفلسطينية، هي أشبه ببرميل بارود مربوط بفتيل جاهز. بعض المحللين الاميركيين استعجلوا جداً حين حاولوا تأويل قرارات قمة عمان الأخيرة بمـا يوحـي بأن هذه المشكلة قد تراجعت الآن إلى المرتبة الثانية ، أما حجم فعاليات الفلسطينيين وجرأتهم في الأراضي المحتلة والذين يكافحـون غير مسلحين ضد المحتلين المسلحين، إنمـا يثبت مجدداً ان «القبضــة الحديدية» لـن تحل المشكلة.

والتسوية العادلة لمشكلة الشرق الاوسط بالوسائل السياسية ودعوة المؤتمر الدولي برعاية الأمم المتحدة لهذا الغرض وبمساهمة جميـع الاطراف المعنية لا يقـف امامها في الوقت الحاضر سوى الولايات المتحدة الاميركية وإسرائيل وفي قمة عمان الأخيرة اعلـن المشاركون فيها انهم يقبلون بجميـع قرارات الأمم المتحدة، بمـا في ذلك القراران ٢٤٢ و ٣٣٨ الصادران عن مجلس الأمن الدولـي، وذلك كأساس لتسوية الأزمة العربية ـــ الإسرائيلية.

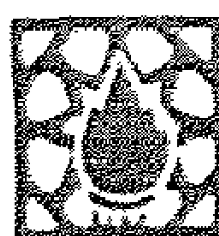
وإذ اقرأ اليوم الأعداد الأخيرة من المطبوعات الإسرائيلية التقدمية والديموقراطية، فأنني أرى فيها مجدداً الفكرة الواضحة الآتية: طالما ظل مليون ونصف مليون فلسطيني يقبعون تحت الاحتلال الإسرائيلي، وطالما بقي اللاجئون الفلسطينيون في مخيماتهم بدون أمل ومستقبل، فإن المنطقة لن تعرف السلام.

ويبدو الآن ان الإدارة الاميركية ، بعدما جربت كل شيء ، تميل إلى إدراك أكثر واقعية للوضع. وفي اية حال. عندما تمت في الجلسة الاولى لمجلس الأمن مناقشة الاحداث الحالية في الأراضي العربية المحتلة، فإن الوفد الاميركي امتنع عن التصويت، إلا انه لم يحبط اتخاذ قرار مناسب، أما القرار الثاني، فقد اتخذ بالإجماع . وإلى جانب ذلك، فإن واشنطن الرسمية صارت تنوه بين الحين والآخر بانها لا تعارض فكرة عقد المؤتمر الدولي حول الشرق الأوسط، على رغم انها في كل مرة تعبر عن تحفظاتها ارضاء للقادة الإسرائيليين.

وإلى جانب ذلك، فانهم يستغلون كل حجة لاطالة أمد تجميد مسيرة التسوية السياسية الشاملة للنزاع، واحدى هذه الحجج تتلخص في ان شهر تشرين الثاني (نوفمبر) المقبل يشهد في الولايات المتحدة الاميركية وإسرائيل على السواء انتخابات رئاسية وبرلمانية، وان من شأن ذلك، على حد زعمهم، ان يجعل الوقت الحاضر ليس ملائماً تماماً للقيام بمبادرات دولية كبيرة. ماذا يمكن القول في امثال هذه الحجج؟ أولاً، انه إذا استمرت الأحداث الجارية في الأراضي المحتلة في التطور بمثل زخمها الحالي، فإنه سيكون من الصعب، في الغالب، تجنب تحويل هذه المسألة إلى قضية انتخابية حادة في إسرائيل على الأقل. ثانياً، فإن من الواضح منذ الآن ان الفلسطينيين ليسوا مستعدين للانتظار عشرين سنة أخرى لاستعادة حقوقهم.

فالوقت، إذن ليس فيه متسع كبير، ومن الاصلح البدء الآن بعمل تحضيري نشط للاعداد للمؤتمر الدولي. ان صوت نفير الاحداث في الضفة العربية من نهر الأردن وفي قطاع غزة هو إشارة انطلاق لا تحتمل معنيين . أما التقاعس عن عمل شيء ما، فإنه يؤدي إلى ذلك الطريق المسدود الذي يقبع في نهايته برميل بارود بفتيل سريع الاشتعال.

(عن «ازفستيا» ١٩٨٨/١/١٠ ــ نشرت في «السفير» ٨٨/٢/١٨)



منطق الثورات والانتفاضات



«الانتفاضة» في الأرض المحتلة» قد تتحول ثورة عارمة. في رأي مصدر دبلوماسي. إذا قيض لها أن تتواصل بالوتيرة نفسها التي بدأت بها. وبالاندفاع ذاته وروح التضحية التي اتصف بها المنتفضون في الضفة الغربية وقطاع غزة. لكنه، مع ذلك، يتخوف من انطفاء الشعلة التي أضاءها أبناء الأرض المختلفة نظراً إلى عوامل عدة ومعطيات غير متوافرة الآن لدفع هذه الحركة كما توافرت لحركات أخرى.

ويعتبر المصدر أن الثورات في العالم ضد المحتل هدفت أولاً وأخيراً، إلى التخلص من الاحتلال وتركيز سلطة وطنية محل السلطة المحتلة، تكون في الأساس تعبيراً عن الاستقلال والسيادة، فضلاً عن تكوين كيان جديد، والاعتقاد السائد في هذا الزمن، أن الغلبة تكون دائماً للثائرين، والأمثلة على ذلك كثيرة، إن كان في المشرق او في المغرب، أو في العالم الواسع، وأن المحتل لا بد من أن يجمع حقائبه في نهاية الأمر، ويرضخ للأمر الواقع ولنتائج الثورة.

■ **في الهند**، أدت ثورة غاندي البيضاء إلى تحرير شبه القارة الهندية برمتها، فقامت دولة الهند ودولة باكستان التي انقسمت بدورها إلى دولتين بعد قيام بنغلادش بتأييد عسكري وسياسي من نيودلهي ساعدها

على الاستقلال والانفصال عن إسلام أباد.

وقيام الدولتين الهندوسية والإسلامية في شبه القارة الهندية مرده إلى نزاعات هندية في الأساس، غذتها بالطبع حاجة المستعمر إلى عامل على الأرض يتكىء عليه لمواجهة احتمالات الخروج من البلاد وفقدان «جوهرة التاج»، لكنه اثبت، مع ذلك، أن الخلافات الدينية المحلية ليست عائقاً أمام الاستقلال والسيادة، وإن كانت عامل عدم استقرار قد يخلخل أساس الدولة الجديدة المستقلة، ويسقطها كلها أو بعضها.

■ **وفي الجزائر،** التي سميت ثورتها ثورة المليون شهيد، لم تستطع القوى العسكرية، على رغم تفوقها في كل المجالات، أن تحتفظ بالبلاد وبهويتها التي عُرفت بها طيلة ١٣٠ سنة من الاستعمار، أو بجزء من هذه البلاد تلبية لطلب المستوطنين.

وهذان المثلان ينسحبان تقريباً على كل البلدان التي تحررت ولم تكن تملك القوة العكسرية الكافية لمواجهة المحتل وقوته الكبيرة في المجالين العسكري والدبلوماسي، وهما يؤكدان — إن كانت الثورة بيضاء أو حمراء - أن أصحاب الأرض لا بد من أن ينتصروا في نهاية الأمر، مهما تعرضوا له من قمع وضغوطات وتنكيل وتصفيات وطرد.

ويعتبر المصدر الدبلوماسي أن الديمقراطيات في العالم لا تستطيع الاستمرار في قهر شعوب مستعمرة، أو البقاء في الأرض المحتلة عندما تقوم الثورات والانتفاضات، فهناك حد معين لا تقدر على تجاوزه نظراً إلى أن النظام الديمقراطي يحول دون ذلك، حتى أنه يدفع الرأي العام إلى الخروج على سياسة حكومته، أو إلى الاستعانة بقوة سياسية أخرى من البلاد، عبر الانتخابات، تأخذ على عاتقها تصفية تركة عهد سابق. ويشير المصدر، في هذا المجال، إلى أن الثورات في البلدان المحتلة والمستعمرة كانت وراء الكثير من التغييرات والانقلابات السياسية في البلد المستعمر (بكسر الميم). ويقول أن ثورة الجزائر، يضاف إليها ما كانت تتعرض له فرنسا في ذلك الحين، هي التي سرعت الخطوات نحو التغيير بواسطة الجنرال ديغول، توصلاً إلى قرارات تاريخية لا يقدر على صنعها إلا الرجال التاريخيون.

حتى أن البلدان التوتاليتارية، التي تلجأ عادة إلى القمع على يد ما تملكه من قوة عسكرية، لم تعد قادرة، في هذا الزمن، على الاحتفاظ بأرض محتلة. وأمثولة أفغانستان أكبر شاهد على ذلك، فالاتحاد السوفياتي بدأ يستعد، على رغم قوته العسكرية الهائلة، للخروج من هذا المستنقع، ليواجه العالم بوجه جديد، وليثبت رغبته في الانفتاح والتغيير، من دون المس، طبعاً، بجوهر النظام القائم.

لكن، يتساءل المصدر، هل في الإمكان الاستمرار في الانتفاضة في الضفة الغربية وقطاع غزة اللذين لا تتوافر لهما ما توافر للانتفاضات الأخرى في العالم؟

ويعود إلى الرد على هذا السؤال بقوله: إن شعباً لم يقتلع من أرضه، وهو أمر ثابت في القطاع والضفة، قادر على صنع المعجزات والوصول إلى حقه، على رغم أن «الأرض المحتلة» لا صلة لها بالخارج كما كانت الحال مع الجزائر مثلاً في السابق، وكما هي الآن بالنسبة إلى أفغانستان. فالإسرائيليون بدأوا يطرحون اليوم السؤال: إلى أين نحن ذاهبون، وماذا سيكون عليه موقف العالم منا؟

وهو سؤال يعبر عنه الآن بطرق شتى، وقد تجيب عنه الانتخابات العامة في الخريف المقبل، في شكل قد يؤدي إلى تغيير في ميزان القوى السياسي، بحيث يعود المنادون بضرورة «مبادلة الأرض بالسلام» إلى موقع القرار من دون شريك لا يزال يعتبر أن التوراة هي التي أعطته الحق في التصرف بالسامرة واليهودية... وبقطاع غزة وبغيرها من المناطق المحتلة.

ويلفت المصدر، إلى أن الانتخابات العامة السابقة في إسرائيل أظهرت أن الرأي العام الإسرائيلي حائر بين «منطق التوراة» ومقولة مبادلة الأرض بالسلام على غرار ما حدث مع مصر، على رغم أن السلام المصري — الإسلائيلي لم يكن كـاملاً، وهو لا يكتمل إلا بحل ما للأرض المحتلة، وقد تتحول حيرته بعد مدة إلى موقف.

ومهما يكن من أمر، فأن اقتلاع الشعوب وإسكاتها في أيامنا هذه مهمة مستحيلة، وهو ما يتأكد يوماً بعد يوم، حتى بات من الممكن القول أن عقارب الساعة عادت إلى العام ١٩٤٨ في الأرض المحتلة، لتعيد صنع الأحداث مرة أخرى واستخلاص نتائجها.

محــرر

عن جريدة «العمل» اللبنانية ١٩/٢/٨٨

القطـــاع أفـلــت مــن عقـالــه

آفـي بنيـاهـو، عـال همشمـار ١٩٨٧/١٢/٢٢



□ عن جريدة «الشرق» ١٩٨٨/١/٣٠.



[فيمـا يـلـي شهادة ضابـط احتيـاط اسرائيلـي، لم يذكر اسمه، كان يخدم في قطـاع غزة، وفي مخيم جباليا بالذات، خلال الفترة الاولى من الانتفاضة:]

« في الحقيقة، اثرنا ضجة كبيرة لدى بدء خدمة الاحتياط هذه. كان ثمة منذ فترة مناخ من التوتر. وكان واضحاً لدينا إننا ندخل القطاع في فترة مضطربة: نوعية المسارات ذات المغزى التي تجري داخل المجموعات المختلفة، أعمال التحريض، الطعن بالسكاكين وسط المدينة. وفي الواقـع، لم يمـر اسبوعان من دون حدوث قتـل أو حادث تخريبـي، ولكن لم ينشر كـل شيء في وسائل الاعلام. ولكننا قبل خدمة الاحتياط، اطلعنـا، من قبيل الاستعداد، على الوضع بصورة أولية. فقد كان قسم من كتيبتنا مسؤولاً عن مخيم جباليا، الذي هـو اكبر مخيـم للاجئين في المناطق ويقطنه ٥٥ الف شخص باكتظاظ هو الاعلى في العالم. كان واضحاً لدينا ان ثمة في جباليا عـدم هدوء يتسبب فيه طـلاب الصفوف العالية ويتجسد اساساً في قذف الحجارة ورفـع اعـلام م. ت. ف.، ولكنه لم يصـل حـد العنف الشديد.

كان مفهومـاً لدينا ان شرارة صغيرة واحدة هنا تشعل القطاع بأكملـه.

يوم الثلاثاء، ٨ كانون الاول / ديسمبر [١٩٨٧]، وقعـت حادثة سير قتل فيها أربعة من سكان القطاع. فانتشرت في المنطقة كلها فجأة شائعة عن ان الحادثة متعمدة، وان السائق هو شقيق شلومو سيكل، الذي كان قتل فـي القطاع قبل عدة ايام. من غير المؤكد ان يكون هذا هـو السبب في بدء الاضطرابات، أو هل كانت الاضطرابات ستنفجر حتى من دون الحادثة، ولكنها انفجرت في أي حال. من المهم للغاية تأكيد امرين: كان كل النشاط العنيف في شوارع قطـاع غزة موجهـاً ضد الجيش فقط، ولم يحدث مرة أن هوجم

موظفو الادارة المدنية أو العاملون في دائرة الأشغال العامة أو المكاتب الحكومية. ولم تتم اية مضايقة للسيارات المدنية في محاور الحركة او لمستوطني غوش قطيف. لم يهاجموا سوى الجيش في المنطقة، والمواقع والدوريات. وقد برز هذا جيداً في الأيام العشرة الأخيرة.

السمة الثانية التي ينبغي تأكيدها هو انه لم يتم اللجوء، بحسب معرفتي، إلى استعمال أي سلاح ناري. لقد حشدوا الحجارة كلها، والآلات الحادة والإطارات المطاطية كلها، ولكنهم لم يطلقوا النار بسبب احد احتمالين: أما انه ليس لديهم سلاح ناري أو إنهم لم يشاؤوا البدء بذلك لمعرفتهم الواضحة ان من شأن ذلك احداث تغيير في سياسة الجيش، من شأنه توريطهم.

بعث الجيش على الجنون

بدا في الإضطرابات كلها انه لم يكن ثمة سيطرة مركزية. إننا نقف في قطاع غزة أمام جبهة واسعة جداً، وبحسب معرفتي هي ذات قيادة جديدة وجريئة تسيطر بسهولة على الشوارع والمخيمات. ليس في استطاعتي القول ان ثمة منظمة مسيطرة ذات قيادة. هنالك في القطاع منظمات مختلفة كان كل منها يعمل منفرداً، وفي تقديري انه نشأ في الأيام الأخيرة حلف يشمل هذه الهيئات كلها ضد الجيش.

إنهم لم يخافوا بسبب الجرحى والقتلى، بل على العكس، ان ذلك تسبب في المزيد من الهياج. وكان ثمة الكثير جداً من مظاهر الجرأة لديهم. ان هذا الأمر يبعث على المفاجأة. كما انهم استعملوا اساليب جديدة ، وهكذا مثلاً كانوا يمدون ، في مخيم جباليا خاصة، اسلاكاً شائكة بين الشوارع والأزقة.

كان التاسع من كانون الاول / ديسمبر يوماً اصعب. تصاعدت الاضطرابات في جباليا، واخرجنا إلى الشوارع المقابلة للمخيم عدداً من ناقلات الجند المدرعة. كنا نظن ان تمركز ناقلة جند مدرعة في مواجهة المخيم يشكل عنصراً رادعاً، ولكن الناقلات أثارت المزيد من الغضب وكانت عنصراً مهيجاً.

حفلة «استقبال السبت»

لا أعرف ما هو العصيان المدني، ولكن الحوانيت اغلقت عدة أيام، والمدارس لم تعمل، وتعرقلت الحياة اليومية كلها، ماذا بالضبط يسمى ذلك؟

أستطيع الجزم انه كان ثمة حالات لم يكن الجيش الاسرائيلي يسيطر فيها على محاور الحركة. وكان ثمة أشخاص يخافون التنقل ويطلبون مواكبة من الجيش.

يوم الجمعة ليلاً، تلقينا امراً من قائد المنطقة [الجنوبية] بفرض النظام في الشوارع، وتنظيفها من كل الإطارات المطاطية والحجارة وسائر الحواجز. اسمينا ذلك تندراً «استقبال السبت». بدا الأمر جميلاً. وبعد مرور بضع دقائق، بعد منتصف الليل بقليل، كانت الشوارع مرة اخرى مليئة بالإيطارات المطاطية المشتعلة والحواجز.

تمركزت المنظمات في ثلاثة مراكز: المساجد والمستشفيات والمدارس. حتى في ايام منع التجول، في جباليا، كان يمكن لقائد السكان المحلي ان يذهب للصلاة في المسجد. يقولون ان هذا هو الجانب الانساني في الأمر. كانوا بحاجة إلى اللقاء بعد ساعات حظر التجول، وكان واضحاً ان عدد الاشخاص الذين يذهبون للصلاة يزداد فجأة عما في الايام العادية.

مستشفى كقلعة

كانت المستشفيات مراكز تنظيمية، وذلك اساساً لان الجنازات تخرج منها، والجرحى ينقلون إليها. ويحوط بمستشفى «الشفاء» مثلاً سور كبير يشكل ساتراً، وهنالك في الداخل غرف كثيرة جداً تشكل امكنة للاختباء. في احد الأيام، وصلت الاضطرابات إلى قمتها. من الصعب علي ان استعمل تعابير عسكرية فيما يتعلق بغزة، ولكننا صراحة تأهبنا للهجوم. اعتقلنا ٤٠ شخصاً من المحرضين. وحصل معي حادث آخر، كشفت فيه فتى كان مستعداً لالقاء زجاجة حارقة. لم تسمح هذه المجموعة للمستشفى بالعمل وحوّلته قلعة. كما ان مدرسة التمريض تحولت بؤرة تحريض.

كان ثمة ثغرات في جهاز إعداد التقارير لدى الجيش في ايام الاضطرابات في القطاع. هنالك شهادات جزئية، وكان ينبغي اجراء تحقيق اكثر. وفي رايـي، ان عناصر مدنية شاركت في إطلاق النار، وقد رأيـت ذلك بعيني مرة واحدة على الاقل. ويبدو انه كان ثمة أيضاً حوادث إطلاق نار داخل المخيمات بهدف تصفية حسابات فيما بينهم.

«خلقوا» جنائـز بهدف التحريض

ينبغـي أن نفهـم ان الجنازة في نظرهم هي أمر مثالي. فالنجازة تحشد الكثير جداً من الاشخاص وتشكل اداة للتحريض. والجنازة مكان جيد للانطلاق إلى نشاط جماهيري. وفي رايـي انهم، لهذا الغرض، «خلقوا» جنائز. كان هنالك ظاهرة سرقة جثث، وليس واضحاً لدينا حتى الآن من دُفن واين؟ كانوا يأخذون الجثث على نقالات إلى داخل مخيم جباليا، ويركضـون بها بين الأزقة ويجرّون الآلاف إلى الشوارع. هـل تعرف ان جباليا مخيم في كبر كيبوتسك ويسكنه أكثر من ٥٠ الف شخص. في غضون لحظـة، تخرج الجماهير إلى الشوارع.

واجهنا معضلة شديدة في اختيار مكان تسيير الدوريات. فإذا سرنا في الشارع المحاذي للمخيم، اصبحنا هدفاً للحجارة. في وحدتنا فقط، جرح ١٥ جندياً خلال تلك الأيام. وإذا سرنا داخل الأزقة، تعرضنا لخطر ان يخطفوا منا جندياً او سلاحاً. عند صرخة واحدة، يخرج الآلاف هناك. وفي هذه الحالة تواجه خطراً، ويكون عليك ان ترد باطلاق النار في الهواء أو تحت القدمين. انهم لا يخافون. مرة صادف أن أطلقت النار تحت رجـلي شخص. كانوا يقفون هناك عند مدخل زقاق ويصيحون بـي بالعبرية: «تعلمْ التصويب». انهم يتحدثون العبرية البذيئة كتلك التي في مـلاعب كرة القدم.

لدى الجنود النظاميـين احساس ثقيـل للغايـة

إنني انهـي خدمة الاحتياط هذه بشعور ثقيل جداً. الجيش لا يستطيع ان يعطي الرد بدلاً من المؤسسة السياسية. وهنالك حد للفترة الزمنية التي يمكننا فيها السيطرة على القطاع. وكلما كان الخلاف السياسي على مستوى اعـلى، اصبح الجندي المعزول محاصراً بجمهور أكثر هياجاً.

لدى الجنود النظاميين اجمالاً احساس ثقيل. فتيان يخدمون في الجيش منذ ثلاثة اشهر وهم غير مهيئين نفسياً وجسدياً، يلقـى بهم في مثل هذا الوضـع. هذه مشكلة حقيقية. هـؤلاء الجنود عليهم ان ينتقلوا من تدريبات اطلاق النار على العدو إلى مواجهة انسان هو ببساطة يكرهك، يحدجك بنظرة ، يبصق عليك ويذلك. هذا الانتقال قاس وليس التشخيص صحيحاً دائماً.

ثمة مشكلة فيما يتعلق بالمسافة بين استعمال الغاز المسيل للدموع واطلاق النار من سلاح ناري كما انه ليس لدى الجيش نظرية في مواجهة مثل هذه الاوضـاع. فكتيبتنا، مثلاً، لم تتلقى مرة واحدة تدريباً على تفريق التظاهرات. على الجيش الإسرائيلي ان يفكر في ذلك. وفي هذه الأثناء، يكلفنا الأمر وقتاً وقوى وإصابات.

جـو من النار والـوهـن

تسأل إذا كنا خفنا. بالتأكيد ثمة خوف. نخاف من الوقوع وسط جمهور هائج. ثمة خوف من الحجارة التي تطير في الهواء. فجأة، من دون توقع، ترتـجّ من الحجر او الزجاجة الحارقـة. الجو مـلـيء بالنار وصرخات النساء المسنّات، والاحساس بالوهـن، ومـع ذلك فإن اطلاق النار في الهـواء يحررك من الاحساس بالخوف ومن الضغط.

(عن نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية العدد ١ ــ ك ٢ (يناير) ١٩٨٨)



الاضطرابات في المناطق كمنعطف تصعيدي

د. موشيه شيمش(*)، هارتس ١٩٨٨/١/٢٠



إن النقاش حول كيفية تعريف الأحداث - «عصيان مدني» أو مجرد «موجة» اخرى من المشاغبات ــ هو نقاش جوهري لا ايديولوجي فقط. انه مرتبط بمسألة تقدير الوضع السياسي في المناطق على المدى القصير والمدى الطويل، وذلك بشكل موضوعي وواقعي ومن دون ربطها بهذه السياسة او تلك او صبغها بألوان إيجابية من أجل تبرير السياسة.

المطلوب اليوم، أكثر مما في الماضي، تقدير صحيح، سواء للمعلومات الجارية عما يحدث في المناطق أو للمسارات الأجتماعية السياسية التي تتطور فيها. إن تقديراً صحيحاً لهذا المسارات سيضمن، على الأقل، عدم ارتكاب اخطاء ويحول دون مزيد من تدهور الوضع في المناطق كنتيجة لخطوات غير حكيمة من الحكم [العسكري]، وكذلك تهدئة مسار التدهور فيها. ومع ذلك يجب ان نؤكد ان مسارات تتطور في المناطق لا سيطرة للحكم الاسرائيلي عليها. وهي، في بعض الأحيان، الأكثر تأثيراً في ما يحدث.

من يستقصي المسارات السياسية ــ الاجتماعية في الضفة وقطاع غزة وكذلك تصرف السكان إزاء الحكم الاسرائيلي منذ حزيران (يونيو) ١٩٦٧، لا يستطيع إلا أن يرى في أحداث الأسابيع الأخيرة منعطفاً في المسار التصعيدي لتعبيرات المعارضة للحكم الاسرائيلي. هذا المنعطف يتجلى في عدة مجالات. قبل كل شيء في حجم الأحداث وشدتها: في العدد الكبير للمشاركين فيها الذى بلغ مئات كثيرة ولا نبالغ إذا ما قلنا آلافاً؛ بالوسائل التي استخدموها، بما في ذلك مئات الزجاجات الحارقة التي ألقيت في يوم واحد، وكذلك في استخدام أدوات حادة؛ تضامن مجموع الفلسطينيين [الخاضعين] للحكم الاسرائيلي بشكل لم يسبق له مثيل منذ حزيران (يونيو) ١٩٦٧.

لذلك لا عجب في ان سكان المناطق ووسائل الاعلام اطلقوا على هذه الاضطرابات اسم «انتفاضة»، اي «تمرد» أو «يقظة عامة». كانت هذه هي المرة الأولى التي أمكن فيها اطلاق تسمية كهذه على الأضطرابات في المناطق. ولا شك في ان الفلسطينيين سيسجلون هذه الاحداث كنقطة تحول في نضال سكان المناطق ضد الحكم الاسرائيلي. وتشير هذه التسمية ايضاً إلى ان سكان المناطق يشعرون ويدركون طابع المشاغبات واتجاهاتها.

إن سمات الأحداث الأخيرة هي نتيجة للإحساس بالقوة في مواجهة الحكم وقوات الأمن، أكثر مما هي نتيجة لليأس والإحباط من استمرار الاحتلال. هذا الاحساس بالقوة هو من نصيب تلك المجموعة أو الطبقة من السكان التي تقود الاضطرابات في المناطق وتنظمها، والتي تتألف من طلاب وخريجي جامعات ترعرعوا تحت الاحتلال وعلى أمجاد مفهوم الكفاح المسلح لمنظمات «المخربين». هذا الإحساس بالقوة يبث بواسطتهم إلى جمهور اكثر اتساعاً من الكوادر الشابة، بما في ذلك الطلاب، وتلقائياً أيضاً إلى طبقات أخرى من السكان. من المفهوم ان هذا الشعور هو ذاتي بالتأكيد وغير مبني بالضرورة على تقدير حقيقي.

إن الانخراط الفعال لقطاع غزة في الاضطرابات، التي تجلت احياناً بصورة اكثر حدة مما في الضفة جدير بالملاحظة. في الماضي كنا نشهد انجرار القطاع وراء الضفة في عمليات المعارضة للحكم. هذه المرة بدأت الحوادث في القطاع ثم انتقلت إلى الضفة ومن هناك شعت عائدة وبصورة حادة إلى القطاع. وهكذا نشأت تغذية متبادلة. ومن المعقول [القول] أيضاً تنسيق بين المنطقتين. بالمقابلة مع الوضع في القطاع في الماضي فإن التحول في مسار التصعيد كان أكثر حدة في القطاع مما في الضفة. إن الجرأة في إصابة جنود الجيش الاسرائيلي ومواطنين اسرائيليين ، بسلاح ناري وبارد، كانت ظاهرة مميزة للقطاع في السنة الأخيرة. هذا التحول في الوضع الأمني في القطاع يستوجب انتباهاً خاصاً في تقدير الوضع بالنسبة إلى هذه المنطقة على المدى الطويل.



إن سكان المناطق هم التجمع الفلسطيني الأكبر في العالم اليوم. إنهم بؤرة النشاطات القومية والقاعدة الشعبية للحركة القومية الفلسطينية «كإطار سقف لمنظمات المخربين . (!..) إن جيل الاحتلال، الذي يتمادى في الاتساع ويشمل اليوم ما يقرب من ثلثي سكان المناطق، يشكل ارضية خصبة لهذه النشاطات القومية. هذا الجمهور هو صاحب وعي سياسي فلسطيني متطور جداً. طوال ٢٠ سنة من الاحتلال اجتاز [هذا الجيل] مساراً مكثفاً من الفلسطنة بمفهوم تعزيز الوعي والهوية الوطنية الفلسطينية. كان على هذا الجمهور ان يبحث لنفسه عن رمز وتعبير عن رغباته القومية.

إن رؤساء [بلديات] المدن اليوم، بما في ذلك الرئيسية منها (نابلس والخليل ورام الله)، الذين عينهم الحكم الإسرائيلي كبدلاء من سابقيهم القوميين المتطرفين فاقدون كل تأثير سياسي. إنهم غير معنيين بأن يتدخلوا في السياسة وهم يكتفون بإدارة الشؤون اليومية للسكان. إنهم لا يستطيعون التأثير حتى لو ارادوا ذلك. وفي لقاءاتهم ممثلي الحكم، يعترفون بأنهم مؤهلين للعمل على تهدئة النفوس.

إن شخصيات ذات مكانة سياسية كالصحافيين وبعض رؤساء البلديات سابقاً او مثقفين، الذين يجتمعون بشخصيات اسرائيلية او بضيوف من خارج البلد، يرددون مواقف م. ت. ف. المعروفة، من خلال تغليفها بألوان من الاعتدال الذي تستوجبه المكانة، وبذلك فإنهم يشيرون إلى حالتهم السياسية الواضحة للمؤسسة الفلسطينية. في وضع كهذا فإن الحوار المهم الوحيد الذي يفي لتهدئة النفوس وإنهاء الاضطرابات هو [ما يجري] على الأرض بين قوات الجيش الإسرائيلي وبين المشاغبين وقياداتهم.

لقد ثبت ان مقياس الوضع السياسي والأمني في المناطق ليس عدد الاصابات والتظاهرات أو خرق النظام لفترة معينة بالمقارنة مع سابقتها. بل إن ما هو أكثر أهمية هو طابع العمليات وخطورتها ومصدرها ومستوى التنفيذ وعامل المجازفة فيها. إذا كان هذا التقدير صحيحاً، فالسؤال هو: في أية مرحلة من منعطف تصعيد آخر في الوضع الأمني في المناطق، قد ينتقل وطنيون متطرفون إلى استخدام أسلحة نارية في المواجهة مع قوات الجيش الإسرائيلي.

إن الوضع في المناطق سيهدأ في مرحلة ما في المستقبل لفترة معينة، لكن المسألة ستبقى بعينها ــ هل ستُستخرج الدروس الصحيحة التي يتطلبها تقدير صحيح لخلفية الاضطرابات ، من دون أن ننسبها إلى هذه العوامل الفورية او تلك.

عن نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية السنة الخامسة العدد (٢) شباط ١٩٨٨)

(*) محاضر في دراسات الشرق الأوسط في جامعة بن ــ غوريون وباحث في مركز تراث بن ــ غوريون.

الكلفة الحقيقية للانتفاضة

ليفي موراف



بعد بضعة أيام تنقضي خمسة اشهر على الانتفاضة (ثورة أو يقظة سكان المناطق)، وقد وصف رئيس الحكومة ما حصل في المناطق منذ يوم ١٩٨٧/١٢/٩، بالحرب وأعلن الجيش الإسرائيلي والمؤسسة الأمنية انه بموجب خطة العمل للسنة المقبلة (نيسان/ ابريل ١٩٨٨ ــ آذار / مارس ١٩٨٩) سيخدم جنود الاحتياط حتى ٦٢ يوماً في السنة من دون الحاجة إلى أمر... وذكرت وزارة الشرطة انها توجهت إلى وزارة المال تطلب زيادة موازنتها عشرات الملايين من الشيكلات الجديدة لتغطية الزيادة في انفاقها على الأجور بعد التعبئة الموسعة لافراد الشرطة منذ بداية الانتفاظة.

لقد اتضح في هذه الايام، وبحسب بيانات المكتب المركزي للاحصاء، ان شهر آذار (مارس) ١٩٨٨، شهد انخفاضاً بنسبة ١٧ ٪[1] في السياحة الوافدة إلى إسرائيل، ولحظ المكتب المركزي للاحصاء، تجنباً لأي سوء فهم، ان هذا المعطى خال من التأثيرات الموسمية، وهناك احساس بالقلق في شركة الطيران الوطنية «العال» ــ فلقد طرأ انخفاض بنسبة ٢٠ إلى ٣٠٪ في الحجوزات على خط الشركة عبر الاطلنطي بالمقارنة مع الفترة التي تلت عيد الفصح في السنة الماضية (١٩٨٧).

وذكر ايضاً وزير الاقتصاد والتخطيط الاقتصادي جاد يعقوبي قبل فترة وجيزة، ان الاقتصاد الإسرائيلي سيمنى، في تقديره بخسارة في الانتاج بقيمة ٧٠٠ مليون شيكل جديد على الأقل، عقب الانتفاضة، ولكن اقواله لم تترك صدى كبيراً كما لم تثر انفعالاً خاصاً، لا في زارة المال ولا في ديوان رئيس الحكومة أو في مكتب رئيس الحكومة بالوكالة، فهؤلاء منشغلون طبعاً بأمور أخرى ليست اقتصادية تماماً.

إن الوزيرين الوحيدين والوزارتين التابعتين لهما، اللذين يطلقان بوادر معارضة لهذه التقديرات، هما وزير المال ووزير الصناعة والتجارة، والوزير نسيم الذي يقوم في الوقت الحاضر بجولة في أوروبا، نجح في اكتشاف ان ليس «للاحداث» في «المناطق» انعكاس على الاستعدادات للاستثمار في إسرائيل» وانصافاً له يقال انه تذكر ان يلحظ، على الرغم من ذلك، ان الحديث لا يجري عن صف طويل وحاشد من المستثمرين الذين يقفون بفارغ الصبر ينتظرون اللحظة التي يستطيعون فيها الاستثمار، ونقل عن المدير العام لوزارة الصناعة والتجارة يورام بليزوفسكي قوله ان «الاحداث» في المناطق بالكاد اثرت في الصناعة الإسرائيلية»، استناداً إلى استقصاء شمل ١٨٠ مصنعاً ومع ذلك تبين ان نصف هذه المعامل شهدت انخفاضاً في مبيعاتها بنسبة ١٠ ٪ بعد الاحداث وأكثر من ذلك، تعترف وزارة الصناعة والتجارة بوجود مصانع واجهت مصاعب وكلها مصانع في قطاع الملبوسات والنسيج.

إذا كان هذا لا يكفي، فقد ذكرت في هذه الأيام ان النشاط الذي تقوم به قوى الأمن والجيش الإسرائيلي في المناطق له ثمن اقتصادي، ووصفت مصادر في المؤسسة الأمنية هذا الثمن بانه «باهظ» وقدرته بنحو ٤٠٠ مليون شيكل جديد، وفي الحقيقة حصل وفر بسبب تقليص التدريبات ، لكن المؤسسة الأمنية قررت التوجه إلى وزارة المال لطلب زيادة موازنة الدفاع ربع مليار شيكل جديد، ويمكن لهذا المبلغ من المال ان يأتي من مصدرين اثنين فقط: من الاحتياطي المالي ومن طباعة الاوراق النقدية.

وإذا استندنا استناداً كاملاً إلى اقوال وزير المال يتضح لنا ان الشركة الاميركية «جنرال برينغ» قررت التخلي عن حفظها لشراء مصنع «كرمو تعاسيوت» في كرميئيل، وذكر في التصريحات التي اعطاها أصحاب الشركة إلى حارسها القضائي الرسمي في إسرائيل ان الشركة قد الغت الصفقة بسبب تأثير الاضطرابات في الرأي العام الاميركي.

ما العمل لوقف الانتفاضة في المناطق ـــ إنه سؤال سياســي دون شك ولكننا لن نخوض في هذا الموضوع هنا، إلا ان مسألة واحدة قد غابت عن فهمنا: يمكن ان يكون موقفك السياســي هكـذا او غير ذلك في المجال السياسي، ولكن كيف نتجاهل الانعكاسات الاقتصادية لما وصفه حتى رئيس الحكومة بالحرب، هذا ما استعصــى علي فهمه، أننا لا نتحدث هنا عن حدث محــلي أو هامشي، فالإشارات تزداد اكثر فأكثر على ان للانتفاضة في المناطق تأثيراً اقتصادياً بعيد المدى تقريباً في كل المجالات الاقتصادية المهمة في حياتنا وقبل كل شيء في الانفاق العام المخطط مــع ما تعنــي هذه الحقيقة بالنسبة إلى التوازن في الميزانية ومستوى الاسعار وارتفاع مؤشر الاسعار ونسبة صرف العملة وربحية الصناعة.

وحتى لو اعتقد البعض ان ما يجري هــو «اعمال شغب» أو «احداث» وليس انتفاضة، عليه حتى عند ذلك، ان يقدم للجمهـور تقريراً لو جزئياً ومؤقتاً فمن المحظور الاستمرار في اخفاء الرأس في الرمال، بالافتراض ان ما لا نراه هو دليل على عدم حدوثه. وكلام وزير الاقتصاد والتخطيط جاد يعقوبــي، جدير بالتعاطــي الجدي، وحتــى لو كنا لا نوافقه اراءه السياسية وخصوصاً حتى لو كنا نعتقد ان تقديراته الاقتصادية خاطئة ومضللة أو مبالــغ فيها، فإنه قد تحدث في الجوهــر.

إن وزير المال يستطيع ان يسافر إلى بلدان ما وراء البحار (باسم الشعب والأمة بالطبــع)، ويستطيع ان يحاول الاداء بشهادته بعيداً، لكن هذا لن يساعده. فهو في نهاية الأمر سينزل في (مطار) اللد والمشاكل لن تسافر إلى خارج البلاد ـــ فهــي باقية عندنا هنا ولوقت طويل على ما يبدو، فإذا خالف مسؤولو وزارة المــال جاذ يعقـوبــي راية، وإذا اعتقدوا في بنـك اسرائيل انهم في وزارة الاقتصاد والتخطيط يضخمون الأمور فليسمعـوا أصواتهم ويقولون كل ما عندهم، وإلى ان يفعلوا ذلك ـــ سنستمر في قبول تحليل يعقـوبــي واستناداً إلى حاجات وزارة الاتقاصد فإن الخسارة تتألف من العناصر الآتية:

- انخفاض حجــم الإيراد من الضرائب ـــ ضريبة الدخل وضريبة فائض القيمة، ففي الأشهر الثلاثة الاولى من الانتفاضة نجمت خسارة مقدارها ٣٠٪ وهذا يعني خسارة سنوية تبلغ ١٠٠ مليون شيكل جديد.

- لقد طرأت هذه السنة وستطرأ زيادة بارزة في نفقات الأمن ـــ الشرطة وحرس الحدود والجيش الإسرائيلي ـــ لقمــع الأضطرابات، وبحسب تقدير وزارة الاقتصاد فإن الأمر يتعلق بنفقات مباشرة (اجور ومعدات وغيرها) بمئات الملايين من الشيكلات الجديدة، وعند إعداد التقرير في الوزارة، في ختام الشهر الثالــث على الانتفاضة، كان الحديث يدور عن نفقات مباشرة تبلغ ١٥٠ مليون شيكل جديد. وهذا ينطبق على ثلاثة اشهر. وقد نشر في هذه الاثناء ان المؤسسة الأمنية وحدها تطالب بزيادة الميزانيــة ٢٥٠ مليون شيكل جديد، وان وزارة الشرطة تطلب عشرات الملايين من الشيكلات الجديـدة لتغطية زيادة الرواتب واليوم ، بعد خمسة اشهر من بداية الانتفاضة، يبدو تقدير وزارة الاقتصاد حذراً، محافظاً، وينزع إلى التقليل وبالمناسبة، فإن الخسارة الانتاجية في الاقتصاد لم تؤخذ في الحسبان.

- بحسب معطيات جمعتهــا الوزارة ستطرأ خسارة في الانتاج بنسبة ٢٠٪ في قطاع البناء (نحو ٥٠٪ من عمال البناء في إسرائيل هــم من المناطق) وهذا يعني خسارة في الانتاج تبلغ ١٦٠ مليون شيكل، جديد.

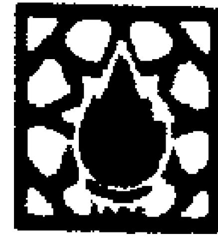
- ستطرأ خسارة على الانتاج في قطاعي الزراعة والصناعة أيضاً بسبب فقدان القدرة الانتاجية، وبحسب تقدير وزارة الاقتصاد ستبلــغ الخسارة نحــو ١٤٠ مليون شيكل جديد، واجمالاً فإن الحديث هنا يدور عن خسارة في الحصيلــة الانتاجية في الزراعة والبناء والصناعة تبلــغ ٣٠٠ مليون شيكل جديد في السنة.

- حصل تقليص مهــم في التصدير الإسرائيلي إلى المناطق، في عام ١٩٨٧ بلغـت قيمة الصادرات الإسرائيلية إلى المناطق ١،١ مليار دولار، وفي الأشهر الأربعة الأولى من الانتفاضة طرأ انخفاض بنسبة ٤٠٪ في التصدير، وبحسب تقدير الوزارة فإن الخسارة على أساس سنوي لا تقل عن ١٦٠ مليون شيكل جديد.

● لقد تضرر التصدير الإسرائيلي إلى أوروبا والولايات المتحدة بسبب تأثير التقارير من المناطق في الرأي العام، وقـد انعكس ذلك أكثر ما انعكس على الصعيد الاقتصادي، وعلى التصدير الزراعي (الحمضيات والفاكهة) عندما امتنع البرلمان الاوروبـي عن اقرار الاتفاقات التجارية مـع اسرائيل، والتفسير الفعـلي لهذا الامتناع هـو خسارة ٥٠ مليون دولار في فوارق الرسوم الجمركيـة.

إن كل انسان عاقـل يفهـم اليوم ان الأعمال ليست كعادتها، وان تجاهل تأثير انتفاضة المناطق في الاقتصاد لم يخفي المشاكل. والأمر الملح اليوم هـو الجرأة السياسية والاستقامة الفكرية للاعتراف بالمشكلة الاقتصادية التي اثارتها الانتفاضة، فالمشكلة المعترف بوجودها من السهل اكثر مواجهتها. على أية حال، هذه معطيات اولية حتى وان كانت لا تفي بالغرض ولقد آن الأوان ولـو بتأخير معين، ليفهـم بنك إسرائيل ووزارة المال ذلك.

(عن «نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية» العدد ٨٨/٥ ــ نقلاً عن «عـال همشمار ٨٨/٤/٢٥)



«بالدم والنار نفدي الجولان»

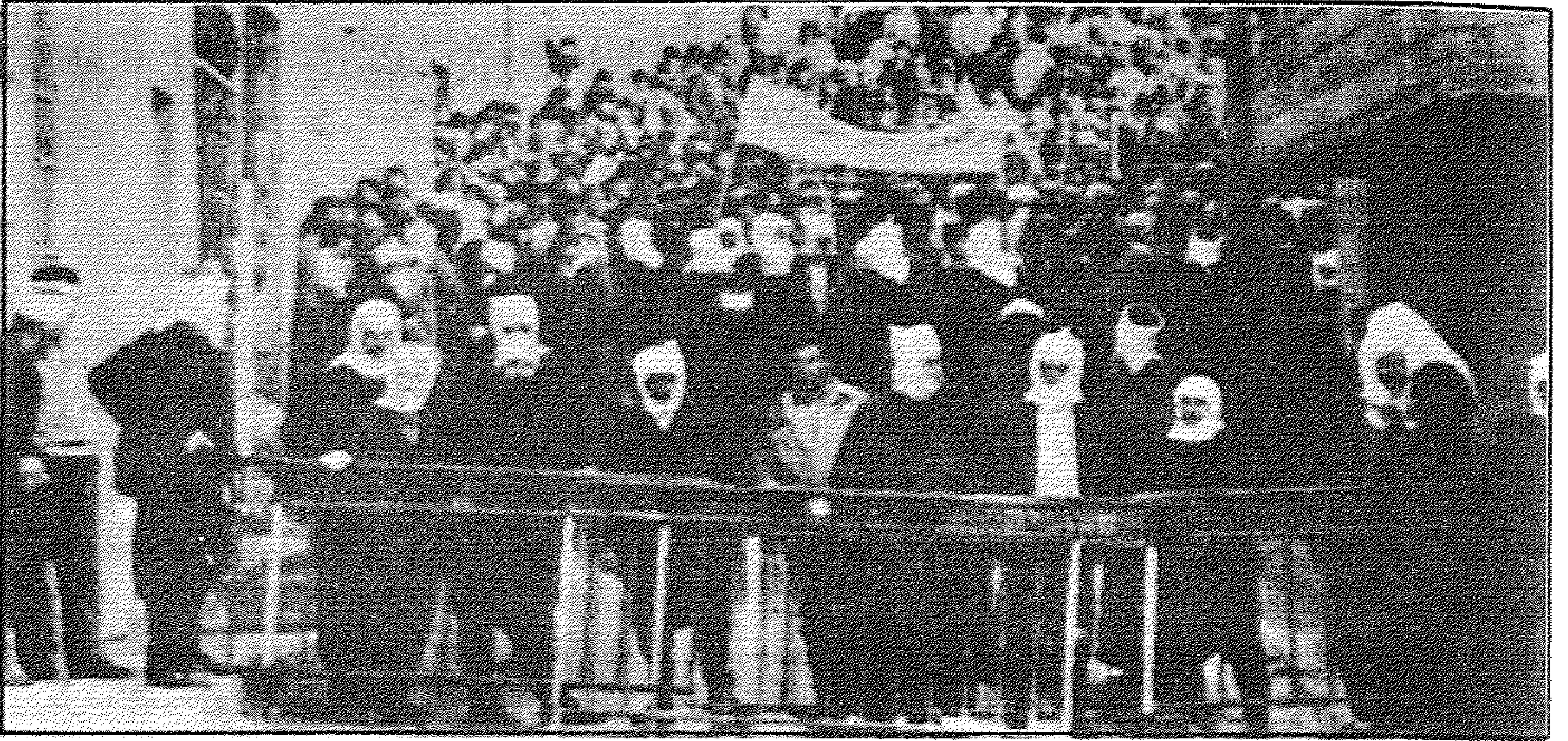
(يهودا تسور، حوتام (ملحق عال همشمار) ١٩٨٨/٢/١٩، ص ٥ و ٦)



غيوم من الغاز أطلقها أفراد شرطة إسرائيل في اتجاه سطوح منازل مجدل شمس، رداً على الحجارة التي ألقيت عليهم. كانت هذه مرحلة جديدة في التصعيد المتواصل في العشرين عاماً الأخيرة، منذ بداية سيطرة إسرائيل على الجولان. فق ولد جيل جديد لا يتصدى لاستمرار الاحتلال الإسرائيلي فحسب، وإنما أيضاً لقادته الروحيين والتقليديين الذين يحاولون الحفاظ على سبل الحل الوسط. وقد حاول عشرات رجال الدين ورؤساء العائلات التوصل إلى حل وسط في نهاية الأسبوع الماضي، لكي توافق الشرطة على قيام مسيرة في ساحة مجدل شمس الرئيسية، ولكن هذه المحاولات فشلت، مما أفرح مئات الشبان الذين فعلوا كل شيء من أجل الوصول إلى مواجهة مع الـ ٦٠٠ شرطي وأفراد حرس الحدود. وأصرت الشرطة على أن يطلب الدروز الموافقة على إقامة تظاهرة، معطية تلميحات غامضة جداً بأن الموافقة ستعطى فوراً، وأن المسيرة، من دون أعمال خرق للنظام طبعاً، يمكنها أن تنطلق. لكن الدورز رفضوا، تحت ضغط الشبان المعارضين للسلطة الإسرائيلية.

«نحن لا نعترف بالسلطة الإسرائيلية». قالوا لنا «إنها سلطة احتلال. وإذا طلبنا هذه الموافقة، فكأننا نعترف بالاحتلال وقانونه. إن مجدل شمس قريتنا وهذه أرضنا، جزء من الوطن العربي السوري، وليس لديكم ما تفعلونه هنا، وبالتأكيد لن نطلب موافقة لكي نفعل في بيتنا ما نريد».

إن الشبان المتمردين، الملثمين بالكوفيات، بحيث تحدق عبرها عيونهم فقط، يشبهون كثيراً أبناء جيلهم وأشقائهم في المناطق [الضفة الغربية وقطاع غزة]، وهم لا يذكّرون مطلقاً بالهيئة التقليدية للدرزي ذي الشاربين، الذي كان يتفاخر دائماً بلباس الرأس الأبيض، الذي كان يميزه عن العربي الملثم بالكوفية. إن مئات الشبان الذين قذفوا الحجارة من فوق سطوح المنازل في اتجاه مئات رجال الشرطة وحرس الحدود في مجدل شمس، كانوا يشبهون، إلى درجة تبعث على الدهشة، الشبان الفلسطينيين في المناطق، سواء من حيث لباسهم الخارجي أو من حيث كراهيتهم المتقدة ومعارضتهم استمرار السلطة الإسرائيلية هناك.



يوم الأحد، الساعة الثامنة صباحاً، كانت مجدل شمس منطقة تحتلها الشرطة. حُشدت في المنطقة قوات كبيرة لم نر مثلها منذ إضراب الدورز في الجولان قبل ستة أعوام، وقد نُقلت من قواعدها في جنوب البلد ووسطه وأكثر من ١٠٠٠ شاب، يحملون لافتات ضد الاحتلال ويهتفون «بالدم والنار نفدي الجولان»، احتشدوا في الشارع المؤدي إلى الساحة. وحاول عشرات الشيوخ الملتحين، من القيادة الدينية والتقليدية، منع وقوع مواجهة بين الطرفين. وجرت مفاوضات طويلة مع القيادة العليا للشرطة، التي كانت تتعرض كل دقيقتين لوابل من الحجارة تلقى من فوق السطوح. وعند الحادية عشر تقريباً، وبعد أن قام رجال الشرطة بعدة غارات على قاذفي الحجارة من دون جدوى. أعطيت الإشارة وأطلقت قنابل الغاز الأولى ثم بدأت المعركة...

[.......]

قبل فترة قصيرة من ذلك، دعانا شابان للدخول وسماع «ما يريد الأب أن يقوله». وفي البيت الفسيح، الذي يقطنه عشرات الأفراد من أبناء العائلة المتشعبة، يقول لنا أحد الشابين: «كنت في الاعتقال الإداري لستة شهور في فترة الإضراب الكبير قبل ستة أعوام. ومرضت بسبب ذلك. إننا نريد عودة الحكم العربي السوري إلى مجدل شمس. ولن نحتمل بعد الآن أن تظل هذه الأرض تحت سلطة إسرائيل. ليس بإمكاننا طلب الموافقة على إقامة تظاهرات، لأن هذه أرضنا، ونحن لا نعترف بالاحتلال الإسرائيلي. دولتنا هي سوريا. نحن أناس نسعى للسلام وتوجهنا للهدوء، ولكن نحن سوريون في كل شيء. وسنبقى كذلك إلى الأبد [...]».

ويؤكد الشاب الآخر في البيت نفسه: «لقد ولت الأعوام التي كان يمكن فيها لإسرائيل التفكير أنها تسيطر هنا من دون مشكلات. إنكم لا تفهمون أن هنالك اليوم جيلاً جديداً. الشبان يشعرون كدروز، وأيضاً كعرب ووطنيين سوريين، وأنتم ما تزالون تفكرون أن الأمر باقٍ على حاله وأن هذه مسألة بضعة محرضين فقط. افهموا خطأكم في الوقت المناسب قبل فوات الأوان».

[.......]

إنهم لا يريدون سلطة إسرائيل بعد الآن، والانقسام التقليدي بين العائلات عاد غير موجود كما في الماضي. ويمكن أن نتوقع احتدام المناسبات التقليدية التي يتظاهر فيها سكان الجولان: الذكرى السنوية للإضراب، يوم استقلال سوريا، [تأسيس] حزب البعث العربي السوري. وأوضاع المواجهة بين الشرطة والمتظاهرين تتصاعد بشكل متواصل.

(عن نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية)
العدد ٣ ــ آذار ــ مارس ١٩٨٨

إسرائيل: الحيرة والانحراف

آمنون كابيليوك



كـان من الضروري قتل خمسين فلسطينياً دفعة واحدة لأن بذلك كان يمكننا أن ننعم بالسلام لمدة ثلاثين عاماً («يدعوت احرنوت» عدد ٢٣ كانون الأول ١٩٨٧).

هذا ما اقترحه نبري شليطا، النـائب في حزب الليكـود، بعد أسبـوعين من بـداية الاضطرابات في الضفة الغربية وغزة، كعلاج للصدمة التي تعرض لها المجتمع الإسرائيلي نتيجة هذه الاضطرابات. فبعد فترة القلق التي سادت في الأيام الأولى للاضطرابات، لم يعد أمام أكثرية السكان الإسرائيليين سوى تبني واعتماد السلوك «العشائري». فإلتحق هؤلاء بزعمائهم واعتنقوا تفسيراتهم للأوضاع والتي تقول «إن راشقي الحجارة هم المذنبون». ونسي كل إسرائيلي ما جرى طيلة عشرين عاماً من الاحتلال من عمليات استملاك للأراضي ومن أعمال عنف وتعذيب وطرد ومن انتهاكات يومية لحقوق الإنسان.

إنه الواقع البائس المذهل: واقع أن يتجاهل أكثرية الإسرائيليين ـــ هذا الشعب الذي تعرض على مر القرون لمحاولات الإذلال والإبادة ـــ صرخات شعب مغتصب يتوق إلى العيش بكرامة واستقلالية.

لقد بغتت «المؤسسة الإسرائيلية» فعلاً بالانتفاضة. وكما حدث عشية حرب اكتـوبر ـــ تشرين عام ١٩٧٣، لم ير القادة الإسرائيليون المتشبثون بمفاهيم مستمرة، حلول العاصفة. إذ، ومع هجمات الجيش المصري، سقط وهم «الإبقاء على الوضع الراهن طالما نحن نريد الإبقاء عليه» كذلك، وفي كانون الأول ١٩٨٧ زالت الأوهام الجنوبية بـ «الوجود الدائم المستمر» في الأراضي المحتلة ومع ذلك، وفي عام ١٩٧٣ كما في عام ١٩٨٧، كانت كل الدلائل تؤكد على اقتراب العاصفة. إلا أن العيون كانت مغمضة والعقول مقفلة.

وفي كلتا الحالتين، لم تنعدم التحذيرات من خطورة العواقب. فمنذ بداية الاحتلال في عام ١٩٦٧، نبه البرفسور يشاياهو ليبوفيتز من الجامعة العبرية في القدس من أن دولة إسرائيل، بتكريسها كل وسائلها وجهودها للسيطرة على الفلسطينيين ستضحى «مسخاً» لكن من كان ليصغي إليه؟

وفي بداية الانتفاضة في كانون الأول بحث المسؤولون الإسرائيليون عن أسباب مموهة خادعة لتفسير انطلاقة الانتفاضة فأعلن رئيس الوزراء إسحاق شامير أن عملية الكوماندوس الفلسطيني في شمال إسرائيل في نهاية شهر تشرين الثاني «كانت السبب الرئيسي لقيام الاضطرابات في الأراضي المحتلة». في حين أصر وزير الدفاع، عضو حزب العمل، رابين، ومطولاً، على رأيه القائل بأن «الاضطرابات ستنتهي سريعاً». إلا أنه كان يجب عليه انتظار فترة شهرين آخرين ليعترف الوزير نفسه بأن «هذه الاضطرابات مستمرة» حتى يتم التوصل إلى تسوية سياسية للقضية الفلسطينية».

وعلى رغم هذه الحيرة التي سادت إسرائيل، فإن كل الاستفتاءات تدل على أن أكثرية الإسرائيليين تؤيد سياسة «القبضة الحديد» في الأراضي المحتلة. فبعد أسبوعين من بداية الاضطرابات طالب ٦٩ بالمئة من الأشخاص الذين شملهم الاستفتاء بتعزيز وتقوية إجراءات القمع، في حين أعلن ٢٣ بالمئة ارتياحهم للإجراءات المتخذة من قبل وزير الدفاع. وطالبت أقلية ضئيلة باعتماد اللين وتلطيف الإجراءات (استفتاء أجرته صحيفة «يديعوت احرنوت» في ٢٥ ك١ ١٩٨٧).

ولم تكن الاستفتاءات التي جرت في صفوف تلامذة الثانويات، الذين سيدعون قريباً للخـدمة العسكرية لمدة ثلاث سنوات، أقل مدعاة للقلق. إذ أن ٥٧,٧ بالمئة من تلامذة الصفوف النهائية في ثانوية «أراد» في مدينة النقب ـــ حيث يكثر عدد المثقفين ـــ أعلنوا تأييدهم لسياسة أكثر قسوة وشدة في الضفة الغربية وغزة، في حين أبدى ٣٣ بالمئة ارتياحهم للإجراءات الحالية، ولم يدل الباقون بأي رأي (استفتاء لصحيفة «دافار» ـــ ٤ شباط ١٩٨٨).

أما التلفزيون الرسمي للدولة والذي يستأثر بامتياز البث، فقد تجنب لفترة طويلة بث المشاهد المصورة التي أثارت استنكار العالم بأجمعه. ولم يستطع المشاهدون الإسرائيليون رؤية الفيلم الذي بثه التلفزيون الفرنسي القناة الثانية في ٣١ كانون الثاني والذي يظهر فيه أحد الجنود الإسرائيليين وهو يوسع

شاباً فلسطينياً بالضرب ويدق له رأسه بالحائط ويكسر له يده اليسرى. ولقد لجأ رئيس ومدير عام مكتب الإذاعة والتلفـزيون وعضو حزب «ليكود» أوري بورات إلى كل صلاحياته واستغل نفوذه ليمنع ــ بحجة الحفاظ على المصلحة الوطنية ــ بث مثل هذه المشاهد. إلا أن التلفزيون الوطني عاد وبث في ٢٦ شباط مشهداً غير محتمل عن انفلات السادية كان قد صوره صحافيون من شبكة «سي، بي، أس» الأميركية.

وبالمقابل، نشرت الصحف عشرات الروايات المخيفة عن أعمال القمع مما دفع التيار اليميني إلى القيام بحملة ضد «هذه الصحافة غير المسؤولة» وظهرت ملصقات تقول «نريد صحافة مسؤولة» وللمرة الأولى في تاريخ الدولة العبرية أقفلت المجلة الأسبوعية اليهودية «دريش هانيتزوتز» Derech Hanitzotz الصادرة في القدس باللغتين العبرية والعربية. في حين نشط التيار اليميني المتطرف، فكثف حزب المعارضة «هاتحياه» من مباداراته، وحذر رئيسه غولا كوهين من «خطر وقوع البلاد في حرب أهلية» في حال تخليها عن «يهودا» و «السامرة» (الضفة الغربية) وازدادت الدعوات لإخراج السكان الفلسطينيين.

وأثر حادث أصيب خلاله أحد المستوطنين في مستعمرة «أوفرا» بجروح من رشقات الحجارة، طالب قادة غوش أمونيم التي تنشط لإنشاء مستعمرات في الأراضي المحتلة «بجرف ودك قرية مالك الفلسطينية بلا قيد ولا شرط».

ويتضح اليوم، أن الاحتجاج على أعمال القمع في الأراضي المحتلة هو أقل وأضعف مما كان عليه خلال حرب لبنان عام ١٩٨٢، فحرب لبنان أدت إلى مقتل أكثر من ٦٠٠ وجرح آلاف من الجنود الإسرائيليين، في حين أنه منذ ٨ كانون الأول، أي منذ بداية اضطرابات الضفة حتى اليوم، لم تتكبد إسرائيل بعد أي خسائر بشرية. وفي هذا المجال فإن إسرائيل لم تدفـع شيئاً نتيجة لأعمالها القمعية بعد.

وفي عام ١٩٨٢، كانت الدعوات للخروج من المستنقع اللبناني، الحل المقترح من قبل المعارضين لمغامرة إسرائيل في لبنان، وكان حلاً بسيطاً. إلا أن المازق الحالي الذي تعاني منه إسرائيل هو أكثر تعقيداً، فهو يقوم على مسألة أكثر جوهرية: مشكلة مطالبة الفلسطينيين باستعادة حقوقهم الوطنية، وهو ما يصعب على أي إسرائيلي القبول به.

على رغم كل شيء، فإن الإسرائيليين صدموا بتدفق الانتقادات الآتية من اليهود في العالم أجمع. وهكذا، فإن عدة مندوبين من الطائفة اليهودية في ايطاليا قاطعوا حفل استقبال رئيس الوزراء إسحاق شامير حين وصوله إلى روما في ١٥ شباط، وجهر عدة شخصيات كانت صامتة حتى الآن، بأصوات معبرة عن الاعتراض بالقول «أنهم باتوا اليوم يخجلون من كونهم يهوداً»؟ كذلك فإن المقالة التي كتبها السينمائي الأميركي وودي ألان في الـ «هيرالد تربيون» في ٢٢ كانون الثاني ١٩٨٨ والذي نادراً ما يتطرق إلى الأمور السياسية، كان لها وقع القنبلة في إسرائيل وأثارت إرتباكاً وقلقاً في صفوف الإسرائيليين.

كذلك فإن نحو ٨٠ ألفاً تظاهروا في تل أبيب في ١٩ كانون الأول بدعوة من حركة «السلام الآن» وتحت شعار «ليسقط الاحتلال» عبروا عن رفض فئة من المواطنين لهذه الإجراءات بطرق مختلفة. ونشرت الصحف عشرات العرائض. ووقع ٦٢٠ أستاذاً من أساتذة الجامعات على عريضة بعنوان: «إن استمرارنا في السعي لفرض هيمنتنا على الأراضي المحتلة يهدد إسرائيل بخطر جدي» (الـ «هيرالد تريبيون» ٢٢ ك٢ ١٩٨٨).

وأعلن عدد من الكتاب بعد زيارة لقطاع غزة أنه «لن يكون باستطاعتنا دوماً اضطهاد شعب يكافح من أجل حريته» («يديعوت احرنوت» ٥ شباط ١٩٨٨). ونشر أحد الروائيين المشهورين ــ أموس أوز ــ مرافعة ضد سياسة الحكومة في الأراضي المحتلة طالب فيها بـ «المباشرة بمفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية إذا ما اعترفت هذه الأخيرة بدولة إسرائيل» («دافار» ٥ شباط ١٩٨٨).

وفي القدس نظمت مجموعة من المصورين معرضاً عن الانتفاضة، ورفعوا عريضة شددوا فيها بشكل خاص على «الخطر الأخلاقي الذي يهدد إسرائيل نتيجة لسياسة الضرب بالعصي، لأن جنودنا باتوا نتيجة لهذه السياسة مرغمين على القيام بتصرفات لا أخلاقية وغير قانونية ونحن نطالب بوضع حد للسياسة الحالية في الأراضي المحتلة».

وفي جامعة تل أبيب، جمعت تواقيع على نص بعنوان «الميثاق النهائي الحاسم» أعلن فيه الموقعون عن قرارهم بمقاطعة زيارة الضفة والقطاع وبمقاطعة المنتوجات المصنعة في المستعمرات الإسرائيلية الواقعة في الأراضي المحتلة.

وطالت لائحة النداءات. إلا أن التحذير الذي وجهه ١٥٧ عالماً من علماء النفس وأطباء الأمراض العقلية أثار الانتباه بشكل خاص، إذ أنه لفت الإسرائيليين إلى «مخاطر الاحتلال الدائم الذي يبعث بمجتمعنا الفساد والمرض». كما حذر من «الانعكاسات السيئة لأعمال القمع على الجنود» («هاداشوت» ٥ شباط ١٩٨٨).

ونشر أحد الكتاب وهو يأهو ناتان غويفن رواية لأحد الجنود الشبان كان أمضى فترة خمسة أيام في غزة، قال فيها أنه في الأيام الأربعة الأولى استطاع، وبحيل عدة، التهرب من المشاركة في أعمال الضرب بالمطارق، إلا أنه «في اليوم الخامس، لم يكن أمامي من خيار إلا اللجوء إلى الضرب». وقال جندي آخر «كل ليلة، وأنا مستلق في سريري، تعودني صور ما حدث خلال النهار فأرى نفسي حاملاً مطرقة أضرب بها طفلاً فيصعب عليّ النوم بعدها. إني لا أفهم لماذا يطلبون منا القيام بمثل هذه الأمور». ويقول جندي ثالث «هناك في وحدتنا مهاجرون جدد نادمون لقدومهم إلى إسرائيل» («معاريف» ٥ شباط ١٩٨٨/٢٨ و٢٩ كانون الأول ١٩٨٧).

«إنكم تقتلون روح شبابنا» صرخت السيدة تيما أوفير، من غوفات — حاييم — براين خلال لقاء لوزير الدفاع مع أمناء سر كيبوتزات حزب العمل، مضيفة «إن ولدي الذي يخدم هناك قال لي إن كل يوم يمر يدفع عدداً أكبر من الجنود إلى التطرف وإلى الالتحاق بالصف اليميني».

وقال أحد الحاضرين «أن شاباً ضرب أحد الصبية بالمطرقة مهشماً له عظامه لن يستطيع بعد ذلك أن يكون هو نفسه».

ورطة الجيش

لقد استأنفت حركة ضباط وجنود «هناك حدود» (ميش غفول) التي نشطت خلال حرب ١٩٨٢ والتي حكم على ١٥٠ من أعضائها بمختلف العقوبات لرفضهم الخدمة في لبنان، نشاطها من جديد. ففي كانون الثاني وقع ١٦٠ ضابطاً وجندياً على نداء بعنوان «فلنوقف أعمال القمع» أعلنوا فيه عن قرارهم بالامتناع عن الخدمة في الضفة وغزة وحكم على بعضهم بالسجن لفترات طويلة وقاسية، وخلال مؤتمر صحافي لهذه الحركة أعلن رقيب من وحدة المظليين «أن السجن ليس بالأمر المرعب، خصوصاً إذا ما قورن بالثمن الذي يدفعه الفلسطينيون وما يتعرض له هؤلاء». وخلال التظاهرتين الحاشدتين اللتين جرتا في ١٣ شباط ١٩٨٨ في حيفا والقدس دعا الخطباء الجنود إلى «عدم إطاعة الأوامر غير الشرعية الصادرة عن قادتهم» في حين ذكر المستشار القانون للحكومة الجنرال أمنون ستراشوم الجنود بـ «واجب عدم إطاعة أي أمر غير قانوني».

وهكذا، تجد القيادة الإسرائيلية نفسها في مواجهة ثلاث مشاكل رئيسية إذ أثبتت كل الوسائل المعتمدة لردع المتمردين عدم فعاليتها. حتى أن فرض منع التجول وما رافقه من حصار اقتصادي جزئي وحشد للقوات المسلحة واللجوء إلى العنف لإرهاب السكان، لم يعد الهدوء. فلقد اختلفت الوسائل وتنوعت؛ إلا أن الانتفاضة بقيت مستمرة. ويستنتج أحد الصحافيين جويل ماركوس بقوله «لقد استنفدنا كل وسائل العقوبات («هآرتز» ٥ شباط ١٩٨٨).

والمشكلة الثانية التي تواجهها قيادة الأركان هي انعكاسات أعمال القمع على الجنود أنفسهم.

وقد قدمت مصلحة العناية النفسية في الجيش تقريراً حول هذا الموضوع، ظل مضمونه سرياً. في حين أعلن الناطق بإسم الجيش أن «العواقب لم تكن مقلقة»، وهذا ما نفاه المراسل العسكري في صحيفة «دافار» اليومية حين قال «إن الضباط الموجودين في الضفة يعترفون بقلقهم وتخوفهم من عواقب سلوك الجنود» («دافار» ١٠ شباط ١٩٨٨).

واستبعد اقتراح إنشاء وحدات خاصة لمواجهة الاضطرابات في الأراضي المحتلة، لأسباب تتعلق بعدد القوات.

والهم الثالث للقادة العسكريين هو حول برنامج تدريب المجموعات. وكما حصل طيلة الوجود الطويل في لبنان بين عامي ١٩٨٢ و ١٩٨٥ فإن التمارين والمناورات العسكرية تعرضت جدياً للخلل والتشويش، وألغيت المناورات الشتائية لوحدات عدة من وحدات النخبة. وإذا كنا نجهل، بفعل الرقابة عدد الأشخاص الذين يخدمون اليوم في الأراضي المحتلة، فإننا نعرف، على الأقل، أن هذا العدد ليس بكبير. وقد تلقى كثير

من جنود الاحتياط، الذين كانوا قد انجزوا فترة تدريباتهم ــ وهي بشكل عام لا تتعدى فترة الشهر سنوياً ــ الأمر الشهير «رقم ٨» الداعي إلى التعبئة بدون إشعار ولفترة محدودة.

لم يحدث مطلقاً لإسرائيل منذ حرب ١٩٦٧ ان واجهت المشكلة الفلسطينية بهذا الشكل الدراماتيكي. غير أن الكتلتين السياسيتين الكبيرتين اللتين تشكلان حكومة الاتحاد الوطني عاجزتان عن تقديم أي فكرة جديدة. فالليكود ما يزال متمسكاً بـ «لا» المتعددة، ويلوح من جديد بمشروعه الذي ولد ميتاً حول الحكم الذاتي الفلسطيني والذي نصت عليه اتفاقيات كامب ديفيد والذي ترفضه كل من مصر والأردن.

وتوضيحاً لأي لبس أعلن شامير بشدة «أن إسرائيل لن تتخلى أبداً عن أي جزء من الضفة وغزة وتطالب بالسيادة على مجموع أراضي فلسطين التاريخية».

ويخشى رئيس الوزراء أيضاً من المبادرة الأميركية، على رغم استنادها إلى إتفاقيات كامب ديفيد، في حين أن أركان حزب العمل، على رغم ترحيبهم وتهليلهم لمآثر وزيرهم للدفاع في الأراضي المحتلة، يحلمون بسلم منفرد مع الأردن. وترفض الكتلتان إعطاء أي دور لـ م. ت. ف.

وفي حال جرى الحفاظ على التوازن النيابي إثر الانتخابات التشريعية التي ستجري في تشرين الثاني المقبل، فإن رابين ــ الذي يهلل حزب الليكود أيضاً لانتصاراته ــ ربما يكون المرشح المشترك لمنصب رئيس الوزراء.

وأكثر من ذلك، فإن وزير الدفاع بات يمثل اليوم حزب العمل هذا، ربما يفسر بلا شك اقتراح المستشار النمساوي السابق برونو كرايسكي بطرد الحزب من الاشتراكية الدولية بسبب مسؤوليته عن أعمال القمع ضد الفلسطينيين في الأراضي المحتلة.

بالفعل، فإن إسرائيل تفتقر إلى قائد بصير قادر على البوح لشعبه بكل صراحة بكل الحقائق التي يفضل هذا الشعب تجاهلها، وقبل أي شيء البوح لهم بأن القوة لا يمكنها أن تحل النزاع العربي ــ الإسرائيلي، وأن يكون أيضاً قادراً على إدخال البلاد في طريق التسوية التاريخية. وأن إنعدام وجود هكذا قائد اليوم هو مأساة كبيرة.

ترجمة: إيمان شمص

(عن «لوموند ديبلوماتيك» عدد آذار ١٩٨٨)

(نشرت في «السفير» ٢٨/٤/١٩٨٨)



● «... والعمل العربي في هذه المرحلة يحتاج إلى كل خبرة الأمة العربية مع تاريخها الطويل المجيد، ويحتاج إلى حكمتها العمقية، بقدر حاجته إلى ثوريتها وإرادتها على التغيير الحاسم.

إن الوحدة لا يمكن بل لا ينبغي أن تكون فرضاً، فإن الأهداف العظيمة للأمم، يجب أن تتكافأ أساليبها شرفاً مع غاياتها».

جمال عبد الناصر

● واجبنا نحن الزعماء، أن نبث في الشعب روح الأمل والتفاؤل. فإن الشعوب الضعيفة المقهورة لن تقوى ولن تنتصر ما بقيت يائسة متشائمة، ولكن لا سبيل إلى ذلك إلا إذا ضرب الزعماء الأمثال على أنهم هم في المقدمة والطليعة، جرأة وتضحية وإقداماً.

«جواهر لال نهرو»

● ليس ثمة أمة استطاعت أن تنهض من غير أن تطهرها نار العذاب.

«غاندي»

مَوطنها لبنان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة
جُذورها راسخة في الشرق الأوسط
وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا



نيويورك

باريس لندن

فرانكفورت كوبنهاغن

جنيف بروكسل

زوريخ مدريد

نيس تونس

ميلانو مونروفيا

روما ابيدجان

اثينا لاغوس

اسطنبول كانو

بيروت

مسقط القاهرة

رأس الخيمة لرنكا

أبوظبي انقرة

دبي عمان

الدوحة بغداد

البحرين جدة

الظهران الخرطوم

الكويت عدن

■ المقالات الواردة توزَّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة العاشرة • العددان ١١٩ – ١٢٠ • أيلول (سبتمبر) – تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٨ • الموافق محرم – صفر ١٤٠٩هـ



□ في المغرب، لا يزال قصاصو السير المحترفون يساعدون على دوام هذا التراث الشعبي العربي القديم.
من كتاب: عبقرية الحضارة العربية.



□ المزادة: حافظة الماء وغيره من السوائل يستعملها الجند ثم تطورت صناعتها وادخل عليها الخط العربي الإسلامي وبعض الصور التي تعكس المرحلة التاريخية التي صنعت فيها.
من كتاب:
The World of ISLAM
Edited by Bernard Lewis

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا ترد إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ١١٩ ــ ١٢٠ ● أيلول ــ تشرين الأول ١٩٨٨

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهرين

صاحبها ورئيس تحريرها : **فاروق البربير**

المستشار : د. **أنيس صايغ** المدير المسؤول : **محمد مشموشي**

قسم التوثيق والأبحاث : **شذا عدرة**

قسم التوزيع والاشتراكات : **علي عبدالساتر**

الانتاج : **مطبعة المتوسط ش.م.م.**

التوزيع : **الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.**

ثمن النسخة

لبنان	٧٥٠ ل.ل.	سوريا	٣٥ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٥ دولار
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥ دولار
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ١٠٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
BIMONTHLY PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 14 No. 119/120. Sept-Oct 1988

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

الأندلس

في

عصر ابن زيدون

ملاحظات جغرافية

د. نقولا زيادة

□ «محراب» جامع قرطبة الكبير وقد أضاف بناؤه الخليفة الحكم الثاني (٣٥٠ ــ ٣٥٥هـ/٩٦١ ــ ٩٦٦م)

١ ــ مقدمة

ولد أحمد بن عبد الله بن زيدون في قرطبة سنة ١٠٠٣/٣٩٤ وتوفي في اشبيلية سنة ١٠٧١/٤٦٣. وقد كانت أسرته ذات مكانة مرموقة، علماً وثراءً ونفوذاً، مما يسّر له حظاً كبيراً من العلم وصحبة علية القوم في قرطبة، ولعل ذلك كله كان مما أثار في نفس ابن الوليد طموحاً للرئاسة. وقد كان ذلك، بحسب طبيعة العصر وسنته، أمراً مألوفاً فالحياة السياسية في الأندلس بعامة، وفي قرطبة بخاصة، كانت قد تفشّى فيها من الفوضى أدواء، وعمّها من الاضطراب أنواء، وضعفت الخلافة الأموية فيها حتى عن الحفاظ على المقام المحترم بله النفوذ، وطمع في الرئاسة والنفوذ الكثير من أصحاب الهمّة والثروة. ويبدو أن ابن زيدون كان في ذلك مشاركاً، حتى أنه لعله أسهم في الحركة التي قامت سنة ١٠٣١/٤٢٢ ففي طبة فأنهت الخلافة وسلمت الأمر إلى أبي الحزم بن جهور، وهو الذي أنشأ في المدينة حكماً جديداً على غرار ما كان قد بدأ من قبل في مالقة، وما تبع فيما بعد في غيرها، مما عرف باسم ملوك الطوائف.



وهكذا فإن ابن زيدون شب في زمن كانت فيه الخلافة، التي كان قد أضعفها استبداد المنصور الحاجب بالأمر سنة ١٠٠٢/٣٩٣، تتدهور تدريجاً، حتى ذابت نهائياً في سنة ١٠٣١/٤٢٢.

ويبدو أن ابن زيدون، إن صح أنه أسهم في حركة سنة ١٠٣١/٤٢٢، كان يطمع في مكافأة تتناسب مع ثراء أسرته وطموحه ومساهمته. فلما لم يتم له ذلك، انضم إلى حركات معادية للسلطة القائمة. ولعل بعض منافسيه وحسّاده أوغر صدر أبي الحزم بن جهور، صاحب قرطبة، عليه، فانتهى الأمر بمحاكمته وسجنه (٤٣٢ أو ١٠٤٠/٤٣٣ أو ١٠٤١)، ثم هربه من السجن بعد سنة وبعض السنة. ومع أن أبا حزم بن جهور عفا عنه، فإنه لم يوله أمراً من أمور الدولة.

لكن وفاة أبي الحزم (١٠٤٣/٤٣٥) وتولى ابنه أبي الوليد شؤون قرطبة أدى إلى تغيير في حالة ابن زيدون. فقد عيّنه الحاكم الجديد على أهل الذمة ثم اتخذه وزيراً وجعله سفيراً له إلى ملوك الأندلس الكثر. وقد سفر لابن جهور لدى عبد العزيز صاحب بلنسية، وباديس صاحب غرناطة، والمظفر صاحب بطليوس وغيرهم.

إلا أن ابن زيدون كان صاحب نفس طموحة قلقة لا تستقر، فلم يلبث أن انغمس على ما يبدو، في أمر من أمور الدولة أثار حوله الريبة والشك، فعزل عن منصبه وألزم المنزل، وذلك بعد خمس سنوات من العمل في البلاط القرطبي.

ونحن إذا تذكرنا أن هذه الفترة من تاريخ الأندلس كانت فترة ملوك الطوائف الذين توزعوا الحكم في الأندلس الإسلامية، كما أنه كان فترة اشتد فيها ضغط مسيحيي الشمال من الإسبان لاستعادة ما كان بأيدي العرب، فإننا لا نستغرب أن تكثر المؤامرات وأن ينتشر التآمر وأن يكثر المنتفعون من ذلك، والراغبون في الإفادة، والطامعون في المنصب. فالعصر كله كان عصر قلق واجتذاب منافع. وإمعان في اهتبال لذة العيش ما أتيحت للناس الفرصة، وفي هذه الدوّامة كان يعيش كثيرون، ومنهم ابن زيدون. وكل هذا كان يزيد في عدد منافسيه وحسّاده والراغبين في إبعاده عن ذوي السلطان. وإذا أضفنا إلى هذا ما كان له في نفس ولادة من منزلة، وما متع به منها قرباً، وما آله منها بعداً، فإننا لا نستغرب أن يمعن حسّاده في العمل ضده، ولكننا لا نستغرب أيضاً أن يكون ابن زيدون قد فعل ما يمكن لحسّاده من العمل ضده.

ولم يكن من اليسير على ابن زيدون أن يلزم بيته على نحو ما أمر. فالرجل الديناميكي المتحرك الفعّال تثير (الإقامة الجبرية) فيه من الآلام والقلق الكثير. ولذلك فإننا نراه يرحل عن قرطبة

إلى إشبيلية إلى بلاط المعتضد بن عباد (٤٣٣ — ٤٦١/١٠٤٢ — ١٠٦٩) التجأ ابن زيدون إلى إشبيلية سنة ٤٤١. وقد ظل فيها زهاء عشرين سنة، إلا فترة قصيرة عاد فيها إلى قرطبة لما احتلها المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية. وكانت وفاة ابن زيدون سنة ٤٦٣ / ١٠٧١[١].

٢ — المكتبة الجغرافية العربية والأندلس

إن الناحية التي نود أن نتحدث عنها في هذا البحث المقتضب عن الأندلس في عصر ابن زيدون تقتصر على بعض الملاحظات الجغرافية والاقتصادية عن تلك الفترة. وفي سبيل ذلك يجدر بنا أن نوضح للقارىء المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في هذه الدراسة.

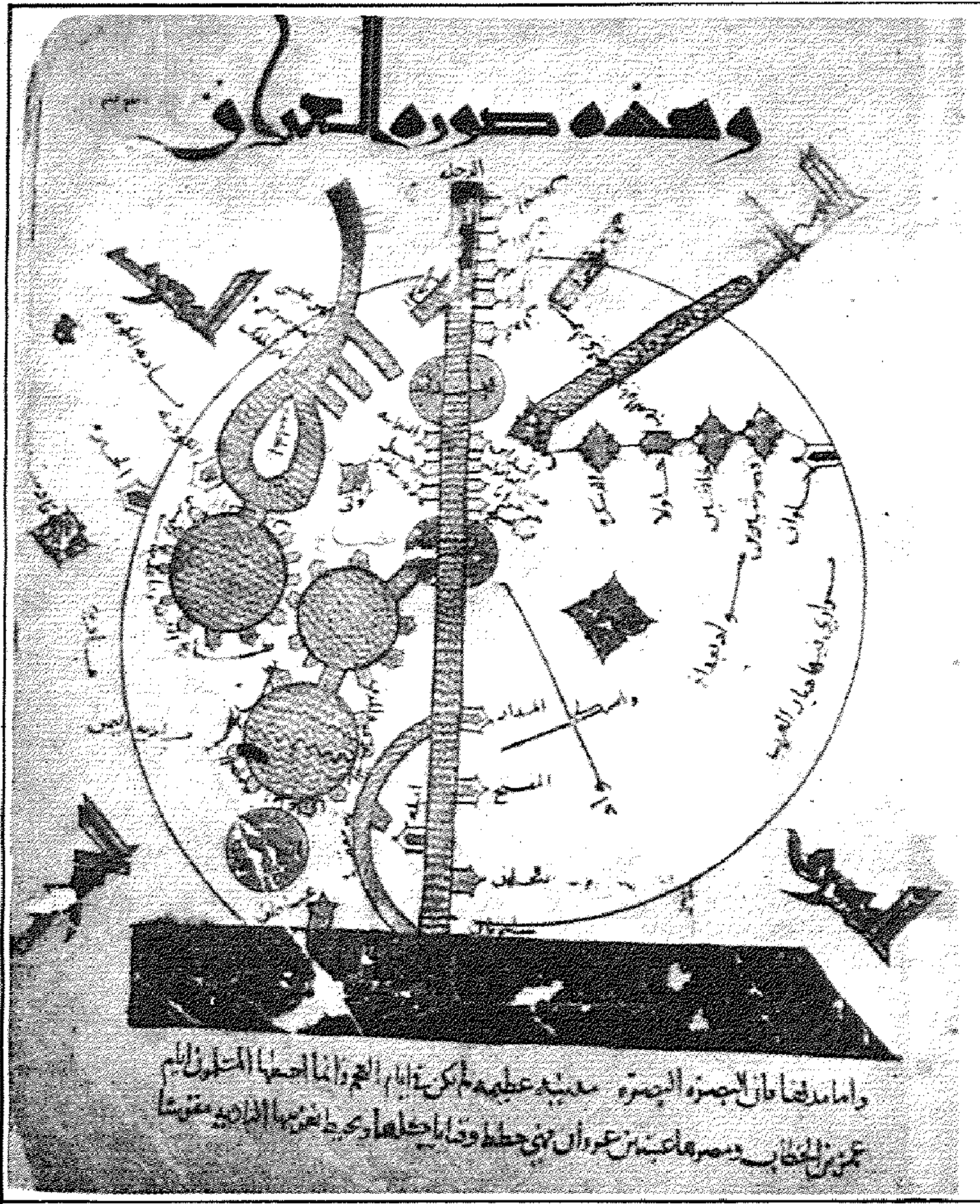
وفي طليعة هذه المصادر الكتب الجغرافية. وهذا الأمر يقتضي منا الإشارة إلى المكتبة الجغرافية العربية بعامة، كي نتعرف إلى أهميتها بالنسبة إلى بحثنا.

ويمكن القول إجمالاً أن الكتابة الجغرافية عند العرب، في العصور الأولى، اتخذت ثلاثة اتجاهات هي: (الجغرافية الرياضية) ثم (جغرافية المسالك) ثم (الجغرافية البلدانية).

كان الاتجاه الأول في التأليف باللغة العربية نحو الجغرافية الرياضية، دون الوصفية أو البلدانية. وظهر هذا بشكل خاص في نوعين من المؤلفات. الأول الكتب المتعلقة بصورة الأرض والثاني كتب الازياج. وعندنا ثلاثة يمثلون كتاب النوع الأول وهم: (١) محمد بن موسى الخوارزمي (توفي بعد ٢٣٢/٨٤٧) الذي وضع كتاب (صورة الأرض) بعد وفاة الخليفة المأمون، إلا أنه غلب عليه شكل الزيج. والكتاب في واقع الأمر ترتيب منظم جديد لكتاب بطليموس لكنه أدق منه. وزيج الخوارزمي أي جداوله الفلكية تحتوي على ٥٣٧ موضعاً مبينة أطوالها وعروضها وهي واردة في جداول أربعة: المدن والجبال والجزر والأنهار، وقد رسم الخوارزمي خرطاً فيها أصالة وابتكار، كما يبدو من الخارطة التقريبية التي رسمها للنيل. (٢) يعقوب بن إسحق الكندي الفيلسوف (تو ٢٦٠ / ٨٧٤) وقد وضع (رسم المعمور من الأرض) و (رسالة في البحار والمد والجزر). (٣) سهراب الذي ألّف كتاب الأقاليم السبعة (الذي كتب بين عامي ٢٨٩ و ٣٣٤ / ٩٠٢ و ٩٤٥). وقد أضاف سهراب إلى ما أخذه من بطليموس والخوارزمي مادة مستفادة من مصادر عربية، لعل أكثرها كان تقارير رسمية عن نواح من الدولة الإسلامية، مثل وصف المؤلف لشبكة قنوات بغداد ووصفه لدلتا النيل.

أما المؤلفون الذي عنوا بالنوع الثاني أي الازياج فكثيرون منهم: (١) أبو عبد الله محمد بن جابر البتاني (توفي ٣١٧ / ٩٢٩) صاحب الزيج المعروف باسم (الزيج الصابىء) وهي جداول فلكية، لكن الكتاب يحوي مقدمة وافية في أكثر من ستين فصلاً تعالج مسائل الفلك جمعاء. (٢) أبو الحسن ابن يونس (توفي ٣٩٩ / ١٠٠٩) فلكي البلاط الفاطمي في القاهرة صاحب (الزيج الحاكمي الكبير). (٣) أبو الريحان البيروني (توفي ٤٤٠ / ١٠٤٨) صاحب المؤلفات الكثيرة منها (القانون المسعودي) و (تحديد نهاية الأماكن لتصحيح مسافات المساكن) و (التفهيم لأوائل صناعة التنجيم) و (الآثار الباقية في القرون الخالية)[٢].

وبين أواسط القرن الثالث (التاسع) وأواخر القرن الرابع (العاشر)، ظهر في محيط الجغرافية العربية عدد من الكتب يتصف بالأصالة على العموم مع العلم أن آثار المدرسة اليونانية تظهر في بعض هذه الكتب. والمؤلفون الذين ننوي أن نتحدث عنهم في هذا المثال هم، على ترتيب تاريخ وفياتهم: ابن خرداذبه (توفي حول ٢٧٢ / ٨٨٥) واليعقوبي (توفي حول ٢٨٨ / ٨٩١) وابن رسته (توفي بعد ٢٩٠/ ٩٠٣) وقدامة بن جعفر (توفي بعد ٣١٠ / ٩٢٢) والبلخي (٣٢٢ / ٩٣٤) والجيهاني (كتب قبل ٣١٠ / ٩٢٢) والاصطخري (كتب بين ٣١٨ و ٣٢١ / ٩٣٠ و ٩٣٣) وابن حوقل (توفي في النصف الأول من القرن الرابع (العاشر) والهمداني (توفي ٣٣٤ / ٩٤٥) والمقدسي (توفي بعد ٣٧٨ / ٩٨٨).



□ خريطة قديمة للعراق، رسمها الاصطخري العالم الجغرافي الشهير. (القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد).

ومن الممكن النظر في ما خلفه هؤلاء المؤلفون من خلال مجموعات، فابن خرداذبة واليعقوبي وابن رسته وقدامه هم من طبقة المؤلفين الكتاب الذين كانوا يشغلون وظائف في الدولة. ويمكن أن يضاف الجيهاني إليهم. ويكون البلخي والاصطخري وابن حوقل مجموعة ثانية. وينفرد المقدسي عن هؤلاء بميزات خاصة سنعرض لها فيما بعد. وثمة مؤلف آخر هو الهمداني سنتحدث عنه منفرداً لأنه خص صقعاً واحداً، هو جزيرة العرب، باهتمامه.

ونحن إذا أخذنا المؤلفين الكتّاب (أي المجموعة الأولى) وجدنا أنهم كانوا موظفين في الدولة. فقد كان ابن خرداذبه صاحب البريد في إقليم الجبال من فارس. واليعقوبي كان من موظفي الدولة، وكان جده الأعلى حاكماً لأرمينية كما أنه كان والي مصر. وكان جده ووالده من عمال البريد الكبار. ومعنى هذا أن الرجل نشأ في بيت وظائفي وكان هذا ييسر له الاطلاع على أمور هامة. وكان ابن رسته في خدمة الدولة، وإن لم تصل إلينا أخبار كافية عن طبيعة المنصب الذي شغله. أما قدامة بن جعفر فقد كان يتولى الخراج.

والجيهاني وزر للسامانيين. ومن هنا نرى أن الناحية التي عني بها هؤلاء الكتاب تتصل بحاجات الدولة اتصالاً وثيقاً. فقد تحدث كل منهم، ولو على درجات متفاوتة، عن الطرق وخاصة طرق البريد، أو ارتفاع الخراج في الجزء من البلاد الذي كان يعرفه، أو اهتم بالطرق البحرية والتجار الذين يحملون بضائعهم عبرها ونوع المتاجر التي يحملون.

هذه الكتب الثلاثة: مسالك ابن خرداذبه وأعلاق ابن رسته وخراج قدامة بينها ترابط يكاد

يكون عضوياً في بعض الحالات، فضلاً عن أنها كلها تعتمد وثائق أصلية رسمية. فابن رسته كثير الشبه بابن خرداذبه تقسيماً وتنظيماً، وإن كان قلم ابن رسته أيسر تعبيراً. وكتاب قدامة يمكن اعتباره تتمة لكتاب ابن خرداذبه.

والمجموعة الثانية من مؤلفي الجغرافية العربية في إبان نضجها تشمل: البلخي والاصطخري وابن حوقل. والأولان من فارس والثالث من نصيبين في الجزيرة. والارتباط بين مؤلفات هؤلاء النفر قوي إلى حد أن الباحثين في هذا الموضوع لم يستطيعوا تبين الاتصال تماماً، وإن كانوا قد استطاعوا الاهتداء إلى الخطوط العريضة فيه.

هؤلاء المؤلفون الثلاثة كانوا أهل سفر، وإن اختلفت رقع أسفارهم اختلافاً بيناً. فالبلخي من بلخ وقد قضى ثماني سنوات في بغداد حيث اتصل بالفيلسوف الكندي، وبسبب ذلك انتقل اهتمامه من الشريعة إلى قضايا العلم والفلسفة. وقد حج. ولما عاد إلى بلخ لم يخرج منها فيما بعد. لذلك فإن الذي يعرفه معرفة مباشرة كان قليلاً. ولأن كتابه فقد، فنحن لا ندري على وجه الدقة حتى ما هي الأجزاء التي وضعها. أما الاصطخري فقد زار ما وراء النهر وإيران وجزيرة العرب والشام ومصر. ومن ثم فما كتبه عن هذه البلاد مبني على المشاهدة. أما ما ذكره عن المغرب فهو منقول عن غيره. وكان ابن حوقل أوسع الثلاثة رقعة أسفار. فقد احترف التجارة، وتنقل في شمال إفريقية والأندلس وجنوب إيطالية كما زار إيران وجزء من الهند وكان يعرف الجزيرة والعراق معرفة المواطن. وثمة من الباحثين من يرى أن ابن حوقل كان داعية سياسياً للفاطميين وإلى هذا يعزى هذا التنقل الذي كان يقوم به والأسفارالواسعة التي حملته إلى أبعد الأماكن. وعلى كل فقد دوّن ابن حوقل أخبار مشاهداته.

ويتفق الثلاثة في أنهم اقتصروا في الغالب على بلاد الإسلام أو جزء منها. وباستطاعتنا أن نعرف تماماً ما كتبه كل من الاصطخري وابن حوقل بسبب وجود الكتابين. فالاصطخري فصل الأجزاء الشرقية من العالم الإسلامي وأضاف شيئاً عن المغرب سماعاً. أما ابن حوقل فقد زار المناطق كلها فكانت كتابته عن مشاهدة.

والمقدسي، أو المقدسي البشاري كما يسمى أحياناً، من مواليد مدينة القدس (ويقال إنه ولد في الرملة من أعمال فلسطين سنة ٣٣٥ / ٩٤٦). وكان جده لأبيه أبو بكر من مشاهير البنائين (ويبدو أن أباه كان أيضاً بناءاً) وهو الذي بنى ميناء عكاء لابن طولون حاكم مصر. ولعل هذا هو الذي جعل مؤلفنا يهتم بالبناء والمعمار في بعض ما يصف. كان ولوعاً بالأسفار، ونحن إذا استثنينا الأندلس والسند وسجستان وجدنا أن الرجل زار أصقاع العالم الإسلامي الباقية جميعها. وقد وضع كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) سنة ٣٧٥ في مدينة شيراز وكان له من العمر أربعون عاماً. ولعله عاد إلى الكتاب فنقّحه أو أضاف إليه. فقد وجدت للكتاب نسختان قدمت إحداهما إلى آل سامان وقدمت الثانية (بعد ذلك بثلاث سنوات) إلى الفاطميين في مصر. وبين النسختين اختلاف طفيف.

بعد توضيح الأسس التي بنى كتابه عليها وذكر البحار والأنهار يقدم للقارىء الأماكن المتفقة اسماً والمختلفة صقعاً وينتقل إلى الخصائص في الأقاليم فيجملها. ويشفق على الفقهاء من قراءة كتابه بكامله فيختصر لهم باباً خاصاً هو خلاصة للكتاب. وبعد تعداد الأقاليم الأربعة عشر يأخذ كلاً منها على حدة فيفصل كوره وقصباته ثم يعود فيجمله بشكل عام من حيث اقتصاده وإدارته وصفات أهله وما إلى ذلك.

أما وقد عرضنا لجغرافيي القرن الرابع (العاشر)، فإنه حريّ بنا الآن أن نتناول خرطهم أو صورهم التي زينوا بها كتبهم. ولنذكر أنفسنا قبل كل شيء بأن الجغرافيين العرب الذين كتبوا في الجغرافية الرياضية كانوا يرسمون خرطاً تظهر فيها خطوط الطول والعرض ويقسمون العالم إلى أقاليمه السبعة، وكانوا بطبيعة الحال متأثرين ببطليموس وغيره. أما جغرافيو القرن الرابع (العاشر) فقد كانت لهم خطة تختلف تماماً. وقد ذكرنا قبلاً أن كتاب البلخي ضاع منه كما فقدت أكثر خرطه (أو صوره). ولكن مما حصلنا عليه من خرط (أو صور)



□ جزء من صندوقة المجوهرات، مصنوعة من العاج من العصر الأموي في الأندلس.

الاصطخري وابن حوقل والمقدسي وغيرهم، ومن الأخبار التي نقلت لنا عن مؤلفين آخرين اضطررنا، بسبب الاختصار، إلى عدم التعرض لهم، أصبح باستطاعتنا أن نكوّن فكرة عامة عن رسمهم للخرط الكثيرة.

ونحن إذا أخذنا كتاب المسالك وجدنا أن ما ذكروه عن الأندلس كان مأخوذاً من معرفة سابقة أو عن السماع، ويكاد يقتصر ما نحصل عليه منهم عن تلك الديار على إشارات إلى السكان ومجاري المياه والطرق. ويدلنا هذا على أن الاهتمام عند هؤلاء المؤلفين كان منصباً على مشرق الدولة العربية الإسلامية وما كان يقع في إطار الخلافة العباسية. أما الأندلس فلم تكن موضع اهتمام خاص عندهم.

على أن هذا الأمر يتغير تماماً عندما ننتقل إلى الجغرافيين البلدانيين وبخاصة الاصطخري وابن حوقل والمقدسي من المشارقة. وابن حوقل هو الوحيد، كما ذكرنا، الذي زار الأندلس وكتب نتيجة معرفة مباشرة. وسنتحدث عما تعلمناه عن الأندلس من هؤلاء المؤلفين فيما بعد.

٣ ــ الجغرافيون المغاربة[٣]

والذين نود التحدث عنهم هنا هم ثلاثة أولهم أحمد الرازي (توفي ٣٤٤ / ٩٥٥) والثاني أبو عبيد البكري (توفي ٤٨٧ / ١٠٩٤) في قرطبة والإدريسي (المتوفى سنة ٥٦٠ / ١١٦٥).

يقول حسين مؤنس عن أحمد بن محمد الرازي:

«يعتبر أحمد بن محمد الرازي أبا الجغرافية والتاريخ في الأندلس في آن واحد، فقد أخذ عن أبيه محمد بن الموسى الميل إلى التاريخ والاهتمام بالتأليف فيه، وزاده اهتماماً بهذا الفن شيخه قاسم بن أصبغ البياني، وقد رأينا عنايته بالتاريخ واشتهار أمره به في الأندلس، ورأينا كيف انصرف مع الوليد بن خيزران إلى ترجمة كتاب هروشيش وكيف قاما بها على ذلك النحو الفريد. فإذا ذكرنا أن هذه الترجمة لم تكن إلا جزءاً يسيراً من ذلك النشاط الثقافي الذي زخرت به قرطبة أيام الحكم المستنصر، تصورنا البيئة العلمية الأندلسية في ذلك العصر: بيئة تأليف وترجمة وتجديد وطلب دؤوب للعلم والمعرفة مما جعل قرطبة خلال القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي مركزاً من مراكز القيادة والإشعاع للحضارة في العالم أجمع.

في هذه البيئة المواتية نشأ أحمد بن محمد الرازي، وكان بطبعه مهتماً بأحوال الدنيا وأخبار البشر، فانصرف إلى الجغرافية والتاريخ انصرافاً تاماً أرسى به أسس هذين العلمين في بلاده، فلا تقتصر أهمية عمله في هذا الباب على ما كتبه بنفسه، وهو كثير، بل تشمل الحركة التي قادها والأسس التي وضعها وسار عليها من أتى بعده. وستكون كتبه المعين الذي سيستقي منه كل مؤرخي الأندلس وجغرافييه فيما بعد، والمدرسة التي سيمضي التأليف والجغرافية في الأندلس على أصولها إلى آخر أيام الأندلس الإسلامي».

تناول أحمد بن محمد الرازي الجغرافية على أنها علم متمم للتاريخ، وجغرافيته الباقية بين أيدينا هي في الغالب مقدمة لكتابه (أخبار ملوك الأندلس) لأن القطعة الباقية منها في ترجماتها إلى البرتغالية والإسبانية القديمتين تستطرد بعد وصف الأندلس إلى الكرم عمن ملكه ومن دخله من الشعوب قبل الفتح العربي. ولا شك في أن النقول الجغرافية الكثيرة التي نجدها في نفح الطيب متصلة بقرطبة إنما هي من كتاب أحمد الرازي في صفة قرطبة. أما كتاب (أعيان الموالي بالأندلس) فيغلب أنه كان كتاب تراجم لا يضم مادة جغرافية كثيرة، وإن كنا لا نستبعد أن تكون فيه هذه الاستطرادات الجغرافية المعروفة في كتب التراجم المطولة.

(سلك أحمد الرازي في جغرافية الأندلس طريقاً لا نجد له شبيهاً فيما نعرف من كتب الجغرافية السابقة عليه في المشرق، بدأ بتحديد موقع شبه الجزيرة من الأقاليم دون إسراف في ذلك، فاكتفى بالقول بأنه في الإقليم الرابع، في حين أننا سنجد علي بن سعيد فيما بعد يجعل بعض الأندلس في الإقليم الرابع وبعضه في الخامس، ويجعل له حظاً في السادس أيضاً. ثم تحدث الرازي بعد ذلك عن هيأة شبه الجزيرة، فقال إنها هيئة مركنة ذات ثلاثة أركان (أي مثلثة)[٤].

□ جدول فلكي

وقد فقد كتاب الرازي عن الأندلس. ولكن لدينا ترجمتان عنه، واحدة برتغالية صنعها جل بريس (Gil Perez) بأمر من ملك البرتغال دنيس (١٢٧٩ ــ ١٣٢٥) والأخرى إسبانية. وقد حاول ليفي بروفنسال أن ينبش جغرافية الرازي من أولئك الذين نقلوا عنه من جغرافي العرب مثل البكري والإدريسي وياقوت والحميري وغيرهم، ونشر ترجمة فرنسية لهذا الذي جمعه(٥).

والجغرافي التالي هو أبو عبيد الله البكري وهو أندلسي المولد والنشأة. ولد في ولبة في أوائل القرن الخامس (الحادي عشر) وانتقل مع أبيه إلى قرطبة وهو في مطلع شبابه ثم انتقل إلى المرية ثم إلى إشبيلية حيث قضى نحبه (٤٨٧ / ١٠٩٤). وللبكري مشاركات في اللغة والأدب وما إلى ذلك على نحو ما كان عليه أهل العلم في العصور الخوالي. كما أن له كتاباً في النبات. اما البكري الجغرافي فمعروف بكتابين: (معجم ما استعجم) و (المسالك والممالك).

و (معجم ما استعجم) هو أول معجم جغرافي في تاريخ التأليف الجغرافي عند العرب. فالدكتور حسين مؤنس، الذي درس تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس يقول عنه: (فإن التأليف في ذلك الفن (الجغرافية) اقتصر حتى الآن على البلدان والمسالك والممالك. أما أن يفكر عالم في وضع معجم أبجدي لأسماء المواضع فهو حدث يعين ميلاد نوع جديد من التأليف الجغرافي عند العرب، نوع سيتطور ويزهو حتى يصل إلى ذروته في معجم ياقوت المعروف.

وقد عرفنا المؤلف بكتابه بقوله (هذا كتاب معجم ما استعجم ذكرت فيه ــ إن شاء الله ــ جملة ما ورد في الحديث واخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار،

منسوبة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة ـ فلما رأيت ذلك قد استعجم على الناس، أردت أن أفصح عنه، بأن أذكر كل موضع مبين البناء، معجم الحروف حتى لا يدرك فيه لبس أو تحريف).

وللبكري كتاب آخر في الجغرافية هو (المسالك والممالك). والكتاب لم ينشر كاملاً بعد، بل لم تجمع كل مادته في مكان واحد، ولذلك فالحديث عنه يظل ناقصاً. وقد أفرط المؤلف في المقدمات التي لا علاقة لها بالجغرافية ثم انتقل إلى مقدمة عامة لخص فيها المعرفة الجغرافية إلى عصره. وبسبب دقته وصفاء أسلوبه ومقدرته على التنظيم فإنه وضع بين أيدي قرائه صورة واضحة للمعرفة الجغرافية إلى أيامه. وفصله عن الأنهار قيم. فلما انتهى من المقدمات أخذ المماليك بالترتيب بادئاً من الهند. فهو يصف المملكة، أي القطر، عامة ثم ينتقل إلى مسالكها. وحديثه عن هذه الأقطار مفصل إذ يورد بعض التاريخ وخصائص أهلها وعاداتهم. ولا يقتصر البكري على ديار الإسلام، شأن جغرافيي القرن الرابع (العاشر)، بل يتناول أقطار أوروبية بالوصف الدقيق. ويجب أن نذكر أن البكري، مثل عدد من مؤلفي كتب المالك والمسالك، تختلف معالجته للأقطار بنسبة ما يحصل عليه من معلومات ومصادر. فيطيل حيث يقع على التفاصيل، ويختصر في غير ذلك، ولكنه دقيق في تخيّره المعلومات وتنظيمها في كل حال.

إلا أن ما وضعه البكري عن الأندلس مفقود إلا أجزاء صغيرة لا تسمن ولا تغني من جوع، ولذلك فنحن إذن لا نفيد عن الأندلس كما كنا نحب من جغرافي له مثل البكري من حيث تصوره للواقع وتقصيه للحقائق وتفصيله للمسائل.

ولننتقل الآن إلى المؤلف الذي يعتبر الكثيرون عمله ذروة التأليف الجغرافي عند العرب وهو الشريف الإدريسي (توفي ٥٦٠ / ١١٦٥ أو قبل ذلك بقليل). ومع أن الإدريسي شغل الباحثين طويلاً ولا يزال يشغلهم، فإن معرفتنا به لا تزال محدودة. ونحن نحيل القارىء الذي يريد أن يتعرف إلى القضايا المختلفة المتعلقة بحياته وكتابه إلى الفصل الطويل الممتع الذي كتبه الدكتور حسين مؤنس في كتابه (تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس) المنشور في مدريد سنة ١٣٨٦ (١٩٦٧) ص١٦٥ ـ ٢٨٠ فهو أحدث ما كتب في الموضوع ومن أفضل ما وضع فيه.

ولد الشريف الإدريسي في سبتة بالمغرب سنة ٤٩٣ (١١٠٠). وفي شبابه خرج من تلك البلاد سائحاً متجولاً في المشرق وقد زار مصر وآسية الصغرى، وليس ما يدل على أنه زار ديار الشام مثلاً. ومن الواضح أن الإدريسي أقام وقتاً طويلاً بقرطبة وتلقى العلم بها، ومن الواضح أن هذا جاء بعد رحلته إلى المشرق. ويرى البعض أنه زار لشبونة وسواحل فرنسا. بل لعله وصل انكلترا. والمهم أن الشريف الإدريسي وفد على صقلية سنة ٥٣٣ (١١٣٩) ونزل في ضيافة ملكها روجار الثاني في بلرمو. وهناك وضع كتابه نزهة المشتاق.

والباحثون على أن الإدريسي اطّلع على ما كتبه الجغرافيون العرب من قبل سواء في ذلك ما نقلوه عن بطليموس أو ما وضعوه مستقلين منفردين. وقد درس حسين مؤنس مصادر الإدريسي ومنهجه في العمل فخلص من ذلك إلى أن الرجل:

«بعد أن قرأ ما قرأ من كتب الجغرافية والفلك، وبعد أن ساح في البلاد على قدر ما استطاع، بدأ يرتسم في ذهنه تصور جديد لجغرافية الأرض ومنهج جديد بكتابتها، تصور يختلف تمام الاختلاف عما سبقه إلى ذلك الحين: تصور عام يشمل الأرض كلها على أنها كل واحد ما فيه جدير بالوصف والتحقيق، فلا يقتصر التحقيق على حوض البحر الأبيض كما عند بطليموس أو على عالم الإسلام كما عند معظم جغرافيي العرب إلى ذلك الحين، تصور جغرافي خالص لا يختلط بالتاريخ هذا الاختلاط الذي جعل الكثير من كتب الجغرافية كتب تاريخ أيضاً كما نجد عند أبي عبيد البكري، ولا يخلط بين الحقيقة والأسطورة كما نجد عند الهمداني. تصور جغرافي علمي خالص. وبناء على هذا التصور رسم منهجه: منهج مشاهدة وقياس ومقارنة وربط بين الأجزاء بعضها ببعض ومراعاة النسب بينها، وعمل صورة كاملة للأرض ثم كتابة وصف كامل لهذه الصورة يشمل وصف

هيئتها العامة وتقسيمها بعد ذلك إلى مناطق يستقصى الكلام عنها في تفصيل ويجمع عنها كل ما تيسر له من المعلومات، فما شهده بنفسه أثبته كما رآه، وما لم يشهده سأل عنه أهله ومن رحلوا إليه وساروا في طرقه أو أبحروا في أمواجه أو اشتغلوا بالتجارة فيه. ويستكمل ذلك بما عسى أن يجده في كتب الجغرافية التي تتيسر له.

وليس معنى هذا أن الإدريسي فكر في هذه العناصر كلها وهو يرسم منهجه الجغرافي، فإن تصور الجغرافية على هذا النحو لم يولد إلا بعد عصره بقرون، ولكنه على أي حال فكر في منهج جديد أو بتعبير أدق: سار في طريق جديد، هو الطريق الذي وصل بالجغرافية إلى ما هي عليه اليوم، وتطلب منه السير في ذلك الطريق عناصر لم يجدها فيما بين يديه من الكتب، لا مصورات عامة أو جزئية دقيقة ولا قياسات يمكن التعويل عليها، ولا أوصاف للنواحي يمكن الاعتماد عليها، ولا تفاصيل موثوق فيها كل الثقة عن أجناس البشر ومصادر ثروتهم وميادين نشاطهم وإنتاجهم. وكان عليه أن يبدأ هو بذلك، فقرر أولاً أن يرسم صورة شاملة للأرض حتى يسير على خطة واضحة في عمله، ثم قسم هذه الخريطة إلى أقسام صغيرة، ومضى يبحث المعلومات الموجودة عن كل قسم ويحققها بسؤال من يعرفونها ومقارنة أقوال بعضهم ببعض واستخراج شيء يمكنه الاطمئنان إليه من ذلك كله»[٦].

●

الهوامش

(١) راجع: شوقي ضيف **ابن زيدون** (بيروت، ١٩٥٣)، كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة **ديوان ابن زيدون** (القاهرة، ١٣٥١/١٩٣٢). علي عبد العظيم **ابن زيدون** (القاهرة، ١٩٥٥، EI 2 مادة ابن زيدون.

(٢) راجع: اغناطيوس كراتشوفسكي **تاريخ الأدب الجغرافي العربي** القسم الأول (القاهرة، ١٩٦١؟) في الفصلين ٢ و ٣. ومادة Djughafiya في E I.

(٣) لن نتحدث عن جميع الجغرافيين المغاربة أو الأندلسيين، ولكننا سنقتصر على البعض. ومن شاء الاطّلاع على دراسة وافية مستفيضة فعليه بكتاب حسين مؤنس **تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس** (مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد ١٣٨٦/١٩٦٧).

(٤) حسين مؤنس ص ٥٦ و ٥٩ ــ ٦٠.

(٥) El Levi-Provençal «La Description de l'Espagne de Razi» in **Al-Andalus** Vol. XVIII (1953), pp. 51-108.

(٦) حسين مؤنس ص ٢٠٢ ــ ٢٠٤.

● إن طريق الاستقلال يجب أن تغسله الدماء.

«غاندي»

● إضاعة الفرصةُ غصة.

«الإمام علي»

● إذا كنت قد نبذت كل أسباب الرفاهية، وإذا كنت قد أبعدت عني جميع أقاربي وأصدقائي، وإذا كنت أعيش عيشة الفاقة، فذلك لأنني أعتقد أن رئاسة الشعوب ليست تجارة ومنصباً، بل خدمة وتضحية.

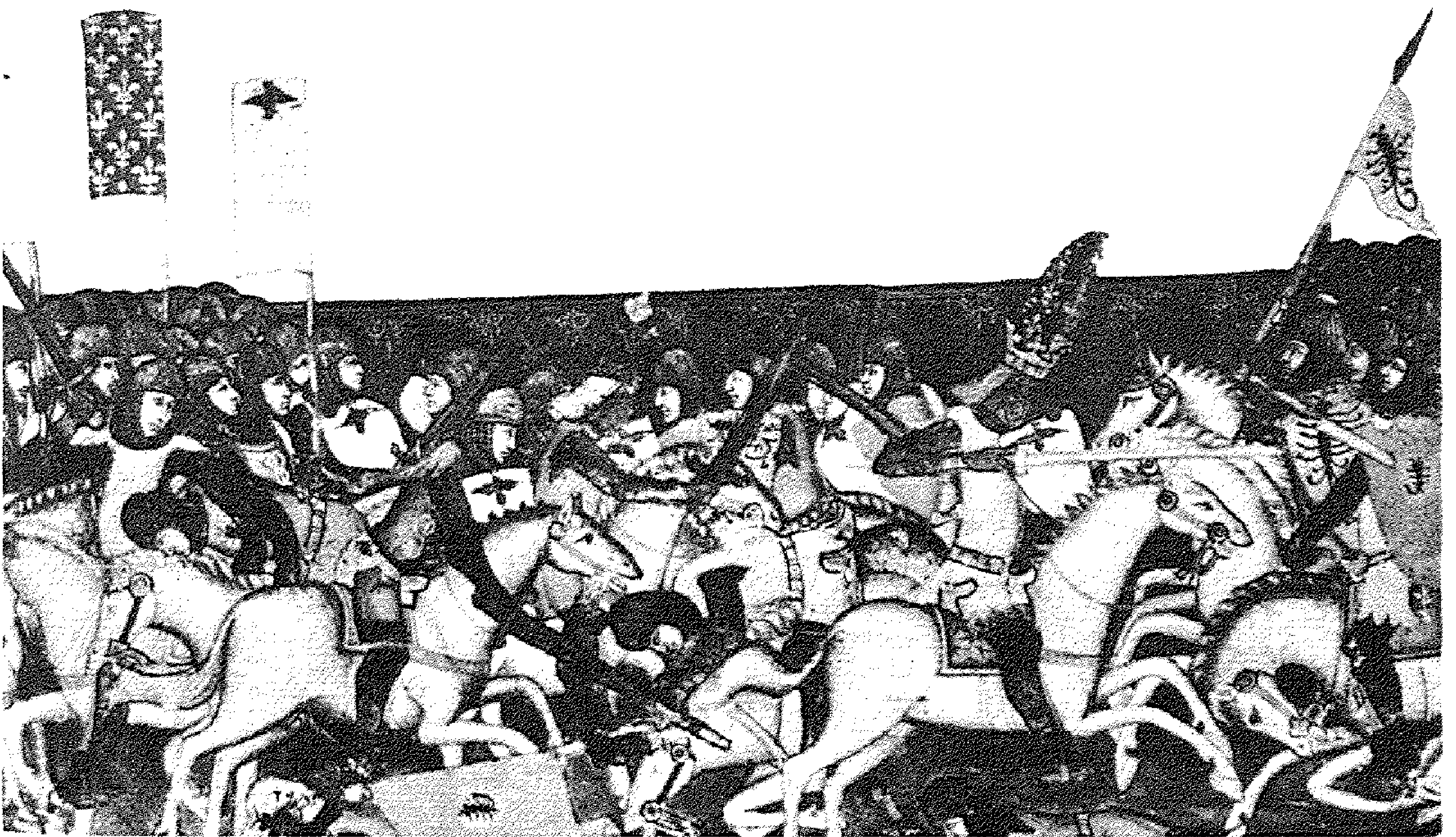
«الدكتور سوكارنو»
رئيس الجمهورية الأندونيسية

أرناط .. الفارس اللص

نشأته، حياته، غزواته، ودوره في تهيئة الظروف لمعركة حطين

د. برهان العابد

"الجزء الثاني"



١٢ ــ تاريخ العرب والعالم



ففي صيف عام ١١٨١ وأثناء فترة السلام بين صلاح الدين والإفرنج ودون سابق إنذار توجه أرناط على رأس قوة من الخيالة والمشاة إلى تيماء في قلب الجزيرة العربية وهي واحة ومركز تجاري على الحدود بين الحجاز ونجد في منتصف الطريق بين الأردن والمدينة المنورة، حيث حاول كعادته نهب المنطقة ويقول ابن الأثير: «وعزم على السير إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة(٢١) وعندما وصل خبر هذه الغزوة إلى مسامع فرخشاه نائب صلاح الدين في دمشق قام بالهجوم على أراضي إمارة شرقي الأردن وأجبر أرناط على العودة والعدول عن مشروعه إلا أنه صادف وهو في طريق العودة قافلة للحجاج في طريقها إلى مكة فنهبها واعتدى عليها وعندما وصل خبر هذا الاعتداء إلى بيت المقدس أصيب الملك بودوان وحاشيته بالوجوم والذهول لأن المملكة كانت بحالة هدنة مع المسلمين وهي بأشد الحاجة إلى السلام في تلك الظروف الصعبة لذلك فقد وجه الملك إلى أرناط لوماً شديداً وطلب منه إعادة المنهوبات إلى أصحابها وإطلاق سراح الأسرى بناء على طلب السلطان ولكن أرناط لم يأبه لكلام سيده مما حدا بالملك إلى إرسال لجنة وساطة مؤلفة من الداوية والاستبارية وبعض رجال الكنيسة لمحاولة إقناعه باحترام الهدنة وإعادة ما سلبه من قافلة الحجاج ولكن أرناط لم يتراجع عن موقفه قيد أنملة، بل زاد على ذلك بأن طلب إلى اللجنة عدم التدخل بأموره مرة أخرى مما حمل الملك على الاعتراف لصلاح الدين بعجزه تجاه أرناط(٢٣).

إن هذه الحادثة إضافة لنتائجها تعد دليلاً واضحاً على تمرد بارونات المملكة الصليبية وانفراط عقد الوحدة التي بدت بوادرها حتى قبل وفاة الملك عموري بتمرد الداوية واستقلالهم بسياستهم الداخلية وهكذا فقد وضحت مقدمات انهيار المؤسسة الملكية المتربصة على عرش بيت المقدس ويؤكد رونه غروسه هذه الحقيقة بقوله: إن من يتعمق في دراسة هذه الأمور يرى أن لصوصية عام ١١٨١ تنذر بنهاية سلطة الملك قبل أن تجر بنتائجها إلى سقوط المملكة الوشيك.

لقد كان ارتكاس المسلمين لنقض الهدنة من قبل أحد أمراء المملكة الصليبية سريعاً وعنيفاً فقد ألقي القبض على ألف وخمسمائة من الحجاج الصليبيين الذين دفعت بهم عاصفة بحرية إلى شواطىء دمياط وأراد صلاح الدين استبدالهم بأسرى قافلة الحجاز كمحاولة أخيرة لإعادة السلام بين المسلمين والإفرنج فلم يفلح لأن المشكلة لا تتعلق بالملك بودوان الرابع الذي ظهر عجزه للملأ ولكن بأمير الكرك الذي أصر على عناده السابق ورفض أي حل سلمي. عندها قرر صلاح الدين التوجه إلى الشام فترك مصر في أيار ١١٨٢ وسار إلى أيله على خليج العقبة وهناك علم بأن الصليبيين يحشدون جموعهم في الكرك ويخططون لقطع الطريق عليه ومنعه من الوصول إلى دمشق. فقد دعا الملك بودوان مجلس الحرب وعكف على وضع الخطط لمواجهة السلطان فأشار عليه أصدقاء ارناط بالانتقال مع جيشه إلى الكرك واعترض ريمون الثالث أمير طرابلس وحذر من تفريغ فلسطين من المحاربين ولكن رأي جماعة ارناط انتصر وتحرك جيش المملكة لحماية الأمير الأهوج.

وبالرغم من حشد جميع قوى المملكة لم ينجح الصليبيون في قطع الطريق على صلاح الدين وبالعكس فقد تحداهم وذهب هو لملاقاتهم إذ بعد أن أرسل الأحمال والمرضى مع أخيه شمس الملوك بوري ذهب على رأس فرسانه وخرب محاصيل الأراضي القريبة من الكرك والشوبك وقطع أشجارها وأحرق مزروعاتها دون أن يتقدم لملاقاته أحد من الجموع التي أتت لتمنعه من المرور(٢٤). وفي نفس الوقت حصل ما تنبأ به ريمون الثالث إذ أن الأمير فرخشاه نائب صلاح الدين بدمشق استفاد من هذه الفرصة وقام باجتياح الجليل مما سبب صدمة قوية لسكان منطقة الناصرة لأنهم كانوا يجهلون نقض الهدنة لذلك لم يتمكنوا من الهرب والالتجاء إلى الجبال والمغارات. وبعد نهب الجليل قطع فرخشاه نهر الأردن وانتقل إلى منطقة السواد التابعة لإمارة طبريه واستولى على حصن حبس جالدك بالرغم من مناعته والدفاع عنه من قبل حامية كبيرة ويقول المؤرخ ويليم الصوري بأن الفرسان

والجنود من المسيحيين السوريين رفضوا الدفاع عن الحصن واستسلموا للمسلمين وبعد الاستسلام انضموا إلى الجيش المهاجم وحاربوا في صفوفه[٢٥] ثم عاد فرخشاه إلى دمشق محملاً بالغنائم والأسلاب وفي ركابه ألف أسير وعشرون ألف رأس من الغنم[٢٦].

لقد أدرك الصليبيون الخطأ الكبير الذي ارتكبوه في عدم استماعهم لنصيحة ريمون الثالث فقد أصيبوا بنكستين إذ لم يتمكنوا من قطع الطريق على السلطان وانهزموا في الجليل وفي السواد ودفعوا ثمناً باهظاً لدعمهم الأمير اللص.

لم يكد صلاح الدين يستريح من رحلته حتى استأنف جهاده ضد الصليبيين. ويقول ابن الأثير في ذلك: لما وصل صلاح الدين إلى دمشق أقام أياماً يريح ويستريح هو وجنده ثم سار إلى بلاد الإفرنج في ربيع الأول فقصد طبريه فنزل بالقرب منها وخيّم في الأقحوانة في الأردن وجاءت الإفرنج بجموعها فنزلت على طبرية فسير صلاح الدين ابن أخيه فرخشاه إلى بيسان فدخلها قهراً وغنم ما فيها وقتل وجحف الغور غارة شعواء إلى أن يقول فلما رأى صلاح الدين ما قد أثخن فيهم وفي بلادهم عاد عنهم إلى دمشق[٢٧].

بين عام ١١٨٢ ــ ١١٨٤ قام صلاح الدين بمهاجمة إمارة الكرك بشكل شبه دائم وذلك لتحطيم شبكة الحصون القوية التي كانت تعترض مرور قوافل الحجاج والتجار وتقف مانعاً دون التنسيق بين الجيوش الأيوبية في مصر والشام كما قام جنود السلطان في نفس الوقت بالإغارة على الجليل لجر الفرنجة إلى الحرب على جبهتين وهو أمر كانوا يتحاشونه نظراً لقلة مواردهم البشرية وقد رأينا استثمار صلاح الدين لنقطة الضعف هذه عندما كان يرسل ابن أخيه فرخشاه للإغارة على الجليل بينما يكون هو في الكرك والشوبك وفي أكثر تلك الحملات كان جيش بيت المقدس يخف لمساعدة إمارة الكرك ويترك أراضي المملكة خالية من المدافعين وعرضه لغارات قوات صلاح الدين لما علم ارناط بسير صلاح الدين في نهاية عام ١١٨٢ نحو الشمال لتصفية حساباته مع البيت الزنكي قام بتحقيق خطة جهنمية تهدف للسيطرة على البحر الأحمر ومهاجمة مكة والمدينة وقطع طريق الحج في البر والبحر وضرب الإسلام في عقر داره ومن ثم الاستيلاء على عدن في الجنوب وإغلاق البحر الأحمر واحتكار الصليبيين لتجارة المحيط الهندي وربما كانت هذه الخطة الشيطانية ممكنة في عهود ملوك بيت المقدس الكبار، وعندما كانت كلمة الإسلام لا يجمعها أمير ولا سلطان ولكنها غدت مستحيلة في زمن أطبق فيه صلاح الدين فكي الكماشة المصرية السورية على المملكة الهزيلة التي يتنازع السلطة فيها ملك يحتضر وأمراء متنابذون وكنيسة برأسها بطرك يجري لاهثاً وراء ملذاته وشهواته. ولتنفيذ خطته قام رونو ببناء أسطول من السفن الخفيفة في عسقلان وربما في الكرك ذاتها ونقلها بواسطة البدو على ظهور الجمال إلى أيلة حيث جمّعها وانزلها إلى الماء وأطلق لربانها العنان في مهاجمة الشواطىء المصرية ونهب موانئها والاستيلاء على السفن الإسلامية الموجودة فيها مستفيداً من عنصر المفاجأة إذ لم تكن هذه المرافىء الصغيرة تتصور وجود أسطول فرنجي في مياهها وكانت عيذاب أول مدينة ساحلية أصابها الغزو ونهبت مستودعاتها الممتلئة بالمؤن والأغذية المعدة لتموين مكة والمدينة وهوجمت قافلة كانت عائدة من البلاد المقدسة.

ثم انتقل القراصنة إلى السواحل الحجازية حيث توغلوا وتابعوا مسيرتهم حتى وصلوا إلى مسافة مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة على حد قول المقريزي[٢٨] ويذكر صاحب الروضتين بأنهم وصلوا أيضاً إلى مناطق ينبع ورابغ وهاجموا القوافل في تلك الأصقاع ونهبوها وقد تعاون البدو مع رجال ارناط وكانوا أدلاء في سيرهم نحو المدن المقدسة[٢٩].

لقد كانت سياسة العقلاء من ملوك بيت المقدس استغلال انقسامات العالم الإسلامي ومراقبة الانشقاقات في صفوف حكامه ومحاولة التدخل في أمور المنطقة كعنصر توازن بين مختلف الإمارات المتنازعة ففي ظروف كثيرة سار ملك بيت المقدس على رأس جيشه للدفاع عن حاكم مسلم ضد جار له من أبناء دينه وأقرب مثال على ذلك أتابكة حلب والموصل الذين طلبوا معونة الفرنج ضد صلاح الدين[٣٠] ولكن تهديد

ارتباط للأماكن المقدسة وحملته الدنسة أظهرت هؤلاء الفرنجة الذين كانوا مقبولين من بعض المسلمين كأعداء ألداء لجميع المسلمين كما أثارت نقمة العالم الإسلامي برمته وجمعت كلمته وبعثت فيه نفس الشعور بالخطر الذي شعر به عام ١٠٩٩ عند سقوط بيت المقدس بيد غود فروا دو بويون. إن هذه الضربة المفاجئة أحدثت صحوة عامة وإحساساً بدنو الخطر لا في بلاد الشام فحسب بل في العالم الإسلامي قاطبة فقام الملك العادل حاكم مصر ونائب صلاح الدين فيها بتجهيز أسطول على وجه السرعة بقيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ الذي انطلق بادىء ذي بدء إلى أيله حيث أغرق السفينة التي كانت تحاصر الميناء وأسر من كان فيها وبعد ذلك جد في البحث عن الأسطول الفرنجي حتى ظفر به على الشواطىء الحجازية فاستولى على قسم منه وأغرق القسم الآخر وقتل وأسر رجاله وفرّ الباقون إلى الجبال فتتبّع أثرهم حتى قبض عليهم جميعاً فأرسل البعض إلى مكة أثناء موسم الحج حيث أخذوا إلى منى وذبحوا كما تذبح الضحايا[٣١] وأرسل من بقي منهم إلى القاهرة لتنفيذ أمر السلطان بقطع رؤوسهم بحيث لا يعود منهم مخبر يدل الكفار على عورات المسلمين كما يقول صاحب الروضتين على لسان صلاح الدين[٣٢].

لقد كان انفعال المسلمين لمحاولة الاستيلاء على الأماكن المقدسة انفعالاً هائلاً وكذلك كان رد الفعل بالنسبة لقطع طريق تجارة المحيط الهندي. إن قرصنة رونو دو شاتيون في البحر الأحمر جعلت من هذا الفارس اللص العدو الشخصي لصلاح الدين فقد استحكم الحقد بينهما لدرجة جعلت من السنوات الأخيرة لمملكة بيت المقدس مبارزة مستمرة بين الاثنين ويقول ابن شداد: أن السلطان خرج مراراً نحو الكرك سنة ٥٧٩[٣٣] لأنه كان يشعر بأن حصونها تشكل خطراً دائماً يهدد القوافل التي تروح وتجيء بين مصر والشام لذلك زحف صلاح الدين بجيشه من الشام في نهاية عام ١١٨٣ كما أتى أخوه الملك العادل على رأس جيش مصر للمساعدة في محاصرة الكرك[٣٤] وإنهاء الوجود الإفرنجي في طريق القوافل التي



□ صلاح الدين الأيوبي.

تربط بين مختلف أجزاء دولة صلاح الدين.

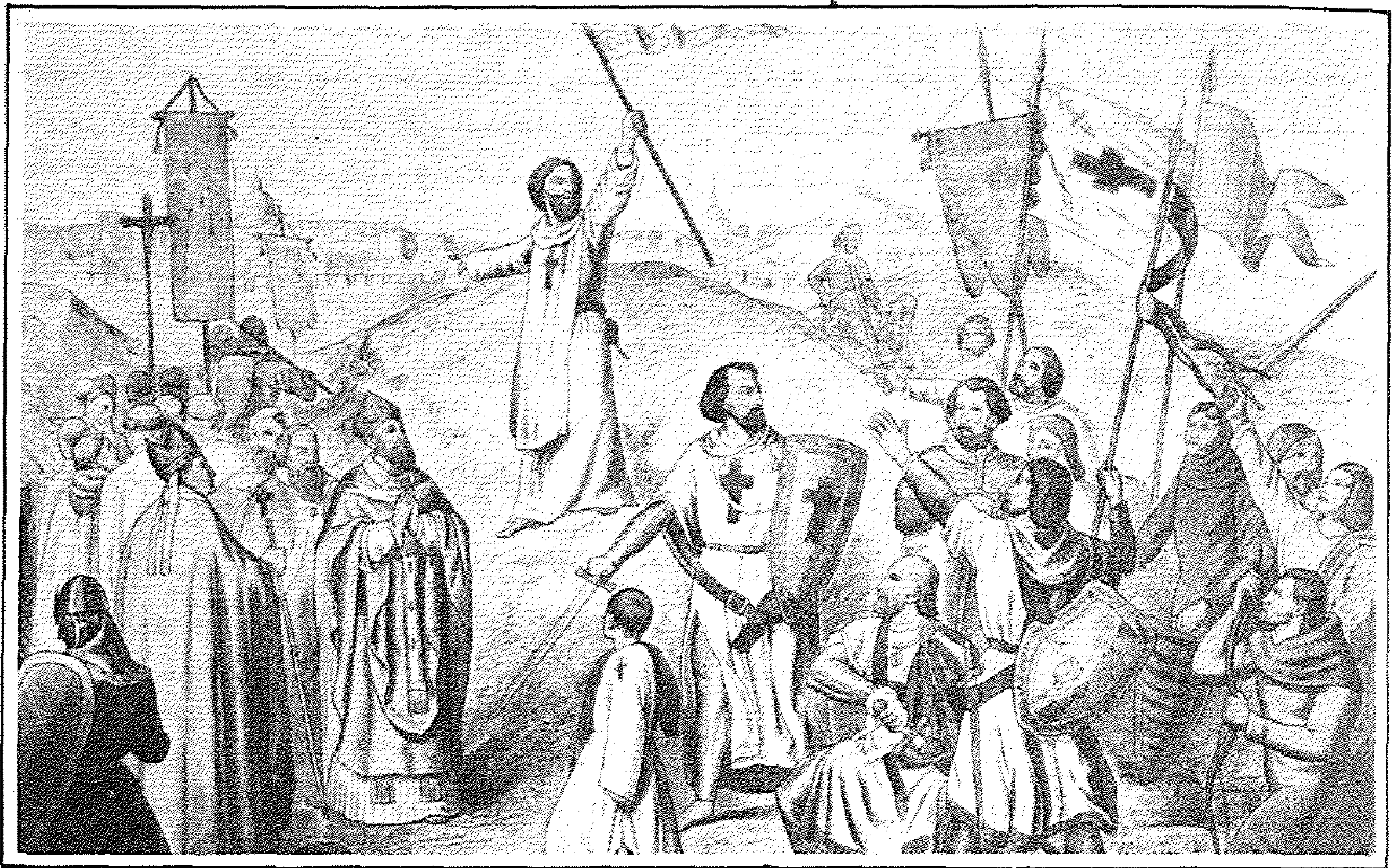
ومرة أخرى هرع الملك على رأس جيش بيت المقدس لرفع الحصار عن أمير من أمرائه المتهورين الأمر الذي حمل السلطان على فك الحصار والعودة إلى دمشق ولكن فكرة إزالة هذه الإمارة الصليبية من طريق القوافل بين دمشق والقاهرة ودمشق ومكة ظلت الهاجس الوحيد لصلاح الدين. فقد صمم على التخلص من خطرها مهما كان الثمن لذلك فقد عاد في صيف عام ١١٨٤ مرة أخرى لحصارها ولحق به ابن أخته تقي الدين عمر مع الجيش المصري[٣٥] كما انضم إليهما أمير ديار بكر نور الدين بن قره ارسلان. وأيضاً في هذه المرة جاء ملك بيت المقدس لرفع الحصار عن الكرك والشوبك وقد حاول صلاح الدين الاشتباك مع القوات الصليبية ولكنها تهربت من المعركة واكتفت بتموين المحاصرين وهي خطة حكيمة فرضها صاحب طرابلس ريمون الثالث وقد نجحت في إبعاد صلاح الدين وجعله يختار منطقة نابلس

وجنين الخالية من المدافعين مسرحا لعملياته.

إن مبادرة الملك المتكررة لمساعدة أمير الكرك اقنعت السلطان في أن التخلص من الوجـود الصليبـي ككـل هو الوسيلة الوحيـدة لتأمـين استقرار وتماسك الدولة الصلاحية لذلك فقد غير خطته واخذ في شن الهجمات المتتالية على اراضي المملكة بحيث لا يدع لها فرصة للراحة مستفيداً من الفوضى وتفرق كلمة البارونات السوريـين بالنسبة للوصاية ولانتخاب ملك جديد بعد وفاة الطفـل بودوان الخـامس وممـا زاد في رغبـة صلاح الدين في التعجيل بالقضاء على الوجود الفرنجي في بلاد الشام ما لاحظه من ضعف الملك غي دولوسينيان وعدم قدرته على فرض هيبته على بارونات مملكته.

بعد قرصنة البحر الأحمر حصل ارناط على هـدنة منفـردة بينه وبـين السلطان يؤكـدهـا ابن الأثير ويذكر الأسباب التي حملته على طلبها إذ يقول: «كان البرنس ارناط صاحب الكرك من أعـظم الفـرنـج وأخبثهم وأشـدهـم عـداوة للمسـلمين وأعظمهم ضـرراً عليهم فلما رأى صلاح الدين ذلك قصده بالحصر مرة بعد مرة وبالغارة على بلاده كرة بعد أخرى فذل وخضـع وطلب الصلـح من صلاح الدين فأجابه إلى ذلك وهادنه وتحالفا»(٣٦). وترددت القوافل من الشام إلى مصر ومن مصر إلى الشام. فلما كانت هذه السنة (نهاية ١١٨٦ وأوائل ١١٨٧) اجتـازت قافلة عظيمة غزيرة الأموال كثيرة الرجال ومعها جماعة صالحة من الجند فغدر بهم وأخذهم عن آخرهم وغنم اموالهم ودوابهم وسلاحهم وأودع السـجـون من اسر مـنهـم. فـأرسـل إليـه صلاح الدين يلومه ويقبـح فعله وغدره ويتوعده إن لم يطلق الأسرى والأموال. فلم يجب إلى ذلك واصر على الامتناع فنذر صلاح الدين نذراً أن يقتله إن ظفر به(٣٧).

وبالرغم من أن الاعتداء على هذه القافلة يعد نقضاً للهدنـة وإعلانـاً للحرب فـإن السلطان لم يلجأ لمهاجمة الكرك كما كان يفعل في الماضي بل اكتفى بالتهديد والوعيد تارة والتفاوض تـارة أخرى. ولما لم يجد الاتصال المباشر مع رونو طلب صـلاح الدين إلى الملك غي دولوسينيان التدخل باعتباره أعلى سلطة وأرفعها في المملكة الفرنجية. وحاول ملك بيت المقدس إقناع رونو بإعادة الأسلاب وتسليم الأسرى ولكنه رفض وأرسل يقول لسيده: إنني مستقل في أرضي كما أنت مستقل في أرضك(٤٨). هذا ولم يسبق أن تجرأ أحد البارونات في جميـع عهود ملوك بيت المقدس من بودوان الأول حتى عمـوري على تحدي الملك والرد عليه بمثل هذه الوقاحة. وتدل هذه الثورة العلنية لأمير الكرك على زوال السلطة الملكية من الأيدي الضعيفـة لغي دولوسينيان الذي يدين بعرشه إلى مساعده رونـو دو شاتيون وحمايته لذلك فهو مجبر على تحمل غطرسته في الداخل وقبول الانزلاق نحو حرب لا مفر منها في الخارج في وقت كان فيه أكبر بارونات المملكة يقاطعون الملك. فريمون صاحب طرابلس يحمل لواء سياسة المهادنة مع السلطان وعميد عائلة ابيلان بودوان صاحب الرملة ترك إمارته وذهب ليعيش لاجئـاً في إنطاكيـة وبـوهيمـون الثالث يسعى للحصول على هدنة مع صلاح الدين بعد أن أصبحت حلب من أملاك السلطان. في هذا الوقت بالذات اختار رونو دو شاتيـون تحدّي صلاح الدين بعمل لصوصي يهدد باندلاع الحرب ما حمل مؤرخ إيراكل على القول: إن أخذ هذه القافلة كان سبب ضياع مملكة بيت المقدس. لقد لعب رونو دو شاتيون دوراً آخر هيأ الظروف لهزيمة حطين وخروج الصليبيين من بيت المقدس الا وهو إضعافه للسلطة الملكية بتمرده الدائـم عليها فبعد إغارته على الحجاج أثناء عودته من حملة تيماء رفض الامتثال لأوامر الملك بودوان الرابـع عنـدما طلب إليـه إعـادة المنهـوبـات التي استولى عليها وإطلاق سراح الأسرى المسلمين بنـاء عـلى طلب السلطان نـاسيـاً بـأن الملك هو الذي زوجه وريثة إمارة الكرك ونصبه أميراً على شرق الأردن. كما تمرد مرة أخرى عـلى سلطة غي دو لوسينيان بعد هدنة ١١٨٥ وغذى الانقسام الذي حصل بالمجتمـع الصليبـي وأدى إلى صراع بين الفرنسيين المولودين في فرنسا والفرنسيين المولودين في سورية. وشكل الحزب الذي يتألف منه ومن جيرار دو ريدفور الأستاذ الأكبر للداوية وبـطرك بيت المقدس المعـروف بانغماسه بالحياة الدنيوية وعلاقتـه المشبوهـة بالملكة الأم إينيس دو كورتني. وكلهم معروفون



□ بوادر الحملة الصليبية الأولى، عند وصولها إلى مشارف «القدس».

بانسياقهم وراء مصالحهم الشخصية وبمحاربتهم للجناح المعتدل الذي يضم ريمون الثالث صاحب طرابلس حليف السلطان وبودوان صاحب الرملة عميد عائلة إيبلان وغيرهم من البارونات السوريين الذين حضروا اجتماع نابلس وحاولوا تنفيذ وصية الملك بودوان الرابع قبل وفاته وإنقاذ المملكة من المؤامرة التي كانت تهدف لتنصيب ملك تافه ضعيف يأتمر بأمر الحزب الذي يتزعمه رونو دو شاتيون المعروف بتهوره وبمغامراته التي جرّت المصائب على الصليبيين في الشرق.

في أوائل عام ١١٧٨ نفض صلاح الدين يده من أي أمل في بقاء الطريق آمنة وسالكة بين دمشق والقاهرة ومكة لذلك فقد عاد إلى دمشق وأخذ في ارسال الكتب والوفود والدعاة إلى كل أمرائه في مصر والعراق والجزيرة وعواصم الشام يدعوهم للاستعداد للجهاد. فاستجاب الجميع استجابة منقطعة النظير إذ توالى وصول الجيوش المصرية والشرقية والحلبية والديار بكرية حتى تجمع تحت أمرة السلطان من القوات ما لم يتجمع مثلها في أي وقت من الأوقات لأن الجهاد كان مطلباً من مطالب العالم الإسلامي الذي شعر بدنو الخطر الفرنجي بعد قرصنة البحر الأحمر والذي كان يلاحق سير الاستعداد لمعركة الجهاد ويطلب من صلاح الدين أن يثبت عملياً بأنه حامي أرض المسلمين والمدافع عن البيت العتيق.

لذلك فقد غادر دمشق في ٣ آذار عام ١١٨٧، وسار إلى مكان التجمع التقليدي وهو رأس الماء حيث ترك ابنه الملك الأفضل وأوكل إليه مهمة استقبال القوات الكردية والتركية والعربية التي كانت تصل تباعاً. أما هو فقد سار إلى بصرى جريدة والسبب في ذلك ما ورده من أخبار تدل على أن البرنس ارناط يستعد للاعتداء على قافلة الحج وقطع الطريق على المعسكر المصري وكان بين الحجاج ابن أخته حسام الدين عمر بن لاجين وابن أخت السلطان.

في الوقت الذي كان فيه المسلمون يستعدون لاجتياح المملكة الصليبيّة وصلت الخلافات بين ملك بيت المقدس وريمون الثالث إلى درجة تنذر بحرب أهلية[٣٩] إذ أن غي دو لوسينيان بناء على اقتراح العدو التقليدي لريمون جيرار دو ريدفور قرر السير إلى طبرية وحصّارها ولكن تدخل باليان دييلان وتحذيره من نتائج عمل

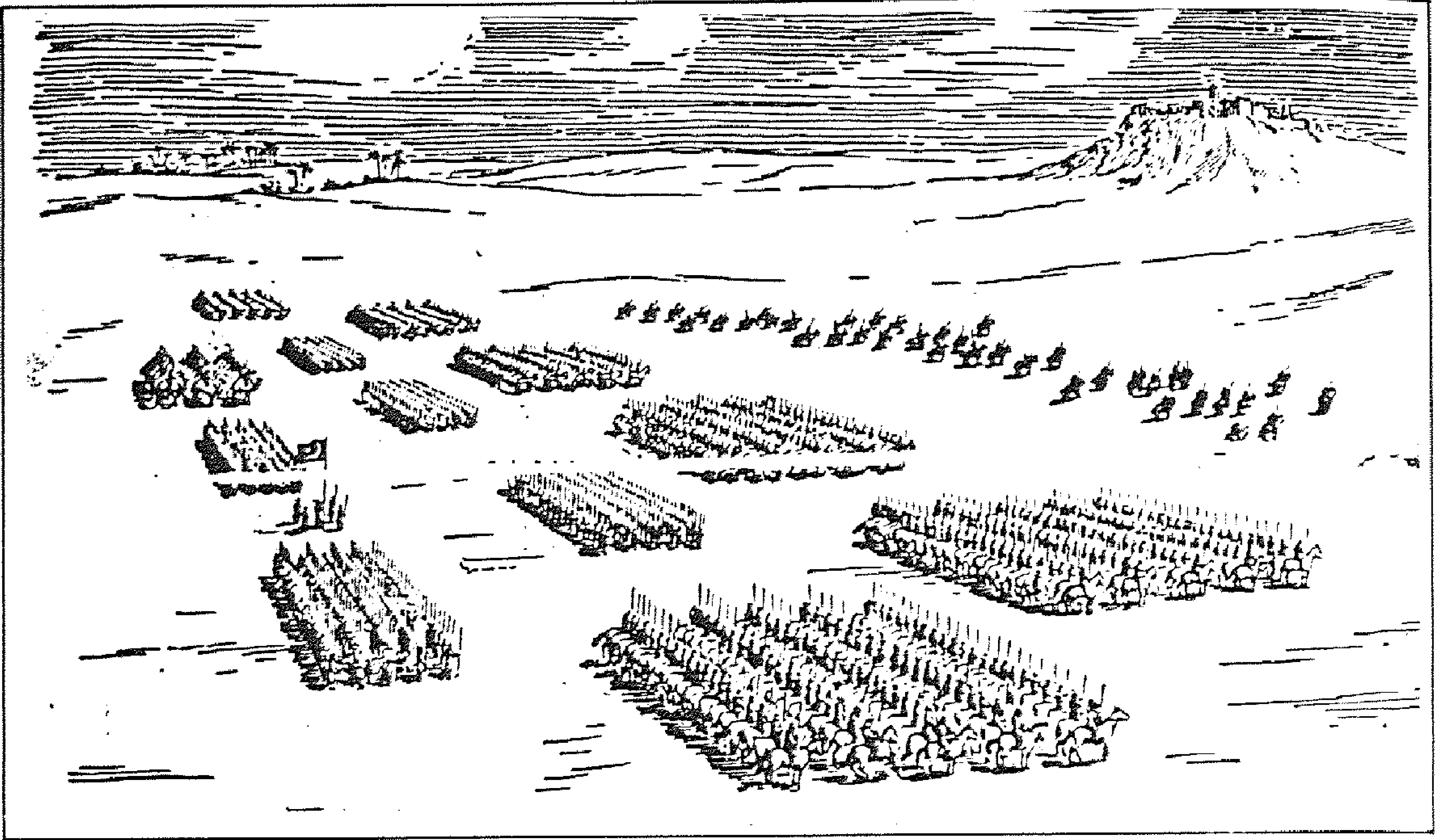
طائش من هذا النوع حال دون وقوع حرب أهلية سيكون النصر فيها بلا شك حليف ريمون الفارس المجرب والمدعوم من قبل السلطان الذي أمده بالرجال والسلاح وأقام في بانياس يراقب تطور الأحداث بغية التدخل في الوقت المناسب. وبعد عيد الفصح عام ١١٨٧ أصبح واضحاً بأن استعدادات صلاح الدين سيتبعها اجتياح للمملكة لذلك فقد جمع ملك بيت المقدس مجلس البارونات ورجال الدين وكان أول قرار اتخذوه مصالحة ريمون كشرط لتنظيم الجبهة ضد المسلمين. فأذعن الملك وأرسل وفداً للمفاوضة يتألف من الأستاذ الأكبر للداوية والأستاذ الأكبر للاستبارية ورئيس أساقفة صور وباليان ديبلان ورونو صاحب صيدا.

في نفس هذا اليوم أراد السلطان وقبل أن يلقي بكامل جيوشه في المعركة القيام بغارة استفزازية لمملكة بيت المقدس هدفها منطقة عكا. فكلف مجموعة من خيرة فرسانه على رأسها مظفر الدين كوكبوري ودلدرم الياقوتي وصارم الدين قيماز النجمي باجتياز أراضي الجليل التابعة لإمارة طبرية بعد الحصول على اذن بالمرور من ريمون الثالث. هذا الترتيب وضع أمير طبريه في موقف حرج جداً إذ ليس باستطاعته رفض طلب السلطان وهو حليفه وحاميه وليس بوسعه جعل إمارته قاعدة وممراً للمسلمين في مهاجمة الأراضي المسيحية لذلك فقد خرج بحل وسط إذ اشترط على القوات الغازية أن تدخل عند شروق الشمس وتعود قبل الغياب ثم أرسل من يخبر أهالي الجليل وحاميات حصونها بمرور هذه القوات ونصحهم بإغلاق أبواب المدن والبقاء داخل الأسوار وعدم التعرض لتلك الحملة وقد نفذت تعليماته ولم تصب المناطق التي مرّ بها الجنود المسلمون بأي أذى ولكن غرور الأستاذ الأكبر للداوية جعل من هذه الحملة الاستعراضية كارثة عندما أراد مجابهة سبعة آلاف من الفرسان المسلمين بمئة وخمسين فارساً من الداوية وبمن انضم إليهم من الحصون القريبة. وعبثاً حاول كبير الاستبارية روجيه دو مولان وجاك دوملي Mailly مرشال الداوية إقناعه بتحاشي الاصطدام مع هذه القوة الهائلة ولكنه أصر على رأيه ولما اتهمهم بالجبن أجابوه بأنهم سيدخلون المعركة رغم تأكدهم من أنهم سيقتلون وانه هو الذي سيهرب وحدث تماماً ما توقعوا إذ ان «وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود»(٤٠) لم ينج منها إلا ثلاثة من الهاربين بينهم جيرار دو ريدفور ذاته المسؤول عن هذه المذبحة والذي سيعيش ليدفع بالمملكة ايضاً إلى كارثة حطين.

بعد هذه المعركة غير المنتظرة توجه الذين بقوا من وفد الصلح وهم باليان ريبلان ورونو صاحب صيدا لمقابلة القمص الذي استقبلهم بحرارة وقبل أن يصرف الجنود الذين أرسلهم له صلاح الدين لمساعدته وكما عرض أن يذهب لمقابلة الملك. ولما علم غي بذلك فرح فرحاً عظيماً وأتى بنفسه لملاقاة خصمه القديم. وقد عقد مجلس حرب نوقشت فيه جميع وجهات النظر. ولو ترك الأمر لحكمة ريمون وطبقت سياسته في الدفاع الحذر والمناورة العاقلة لأمكن إنقاذ المملكة ولكن ارناط وصديقه مقدم الداوية لم يمكنا الملك من الأخذ بآراء ريمون في أي وقت من تلك الأوقات العصيبة.

وقبل أن يتفرق المجتمعون أشار ريمون على الملك بضرورة استنفار جميع قوى المملكة ودعوة بوهيمون صاحب إنطاكية للمشاركة بهذه المعركة الحاسمة. وقد لبى الدعوة وأرسل إلى صفورية مركز تجمع قوات مملكة بيت المقدس ابنه ريكون على راس خمسين فارساً. أما جيرار دو ريدفور فقد فتح خزانة أموال هنري الثاني ملك إنكلترا التي وضعها في عهدة الداوية وأمرهم بصرفها تكفيراً عن ذنبه في قتل توماس بيكت فصرفت تلك الأموال في دفع أجور المرتزقة الذين فتحت أمامهم ابواب التطوع على مصراعيها.

هذا ولما وصل ريمون إلى عكا لمقابلة الملك أتى من أخبر بأن صلاح الدين يحاصر طبريا فقد اعتبر السلطان أن معركة صفورية ألغت الحلف الذي كان بينهما لذلك فقد ترك الكرك وأتى إلى حوران والجولان حيث تتجمع قواته ونزل إلى منطقة سمخ عن طريق خسفين وبعد قضاء خمسة أيام هناك دخل حدود البلاد الفرنجية



□ ترتيب قتال القوات العربية في القرن العاشر.

متجهاً نحو طبرية وكان ذلك يوم ٢ تموز عام ١١٨٧ وخلال ساعة من الزمن احتلت المدينة ووضعت النار بها ولكن القلعة بقيت تقاوم وفيها الأميرة إيشيف زوجة ريمون على أثر ذلك انعقد المجلس العسكري في عكا حيث كان الملك والبارونات فأشار عليه ارناط ومقدم الداوية بالهجوم فوراً على صلاح الدين وكان من رأي ريمون وهو صاحب طبرية أن تترك المدينة لصلاح الدين وأن لا يخاطر بالاشتباك معه بهذه القلة العددية في هذا الحرّ الشديد.

ولعل أدق وصف للجدل الذي دار بين البارونات ما ذكره ابن الأثير على لسان ريمون الذي قال: «فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديماً وحديثاً ما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة وإذا أخذ طبريه لا يمكنه المقام بها فمتى فارقها وعاد منها أخذناها وإن أقام بها لا يقدر على المقام بها إلا بجميع عساكره ولا يقدرون على الصبر طول الزمن عن أوطانهم وأهلهم فيضطر إلى تركها ونفتك من أسر منا فقال له البرنس ارناط صاحب الكرك قد أطلت من التخويف من المسلمين ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم وإلا ما كنت تقول هذا وأما قولك أنهم كثيرون فإن النار لا يضرها كثرة الحطب. فقال أنا واحد منكم إن تقدمتم تقدمت وإن تأخرتم تأخرت وسترون ما يكون فقوى عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه وقربوا من عساكر الإسلام[٤١].

كان انتقاء صفورية مكاناً لتجمع القوات الصليبية فيه كثير من الحكمة نظراً لوقوعها في منتصف الطريق بين الساحل وطبريا إضافة لوجود المياه والمراعي فيها وقد أجمعت الآراء على إبقاء الجيش هناك يراقب تحركات صلاح الدين دون أن يسير إلى طبريا التي أصبحت فخاً بالنسبة لجيش مملكة بيت المقدس. وبالرغم من وصول أخبار تفيد بأن زوجة ريمون محاصرة في القلعة مع حفنة من الفرسان فإن ريمون أصر على عدم نجدة طبريا حتى ولو كان من أجل إنقاذ زوجته لأنه يدرك صعوبة الوصول إلى هناك في ذلك اليوم الشديد الحرارة (٢ ــ ٣ تموز) ويعرف مقدار القوات التي حشدها صلاح الدين في تلك المنطقة. ويذكر ابن الأثير أقوال القمص وكلها تحذر من التورط في السير لتخليص طبريا نظراً لكثرة عساكر المسلمين[٤٢] وبعد اقتناع الجميع بوجهة نظر القمص انتهى اجتماع البارونات وذهب كل واحد إلى مقره. ولكن جيرار



□ جيوش المسلمين.

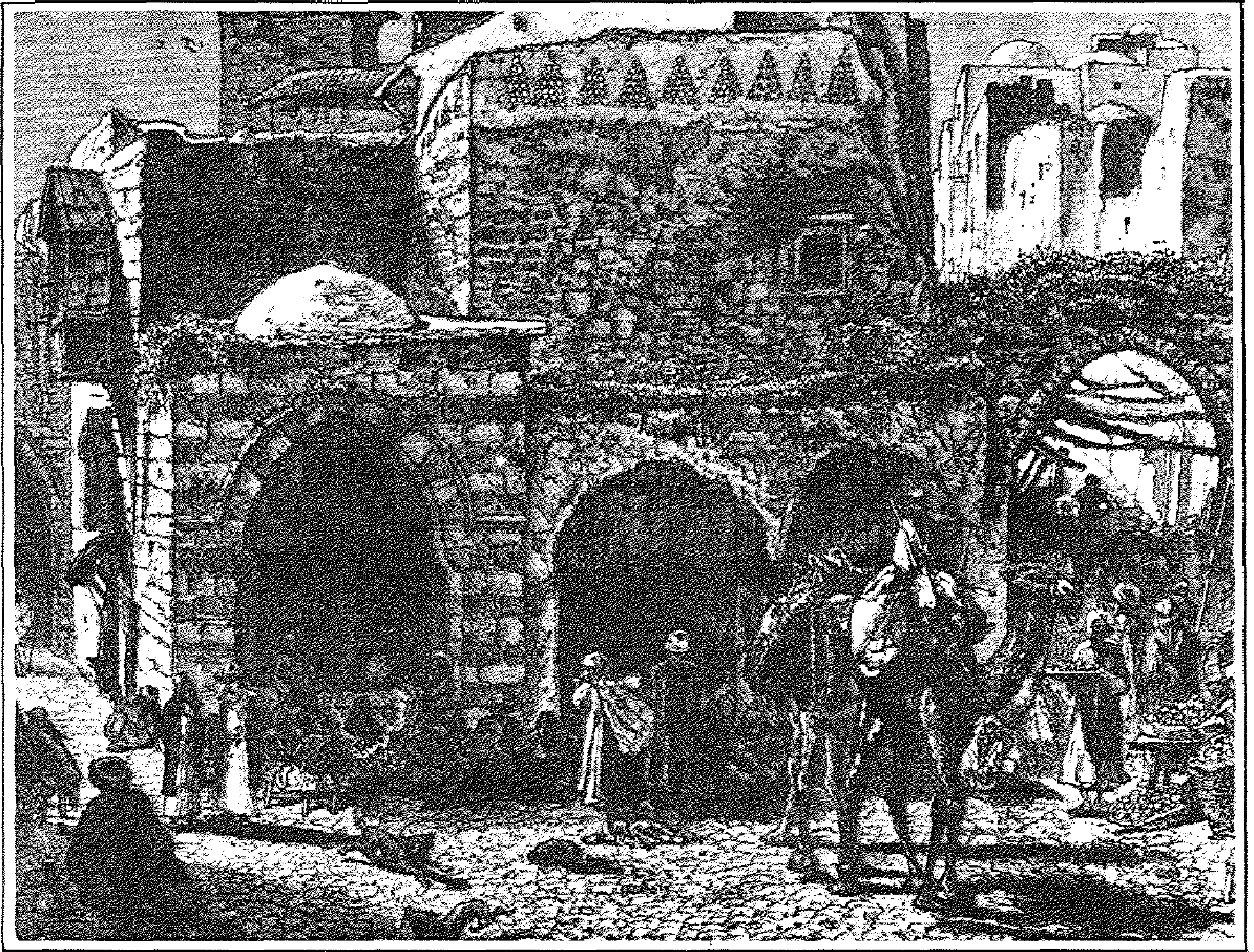
دو ريدفور عاد إلى خيمة الملك وما زال يحسن له فكرة السير لملاقاة صلاح الدين ويطعن بولاء القمص حتى بدل الملك رأيه وأصدر أوامره عند منتصف الليل بالاستعداد للسير وكانت مفاجأة لجميع البارونات الذين خفوا إلى خيمته يسألونه عن السبب في تغيير الخطة. فلم يعط جواباً واكتفى بالقول أريد أن تركبوا خيولكم تسيروا إلى طبريا. وبذلك حقق نبوءة بودوان ديبلان التي قالها منذ سنة بأن غي سيقود المملكة «بكل بساطة» إلى الانتحار[٤٣]. ففي الصباح الباكر ليوم ٣ تموز ترك جيش المملكة صفورية وسار إلى المنطقة التي انتقاها صلاح الدين أرضاً للمعركة. ويقول صاحب الروضتين: لما وصل الخبر بأن الفرنج ركبوا أو وثبوا فرح السلطان وقال جاءنا ما نريد[٤٤] فلما ابتعد الفرنجة عن أراضي صفورية الغنية بالماء وجدوا أنفسهم في منطقة من الهضاب الصخرية الجرداء الخالية من الماء لذلك انصرف هم قوات صلاح الدين إلى منعهم من الوصول إلى الماء وحصرهم في ذلك الأتون فريسة للعطش والحر.

واقترح ريمون على الملك قضاء ليل ٣ — ٤ تموز على هضبة قرب حطين فقبل دون تردد رغم تعرض الجيش لمضايقات المسلمين ومناوشاتهم المستمرة طوال الليل فلما أصبح الصباح وجد الفرنج بأن الهضبة مطوقة تماما من قبل صلاح الدين والرياح تهب من ناحية طبرية باتجاه المواقع الصليبية فعندما أضرمت النار في الأعشاب اليابسة الموجودة في المنطقة زاد الدخان وحرارة النار في محنة الجنود الفرنج الذين ارهقهم العطش وأخذت تحصدهم وتحصد خيولهم سهام الجنود المسلمين وسيوف الخيالة الذين كانوا يهاجمون على شكل موجات متتالية وسط لهيب النار وسعير أيام تموز المحرقة فأخذ المشاة الصليبيون يرتمون على الأرض بعد أن يئسوا من الحصول على الماء وتدنت معنوياتهم حتى أصبحوا مسلوبي الإرادة لا يفكرون إلا في الخروج من المعركة. ولئن استسلم المشاة الذين انهكهم العطش فإن الفرسان ردّوا هجمات المسلمين وقاموا بطلعات قوية للدفاع عن ملكهم خير قيام ويذكر ابن الأثير بالتفصيل ما دار بين الملك الأفضل وأبيه السلطان من حديث أثناء الكرّ والفر الذي جرى بين فرسان المسلمين وفرسان الصليبيين على هضبة حطين. هذا الحديث الذي تذكره جميع الكتب نقلاً حرفياً عن المؤرخ العربي[٤٥]. كما يذكر العماد بأن القمص لما احس بالكسرة[٤٦] وأيقن من انهيار جبهة الفرنج حمل حملة مكروب على حد قول ابن الأثير وتمكن من كسر الطوق الذي أحكم



□ فارس من فرسان صلاح الدين.

حولهم وهرب هـو وريمون ولي عهـد إنطاكيـة وباليان دييلان وررونو صاحب صيدا ويقال بأن تقي الدين عمر هو الذي فتـح لهم مخرجاً يفرّون منه لما لاحظ بأن هجمـاتهم تدل عـلى اليأس والتصميم على النجاة بأرواحهم(٤٧). اما ما بقي من الجيش الصليبـي فقد حلّت به أكبر هزيمة في تاريـخ الحروب الصليبية وكان المسؤولون عن الكـارثة غي دو لوسينيـان وررونو دو شـاتيون وجيرار دو ريدفور بين الأسرى كما أسر منهم أيضاً أونفـروا الرابـع صاحب تبنين والمركيز غيـوم دو مـونفـرا وقـائـد الجيش عمـوري دو لوسينيان أخو الملك وهوغ صاحب جبيـل وبليبانـوس Plebanus صاحب البتـرون وهم رؤوس الطبقة الحاكمـة الصليبية في المشـرق وكدليل على ضياع الأرض المقدسة وقـع صليب الصلبوط بأيـدي المسلمين أيضـاً. ولما انتهت المعركة أمر السلطان بإحضار الأسرى إلى خيمته فأتوا بغي دو لوسينيان وكان يختلـج من الخوف وقد أنهكه التعب والعطش فهدأ السلطان من روعه وأجلسه إلى جانبه وقدم إليه ماء مثلوجاً فشرب وأعطى الإناء إلى ارناط فانتفض السلطان وقال للملك الم تطلب إذناً مني عندما أعطيته



□ القدس.

ليشرب لذلك فإنني غير ملزم بالحفاظ على حياته.

ثم كلم البرنس وقرّعه بذنوبه وعدد عوراته[٤٨] وذكره باعتدائه على قوافل الحجاج ونكثه للعهود وتدنيسه للمقدسات وطلب منه جواباً على هذه الأعمال المنكرة فأجاب بكل وقاحة: كذلك كانت عادة الملوك. وهنا وفاء للنذر الذي نذره أستلّ السلطان سيفه وضربه فقطع كتفه ثم سحبه بعض الحاضرين إلى خارج الخيمة وأجهزوا عليه. وهكذا فقد انتهت حياة هذا المغامر الذي يرى فيه الفرنج بطلاً ملحمياً ويرى فيه المسلمون مثلاً للصوصية لأن حياته في بلاد الشام كانت سلسلة من المغامرات الدامية والاعتداءات الأثيمة لم يفرق فيها بين مسلم ومسيحي ولا بين حليف أو عدو. فقد كان خؤوناً لدينه ولقومه ولجيرانه لا عهد له ولا ذمة ولا هدف إلا السلب والنهب وسفك دماء العزل من الناس.

وقد هيأ الأسباب لهزيمة الصليبيين في معركة حطين بأضعافه السلطة الملكية وتحديه لها وتمرده عليها وبمساعدته على تنصيب ملك ضعيف تافه في أحرج الأوقات وبتعميق الهوة وتغذية الشقاق بين صفوف حكام الإمارات الصليبية كما مهد لصلاح الدين طريق النصر وأعطاه المبررات لإنهاء الوجود الصليبي باعتداءاته المتكررة على بلاد المسلمين ومهاجمته قوافل الحجاج والتجار وقطعه الطريق الوحيدة التي تصل بين نصفي الامبراطورية الأيوبية وبإثارة الشعور العام للعالم الإسلامي الذي اجتمع حول صلاح الدين واستنفر جميع قواه رداً على محاولة ارناط الاستيلاء على الحرمين الشريفين وضرب الإسلام في أقدس مقدساته.

لقد كانت معركة حطين بداية نهاية الوجود الاستعماري الفرنجي في بلاد الشام هذا الوجود الذي ظل يحتضر خلال قرن من الزمن بعد هزيمته في حطين إلى أن أجهز عليه بطل من مدرسة صلاح الدين هو الأشرف خليل. وحتى

أزال فكرة الحروب الصليبية إلى الأبد واقتلعها من عقول الأوروبيين بطل آخر من أبطال الإسلام هو السلطان بايزيد على أرض نيكوبوليس في قلب اوروبا.

لقد كان القرن الذي تلى النصر في حطين تجربة مفجعة طويلة وكارثة للعالم المسيحي ذاق خلالها ملوك وأباطرة أوروبا الذل والهوان على تراب هذا الشرق.

وأخيراً أدرك العالم كما اقتنع خلفاء جان الثامن وأوربان الثاني بعد مئات السنين من سفك الدماء بأن الأيدي الآثيمة لرونو دو شاتيون واضرابه لا يمكن أن تنتزع القبر المقدس من الأيدي الأمينة التي حافظت عليه خلال مئات السنين وإن تلك الأيدي الملوثة لا يمكنها حمل رسالة الخير والمحبة والسلام التي بشر بها صاحب القبر المقدس ولن تتمكن من حمل هذه الرسالة السامية وحماية هذا القبر الطهور إلا يد طاهرة كيد صلاح الدين وقلب رحيم كقلب صلاح الدين ونفس مؤمنة كنفس صلاح الدين. ●

الهوامش

(٢٠) ابن شداد ـــ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية طبعة محمد افندي علي صبيح القاهرة ١٣٤٦ صفحة ٣٦.

(٢١) ابن الأثير صفحة ١٥٢.

(٢٢) Grousset R. histoire des croisades page 703.

(٢٣) IBID page 703.

(٢٤) ابن الأثير الكامل في التاريخ صفحة ١٥٥.

(٢٥) Grousset R. histoire des croisades page 706.

(٢٦) المقريزي ـــ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الثانية عام ١٩٥٦ صفحة ٧٧.

(٢٧) ابن الأثير الكامل في التاريخ صفحة ١٥٦ حوادث سنة ٥٧٨.

(٢٨) المقريزي ـــ السلوك الجزء الأول القسم الأول حوادث سنة ٥٧٨ صفحة ٨٩.

(٢٩) أبو شامة ـــ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين حوادث ٥٧٨ صفحة ٣٧.

(٣٠) نفس المرجع حوادث سنة ٥٧٦ صفحة ٢٩.

(٣١) نفس المرجع صفحة ٣٥.

(٣٢) نفس المرجع صفحة ٣٦.

(٣٣) ابن شداد ـــ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية صفحة ٥٠.

(٣٤) نفس المرجع صفحة ٥٠.

(٣٥) نفس المرجع صفحة ٥٣.

(٣٦) ابن الأثير الكامل في التاريخ صفحة ١٧٤.

(٣٧) نفس المرجع ونفس الصفحة.

(٣٨) GROUSSET R. page 778.

(٣٩) GROUSSET R. page 780.

(٤٠) ابن الأثير الكامل في التاريخ الجزء التاسع، حوادث سنة ٥٨٣ (ذكر الغارة على بلد عكا) صفحة ١٧٦.

(٤١) نفس المرجع صفحة ١٧٧.

(٤٢) نفس المرجع صفحة ١٧٧ (ذكر فتح صلاح الدين طبرية).

(٤٣) GROUSSET R. page 793

(٤٤) أبو شامة ـــ الروضتين في أخبار الدولتين صفحة ٧٦.
أيضاً العماد الكاتب الأصفهاني ـــ الفتح القسي في الفتح القدسي طبعة الشرق والغرب، صفحة ٧٧.

(٤٥) ابن الأثير صفحة ١٧٨ ـــ غروسيه صفحة ٧٨٦ ـــ روتسمان الجزء الثاني صفحة ٤٥٨ ـــ ٤٥٩.

(٤٦) العماد ـــ الفتح القسي في الفتح القدسي صفحة ٧٩.

(٤٧) أبو شامة ـــ الروضتين صفحة ٧٧.

(٤٨) ابن الأثير الكامل في التاريخ صفحة ١٧٨ ـــ أبو شامة الروضتين صفحة ٧٩.

□ **القيت هذه الدراسة في «ندوة حطين» التي انعقدت في دمشق في تموز/يوليو ١٩٨٧، بمناسبة الذكرى المئوية الثامنة لمعركة حطين.**

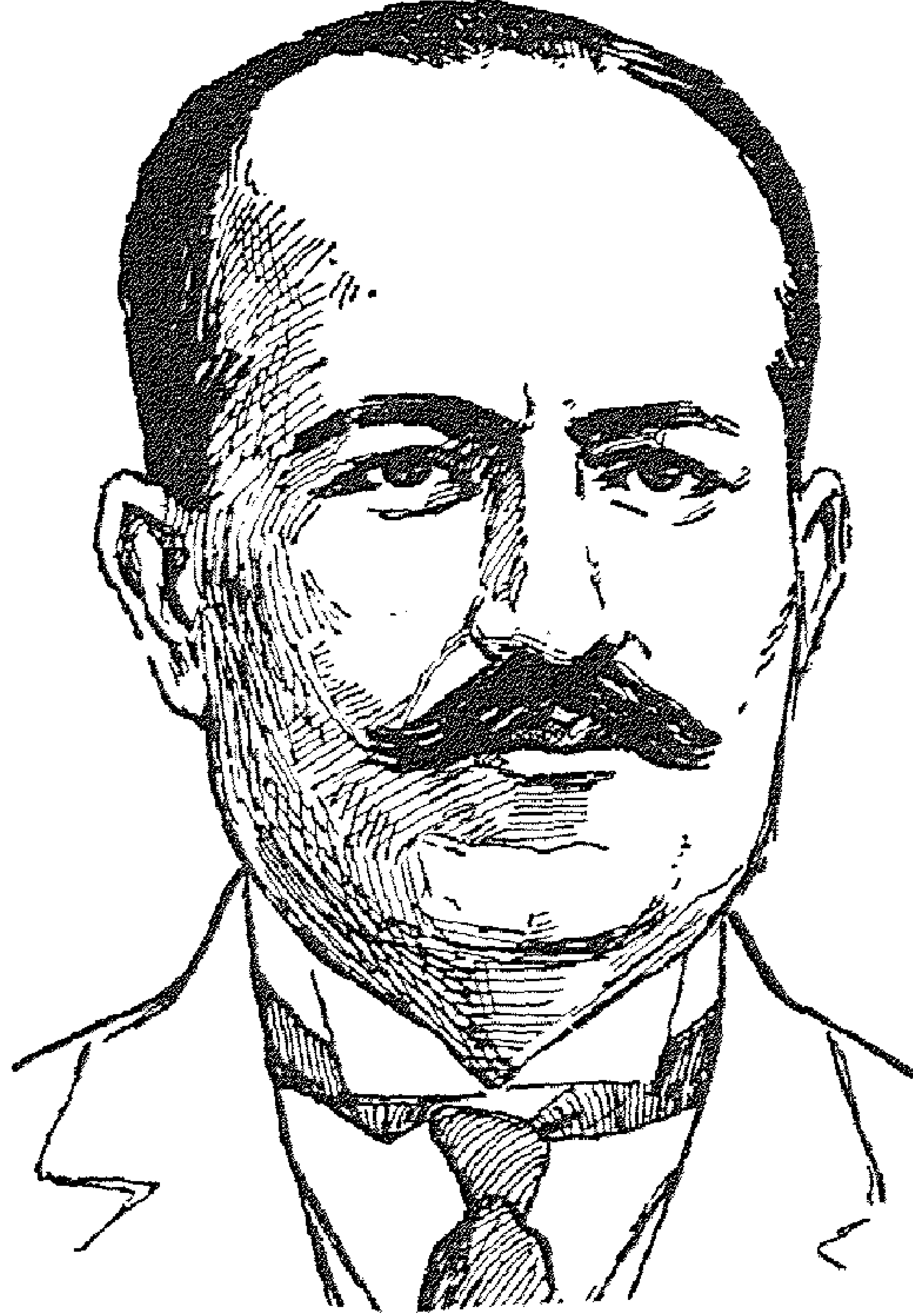
● كيف السبيل إلى مجاهدة مستعمر مسلح؟ السبيل هو الإيمان بحب الوطن، وحب الحرية، فإن الحياة بدون الحرية سجن وموت.

«مكرم عبيد»

العصامي الموهوب

جرجي زيدان

طاهر الطناحي



إذا ذكر العصاميون الذين بنوا أنفسهم، وشادوا للإنسانية صروحاً عالية في مختلف الميادين بأعمالهم المجيدة، وجهودهم الممتازة، فإن جرجي زيدان في المقدمة بين هؤلاء العصاميين الأفذاذ، فقد بلـغ بالعصامية أرفـع مكان في ميادين العلوم والآداب والثقافة الحرة. وكانت حياته أبلـغ درس للشباب المكافـح، وأعظم عبرة للذين يقفون يائسين على الشاطىء، لا تحركهم همة، ولا تبعثهم إرادة على اجتياز الأمواج ليصلوا إلى ما يريدون من رقي ونجاح.

لم يقف جرجي زيدان على شاطىء الحياة المدلهمة وهو فتى صغير يائساً من النور، لأن أمي لا يعرف فضل العلم، أو لأنه فقير لا يملك نفقات التعليم، أو لأن ظروف العيش مزدحمة بالمتاعب، بل نظر بعقل الصبـي النابـغ، فوجد أن الرغبة الصادقة تحطم أقوى العقبات، وأن الإرادة النافذة تحقق المستحيلات، وأنه كما قال ابن الوردي:

لا تـقـل أصـلي وفـصـلي أبـداً　　　إنمـا أصل الفتى مـا قـد حصـل

نعم، لم يقل جرجي زيدان أصلي وفصلي حتى تثبط همته وييأس من النجاح، بل اندفـع إلى تحصيل العلوم والآداب، وشق طريقه بنفسه إلى المجد والرفعة، واتخذ من فضل العلم خير أصل، ومن جمال الأدب أحسن نسب!

حادث أليم



نشأ جرجي زيدان في عائلة متوسطة الحال، ولكن الأيام تنكرت لها، فذاقت متاعب الفقر، فقد كان جده زيدان مطر وكيلاً على أملاك السيدة حبوس والدة الأمير مصطفى أرسلان، وكان وقتئذ في سعة من العيش، إذ كانت هذه السيدة تحكم «عين عنوب» وما يليها في لبنان في أوائل القرن الماضي. فلما حمل إبراهيم باشا على سورية وفتح عكا وأراد الاستيلاء لبنان خافت السيدة حبوس بطشه وسطوته، فعزمت على الفرار من وجهه، وطلبت من زيدان مطر أن يرافقها، فاعتذر بمن عنده من أولاد وأهل، فتركته وقد حقدت عليه. فلما ضعف شأن إبراهيم باشا عادت إلى «عين عنوب» وصادرت أملاك زيدان وأمواله، وتعمدت الحط من شأنه، فشق ذلك عليه، وأثر في صحته، ومات قبل أوانه، وقد خلف وراءه زوجة وابنين وابنتين أكبرهم حبيب والد جرجي زيدان.

ولما كانت هذه الزوجة الأرمل لا تستطيع البقاء بأولادها في هذه الحال بعين عنوب، فقد نزحت بهم إلى بيروت، وهي يومئذ مدينة صغيرة لا مرتزق فيها غير الإتجار وصنع ضروريات الحياة كالأطعمة والملابس ونحوها، أو خدمة الحكومة في الكتابة والجندية.

أسرة كادحة

وكان حبيب في العاشرة حين نزل مع أسرته إلى بيروت، فلم يتسع له الوقت للتعليم، فعاش أمياً، وانصرف لتحصيل الرزق وإعالة أسرته، ولم يزد عمله على مطعم صغير في سوق ساحة البرج ببيروت. وكان هو وزوجته — على الرغم من ضيق الرزق — مثال النشاط والجد في العمل، حتى قال عنهما جرجي زيدان في مذكراته الخاصة:

«نشأت في صباي وأنا أرى والدي يخرج إلى دكانه في الفجر، ولا يعود إلا في نحو منتصف الليل أو قبيله، وأرى والدتي لا تهدأ لحظة من الصباح إلى المساء. لا تعرف الزيارات، ولا تغشى الاحتفالات ولا المجتمعات حتى الدينية، فإنها لم تكن تذهب للصلاة بالكنيسة إلا نادراً، وإنما همها تدبير بيتها، وتربية أولادها.. وقد شبت على ذلك وألفته، فغرس في ذهني، أن الإنسان خلق ليشتغل وأن الجلوس بلا عمل عيب كبير.. بخلاف الأبناء الذين يفتحون أعينهم على والدين يقضون معظم أيامهم في اللهو وشم الهواء. ولا يهمهم إلا ماذا يأكلون، وماذا يشربون. وإذا فرغوا من الطعام عمدوا إلى اللعب بالورق أو غيره.. ولا يقدمون على العمل إلا مكرهين. يحسبون العمل عيباً أو تعباً. ولو عولوا عليه لكفاهم مؤونة المرض والضعف.

فالأبناء الذين يربون بين أولئك الآباء ينشأون كسالى، ويميلون إلى الملاهي والرذائل...».

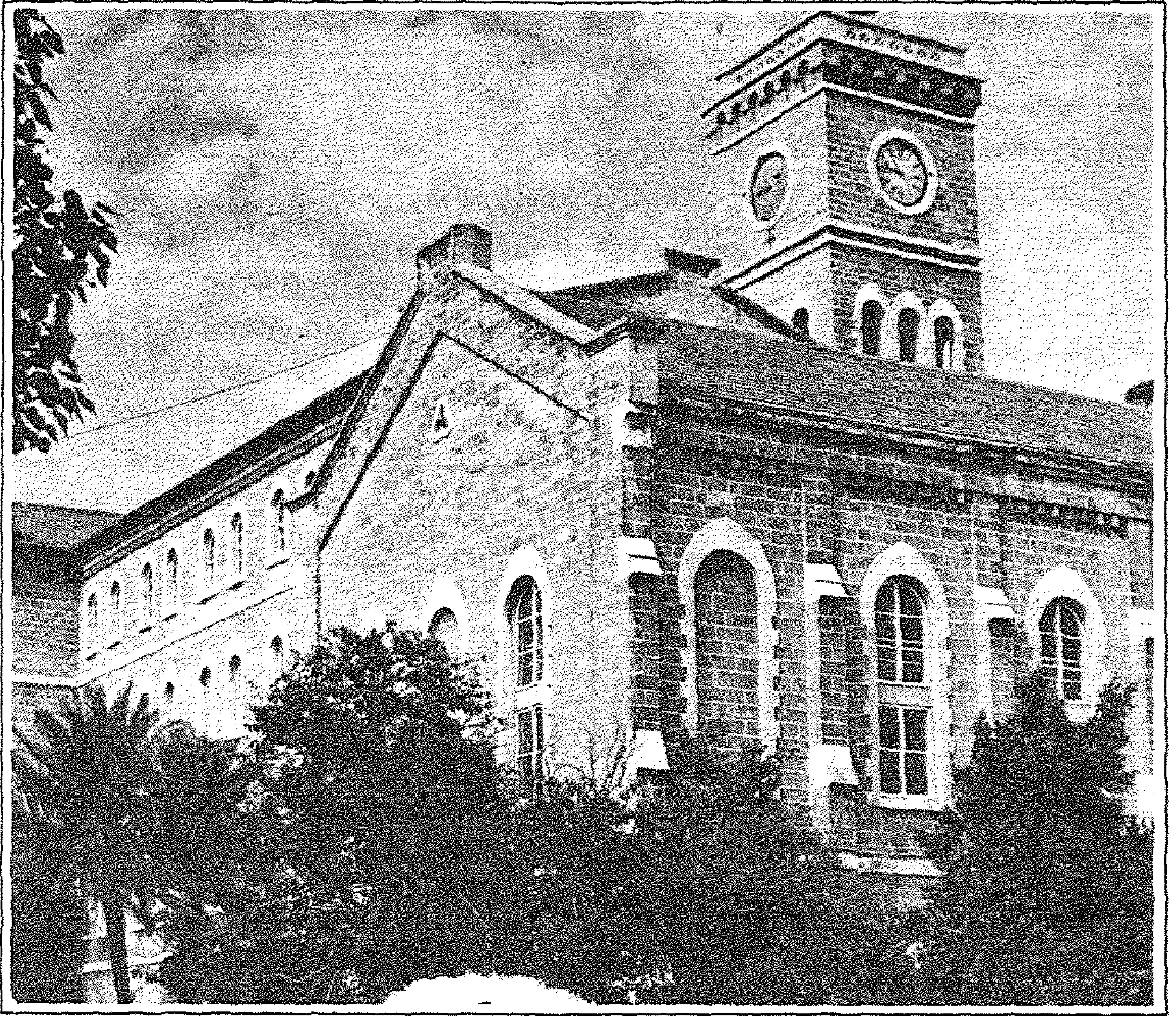
في هذه البيئة النشيطة — بيئة العمل المتواصل والجد والعصامية — نشأ جرجي زيدان.. ولقد كان والده كما قلنا أمياً، ولكنه شعر بالحاجة إلى الكتابة والقراءة ليدون حساب مطعمه، فاستخدم كاتباً لذلك. ودعته هذه الحاجة إلى أن يرسل ابنه جرجي وهو في الخامسة من عمره إلى مدرسة حرة يديرها قسيس يدعى المعلم الياس شفيق. وكانت في قبو وضيع، يجلس التلاميذ فيه على حصير مبسوط على الأرض. وقد أمضى في هذه المدرسة سنتين لم يتعلم فيهما شيئاً غير فك الخط، ثم نقله والده إلى مدرسة تدعى مدرسة الشوام، فتلقى فيها مبادىء الحساب والنحو والصرف والخط واللغة الفرنسية، وبقي فيها نحو عامين، ثم أغلقت. فانتقل إلى مدرسة المعلم طاهر خير الله فمكث بها عامين آخرين.

في مطعم أبيه

أصبح في الحادية عشرة، وذاق لذة العلم والتعليم وتفتحت نفسه بالأمل إلى المستقبل، غير أن والده ما لبث أن دعاه إلى مساعدته بالمطعم ليقيد أسماء الزبائن وحساباتهم ويلاحظ الحال ريثما يجد مساعداً غير المساعد الذي تركه وقد قال له:

«تعال يا جرجي لمساعدتي سبعة أيام أو ثمانية ريثما أجد من يقوم مقامك..».

فأطاع والده، وهو يعلل النفس بالرجوع إلى المدرسة، ولكن هذه الأيام السبعة امتدت إلى سبعة أعوام حتى خشيت والدته على مستقبله..



□ الجامعة الأميركية في بيروت

وقد قال في مذكراته:

«ولما مضى على اشتغالي في ذلك المطعم عام وبعض العام، خافت والدتي أن يطول مقامي ويضيع مستقبلي. وكانت تكره المطاعم، وكانت منذ طلبني والدي لمساعدته تلح عليه ألا يطول مقامي، وهو يعدها.. فلما مضت السنة الأولى الحت عليه أن يخرجني، ويعيدني إلى المدرسة، فقال لها: «إنه قد أتم دروسه، ولا فائدة من كثرة الدرس، إلا إذا كنت تنوين أن تجعليه كاتباً أو معلماً. فضلاً عن أن كثرة التعليم تجعله متفرنجاً متأنقاً لا يأكل إلا بالشوكة والسكين، وربما حدثته نفسه أن يلبس اللباس الأفرنجي ــ وكان هذا اللباس قليلاً، وكان الأكل بالشوكة والسكين لا يزال معدوداً من عادات المتفرنجين.

«ولم يقل والدي ذلك في نفور من المدنية، ولكنه كان محباً للمحافظة على العادات الشرقية. وكان يكره التصنع والتظاهر بمظاهر الأفرنج، فاقتنعت والدتي بهذا الجواب، ولكنها ما زالت تكره أن أبقى في تلك الصناعة، وقالت لأبي: ادخله في صناعة أخرى، فإني أكره هذه الصناعة ورائحة الزفر والانحباس في الدكان ليل نهار ــ لا عيد.. ولا أحد ــ فأذعن لاعتراضها.. وبعد النظر قر رايهما على أن أتعلم صناعة الأحذية الأفرنجية».

وقد كانت صناعة الأحذية الأفرنجية وقتئذ حديثة العهد في بيروت، وحجتهم في اختيارها له وهو في الثانية عشرة من عمره أن بعض البيروتيين مارسوها فاثروا منها منها وصار لهم

أموال وأملاك، وقد مكث في هذه الصناعة سنتين تعلم فيهما أكثرها. ولكنه ما لبث بعد ذلك أن تركها لأنها لم توافق صحته وأصابه ضعف في معدته من الجلوس الطويل على الكرسي للعمل، وخاف والداه عليه، فقررا إعادته إلى المطعم مؤقتاً ريثما يفكران في صناعة أخرى تلائمه!

صبر جميل

تذرع الصبي جرجي زيدان بالصبر، فلم يكن أمامه في ظلام الحياة، ومحاربة الأيام غير الصبر والأمل.. ولكن أين الأمل؟.. فليس حوله إلا السدود والعقبات، وإلا ما يبعث على اليأس، ولكن نفسه الكبيرة لم تعرف اليأس.. لذلك تذرع بالصبر وحده. والصبر محمود، ولا سيما في هذه الحال التي لا حيلة فيها غير الصبر، كما قال ابن الرومي:

أرى الصبر محموداً وفيه مذاهب
فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب
هو المهرب المنجي لمن أحدقت به
مكاره دهر ليس عنهن مهرب

صبر جرجي زيدان وعاد إلى مطعم أبيه ــ لا عودة الجبان المستسلم لقسوة الأيام، ولا الضعيف اليائس الذي سدت في وجهه الآمال وانهزم في معركة الحياة، فسئم جهاده وقعد كئيباً يندب حظه، وييأس على نفسه، أو يتعزى بغيره ممن هزمهم الدهر فاستسلموا للهزيمة، وأضاعوا أعمارهم سدى دون أن يكون لهم في الحياة العليا سهم أو نصيب ــ كلا، بل عاد إلى مطعم أبيه كما يعود القائد الشجاع من الميدان ليتزود بالتفكير وانتهاز الفرص، ويضع الخطط الجديدة ليواصل جهاده، ويفوز بما قدر لهذا الجهاد الصادق من نصر فائق ومستقبل عظيم.

بارقة أمل

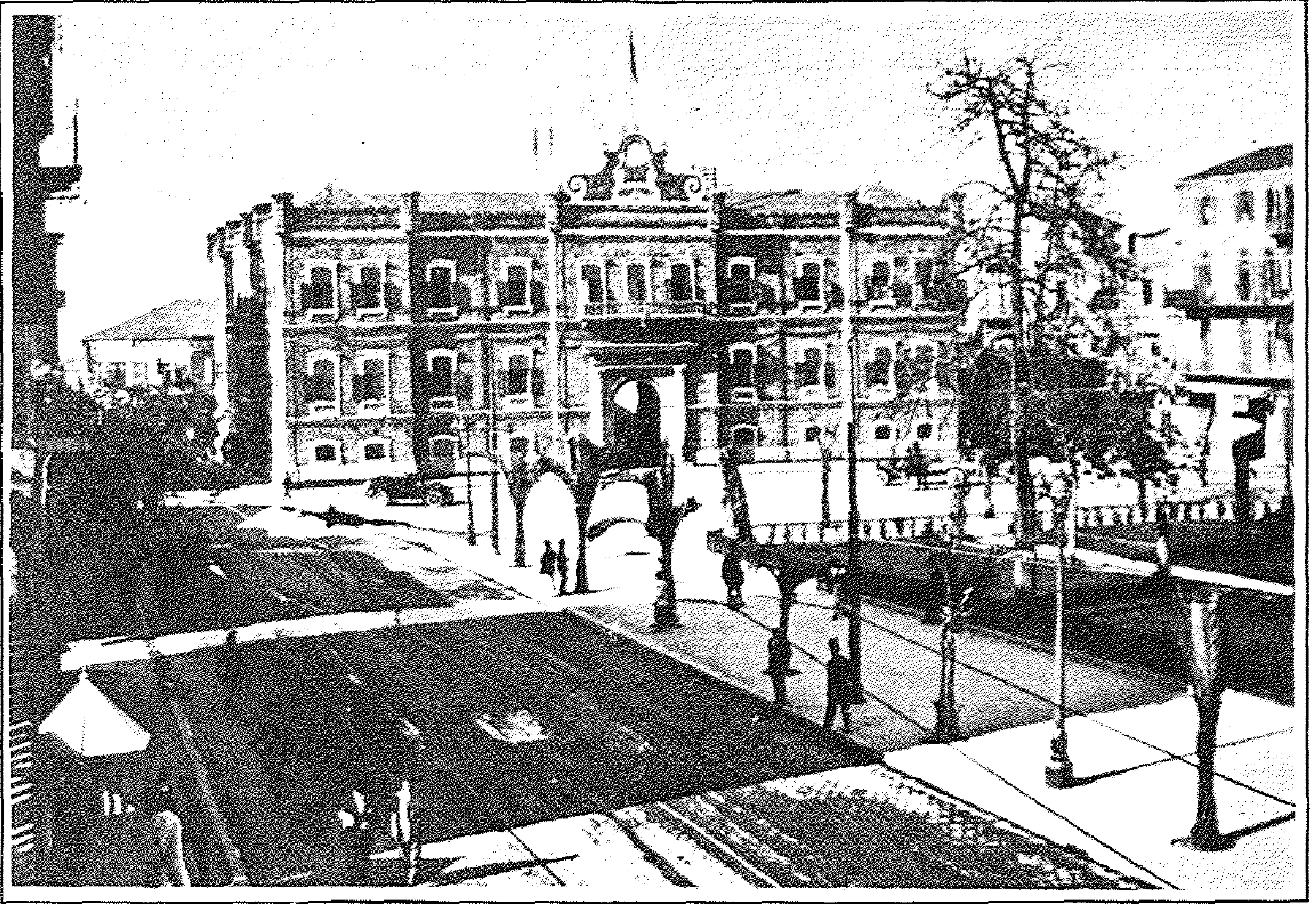
وكانت بيروت وقتئذ حافلة بأهل اللهو والبطالة، وكان منهم من يترددون على هذا المطعم، وكان الصبي جرجي يرى في هذا الظلام ضياء الله، ويلمح بالسريرة ما هيىء له في المستقبل من مجد علمي وأدبي، فلم يلتفت إلى ما حوله من فساد وجهل ولم ينزع إلى ريبة، ولم ينزلق في مأثمة. ثم ظهرت طبقة متعلمة تخرجت من مدارس الإرساليات الدينية المسيحية من أميركية وألمانية وأنجليزية. وكانت هذه المدارس قد أنشئت على أثر حوادث عام ١٨٦٠ لنشر العلم والأدب على نهج التمدن الحديث، وعلمت طائفة من الشبان الذين تكونت منهم الطبقة المتعلمة التي كان عليها المعول في تغيير الآداب الاجتماعية في بيروت. وكان جرجي زيدان ينظر إلى هذه الطبقة وقتئذ وهو يشعر بتقصيره في مجاراتهم في التربية والتهذيب، فكان يتقد غيرة ورغبة في أن يأخذ مثلهم بنصيبه من العلم والتعليم.

واتفق ذات يوم أن زار المطعم المعلم مسعود الطويل ــ أحد المعلمين في بيروت ــ فذكر أنه فتح مدرسة يعلم فيها الشبان اللغة الأنجليزية ساعة قبل الغروب، فرغب جرجي زيدان في تعلم هذه اللغة لقاء ما يتناوله المعلم مسعود من طعامه في المطعم، وكانت سنه لا تزيد على خمسة عشر عاماً، فصار يتردد عليه في بيته مع ١٤ تلميذاً، ومكث هناك خمسة أشهر، قال له المعلم مسعود في نهايتها أنه تعلم الأنجليزية جيداً، فجرب قوته في مطالعة كتاب «رحلة كوك في جزائر المحيط» فرأى نفسه أقل كثيراً مما كان يظن، فأخذ في الدرس لنفسه حتى كان لا ينام الليل في كثير من الأيام.

ولما شعر بأنه على نصيب وافر من هذه اللغة لمعت في نفسه ملكة التأليف التي ظهرت فيما بعد قوية عارمة، فأخذ في وضع قاموس انجليزي عربي في ذلك الحين. وقد وصل في تأليف هذا القاموس، إلى حرف (E) ولم يكن قد ظهر مثل هذا القاموس، ثم مل هذا العمل لقلة وسائله.. على أن ذلك لم يثن عزمه عن العناية بتقوية نفسه في اللغتين العربية والأنجليزية، فأخذ يطالع فيهما كتب اللغة والأدب.

كتاب مجمع البحرين

وكان أول كتاب عني به في اللغة العربية وأحب اقتناءه، كتاب «مجمع البحرين» للمرحوم الشيخ ناصيف اليازجي. وهو كتاب أدبي وضعه مؤلفه في ستين مقامة على طراز مقامات الحريري. وكان قد ابتاعه من أحد باعة الكتب المتجولين. ولهذا الكتاب قصة طريفة يرويها



□ السراي الصغير في ساحة البرج ١٩٢٥.

جرجي زيدان في مذكراته، فيقول:

«كنت أسمع بكتاب مجمع البحرين، وأحب اقتناءه. لكني كنت استغليه، لأن ثمنه على ما أظن كان أربعة فرنكات أو خمسة، ففي ذات يوم كنت جالساً بالمطعم، فمر غلام وبيده هذا الكتاب مستعملاً، وهو يعرضه للبيع، فاشتريته منه بتسعة قروش بيروتية أي أقل من نصف ثمنه، وفرحت به كثيراً. ولما رجع والدي سألني عنه، فأخبرته أنني اشتريته بتسعة قروش، فزعل، وقال: «أتدفع في هذا الكتاب تسعة قروش، وتبدل الدراهم بورق»!

«فزعلت ولم أجبه، ولما انصرفنا للبيت في المساء، وكانت الوالدة قد أعدت لنا العشاء، أظهرت أني لا أريد الطعام، وذهبت للنوم، وأنا أتوقع أن يدعواني، ولا يتركاني أنام جائعاً. وسمعت والدتي تعنف والدي لإغضابي حتى نمت بلا أكل، ولكنه أصر على رأيه.. واتفق أن جاء أمين فياض أحد أصدقاء والدي للشهرة عنده في تلك الليلة، وكان يتودد إلي، فسأل عني، فقيل له أني نمت. واغتنمت والدتي هذه الفرصة، وشكت إليه عناد والدي، فسأله عن سبب غضبه، فقال: «إنه يصرف الدراهم في شراء الورق بلا فائدة»!.. فأجابه: «أشكر الله يا أبا جرجي أن ابنك ينفق الدراهم في شراء الكتب، وليس في السكر ونحوه، أنها نعمة يجب أن تشكر الله عليها».

«وسمعت كلمات هذا الصديق وأنا أتظاهر بالنوم. وللحال اشتد ساعد والدتي، وقامت فأيقظتني، وأجلستني إلى المائدة، وطيبت خاطري، وكذلك والدي.. ولا تزال هذه الحادثة نصب عيني..».

غرام بالعلم وهمة وإرادة

وقد دفعه غرامه بالعلم والتعليم إلى مطالعة كتب الطبيعة والجغرافيا واستعان ببعض المتعلمين ممن يترددون على مطعم والده. وكان إلى ذلك الحين لا يعرف النواميس الطبيعية كدوران الأرض والكواكب، وخسوف الشمس والقمر وأسباب السحاب والمطر وغيرها. وقد اطلع في إحدى المجلات على مقالة في سبب الخسوف

والكسوف، بعثت في نفسه الرغبة في مطالعة هذه الكتب، فأقبل عليها حتى استوعبها بهمة وإرادة قوية. وكان وقتئذ يلبس السروال البيروتي ويعتقد أن لابسي البنطلونات أرقى عقلاً وأوسع معرفة وأصح حكماً من لابسي السراويل، لأن أكثرهم من المتعلمين، فلما استنار بنور العلم ضعف عنده هذا الاعتقاد، وشعر أنه إنسان له شخصية وإرادة، وصار لا يستبعد مجاراة أهل السراويل لأهل البنطلونات!

وقد كان به جنوح غريزي إلى العلم والأدب، وكانت والدته كما رأت منه ذلك ساعدته عليه، غير أن العقبة في إخراجه من محل أبيه أن يجد عملاً آخر يستغني به عن عمله، ففكر في تعلم حساب مسك الدفاتر ليكون كاتباً في أحد المخازن، فوافقه والده على ذلك. وكأنه رأى في هذا العمل منجاة ومهرباً من المطعم ريثما تتاح له الفرصة ليواصل جهاده في سبيل العلم والأدب، لا في سبيل المادة، ولا في سبيل الأرقام الصامتة التي يجمعها ويحسبها في هذه المحنة النفسية التي يعانيها في ذلك الحين..

يقضي على المرء في أيام محنته
حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

أمنية حققتها الأيام

تعلم مسك الدفاتر على معلم معروف في بيروت حتى أتقن هذا الفن في نحو شهرين، ثم وظف في أحد مخازن القماش، ولكنه لم يرتح إلى هذه الوظيفة التي لم يلبث فيها غير نصف نهار عاد في مسائه إلى مطعم أبيه. وكان هذا المطعم قد أصبح مقصداً ومراداً للطبقة المتعلمة في بيروت، وكان يزوره بين حين وآخر بعض العلماء والأدباء والصحفيين كالشيخ إبراهيم اليازجي والمعلم عبد الله البستاني، فكان يجتمع بهم ويستفيد منهم، وكان يميل إلى مباحثة الطلبة الذين يترددون عليه وخاصة طلبة الطب في «المدرسة الكلية» التي أصبحت فيما بعد الجامعة الأميركية ببيروت. وكانوا يرون فيه استعداداً عجيباً، وقد يدخل معهم في بحث علمي، فيسمعون منه أقوالاً لا يعهدونها في أمثاله، فأحبوا صحبته، وأخذوا يدعونه إلى الاحتفالات التي تجرى في المدرسة على أثر الامتحانات، فيسمع الخطب، ويشاهد التلاميذ الناجحين، فيتقد قلبه غيرة وحمية، ويود لو أتيح له يوماً أن يكون بين هؤلاء الناجحين. كان كلما حضر احتفالاً فكر في نفسه، وما يعترضه من العقبات في سبيل تحقيق أمنيته، فيخرج منقبض الصدر، ويلاحظ عليه أصدقاؤه ذلك، فيسألونه، فلا يبوح لهم بما في سره وما تنطوي عليه جوانحه من الآلام. وذات يوم صارح أحد أصدقائه قائلاً:

— ألا يأتي يوم أقف فيه موقف أولئك المتعلمين؟

ثم سكت صابراً، وأخذ يفكر فيما يوصله إلى ما يريد.

سر النجاح

من الأقوال الحكيمة التي ما زالت من دروس الحياة، وهي نتيجة التجارب قول البحتري:

لا يلبث الممنوع تطلبه
حتى يثوب إليك ممتنعه

وكذلك كان جرجي زيدان يتعشق التعليم ويغرم بالعلم ويلح في طلبه حتى ثاب إليه ما منع عنه وأسلس قياده. وقد ضاعف همته، وأثار بواعث نشاطه ما قرأه من سير الرجال الذين نالوا المجد والعظمة بجدهم واجتهادهم، واعتمادهم على أنفسهم، وفيهم من كان حلاقاً، أو حداداً، أو نجاراً، أو عاملاً من العمال، وقد أتيح له وقتئذ أن يقرأ كتاب «سر النجاح» الذي نقله إلى العربية الدكتور يعقوب صروف، فاطمأنت نفسه، وشعر بحافز قوي إلى المضي في عزمه على تعلم الطب.

وكان قد انتظم في عضوية «جمعية شمس البر» ببيروت. وهي جمعية أدبية أكثر أعضائها من تلاميذ المدرسة الكلية ببيروت، فأفضى بعزمه إلى بعض أصدقائه، فدهشوا لأن طالب الطب ينبغي أن يمتحن عند دخوله هذه المدرسة في الهندسة والحساب والجبر وعلوم الطبيعة، ولم يكن جرجي زيدان قد ألم بها إلماماً يساعده على النجاح في الامتحان — هذا عدا الامتحان في اللغتين الانجليزية والعربية — ولم يكن أمامه إلا عطلة الصيف، وهي نحو أربعة أشهر.. وقد حق لأصدقائه أن يدهشوا لو أن جرجي زيدان كان طالباً عادياً، ولم تكن

الأقدار قد زودته بهمة عالية ونبوغ فائق. ولهذا لم تثنه هذه الدهشة أو هذا التثبيط عن تحقيق أمنيته، فأقبل على هذه العلوم يدرسها ويذاكرها ليل نهار، وتقدم لامتحان القبول بمدرسة الطب. وكانت دهشة أصدقائه لنجاحه أشبه باعترافهم بنبوغه. وكانت وثبة من «سوق الطويلة» ببيروت إلى ساحة «المدرسة الكلية الأميركية» جعلته يشعر بمواهبه وأنه لا يقل عن لابسي البنطلونات مقدرة وذكاء..!

ثورته الحرية الفكرية

انتظم في دراسة الطب في المدرسة الكلية عام ١٨٨١، وكان مثال الاجتهاد والتفوق على قرنائه. ونال في الامتحان السنوي درجات الامتياز، وقد حضر الاحتفال هذه المرة، لا زائراً ولا متفرجاً كما كان في الاحتفالات الأخرى، بل ناجحاً ممتازاً يشار إليه بالبنان، وحققت له الإرادة القوية ما كان يتمنى فوقف «موقف أولئك المتعلمين». بل وقف بينهم موقف الممتازين.

وكانت السنة الثانية للطب، فانتظم مع إخوانه في الدراسة، ولكن لم يمض غير شهرين حتى وقعت حادثة الحرية الفكرية في المدرسة الكلية، وكان جرجي زيدان من أكثر المتحمسين لها، بل كان أكثرهم تحمساً. وقد انجلت عن خروجه مع معظم تلامذتها، غير أنه ثابر على دراسة علوم الصيدلة بعد خروجه، وأدى امتحاناً في هذه العلوم أمام لجنة حرة تألفت في بيروت من أشهر أطباء سورية ولبنان تحت رئاسة الكولونيل مراد بك حكيمباشي العسكر، ومن أعضائها الدكتور فانديك، والدكتور لويس، والدكتور رابوطاجي، وغيرهم. ونال شهادة الصيدلة في العلوم الآتية: اللغة اللاتينية، والطبيعيات، والحيوان، والنبات، والجيولوجيا، والكيمياء العضوية والمعدنية، والتحليل الكيميائي، والمواد الطبية، والأقرباذين العلمي والعملي.

هجرته إلى مصر

وبعد أن حصل على هذه الشهادة من هذه اللجنة الطبية الحرة اعتزم أن يتم دراسة الطب البشري في مدرسة قصر العيني بمصر، وكان ناظرها وقتئذ الدكتور عيسى (باشا) حمدي، لم يكن عنده ما يتزود به من النفقة في الأيام الأولى من الرحلة إلى البلاد المصرية، ولقد غامر بمستقبله في سبيل الحرية الفكرية التي ثار لها هو وزملاؤه في المدرسة الكلية، وكانت أول ثورة وإضراب للطلبة في الشرق، إذ كان يتعلم الطب ليعيش، وكان يتزود من التعليم ليحقق آماله في العلم، فلما خرج من هذه المدرسة شعر كأنما انقطع حبل آماله، وإن جهاده ذهب سدى، لكن ما لبثت عزيمته أن استردت قوتها، وما عتمت إرادته أن تغلبت على ضعف نفسه، وكان له جار ببيروت يعلم حاله وما آل إليه، فأقرضه ستة جنيهات ضمها إلى ما كان معه من قليل النفقة، وسافر إلى مصر، ولم ينس أريحية هذا الجار فرد له الجنيهات الستة بعد عام حينما مارس العمل لأول مرة في مصر.

اشتغاله بالصحافة

وكانت سنه حينما هاجر إلى البلاد المصرية، لا تزيد عن اثنتين وعشرين سنة ــ إذ ولد في ١٤ ديسمبر عام ١٨٦١ ــ فركب إحدى البواخر التجارية. وهي أول مرة يركب فيها البحر، ووصلت به الباخرة صباحاً إلى الإسكندرية في أكتوبر عام ١٨٨٣. كان ذلك عقب الثورة العرابية، فشاهد هذه المدينة في حالة يرثى لها على أثر الحريق وحوادث التدمير التي حلت بها من العدوان البريطاني. وكان لذلك أثره فيما بعد حين دون حوادث هذه الثورة في كتابه «تاريخ مصر الحديث».

وبعد أن استراح بالإسكندرية قليلاً شخص إلى القاهرة، وتقدم لمدرسة الطب. غير أن طول المدة لنيل شهادتها، حول عزمه عن صناعة الطب إلى صناعة القلم، فتولى تحرير «جريدة الزمان». وكانت حينئذ الجريدة اليومية الوحيدة بالقاهرة. وقد مكث في تحرير هذه الجريدة عاماً أو يزيد. ثم استقال منها ليعمل في الحملة النيلية إلى السودان.

الفلسفة اللغوية

سافر إلى السودان مترجماً في الحملة النيلية لإنقاذ غوردون (باشا) فقضى فيه عشرة أشهر شهد في أثنائها أعظم الوقائع الحربية مثل

واقعة أبي طليح وغيرها. وقد قاسى في هذه الرحلة ألواناً من المشقات، ولكنها كانت فرصة له لاستطلاع أحوال هذا القطر، ولما عاد إلى مصر نال ثلاثة أوسمة مكافأة له على جهوده.. غير أنه لم يستقر في مصر بعد عودته من الحملة، بل سافر إلى بيروت عام ١٨٨٥، فانتدبه المجمع العلمي الشرقي ليكون عضواً عاملاً فيه فمكث في بيروت عشرة أشهر يطالع اللغات الشرقية، فدرس العبرانية والسريانية. ووضع على أثر ذلك أول كتاب له، بل أول كتاب من نوعه في الشرق، وهو كتاب «الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية» ولم تكن سنه قد تجاوزت الخامسة والعشرين..!

وفي هذه الأثناء ألف أحد أصدقائه رواية سماها «رواية البطلين» جعل جرجي زيدان أول بطليها، وجعل غوردون (باشا) البطل الثاني. وقد وصف المؤلف فيها عصامية جرجي زيدان وانتصاره في معركة الحياة، وبطولته في التغلب على العقبات حتى وصل إلى ما يريد مع المحافظة على الفضائل والآداب الراقية.

عمله في «المقتطف»

كانت مجلة «المقتطف» في ذلك الحين هي أرقى المجلات العلمية وأشهرها في الشرق العربي، وكانت تجتذب أقلام العلماء والأدباء، وقد راسلها جرجي زيدان ببعض مقالاته الأدبية وبحوثه العلمية، فقدرت جهوده في صناعة الفكر والقلم. وكان قد سافر في صيف عام ١٨٨٦ إلى عاصمة الأنجليز، وتردد على أندية العلم فيها وزار المتحف البريطاني ثم عاد في الشتاء إلى مصر، فاختير مديراً عاماً لإدارة مجلة «المقتطف» فقبل، ومكث في هذه الوظيفة حتى عام ١٨٨٨ وكان يقوم بجميع شؤونها الإدارية يساهم في التحرير ببحوثه القيمة.

ولعل من الطريف أن نذكر أن جرجي زيدان في أول نشأته وهو في بيروت بعث بمقالة إلى هذه المجلة ينتقد فيها الآباء الذين لا يعلمون أولادهم، وكانت أول مقالة كتبها في حياته، فلم تنشرها المجلة وصادف أن جاءه مديرها في الصيف، وتناول طعامه في مطعم أبيه، فسأله عنها، فأجابه: «إنه يرجو أن تكون المقالة الثانية



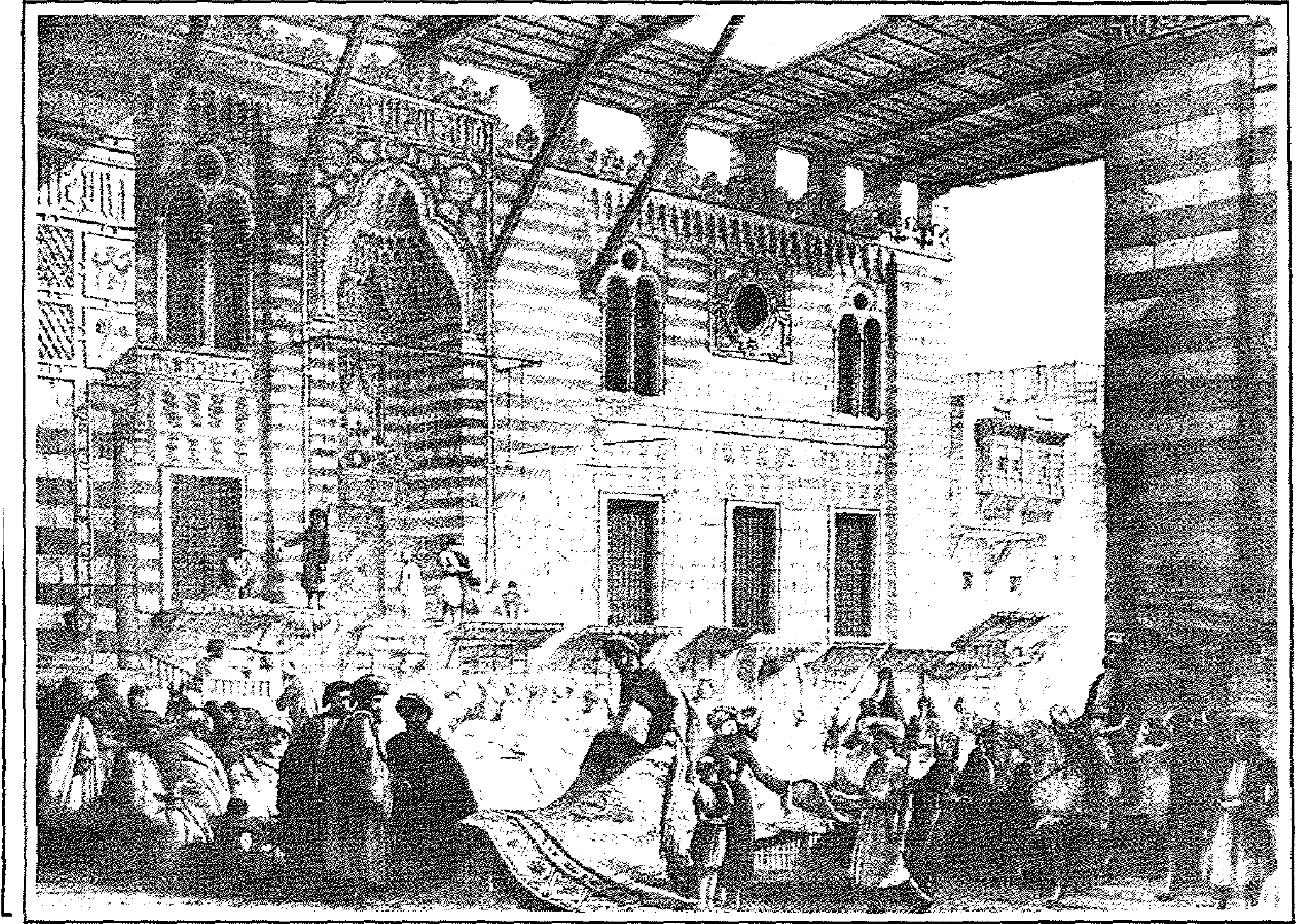
□ إبراهيم باشا.

خيراً من الأولى..!» وأراد الله أن يكون جرجي زيدان مديراً للمقتطف بعد نحو عشر سنوات من هذه الحادثة.

انصرافه للتأليف

مكث جرجي زيدان عامين مديراً للمقتطف، وكان مرتبه في تلك الوظيفة ثمانية جنيهات في الشهر. ولعل القارىء يظن أن هذا المبلغ في ذلك الزمان يعد ضخماً إذا قيس بقيمة العملة في عصرنا الحاضر، هذا صحيح إذا كان جرجي زيدان تناوله لقاء أعمال إدارية فقط أو أعمال تحريرية فقط، أو أعمال خاصة بالمطبعة وشؤون الورق والحبر والبريد والمشتركين والعمال فقط، بل كان يتناوله لقاء هذه الأعمال كلها، فقام بها خير قيام، ثم رأى وقته قد ضاق عما يغرم به من متابعة البحوث والتأليف، فاستقال من المقتطف، وانصرف لوضع نفائس المؤلفات، فألف كتاب تاريخ مصر الحديث في جزءين وعانى في تأليفه صعوبات جمة، وفي عام ١٨٨٩ ألف تاريخ الماسونية العام. وهو أول كتاب من نوعه كتب في العربية، ثم كتاب التاريخ العام وهو مختصر تاريخ آسيا وأفريقيا القديمة والحديثة.

وفي أواخر تلك السنة انتدبته المدرسة العبيدية الكبرى لطائفة الروم الأرثوذكس بمصر ليتولى إدارة التدريس العربي فيها، فتولاها سنتين. وفي أثناء هذه المدة ألف رواية: «المملوك الشارد». وهي أولى رواياته التاريخية، فصادفت



□ رسم قديم لسوق الغورية في القاهرة.

إقبالاً كبيرا حتى طبعت عدة طبعات. وكانت سنه لا تزيد عن ثمانية وعشرين عاماً!..

تأسيسه للهلال

أغرم جرجي زيدان بتحصيل العلوم والآداب، فدرس كثيراً، وقرأ طويلاً، وكان جهده هو أستاذه الأكبر، واعتماده على نفسه هو رائده الأعظم. وكما وهب نبوغاً في دراسة العلم والتاريخ وتحصيل الأدب، وهب ملكة ممتازة، ونبوغاً فائقاً في البحث والتأليف، وصبراً عجيباً على مشاقهما.. وقد عرف في التاريخ نوابغ كانوا نادرة الزمان في ذكائهم وعلمهم، ولكنهم لم يخلفوا وراءهم آثاراً، أو لم يخلفوا كثيراً من الآثار النافعة تتناسب وما اشتهروا به من نبوغ وعبقرية.

ولكن جرجي زيدان النابغة بعد أن درس واطلع وأصبح على حظ وافر من العلم أراد أن يكون نافعاً للناس وللغة العربية وللعرب والإسلام بوجه خاص، وكان من هؤلاء النوابغ القلائل في تاريخ الشرق، بل في تاريخ العالم الذين أضافوا إلى تراث العقل الإنساني ثروة جديدة.

ولما كانت الطباعة أهم ما يعتمد عليه في أداء رسالته، فقد عنى بأن تكون له مطبعة، واستحضر في ذلك الحين بعض الأدوات المطبعية، وتنحى عن التدريس وإدارته في المدرسة العبيدية. وأخذ يستعد لتأسيس مجلة يحقق بها هذه الرسالة إلى جانب ما يضعه من مؤلفات.

وفي أول سبتمبر عام ١٨٩٢ أصدر العدد الأول من هذه المجلة. وقد صدره بمقدمة قال فيها:

«لا بد للمرء فيما يشرع فيه من فاتحة يستهل بها، وخطة يسير عليها، وغاية يرمي إليها. أما فاتحتنا فحمداً لله على ما أسبغ من نعمه، وأفاض من كرمه. والتوسل إليه أن يلهمنا الصواب وفصل الخطاب. وأما خطتنا فالإخلاص في غايتنا، والصدق في لهجتنا، والاجتهاد في وفاء

حق خدمتنا. ولا غنى لنا في ذلك عن معاضدة أصحاب الأقلام من كتبة هذا العصر في كل صقع ومصر.

«أما الغاية التي نرجو الوصول إليها، فإقبال السواد على مطالعة ما نكتبه، ورضاؤهم بما نحتسبه وإغضاؤهم عما نرتكبه، فإذا أتيح لنا ذلك كنا قد استوفينا أجورنا، فننشط لما هو أقرب إلى الواجب علينا..». وبعد أن تحدث عن أبواب المجلة قال: «وقد دعونا مجلتنا هذه الهلال لثلاثة أسباب: أولاً ــ تبركاً بالهلال العثماني الرفيع الشأن.. ثانياً ــ إشارة لظهور هذه المجلة مرة في كل شهر. ثالثاً ــ تفاؤلاً بنموها مع الزمن حتى تتدرج في مدارج الكمال. فإذا لاقت قبولاً وإقبالاً أصبحت بدراً كاملاً بأذن الله».

خدماته للعرب والإسلام

وكان في النشأة الأولى لهذه المجلة يتولى كل أمورها بنفسه من تحرير وإدارة ومكاتبات مما لا يستطيعه إلا جماعة من الرجال، ولكنه كان يواصل العمل بلا ملل. ولما اتسعت شؤونها عهد بإدارتها إلى شقيقه، واستخدم معه آخرين وعكف هو على التحرير والتأليف. وقد وضع بعد تأسيسه الهلال روايات تاريخ الإسلام، وكتاب التمدن الإسلامي في خمسة أجزاء، وكتاب العرب قبل الإسلام، وعلم الفراسة الحديث، ومشاهير الشرق في جزءين، وتاريخ آداب اللغة العربية في أربعة أجزاء، وأنساب العرب القدماء، وطبقات الأمم، وعجائب الخلق والجزء الأول من تاريخ انجلترا.

وقد صدر من روايات تاريخ الإسلام ثماني عشرة رواية عدا أربع روايات خارجة عن هذه السلسلة، وهي: المملوك الشارد، وأسير المهدي، واستبداد المماليك، وجهاد المحبين. وقد نقلت معظم مؤلفاته إلى كثير من اللغات.

والذي يطلع على آثار هذه العصامي النابغة من بحوث ومؤلفات يدهش كيف استطاع أن يقوم بها مع أعماله في الهلال خلال اثنين وعشرين عاماً فقط، ولكنه النبوغ الذي يقف عند حد ولا يعرف للزمن حساباً، والجهود المضنية، والنفس العظيمة التي يتعب الجسم في تحقيق مرادها حتى يذوب ويفنى. ولقد ذابت روح زيدان وفنى جسمه قبل الأوان، وهو لم يتجاوز من عمره الثالثة والخمسين.

لم يعرف جرجي زيدان التعب طول حياته، وقد انتفع ونفع بكل ساعة من وقته، فكانت حياته على رغم قصرها مباركة، وكانت جهوده على رغم صعوباته مثمرة. ولقد جاءه يوماً مستشرق يزوره، فلما رآه سأله مستغرباً: «أنت جرجي زيدان؟» فأجابه: «نعم» فقال المستشرق: «كنت أنتظر أن أرى شيخاً ذا لحية بيضاء، لأن من يطلع على مؤلفاتك لا يقدر عمرك بأقل من ثمانين سنة»!

هذا هو العصامي جرجي زيدان: نشأ فقيراً سدت أمامه أبواب المعارف، فلم يحل الفقر ولا تحالف الشدائد والعقبات دون ما يريد، ووثب من الصناعة والعمل إلى عبقرية الفكر ومجد العلم والأدب، من ساحة البرج ببيروت، إلى ميادين الثقافة العليا، ومن بيروتي صغير لابس السروال، إلى عالم كبير ونابغة جليل يفخر به الشرق أجمع، ومن فتى مجهول يكافح في سبيل العيش وفي سبيل التعليم، إلى كهل عظيم يضع أنفس المؤلفات في تاريخ الشرق وتاريخ الإسلام وآداب اللغة العربية ويبتكر من المؤلفات ما لم يسبقه إليه أحد، ويخطب وده العلماء والأدباء ومعاهد العلم الكبرى، وتنتدبه الجامعة المصرية القديمة ليدرس لطلبتها تاريخ الإسلام، ثم تحتفظ بما وضعه لها من دروس حين وقف في سبيل انتدابه الجامدون!

هذا هو العصامي جرجي زيدان الذي سجل تاريخ الشرق اسمه بين العلماء الخالدين والعصاميين البارزين، والذي صح فيه قول القائل:

إن الفتى من يقول هأنذا
ليس الفتى من يقول كان أبي



معركة



ذات الصّواري

بين التاريخ وفن الحرب

(٣٤هـ - ٦٥٥م)

اللواء البحري المتقاعد وفيق بركات*

معركة ذات الصواري من المعارك الحاسمة المشرِّفة في تاريخنا العربي الإسلامي، لكن مشكلتها الأساسية هي التناقضات الغريبة التي نجدها في المراجع التاريخية العربية والأجنبية حولها. فقد اختلف المؤرخون حول أسبابها ومكان حدوثها وتسميتها، واتفق معظمهم على سير المعركة ونتائجها، من دون أن يحدث إجماع على ذلك. لكن أحداً من المؤرخين، الأقدمين والمحدثين، لم يدرس هذه المعركة من وجهة نظر فن الحرب البحرية، الأمر الذي دفعنا إلى تقديم هذه الدراسة الموجزة المركزة، فأوردنا ما اختلف فيه المؤرخون ودرسنا ما اتفقوا عليه، لاستكمال قصة هذه المعركة وسد ثغرة هامة في تاريخها.

(*) باحث عسكري متخصص في الشؤون البحرية صدرت له بعض المؤلفات والكتب المترجمة.

١ ــ الخلاف التاريخي حول أسباب المعركة وموقعها:



يجمع المؤرخون على أن معركة ذات الصواري كانت معركة فاصلة حاسمة بين العرب والروم تقرر فيها مصير البحر الأبيض المتوسط[١] «وأن المعركة انتهت بانتصار حاسم للمسلمين[٢] وتعتبر حداً فاصلاً في تاريخ البحر المتوسط، ذلك أن قنسطانز كان يرمي إلى تحطيم قوة المسلمين البحرية في مهدها ولو أنه وُفِّق في ذلك لظلت سيادة البحر المتوسط أو حوضه الشرقي على الأقل بيد البيزنطيين دون المسلمين»[٣].

ولكنهم يختلفون في أسباب قيام تلك المعركة ومكان حدوثها:

ــ الدكتور إبراهيم العدوي، أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة القاهرة، يذكر: «وعجّل قنسطانز باستخدام أسطوله حين ترامت إليه سنة ٦٥٥م أنباء استعدادات بحرية هائلة يعدها معاوية بن أبي سفيان والي الشام إذ ذاك لضرب القسطنطينية ذاتها عاصمة الروم، وجهد قنسطانز على أن يتلافى هذا الخطر العربي المقبل على عاصمته قبل اقترابه منها، وَعَوَّلَ على الخروج قاصداً الشام ليدمر الأساطيل العربية هناك قبل إبحارها من قواعدها... أعاد معاوية حشد قواته في حين وصلت سفن من مصر إلى سواحل الشام وخرج الأسطول العربي الشامي ــ المصري قاصداً القسطنطينية[٤]...

ــ الدكتور أنور عبد العليم أستاذ علوم البحار بكلية العلوم ــ جامعة الملك عبد العزيز (السعودية) يذكر: «... إذ حاول امبراطور الروم قسطنطين (كونستانز) الثاني إرجاع مدينة الإسكندرية من العرب فجهز حملة ٧٠٠ ــ ١٠٠٠ سفينة تصدت لها ٢٠٠ سفينة إسلامية مصرية وسورية بقيادة عبد الله بن أبي السرح وتمكنت من هزيمة البيزنطيين»[٥].

ــ ويؤيده في ذلك جميل خانكي إذ يقول: «لعل أولَ انتصار بحري أحرزه الأسطول المصري في ذلك العهد عند قدوم الامبراطور البيزنطي قنسطانت الثاني بن هرقل لغزو الإسكندرية... على رأس أسطول مكون من ١٠٠٠ سفينة وفي رواية أخرى ٥٠٠ فقط... وقد اشترك معاوية في هذه الموقعة البحرية إذ أنه لما بلغه مقدم ابن هرقل خرج من الشام بأسطوله وانضمت وحداته إلى مراكب عبد الله بن سعد»[٦].

ــ بينما يرى المؤرخان الدكتور أحمد مختار العبادي والدكتور السيد عبد العزيز سالم رأياً مخالفاً تماماً في قولهما: «...ولما كانت الموقعة قد دارت بالقرب من ساحل ليكيا فالأرجح أن هناك سبباً آخر دعا العرب إلى الاقتراب من هذا الساحل بآسيا الصغرى، وأعتقد أنهم كانوا يسعون إلى الحصول على مصدر جديد للأخشاب الجيدة اللازمة لصناعة السفن مثل خشب البلوط الصلد اللازم لصناعة الصواري والقرايا والأقواس»[٧].

«كما أن التفسير الذي أورده الدكتور إبراهيم أحمد العدوي للاشتباك البحري في ذات الصواري ويتلخص في أن أخباراً ترامت إلى قنسطانز باستعدادات بحرية هائلة وأخرى برية يقوم بها معاوية لضرب عاصمة البيزنطيين الضربة الأخيرة يبدو لنا غير مقنع لأنه لا يستند لا على أسانيد وثائقية ولا حتى على استدلالات منطقية»[٨]. ويرى المؤرخان المذكوران: «أن قنسطانز قد ترامت إليه أنباء هذه الحملة (يقصد حملة للحصول على الأخشاب) بدليل أنه كان متأهباً لاستقبال سفن الأسطول الإسلامي بسفن لم ير العرب مثل عددها قط، ولو أن العرب كانوا ينوون حقاً غزو القسطنطينية لما غامروا بالخروج في سفن قليلة نسبياً ولما هالهم عدد السفن البيزنطية...»[٩].

أما ما يتعلق بموقع المعركة فهناك أيضاً تباين واضح في تحديده، فنرى الدكتور أنور عبد العليم يقول: «وسميت هذه الموقعة بذات الصواري لكثرة صواري السفن التي استخدمت فيها[١٠] ويرى الرأي نفسه السيد جميل خانكي: «... عرفت في المراجع العربية بغزوة ذات الصواري لكثرة ساريات السفن التي التحمت في القتال، واشتهرت في المصادر الأوروبية بوقعة فونيكه (phoenicus) لوقوعها بالقرب من ثغر فونيكه غرب الإسكندرية[١١]

ــ وقد أورد الدكتور إبراهيم العدوي نفس

الرأي: «عرفت بوقعة ذات الصواري بسبب كثرة صواري السفن المشتركة في القتال[١٢]

— أما الدكتور العبادي والدكتور سالم فيريان رأياً مخالفاً تماماً بالاستناد إلى مراجع تاريخية معروفة: «... ونستدل على هذا الرأي بأن كلمة ذات الصواري لم تطلق نسبة إلى كثرة صواري السفن كما يزعم فريق من المؤرخين العرب[١٣] ولكن نسبة إلى موقع بهذا الاسم استنتاجاً من قول الطبري (فركب في مركب وحده ما معه إلا القبط حتى بلغوا ذات الصواري فلقوا جموع الروم في خمسماية مركب أو ستمائة)[١٤] وقوله أيضاً: «وأقام عبد الله بذات الصواري بعد هزيمة الروم[١٥]، ولا يمكن أن يسمى موضع بهذا الاسم إلا لكونه مصدراً لأخشاب تصنع منها الصواري...»[١٦](*)

٢ ــ سير المعركة وأحداثها الهامة:

كان الامبراطور قنسطانز الثاني يؤمن بأن المقادير قد ادّخرته لإنقاذ دولته من ضعفها ودفع خطر الأسطول العربي عنها، فبادر بإعداد الوسائل التي تمكنه من المحافظة على وحدة بلاده والقضاء على طلائع البحرية العربية التي هجمت على دياره، وأخذ في تدعيم قوة الروم البحرية وبعث الحياة في قواعد بلاده البحرية واتخذ الإجراءات التي تكفي خلق تعاون بحري بين آسيا الصغرى وبلاد اليونان وأعاد بناء أسطول قوى عمد إلى اتخاذه سبيلاً لطرد العرب من مياه البحر الأبيض المتوسط واسترداد سيادة الروم على ذلك البحر.

«وعجل قنسطانز باستخدام أسطوله حين ترامت إليه في سنة ٦٥٥م أنباء استعدادات بحرية هائلة يعدها معاوية بن أبي سفيان، والي الشام إذ ذاك لضرب القسطنطينية نفسها عاصمة الروم وجهد قنسطانز على أن يتلافى هذا الخطر العربي المقبل على عاصمته قبل اقترابه منها وعوّل على الخروج قاصداً الشام ليدمر الأساطيل العربية هناك قبل إبحارها من قواعدها[١٧]. إلا أن المقريزي في كتابه المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ج ١ ص١٦٩٠ يذكر توجهاً آخر، حيث يقول في وصف للمعركة: «قدم قسطنطين بن هرقل لغزو الإسكندرية سنة ٣٤هـ على رأس أسطول من ١٠٠٠ سفينة...».

وقد نشط وكلاء الروم في الشام لعرقلة استعدادات العرب البحرية وكان معاوية قد حشد معداته البحرية في مدينة طرابلس فقام اثنان من الروم بفتح سجن المدينة وأطلقا سراح عدد كبير من أسرى الروم ثم هاجموا دار الحاكم العربي وأحرقوا العدد والعتاد التي بذل معاوية في جمعها كثيراً من الجهد والعناء ثم فروا جميعاً إلى آسيا الصغرى[١٨]، لكن الأسطول العربي ظل سليماً وبذلك أعاد معاوية حشد قواته، على حين وصلت سفن من مصر بقيادة واليها عبد الله بن أبي السرح إلى سواحل الشام وخرج الأسطول العربي (الشامي المصري) قاصداً القسطنطينية(**)، وعندما وصل الأسطول العربي إلى ليكيا بآسيا الصغرى ألقى مرساه عند فوينكس (phoenix)(***)، حيث بلغه نبأ اقتراب أسطول الروم وعلى رأسه الامبراطور قنسطانز نفسه[١٩].

وكان قنسطانز بن هرقل قد «خرج في جمع لم يجتمع للروم مثله منذ كان الإسلام»[٢٠] وكان أسطوله يتألف من خمسماية سفينة مزودة بآلات الحرب، راع العرب منظرُها ولا سيما الذين سبق لهم أن اشتبكوا مع الروم في معارك بحرية، ووصف أحد المشتركين في الحملة البحرية العربية شعوره حين تقابل الأسطول العربي مع سفن الروم قائلاً: «فالتقينا في البحر فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط»[٢١].

وكانت مراكب المسلمين مئتي مركب ونيفاً فقام عبد الله وقال للناس: «بلغني أن ابن هرقل قد اقبل عليكم في ألف مركب فأشيروا علي» فقام رجل من أهل المدينة كان متطوعاً مع عبد الله فقال: «أيها الأمير إن الله مع الصابرين» فقال عبد الله: «اركبوا»[٢٢]، وكان قائد أسطول الشام في معركة ذات الصواري بسر بن أرطاة»[٢٣].

وحين التقى الجمعان في البحر كانت الرياح غير ملائمة فقضى العرب والروم ليلتهما انتظاراً لما يسفر عنه الصباح، وأخذا يستعدان فيها ويعملان على تقوية الروح المعنوية، فبات العرب يصلّون ويدعون الله، في حين قضى الروم ليلتهم يضربون بالنواقيس، وفي صبيحة اليوم التالي دارت المعركة، واشترك فيها الامبراطور قنسطانز

نفسه حيث أخذ يصدر من سفينته تعليمات لقتال العرب ويتابع منها الأنباء بانتظام عن سير المعركة[٢٤].

بدأ العرب القتال بالأقواس والسهام فأدرك قنسطانز تفوق جنده عليهم لأن العرب يجيدون هذا السلاح في الحروب البرية فقط وأن الموقف الآن بحرياً وليس برياً، وأن ذخيرتهم سوف تنفذ سريعاً، وتحقق ما رآه قنسطانز إذ اضطر العرب لاستبدال الأقواس والرماح التي نفذت بالحجارة وقذف العدو بها، وهنا أيقن الامبراطور مرة أخرى أن الفوز حليف أسطوله.

غير أن العرب حين رأوا نفاذ ذخيرتهم من الحجارة وأن العدو ما زال بعيداً عن متناول سفنهم وأنه يراوغ ويماطل لإنهاك قواهم ربطوا سفنهم بعضها إلى بعض وقذفوا خطاطيف في البحر جذبوا بها سفن الروم إليهم ثم أخذوا من ظهور السفن المتلاحمة ميادين قتال أشبه بميادين البر. وحين وصلت أنباء تلك الخطة الجديدة إلى الامبراطور قنسطانز أدرك فشل حملته وأن الهزيمة لا شك محيقة بجنده»[٢٥].

«فلقوهم فاقتتلوا بالنبل والنشاب وتأخر ابن هرقل لئلا تصيبه الهزيمة وجعلت القوارب تختلف إليه بالأخبار فقال: «ما فعلوا؟» قالوا: «قد اقتتلوا بالنبل والنشاب» فقال: «غَلبت الروم» ثم أتوه فقال: «ما فعلوا؟» قالوا: «قد نفذت الحجارة وربطوا المراكب بعضها ببعض يقتتلون بالسيوف» قال: «غُلبت الروم»[٢٦].

وتحقق استنتاج قنسطانز إذ وثب العرب على الروم بالسيوف والخناجر وأعملوا فيهم التقتيل واشتد الصراع وكثر القتلى حتى وصف شاهد عيان هذه المعركة قائلاً: «رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواجُ جثثَ الرجال ركاماً»[٢٧] و «... وقتل عدد وفير من الطرفين المتحاربين إلى أن انهزم ابن هرقل جريحاً ولم ينج من الروم إلا الشريد»[٢٨].

وقد أبدى الفريقان المتحاربان من صنوف التفاني في الواجب وضروب الشجاعة ما سجلته مراجع العرب والروم على السواء[٢٩]. ومن الأمثلة على ذلك أن العرب نسوا في غمرة المعركة مخاوفهم واستماتوا في الدفاع عن سفينة القيادة التي أقلت والي مصر عبد الله بن أبي سرح، فقد عمد الامبراطور قنسطانز حين علم بخطوة العرب الجديدة إلى نشر الفوضى في صفوفهم بالقضاء على سفينة القيادة عندهم، فأمر جنده بقذف خطاف علق على سفينة أمير البحر العربي عبد الله بن أبي السرح وأخذ الروم يجذبون المركب العربي إليهم. وكاد الروم ينجحون في أسر مركب القيادة العربي لولا شجاعة أحد الجنود العرب ويدعى «علقمة بن يزيد العطيفي» إذ رمي هذا الجندي بنفسه على السلاسل التي كانت تجذب سفينة القيادة العربية وأخذ يعمل فيها القطع برغم ما تعرض له من ضربات العدو وسهامه وكُلِّلَ عملُ علقمة بالنجاح، إذ قطع السلسلة وأنقذ سفينة القيادة العربية من الوقوع في الأسر. ونال هذا الجندي العربي ثناء زوجة أمير البحر التي تسمى بثينة حيث كانت على ظهر السفينة أثناء القتال وقد شاءت الأقدار فيما بعد أن يظفر ذلك الجندي بزواجه من بثينة بعد وفاة زوجها[٣٠]، وهلك عنها علقمة فتزوجها كريب بن أبرهة(****)، وقد حضر المعركة.

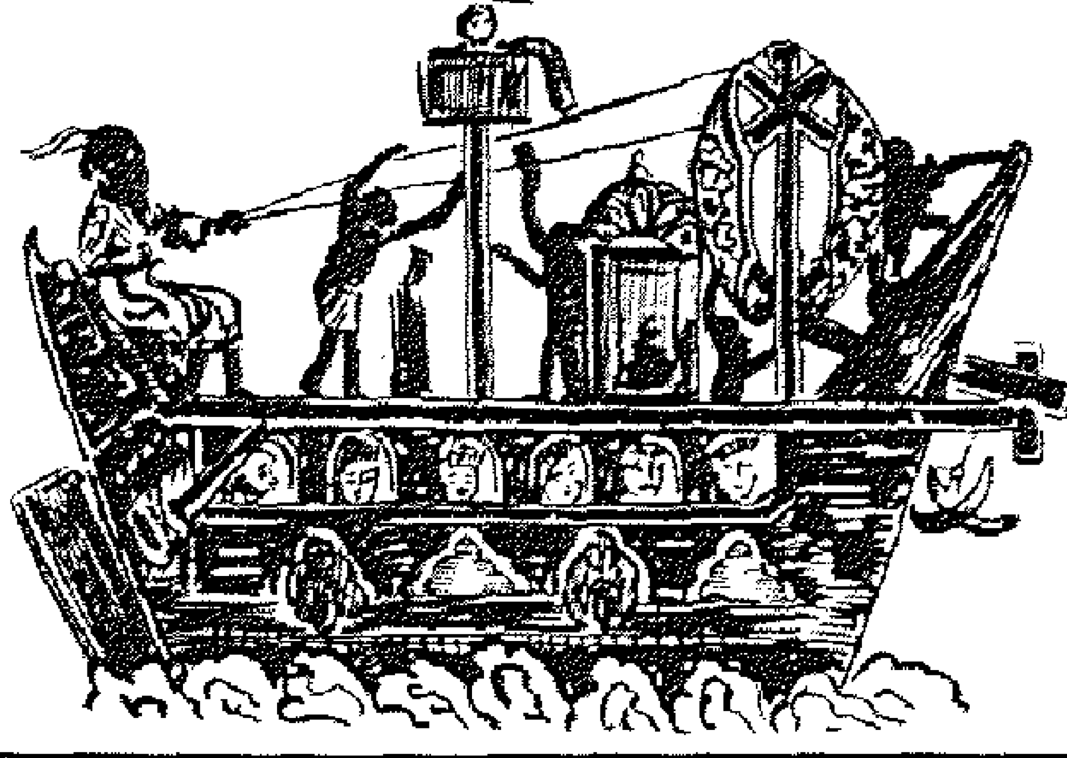
وأظهر الروم في تلك المعركة تفانياً في الدفاع عن سفينة قيادتهم إذ بعد نجاح العرب في إنقاذ سفينة قيادتهم هجموا على الروم بشدة واقتحموا السفينة المقيم عليها الامبراطور وأعملوا القتل في جندها، وكاد الامبراطور يقع في قبضة العرب لولا أنه تنكر باستبدال زيّه بملابس ابن أحد ضاربي الطبول على سفينة وهرب من المعركة على مركب آخر فرّ به إلى صقلية[٣١].

وبفرار الامبراطور قضى العرب على تلك (الأرمادا) التي أعدها الروم، وخرجوا ظافرين من معركة حامية الوطيس.

وتجلت أولى النتائج الهامة التي ترتبت على انتصار الأسطول العربي في تلك الواقعة الفاصلة في تدعيم سيادة العرب على الشواطيء الشرقية للبحر الأبيض المتوسط وطلّق أباطرةُ الروم فكرةَ استرداد البلاد التي كانت تابعة لهم من يد العرب وفضلوا الاعتراف بالأمر الواقع.

٣ ــ المعركة وفن الحرب البحرية:

إن دراسة معركة ذات الصواري من وجهة نظر فن الحرب البحرية الحديثة تقودنا إلى



النتائـج التالية:

(أ) تصميم الروم البيزنطيين على وضـع حد لنشاط البحرية العربية وكسر شوكتها نهائياً بعد تحقيق التعاون بين آسيا الصغرى واليونان، لكن تقديراتهم وخططهم فشلت في تحقيق الهدف المنشود.

(ب) دلت المجهـودات العـربيـة عـلى أن الأسطول العربـي قد أصبـح قوة كبيرة وحقيقة واقعة خاصة بعد أن بلـغ التعاون بين الشام ومصر أوجَه.

(جـ) خاض الجانبان عملية بحرية تسمى في فن الحرب الحديثة (عملية تدمير قوى العدو في البحر) بعد أن كان البيزنطيون يخططون لخوض (عمليـة تدمـير قـوى الأسـطول العـربـي في القواعد).

(د) يستدل من دراسة المراجـع التاريخية أن الروم قد فرضوا توقيت المعركة لكن النتيجة جاءت نصراً للعرب.

(هـ) استخـدم الأسطول العـربـي أسلحة البـر في البحر. (القـوس والنشـاب والمقـلاع والحجارة والسيوف والخناجر).

(و) خلال سير المعركة ابتكر البحارة العرب من وحي الموقف في ساحة القتال أسلوباً تكتيكياً مناسباً إذ ربطوا السفن إلى بعضها وجذبوا إليها سفن العدو ومدوا الجسور وحولوا المعركة إلى ما يشبه المعركة البرية.

(ز) اعتمد البحارة العرب على الشجـاعة والقوة والتضحية والمبـادرة الفرديـة والإيمان وعقيدة الجهاد.

(ح) استشار أمير البحر العربـي مرؤوسيه في التصدي للأسطول المعادي قبل اتخاذ القرار بالهجوم، وهذا يشبه إلى حد ما أسلوب القادة في اتخاذ قرار المعركة في العصر الحديث.

(ط) طبق أمـراء البحـر العـرب مبـادىء التعـاون على مسـتـويات عـالية اسـتـراتيجيـة وعملياتية بين قطرين وبين أسطولين انضويا تحت قيادة واحدة (أمير البحر عبد الله بن أبـي سرح والي مصر).

(ي) لجأ معاوية إلى تجهيز القوات وحشدها تمهيـداً للانطلاق من طرابلس ثم اشتـرك في المعركة نظراً لأهميتها (حسب بعض المصـادر التاريخية)[٣٢]: مستوى قيادي مناسب للعملية(*****)

(ك) طبق أمـراء البحـر العـرب مبـادىء التوجيه المعنوي والديني قبل بدء الحرب (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة).

(ل) إن الإبحار بالأساطيل الكبيرة على هذه المسافات البحرية الشاسعة يدل على خبرة واسعة في القيادة والسيطرة والإمداد والملاحة البحرية والاستـطلاع لدى بحارة الأسـطول العـربـي الإسلامي.

(م) استخدم الطرفان الجواسيس لمعرفـة استعداد وتجهيزات وتحركات كل طرف.

(ن) إن استخدام الأسطول البحري لتحقيق أهداف استراتيجية كبرى يدل على مدى اتساع الأفق السياسي والعسكري للقادة العرب في ذلك التاريـخ.

(س) إن الخبـرات المكتسـبـة والدروس المستفادة من هذه العملية البحرية الكبيرة قد سـاعدت الأسـطول العربـي لاحقـاً في غـزو القسطنطينية وفي خوض المعارك البحرية اللاحقة وساعدت إلى حد كبير في ترسيـخ المجد البحري العربـي في صفحات التاريـخ العالمي.

(ع) وبصورة عامة كانت مراحل المعـركة تدريباً ميدانياً للأسطول العربـي الإسلامي.

المـــراجــع

١ ــ د. إبراهيم أحمد العدوي: قوات البحرية العربية.

٢ ــ جميل خانكي: تاريـخ البحرية المصرية.

٣ ــ الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير): تاريـخ الرسل والملوك.

٤ ــ د. أنور عبد العليم: الملاحة وعلوم البحـار عند العرب.

٥ ــ د. أحمد مختار العبادي؛ د. السيد عبد العزيز سالم: تاريـخ البحرية الإسلامية في مصر والشام.

٦ ــ فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية.

٧ ــ الكندي: كتاب الولاة وكتاب القضاة.

٨ ــ ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبـي الكرم): الكامل في التاريـخ.

٩ ــ المقـريزي (تقي الدين أحمـد بن علي): المـواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار.

١٠ ــ د. علي حسني خربـوطلي: الإسلام في حـوض المتوسط.

١١ ــ ابن عبد الحكم: فتوح مصر.

الهوامش

(١) العدوي، ص ٣٦.

(٢) الطبري، ج ٣ ص ٦٩.

(٣) فتحي عثمان، ج ٢ ص ٣٢٨ (الحدود الإسلامية البيزنطية).

(٤) العدوي، ص ٣٨.

(٥) د. أنور عبد العليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص ٩٢.

(٦) تاريـخ البحرية المصرية: جميل خانكي، ص ١٣٧.

(٧) تاريـخ البحرية الإسلامية في مصر والشام: د. عبادي ود. سالم، ص ٢٩.

(٨) تاريـخ البحرية الإسلامية في مصر والشام: د. عبادي ود. سالم، ص ٢٩.

(٩) تاريـخ البحرية الإسلامية في مصر والشام: د. عبادي ود. سالم، ص ٣٠.

(١٠) د. عبد العليم، ص ٩٣.

(١١) خانكي، ص ١٢٧.

(١٢) العدوي، ص ٤٢.

(١٣) الكندي: كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص ١٣.

(١٤) الطبري، ج ٥ ص ٧٠.

(١٥) الطبري (نفسه): ابن الأثير، ج ٣ ص ١١٨.

(١٦) عبادي وسالم، ص ٣٠.

(١٧) العدوي، ص ٣٧ ــ ٣٨ (سبق ذكره: لضرورة السرد التاريخي للأحداث).

(١٨) العـــدوي، ص ٣٨، (Finaly, History of Greece, 377).

(١٩) العدوي، ص ٣٨.

(٢٠) الطبري، ج ٥ ص ٦٩.

(٢١) الطبري، ج ٥ ص ٦٩.

(٢٢) المقريزي، ج ١ ص ١٦٩ (بعرض المراجـع تذكر ١٠٠٠ سفينة وبعضـها ٥٠٠).

(٢٣) د. علي حسني خربوطلي: الإسلام في حوض البحر المتوسط، ص ١١.

(٢٤) الطبري، ج ٥ ص ٧٠.

(٢٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٦٠.

(٢٦) المقريزي، ج ١ ص ١٦٩.

(٢٧) الطبري، ج ٥ ص ٧٠.

(٢٨) ابن الأثير: (الكامل في التاريـخ)، ج ٣ ص ٤٨.

(٢٩) العدوي، ص ٥٠.

(٣٠) المقريزي، ج ١ ص ١٦٩ (أوردها خانكي بسيسه ووردت في بعض المصادر بثيثه).

(٣١) العدوي، ص ٤١.

(٣٢) خانكي، ص ١٢٧.

(*) حول الآراء الأخرى عن موقـع المعركة، انظر الهامش في نهاية الدراسة.

(**) ملاحظة: لقد تبنينا في دراستنا فكرة أن المعركة نشبت بالقرب من آسيا الصغرى.

(***) أي: العنقاء (أوردناها بالفرنسية والإنكليزية).

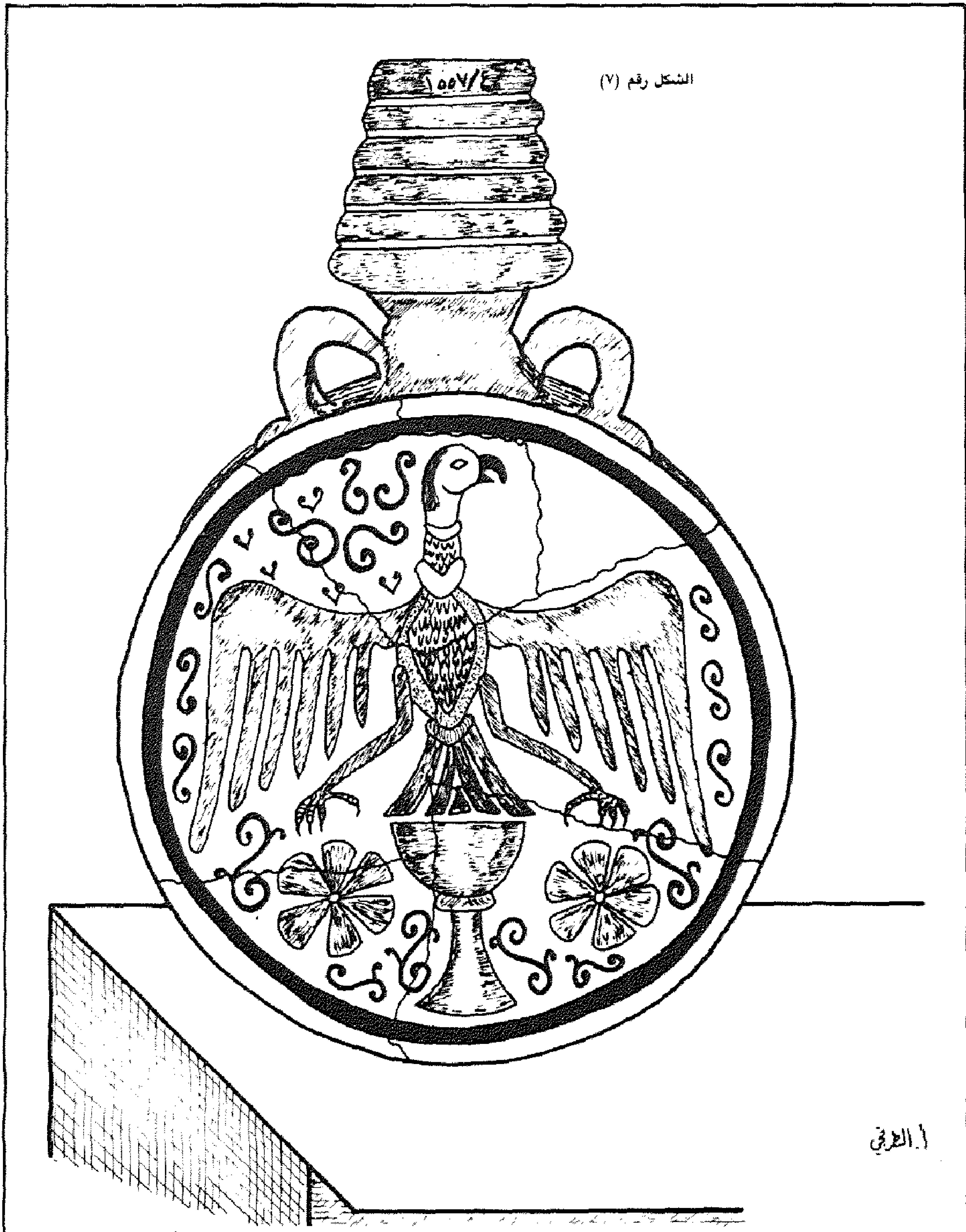
(****) شأن العرب بعد الإسلام في الحروب حين كانوا يتزوجون الأيامى زوجات الأبطال والشهداء جبراً لخواطرهن وصوناً لكرامتهن.

(*****) وقد تقصى أخبار معركة ذات الصواري جاستوت فييت (أستاذ اللغات الشرقية في جامعة باريس والمدير السابق للمتحف الوطني بالقاهرة) فذكر في الجزء الذي ألفه عن تاريـخ الوطن المصري في [illegible]عة جبرائيل هانوتو: «إن ماريوس كانار تعقب ذكر هذه المعركة فتوصل إلى أن الجنود البيزنطيين خرجوا من الأسطول إلى البر ودخلوا إلى الإسكندرية فخف إليهم عمرو بن العاص بجيش بري وكان يُعينه أسطول بحري عربـي فهزم العربُ الرومَ في البر ورمى الروم بأنفسهم على مراكبهم وقتل رئيسهم البطريق مانويل في معركة جرت في شوارع الإسكندرية بين العرب والروم...». وناقش نفس المؤرخ اسم معركة ذات الصواري فقال: «إن العرب تسميها ذات الصواري لأن أعمدة المراكب البيزنطية والعربية قد التحم بعضها ببعض في هول التقابل...»، لكننا لم نورد تلك الآراء في متن الموضوع لمخالفتها للتاريـخ والمنطق. (ص ٢٨ و ٢٩ من المرجـع المذكور).

المطرات في العهود الإسلاميّة

"نماذج من معروضات متحف دمشق الوطني"

أحمد فرزة الطرقجي



احمد فرزة الطرقجي المديرية العامة للآثار والمتاحف مديرية التنقيب والدراسات الاثرية
دمشق ــ سورية

تعتبر صناعة الفخار من أرقى الصناعات التي أوجدها الإنسان ومارسها، ولعل خير ما شُبِّهَتْ به صناعة الفخار هو خلق الإنسان. ففي الآية الكريمة: «الإنسان من صلصال كالفخار»[١].

ولئن كانت الحاجة أم الاختراع عندما صنع الإنسان أوانيه الحجرية الأولى، فإن صناعة الفخار جاءت مصادفة بحتة ونتيجة لتطور عدة مراحل من صنع الأواني. ففي البداية صنع الإنسان الفخار بتشكيله بيديه، وجففه بأشعة الشمس، ثم بالشي فوق النار، مما نتج عنه آنية غير متناسبة الشكل وسريعة العطب. ثم كان اكتشاف دولاب الخزاف البطيء، وفرن الشي المغلق، الأمر الذي أعطى الأواني شكلاً متجانساً وحرارة متساوية.. وتطور دولاب الخزاف فأصبح سريعاً مما ساهم في تلبية الطلب المتزايد على الأواني ذات الاستعمال اليومي والرخيصة التكاليف.



والأواني الفخارية رغم شبها الجيد إلا أنها سهلة الكسر، تافهة القيمة المادية، لذلك بقيت كسرها وشظاياها في مواقعها عبر القرون ممتنعة على الفناء، وبما أن دراسة الفخار وخصائصه وقرائنه الأثرية تسهم في تحديد هوية وأفق انتشار الثقافات التي يتنسب إليها، فقد غدت هذه الدراسة العمود الفقري لعلم الآثار.

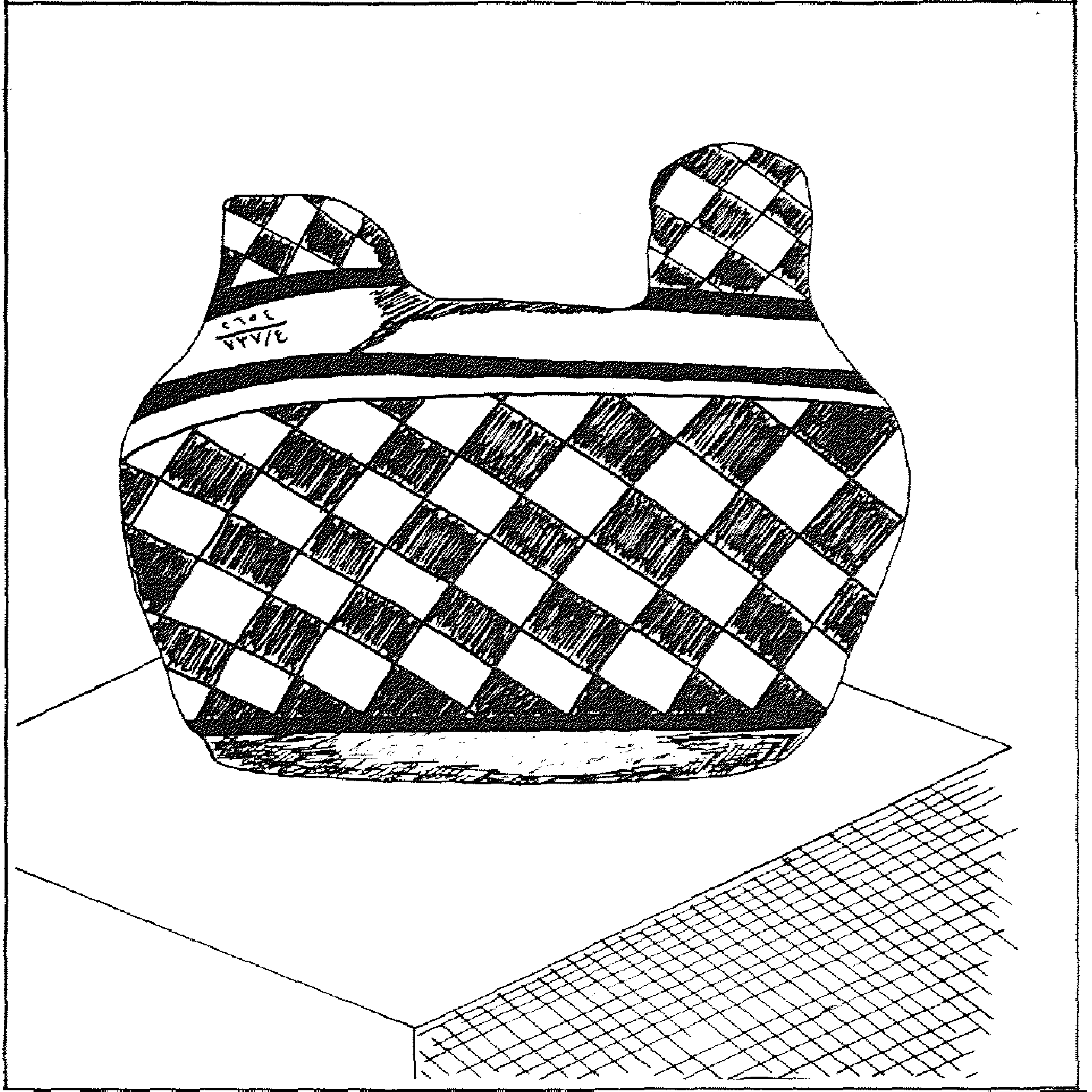
وقد برع الإنسان القديم بصناعة الفخار، وتفنن به إلى درجة الإبداع. وأخذ يزينه ويبتكر في تشكيله. ولقد ثبت من خلال تاريخ مختلف شعوب العالم أن مهنة صنع الفخار كانت مهنة تقليدية متوارثة، وهذا ما ساعد على اعتماد الفخار كوسيلة للتعرف على ثقافة الشعوب وعهودها. فكل حضارة ولها صناعتها الفخارية التقليدية الخاصة بها[٢].

ولعل أحدهم لم يخطىء عندما قال: إن شخصية الشعوب القديمة تتوضح من خلال صناعة الفخار. وهكذا استمرت صناعة الفخار راقية عند الأمم حتى أتى العرب المسلمون فأخذوا يتفننون ويبدعون في صناعة الفخار وتزيينه بالحز والوخز والقطع وإضافة الحبيبات والأشكال المجسمة والتلوين إلخ... ثم ابتكروا صب الفخار بالقالب، وأحدثوا على سطح أواني الفخار زخارف بارزة نباتية وحيوانية وكتابية وهندسية في غايةٍ من الدقةِ في الصنعة، والجمالِ في الأداء والإخراج. فصنعوا من الفخار والجرة والطِّسْت والقَدَح والأبريق والمَطَرَةْ وغيرها من الأواني التي بقيت تشهد على روعة الصناعة ومهارة الصانع.

المطرات الإسلامية سماتها وأشكالها

الماء أحد أهم عناصر الحياة وحيث وجد الماء وجدت الحضارة، والماء نعمة من الله، ففي الآية الكريمة: «وجعلنا من الماء كل شيء حي»[٣]، ولهذا سكن الإنسان منذ البدء قرب منابع المياه العذبة وأقام مستوطناته الأولى على ضفاف الأنهار، وعندما دعته الضرورة للإبتعاد عن مصادر المياه، أثناء رحلاته للصيد أو للتجارة أو الهجرة، كان لزاماً عليه أن يجد وسيلة ينقل بها الماء معه حيث رحل. فكانت قرب الماء المصنوعة من جلود الحيوانات والتي كان يخيطها بشكل يسمح له بحفظ الماء وإملائها وإفراغها بسهولة وبقي يستعملها إلى أن عرف خاصية الفخار وجودته في القدرة على حفظ الماء، لذلك كانت أشكال الأواني الأولى مستوحاة من قربة الجلد ــ الشكل رقم ــ ١ ــ فهي مطرة بدائية الشكل تشبه في تكوينها شكل القربة المصنوعة من الجلد، ومع التطور الذي رافق حياة الإنسان تطورت المطرات حسب الحاجة والمفهوم الجمالي لديه.

ولئن كان للفخار الإسلامي خصائصه المميزة وصناعته المبتكرة، إلا أننا نلمح البدايات الأولى للشكل المبدئي للمطرة ضمن المكتشفات التي عثر عليها في أحد مدافن رأس الشمرة «أوغاريت»[٤] وتعود لمنتصف القرن الثالث عشر ق. م، ونراها في بقايا الفخار الفرثي الذي عثر عليه في بعض



الشكل رقم (١)

□ مطرة ذات شكل بدائي تشبه القربة تعود للقرن السابع الهجري ــ الثالث عشر للميلاد لم يعرف مكان وجودها، منفذة باللون الأسود وبرسوم هندسية عضوية ــ الارتفاع: ٢١,٥ سم، الطول: ٢٥,٥ سم.

مناطق العراق (بين القرن الأول ق . م والقرنين الأول والثاني الميلادي) إذ عثر في بابل على أشكال مختلفة من الأواني الفخارية الفرثية من بينها مطرات قرصية الجسم[٥].

ولعل المسلمين في صناعتهم للمطرات اقتبسوا فكرتهم من هذه المطرات شكلها العام ثم قاموا بتطويرها وتصنيعها حسب أسلوبهم الخاص ونظرتهم الفنية الإبداعية في الإقتباس والتطوير.

وهنا لابد لنا قبل البحث في سمات وأشكال المطرات الإسلامية أن نُعَرِّفَ المطرة وما هي عناصر تكوينها .. ففي اللغة، المطرة هي القربة؛ ووسط الحوض الذي يملأ بماء المطر.

وفي المصطلح، هي إناء جميل له شكل كروي مفرطح وله رقبة ضيقة وعروتان ــ (الصورة. رقم ــ ١ ــ) أو يكون شكلها كقرص مقطوع من أسطوانة حيث توضع الرقبة في السطح الأسطواني وتكون العروتان إلى جانبي الرقبة ــ (الشكل رقم ــ ٢ ــ) المطرة ع / ٩٧٧١[٦]

ويطلق على المطرة أيضاً أسم الزمزمية، لأن المسافرين إلى ديار الحجاز والذين يستعملونها في موسم الحج يحرصون على إملائها من ماء زمزم[٧].

هذا من حيث المبدأ العام، أما الصناع المسلمون فإنهم أبدعوا في تشكيلهم للمطرات من حيث إخراجها في مظهر مبتكر متطور، فتعددت النماذج وأساليب الإخراج حتى أصبح من المتعذر حصرها جميعاً.

وتشكيل المطرة يكون حسب الشكل المراد إخراجها به، فإن كانت مكورة مفرطحة يصنع كل نصف على حدة بعد ضغطهما بالقالب ثم يجمعان إلى بعض ويضاف إليهما العنق والعروتان، وإن كان شكلها كقرص سميك

سطحاه مستويان أو محدبان، فيصنع كل وجه على حدة بواسطة القالب ثم تصنع حلقة أسطوانية ويضم الوجهان إليها. وعند خط الإلتصاق غالباً ما يكون هناك عنصر زخرفي لإخفاء خط الوصل وتحسين شكل الإناء. ثم تقور الحلقة الأسطوانية ويضاف إليها العنق والعروتان، وقد يكون للمطرة كعب كالمطرة ٣٥٣٤ / ع/٩١٨ (الشكل رقم ٥) وهي مثال نادر ينفرد باقتنائه متحف دمشق.

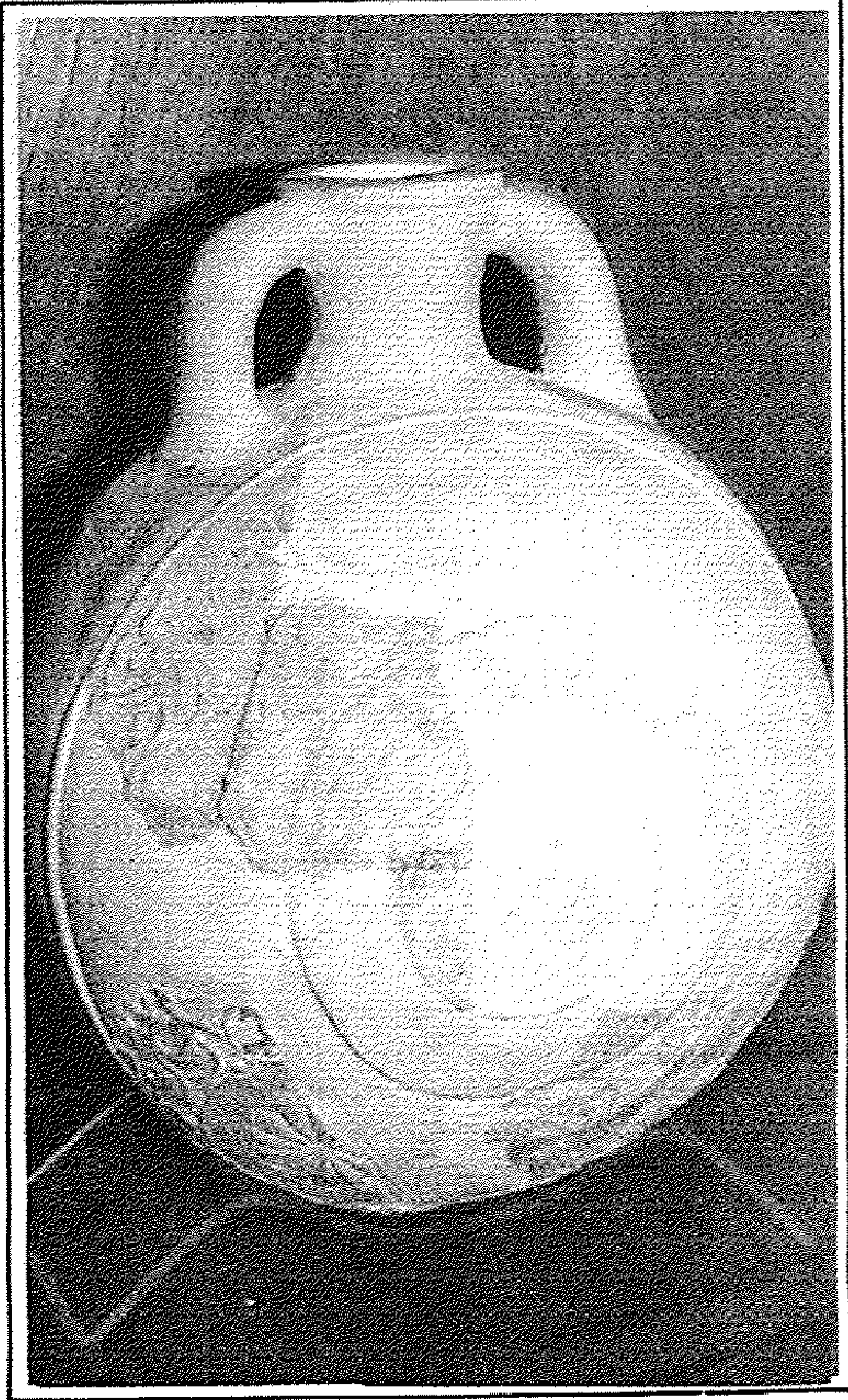
أما الصلصال الذي تصنع منه المطرات فقد يكون خشناً أو ذو لون قاتم، إلا أن الصانع يستطيع تلافي عيوب الإناء وذلك بغطسه بعد صنعه في غضار جيد مائع له لون مناسب أو يطليه بلون آجرى.

أشكال المطرات

هناك أشكال عديدة للمطرات تزيد كثيراً عن النماذج التي سنتعرض لذكرها في هذا البحث، إلا أنه على سبيل المثال لا الحصر نورد عدداً من النماذج المألوفة والشائعة للمطرات الإسلامية ليس إلا .. فهناك مثلاً **المطرة القربة**:

وهي من أقدم أشكال المطرات، لأنها مقتبسة عن شكل القربة المصنوعة من جلود الحيوانات، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أننا إذا عثرنا على مطرة بشكل قربة وجب علينا أن نحكم بقدمها. ذلك أن التقليد في الصناعة قد يستمر في منطقة ما دون تطوير، أو قد يحبذ الصانع العودة إلى ما هو طريف ولو بعد حين — فقد عثر في حماة على ثلاث مطرات على شكل القرب ولكنها تعود إلى القرن السابع أو الثامن الهجري = الثالث عشر أو الرابع عشر الميلادي[٨].

وفي متحف دمشق يوجد عدة نماذج من هذه المطرات نذكر منها المطرة ٣٣٥٧ / ع/٨٤١ وجدت في المنطقة الوسطى من سورية، ارتفاعها ٩ , ٢٠ سم، وقطرها الأعظم ٦ , ١٦ سم (شكل رقم ٣) وهي مطرة هامة جداً لأنها عدا كونها تشبه القربة فهي تشبه أيضاً جذع الإنسان، وقد جعلت الزينة عليها بالألوان، وكأنها دامرموشي يرتديه الإنسان يضاف إلى ذلك، ثقب في وسط أعلى الرقبة الذي يدل على إمكان تمثيل رأس أنسان.



الصورة رقم (١)

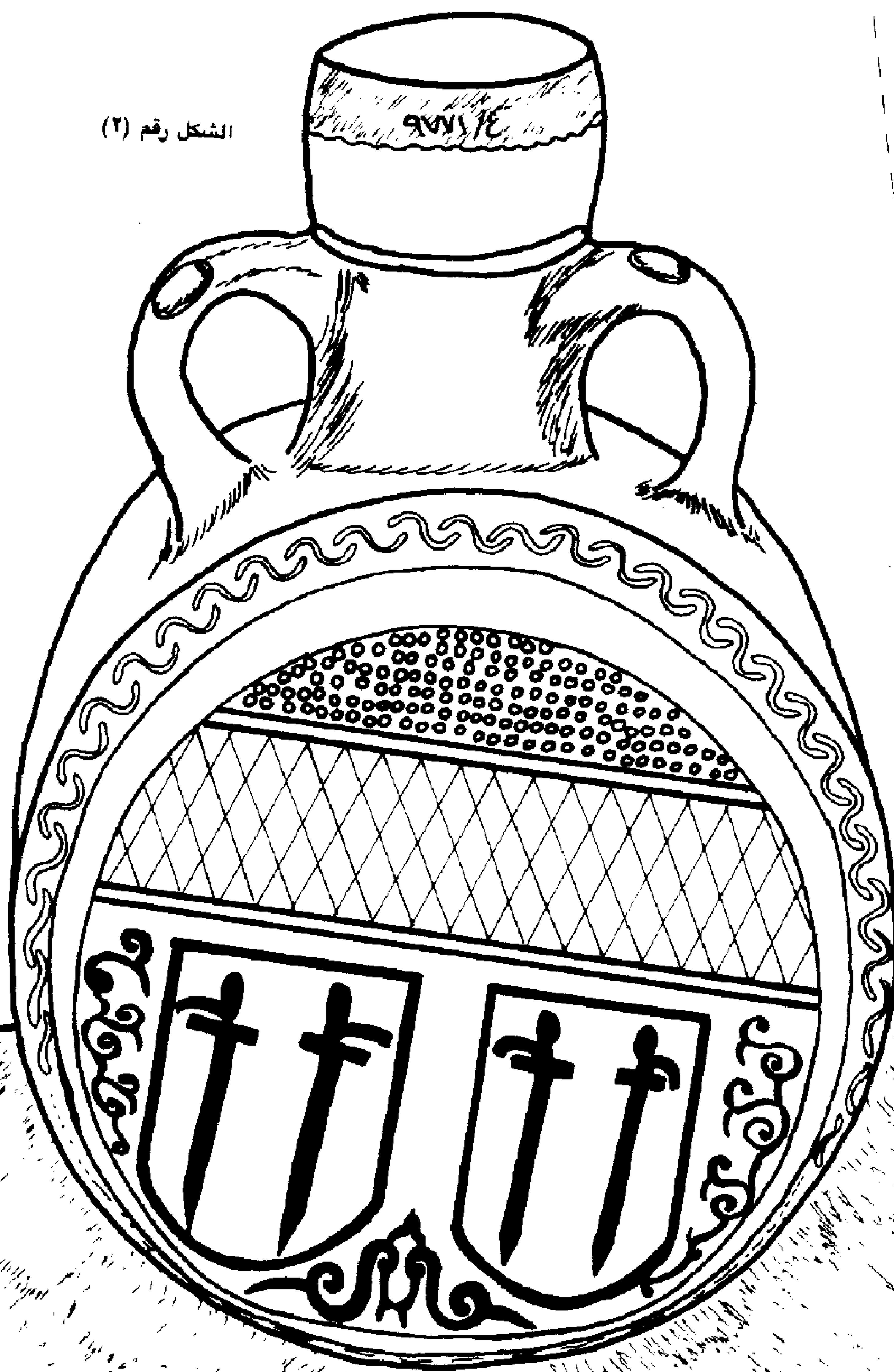
□ **متحف دمشق الوطني، قاعة حماة، الخزانة رقم (٢)**

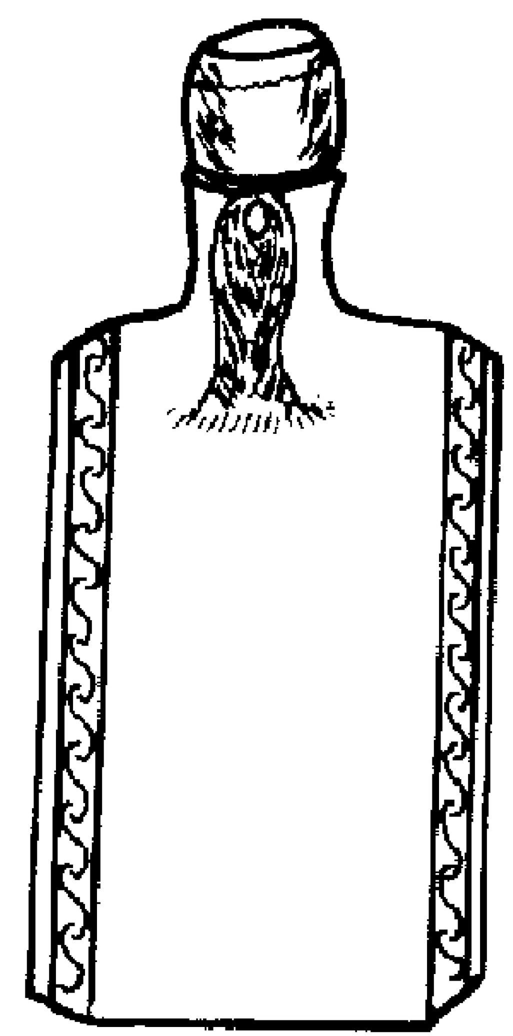
المطرة ذات شكل الكرة المفرطحة

أوالكرة المضغوطة، وشكلها معروف منذ القديم، حيث وجد منها عدة نماذج تعود للعصور الشرقية القديمة — أوغاريت — أو من العصور الكلاسيكية. وكان جذعها يصنع من قطعة واحدة حيث تأخذ شكلاً كروياً ثم تضغط لتأخذ الشكل المفرطح والغرض من ضغطها حتى تأخذ الشكل الإنسيابي وهذا مما يسهل على المسافر حملها معه فوق راحلته وحتى لا تتعرض للكسر السريع أثناء التنقل.

لكن الصناع المسلمين صنعوا الجذع من ثلاثة أجزاء حيث شكلوا أولاً حلقة أسطوانية ثم وجهين مستديرين محدبين بواسطة القالب ثم لصقوهما مع الحلقة ثم أكملوا المطرة بوضع عروتين وعنق ولدينا مثالاً لذلك في متحف دمشق (الصورة رقم ١) وهي ذات عنق أسطواني في

الشكل رقم (٢)





الأسفل يتضخم قليلا في الأعلى، ويلاحظ فيها خط الإتصال بين الوجه المحدب وجسم الأسطوانة والذي عَنِيَ الفاخوري بستره بشكل أنيق وبارع.

المطرة ذات القرص المحدب

وتصنع بحيث تكون الحلقة الأسطوانية في هذا النموذج أكثر سمكاً ويكون الوجهين أقل تحدباً من المطرة المفرطحة وفي متحف دمشق نموذج منها المطرة ٥١٣٧ / ع/١٥٧٧ وهي ذات عنق مخروطي يضيق في الأعلى وزينته اللطيفة مؤلفة من حلقات متتالية وهي من الأمثلة الجميلة جداً عن إتقان صنعة المطرات[٩] (الصورة رقم ٣ والشكل رقم ٧).

المطرة القرص المستوى

ويكون وجها هذه المطرة مستويين تماماً كالمطرة رقم ع/٩٧٧١ (الشكل رقم ٢) والمطرة ع/٧٢٥ (الصورة رقم ٩) ونلاحظ في النموذج الأول أن العنق أسطواني الشكل ثم ينفرج ليلتقي ببروز حاد ينخصر معه بخيط تزييني ثم يتضخم قليلاً بانحناء لطيف ثم يضيق ليشكل معه الفوهة ونلاحظ أن العروتين مثقوبتين في أعلى منحني العروة وقبيل التقائها مع العنق ربما لغرض تزييني أو لإدخال خيط تربط به المطرة وتعلق من أجل زيادة برودة الماء بداخلها، ويلاحظ أن قرص المطرة في هذا النموذج يكون ذو سمك كبير لأن وجهيها مسسويان.

المطرة ذات الوجهين الزائدين

ويكون وجها هذا الشكل من المطرات أكبر من الحلقة الأسطوانية وهما دائماً محدبان، وهنا يحاول الصانع أن يلائم بين الوجه الزائد والحلقة الأصغر قطراً بشكل جمالي ولعل المطرة ٤٨٧٢ / ع/١٤٦٦ من أجمل الأمثلة لهذا النوع وقد وجدت في شمال سورية وتعود للقرن الثامن الهجري (الشكل رقم ٦) ويلاحظ أن ظاهر الحلقة الأسطوانية مزين بزخارف محززة وموخوزة بأداة يدوية. بينما نُفِّذَ الوجهان بزخارف بارزة بوساطة القالب. أما العنق فهو شبه أسطواني منفرج قليلاً نحو الأعلى ومزين

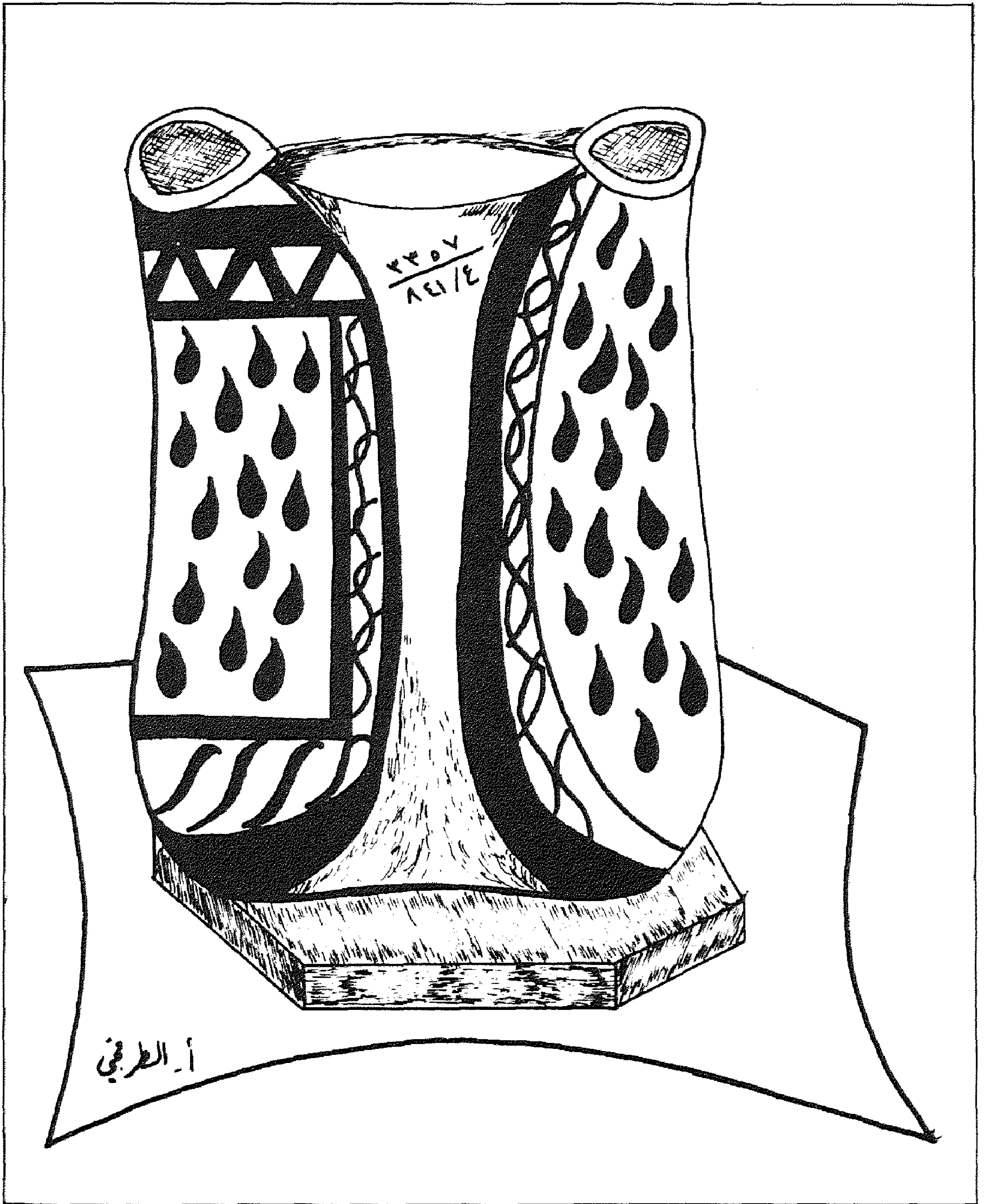


الصورة رقم (٣)

بحزوز طولانية مائلة[١٠]. ونجد أمثلة أخرى من أشكال المطرات تختلف عن التي أتينا على ذكرها كالمطرة الحلقة المستديرة، التي تشبه الكعكة وهناك نموذج منها في متحف حلب والهدف من هذا الشكل يفيد في تبريد الماء بداخلها لأن الهواء يحيط بأكبر مساحة ممكنة من الإناء.

العناصر الزخرفية والنقوش المحمولة على المطرات

تشترك معظم مطرات العهود الإسلامية بصفات مشتركة بينها، من حيث البناء والتشكيل، فهي غالباً ذات إطار دائري يضاف إليه رقبة وعروتان، بأسلوب رشيق يتناسب مع حجم وشكل المطرة. إلا أنها تختلف اختلافاً كبيراً من حيث التفاصيل الزخرفية المحمولة على جسم المطرة. ولعل بعضها قد ترك بدون زخرفة عن عمد رغم كونها متقنة الصنع أنيقة الشكل.



الشكل رقم (٣)

□ مطرة بدائية الشكل، تعود إلى القرن السابع او الثامن الهجري، الموافق القرن الثالث عشر او الرابع عشر للميلاد، وجدت في المنطقة الوسطى من سورية، مكونة على شكل زق، ومزينة بزخارف هندسية وشبه هندسية. منفذة باللونين الأسود والأحمر ــ الارتفاع: ٢٠,٩ سم، القطر الكبير: ١٦,٦ سم، القطر الصغير: ٩ سم. متحف دمشق الوطني، قاعة الفخار، الخزانة (٥).

وربما أكتفى الصانع بإحداث خيط بارز حول العنق أو قام بتجعيد بسيط لجذع الإناء، أو إضافة نتوء لطيف على العروة، ليس لغاية منه سوى إضفاء نوع من الزينة على الإناء.

وتختلف الزخرفة في المطرات من حيث التنفيذ والأداة المستعملة في الزخرفة فقد تكون مزخرفة باليد أو بالإستعانة بأدوات خشبية أو معدنية، ويمكن أن تكون الزخرفة بالألوان، أو بإضافة زخارف مقطوعة مسبقاً ومشكلة حسب رغبة الصانع تضاف إلى الإناء. ويمكن أن تتم الزخرفة بوساطة القالب أو الختم، وغالباً ما كانت تثبت الشعارات والرنوك على الأواني بهذه الطريقة.

وإذا كان استخدام الشعارات والرنوك معروفاً منذ القديم في تزيين الأواني الهامة أو التي تعود ملكيتها إلى شخص ذو أهمية كحاكم أو أمير، فقد اشتهر المماليك عن سواهم بإثبات شعاراتهم على مبانيهم التي شيدوها وعلى الأواني التي كانت للأمراء وقادة الجند ... وكثيرة هي الأسر المحلية التي قلدت الحكام والمماليك في هذا المجال متخذة لها رمزاً تثبته على الحاجيات أو الأواني المصنوعة لها. وكما أسلفنا لم يكن المماليك أول من ابتدع الرنك وأثبته على الأبنية والأواني، بل سبقهم إلى ذلك الأتابكة والأيوبيين. ولكن على نطاق ضيق[١١] حيث لم يلتزم الصناع في إثباته دائماً.

أما الشعارات الملوكية فقد كانت تقليداً رسمياً يحافظ عليه، وغالباً ما كان للرنك صلة بعمل الموظف أو الأمير أو صاحب الشعار، فالسيف والقوس لأصحاب المناصب العسكرية، والدواة للكاتب أمين السر، والكأس للساقي، أما الشعارات الممثلة بحيوانات كالأسد والعقاب فهي من رموز الملك للدلالة على القوة. هذا بالإضافة إلى عدة أشكال من الرنوك تكون غالباً مستوحاة من أشكال نباتية كزهرة اللوتس أو أشكال هندسية.

وهنا سنستعرض بعض الشعارات الموجودة على المطرات المحفوظة في متحف دمشق الوطني[١٢].

السيف: يوجد عدة مطرات في متحف دمشق الوطني تحمل شعار السيف وتختلف فيما بينها

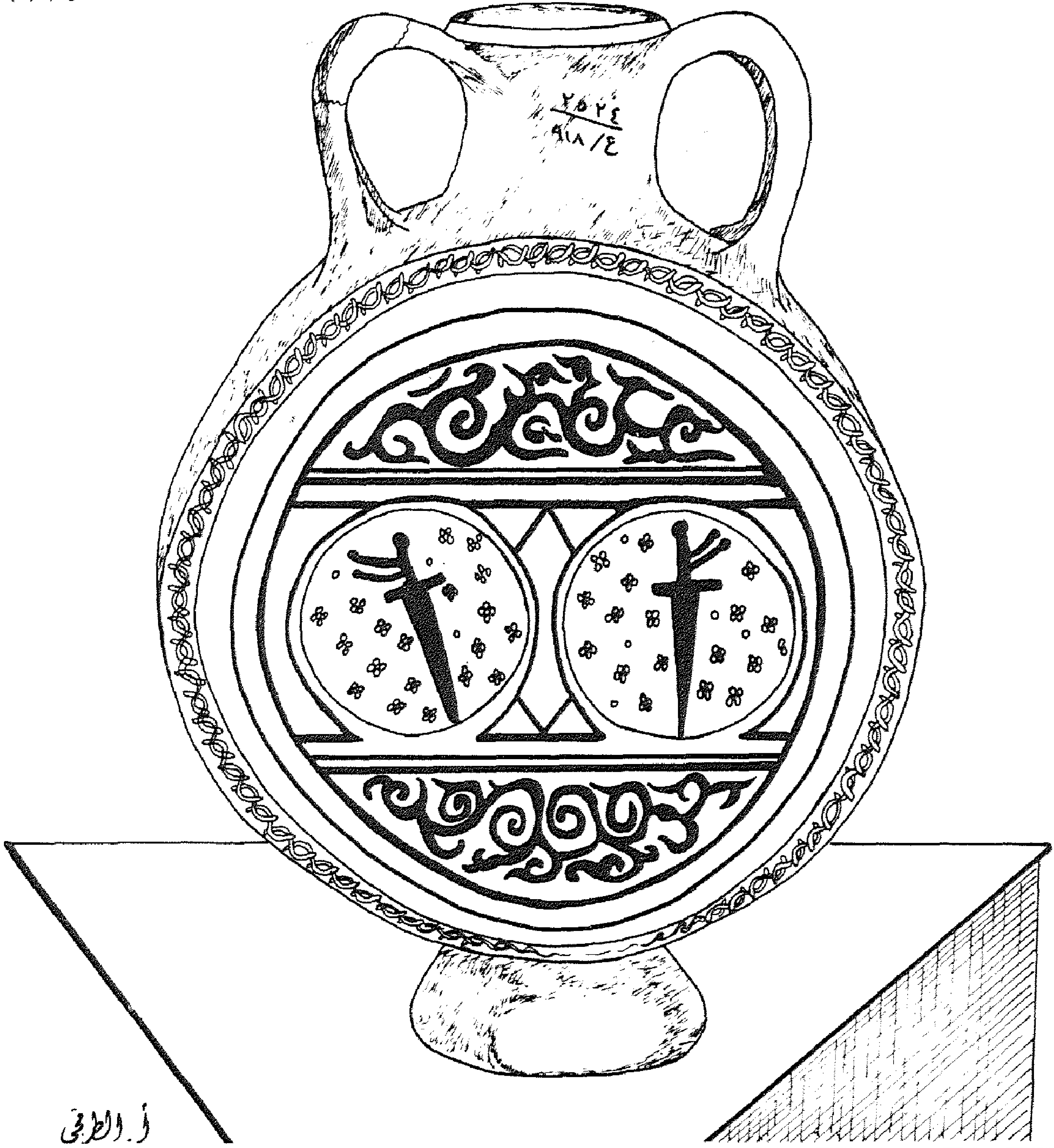


الصورة رقم (٨)

من حيث شكل السيف وصورته، ففي بعضها يظهر السيف بشكل حربة مستقيمة لها عارضة بعد المقبض، أو سيف مستقيم له عند مقبضه ذؤابة أو ذؤابتان أو سيف منحني ... الخ.

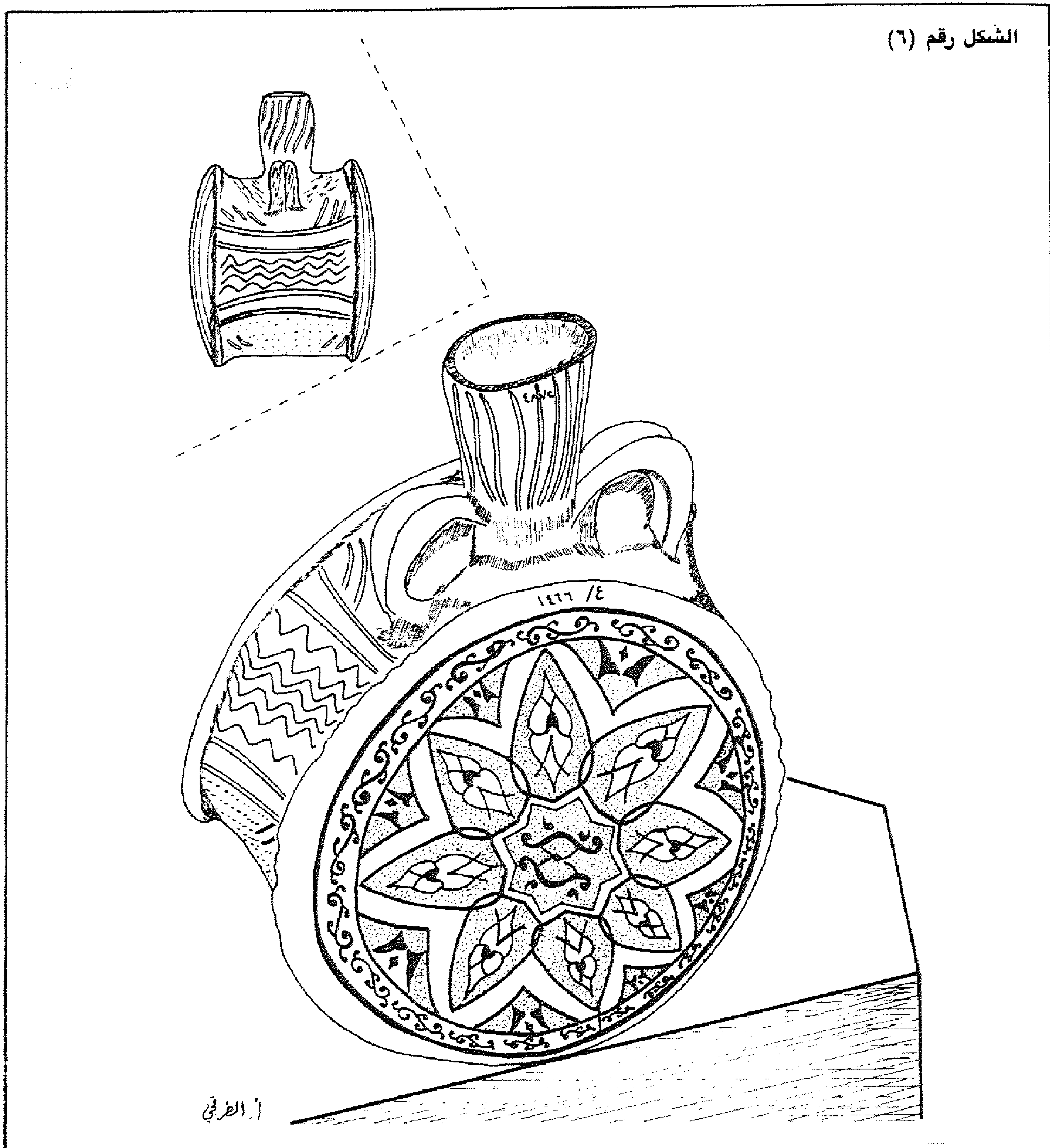
وقد يكون في الشعار سيف أو اثنان أو أكثر نذكر منها المطرة ٢٥٢٤ / ع/٩١٨ وقد مثل عليها ضمن دائرتين صغيرتين متجاورتين سيف مستقيم قائم له وقاء بين الفصل والمقبض وله ذؤابتين في مقبضه، ولقد زين ما بقي من سطح كل من الدائرتين بمجموعات متفرقة كل واحدة مؤلفة من ثلاث أو أربع حلقات صغيرة تبدو كأنها ورود صغيرة منثورة على سطح الدائرتين.

جمعت هاتان الدائرتان في أعلى وأسفل نقطة التماس بخطين منكسرين حَصَرا الفراغ الحاصل بين نقطة التماس والحدين المماسين للدائرتين في الأعلى والأسفل وقد ملئت الفرغات بحلقات صغيرة متراصة. كما يوجد خيط مؤلف من



عروق نباتية على محيطي جانبي المطرة، وتتميز هذه المطرة عن سواها بوجود كعب مخروطي لها (الشكل رقم ٥)(١٣).

أيضاً هناك نموذج آخر في المطرة ع/٩٧٧١ حيث مثل كل من وجهيها ترسان مستويان من الأعلى ومستديران من الأسفل في كل ترس سيفان قائمان متوازيان لكل منهما وقاء بين النصل والمقبض وذؤابة واحدة في المقبض تنحني نحو الطرفين الوحشيين، وزين سطح كل من الترسين بحلقات صغيرة جداً، ويشغل الترسان القطاع الأسفل من قرص المطرة ضمن الدائرة التزينية، أما الفراغ بين الترسين ومحيط القطاع، فهو مشغول بعروق نباتية ناعمة ملتفة، والقسم العلوي من قرص الدائرة التزينية فهو مقسوم إلى قسمين بخيط يوازي وتر القطاع، قسمه السفلي مزين بشبكة من خطوط مستقيمة منكسرة بارزة والقسم العلوي مزين بحبيبات نافرة. وفي أعلى كل من عروتي المطرة ثقب



تزيـيني. (الشكل رقم ٢).

السبـع: عرف السبـع كشعار للقوة والملك، وقد استعمله المماليك كشعار لهم، واشتهر به الملك الظاهر بيبـرس في القرن السابـع الهجري، ويـوجـد في متحف دمشق المـطرة ٢٦٧٢ / ع / ٧٥٢ وقد مثل بيبرس على كل من وجهيها ضمن دائرة سبـع منطلق نحو اليسار، محدود من أعلاه وأسفله بخطين بارزين، والسبـع محاط بـزخرفـة نباتيـة، ووجهه إنسـاني وله شعـر مقصوص — ربما هذا من تأثير فرعوني، ويبدو فوق ظهره أطراف رداء متطايرة كأنها جناح، وذيله معقوف فوق ظهره، والقطاعان الباقيان من الدائرة في الأعلى والأسفل، زينت بعروق نباتية متشابكة (الصورة رقم ٩).

النسر: أمـا النسر فقد مثـل في الشعارات بأوضاع وأشكال مختلفة كما أنه مُثِّلَ أحياناً برأسين. وأشهر من جعل النسر شعاراً له الأمير سيفِ الدين طقزتمر الحموي ويوجد مطرة هامة

الشكل رقم (٨)



جداً له في متحف دمشق الوطني يجمع إلى شعاره النسر أيضاً الكأس دلالة على رتبته الأولى التي كان يشغلها، إذ كان ساقياً في المطرة ٥١٣٧ / ع/١٥٥٧ والتي مثل عليها النسر يلتفت إلى الجهة اليسرى ناشراً جناحيه على الطرفين مسنداً ذيله فوق كأس مسطح الأعلى ذي قاعدة. وعلى جانبي الكأس وردتان من ست وريقات. وهذه العناصر بارزة فوق أساس من عروق نباتية ناعمة ذات بروز ضعيف[١٤] (الصورة رقم ٣) الشكل رقم ٧).

زهرة اللوتس: مثلت أيضاً كشعار على المباني والأدوات الخاصة واتخذها كثير من الملوك والأمراء شعاراً لهم، ولكنها تختلف من حيث تكوينها وشكل وريقاتها ونهاياتها العليا والدنيا.

والزنكيون هم أول من استخدمها كشعار واتخذها بعدهم الأيوبيين ثم المماليك ولدينا المطرة ٤٦٩١ / ع/١٤١٥ مثالاً جميلاً لزهرة اللوتس وهي مطرة مسطحة الجانبين زين كل من وجهيها بزهرة اللوتس بشكل بارز على أساس من عروق نباتية قليلة البروز ومحصورة ضمن دائرة. وهي بشكلها مثالاً نادراً لم يعثر على مثيل له كقرينة أثرية لتحديد هوية صاحبه (الصورة رقم ٨) و (الشكل رقم ٨).

هذا من حيث الزخرفة الخارجية للمطرات، ولكن التزيين لا يقتصر على الزخرفة والرسوم المصنوعة بالقالب أو بالختم بل يتعداها إلى التشكيل العام للمطرة حيث يتفنن الصانع بها لعدة أغراض منها:

١ ــ الحصول عل أكبر فائدة ممكنة من المطرة حين استخدامها.

٢ ــ أن يكون شكلها جميلاً وأنيقاً ومتناسب الأجزاء، لإغراء المستهلك بإقتنائها.

فعند صنع المطرة يحاول الصانع أن يجعلها تستوعب أكبر قدر ممكن من الماء وأن تكون مزوّدة بمشرب هنيء، وأن تكون ذات عنق ضيق لئلا يتوثب منها الماء عند حملها أثناء المسير ولئلا يتدفق الماء بغزارة منها عند الشرب، إضافة إلى الحرص على أن يكون شكل المطرة ملائماً للمكان الذي يضعها المسافر به حتى لا تضايقه أو تتعرض للكسر.

هناك عنصر زخرفي آخر في تزيين المطرات الا وهو العروة ...

فالعروة تتصل بجسم المطرة أو الإناء بشكل عام من مكانين فقط ويكون ما بينها وبين الإناء فارغاً وأشكال العرا متنوعة وكثيرة، فقد تتصل العروة بالعنق من أسفله أو وسطه في طرفها الأول، وبأعلى الجذع من الطرف الثاني، أو يكون اتصال العروة بالعنق منحنياً منعطفاً عليها بحيث يكون الإتصال حاصلاً بين ظاهر العروة والعنق. أو تكون العروة موصولة بحافة الشفة أو أعلى العنق وتنعطف مرتفعة قليلاً عن مستوى الشفة لتتجه نحو الأسفل موازية تقريباً للعنق لتتصل بأعلى الجذع، أو يكون اتصال العروة من وسط الرقبة. ونذكر هنا أن هناك أشكالاً عديدة تختلف قليلاً عن الأشكال المذكورة، وأحياناً يلجأ الصانع لتزيين العرا نفسها كأن يجعل العروة مجدولة مثلاً، أو تكون مضلعة أو محززة بأخدود في ظاهرها، أو تكون الزخرفة بإضافة عناصر أخرى في الشكل العام للمطرة كأن يحدث الصانع للمطرة كعباً كما في المثال الذي ذكرناه سابقاً في المطرة ٣٥٣٤ / ع/٩١٨.

وأخيراً لابد من القول أن صنعة الفخار لم تكن الفن الوحيد الذي عني المسلمون به وأبدعوا في إنتاجه، ولئن كانت هذه الصنعة قد تمتعت بشهرة واسعة حيث كانت تصدر إلى كثير من جهات العالم، فإن الفخار الإسلامي وعلى الرغم من كافة التقلبات التي تعرضت لها الدولة الإسلامية، قد حافظ على شهرته وبشكل خاص المنقوش منه والمزخرف.

ورغم تقشف الحياة الإجتماعية في المجتمعات الإسلامية، إلا أن الذوق الجمالي في إخراج الصناعة لم يغب أبداً عن فكر الصانع المبتكر ويده المبدعة، فقد اجتمعت الفنون كلها في تزيين الحياة الإسلامية والسمو بها إلى ذروة الجمال.

وإذا كان المجتمع المسلم لم يفرق بين الصانع الماهر ... وكان الهدف الذي تبتغيه كل صناعة أن تصبح فناً من الفنون الجميلة.



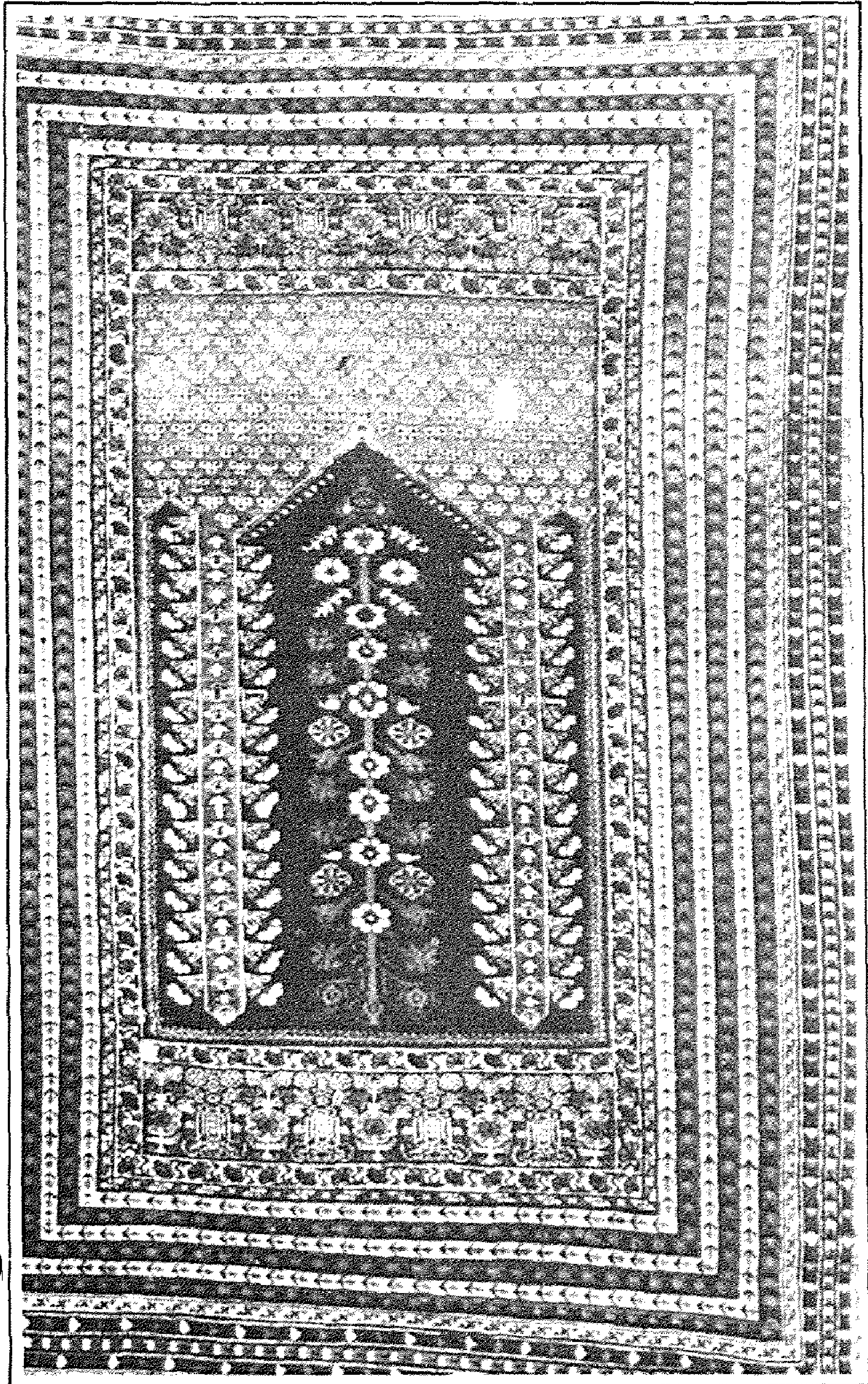
الصورة رقم (٩)

الهوامش

(١) سورة الرحمن، الآية (١٤).
(٢) مجلة الحوليات الأثرية السورية. المجلد ٢٧ ــ ٢٨ دراسة الفخار الأثري ص ٢١٦.
(٣) سورة الأنبياء، الآية (٣٠).
(٤) مطرة قرصية الشكل صغيرة الحجم من الطراز المسيني سطحها مزين بأشرطة دائرية سوداء وهي احدى القطع المكتشفة من الحفريات التي أجراها الأستاذ نسيب صليبي عام ١٩٧٠ في موقع رأس الشمرة.
ولمزيد من المعلومات حول هذه المطرة تراجع مجلة الحوليات المجلد ٢٩ ــ ٣٠.
(٥) مجلة سومر، المجلد رقم ٤ لعام ١٩٤٨ بحث في الفخار للأستاذ فرج بصمة جي.
(٦) أرقام المطرات المذكورة هي الأرقام المحتفية التي تحملها المطرات المعروضة.
(٧) مجلة الحوليات، المجلد ١٠ مقال للأستاذ محمد لو الفرج العش ص ١٣٥ وما بعد.
(٨) مجلة الحوليات، المجلد ١١ ــ ١٢ ص ٥٤ وما بعد.
(٩) المرجع السابق.
(١٠) المرجع السابق ص ٦٦.
(١١) مجلة الحوليات، المجلد ١٠ ص ١٤٥ وما بعد.
(١٢) جميع نماذج المطرات التي تذكرها معروضة في قاعة حماه وقاعة الفخار في المتحف الوطني بدمشق.
(١٣) مجلة الحوليات، المجلد ١٠ ص ١٨١.
(١٤) المرجع السابق ص ١٨٢.

البُسَاط السّحْريّ

شذا
عدرة



□ سجادة روسية،
من العهد القيصري
(القرن التاسع عشر)

بُساط، كلمة عربية لحرفة، على الأرجح، فارسية المنشأ. وهو في الأصل ثوب يفترش الأرض، تطور استعماله، فيما بعد، ليصبح سجادة أو مسجدة[١].

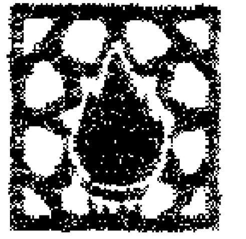
والحديث عن السجاد واصله وتطور صناعته، حديث مشوّق تكتنفه الحكايات والأساطير لتدلنا على مدى أصالة هذه الصناعة وتغلغلها في أعماق تاريخ الحضارة الإنسانية.

والباحث في جذور تلك الصناعة وتطورها، يتبين له أمران: الأول، ان تلك الجذور قد نبتت بمعظمها، إن لم يكن كلها، في قارة آسيا مهد أقدم الحضارات البشرية، وبالتحديد في بعض المناطق من شرقيها وجنوب غربيها أي الشرق الأدنى والأوسط والأقصى.

أمّا الأمر الثاني، فهو أن رسومات السجاد ورموزه، كانت جميعها تتلاءم أو بالأحرى تعبر عن معتقدات شعوب تلك المناطق. لذا نجدها في العصر الإسلامي تختفي منها صور الأشخاص والحيوان ما عدا بعض الطيور، وبالتالي فقد اتسمت بالنظرة التجريدية الشاملة. هذا بالإضافة إلى أن الإسلام، كان الحافز وراء ابتكار نوع خاص من البُسُط وهو سجادة الصلاة (من هنا جاءت كلمة السجادة، أي من السجود لله تعالى)، وقد كانت متميزة بحجمها الصغير ودقة صنعها وجودة نوعيتها. كما ان دخول الإسلام إلى معظم البلدان الآسيوية قد طبع حضارة تلك البلاد بطابع الحضارة العربية، التي انعكست بدورها على صناعة السجاد من خلال الزخرفة العربية الجميلة (الأرابيسك ـــ Arabesque).

وقد رافقت الأساطير أخبار السجاد، وكان أشهرها أسطورة «بساط الريح»، أو «البساط السحري» الذي كان يسافر عليه حكيم من بلاد الشرق، يحط من وقت لآخر في بعض المدن.

ونتناول نحن في هذا العدد، ترجمة مقال طريف وشيّق إلى جانب أهميته الحضارية، بعنوان «البُساط السحري»[٢]. ولكن لم نعتمد عليه فقط في المعلومات التي وردت في الترجمة، بل عدنا إلى بعض المصادر الأخرى، واستعنّا بأهمها.



تدلنا تلك الأسطورة على مدى أهمية «البُسُط» أو بالأحرى السجاد في حياة الإنسان الشرقي. انها ترافقه في جميع مراحل حياته، منذ ولادته حتى مماته.

بالنسبة إليه، تعتبر الأهم بين جميع مفروشات منزله، جعلها فراشاً له، غطاء، خيمة، كيساً، سرجاً لحصانه أو جمله حتى أنها أيضاً رافقته في خلوته وهو واقف بين يدي ربه يؤدي صلاته.

قد تدفع الحاجة، الشرقي إلى بيع ممتلكاته ولكنها لا تدفعه إلى التخلي عن سجادة قد يمتلكها، عروس الشرق قد لا يكون لديها ألبسة كثيرة ترتديها ولكن من المؤكد أن يكون لديها سجادة، قد تكون حاكتها منذ نعومة أظافرها.

كانت السجادة، تحاك باليد من صوف الغنم أو الإبل أو شعر الحصان، وتصبغ بأصبغة طبيعية تستخرج من التربة أو الأزهار البرّية. ثم تهمل لعدّة أيام في اصطبل للحيوانات، حيث تدوس عليها الأحصنة، الإبل والحمير، وذلك بقصد أن تشتد خيوطها وتتماسك عقدها. تنقل بعد ذلك إلى ضفاف أحد الأنهر الغزيرة حيث تخترقها المياه لعدّة أسابيع. تزيل عنها الأوساخ كلياً وتكسبها لوناً ثابتاً. وأخيراً تُجفَّفُ بواسطة أشعة الشمس وتصبح جاهزة للاستعمال.

يعود تاريخ صناعة السجاد إلى عصور بداية الحضارة الإنسانية، إذ أشارت إليها أحداث التاريخ، فالكتّاب كتبوا عنها، الشعراء، تغنّوا بها والأحداث صغيرة كانت أم كبيرة تجسّدت برسومها، وأقدم سجادة اكتشفت، وما زالت موجودة، كانت على يد عالم روسي يدعى رودينكو ـــ Rudenko. وقد اكتشفها عام ١٩٤٩، في قبر ملكي بالقرب من الحدود السيبيرية ومنغوليا العليا. تبلغ مساحتها حوالي الأربعة أمتار مربعة، مصنوعة من الصوف، ومكسوة برسوم زهرة اللوتس (شعار المصريين القدماء). وقد أثبت خبراء «جمعية الصوف العالمية في دسلدورف ـــ

International Committee of Wool in Dus-

seldorf».

إن أصل تلك السجادة يعود إلى مدينة سوسّة ــ Sussa الإيرانية في حوالي القرن السادس قبل الميلاد، أمّا عن وجودها في منغوليا البعيدة جداً عن بلاد فارس، فيعطينا الدليل القاطع على وجود طريق الحرير المشهور في تلك الآونة والذي كان يعبر آنذاك قارة آسيا بكاملها.

ولكن موطن ولادة السجاد، ليس بلاد فارس ولا مصر أيضاً، بل هناك نظرية، تعتمد على اكتشافات ظهرت في مدن شعوب المآيان في المكسيك مفادُها أن تلك الشعوب قد عبرت محيط الباسيفيك ووصلت إلى مصر، حتى قبل بزوغ الحضارة الفرعونية، وفرضت حضارتها على سكان مصر التي كان من بينها صناعة السجاد.

والشاهد على صحة هذه الرواية هو في تلك الرسوم المنحوتة على جدران كثير من معابد يوكاتان ــ Yucatan، وتمثال للإله الفرعوني آبيس ــ Apis الذي يرتدي، على شكل عباءة، سجادة زيّنت برسومات مايانية. ولكن وإن كانت هذه الشواهد تدل على صحة هذه الرواية، إلّا أنه يبقى راجحاً، ان المصريين هم أول من فكر بإنتاج السجاد ليس حياكة على النول فقط، بل حياكة بالإبرة أيضاً.

وإن كانت مصر هي صاحبة الفضل في ولادة فكرة حياكة السجاد، إلّا أن بابل العراقية وبرسيبوليس الفارسية كانا المركزين الرئيسيين لتلك الصناعة وتطويرها، وقد انحصرت حياكة السجاد بالمرأة لأنها تتطلب أيدي ناعمة وأصابع دقيقة لحبك عقدها.

أخذت، بعد حين، تظهر في آسيا مدن كثيرة تحتل مكانة مرموقة في إنتاج السجاد، كسوسة، مشتى الملوك الأخمنيين، والواقعة جنوبي غربي إيران، ومن ثمّ لحقتها صور وصيدا الساحليتان في لبنان، وميلتوس ــ Miletus الأثرية في تركيا وبرغاموم ــ Pergamum، المملكة اليونانية القديمة، والتي تغطي معظم أجزاء غربي آسيا الصغرى[٣].

أمّا في الشمال، إلى الشرق من تركستان وبالقرب من القوقاز على طول خط طريق الحرير. ازدهرت صناعة نوع معين من السجاد كان يختلف عن غيره تماماً ويتميز بألوانه التي لا تضاهى، «على الرغم من أنها مدينة بربرية، إلّا أنّ الإنسان قد يجد فيها سجاداً أرجواني اللون، شبيهاً بلون الخمرة في كأس زجاجي تنعكس عليه أشعة الشمس فيشعُّ منه ألواناً لا تضاهى، وهو ذو سماكة كبيرة، حتى ليخالك وكأنك تسير على ظهر سفينة شراعية تمخر عباب البحر». هذا ما جاء على لسان كاتولوس ــ Catullus (٨٤؟ ــ ٥٤ق. م.)[٤]، الشاعر الغنائي الروماني، الذي افتتن بسجاد تلك الناحية[*] وجمال ألوانه.

تكشف لنا المصادر اليونانية ــ الرومانية القديمة؟ مدى الأهمية التي كانت تحتلها السجادة في حياة شعوبهم اليومية. فملوك اليونان أمروا بتغطية عروشهم بعدد منها، ومشاهير الإغريق امتلكوا منها الكثير كالفيلسوف أفلاطون (٤٢٧؟ ــ ٣٤٧ق. م) الذي أكسبته مجموعته الكبيرة شهرة إلى جانب شهرته كفيلسوف.

وخلال الحرب اليونانية ــ الفارسية، حرص الجيش الإغريقي على حمل الكثير من الغنائم ومن بينها السجاد النفيس، وقد أهدى الإسكندر الكبير إحداها إلى والدته أوليمبيا، وكانت أرجوانية اللون مزينة برسوم الطيور والأزهار.

أمّا عند الرومان، فنجد عكس ذلك، إذ وجدوا في اقتناء السجاد نوعاً من التخنّث البشع، وفضّلوا على دفئه الاحتفاظ ببرودة رخام بلاطهم وفسيفسائه.

أقصُّوه عن حياتهم اليومية تجارياً وداخل منازلهم، حتى ان كاتو ــ Cato السياسي الروماني (٢٣٤ ــ ١٤٩ ق.م.)[٥] قد ذهب إلى أبعد من ذلك وأحرَق أمام جمع غفير، سجادة بابلية ثمينة، كان قد ورثها عن أجداده الذين حرصوا على الاحتفاظ بها لجمالها. ولكن على الرغم من كل ذلك فإن السجادة لم تختف بتاتاً من حياة الرومان، إذ صوّروها في لوحاتهم الجصّية الجدارية والفسيفسائية في كل من مدينتي بومبيي،ــ Pompeii وهيركولانيوم ــ HERCULANEUM الرومانيتين الأثريتين.

وبمرور السنين، ساهم الترابط الذي أحدثه «طريق الحرير» بين أصفهان وبكين، ساهم كثيراً في نمو العلاقات وتطويرها بين امبراطوريات آسيا



□ «رامي السهام» رسم من رسومات «سجادة صيد» كبيرة، من صنـع معمل البلاط الفارسي. (النصف الثاني، من القرن السادس عشر).

الثلاث: فارس، الهند والصين. وقد انعكس ذلك على «فن صناعة السجاد» من حيث تبادل الحرفيين أو اختطافهم مما أدّى إلى ولادة فن آخر جديد، كان مزيجاً من فن بلد المصدِّر والمقيم.

عند الانتقال إلى الحديث عن صناعة السجاد في الفترة الإسلامية، لا بدّ من ذكر التأثير القوي الذي أحدثه الإسلام على تلك الصناعة من حيث الرسوم والابتكار. فعند ولادة الرسول الكريم (صلعم) حوالي عام ٥٧٠م، لم يكن أحد يتوقع الانقلاب الذي سيحدثه صاحب الدين الجديد في جميع مجالات الحياة وعلى جميع الحضارات اللاحقة.

فالعرب، تحت راية الإسلام، افتتحوا قارة آسيا حتى حدود الهند، ومصر وشمالي افريقيا واسبانيا. وسادوا جميع البلاد التي افتتحوها سيادة شاملة وطبعوها بطابعهم فإذا هي كادت تنسى قديمها وتأثرت بالفاتح أدباً وعلماً وفناً.

وفيما يتعلق بفن التصوير والرسوم، «فالبيئة العربية قبل الإسلام لم تعرف التصوير فناً كما عرفته الأمم الأخرى، ولعلّ بُعد الأمة العربية في جاهليتها عن التصوير، كان له أثره فيها فيما بعد حين أظلّها الإسلام فكانت أميل إلى الأخذ بما تخال فيه نهياً عن التصوير وابتعاداً عنه»(٦).

أما القرآن الكريم فليس فيه ما يشير عن قرب أو بعد إلى تحريم التصوير. ولكن يبدو أن الأثر البيئي الذي صرف العرب عن الأخذ بالتصوير، ظلّ ممتداً عهود الإسلام الأولى إلى أن كانت تلك الصلات التي ربطت الشعوب العربية بشعوب أخرى ذات حضارات تختلف عن حضارتها، وتحمل فنوناً مختلفة منها فن التصوير الذي وقف منه الإسلام موقف النهي أكثر من موقف التحريم، لأنه كان حريصاً على أن لا يكون بين العابد وربه شاغل من رسوم أو تصاوير(**)

«ويروى أن عائشة زوج الرسول الكريم (صلعم) وضعت في بيتها ستراً عليه تصاوير، فقال لها الرسول: أميطي عني فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي. وتقول عائشة رضي الله عنها أن الرسول قد نزع الستر، فقطعته هي وسادتين كان يرتفق عليهما. وهذا يعني أن كراهية الرسول للتصوير لم تكن عامة بل كانت خاصة تشمل ذلك الجانب الذي يشغل عن العبادة. أما إذا كانت للزينة فلا كراهية فيه»(٧).

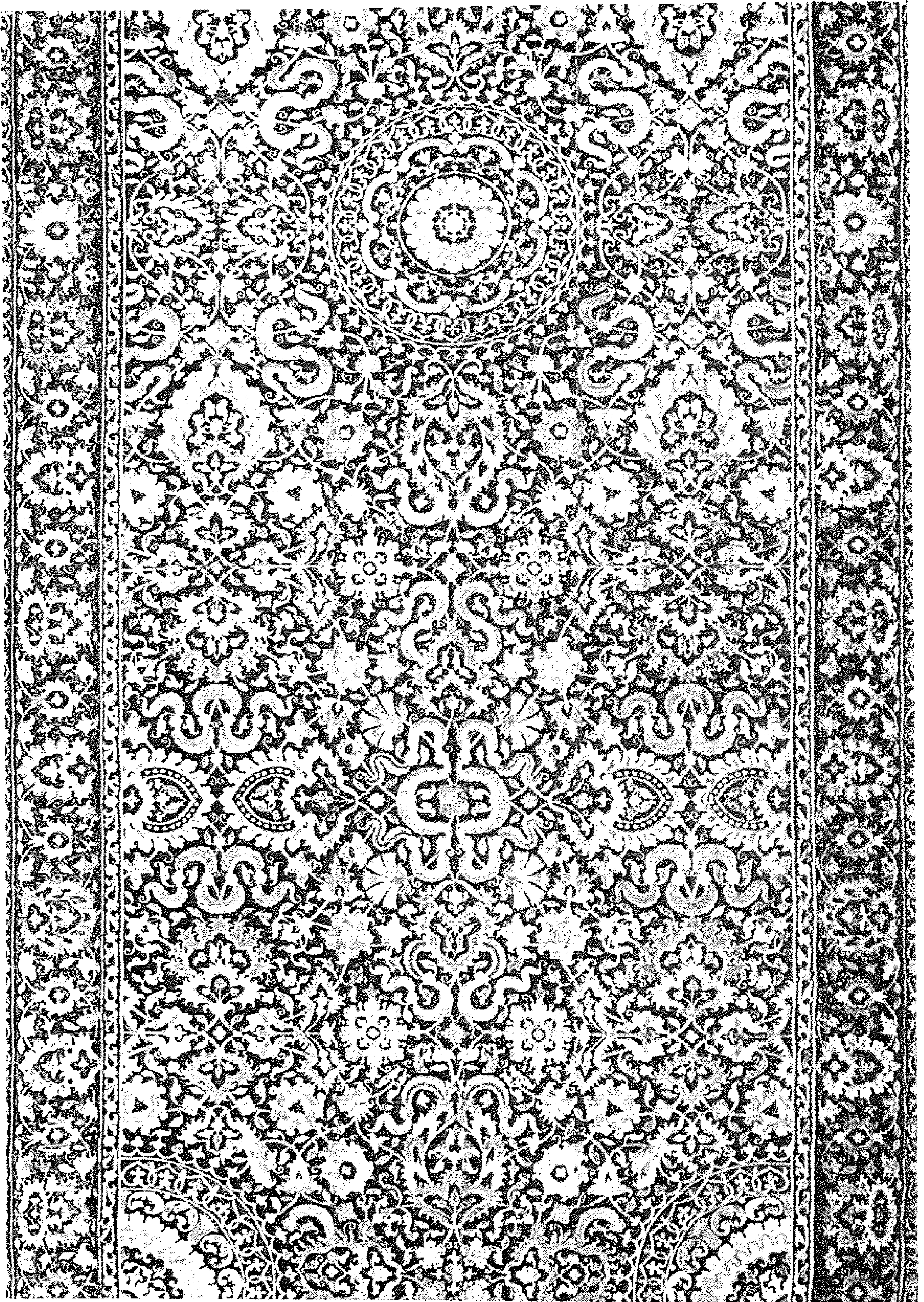
وهكذا نجد المسلمين قد أخذوا يستعيضون عن رسومات الأشخاص في سجادهم برسومات أخرى زخرفية كانت غاية في الجمال. وقد وصلت تلك الرسومات إلى ذروة جمالها مع أهل بلاد فارس، موطن أكثر الفنانين إبداعاً في مجال صناعة السجاد، من حيث التصاوير الرائعة، والألوان المنسجمة المشرقة وحسِّهم الذي لا يضاهى في فن الزخرفة العربي.

أمّا من حيث الابتكار، فقد ظهرت السجادة الخاصة بفريضة الصلاة والتي أصبحت حاجة ضرورية تكاد لا تفارق المسلم الورع في حِلّه وترحاله. وتجدر الإشارة إلى أن سجادة الصلاة لم ينص عليها القرآن أو الحديث بل كلّ ما هنالك أن الرسول الكريم (صلعم)، قد أجاز لأصحابه الصلاة على قطعة من القماش يفرشونها أمامهم بغية إراحتهم أثناء السجود.

استمرت التحسينات على السجاد ورسوماته حتى أصبح سلعةٍ قيّمة باهظة الثمن يتهادى بها الخلفاء والملوك، كما حدث في القرن التاسع ميلادي، عندما أرسل الخليفة العباسي هارون الرشيد مجموعة من الهدايا القيّمة إلى الامبراطور الفرنسي شارلمان وكان من بينها عشرون سجادة فاخرة حازت على إعجاب شارلمان لدرجة أنه كان يأمر بحملها معه أينما ذهب.

أمّا الصليبيون، فقد ذهلوا بالسجاد الثمين الذي شاهدوه في الشرق. وتروي لنا الأخبار كيف أن بلدوين ــ Baldwin البولوني ملك القدس، عام ١١٠٠م، كان يتناول وجبات طعامه وهو جالس القرفصاء على سجادة ثمينة، وكيف ان أفراد حاشيته كانوا يعيشون على الطريقة العربية الإسلامية، يلبسون لباسهم، يتزينون بزينتهم، يتعطرون بعطرهم ويستعملون سجادهم.

وقد حمل الصليبيون معهم، أثناء انسحابهم من الأراضي المقدسة، العديد من السجاد الشرقي البديع الذي أكثر ما كانت تفتقر إليه قصورهم الباردة. علّقوها، في البداية، على الجدران ثم فرشوها أرضاً، ثم قلّدوا في النهاية أهل الشرق، فاستعملوها غطاءً لفراشهم



□ سجادة تركية «ملوكية» محاكة بالإبرة (حوالي القرن السادس عشر).

ومقاعدهم.

شهد القرن السادس عشر قمة التطور الفني في صناعة السجاد الفارسي، ويعود الفضل في ذلك إلى الشاه عباس الأول الذي شجع ذلك الفن، فأنشأ المصانع وفتح المدارس للحرفيين وقدم الهبات والجوائز لكل من ينجز سجادة ذات جمال مميّز. وانتقل حماس الشاه إلى أفراد الشعب الإيراني فأخذوا يتنافسون في صنع السجاد الأكثر جمالاً واتقاناً وبذلك غدا عصر الشاه عباس الأول، عصر الازدهار بالنسبة للحرفة الفنية من حيث كمال صنعها، وغنى زخرفها، وحتى من حيث من قد يختارها صنعة له.

كان اقتناء السجاد في أوروبا مرادفاً للغنى والرفاهية، وأصدق تعبير عن ذلك ما قاله الفنان ليوناردو دي فينشي ــ Leonardo da Vinci (١٤٥٢ ــ ١٥١٩)[٨] «لا يمكن أن يكون هناك بيت جميل دون أن يكون معلق على جدرانه سجاد تركي». وفي البلاط الفرنسي، كانت السجادة تحتل مكانة بارزة، فالتي يدوس عليها الملك، لا يمكن أن يدوس عليها شخص آخر.

وبلغ من اهتمام وشغف الأوروبيين بالسجاد الشرقي أنَّ بعضهم كان يقتني الكثير منه، أمثال مازارين ــ Mazarin (١٦٠٢ ــ ١٦٦١)[٩]، الكاردينال والسياسي الفرنسي، كان لديه ست وأربعون سجادة شرقية، عشرون منها صغيرة الحجم لدرجة أنها كانت تصلح غطاء للطاولات. أمَّا موليير ــ Molière، الأديب الفرنسي (١٦٢٢ ــ ١٦٧٣)[١٠]، فقد اقتنى الكثير من السجاد التركي، كولبرت ــ Colbert السياسي الفرنسي (١٦١٩ ــ ١٦٨٣)[١١] امتلك إحدى عشرة سجادة تركية، كانت إحداها سجادة صلاة أولع بها كثيراً لدرجة أنه نصح كل مسيحي مؤمن باستعمال مثلها. وبلغ الأمر مع الملك لويس الرابع عشر، أن أمر بفرش ما حمله إليه سفير بلاد فارس من سجاد عجمي في جميع غرف قصر فرساي.

والأمثلة كثيرة على شغف واهتمام الأوروبي أو بالأحرى الفرنسي، بالسجاد الشرقي. وقد بلغ هذا الشغف ذروته في عهد الملك لويس السادس عشر، حيث اتسع نطاق انتشار السجاد الشرقي، فشمل المفكرين والفنانين حيث أخذ بعضهم يجمع القطع النادرة من السجاد المميّز برسوماته الجميلة، خاصة التي تتلاءم وزخرفة عصرهم.

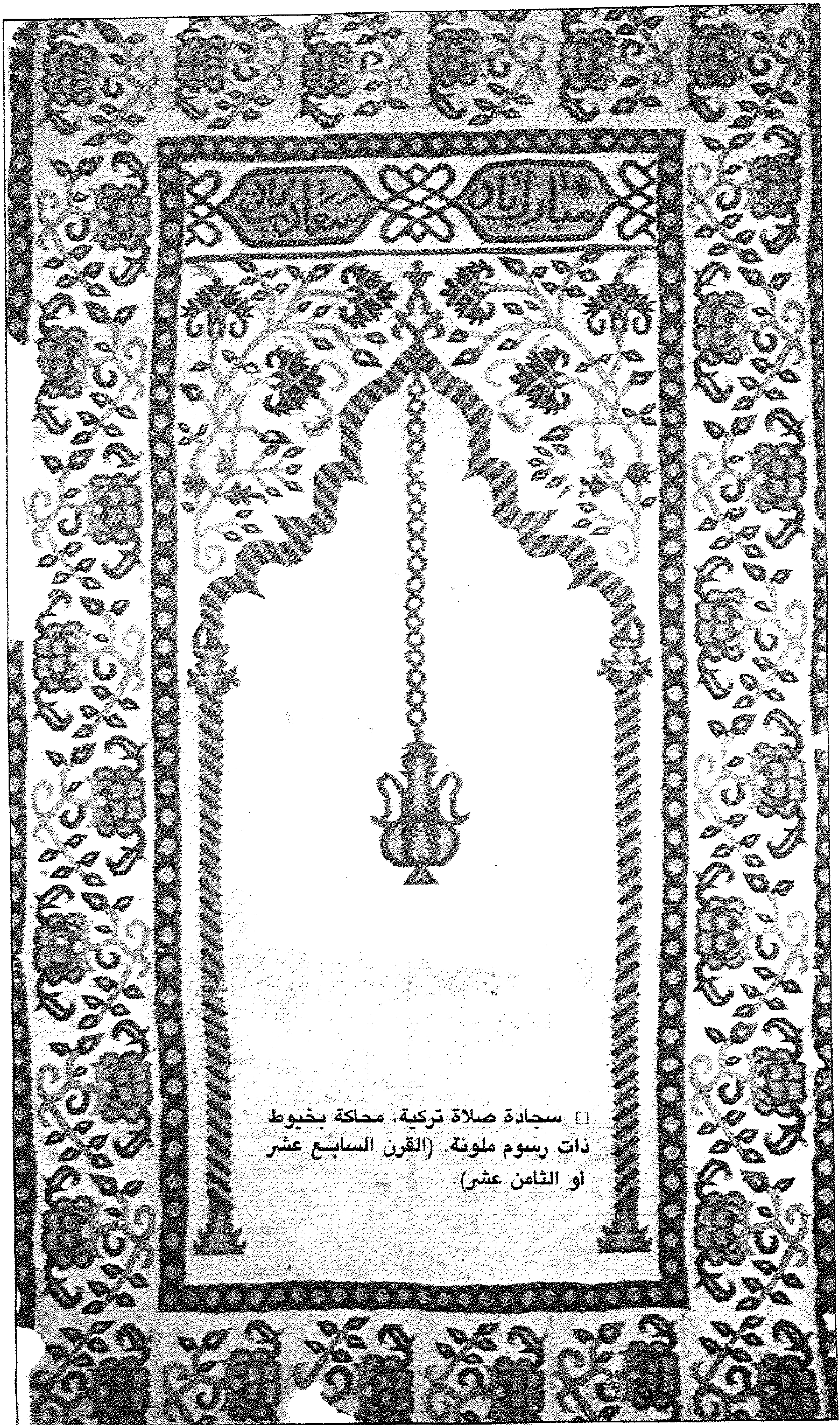
ثم جاءت الثورة الفرنسية ليشهد سوق السجاد ركوداً، لم تنعشه وتعيد إليه حيويته إلّا الحملات العسكرية الفرنسية إلى كل من مصر وإيطاليا، حيث أعيد الاهتمام بالسجاد الشرقي وأخذ الفرنسيون يتنافسون في اقتنائه. فمدام ريكامييه ــ Madame Récamier (١٧٧٧ ــ ١٨٤٩)[١٢] التي اشتهرت بصالونها الأدبي الذي كان يضم النخبة من رجالات عصرها، خاصة أبان حكومة القناصل في فرنسا (١٧٩٩ ــ ١٨٠٤) والعهد الامبراطوري، كانت تحرص تلك السيدة على تغطية كل شبر من أرض منزلها بالسجاد التركي والمصري.

أمَّا الغنيمة الكبرى التي حصل عليها الجيش الفرنسي من السجاد الروسي الفاخر، والتي بلغت حوالي ألفي سجادة، لم يصل منها إلى فرنسا سوى القليل مما حمله من تبقى من الجيش المهزوم. وحتى تلك الكمية قد تبعثرت فيما بعد عندما توزعها قواد ذلك الجيش بنسبة ما يحق لكل واحد منهم من حصص غنائم الحرب.

ولقد تأثر الفنانون الأوروبيون بجمال السجاد الشرقي ورسوماته، فحرصوا على إبرازها بشكل واضح في الكثير من لوحاتهم، وكأنها كانت هي المقياس لجمال تلك اللوحات. كما انها قد ألهمت الكثير من فناني العصر الحديث كالفرنسي جورج براك ــ Braque (١٨٨٢ ــ ١٩٦٣)[١٣]، والاسباني بيكاسو ــ Picasso (١٨٨١ ــ ١٩٧٣)[١٤]، وماكس أرنست ــ Max Ernst (١٨٩١ ــ ؟)[١٥] الرسّام السريالي الألماني المولد الفرنسي النشأة.

ومع تقدم الحضارة الحديثة، تقدمت صناعة السجاد، وظهرت آلات حياكة متطورة التقنية أخذت دورها إلى جانب أنوال حياكة السجاد الشرقي اليدوية التقليدية. ابتدأت تلك الآلات تنتج في البداية سجاداً رخيص الثمن كثير الرسوم، وباهر الألوان، ما لبث أن طرأ عليه بعض التحسن من حيث الذوق والنوعية.

ولكن بالرغم من ذلك ومن التسهيلات التي قدمتها تلك الآلات لصناعة السجاد، إلّا أن



□ سجادة صلاة تركية، محاكة بخيوط ذات رسوم ملونة. (القرن السابع عشر أو الثامن عشر)

السجادة الشرقية اليدوية الصنع، بقيت تحتل مكانتها العالية ذوقاً وفناً وجودة؛ وبقيت شعوب الشرق تتبع قواعد وأساليب أجدادها في إنتاج سجاد يدوي بديع.

على هامش البحث
هل بالإمكان قراءة سجادة؟

تحكي لنا أساطير بلاد العجم، أنّ أميراً ابن أحد ملوك فارس ذهب ذات يوم إلى الغابة ليصطاد، فالتقى راعية حسناء، استهوته وملكت قلبه فتقدم منها قائلاً: «هل لك أن تأتي معي، لتصبحي زوجتي وسيدة قصري؟».

فأجابت الراعية بخفر وحياء: «كم كان يسعدني ذلك، ولكن أنّى لي أن أصحبك ولا نكاد نعرف شيئاً عن بعضنا البعض؟ أخبرني أولاً، ما هي صنعتك»؟

— «صنعتي...!» أجاب الأمير بدهشة واستغراب، «أنا ابن ملك هذه البلاد وسأصبح ملكاً عليها بعد وفاة والدي».

— «هذه ليست بصنعة!» أجابت الحسناء الراعية، «إذا كنت تريدني حقاً أن أكون زوجة لك، ما عليك سوى أن تتعلم صنعة مُعَيَّنة تكفيك شر الزمان. مهلتك عام واحد. تكون قد أتقنت خلاله صنعة ما، تعود بعدها إليّ، وسأكون في انتظارك».

ملأت الدهشة قلب الأمير ووقف مستغرباً أمام حسنائه، ولكنه قبل التحدّي وقرّر تنفيذ ما طلبت، وقفل راجعاً إلى قصر والده لا يشغل باله سوى تفكير واحد وهو كيف يمكن أن يهتدي إلى صنعة شيّقة ومحترمة وفي نفس الوقت تلائمه ولا تجعله أضحوكة أمام بطانة القصر. ومضت الأيام على هذه الحال، إلى أن كان يوماً مضطجعاً على أريكة في غرفة نومه مغطاة بسجادة أرجوانية اللون يداعب حاشيتها الحريرية، وفجأة خطرت على باله فكرة... لماذا لا يتعلم صنعة السجاد؟ صنعة شيّقة ودقيقة! فأسرع إلى والده عارضاً عليه الأمر فتقبّلها الملك وأحضر لولده أمهر صنّاع السجاد في البلاد.

تفرّغ الأمير كلياً لهذا الأمر، ودأب على تعلم تلك الصنعة حتى غدا بعد عام من أمهر الصناع في البلاد لا بل فاق معلميه.

وفي الموعد المحدد، جهّز الأمير نفسه وتوجه إلى الغابة لملاقاة راعيته، وليعرض عليها ما أنجزه خلال عام. ولكن القدر شاء له أن يقع في قبضة جماعة من اللصوص يتكلمون لغة لا يفهمها حملوه معهم بعيداً إلى بلادهم حيث عقدوا العزم على بيعه في سوق العبيد للانتفاع بثمنه.

مضت شهور طويلة على الأمير، وهو قابع في منزل اللصوص ينتظر موعد بيعه، فحلّ به ضجر وضيق شديد كان يحمله على التجوال الدائم في أرجاء المنزل. فوجد مرة، في إحدى زوايا المنزل نولاً قديماً لحياكة السجاد؛ فطلب من حراسه إعارته إياه ليستعين به على تمضية وقته وفي نفس الوقت ينتج لهم سجاداً جميلاً يبيعونه ويستفيدون من ثمنه. وافق اللصوص على طلبه، وزوّدوه بما يلزم من أدوات الحياكة. وابتدأ الأمير يحيك السجادة قاصداً الاستعانة بالرسوم الفارسية التي تحكي قصة أسره ومكان وجوده، آملاً أن يبتاعها أحد التجار الفارسيين فيقرأ رموزها وبالتالي يقصد ملك البلاد ويخبره قصة الأمير.

ولتكتمل الأسطورة، حدث ما كان يتوقعه الأمير، إذ ابتاع السجادة الجميلة، التي كان يجهل اللصوص رموزها، تاجر فارسي سرعان ما أدرك كنه الرسالة المحاكة وأسرع بالعودة إلى فارس ليطلع مليكه على الخطر الكبير المحدق بالأمير الصغير.

استشاط الملك غضباً وهلعاً وأسرع بتجهيز جيش كبير ليقضي به على أولئك الزمرة من اللصوص، وتخليص ابنه من بين أيديهم، إلّا أنّ وزيره الأول ارتأى عليه لضمان سلامة الأمير أن يُزوّد التاجر بمبلغ كبير من المال يعود به إلى اللصوص ويساومهم على شراء صانع السجادة. نجحت الحيلة وأطلق سراح الأمير وقضى بعد حين على أولئك اللصوص وأقيمت الزينات في قصر الملك فرحاً بعودة الأمير واحتُفي «بسجادة الحرية» إذ وضعت على عرش الملك أكثر أماكن القصر رفعة وجاهاً.

أمّا راعيتنا الحسناء، والتي أصابت في حكمتها «صنعة تكفيك شرّ الزمان» فقد عاد إليها الأمير مرة أخرى فوجدها ما زالت تنتظره،

فحملها إلى قصره حيث أصبحت سيدته الأولى.

وهكذا نستنتج أنّ الهدف الأول والأخير من وراء هذه الأسطورة هو تبيان ما كان لرسوم السجاد من معنى ومدى الأهمية التي كان يعيرها أبناء الشرق لتلك الرسومات.

فأهم ما يميز سحر السجاد الشرقي هو تلك الزخرفة الجميلة التي توحي بصور مختلفة وتثير في النفس مشاعر تختلف من شخص لآخر.

ومع الأيام، تطورت تلك الرسوم مع تطور صناعة السجاد وأصبحت ذات طابع تجريدي، ولكنها بقيت تحافظ على نفس المعاني القديمة التي كانت تختلف في آسيا بين بلد آخر. فهي كانت مستقاة من تقاليد وعادات الشعوب ومطبوعة بطابع معتقداتهم الدينية. فرسم العقرب، مثلاً، كان في الهند يرمز إلى تعويذة تحمي من مرض الجذام، أما في بلاد القوقاز فهو يرمز إلى الشجاعة.

وكما نجد في الرسوم، كذلك نجد في الألوان حيث كان لها معانٍ تختلف باختلاف البلدان، فالفنان الحرَفي، كان عليه أن يختار ألوان ما يصنع من السجاد، ليس فقط حسبما يتطلب الانسجام الجمالي للألوان، بل حسبما تتطلب الفكرة المطلوبة ويتفق مع رغبة صاحبها الذي ستعود إليه في النهاية ملكية السجادة.

هل ستعود لملك أو أمير يدوس عليها؟ أم لمسجد تزين أرضه أم أحد جدرانه؟ أم ستكون غطاء باب خيمة أمير كردي؟ كل هذه الأمور كان على الحرفي أن يأخذها في عين الاعتبار.

أمّا لغة الألوان وما تعنيه فهي كثيرة ومتنوعة؟ فالأصفر الذهبي، كان يعني العظمة والثروة. ففي بلاد فارس، كان لون سجاد الأمراء، وفي آسية الصغرى، كان لون الطبقة الراقية من رجال الدين المسلمين. أما عند المصريين فقد كان لون التجدد الأبدي، لما يمثله من أشعة الشمس، وعند أهل الصين كان لوناً إلهياً لأنه كان لون بوذا.

أما البرتقالي، فكان يعني التقوى. والأخضر، وبالأخص اللون الفستقي، كان ولا يزال لوناً مقدساً عند المسلمين، لأنه كان لون راية الرسول الكريم صلعم وهو اللون المختار لأهل الجنة. لذلك، فهو لون ذو اعتبار كبير لدى الأتراك المسلمين الذين لا يستعملونه إلاّ في صنع سجاد مساجدهم وسجاد الصلاة العائد لطبقتهم الحاكمة.

وأما الأحمر، فقد كان يرمز بشكل عام إلى السعادة والازدهار، ولكنه عند الهندوس كان يعني الفضيلة والحقيقة. والأزرق، كان اللون الوطني لبلاد فارس ويرمز إليهم بالسماء.

والأزرق الداكن، كان يعني لديهم الأبدية. أمّا لدى الهندوس، فكان يوحي لهم بالابتهال ضد الظلم والطغيان، بينما أهل المغول كان يرمز لهم بالقوة.

وكان الأبيض، لون الطهارة والسلام والعذرية لدى أهل الشرق الأوسط، وكان لون الحداد عند أهل الصين، واللون الذي يجلب الحظ عند المنغوليين. فيما الأسود، كان لون الرجولة لدى أهل فارس، بينما الصينيون، كانوا يجدون فيه القتامة والهرم.

هذا عن بعض ألوان السجاد ومعانيها بالنسبة لأكثرية شعوب آسيا، أمّا إذا تحدثنا عن معاني تصاوير السجاد ورسومها، فيضيق بنا المجال لكثرتها وتنوعها. فهناك الأزهار، الأشجار، الطيور، الحيوانات الخرافية منها والحقيقية، كل هذه التصاوير كانت تحمل في طياتها معاني مقصودة وموجهة، فزهرة اللوتس، كما الأزهار لدينا اليوم، تحاكينا بلغة خاصة تتعلق بالأحاسيس والمشاعر، فاللوتس أيضاً كانت تتكلم بلغة خاصة بها، فهي زهرة مقدسة لدى المصريين القدماء، وزهرة الطهارة لدى الفرس وزهرة الخلود لدى البوذيين في الهند وكانت زهرة النسيان لدى اليونانيين.

الأشجار، أكثرها شهرة «شجرة الحياة» التي كانت وما زالت من أشهر رموز الإنسانية، ولكن كان يختلف رسمها من شعب لآخر. فالبوذيون، كانت شجرة التين، بالنسبة إليهم شجرة الحياة لأن الإله بوذا كان يتأمل تحت ظلالها في شؤون الكون.

ومن الأشجار التي ورد رسمها في السجاد الشرقي، شجرة الكرز التي كانت ترمز إلى الغزارة، وشجرة الصنوبر كانت ترمز إلى طول العمر، وشجرة الخيزران التي كانت ترتبط



□ سجادة فارسية، (أواسط القرن السابع عشر).

بالسعادة وطول العمر.

أما الطيور، فقد كان لها في رسوم السجاد الشرقي، دور مميز وخاصة الداجنة منها كالبط لما كان يرسم منه عادة زوجان متقاربا الأعناق للدلالة على الحب.

النسر والصقر، كانا يرمزان بشكل عام للشجاعة والقوة الخارقة. الطاووس، كان رسمه يرتبط بفكرة الخلود والحماية الإلّهية، وشكله وألوانه الجميلة، جعلاه الرسم المفضل على السجاد لدى أباطرة وأمراء العجم.

وأهل المنغول، كانوا يعتبرون الطيور عامة رموزاً للخير والحظ السعيد. وخاصة الببغاء منها لدوره الفعّال في إنقاذ حياة قائدهم جنكيز خان، إذ استطاع طائره الببغاء أن يخدع أعداءه، حيث قلّد صوته وطار إلى جهة معاكسة للجهة التي كان يتواجد فيها القائد وجنوده. فلحقه الأعداء بدلاً من اللحاق بسيده. وطائر النّار أو الفونيكس — وهو طائر خرافي — كان من أشهر ما رسم من طيور على السجاد. وكان دلالة لخلود الروح.

أما رسوم الحيوانات فقد كانت كثيرة ومتنوعة، فالآسد في سجادة فارسية، كان يمثل النصر، والغزال في سجادة صينية كان يشير إلى بوذا رمز النبل والكبرياء. والأفعى بتغيير جلدها، كانت رمزاً للشباب الدائم. هذا إلى جانب العديد من رسوم الحيوانات التي كانت تمثّل كل منها رمزاً معيناً.

جميع تلك الرسومات، من أزهار وأشجار وطيور وحيوانات، إلى جانب العديد من التصاوير الأخرى، كانت جميعها تحاك بأيدي فنانين كبار من الشرق، لتعطينا في النهاية سجاداً شرقياً بديعاً بمجموعة، لا تعد ولا تحصى، من الألوان الجذابة، وبالتالي لم تكن تستعصي على أيّ فنان خبير من فك رموزها وقراءتها ككتاب مفتوح.

أما اليوم، وما يُحاك أو بالأحرى ما يُصنّع من السجاد، وبالرغم من المحاولات الجاهدة التي تبذل ليكون في مصاف السجاد الشرقي، إلاّ أنه لم يصل إلى تلك المرتبة، لا لشيء إلاّ أنه لا يملك خاصيّة الروح الشرقية. لذا ان كان لديك سجادة شرقية أصيلة، حاول قراءتها... فمن يدري، لعلّها تخبرك بقصة شيّقة...!.

●

المراجع

(١) المنجد في اللغة والإعلام، دار المشرق، ط. (٢٨) (بيروت ــ ١٩٨٦).

(٢) Webster's New Geographical Dictionary, G. T. C. Merriam Company Publishers, (Spring field, Massachusetts-1980).

(٣) Webster's Biographical Dictionary, G. T. C. Merriam Company Publishers, (Spring field, Massachusetts-1980).

(٤) د. عُكاشة، ثروت: **تاريخ الفن، التصوير الإسلامي ٥ ــ الديني والعربي**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط. (١) (بيروت ــ ١٩٧٧).

الهوامش

(١) **المنجد في اللغة والإعلام**، دار المشرق، ط. ٢٨، (بيروت ــ ١٩٨٦)، ص ٣٢٩.

(٢) «The Magic Carpet, Can you Read a Carpet», *International History Magazine*, N° 4, April 1973, p.p. 138-150.

(٣) *Webster's New Geographical Dictionary*, G & C. Merriam Company, Publishers, (Springfield, Massachusetts-1980), p. 762 & 939.

(٤) *Webster's Biographical Dictionary*, G & C. Merriam Company, Publishers, (Springfield, Massachusetts-1980), p. 268.

(*) تلك الناحية، هي مَرَكندا ــ Maracanda أو سمرقند ــ Samarkand الحالية. وقد كانت مركزاً مهماً على «طريق الحرير».

(٥) W. B. D., p. 267.

(٦) د. عكاشة، ثروت: **تاريخ الفن، التصوير الإسلامي ٥ ــ الديني والعربي**. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١ (بيروت ــ ١٩٧٧)، ص ١٢.

(**) عند الحديث عن الفن والتصوير في الإسلام، كان لا بدَّ من العودة إلى بعض المصادر، من أهمها كتاب د. ثروت عكاشة، السابق ذكره، لما يحتويه من دراسة وتحليل بالإضافة إلى قائمة المصادر القديم منها والحديث. هذا وخاصة أنّ صاحب المقال الذي نتعرض لترجمته في هذا العدد، قد جاء حديثه عن تلك الحقبة مبتوراً بل محرِّفاً.

(٧) د. عكاشة، ثروت: المصدر السابق، ص ١٣.

(٨) W. B. D. p. 1524.

(٩) Ibid, p. 997.

(١٠) Ibid, p. 1035.

(١١) Ibid, p. 328.

(١٢) Ibid, p. 1242.

(١٣) Ibid, p. 187.

(١٤) Ibid, p. 1182.

(١٥) Ibid, p. 487.

● وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى.

«القرآن الكريم»

● لئن يأخذ أحكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله إعطاه أو منعه.

«محمد»

● احرصوا على الموت توهب لكم الحياة.

«الإمام علي»

معاهدة الرسول العربي محمد (صلى الله عليه وسلم) مع نصارى نجران

"قسم التوثيق والأبحاث"

المعاهدة الثالثة التي اخترناها من معاهدات النبي صلى الله عليه وسلم، هي «معاهدته مع نصارى نجران»؛ فنكون بذلك قد استكملنا محاولة إلقاء الضوء على العهد النبوي بعد هجرة الرسول (ص) من مكة إلى المدينة حيث قامت أسس الدولة الإسلامية.

بيو ص ٤١ ــ بع ع ٥٠٢ ــ بلا ص ٦٥ ــ ٦٦ ــ بس ج ١/٢ ص ٣٥ ــ ٣٦ (ع ٧٢) ــ بق ج ٢ ص ٤٠ ــ عمخ ع ٩ ــ الأموال لابن زنجويه (خطية) ورقة ٦٦/ ب ــ ٦٧/ ألف ــ الأصل للإمام محمد الشيباني (خطيات مراد ملا، وعاطف، وفيض الله وآيا صوفيا باستانبول، كتاب السير، باب ما جاء عن النبي وأصحابه في أهل نجران وبني تغلب) ــ إمتاع المقريزي (خطية كوبرولو) ص ١٠٢٧ ــ ١٠٢٨، ١٦٥٠.

قابل بع ف ٥٠٥، ١١٩٦ ــ بس ج ١/٢ ص ٢١، ٨٥ (ع ١٤، ١٤٢) ــ اليعقوبي ج ٢ ص ٩٠ ــ كتاب الخراج لقدامة بن جعفر (مخطوطة باريس) ورقة ١٢٥ ب ــ بق ج ٣ ص ٤١ ــ بد ١٩/ ٢٠ ــ الفائق للزمخشري مادة «وهف» ــ اللسان مادة «وقف» ــ إمتاع الأسماع للمقريزي ج ١ ص ٥٠٢ ــ أبو عبيد، غريب الحديث (خطية كوبرولو) ورقة ٧٢/ ب.

وانظر كايتاني ١٠:٦٠ ــ اشپرنكر ج ٣ ص ٥٠٢ ــ ٥٠٣ ــ اشپربر ص ٩٠ ــ ٩٢ ــ لين بول في محله ــ وانظر أيضاً تاريخ النسطوريين (في مجموعة تأليفات الآباء الشرقيين Patrologia Orientalis) ج ١٣ ص ١٠٦ وما يليها) ــ ابن العربي في مجموعة المكتبة الشرقية [Bibl. orient] ج ٣/ ٢ ص ٩٤) ــ مجيد خدوري، ترجمة سير الشيباني، (Shaybani's Siyar) فصل ١٧١٠:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب محمدٌ النبي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأهل
٣ نَجران: إذ كان عليهم حُكمُه في كل ثمرةٍ، وفي كل صَفراءَ
وبَيضاءَ ورقيق، فأفضلَ ذلك عليهم، وتَرَكَ ذلك كلّه لهم،
على ألفي حُلّةٍ من حُلل الأواقي: في كل رَجَب ألف حُلّة،
٦ وفي كل صَفَر ألف حُلّة، كل حُلّة أوقية من الفضة. فما
زادت على الخَراج، أو نَقَصَت عن الأواقي فبالحساب. وما قَضَوا
من دروعٍ، أو خيلٍ، أو ركابٍ، أو عروضٍ أُخِذَ منهم
٩ بالحساب. وعلى نَجران مؤنةَ رُسُلي، ومتعتُهم، ما بين عشرين
يوماً فما دون ذلك، ولا تُحبَس رُسُلي فوق شهر.

وعليهم عارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فَرَساً، وثلاثين بعيراً، إذا كان كيد باليمن ومَعَرَّة. وما هَلك مما أعاروا رُسُلي من دروعٍ، أو خيلٍ، أو ركابٍ، أو عروضٍ، فهو ضمين على رُسُلي، حتى يؤدُّوه إليهم.

ولنجران وحاشيتها، جِوار الله وذِمّة محمدٍ النبي رسول الله على أموالهم، وأنفسهم، ومِلّتهم، وغائبهم، وشاهدهم وعشيرتهم، وبِيَعهم وكل ما تحت أيديهم مِن قليل أو كثير. لا يُغيِّر أُسقُف من أسقفيّته ولا راهب من رهبانيّته ولا كاهن من كهانته. وليس عليهم رُبّيّة، ولا دمُ جاهلية. ولا يُحشَرون، ولا يُعشَرون، ولا يطأ أرضَهم جيش. ومن سأل منهم حقاً فبينهم النَصف غير ظالمين ولا مظلومين.

ومن أكل رِباً مِن ذي قَبَلٍ فذِمّتي منه بريئة. ولا يُؤخَذ رجلٌ منهم بظلمِ آخَر.

وعلى ما في هذا الكتاب جِوارُ الله، وذِمّة محمدٍ النبي رسول الله، حتى يأتي الله بأمره، ما نَصَحوا وأصلَحوا ما عليهم، غير مثقَلين بظلمٍ.

شهد أبو سفيان بن حرب، وغيلانُ بن عمرو، ومالكُ بن عوفٍ من بني النَصر، والأقرع بن حابس الحنظلي، والمغيرةُ بن شعبةَ. وكتب لهم هذا الكتابَ عبدُ الله بن أبي بكرٍ.

(وقال يحيى بن آدم: وقد رأيتُ كتباً في أيدي النجرانيين، كانت نسختُه شبيهةً بهذه النسخة، وفي أسفله: وكتب علي بن أبو [كذا] طالب، ولا أدري ماذا أقول فيه).

(٢ ــ ٣) بس: هذا كتاب من ــ بلا، بق: لنجران ــ
(٣) بس: إنه كان ــ بس، بلا: كان له عليهم حكمة ــ بـع: كان له حكمه عليهم أن في كل ــ شيباني: إذ كان له عليهم حكمة في كل ثمرة صفراء ــ
(٣ ــ ٤) بـع: سوداء وبيضاء وحمراء وصفراء وثمرة ورقيق وأفضل عليهم ـه بس: ثمرة... صفراء أو بيضاء أو سوداء ــ بس، بلا: فأفضل فيهم ــ بق: فأفضل عليهم.
(٤ ــ ٥) بق، بلا: ذلك... لنجران ــ بس: كله... على ــ حلة... حلل
(٥ ــ ٦) بـع: حلة... في كل صفر ألف حلة وفي كل رجب ــ
(٦) بيو: مـع كل حلة.
(٦ ــ ٧) بس، بلا: صفر ألف حلة... كل حلة ــ بق: وكل حلة ــ بس، بلا، بـع: أوقية... فما ــ بس: زادت حلل... ــ بـع: فما زاد الخراج أو نقص فعلى الأواقي فليحسب ــ بس، بق: نقصت على الأواقي
(٧ ــ ٨) بق: فبحساب ــ بس: وما قبضوا ــ بلا: وما قصوا من درع ــ بـع: من ركاب أو خيل أو دروع أخذ ــ بس، بلا، بق: عرض أخذ.
(٨) شيباني: من درع.
(٩) بس: فبالحساب، بق: بحساب ــ بس، بلا، بق: مثواة رسلي ــ
(٩) شيباني: متعتهم عشرون ــ
(٩ ــ ١٠) بلا: رسلي شهراً فدونه ولا يحبس ــ بس: رسلي... عشرين يوماً فدون ذلك ــ بق: فدون ذلك ــ بـع: عفى أهل نجران مقري رسلي عشرين ليلة فما دونها... ــ بق:: يحبس رسولي ــ
(١١) بـع: فرساً ــ بعيراً ــ درعاً (بتقديم وتأخير) ــ خطيات الشيباني «قوساً» بدل «فرساً» (وهو سهو الكتابة).
(١٢) بس: باليمن كيد ذو مغدرة ــ بـع، بلا: باليمن ذو معذرة، بق: باليمن ومغدرة ــ لسان: باليمن ذات غدر ــ أعاروا رسولي ــ على رسولي ــ شيباني: كان باليمن ذي مغدرة ــ يعار رسلي ــ
(١٢ ــ ١٤) بـع: رسلي... فهو ضامن على رسلي ــ بلا: رسلي... من خيل ــ بس، بلا: أو ركاب...

فهو ضمان.
(١٤) بلا: ضمن... حتى يردوه.
(١٥ ــ ١٦) الزمخشري: ذمة الله وذمة رسوله على ديارهم وأموالهم وثلتهم وملتهم وبيعهم ورهبانيتهم وأساقفتهم وشاهدهم ــ
(١٦ ــ ١٨) شيباني: على أنفسهم، وأموالهم، وارضهم، وملتهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعبادتهم (نسخة: عماراتهم)، وبيعهم، ومثلهم (نسخة: سلمهم). لا يغير أسقف (نسخة: أسقفاً) من سقيفاه (نسخة أقفاه) ولا راهب من رهبانيته، ولا واقه من وقيها (٥). وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. وليس عليهم دياته (نسخة: ديانه) ــ
(١٥ ــ ٢٠) بـع: ذمة الله رسوله على دمائهم وأموالهم وملتهم وبيعهم ورهبانيتهم وأساقفتهم وشاهدهم وغائبهم ــ وعلى أن لا يغيروا أسقفاً من سقيفاه ولا واقهاً من وقيهاه ولا راهباً من رهبانيته وعلى أن لا يحشروا ولا يعشروا ــ حقاً فالنصف بينهم بنجران على أن لا يأكلوا الربا ــ
(١٥) بس: حاشيتهم (بق: حسبها) ــ بق: محمد ... رسول ــ
(١٦ ــ ١٧) بس، بلا: (الكلمات بتقديم وتأخير).
(١٦) بلا: شاهدهم وعيرهم وبعثهم وأمثلتهم على ما تحت أيديهم.
(١٧ ــ ١٨) بس: أسقفاً عن أسقفيته (وفي رواية: سقيفاه) ولا راهباً عن رهبانيته ولا واقفاً عن وقفانيته ــ بلا: واقه من وقاهيته ــ اللسان: وأن لا يغير واقف من وقيفاه.
(١٨) «ليس عليهم ربية إلـخ»، حذفه أبو عبيد في كتاب الأموال، ولكن صرح به وفسره في كتابه غريب الحديث: فراجـع للمعنى قسم «شرح الألفاظ» من هذا الكتاب ــ بيو: دنية ــ شيباني: دياته / ديانه حسب الخطيات.
(١٨ ــ ١٩) بس: ليس ربا ولا دم جاهليته... ومن سأل ــ
(٢٠) شيباني، بلا: + بنجران - بس: + لنجران.
(٢١) بلا: أكل منهم الربا ــ بـع: فمن أكل الربا ــ بس: لا يؤخذ أحد ــ بلا: منهم رجل.
(٢١ ــ ٢٦) بـع: بريئة وعليهم الجهد والنصـح فيما استقبلوا غير مظلومين ولا معنوف عليهم شهد بذلك عثمان بن عفان ومعيقب (كذا والصحيـح: «معيقيب») وكتب
(٢٣) بس، بلا، بق: هذه الصحيفة جوار الله وذمة النبـي... (بلا، بق محمد النبـي) ــ بس: النبـي أبداً حتى ــ
(٢٤) بلا: الله به ما نصحوا ــ بس، بلا، بق: أصلحوا فيما عليهم ــ بلا: غير مكلفين، بق: غير متقلبين.
(٢٦ ــ ٢٧) بس: عوف النصري.
(٢٦ ــ ٢٧) بلا: ، بق: عوف... والأقرع ــ بس:... والمستورد بن عمرو أخو بلي والمغيرة...
(٢٨) بس: ... وعامر مولى أبـي بكر.
(٢٩ ــ ٣١) ما بين ( ) في البلاذري فقط.

رواية زنجويه

إن رواية ابن زنجويه شديدة الاختلاف، لا يكفي لها محض الإشارة في الحواشي. وهاكم النص الكامل:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب النبـي محمد رسول الله لأهل نجران:

إذ كان عليهم حكمة أن في كل سوداء وبيضاء وصفراء وثمرة ورقيق. وأفضل عليهم وترك لهم على ألفي حلة. في كل صفر ألف حلة، وفي كل رجب ألف حلة. كل حلّة أوقية. ما زاد الخراج أو نقص فعلى الأواق يحسب. وما قضوا من ركاب أو خيل أو درع أخذ منهم بحساب. وعلى نجران مثوى رسلي عشرين ليلة فما دونها.

وعليهم عارية ثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، وثلاثين درعاً إذا كان كيد باليمن دون معذرة. وما هلك مما أعاروا رسلي فهو ضمان على رسلي حتى يؤدوه إليهم.

ولنجران وحاشيتها ذمة الله وذمة رسوله على دمائهم وأموالهم وملتهم، وبيعهم، ورهبانيتهم، وأساقفتهم، وشاهدهم وغائبهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. على أن لا يغيّر أسقفاً من سقيّفاه، ولا واقفاً من وقيّفاه، ولا راهباً من رهبانيته. وعلى أن لا يحشروا ولا يعشروا، ولا يطأ أرضهم جيش. ومن سأل منهم حقاً فالنصف بينهم بنجران.

وعلى أن لا يأكلوا الربا. فمن أكل الربا من ذي قَبل فذمتي منه بريئة. وعليهم الجهد والنصح فيما استقبلوا، غير مظلومين ولا معنوف عليهم.

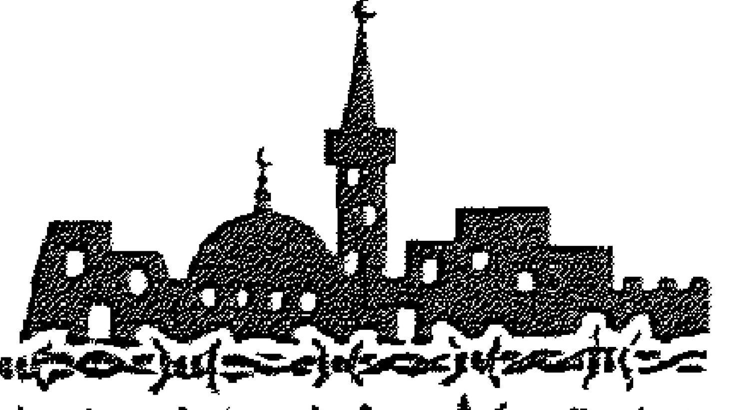
شهد عثمان بن عثمان، ومعيقيب وكتب. (أما في آخر حديث ابن لهيعة: شهد أبو سفيان بن حرب، وغيلان بن عمرو، ومالك بن عوف من بني نصر، والأقرع بن حابس الحنظلي، والمغيرة بن شعبة).

●

حل رموز الاختصارات
المستعملة في أوائل الوثائق

الف ... طرف الوجه من ورقة المخطوطة
ب ... طرف الظهر من ورقة المخطوطة
بآ ... سيرة ابن إسحاق (ترجمتها الفارسية)
بث ... أسد الغابة لابن الأثير
بح ... الإصابة لابن حجر
بحز ... ابن حزم
بحن ... مسند أحمد بن حنبل
بد ... سنن أبي داود
بس ... طبقات ابن سعد
بسن ... سيرة ابن سيد الناس
بط ... إعلام السائلين لابن طولون
بع ... أبو عبيد
بعب ... الاستيعاب لابن عبد البر
بعح ...ابن عبد الحكم
بعر ... ابن عبد ربه
بق ... زاد المعاد لابن القيم
بك ... ابن كثير
بلا ... فتوح البلدان للبلاذري
به ... سيرة ابن هشام
بيو ... الخراج لأبي يوسف
ديب ... الديبلي
طب ... تاريخ الطبري
عمخ ... عبد المنعم خان
قس ... القسطلاني
قلقش ... القلقشندي
ج ... الجزء أو المجلد
س ... سطر
ص ... الصفحة
ع ... عدد أو رقم والمراد به عند ذكر طبقات ابن سعد مثلاً ترقيم ويلهاوزن في طبعه نخباً من هذا الكتاب واشرنا سوى هذا إلى عدد الجزء والصفحة من الطبعة اللايدنية. أو رقم الفصل في كتاب (الأموال)، أو رقم الحديث في كنز العمال وغير ذلك
ف ... الفقرة والفصل
+ [] ... علامة الاضافة والمضاف
... ... علامة الحذف في بيان اختلاف الرواية
— ... علامة الإستمرار أو التكرار في الروايتين
قابل ... يشير إلى الروايات غير الكاملة من الوثائق أو الاقتباسات
انظر ... يشير إلى البحوث الحديثة





حيفا



□ حيفا: منظر عام من جبل الكرمل.

الموقع الجغرافي



حيفا مدينة ساحلية في الطرف الشمالي للسهل الساحلي الفلسطيني وميناء على البحر المتوسط. وهي ذات موقع جغرافي هام. فالمدينة نقطة التقاء البحر المتوسط بكل من السهل وجبل الكرمل. وقد جعلها البحر أكبر الموانىء في فلسطين، في حين جعلها السهل منطقة زراعية منتجة لجميع محاصيل البحر المتوسط. وأما جبل الكرمل فأكسبها منظراً بديعاً ومناخاً معتدلاً وقد أعطت هذه المزايا الطبيعية الموقع بعداً اقتصادياً هاماً وعسكرياً أيضاً. وما الأطماع الاستعمارية التي تعرضت لها المدينة عبر العصور التاريخية، بدءاً بالغزو الصليبي وانتهاء بالهجمة الصهيونية، إلّا تأكيداً لخطورة هذا البعد العسكري.

ظلّ موقع حيفا هاماً في معظم الأوقات، فهي وجه فلسطين البحري ومنفذها الرئيس إلى العالم الخارجي. وتنعم بظهير غني في المناطق الشمالية لفلسطين، وفي الأردن والعراق، بالإضافة إلى المنطقة الجنوبية السورية. ولا شك في أن وقوعها على خليج بحري عميق جعل منها مرفأ محمياً

طبيعياً يصلح لرسوّ السفن الكبيرة ويعدّ سهل مرج ابن عامر، وهو الظهير المباشر لميناء حيفا، حلقة وصل طبيعية بين الميناء وظهيره البعيد، لأنه يرتبط بالميناء بفتحة طبيعية يجري عبرها وادي نهر المقطع في طريقه إلى مصبّه في خليج حيفا البحري. ويمكن القول إن حيفا انتقلت منذ أوائل هذا القرن من قرية متواضعة لصيادي الأسماك إلى مرفأ بحري للسفن. وقد زادت أهميتها عندما وسّعت حكومة الانتداب البريطاني عام ١٩٢٩ الميناء وأقامت المنشآت الضخمة فيه وجهّزته بكل الوسائل الحديثة. وبحلول عام ١٩٣٣ الذي افتتح فيه ميناء حيفا الحديث أصبحت حيفا الشريان الحيوي لفلسطين والأردن وسورية والعراق وإيران وغيرها من الأقطار الآسيوية. وفي ذلك العام افتتح مدير شركة بترول العراق أنبوب الزيت الذي يصل آبار النفط في كركوك بمستودعاته في حيفا حيث يتمّ تكريره وتصديره إلى الخارج.

وقد ارتبطت حيفا بظهيرها القريب والبعيد بشبكة من الطرق المعبدة والسكك الحديدية. ففي عام ١٩٠٥ افتتح الفرع الغربي للخط الحديدي الحجازي رسمياً في حيفا، وهو الفرع الذي يصل بين حيفا والعفولة وبيسان وسمخ ودرعا. وهناك طريق معبدة تسير بمحاذاة الخط الحديدي متجهة شرقاً عبر سهل مرج ابن عامر وسهل بيسان إلى وادي الأردن، ومن ثم إلى الأردن وسورية والعراق. وتتفرع من هذه الطريق طرق أخرى تؤدي إلى كل من الناصرة شمالاً، وجنين ونابلس ورام الله والقدس والخليل جنوباً.

وفي عام ١٩١٩ وصل خط سكة حديد القنطرة ــ غزة ــ اللد إلى حيفا، ومنها إلى بيروت. وهناك طريق معبدة تسير بمحاذاة هذا الخط. وبذلك أصبحت حيفا ترتبط بمصر عن طريق السهل الساحلي الفلسطيني وسيناء، وتتصل بلبنان عبر سهل عكا بطريق معبدة وخط سكة حديد يمرّان من عكا وبيروت في طريقهما إلى طرابلس الشام. وفي حيفا مطار جوي يربط المدينة بالمطارات الداخلية الأخرى في فلسطين وبالعالم الخارجي.

النشأة والنمو

١ ــ **التسمية**: لم يرد ذكر حيفا في التوراة، ولكنها وردت في التلمود على صورة حيفه، ومعناه' الفرضة والمرفأ. كذلك وردت في الكتابات التلمودية باسم «سكيمينوس». وكان الصليبيون يطلقون على المدينة اسم كيفا Cayphas أحياناً، واسم سيكامينون Sycaminon أحياناً أخرى، ويعني باليونانية شجرة التوت. ولعل المدينة سميت بذلك لكثرة شجر التوت فيها. ويرجح أن آثار سيكيمينوس واقعة في موقع تل السمك الذي يعلو البحر عند حيفا القديمة، وقد سمي بذلك لوجود كميات كبيرة من الأصداف البحرية عند قاعدته، ومنها استخرج الفينيقيون لون الأرجوان القرمزي.

ويشير اسم بوروفيريا أو بورفيريون Porphyrapolis إلى مكان شرقي موقع حيفا الحالية، ومعنى الاسم مدينة الأرجوان.

ولم يرد اسم حيفا في مصادر الفتح العربي. وأقدم ذكر لحيفا أورده الرحالة ناصر خسرو ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م، ثم أوردها بالاسم نفسه الشريف الإدريسي ٥٦٠هـ / ١١٦٠م، وياقوت الحموي ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م.

٢ ــ **في التاريخ القديم**: سُكنت منطقة حيفا منذ عصور ما قبل التاريخ. وقد اكتشفت بقايا هياكل بشرية في كهوف جبل الكرمل (ومعنى الكرمل المثمر)، وبجانب طريق الناصرة عند مستعمرة «نفه شعنان»، وفي مغارة الواد قرب عتليت. وتعود كلها إلى العصرين الحجريين القديم والوسيط. وقد عثر في الكهوف على جماجم حيوانات وعلى رسوم منحوتة في الحجارة.

وأول من سكن منطقة حيفا في عصور التاريخ هم العرب الكنعانيون الذين عمّروا المنطقة وبنوا حيفا على بعد كيلومترين جنوبي حيفا الحالية. وقد بقي من هذه المدينة القديمة بعض آثار تدل على مكانها، منها مدافن بلحف جبل الكرمل على شكل ثلاث قناطر.

وعند شواطىء حيفا نشبت معركة بين الفلسطينيين والمصريين في عهد رمسيس

١١٩١ق.م. امتلك الفلسطينيون بعدها الساحل من غزة إلى الجبل. ولما استولى الإسرائيليون في عهد يشوع بن نون على فلسطين جُعلت حيفا من حصّة «سبط منسّى». وقد تقلبت عليها الأحوال فزهت وخربت مرّات كثيرة في عهود الأمم التي تغلبت على فلسطين، كالآشوريين والكلدانيين والفرس واليونان والسلوقيين.

ارتبطت مدينة حيفا بعدّة أحداث ومناسبات دينية جعلت لها مكانة خاصة، إذ يقال إن النبيين الياس واليشع علّما تلاميذهما الديانة في المكان الذي أصبح يطلق عليه اسم «الخضر»، أو «مدرسة الأنبياء»، قرب الفنار بين تل السمك ورأس الكروم. والموقع بناء إسلامي قديم وسط حديقة كان يضمّ مسجداً فيه مغارة تضمّ كتابة يونانية. واشتهر جبل الكرمل أيام النبي الياس لانتصاره فوق قمته على أعدائه الوثنيين، حتى إن بعض الناس يدعونه أحياناً باسم جبل مار الياس. ومار الياس يقع قرب الخضر، وفيه قطع معمارية وبقايا كنيسة منقورة في الصخر.

ويذكر الإنجيل أن السيد المسيح وطىء أرض حيفا وباركها حين مرّ بها مع مريم العذراء في طريقه من مصر إلى الناصرة. وقد اتبع الطريق الساحلية هرباً من خطر الحاكم الروماني. وكانت هذه الطريق الساحلية الرومانية تمرّ بحيفا العتيقة، وتقطع مقام الخضر، وتمرّ بالزورة، وتسير مع شاطىء البحر أمام باب الكنيسة اللاتينية.

ومرّ بحيفا بولس الرسول في رحلته الثالثة (٥٨م) قادماً من عكا. وقد حفل جبل الكرمل منذ ظهور المسيحية بالنسّاك، ومنهم القديس يعقوب ناسك الكرمل.

وكانت حيفا تقوم أيام الحكم الروماني كما تقدّم على موقع تل السمك غربي حيفا وجنوبي رأس الكرمل. وتضمّ البقعة أسس أبنية، وأرضيات مرصوفة بالفسيفساء وصخوراً منحوتة، وقبوراً منقورة في الصخر، ومرسى، وفيها إلى الشرق أسس كنيسة رصفت أرضها بالفسيفساء.

وفي تل السمك موقع يسمّى شيقومونا، وهو تحريف شيكما اليونانية ومعناها الجمّيز أو التوت. وفي هذا الموقع جدار حظيرة، ونحت في الصخور، ومدافن منقورة، وأحواض معصرة خمر أرضها مرصوفة بالفسيفساء. ولعل قلمون، البلدة التي تعود إلى أيام الرومان، كانت تقوم على البقعة التي تعرف اليوم باسم تل أبو حوّام قرب مصب نهر المقطع، وكانت هذه المدينة ميناء بيسان ومجدّو. وقد عثر في حيفا القديمة على رصيف بحري وقبر وحمّام تعود إلى العصر الروماني.

٣ ــ **بعد الفتح العربي**: لم يكن لحيفا أهمية في الفتح العربي ولا ورد اسمها في مصادر الفتح. ومن القبائل التي استقرت في أطرافها بنو جذام بن عامر بن لام وبنو مخزوم. وقد ظلت حيفا خاملة الذكر، وكانت عكا تبزّها. وجاء أقدم ذكر لها في المصادر الإسلامية في القرن الخامس الهجري (٤٥٢هـ / ١٠٦٠م) حين وصفها ناصر خسرو في سفر نامة بقوله: «ثم غادرتها (أي عكة) إلى قرية تسمى حيفا في طريق به كثير من الرمل الذي يستخدمه صيّاغ العجم والمسمّى بالرمل المكّي. وحيفا مشيّدة على البحر وبها نخل وأشجار كثيرة. وهناك عمّال يصنعون السفن البحرية المسمّاة بالجودي».

٤ ــ **خلال الحروب الصليبية**: مرّ الصليبيون أول الأمر قرب أسوار عكا وحيفا في طريقهم إلى بيت المقدس ١٠٩٩م ملتزمين الساحل من سفح جبل الكرمل حتى قيسارية. وكانت حيفا تابعة للفاطميين قبل أن يحتلها الصليبيون في تموز عام ١١١٠م بعد حصار. وأصبحت حيفا مع طبرية وبلاد الجليل تحت إمرة تنكريد، وعرفت باسم كايفاس أو كيفا، وورد وصفها في روايات الحجاج والرحّالة المسيحيين، وذكروا أن جانباً من المدينة على الساحل، في حين يشرف جبل الكرمل على الجانب الآخر. وتبدو أهمية المدينة أيام حكم الفرنجة من وصف الجغرافي الشريف الإدريسي ٥٦٠هـ / ١١٦٠م لها بقوله: «وحيفا تحت طرف الكرمل، وهو طرف خارج في البحر، وبه مرسى حسن لإرساء الأساطيل وغيرها. ومدينة حيفا هي فرضة لطبرية، وبينهما ثلاث مراحل خفاف». وإلى العهد الصليبي تعود بقايا القلعة التي بناها الفرنجة جنوبي المدينة عند خربة رشميا غربي «نفه شعنان»، وتضم انقاض بناء

مستطيل فيه برج، ومدافن منقورة في الصخر، وصهاريـج.

عـادت حيفا إلى المسلمـين عـام ٥٨٣هـ / ١١٨٨م (كما جاء في كتـاب الفتـح القسي في الفتـح القدسي للعماد الأصفهاني، لا قبل ذلك بعشر سنوات كما ذكر ياقوت الحموي أو دائرة المعارف الإسلامية). ثم استعادها الصليبيون بعـد أن أمر صـلاح الدين بإخـلائها وهـدم أسوارها وحصونها ٥٨٧هـ / ١١٩١م، وأعادوا بناءها. وكانت حيفا بموجب صلـح الرملة ضمن المنطقة الساحلية (من صور حتى يافا) التي ظلّت بيد الفرنجة.

تأسست في عام ٦٠٩هـ / ١٢١٢م رهبانية الكرمل (الرهبانيات)، ثم كثر أتباعها وانتشروا في أنحاء أوروبا. وقد اهتم لويس التاسـع بتحصين حيفـا، وظلّت في حـوزة الفـرنجـة حتى عـام ٦٦٣هـ / ١٢٦٥م حيث فتحها الظاهر بيبرس، ثم استولى الفرنجـة عليها ثـانية فعـاد الملك الأشـرف خليل بن قـلاوون واسترجعهـا عام ١٢٩١م، وانتهـى بـذلك الوجـود الفـرنجـي في فلسطين.

٥ ــ **في عهد المماليك**: أوقـع المماليك الخراب بحيفا، كما بغيرها من المدن الساحلية، حتى لا يستفيد منها الأعداء. وقد وصف القلقشندي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) المـديـنـة في «صبـح الأعشى» بقوله: «وهي خراب عـلى السـاحـل». وكانت حيفا خلال العهد المملوكي جزءاً من عمل اللجـون الذي كان تـابعاً لصفـد، والقـاعـدة الخامسة من قواعد المملكة الشامية.

٦ ــ **في العهد العثماني (وحتى منتصف القـرن التـاسـع عشر)**: انتقلت حيـفـا إلى العثمـانيـين في عهـد سليم الأول ٩٢٢هـ / ١٥١٦م. وقد أشير إليها في مطلـع العهد بأنها قرية في ناحية ساحل عتليت الغربـي التابـع لسنجق (لواء) اللجون، أحد الوية ولاية دمشق الشام.

بدأ العثمانيون منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر يعمّرون الساحل الشامي، وفيه حيفا، وسارت عملية إعمارها ببطء. وذكرت دفاتر التمليك (الطابو) أن قـرية حيفـا كانت ضمن إقطاع آل طرباي الذين أصبحوا يعرفون باسم الأسرة الحارثية في مرج ابن عامر ٨٨٥هـ ــ ١٠٨٨هـ / ١٤٨٠ ــ ١٦٧٧م. ولم تعمل هذه الأسرة على تشجيـع التجارة مـع الأوروبيين على غرار ما فعل فخر الدين المعني في بيروت وصيدا وعكا، ولا عاد تجّار الإفرنـج يرتادون ميناء حيفا خوفاً من الأذى. وقـد تضررت حيفـا بسبب الصـراع بين الأمـير أحمد الحـارثي والأمـير فخـر الدين المعني، وأخضعهـا فـخـر الدين لسيـطرتـه عـام ١٠٣٣هـ / ١٦٢٤م، ثم تمّ الصلـح بين المعنيين والحوارث في العام نفسه، وعادت حيفا إلى الأمير أحمد الحارثي الذي عمل بعد ذلك على الاهتمام بالميناء، وأعطى الرهبان الكرمليين إذناً ببناء مساكن في الميناء، وضمانات بالحماية.

ضمّ قسم كبير من الأراضي المحيطة بحيفا، وفيها الخليـج الشمالي، إلى ولاية صيدا الجديدة في القرن السابـع عشر. وقد جعلها بُعدها عن السلطة في دمشق مركزاً للتجارة المهربة، حتى أصبـح يـطلق عليها اسم مـالطة الصغـرى. فـأصدرت الدولة العثمـانية سنـة ١٠٢٦هـ / ١٦١٦م فرماناً ببناء الأبراج حول ميناء حيفا لوضـع حدّ للتهريب ولهجمات القراصنة (شيد البرج الشرقي سنة ١١٣٦هـ / ١٧٢٣م، والبرج الغربـي سنة ١١٢٨هـ / ١٧١٥م) وضمّت حيفا إلى ولاية صيدا، وعملت الدولة على تعميرهـا وتعمـير السـاحـل كله، فقـدمت الإعفـاءات والإغراءات، ووفّرت الأمن والحماية للسواحل، فأدّى ذلك كله إلى تحوّل العناصر السكانية نحو الساحل، وإلى ازدهار تجاري وعمراني، بعد أن كانت السواحل مهجورة منذ إخراج الصليبيين عام ٦٩١هـ / ١٢٩١م.

وفي منتصف القرن الثامن عشر خرّب الشيـخ ظاهر العمر حيفا القديمـة، وبنى إلى الجنوب الشرقي منها، عند نهاية الخليـج، بلدة سمّاها العمارة الجديـدة، ثم غلب عليها اسم حيـفـا الجديدة، وأقام فيها برجاً، وبنى حولها سوراً له بوابتان، وقلعة على نتوء صخري يشـرف على المدينة من الناحية الجنوبية. وشيّد أبناء الشيـخ ظاهر الجامـع والسراي. وأقام الكرمليون ديرهم على قمة الجبل عام ١١٨١هـ / ١٧٦٧م، على مسيرة ٣ كم من حيفا.

صارت حيفا، بعد الشيخ ظاهر، إلى أحمد باشا الجزار، واحتلها كليبر عام ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م، وأقام نابليون قيادته على جبل الكرمل، واتخذ الدير مشفى لجرحاه ولمرضى الطاعون اثناء حصار عكا، ثم أحرقه لمّا انسحب إلى مصر (الحملة الفرنسية). وقد أعادت الدولة العثمانية حيفا إلى سلطتها وجدد عام ١٢٤٣هـ / ١٨٢٧م بناء الدير الكرملي. ثم دخلت حيفا ـ كسائر سورية ـ تحت حكم إبراهيم باشا حتى عام ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م. وقد زارها عام ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م الشاعر الفرنسي لامرتين وتغنّى بروعة خليجها وسهلها وجبلها في كتابه «ذكريات وانطباعات وأفكار ورؤى خلال رحلة المشرق ١٨٣٢ ـ ١٨٣٣»، أو «مذكرات مسافر» المطبوع في باريس عام ١٨٣٥.

٧ ـ أواخر العهد العثماني (حتى نهاية الحرب العالمية الأولى): ظلّت حيفا حتى القرن التاسع عشر قرية ضئيلة الشأن بلغ عدد سكانها ٤٠,٠٠٠ نسمة تقريباً في أوائل القرن المذكور. ولكنها أخذت بعد ذلك تنمو بسرعة، وبدأ كثير من الأجانب يقصدونها للاستيطان والعمل، أو للكشف العلمي، أو للنشاط التبشيري. وقد سمح لقرابة مائة عائلة ألمانية من فرسان الهيكل (الداويّة) بالنزول في أرض حيفا وأقاموا في حيّ خاص بهم شمالي غرب المدينة كما مرّ من قبل. وبلغ عددهم أواخر القرن نحو ٨٠٠ نسمة.

دشّنت السلطات العثمانية عام ١٣٠٤هـ / ١٨٨٦م أول طريق عربات من حيفا إلى طبرية. وأصبحت حيفا عام ١٣٠٥هـ / ١٨٨٧م مركز قضاء يحمل اسمها (من أعمال لواء عكا التابع لولاية بيروت)، واقيمت البنايات الجديدة خارج السور، وامتدت إلى شواطىء البحر حيث البساتين والنخيل.

جرى في ١٨٩٢/١٢/١٩ في الطرف الشرقي للمدينة قرب وادي رشميا الاحتفال بافتتاح العمل في سكة حديد حيفا ـ دمشق (فرع الخط الحجازي). وقدم المهندس جورج جفري، مهندس المشفى الإنكليزي في حيفا، تقريره عن مبنى الإرسالية الأنغليكانية الجديد في ١٨٩٣/٦/٢٩.

بدأت السلطات العثمانية استعدادها لزيارة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني لمدينة حيفا في طريقه إلى القدس، فبنت رصيفاً على الشاطىء لرسوّ يخت الإمبراطور قرب الحيّ الألماني غربي المدينة، وتم إنشاء طريق عربات بين حيفا ويافا، وأعيد ترميم الجسور، وقد وصف حيفا في تلك الفترة إبراهيم الأسود صاحب مطبعة جريدة لبنان في كتابه «الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية» بقوله: «مدينة حيفا قائمة في سفح جبل الكرمل، موقعها يشبه بيروت، وفيها مباني طراز جديد، في مصاف مدن الدرجة الثانية في سورية، بعد أن كانت تعدّ منذ ثلاثين سنة من القرى، معظم تجارتها بالحبوب. وفيها قناصل لجميع الدول إلّا اليونان.. وفي حيفا كثير من الفنادق والمعابد لجميع الطوائف».

ووصفها عام ١٩٠٤ الأب ماري جوزيف الكرملي في مجلة «المشرق» بأنها «أصبحت مدينة عامرة يتوارد إليها الناس».

كانت حيفا مطلع هذا القرن مركزاً ثقافياً مرموقاً في فلسطين، وكان فيها عام ١٩٠١ مدرسة رشدية (حكومية) (تأسست أول مدرسة في حيفا عام ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م)، وأخرى في مسنواس للروم الأرثوذكس، وخمس مدارس أجنبية، ثلاث منها ألمانية ضمّت ٣٨٠ طالباً، واثنتان فرنسيتان. وأصبح عدد المدارس الأجنبية عام ١٩٠٣ ثماني مدارس، أربع فرنسية (إحداها لليهود ضمّت ١٥٠ طالباً) واثنتان إنكليزيتان، وواحدة ألمانية، وأخرى روسية. وفي سنة ١٩٤٢ ارتفع عدد المدارس الحكومية إلى ١٠ مدارس فيها ١,٧٥٠ طالباً، وارتفع عدد المدارس الخاصة إلى ١٨ مدرسة فيها ٤,٤٤٨ طالباً، إلى جانب المدرسة الصناعية.

ومنذ أواخر العهد العثماني والطباعة متقدمة في حيفا، إذ اشتملت المدينة على المطابع التي كانت تقوم بنشر صحف كثيرة كالصاعقة والنفير والكرمل. واشتملت المدينة أيضاً على المكتبات العامة والمتاحف والمسارح التي أوجدت جيلاً مثقفاً من السكان. وقد ساهمت الجمعيات التبشيرية في فتح المدارس والكنائس والمستشفيات والنوادي الثقافية.

تمّ في ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م الافتتاح الرسمي لخط حديد دمشق ـــ حيفا (طوله ٢٨٩ كم)، وأجريت تحسينات كبيرة في الميناء، فدخلت حيفا في عهد جديد، إذ اتصلت بدمشق وحوران وشرقي الأردن، وأصبحت ميناء تصدير إلى هذه الأقاليم، ومدخل كل ما يلزمها من أوروبا وأمريكا بدل بيروت. وقد أخذت المدينة تنمو وتتسع في عمرانها وتجارتها على حساب عكا، وزادت وارداتها الجمركية.

كان في المدينة عام ١٩٠٨ ٥ مساجد وتكايا، و ٦ كنائس، و ١٣ مدرسة و ٩ خانات، و ٩٢٨ حانوتاً، و ٤٢٣ مخزناً، و ٨ فنادق، و ٤ مستشفيات، وحمّام واحد، ومصبنتان. وتزايدت أعداد المهاجرين إلى حيفا وجوارها من اليهود الأشكنازيين (اليهود الغربيين) بعد ١٩٠٨. وفي عام ١٩١٢ بدأ بناء المعهد الفني اليهودي «التخنيون» (فتح أبوابه سنة ١٩٢٥). وكذلك بدأت شركة الاستكشاف السورية (برأسمال إنكليزي) أعمال التنقيب عن النفط عام ١٩١٣، وتمّ في العام نفسه افتتاح خط سكة حديد حيفا ـــ عكا، وبدأ الاعتماد لتمديد فرع آخر لسكة حديد الحجاز من حيفا إلى القدس عبر العفولة وجنين ونابلس.

بلغ عدد سكان حيفا حسب إحصاء ١٩١٦ نحو ١٠,٤٤٧ نسمة، وكان معظم السكان المسلمين يتجمعون في المنطقة المنخفضة من المدينة (حيفا القديمة)، وتركّز معظم المسيحيين في الجهة الغربية من حيفا، وبعضهم في الضاحية الألمانية. وتركّز اليهود في شرق المدينة، ثم بدأوا منذ أوائل العشرينات يستوطنون حيّ «هادارها كرمل» الذي يعدّ امتداداً لمنطقة هرتسليا.

وضمّت المدينة آنذاك ثلاث مدارس حكومية للذكور والإناث، وعدة مدارس أجنبية، وعشر مطاحن، و ٢٦ محركاً بخارياً لسحب المياه، ومعمل ثلج، وسبعة مصانع خشب، وأربع معاصر زيتون، ومعمل عصير عنب للألمان، ومصنع صابون للصهيونيين. وقد أقامت إدارة الخط الحديدي الحجازي مصنع آلات للخط الحجازي. وكان في حيفا مطابع الكرمل والوطنية والنفير، وصحيفة الكرمل (نصف الأسبوعية)، وصحيفة النفير (الأسبوعية).

٨ ـــ خلال الحكم البريطاني (١٩١٨ ـــ ١٩٤٨): احتل البريطانيون حيفا في ١٩١٨/٩/٢٣ بعد معركة مع بقايا الجيش العثماني التي كانت تدعمها المدفعية الألمانية المتمركزة في غابات جبل الكرمل. وقد أوصل البريطانيون في العام نفسه خط السكة الحديدية من مصر إلى حيفا فغدت المدينة بذلك عقدة مواصلات هامة داخلية وخارجية، فيها ثلاث محطات للسكة الحديدة، شرقية، ورئيسة، ومحطة الكرمل. كذلك ربط البريطانيون حيفا ببيروت وطرابلس بالسكة الحديدية. ورفع ذلك كله من شأن المدينة، ووسّع نطاق تجارتها وصناعتها، فرحل إليها تجّار الشام ومصر، وتدفق إليها آلاف العمّال.

بدأت السلطات البريطانية في عام ١٩٢٩ توسيع ميناء حيفا الصغير الذي أنشأه العثمانيون سنة ١٩٠٨، وتحويله ميناء حديثاً، وأقامت فيه المنشآت الضخمة، وجهّزته بالوسائل الحديثة. وقد أنشىء حاجزان لصدّ الأمواج، وبلغ طول الرصيف الأساسي ٤٠٠ م، وعمق غوره ٩م، وشيّد رصيف خاص ترسو بقربه ناقلات النفط. وافتتح الميناء رسمياً في ١٩٣٣/١٠/٣١، وبلغت نفقة إنشائه ١,٢٥٠,٠٠٠ جنيه فلسطيني. وقد أصبح ميناء حيفا من أكبر موانىء البحر المتوسط (الثاني بعد مرسيليا)، وفاقت المدينة يافا في التجارة، وبلغ وزن البضائع التي شحنت من ميناء حيفا سنة ١٩٣٧ ضعفي ما شحن من يافا، ووزن ما أفرغ في حيفا في العام نفسه خمسة أضعاف ما أفرغ في ميناء يافا.

نشط مطار حيفا خلال الحرب العالمية الثانية. وساعد على تقدم المدينة تأسيس عدد من الصناعات فيها أو بجوارها، كصناعة الإسمنت، وصناعة الغزل والنسيج، والمطاحن، ومعاصر الزيتون والعنب، ومصانع الثلج والخشب والصابون والآلات الصناعية للخط الحديدي الحجازي، وتجميع قطع المركبات، وانتهاء خط أنابيب شركة النفط العراقية، وبناء مصفاة النفط الكبيرة التي زوّدت جيوش الحلفاء في الشرقين الأدنى والأوسط بما تحتاج إليه من النفط خلال الحرب. وقد

أصبحت حيفا مركز العمل والعمّال في فلسطين، وأنشأ هؤلاء جمعية منظمة وصناديق توفير وجمعيات تعاونية.

قفزت حيفا بين الحربين العالميتين إلى مرتبة كبرى بين مدن الشرق الأوسط، واشتملت على الشوارع المنظمة النظيفة التي تصل بين مركز المدينة وضواحيها، وعلى المحلات التجارية والمخازن الكبيرة والمصانع والفنادق والمساجد والكنائس والمدارس والمستشفيات. وكانت مباني المدينة ترتفع في أنحاء مختلفة من حيفا فتزيد في المرتبة العمرانية لهذه المدينة. وقد خططت المنطقة الممتدة من الركن الجنوبي الشرقي من الخليج البحري حتى مدينة عكا بحيث تشتمل على مناطق فرعية ذات وظائف متخصصة. ففي الجنوب أقيمت منطقة صناعية بالقرب من الميناء، وفي الوسط أنشئت منطقة سكنية ضمّت بدءاً من عام ١٩٣٠ مجموعة مستعمرات صهيونية، مثل «قريات حاييم وقريات موتسكين وقريات يم»، وفي الشمال خصصت الأراضي للزراعة. وأهم شوارع حيفا شارع الملوك (طوله ٣ كم وعرضه ٤٠ م) ويضم معظم المؤسسات التجارية والحكومية. وفي الجهة الغربية من المدينة شاطىء الخياط ووادي الجمال والكولونية الألمانية، وفي الجهة الشرقية شارع الناصرة، فمحطة توزيع الكهرباء، وبالانحراف إلى الشمال جسر وادي رشميا، ثم الكرمل حيث الأبنية الحديثة، وعند سفحه قبر البهاء عباس أفندي وهو من الأماكن السياحية الهامة. وفي نهاية الصعود دير مار الياس (الكرمليت) والفنار. وأما البلدة القديمة، وفيها المسجد الكبير والسوق والمحلات التجارية، فقد احتفظت بطابعها الشرقي.

تطور نمو سكان حيفا من ١٠,٤٤٧ نسمة عام ١٩١٦ إلى ٢٤,٦٣٤ نسمة عام ١٩٢٢، و ٥٠,٤٨٣ نسمة عام ١٩٣١، و ٩٩,٠٩٠ نسمة عام ١٩٣٨، و ١٣٨,٣٠٠ نسمة عام ١٩٤٥.

٩ ــ في ظل الاحتلال الإسرائيلي: هبط مجموع سكان حيفا في أواخر عام ١٩٤٨ إلى ٩٧,٥٤٤ نسمة بسبب الاحتلال الإسرائيلي للمدينة وطرد السكان العرب منها، فأصبح الصهيونيون يؤلفون بعد رحيل معظم العرب ٩٦ ٪ من عدد سكان المدينة. وفي نهاية ١٩٥٠ زاد عدد سكان حيفا بفعل تدفق المهاجرين الصهيونيين للإقامة فيها فوصل إلى ١٤٠,٠٠٠ نسمة. وأخذت المدينة تنمو باطراد بعدئذ. ففي عام ١٩٥٢ كان عدد سكانها أكثر من ١٥٠,٠٠٠ نسمة، وفي عام ١٩٥٥ وصل إلى ١٥٨,٧٠٠ نسمة، ثم زاد إلى ١٨٣,٠٠٠ نسمة عام ١٩٦١، وإلى ٢٠٩,٩٠٠ نسمة عام ١٩٦٧، ووصل إلى ٢٢٥,٨٠٠ نسمة عام ١٩٧٣.

واكب تطور النمو السكاني تطور النمو العمراني للمدينة، فهي تواصل امتدادها منذ الخمسينات حتى الوقت الحاضر على طول شاطىء البحر وفوق منحدرات جبل الكرمل وقمته. وقد زادت كثافة السكان والحركة التجارية في حي «هادار هاكرمل» فأصبح مركزاً لتجارة المفرّق وللخدمات وللتسلية بعد أن التحم بقلب المدينة الذي يتحرك نحوه. وبقيت المدينة السفلى (حيفا القديمة) تمثل حيّ الأعمال المركزي بعد أن أجريت على مخططها الهندسي تعديلات كبيرة. وأخذت قمة الكرمل تستقبل جموع السكان الذين يتحركون للسكنى في الأعلى. وأنشئت مشروعات إسكان ضخمة، وظهر عدد من الضواحي الكبيرة مثل «قريات اليعزر» على الساحل، و «روميما الجنوبية» على حافة الكرمل.

وتمتدّ المنطقة الصناعية فوق الأراضي الرملية المحاذية للخليج البحري حتى مدينة عكا، وتعد مدينة الصلب أهم مرافق المنطقة الصناعية. وتمتد الأحياء السكنية إلى الشرق من الخليج فوق قمم ومنحدرات الكرمل، ويتخلّل هذه المباني السكنية متنزهات وأشجار ترصّع الأودية والخوانق والجروف. وأما حيفا القديمة (السفلى) فتتوسع نحو الغرب والجنوب إلى منطقة ساحل الكرمل. فحيفا مدينة متطورة تمتد حالياً فوق الجانب الشمالي الغربي لجبل الكرمل، وفوق الحافة الشمالية لساحل الكرمل، وعلى الشريط الساحلي المحاذي للمنحدر الشمالي للكرمل. ويتوسع العمران أيضاً نحو الطرف الجنوبي لخليج عكا. ونتج عن هذا التوسع زيادة مساحة المدينة من ٥٤ كم^{2} قبل عام ١٩٤٨ إلى ١٨١ كم^{2} في عام ١٩٨٠.

التركيب الوظيفي

تمارس حيفا وظائف كثيرة منذ مطلع القرن الحالي أهمها:

١ ــ الوظيفة التجارية: ارتبطت الوظيفة التجارية بأهمية الموقع الجغرافي لحيفا بالنسبة إلى إقليمها الخاص، أو الأقاليم البعيدة. وتتصل المدينة بما حولها بأكثر من وسيلة للمواصلات، وترتبط شبكة شوارعها الداخلية المنظمة بشبكة الطرق والسكك الحديدية الخارجية. ويظهر أثر ذلك في زيادة حركة ميناء حيفا وازدهار الحركة التجارية للمدينة. وقد ساهم فرع خط سكة حديد الحجاز دمشق ــ حيفا في إجراء تحسينات كبيرة في الميناء فدخلت حيفا في عهد جديد وأصبح ميناؤها وسيلة لنقل البضائع المستوردة من الخارج إلى كثير من أجزاء فلسطين والأردن وسورية. وكذلك ساهم الميناء في تصدير كثير من منتجات فلسطين والأقطار العربية المجاورة، كالحمضيات، والقمح والنفط، إلى الخارج.

ويتصدّر ميناء حيفا جميع الموانىء الفلسطينية لأهمية موقعه وموضعه من جهة، ولكثافة الحركة التجارية المرتفعة فيه. ففي عام ١٩٣٦ مثلاً استورد عن طريق ميناء حيفا ٧٥٦,٧٢٢ طناً من البضائع مقابل ١,١٦٤,٠٢٨ طنّاً من الصادرات. وتدرّ الواردات والصادرات على الميناء عائدات كبيرة وصلت قيمتها في عام ١٩٣٩ إلى نحو ٧,٨ مليون جنيه فلسطيني من الواردات ونحو ٢,٩ مليون جنيه فلسطيني من الصادرات. ويعجّ الميناء بحركة دائبة للسفن التجارية. وقد وصل أعلى رقم لعدد السفن الداخلة إلى الميناء في عام ١٩٤٢ نحو ٨,٠٠٠ سفينة ومثل هذا العدد للسفن الخارجة منه ويبلغ مجموع حمولة كل من الداخلة والخارجة ١,٤ مليون طنّ.

جذبت حيفا التجار من بعض المدن الفلسطينية والسورية والمصرية للعمل فيها. وشيّدت المحلات التجارية التي تزين الشوارع الرئيسة والساحات الكبرى في المدينة، مثل شوارع اللنبي وستانتون واللورد بلومر، وساحة الخمرة وساحة الجرينة. وأقيمت الأسواق التجارية التي تعرض فيها مختلف السلع كالسوق الأبيض وسوق الشوام وغيرهما. وكانت أسواق حيفا ملتقى كثير من سكان القرى العربية المحيطة بالمدينة يعرضون فيها منتجاتهم ويشترون ما يلزمهم منها. وتغيّر الوضع بعد عام ١٩٤٨ فأصبحت حيفا مركزاً تسويقياً للمستعمرات الصهيونية المجاورة.

قامت (إسرائيل) بعد عام ١٩٤٨ بتطوير ميناء حيفا، فتضاعف عدد الأرصفة والمنشآت فيه، وغدت المخازن تستوعب ٧٥,٠٠٠ طن. وفي عام ١٩٥٤ أنشىء ميناء آخر متمم لميناء حيفا عند مصب نهر المقطّع. وقد أجريت عليه تحسينات فأصبح يضم في عام ١٩٦٤ حوضاً لبناء وإصلاح السفن، ورصيفاً عائماً، ومرسى لسفن الصيد. ومنذ أن منعت سلطات الاحتلال البواخر التجارية من الرسوّ في ميناء يافا عام ١٩٦٥ أصبح ميناء حيفا أكبر موانىء الأرض المحتلة. وزادت حركة العمل فيه فأصبحت تعادل نحو ٥٦ ٪ من مجموع حركة العمل في الموانىء.

بلغ مجموع السفن التي دخلت ميناء حيفا عام ١٩٥١ ــ عدا ناقلات النفط ــ ١,١٦٨ سفينة، في حين كان مجموع السفن التي دخلت موانىء فلسطين المحتلة تلك السنة ١,٣٧٠ سفينة. وفي عام ١٩٦٧ دخلت هذه الموانىء ٢,٣٧٢ سفينة منها ١,٥٤٥ سفينة دخلت ميناء حيفا. وفي عام ١٩٦٥ سجّل ميناء حيفا رقماً قياسياً في عدد المسافرين عن طريقه إذ وصل إلى نحو ربع مليون مسافر.

٢ ــ الوظيفة الصناعية: بدأت حيفا تعيش نهضة صناعية منذ الثلاثينات حين أقامت إدارة المعارف في المدينة عام ١٩٣٦ مدرسة صناعية تعلّم عدداً من الحرف الفنيّة كالنجارة والبرادة والحدادة وإصلاح السيارات وغيرها. وقد تخرجت من هذه المدرسة مجموعات صناعية خبيرة، وبلغ عدد طلبتها عام ١٩٤٦/٤٥ نحو ٦٩ طالباً.

وأنشئت في حيفا النقابات والجمعيات التعاونية التي ضمّت أصحاب المهن. وقد استوعبت مصفاة شركة التكرير المتحدة كثيراً من العمّال. وعمل آلاف العمّال في قطاع النقل

والمواصلات، ولا سيما في أعمال الميناء والسكك الحديدية والشاحنات.

تطورت الصناعة في حيفا بعد عام ١٩٤٨ واستمرت في توسعها، ولا سيّما داخل المنطقة الصناعية قرب الخليج البحري. وفي حيفا حالياً مصنعان لإنتاج وتجميع السيارات، ومصانع لإنتاج المواد الكيمائية والبتروكيميائية والأسمدة العضوية المستخلصة من النفايات ومياه المجاري المنقاة. وفيها مركز صناعي لصناعة الطائرات، ومعهد التخنيون الذي يشرف على تخريج الخبرات الفنّية عامة والصناعية خاصة. وتشتمل حيفا على مكاتب شركة السكك الحديدية التابعة للصهيونيين. وفيها شركة كهرباء، وشركة سولل بونيه للمقاولات، وشركة زيم للملاحة، وشركات أخرى. وتساهم منطقة الميناء بتوفير عمل لنحو عُشر سكان المدينة، وتساهم الصناعات في إيجاد فرص عمل للكثير من العمّال.

٣ ــ **الوظيفة الإدارية**: اصبحت حيفا مركزاً لقضاء حيفا منذ أواخر القرن التاسع عشر عندما تمّ تعيين «قائمقام» للقضاء. وتألف قضاء حيفا عام ١٨٩٩م من مدينة حيفا وناحية قيسارية و ٦٢ قرية. وفي أثناء الحرب العالمية الأولى كان قضاء حيفا يتألف من ٣ نواح و ٨٤ قرية. وفي عام ١٩٤٥ ضمّ القضاء ٥٢ قرية و ١٤ عشيرة. بلغت مساحة القضاء آنذاك ١,٠٣١ كم^2 امتلك الصهيونيون منها ٣٦٤ كم^2، أي ٣٥,٣ ٪ من مجموع مساحة القضاء. وبلغ مجموع سكان القضاء ٢٢٤,٦٣٠ نسمة، منهم ١٠٤,٥١٠ صهيونيين، اي أن نسبة الصهيونيين في أواخر عهد الانتداب كانت ٤٦,٥ ٪ من مجموع سكان القضاء. وقد احتفظت حيفا بعد الاحتلال الصهيوني بمكانتها كمركز إداري لمقاطعة حيفا التي أصبح معظم سكانها صهيونيين بعد طرد سكانها الأصليين منها.

٤ ــ **الوظيفة الزراعية**: تعدّ هذه الوظيفة ثانوية بالنسبة إلى وظائف حيفا الأخرى، فالمدينة تجارية وصناعية أساساً بالرغم من أنها تمتد في وسط زراعي يتفاوت في خصائصه بين الزراعة الجبلية والسهلية. وتشغل الغابات الطبيعية مساحة واسعة من الأرض الزراعية حول حيفا، وبخاصة فوق جبل الكرمل. ولا شك في أن وجود الغابات الجبلية المطلّة على شاطىء البحر المتوسط يجعل من منطقة حيفا بيئة سياحية جاذبة.

وفي عام ١٩٤٣ بلغ مجموع إنتاج قرى قضاء حيفا العربية من القمح ٤,٣٩٢ طنّاً، في حين أنتجت المستعمرات الصهيونية في القضاء ٤,٣٩٢ طنّاً. وقد أنتجت هذه القرى العربية في ذلك العام من الزيتون ٣,٩٠٠ طن، ومن الخضر ١٣,٣١٠ أطنان، ومن الفواكه، عدا الحمضيات، ٤٣٦ طنّاً.

وتسود حالياً في حيفا زراعة الأشجار بالإضافة إلى الخضر التي تجد سوقاً رائجة لها في مدينة حيفا. ●

المراجع:

- محمد عدنان بخيت: حيفا في العهد العثماني الأول، دمشق ١٩٧٨.
- الأب ماري جوزيف الكرملي: حيفا، ماضيها ومستقبلها، كانون الثاني ١٩٠٤.
- رفيق التميمي ومحمد بهجة: ولاية بيروت، القسم الجنوبي، بيروت ١٩٧٩.
- مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، ج ٧، ق ٢، بيروت ١٩٧٤.
- سعيد حمادة: النظام الاقتصادي في فلسطين، بيروت ١٩٣٩.
- ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت ١٩٥٧.
- ابن شدّاد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، دمشق ١٩٦٣.
- العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، القاهرة ١٩٦٥.
- الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، روما ١٩٧٤.
- ناصر خسرو: سفرنامة (مترجم)، بيروت ١٩٧٠.
- أحمد الخالدي الصفدي: تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، بيروت ١٩٦٩.
- ميخائيل نقولا الصبّاغ العكاوي: تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني، حريصا، لبنان.
- خريطة فلسطين: مقياس ١: ٥٠,٠٠٠، لوحة حيفا.
- Archdeacon Dowling: The Town of Haifa, 1914.

□ نقلاً عن الموسوعة الفلسطينية الجزء الثاني ١٩٨٤.

دائـرة المعارف

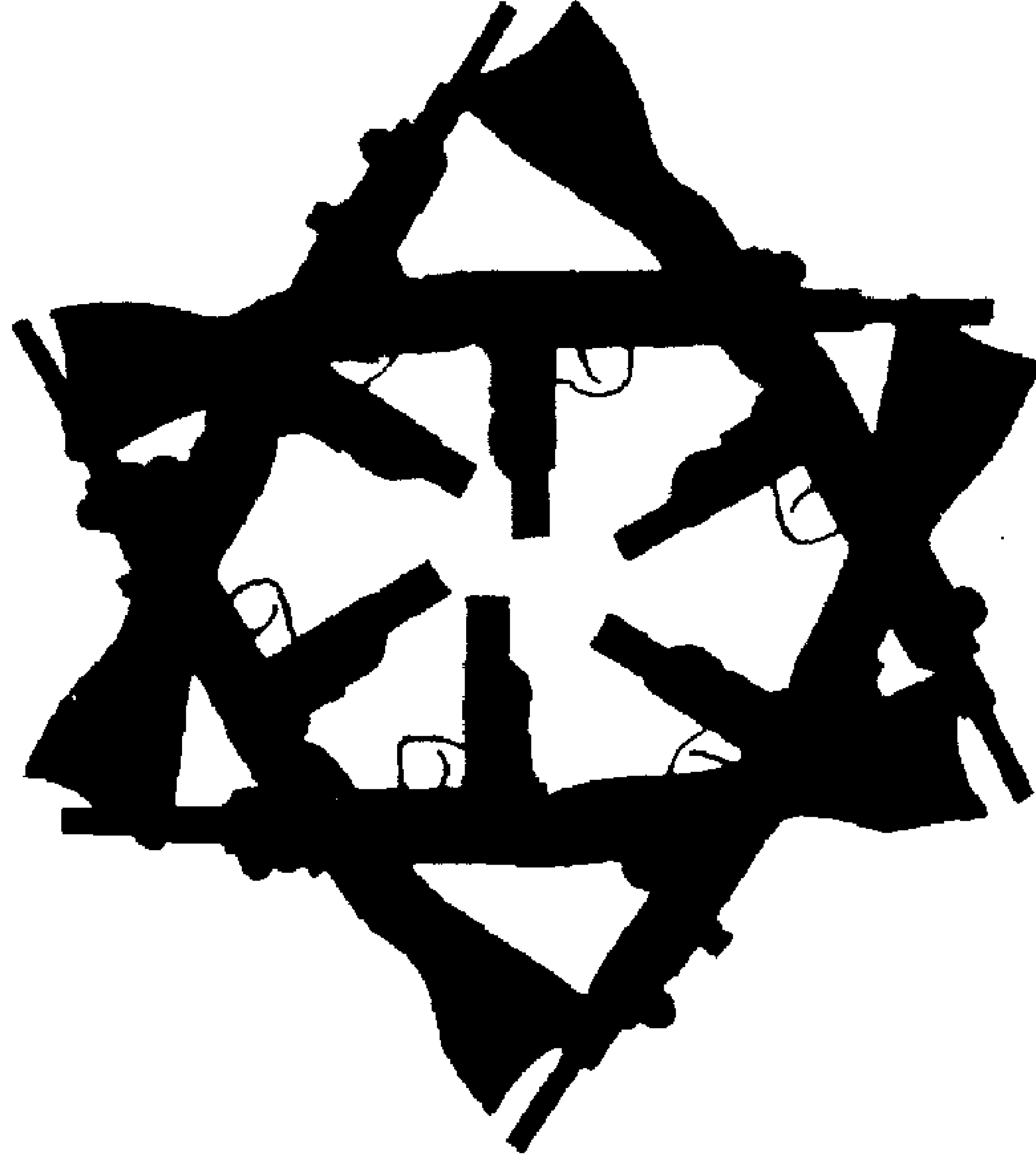
بروتوكولات حكماء صهيون

● من أشهر وأخطر المطبوعات المعادية لليهودية. وقد نشرها أولاً باللغة الروسية سيرجي نيلوس احد الموظفين الروس في عام ١٩٠٥ (وهناك إحدى النسخ الأصلية منها في المتحف البريطاني) مدعياً أنه استلم المخطوطة في عام ١٩٠١ من صديق له حصل عليها من امرأة سرقتها من أحد أقطاب الماسونية في فرنسا. وتضم دروساً ألقيت على التلامذة اليهود في باريس بعبارات تقطر سماً وحقداً ضد الأغيار (والأغيار هم الغوييم عند اليهود أي الأقوام الأخرى غير اليهود)، وتضع الخطط للتغلب عليهم والسيطرة على العالم. ومن هنا جاءت فكرة «المؤامرة اليهودية العالمية» التي ارتبط ذكرها بالبروتوكولات. ويكشف الكتاب عن تأثر كاتبه الواضح بالفكر العنصري للقرن التاسع عشر، ون ذلك التأكيد على سنن الطبيعة والقوة بدلاً من الحق، وعلى معاداة الثورة الفرنسية ومبادىء الحرية والمساواة والإخاء، والنيل من مكانة المرأة ومن دور الرأسمال والصناعة الحديثة.

ويؤكد الكاتب أن السياسة لا تخضع للأخلاق، وأن على اليهود أن يستعملوا الحيلة والدهاء والنفاق ويستغلوا الحريات العامة وإمكانات النقد لتقويض كيان الدول، ويسعوا لإيقاعها في الحروب على ألا تؤدي هذه الحروب إلى تعديلات في حدود الدول أو إلى مكاسب إقليمية ليتمكن رأس المال فقط من الخروج بالغنائم. وينبغي تركيز المنافسة في المجتمع ليجري الجميع نحو بريق الذهب، ويصبح الدين والسياسة مهزلتين ويسود رأس المال كل شيء.

وقد اكتسح الكتاب، لعدة سنوات، الفكر في أوروبا حتى قيل: إنه أصبح كتاب رائج في العالم بعد الكتاب المقدس. كما أنه ترجم إلى العربية وأثر في عقول بعض الناس ردحاً من الزمن. ولا شك أن أفكار الكتاب أصابت الأوساط الأوروبية المحافظة في الصميم فوجدت فيه تفسيراً لكثير من المظاهر السياسية والاجتماعية والأخلاقية الحديثة التي أرعبتها. ولكن مراسل جريدة التايمس اللندنية في استانبول أعلن في عام ١٩٢١ أن الوثيقة مزورة من أولها إلى آخرها، فقد عثر على أصلها في كتاب فرنسي جاء به مهاجر روسي اشتراه من ضابط سابق في الأوخرانا (الشرطة السياسية القيصرية). وكان الكتاب المذكور يحمل مكان النشر في جنيف وتاريخه ١٥/١٠/١٨٦٤، ونفد من الأسواق منذ سنين طويلة، وتضمن هجوماً مستتراً على حكم نابليون الثالث بشكل ٢٥ حواراً بين مونتيسكيو ومكيافيلي، وعنوان الكتاب: «حوار في الجحيم بين مكيافيلي ومونتيسكيو، أو سياسة مكيافيلي في القرن التاسع عشر، بقلم: معاصر».

وأدى نشر هذا الكتاب إلى سجن المؤلف المحامي موريس جولي. ووجدت نسخة منه في المتحف البريطاني. ولدى مقابلة الكتابين تبين أن بروتوكولات حكماء صهيون لم تتأثر فقط بالمطبوع الفرنسي، وإنما تضمنت اقتباسات منه بالنص تقريباً. وبمزيد من التحقيق بدت البروتوكولات وكأنها من أشهر التزويرات السياسية في التاريخ. وقد أسند المؤرخ الروسي فلاديمير برستيف نشرها إلى إيعاز من الشرطة السياسية الروسية للنيل من الحركات الثورية والليبرالية وأفكار الثورة الفرنسية، ولمّ الشعب حول القيصر والأرستقراطية والكنيسة. ولا شك أن تركيز البروتوكولات على هذه العناصر يؤيد الانطباع.



وبالنظر للسمعة الشائنة التي اكتسبتها هـذه البروتوكولات فقد استفاد الصهيونيون من ذلك بإرجاع أي نقد ضدهم إلى الوقوع في حبائل البروتوكولات. ويعتبر التعامل بالبروتوكولات أو الاستشهاد بها في الغرب الآن دليلاً على معاداة السامية.

وقد لوحظ أن تصرفات الصهيونية و (إسرائيل) جاءت مصداقاً لما أوردته البروتوكولات من أفكار وتوقعات، ومن ذلك الارتباط الأخطبوطي للكيان الصهيوني بالكيانات اليهودية عبر العالم، مما يعطي صدى لفكرة الأفعى الرمزية التي يتردد ذكرها في البروتوكولات بجسمها وذنبها الممتد حول العالم ورأسها المستقر في (إسرائيل). ومنها أيضاً التأكيد على الصحافة وسيطرة اليهود عليها، واستخدام المال والإعلام والعلم في التأثير على الدول، والاعتماد على أي أسلوب مهما كان غير أخلاقي كالرشوة والفساد والمرأة والغش والإرهاب، ومنها أن على الدولة اليهودية ــ كما تقول البروتوكولات ــ أن تعتمد على العنف والرياء، وعلى اليهود أن يستغلوا الخلافات بين الدول ويبسطوا نفوذهم عليها ولا يتركوا اتفاقاً يتم دون أن يكون لهم ضلـع فيه.

ولئن لاح كل ذلك لبعض الباحثين دليلاً على دقة الملاحظة والإحساس وسعة النظر مما يمتاز به المزوّرون عموماً فإن باحثين آخرين وجدوه برهاناً على صحة البروتوكولات وتطبيقاً مخيفاً لوصايا حكماء صهيون في عودة رأس الأفعى إلى القدس (تأسيس إسرائيل) بعد إصابة أوروبا بالدمار والخراب. ومما يلفت النظر تزامن الوثيقة مـع المؤتمر الصهيوني الأول. ●

المـــراجـــع:

— The Jewish Peril: **Protocols of the Elders of Zion,** London 1920.
— Cohn, N. : **Warrant for Genocide,** London 1961.
— **The Times,** 17 and 18 Aug. 1921.

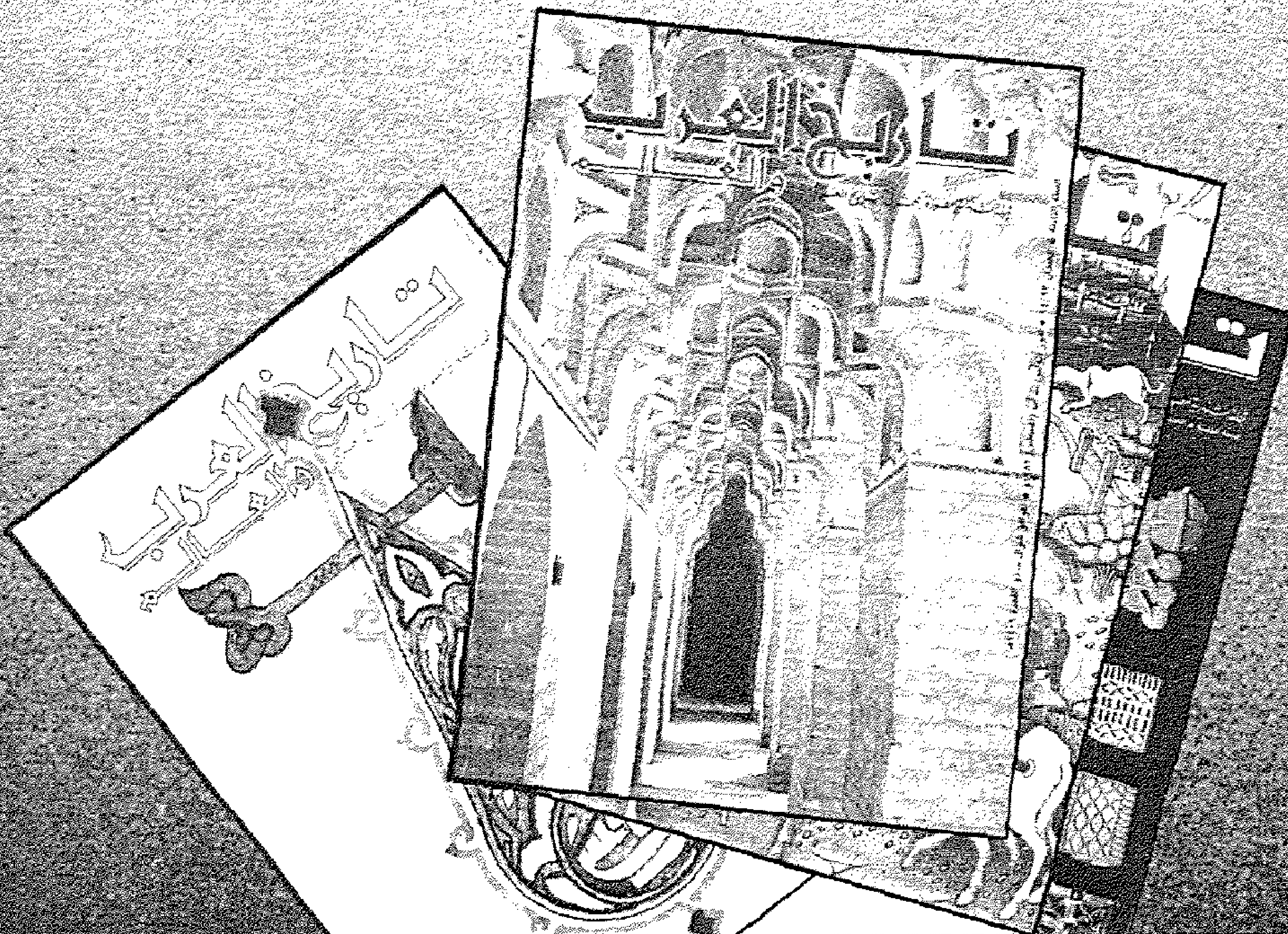


تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير



الاشتراكات

- في لبنان .... ١٥ دولار
- للأفراد في الوطن العربي .... ٣٥ دولاراً
- للأفراد في دول العالم الأخرى ...... ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في الوطن العربي .... ٧٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية خارج الوطن العربي .... ١٠٠ دولار

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

بناية ابو هليل - شارع السادات - بيروت - لبنان - ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣

ARISTOTELIS STAGIRITAE,

PERIPATETICORUM PRINCIPIS DE ANIMA LIBER PRIMUS.

cum Auerrois Cordubensis Commentarijs.

SUMMAE LIBRI.

In Prima proponitur nobilitas, ac difficultas scientiae ipsius Animae.

In Secunda Antiquorum narrantur opiniones de Animae essentia.

In Tertia eadē confutantur opiniones: Adducunturq; nonnullae circa Animae naturam quaestiones.

Summae Primae Caput Primum. *Quas ob res Animae cognitio & nobilis sit, & difficilis.*

Bonorum, & honorabilium notitiam opinantes, magis autem alteram altera, aut secundum certitudinē, aut ex eo quòd & meliorum, & mirabiliorū est: ꝓpter vtraque haec animae historiam rōnabiliter vtiq; in primis ponemus.

Vide aliorum [illegible]

Quoniam de rebus honorabilibus est scire aliquid de rebus, quae differunt abinuicē, aut in subtilitate, aut qa sunt cognitae per res digniores, & nobiliores, necessariū est propter haec duo ponere narrationem de anima positione praecedenti.

1 Intendit per subtilitatem confirmationem demonstrationis. Et intendit per hoc, quod dixit aut quia sunt cognitae per res digniores & nobiliores, nobilitatem subiecti. Artes enim non differunt abinuicē, nisi altero istorum duorum modorum, s. aut confirmatione demonstrationis, aut nobilitate subiecti, aut vtroq; v.g. quoniam Geometria excedit Astrologiam per confirmationem demonstrationis. Astrologia autem excedit illam nobilitate subiecti. Et dixit, necessarium est propter haec duo, &c. idest necessarium est, quia haec duo inueniuntur in historia de anima, vt procedat sermo de ea ante alias scientias. Et manifestum est considerantibus: quoniam subiectum huius scientiae est nobilius alijs: & similiter demōstratio eius est magis firma. Et incepit sermonem [illegible] Qm̄ de rebus, &c. inducendo hoīes ad amorē [illegible], & sermo eius est in forma syllogismi categorici. & qū dicit &, qa nos opinamur q cognitio est de rebus honorabilibus, & delectabilibus, & q scientiae superant se adinuicem, aut propter cōfirmationem demonstrationis, aut propter nobilitatem subiecti, aut propter vtrunq; sicut inuenimus in scientia de anima, scilicet quia superat in his duobus alias scientias, praeter scientiam Diuinam: necessarium est opinari q scientia animae antecedit alias scientias: & ideo posuimus eam inter omnia quaesita positione praecedenti.

[illegible]

Videtur autem & ad veritatem omnē cognitio ipsius multum conferre: maxime autem ad naturam. est enim tanquam principium animalium.

Et nos videmus etiam quòd cognoscere eam adiuuat magno iuuamento in omni veritate: & maxime in natura: est eni quasi* principium animalium.

* a.l. quodam.

2 Cùm demōstrauit causam, propter quam debet esse haec scientia magis honorabilis, & praecedēs alias scientias nobilitate, incepit etiam demonstrare vtilitatem huius scientiae, dicendo Et nos videmus etiam quòd cognitio, &c. Et intendit per omnem veritatē scientias speculatiuas, & intendit per hoc, quod dixit & maxime in natura, i. & maxime in scientia Naturali. Deinde dedit causam, propter quā magis adiuuat Naturalē scientiam q̄ aliam, dicendo est.n.* quasi principium animalium. i. & causa 1 hoc est, quia cognoscere de animalibus est maxima cognitio partium naturalium: & anima est principium aīalium. vnde necessarium est vt scire de aīa sit necessarium in cognitione animaliū, non tantum vtile. Et debes scire q iuuamentum scientiae animę ad alias scientias inuenitur tribus modis. Quorum vnus est sm q est pars illius scientiae: immo nobilissima partium eius, sicut habet dispositionem cum scīa Naturali. Aīalia.n. sunt nobilissima corporum gñabilium, et corruptibilium, anima autē est nobilius omnibus, quae sunt in animalibus. Secundus est, quia dat pluribus scientijs plura principia: vt scientiae Morali, s. regendi ciuitates, & Diuinae. Moralis enim suscipit ab hac scīa vltimum finem hominis, in eo q est homo, & scientiam suae substantiae, quae sit. Diuinus autem suscipit ab ea substantiam subiecti sui. hic enim declarabitur, qm̄ formae abstractae sunt *intelligentiae, & alia multa de cognitione dispositionum consequentium intelligentiam, in eo q est intelligentia, & intellectus. Tertius vero est commune iuuamentum: & est facere acquirere confirmationem in primis principijs. quoniam ex ea acquiritur cognitio causarum primarū propositionum, & cognitio alicuius per suam causam est magis firma, quàm sui esse tantum.

* a.l. [illegible]

Decem. [illegible] Iuuamentum sciae aīae ad alias scias inuenit tribus modis.

[illegible]

* a.l. intelligentiae.

Quęrimus autem contemplari, & cognoscere naturam ipsius, & substantiam: postea quaecunq; accidunt circa ipsam: quorum alia quidem propriae passiones videntur, alia aūt cōmunes, & animalibus propter illam inesse.

Et quaesitum est scire naturam, & substantiam eius: postea autem oīa, quae accidunt ei. & existimatum est q horum accidentiū quaedam sunt passiones propriae animae, & quaedam accidunt corpori propter animam.

3 Cùm demonstrauit vtilitatem huius scientiae, incepit demonstrare intentionem suam dicendo. Et quaesitum est, &c. i. & illud, quod quaerendū est in hac scīa, & perscrutandum, est [illegible] naturam, i. substantiam eius. deinde scire oīa contingentia ei: sicut est de alijs* cōsyderandis in scīa Naturali. *Cognitio.n. cuiuslibet generis, & ipsi nō complebitur nisi per cognitionem

* Cognitio [illegible]

□ صفحة من الترجمة اللاتينية لرسالة أرسطو في النفس وشرح ابن رشد لها.
من كتاب عبقرية الحضارة العربية.